

منتدى مكتبة الاسكندرية

الاحياء والاموات



قسطنطين سيمونوف الاحياء والاموات

ثلاثية

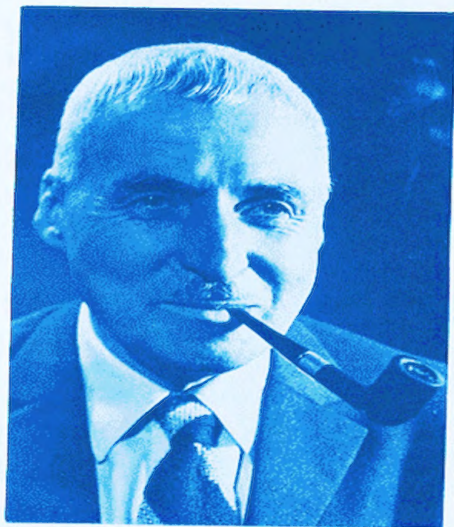
الكتاب الاول

الاحياء والاموات

ترجمة خيرى الضامن



دار «رادوغان»
موسكو



كلمة المؤلف

هذا الكتاب يتحدث عن عام لعله اقصى وافجع الاعوام في تاريخ بلادي .
انه عام ١٩٤١ الذي تقرر فيه مصير البشرية جمعاء، فضلا عن مصير وطني .
غفى ذلك العام تقررت مسألة ما اذا كانت الفاشية التي غزت كل اوروبا
تقريبا ستواصل السير على طريقها نحو السيطرة العالمية ام اننا ستأخذ بخناقها
ونوقفها . نوقتها في البداية، ثم نعلمها... تقررت هذه المسألة صيف
وشريف وشتاء عام ١٩٤١ في ارض وطني الذي عانى الأمرين، في غابات
بيلوروسيا، في حقول سوليسك، في نواحي موسكو الملقة بالثلوج . وشهد عام
١٩٤١ اياما وساعات كانت موسكو تسمع فيها هدير المدافع الالمانية . ان
عشرات الآلاف من سكان موسكو الذين يتوجهون الآن في الأحاد للترعة والجبيلات
في جادة لينينغرادسكوييه بشواحي موسكو تمر قرب المكان الذي وصلت اليه اولي
دبابات المقدمة الالمانية في زحفها نحو العاصمة . وذلك موضع قريب جدا من
موسكو، انه قاب قوسين او ادنى . ولا يستغرق الطريق منه حتى مركز المدينة
بالسيارة اكثر من نصف ساعة .

من سوء حظنا ان هذه الحرب داهمتنا على حين غرة . وفي شهورها الاولى
تكبدنا خسائر جسيمة وقتل ملايين المواطنين . وكانت عواصم كثيرة في العالم
قد اعتبرتنا آنذاك من الهالكين . وكانوا في تلك المواسم يتصورون ان ساعات
بلد الاشتراكية مهددة . بيد ان شعبنا كان مؤمنا بالنصر، والامر الاهم انه لم
يؤمن بذلك النصر فحسب، بل يذل قصارى الجهود وحقق المستحيل من اجل
وقت الفاشيين ومن اجل اقامة عوائق لا تقلل على طريقهم، ومن اجل استجماع
القوى وارغامهم في آخر العنطاف على العودة على اعقابهم بعيدا عن موسكو . وبعد
سنة شهور من بداية الحرب طردناهم بعيدا عن موسكو، وكان ذلك اول نصر
كبير لنا في الحرب تحقق بمعركة موسكو في كانون الاول ١٩٤١...

К. Симонов
ЖИВЫЕ И МЕРТВЫЕ

Трилогия
Книга первая
Живые и мертвые
На арабском языке

© الترجمة الى اللغة العربية - دار «رادوناف»، الطبعة الاولى، ١٩٨٥
طبع في الاتحاد السوفيتي

C 4702010200-498 415-82
031 (05) -85

ISBN 5-05-000565-5

يستند هذا الكتاب الى ذاكرتي، ذاكرة انسان شاعده هذه الحرب من بدايتها حتى نهايتها . وانا انوى الكتابة عن كل ما رأيته حتى سقوط برلين، ولكن يجب ان ابدأ من البداية، وان كان تذكر تلك البداية يثير الشجون والاحزان . عنوت كتابي «بالاحياء والاموات» لان النصر في هذه الحرب ضد الفاشية حققه ليس فقط اولئك الذين وصلوا احياء الى برلين، بل ولولئك الذين ضحوا بحياتهم في هذه الحرب القفطية، اولئك الذين سالوا، بيسألهم وصمودهم، دون ان تتحول هزائنا في عام ١٩٤١ الى كارثة ماحقة .

التي اتذكر هؤلاء الناس ولن انساهم ابدا . وكل اهل، ككتاب، ان يشر القارئ، وهو يتم مطالعة هذا الكتاب، بنفس الشعور الذي اكنه انا لهم . كان في تلك الحرب، جناء ايضا، وهم موجودون في كتابي كذلك . ويقول البث الروسي: لا تكتمل الاغنية اذا حذفت منها كلمة . ولكنه لئن كان الناس الذين يتحلون بالشرف والكرامة والواجب يظلون في ذاكرتي وبعين احياء حتى بعد موته، فان السفلة والجناء اموات بالنسبة الي حتى وان ظلوا على قيد الحياة . هذه النظرة الى الاشياء ذات صلة ايضا بعنوان كتابي .

وأخر ما اريد ذكره هو اني الفت كتابي هذا بشعور من الاحترام العميق لبسالة الناس في الحرب وبشعور من الاستهجان الشديد للحرب نفسها . واعتقد باننا نحن البشر، لا يحق لنا ان نسمح باندلاع حرب جديدة، واننا نحن البشر، قادرون على الحيلولة دون اندلاعها .

قسطنطين سيمونوف

١٩٦٢/٥/١٧

الفصل الاول

كان اليوم الاول من الحرب مفاجأة تامة لعائلة سيتسوف كما لبلايين البوائل الاخرى . فقد بدا وكأن الجميع يتوقعون الحرب من زمان، ولكنها مع ذلك بانفهم في اللحظة الاخيرة كما يتهايل الثلج على الرؤوس . ولعل الانسان عاجز عموما عن الاستعداد مسبقا لمثل هذه المصيبة الهائلة . عرف سيتسوف وماشا نبيأ اندلاع الحرب وهما في الساحة الصغيرة الساخنة قرب محطة القطار في سيمفروبول . كانا قد غادرا القطار توا ووقفا في الساحة قرب سيارة مكشوفة قديمة من طراز «لينكولن» في انتظار ركاب آخرين يستقلون السيارة مما الى المنح العسكري في غورزوف . كانا يتحدثان مع السائق ويسألانه عما اذا كانت توجد في السوق فاكهة ومطاعم، وعند ذلك قطع سيمفيرا الراديو الذي اعلن بصوت ابح اجتاح الساحة كلها بان الحرب بدأت، وعند ذلك انقسمت الحياة في الحال الى قسمين لا رابط بينهما: ما كان قبل لحظة، قبل الحرب، وما هو الآن .

حمل سيتسوف وماشا حقيبتيهما الى اقرب محطة . وجلستا ماشا فتدلى رأسها وغاص بين راحتيها، وظلت جامدة على تلك الحال دون حراك . اما سيتسوف فلم يسألها عن شيء، بل توجه الى القوتستان العسكري ليحجز مكانين في اول قطار عاته . وتعين عليها الآن ان يقلعا طريق العودة كله من سيمفروبول الى غرودنو حيث يعمل المرشد السياسي سيتسوف، منذ سنة ونصف سكرتريا لهيئة تحرير الجريدة العسكرية . كانت الحرب بالطبع مصيبة للجميع . واضيفت اليها مصيبة عائلية اخرى . فان سيتسوف وزوجته ماشا كانا هنا في سيمفروبول على بعد الف كيلومتر عن الحرب، بينما ظلت ابنتهما البالغة من العمر عاما واحدا هناك، في غرودنو، على مقربة من الحرب . انها هناك، وهما هناك، وما من قوة بقيادة على ايصالهما اليها قبل اربعة ايام لباليها .

حاول سيستوف وهو في طابور مراجعي القوسدان العسكري ان يتصور ما يجري الآن في غرودنو. «الهدنة قريبة جداً، جداً، من الحدود. وسلاح الجو سلاح الجو هو الاخطر... صحيح انهم يتقنون الاطلاق فوراً من امثال هذه الاماكن...». وشيئاً ذهت بهذه الفكرة. وبغيل اليه انها يمكن ان تهدئ من روع ماشا.

عاد الى زوجته ليقول لها ان كل شيء على ما يرام، وان القطار سيحرك عائداً في الثانية عشرة للاً. رفعت رأسها وتطلعت اليه بنظرة زائغة وكأنه غريب عليها.

— ماذا على ما يرام؟

— اعني ان مسألة البلقانين على ما يرام.

— طيب— قالت ماشا بلا مبالاة، وهبطت رأسها من جديد على راحتها. لم يكن بوسمها ان تخطر نفسها لانها سافرت وتركت ابنتها هناك. فطت ذلك بعد محاولات عديدة بذلتها امها لاتناعها بالفر. فقد وصلت الام الى غرودنو خصباً لكي تتمكن ماشا وسيستوف من الفر معاً الى المصح. وحاول سيستوف نفسه ان يقنع ماشا بالفر، حتى انه زلع عندما رفعت بصرها اليه متسائلة في يوم الرحيل: وهل من الضروري ان اسافر معك؟. ولو لم تنزل عند رغبتهما اذذاك لكانت الآن في غرودنو. لم تكن فكرة وجودها هناك تريعبها، فان ما يزعجها هو عدم وجودها هناك. استولى عليها شعور بالذنب ازاء الطفلة التي تركتها في غرودنو، حتى انها لم تدر تفكر بزيورها.

وقالت له ذلك بنفسها وبالفراسة المبهودة عنها. فقال لها سيستوف: — ما الداعي لتفكيرك بما سيحدث لي؟ كل شيء، على العموم، سيكون على ما يرام.

كانت ماشا تغضب كل مرة عندما يتكلم سيستوف بهذا الشكل، فهو يقول بدون اي سبب كلمات مهددة لا معنى لها. فليس بالامكان تهدئتها الآن، وقالت له: — كفك هذا! ما الذي سيكون على ما يرام؟ وماذا تعرف انت؟—

ارتفعت شفتاها من القبط. — لم يكن لي حق بالفر! هل انت قاهم؟ لم يكن لي حق! كررت قولها وضربت على ركبتيها بشدة بقبضتها المقسومة. عندما استقلا القطار لاذت بالحنين ولم تدر تؤنب نفسها، وراحت تحجب على جميع اسئلة سيستوف بهنهم وهلاه. وعلى طول الطريق الى موسكو ظلت ماشا ساردة شاردة البال: احسنت الشئ بصورة ارادية وتطلعت بصمت الى النافذة، ثم رفدت على سريرها العلوي وظلت راقدة ساعات طويلة ووجهها الى الجدار.

كان الجميع يتحدثون عن الحرب وحدها. اما ماشا فكانها لم تكن تسمع ما يقولون. لقد ثار في دخلتها غليان باطنى شديد ليس بوسمها ان تسمع لاحد، حتى لسيستوف، بالشاركة فيه.

وحالما توقف القطار في سيروبوف بفسواي موسكو نطقت بكلماتها الاولى الطريق الطويل فقالت لسيستوف:

— فلنخرج لتنتشى قليلاً...

هيطا من العربة فامسكت بكوعه.

— اسمع، لقد فهمت الآن لماذا لم افكر بك تقريبا منذ البداية: سوف نمر على تانيا وستينج مع امي، وسأظل انا معك في الجيش.

— هل انت مصممة؟

— نعم.

— ماذا لو دعت الحاجة الى تغيير هذا الرأي؟

هزت رأسها بالثبات صامتة.

فقال لها سيستوف وهو يحاول ضبط اعصابه بان من اللازم التفريق بين المسألتين: مسألة الثور على تانيا ومسألة الالتحاق او عدم الالتحاق بالجيش...

— لن افرق بينهما! — قاطعت ماشا.

ولكنه واصل توضيحاته باصرار واكد بان من الحكمة ان يتوجه هو الى مكان غدت في غرودنو وان تظل هي في موسكو. فاذا كانت عائلتهم قد تزجت من غرودنو (وهذا هو الاحتمال الاكبر) فان ام ماشا ستحاول مع تانيا بالطبع التوصل الى موسكو، الى شقتها هناك. ومن المتعلق ان تنتظرهما ماشا في موسكو على الاقل كيلا يفرق كل في طريق. وقال سيستوف:

— ربما وصلنا الى موسكو من غرودنو في فترة سفرنا من سيمفروبول! تطلعت ماشا بارتياح الى سيستوف ولاذت بالحنين من جديد حتى وصل القطار الى موسكو.

توجه الى شقة اترتيبين القديمة على شارع اوستاشوفكا حيث صرفا مؤخرًا ويوين بلا هموم وهما في طريقهما الى سيمفروبول.

لم يعمل احد من غرودنو. وكان امل سيستوف ملغاً على بريقه تصل الى موسكو، ولكن ما من بريقه. فقال:

— سأذهب الى المحطة. ربما ساحصل على تذكرة في قطار المساء. اما انت فحاولي ان تلتقي الى غرودنو، فلربما تتمكنين من معرفة شيء.

اخرج من جيب قمصته مفكرة وألترع منها وريقة سجل عليها تلفون هيئة التحرير في غرودنو وسلمها الى ماشا، فقالت له :
- تمهل، اجلس لحظة. انا اعرف انك ضد مفري. ولكن كيف التقيام

به ؟

راح سيستوف يمتنهما بان لا داعي لقيام بذلك. و اضاف الى حجيجه السابقة حجة جديدة: اذا تمكنت من الوصول الى غرودنو والاتحاق بالجيش - وهذا شيء يشك به - افلا تفهم بان الامر سيكون اصعب عليه مرتين؟ استمعت اليه ماشا وفدا وجهها اكثر شحوبا. ثم صاحت به فجأة:

- لماذا لا تفهم انت، لماذا لا تفهم بانى انصاة ايضا؟! وبانى اريد ان اكون هناك معك ؟ لماذا تفكر بنفسك فقط ؟

- كيف ؟ انا افكر ببنفسى فقط؟ - سأل سيستوف متحيرا.
ولكنها لم تجبه، بل راحبت تتحبب بمرارة. وعندما كفكت دموعها طلبت منه بلهجة جادة ان يذهب الى المحطة لاختاء تذكرة والا فسوف يتأخر واضافت :

- غدا تذكرة لى ايضا. هل تمدنى ؟
اشتاط غضبا لعنادها فلم يمد يده يراؤ بها واذا بلهجة قاطعة ان القطار المتجه الى غرودنو لن يقل الآن اى مدنيين ناهيك عن النساء، وان بلاغات اس اشارت الى ان خط غرودنو صار ضمن الجبهة، وان الوقت سان اغيرا لانقاذ نظرة واقعية على الامور. فقالت ماشا :
- طيب. اذا لم يسمحوا لى بركوب القطار لن اعترض. ولكن اهدل جهدك انت. وانا اثق بك. اليس كذلك ؟
- بلى - وافقها متجسما .

وكانت هذه «البلى» تمنى الكثير. لم يكذب عليها فى السابق مطلقا. واذا كانوا يسمحون لها بركوب القطار فسيأخذها معه .
وبعد ساعة تنفس الصعداء وتلفن اليها من المحطة واخبرها بانها حصل على تذكرة فى انتظار التنى سيتوجه الى مينسك فى الحادية عشرة - وليس هناك قطار الى غرودنو مباشرة - وان القومندان اخبره بان الاوامر صدرت بدمم السناح لاي شخص من غير العسكريين بركوب القطار فى هذا الاتجاه .

لم تجب ماشا بشئ، فصاح بالساعة :
- لماذا انت صامتة ؟

- لا بأس. حاولت ان اثلثنى الى غرودنو فقالوا ان الخط لا يزال مقطوعا .
- فسئ كل حاجياتى فى احدى الحقيتين .
- حسنا، ساعلف .

- ساحاول الاتصال بالادارة السياسية. فربما انتقلت هيئة التحرير الى مكان آخر. ساحاول مرفقة ذلك. ساجيء بعد ساعة او ساعتين. فلا تفجبرى .
- لست خبيرة - اجابت ماشا بنفس الصوت الباهت ووضعت الساعة. اخذت ماشا قطع حاجيات سيستوف فى حقيته وتفكر طوال الوقت بالشئ ذاته: كيف استطاعت ان تتأدد غرودنو وتترك ابنتها هناك؟ لم تكذب على سيستوف. فهى بالمثل لا تستطيع ان تفصل بين تفكيرها فى ابنتها وتفكيرها فى نفسها: يجب المتور على الطفلة وإرسالها الى هنا، الى موسكو، ويجب على ماشا ان تبقى معه هناك، فى الجبهة .

فكيف تسافر الى هناك؟ وما الذى يتطلبه ذلك؟ تذكرت فجأة فى آخر لحظة، وهى تعلق حقيية سيستوف، ان لديها وريقة عليها تلفون دائرة احد رفاق اخيها الذى خدم معه فى منطقة خالخين - غول، العقيد بوليتين. كان بوليتين هذا قد تلفن لهما بالصدقة عندما توقف هنا، وهما فى طريقهما الى سيمفروبول، وافاد بانه وصل بالطائرة من تشيا ورأى اخاها بافل هناك ووعده بان يكلم امه تاتيانا ستيناوفا شخصيا ويخبرها عن احواله .

وقالت ماشا لبوليتين اذذاك ان امها فى غرودنو وسجلت تلفون عمله فى المنشئة الجوية الرئيسية لكى تشلفن له تاتيانا ستيناوفا عندما تعود. ولكن اين رقم التلفون؟ بحثت عنه طويلا بحساس محوم حتى عثرت عليه وتلفتت، فاجاب صوت غاضب :

- العقيد بوليتين يتكلم!

- مرحبا! انا اخت بافل ارتيمييف. انتى بحاجة لمقابلتك .
يبد ان بوليتين لم يفهم فى الحال من هى وما الذى تريدة واخبرها فهم، وقال على مضض بعد فترة سمت طويلة، ان يوسعها ان تجيء بعد ساعة اذا كان اللقاء ان يستغرق وقتا طويلا. ووعده بانه سيخرج لاستقبالها عند مدخل البنى .

لم تكن ماشا تعرف ما الذى يوسع بوليتين هذا ان يساعد بها، ولكنها وصلت بعد ساعة والفصط الى مدخل البنى المسكرى الكبير. تخيل اليها انها تتذكر ملائح بوليتين، ولكنها لم تتجده بين الاشخاص المتواجدين هناك. وعلى حين غرة فتح الباب واقترب منها عرفت شاب وسأها:

- تريدن مقارنة الرقيق العقيد بوليتين؟

ثم أوضح لها بلهجة اعتدائ ان الرقيق العقيد استعصى الى السفوفية وذهب اليها قبل عشر دقائق ويرجو ان تنتظره. ومن الافضل ان تنتظر هناك، في الجنية التي خلف سكة الترام. وعندما يعود العقيد سيبحث في طلبها.

- متى سيعود؟ - سألت ماشا وقد تذكرت ان سيستوف سيميل الى المنزل قريباً.
- من العريف كفيف وكأنه يقول «الله اعلم».

انتظرت ماشا ساعتين كاملتين، وعندما صممت على عدم الانتظار فتره اكثر وغمرت خط الترام لكن تصمد العربة على عجل، في تلك اللحظة بالذات وصلت سيارة جيب هبط منها بوليتين. عرفته ماشا مع ان محياه الوسم قد تغير كثيراً وبدا شائخاً مهنوماً.

كان واضحاً انه يحسب الحساب لكل ثانية من الوقت.

- معذرة. فلتفت هنا وتحدث مباشرة. فهناك ينتظرونني... ما الذي

حدث؟

اوضحت ماشا باكثر قدر من الالفاظ ما حدث وما الذي تريد. وفقاً جينا الى جنب في موقف الترام، وكان المارة يتدافعون ويسؤلونها باكتافهم وقال بوليتين بعد ان استمع اليها:

- ماذا يمكنني ان اقول؟ اعتدت ان زوبك على حق: فالعوائل يجرى تنزيها من تلك الاماكن على قدر استطاع. ومنها عوائل ميلارينا. واذا تسنى لي ان اعرف شيئاً عن طريقهم فاسألنك لك. اما سفرك الى هناك الآن فهو غير مناسب.

- ومع ذلك ارجو كل الرجاء ان تساعدني - قالت ماشا باصراو.

فقال بوليتين بغضب وقد صلب يديه على صدره:

- ماذا تريدن؟ ما الذي تطلبينه؟ الى اين تدسين بنفسك؟ معذرة. في غرودنو الآن معركة تفوق التصور. فهل انت قاهمة؟

- كلا.

- اذا كنت لا تفهمين فاسمعي نصيحة الذين يفهمون!

وادرك باه زائد في اللين بله، وهو يحاول اقتناها بالعدول عن ارتكاب حماقة السفر، فقد اقلت لسانه بشأن المعركة الحامية الآن في غرودنو: فان انتهت وأنها هناك. وساروا ان يصحح غشاه الاخرق فقال:

- على العموم الموقف هناك يتجلى بالبح. وسوف ينظم بالطبع تهجير العوائل. وسألتنك لك حالاً اعرف اصغر التفاصيل. حسناً؟

كان في عجلة من امره، وكان عاجزاً كلياً عن اخفاء استعجاله.

... تاجر سيستوف عندما عاد الى المنزل ولم يجد ماشا. ليثا تركت له وريقة على الاقل. خيل اليه ان صوت ماشا بدأ غريباً بالتلفون، ولكن هل يسمعها ان تزول عليه اليوم بالذات وهو يستعد للرجل؟!!

لم يخبروه في الادارة السياسية باى جديد، فهو يعلم ان المعارك جارية في منطقة غرودنو، ولن يخبروه بنياً انتقال او بقاء حيث تحرير جريدته العسكرية الا غداً، في مينسك.

لم يترك قلق سيستوف على ابنته وانتشال باله بها والعيرة المطلقة التي اجتاحت ماشا مجالاً له حتى الآن كي يفكر بنفسه. ولكنه ارتعب عندما فكر في نفسه وتصور ماهية الحرب. وادرك بانه هو بالذات، وليس غيره، يتوجه اليوم الى هناك حيث يمكن ان يقتل.

حالاً فكر بذلك ون جرس التلفون المتقطع من مدينة اخرى. اجتاز سيستوف القرية راكناً وانتشل الساعة من مستنداء بلبح البصر، ولكن النداء التلفوني كان من مدينة تشيتا وليس من غرودنو. وبلغ سامعه صوت اريستيف البعيد جداً وسط طنين خفيف لاصوات كثيرة مختلطة.

- من يتكلم؟ ماما؟

- كلا. سيستوف.

- ظننت انك تقاتل في الجبهة.

- ساسافر الى هناك "يوم".

- اين بالوقت؟ اين امي؟

اغبره سيستوف بسبقية الامر. فقال اريستيف بصوت ابح يكاد لا يسمع على الطرف الآخر من السلك على بعد ستة آلاف كيلومتر:

- اسوكلكم سيته ويا للاسف. على الاقل لا تسمح لماشا بالسفر الى هناك. يا لشيطنان، ما الذي جعلني اسيء الى هنا، الى ما وراء البايكابل.

اننى عاجز تماماً عن مساعدتكم.

- انتهى وقت السكالة! - زن صوت عاملة التلفون كنفار الخشب، واحسوى الفراغ الساعة في الحال: انقطع الصوت، وانقطع الطنين، ولم يبق الا الصمت.

دخلت ماشا مطافأة الرأس دون ان تنبس بيت شفة. ولم يسألها سيستوف اين كانت، فقد انتظر ان يخبره بنفسها، واكتفى بان تطلع الى ساعة الحائط: فلم يبق له الا ساعة واحدة لكي يغادر المنزل.

فهمت نظره وأحست بتأنيب الفصير وتطلعت إليه مباشرة:

- لا تزعج. ذهبت لاستعصر عن إمكانية السفر معك.

- وماذا قالوا لك؟

- قالوا إن ذلك غير ممكن الآن.

- ما أشد عنادك يا ماشا! - قال سيستوف ولاذ بالصمت.

لم تجه بشيء. وراوت أن تشارك نفسها وتسيطر على الرعدة في صوتها.

ونجمت في ذلك اغبراء، وبدت هادئة تقريبا في الساعة الاخيرة قبيل الفراق.

يبد أن وجه زوجها في ضوء مصابيح التنعيم الزرقاء الشبهية بالمصابيح

العلاجية بدا لها مقيما كئيبا. وتذكرت كلمات بولينين: وفي غرودنو الآن معركة

تفوق التصورة وارتشت لهذه الكلمات والتصقت بمعطف سيستوف في سورة من

الانفعال.

- ماذا؟ هل انت تبهكين؟ - سألهما سيستوف. ولكنهما لم تكن تكي.

كلا، لقد فقدت التحكم باعضائهما، فالتصقت بزوجيهما كما تلتصق المرأة

عندما تكي.

ساد المحطة الزحام والهرج والعرج في الليل لأن احدا لم يعود على الحرب

بعد، ولا على التنعيم.

لم يتمكن سيستوف طويلا من أن يعرف متى سيأتي القطار الذي يتعين

عليه أن يركبه الى مينسك. قيل له في البداية ان القطار غادر المحطة. ثم

قيل له ان القطار سيتحرك عند الفجر، وعلى اثر ذلك صاح احدهم ان القطار

المتجه الى مينسك سيطلق بعد خمس دقائق.

لم يسمح للمودعين بدخول رصيف المحطة لسبب ما، ولذا تزاحم الناس في

الباب، فلم تمكن ماشا وسيستوف المحاصران من جميع الجهات حتى ان

يتصافوا لوداع في تلك الجاية. احتوى سيستوف ماشا باحدى يديه - فالأخرى

تعمل الحقيبة - وضم وجهها بألم في آخر لحظة الى حلقات السيور المتصالة

على صدره، ثم انفصل عنها على جبل وابتلمه باب المحطة.

وعندما استدارت ماشا حول المحطة راكضة فبلغت سايجا مشيكا مرتفعا

بملو شخصين، وهو السايح الذي يفصل باحة المحطة عن رصيف القطار. لم

تد تأمل في رؤية سيستوف، ولكنها كانت تريد ان ترى على الاقل كيف

سيبتد قطاره عن المحطة. ظلت واقفة قرب السايح نصف ساعة، ولكن القطار

لم يتحرك. ونجأة لمحت سيستوف في الظلمة: هبط من عربة واتجه الى عربة

اخرى.

- فانيا! - صاحت بأعلى صوتها، ولكنه لم يسمعها ولم يلتفت.

- فانيا! - صاحت بصوت اعلی وحي تشتت بالسايح.

سمعها، وتلفت متدهشا، وتطلع بضع ثوان على غير هدى الى مختلِف

الجهات، وعندما صاحت للمرة الثالثة، هرع سيستوف الى السايح.

- ألم تسافر بعد؟ متى سيتحرك القطار؟ ربما لن يتحرك قريبا؟

- لا ادري. الجميع يقولون انه على اية التحرك.

وضع الحقيبة على الأرض ومد يديه، ومدت ماشا يديها اليه عبر السايح،

قبلهما، ثم احتزاهما براحته وظل ممسكا بهما طوال الوقت.

مر نصف ساعة أخرى، والقطار واقف. فقالت ماشا متنبهة:

- أليس من الأفضل ان نتركك على مكان وتضع الحقيبة ثم تعود؟

- لا.. لا بأس - هر سيستوف رأسه بلاسيالة وانصت دون ان يلفت

يديها: - اجلس على قاعدة باب العربة!

كانا نهمكين بالفراق الذي داهمهما فحالوا، دون الالتفات الى الآخرين،

ان ينفقا من ألم هذا الفراق بالكلمات المعتادة المتجسدة من عهد السلام الذي ولى

منذ ثلاثة ايام.

- انا وأنتي ان طفلتنا واننا بخير.

- يا ليت!

- يستحيل ان التقي بهما في احدى المخططات: انا متجه الى هناك

وهما الى هنا!

- يا ليت!

- حالما اصل ساكتب لك.

- ان يبقى لديك وقت للكتابة. ابث بركة، وكفى.

- كلا، ساكتب لك من كل يد. انتظري رسائلي...

- كيف لا انتظرها؟!

- ولكن اكسبي لي انت ايضا، اتفقنا؟

- بالطبع!

لم يكونا كلاهما يدركان تماما الآن، في اليوم الرابع، حقيقة

تلك الحرب التي يتوجه اليها سيستوف ولم يكونا يتصوران بعد انه ما من

شيء، بل لا شيء اطلاقا مما يتحدثان عنه الآن سيحقق قريبا، وربما

لن يتحقق اطلاقا في حياتهما: قلن تكون هناك رسائل ولا بؤقيات ولا لقاءات...

وصاح احدهم من وراء ظهر سيستوف:

- القطار يتحرك. عجلوا!

عصر سينتوف يدى ماشا للمرة الأخيرة والتقط حقيقته ولف على قبضة يده سير محفلة الميدانية وصعد راكضا بموازة القطار على قاعدة العربة، فالقطار كان يرحف امامه ببطء.

وعلى اثره قفز الى قاعدة باب العربة آخرون الواحد تلو الآخر، فنجبوا سينتوف عن انظار ماشا ومن يمد خيل اليها انه هو بالذات يلوح لها بطاقته، ثم خيل اليها ان تلك اليد ليست يده، وبعد ذلك لم تعد ترى شيئا. مرت امامها عربات اخرى، وصاح الناس آخرون بكلمات موجبة لاناس آخرين، بينما ظلت هي واقفة وحيدة وقد التصقت وبهجها بالسراج وراحت تشد على عجل ازارار المشع على صدرها، فقد شرعت بالبرد فجأة.

القطار مكون من عربات جلوس فقط. وهو يسير بوقفات لفترات طويلة مملّة في ضواحي موسكو ومنطقة سمولينسك. وكانت اقلية المسافرين في عربة سينتوف وفي العربات الاخرى ايضا من القادة العسكريين والمسؤولين السياسيين الماملين في الدائرة العسكرية المكتملة والعائدين الى وحداتهم من اجازاتهم على عجل. وراحوا الآن يتعلمون الى بعضهم البعض بدهشة بعد ان اجتمعوا في عربات هذا القطار المتجه الى مينسك.

كان كل منهم قد ارتحل للقضاء اجازته على انفراد ولم يكن يتصور الامور على هذا النحو، لم يكن يتصور كيف ان هذا الحشد من الناس اصبحوا متفصلين منذ اليوم الاول للحرب عن وحداتهم التي انخرطت في القتال الآن في اغلب المدن، بينما كان يتعين عليهم ان يقودوا الرايا والكتائب والافواج في المعركة.

كيف حدث ذلك في وقت كان فيه التوسيع من الحرب القادمة يخيم على الجو منذ شهرين؟ لم يفهم ذلك لا سينتوف ولا الضباط الآخرون المائلون من الاجازة. وبين الحين والآخر يتمالى الحديث عن ذلك في العربة، ثم يخفت ليتمالى من جديد. فهؤلاء الاشخاص الذين لا جبرية لهم كانوا يشعرون بالذنب ويتفكرون في كل فترة طويلة يتوقف فيها القطار.

لم يكن القطار يسير حسب جدول معين رغم ان صفارات الانذار التجوى لم تسمع ولا مرة خلال اليوم الاول من الطريق. وفي الليل فقط، عندما توقف القطار في اورشا زارت القاطرات في كل مكان ويطفئ الزجاج: فقد قصفت الالمان احدى محطاتها.

وحتى هنا، عندما سمع سينتوف اصوات القصص لاول مرة، لم يكن يدرك بعد مدى اقتراب قطارهم من الحرب. وفكر في نفسه: «ولا عجب ان يقصف الالمان في الليل القطارات المتوجهة الى الجبهة». وتصور سينتوف، مع كابتن المدفعية الجالس قبالة والتوجه الى وحدته في درساتيفو على الحدود، بان الطائرات الالمانية تقلم، في اغلب المدن، من وارشو او كينيسبيرغ. ولو قيل لها ان الطائرات الالمانية تقلم الليلة الثانية وتقصف اورشا من مطارها العسكري في غرودنو، من نفس غرودنو التي يتوجه اليها سينتوف للاتحاق بهيئة تحرير جريدته العسكرية لما صدقا بذلك!

وانقضى الليل، وتعين عليهم ان يصفقوا باخبار اسوأ من ذلك بكثير. في الصباح، بلغ القطار بمنتهى الصعوبة محطة بوريوف حيث أعلن قوندانها، وهو يتصور اما كالمصاب بوجع الانسان، ان القطار لن يتقدم اكثر. فالطائرات الالمانية قصفت السكة الحديدية بين بوريوف ومينسك والديابات الالمانية قتلها.

كان الجو في بوريوف مثيرا غائقا، وكانت الطائرات الالمانية تحوم فوق المدينة. وعلى الطريق حركة مكثفة لقنوت والسيارات: بعضها الى جهة والبطش الآخر الى الجهة الاخرى. وعلى قارعة الطريق المبلطة بالآجر قرب المستشفى صفت القناتات وعليها القتلى.

وامام مبنى القوندينية وقف ملازم اول وراح ينادى بصوت يسم الاسماع: «اطمروا المدافع!». وكان ذلك هو قوندان المدينة. طلب منه سينتوف مسدا فمهم لم يأخذ معه سلاحه في الاجازة. يد ان القونديان لم يجد مسدا ليسله له، فقبل ساعة وزع كل محتويات المشايخ عن آخرها. اوقف سينتوف وكابتن المدفعية اول سيارة شحن تصادفهما. كان سائقها يجوب المدينة بعناد بحثا عن مدير السندوع الذي ضاعت آثاره. واستقل سينتوف والكابتن الشاحنة وتوجها للبحث عن آمر الحامية. كان الكابتن قد فقد كل امل في الوصول الى فوجيه على الحدود، فربح في الحصول على تميمين في وحدة مدفعية ما هنا مباشرة. اما سينتوف فكان يأمل في معرفة مكان الادارة السياسية للجبهة. واذا لم يمد الوصول الى غرودنو ممكنا فليذهبوا الى جريدة اي جيش او فرقة. كانا كلامهما مستعدين للذهاب الى ايما مكان والقيام باى عمل كلا يقيما هالامين بين السماء والارض في هذه الاجازة المشؤومة. وعلما بان آمر الحامية موجود في متيهم عسكري بفسولس بوريوف. في اطراف بوريوف مرتق فوق السيارة مقاتلة البانية واطلقت نيرانا

الإرشادات. لم يصب احد، بيد ان غشيات من السيارة تطايرت. افاق سينتوف من الرعب الذى جعله ينطلع ووجهه الى قاع السيارة الشبح برائحة التيزين وانفزع منهجا شلثة خشية كبيرة انغرزت في زنده عبر الفصيلة. ثم اقتنع ان التيزين في سيارة الشبح يكاد ينفذ تفويجها، قبل ان يواصلوا البحث عن آمر الحماية، الى مستودع البترول على الطريق العام باتجاه مينسك.

وهناك رأوا مشهدا غريبا: اشهر الملازم مدير مستودع البترول مع عريف آخر مسدسهما على سيجر في ردة الهتسة. وكان الملازم يصرخ بأنه على استعداد لاطلاق النار على الميجر دون ان يسمح له بنفس المستودع. وكان الميجر الكبير السن، بوسام على الصدق، قد رفع يديه مستسلما وهو يرتعش من الاسف ويوضح بأنه جاء الى هنا ليس من اجل نصف مستودع البترول بل من اجل التأكد من امكانية نسفه. وعندما هبط المسلحان في الاخير صرخ الميجر، ودفع الهياج تفرق في عتيه، ان من العار تصويب المسدس نحو قائده اقدم. ولم يعرف سينتوف غامته ذلك المشهد. فقد مددم الملازم، وهو يستمع متجهما الى تأنيب الميجر، بان آمر الحماية موجود في لكتات مدرسة الدبابات في غابة ليست بعيدة من هنا. وتوجه سينتوف الى تلك الغابة.

كانت جميع ابواب مدرسة الدبابات مشرعة على مصاريحها، ولا احد هناك، سوى دبايتين خفيفتين بطاقيهما تركتا في الميدان انتظارا لآوامر لاحقة. بيد ان الاوامر ما عادت تصل الى هنا منذ يوم وليلة. ولا احد يعرف شيئا. ويقول البعض ان المدرسة تم تهجيرها، ويقول البعض الآخر ان تلاميذها توجهوا الى المعركة. ويقال ان آمر خانية بوريسوف موجود في مكان ما على طريق مينسك، ولكن في الجهة الثانية لعندة بوريسوف.

عاد سينتوف والكايتن الى بوريسوف. وكان بحرى شخن موبعدوات القوندانية. وهمس القوندان بصوت ابح ان المارشال تيموشينكو اصدر امرا بترك بوريسوف والانحساب الى ماوارا بيريزينا والدفاع هناك حتى الرق الأخير للحيلة دون تقدم الألمان.

وقال كايتن المدفعية مرتبا ان القوندان يتكلم من عتباته. بيد ان موجودات القوندانية فشن، ومن المستبعد ان يشعنها بدون امر من جهة ما. وتوجهنا من جديد في سيارة الشبح الى خارج المدينة. كانت جموع الناس تسير على الطريق وكانت السيارات تجوبه ممترة سحب الغبار. بيد ان الجميع يتحركون هذه المرة ليس في جهات متعددة، بل في جهة واحدة: شرقي بوريسوف.

عند مدخل الجسر وقف وسط الزحام شخص ضخم بدون طاقية ويده مسدس. كان مهتاجا يصيح بالناس والسيارات التي يعيقها عن السير ويجأر بصوت مزق بأنه هو، المرشد السياسي زوتوف، يريد ان يقف الجيش هنا وسيوقفه من كل يد وسيطلق النار على كل من يحاول الانحساب!

بيد ان الناس كانوا يتحركون ويسيرون ازاء المرشد السياسي، كانوا ماشين وراكبين، وكان هو يسمح لبعضهم بالمرور كي يتمكن من ايقاف الآخرين بهمدم. حس مسدسه في نفاثه وامسك بتلابيب احدهم، ثم افرج عنه، وانتقل مسدسه من جديد واستدار وامسك مهتاجا من جديد بتلابيب شخص آخر، ولكن دون جدوى...

اوقف سينتوف والكايتن السيارة في غابة غير كثيفة على مقربة من النهر. الغابة غاصة بالناس. وقيل لسينتوف انه يوجد في مكان غير بعيد قادة يعملون على تشكيل وحدات حرية. وبالفعل استقر في طرف الغابة عدد من العقدا وراحوا يسجلون قوائم بالأشخاص على ثلاث شاحنات مكشوفة لكي يشكلوا منهم سرايا تتوجه بامرة قادة يمينون في الحال الى شمال وجنوب نهر بيريزينا. وكانت هناك شاحنات اخرى محملة بأكوام البنادق التي توزع على الذين يسجلون اسماهم ولا يمتلكون سلاحا. سجل سينتوف اسمه، وكان من نصيبه بندقية مزودة بحجرة وبدون سير. فتمن عليه حملها. بيده طوال الوقت.

احد العقدا الآخرين، وهو من سلاح الدبابات، اصطلح يحمل وسام لينين، وقد وصل من موسكو بنفس العربة مع سينتوف. تطلع العقيد في بطاقة الأجازة والهوية الشخصية لسينتوف ولوح بيده ساخرا ولسان حاله يقول: ما جدوى الجريدة الآن؟ ولكنه امر سينتوف مع ذلك بان لا ينصرف بعيدا: فلا يتر من وجود عدل له كئناس مثقف. بهذه اللمحة القارية بالذات عبر العقيد عن ذكrote «كئناس مثقف». راح سينتوف في مكان ثم اتبعه وجلس قرب سيارته على بعد مائة خطوة من العقيد. ولم يعرف معنى هذه العبارة الا في اليوم التالي. بعد ساعة جاء واكفأ الى سيارة الشبح كايتن المدفعية وانتشل كيس حاجياته من قمرتها ونادى سينتوف سيدا واقفا بأنه اسلمه، كبدية، مدفعين لقيادة مفرزتهما، وانصرف راكضا. ولم يره سينتوف بعد ذلك ابدا.

ظلت الغابة غاصة بالناس. ومهما ارسل منهم تحت قيادة عسكرية الى مختلف الجهات فان عددهم، كما يبدو، لا يتناقص ابدا. بعد ساعة ظهرت فوق غابة الصنوبر غير الكثيفة اولى المقاتلات الالمانية.

كان سينتوف ينطلق على الارض كل نصف ساعة ويلصق رأسه بجذع صنوبرية نحيفة تتمايل قمتها المشعة عاليا في السماء. ورائه كل غارة تبدأ الغابة باطلاق النار نحو الجو. كانوا يطلقون النار من البنادق والرشاشات والمسدسات وبضخات الرقوف والقنود والانبطاح.

اما الطائرات فكانت تحلق وتحلق. وكلها طائرات البادية.

«اين طائراتنا؟» - تسأل سينتوف بمرارة، كما تسأل الجميع حواريه بصمت او بصوت.

وتقبل السماء مرث فوق الغابة ثلاث من مقاتلاتنا بنجومها الحمراء على الجناحين. حيث مئات من الناس تمسح فرجة وتلوح بالأيدي. وبعد دقيقة عادت والندرة الثلاثة وهي تطلق نيران الرشاشات.

غر قتيلاً ضابطاً خمسين كهل كان قد وقف قرب سينتوف وغلغ طاقته وحمى بها عينيه من الشمس كي يرى طائراتنا جيذاً. وإلى جانبه جرح احد جنود الجيش الاحمر فجنس على الارض يتضرر ألماً وقد اسك ببطئه. بيد ان الناس ظلوا ينتقدون بان ذلك خطأ وصدقة لا اكثر. ولم يطلقوا النار الا عندما مرت نفس الطائرات للمرة الثالثة فوق قمم الاشجار. كانت الطائرات تحلق على ارتفاع عالٍ، بحيث اسكن اسقاط احدها بالرشاش. ارتفعت الطائرة بالاشجار وهوت على الارض وتعلقت شذر مذ على يده نائفة متر عن سينتوف. وفي حطام قمرة الطائرة ظلت جثة طيار يرتدي الزينة الالمانية. ومع ان الغابة كلها هلت فزعا في الحطبات الاولى: «استقلنا اخيراً!»، فقد ارتعب الجميع بعد ذلك لفكرة ان الالمان تمكنوا في مكان ما من الاستيلاء على طائراتنا.

واخيراً حل الغلام الذي طال انتظاره. اقتسم سائق الشاحنة مع سينتوف رغبته المجتفة كما يتقاسم الاغوة واخرج من تحت القمعة فتية من المعصير الحلوة الدافئة. كان قد اشترها في بوريسوف. النهر يبعد عنها اقل من نصف كيلومتر، ولكن سينتوف والسائق خافتهما قواهما ليصلا اليه بعد كل ما عاياه خلال النهار. شربا القليلة، ورقدة السائق في القمرة ماذا رجله خارجها، اما سينتوف فقد هوى على الارض ووضع محفظته اليدانية عند عجلة السيارة ووضع رأسه عليها. وتكرر ببناد رغم الرعب والعيوة: كلا، ذلك مستحيل. ان ما رآه هنا لا يمكن ان يحدث في كل مكان!

ورغم تهديده هذه الفكرة، ولكنه استيقظ بسبب طلقة مرت فوق رأسه. كان شخص ما جالسا على الارض على يده خطوتين عنه وراح يطلق النار في

الجو من مسدسه. تفجرت فتايل في الغابة ولاج اللهب من بعده. وفي كافة ارجاء الغابة كانت السيارات في القلعة تقطعهم ببعضها البعض وتترطم بالاشجار فتزأ محركاتها وتسير.

وهم السائق بالتحرك ايضاً، بيد ان سينتوف قام بول تصرف عسكري خلال اليوم، حيث امر السائق بالانتظار حتى يبدأ الانعطاب. وبعد ساعة فقط، عندما هدا كل شيء - اختفت السيارات واختفى الناس - جلس مع السائق في القمرة وراحا يبحثان عن مخرج من الغابة.

لاحظ سينتوف عند الخروج من الغابة على طرفها جماعة من الناس تبدو قائمة في الامام على شظية اللهب، فارتقت السيارة وتوجه نحوهم حاملاً بندقيه بيديه. كان اثنان من المسكرين واقفين على حافة الطريق يتحدثان مع مدني احتجزاه وراحا يطالبانه بالهوية الشخصية:

- ليس عندي هوية!

- لماذا؟ - اضر احد المسكرين - اعلنا هويتك!

- كيف اعطيكها هويتي؟ - صاح المدني بصوت غاضب مرتجف - ما حاجتك الى هويتي؟ فهل انا متلر؟ تبشون عن متلر طوال الوقت! ولن تقبضوا عليه!

انشل المسكرى مسدسه وهو يطالب بالهوية، فصرخ المدني يأس وقلوب: - اطلق اثار اذا كنت مدوم الضمير!

من المستبعد ان يكون ذلك الشخص من الخريين. لعله مجند ارفعه البحث عن مركز التجنيد حتى طلع كأس الفيتز المرير لديه. بيد ان ما صرخ به بضميرهم متلر لا يجوز التصريح به امام اناس هاتئين متوترى الاعصاب بسبب متابعهم والاهلهم...

فكر سينتوف بذلك فيما بعد، ففي تلك اللحظة لم يكن له الوقت للتفكير بشيء: اندلع فوق رؤوسهم صاروخ ابيض ينشئ الايصار. هوى سينتوف، ينبطحاً، وسع حدير الانفجار. انتظر لحظة ثم نهض، وعندما رأى على يده عشرين غطوة ثلاث جثث مشوهة. ظل الصاروخ متوجها عدة ثوان اخرى وكأنه يأمره بان يتلكر هذا المشهد الى الابد، ثم انطلقا بسرعة في السماء وسقط في مكان ما دون ان يبقى له اثر.

عاد سينتوف الى السيارة فرأى رجله السائق من تحتها اذ كان قد دس رأسه تحت المحرك. صدأ الى القمرة من جديد وقبلاً بضعة كيلومترات نحو الشرق على طريق السيارات في البداية، ثم في طريق غايي. صادف سينتوف

قائدين عسكريين عرف منهما بان امرأ صدر البارحة للانحساب من الغاية التي توقفوا فيها بالاس الى غط خلفي جديد يمد سبعة كيلومترات .

ترك سيستوف القفزة وسار امام الشاحنة كيلا ترتطم بالاشجار في سيرها بدون اذارة . ولو سئل عن الغرض من هذه السيارة وعن اهتمامه بها لما اجاب بشئ معقول . فالحال ان السائق الذي ضيع وحدته لم يكن يريد ترك المرشد السياسي وان هذا المرشد السياسي الذي لم يبلغ رسمته كان مسرورا ايضا لان شخصا حيا مرتبط به طوال الوقت بفضل هذه السيارة .

وعند التفجر فقط ، بعد ان ارتقا السيارة في غايه اخرى ، حيث تقف شاحنة تحت كل شجرة تقريبا بحيث انهمك الناس في سفر الخنادق والأخاديد ، تمكن سيستوف اخيرا من الوصول الى الرئاسة . كان الصباح باردا مدهلها . وقف امام سيستوف على مشى في الغاية شخص لا يزال في ريمان الشباب نسبيا بلقن لم تحلق منذ ثلاثة ايام وسدارة تملئ اللجين وقصعة بشارات معينة الشكل على البياقة ومغطت افراد الجيش الأحمر على كتيفه ويده ، لسبب ماء معل . وقيل لسيستوف ان هذا الشخص ، على ما يبدو ، هو آخر حامية يوريوف .

اقرب سيستوف من الرقيب مفوض اللواء هذا ، وادى التحية وسأله عما اذا كان يستطيع ، هو المرشد السياسي سيستوف ، ان يحصل على عمل حسب اختصاصه في الصحافة العسكرية ، وفي حالة العكس فاية اامر يتعين عليه تنفيذا . اتى مفوض اللواء نظرة زائفة على هويته الشخصية في البداية ثم عليه خفصيا وقال بكائية لا ابالية :

- الا ترى ماذا يجرى؟ عن اى عمل صحافى نتحدث؟ اية جريدة يمكن ان تصدر هنا الآن؟

قال ذلك بلهجة جعلت سيستوف يشعر بتأنيب الضمير . وبعد فترة سمعت قصيرة قال مفوض اللواء :

- ينبغي لك مراجعة الاركان ، والامح مراجعة الادارة السياسية لمحجبه ، وسيقولون لك هناك الى اين تذهب .

- ولين الاركان والادارة السياسية؟ - سأل سيستوف بشئ من الامل . بيد ان مفوض اللواء هز كتيفه دلالة على جهله بمكانتهما وراح يتكلم مع الآخرين .

ابتعد سيستوف ، وما كاد يفكر بما يتعين عليه فعله حتى صادف عقيدا من سلاح الدبابات له معرفة به .

- انا ابحث عنك . اين كنت تتسكع ؟ - ناداه العقيد بلهجة صارمة . - الا ترى ما هناك؟ - وأشار الى جماعة من الناس جالسين على جدى صنوبرين مطروحين . - شكلنا مجلسا ثلاثيا مؤقتا . وبما انك كنت سكرتيرا في الجريدة فيسبك ان تساعدنا في تسجيل المحاضر .

جلس على جدى الصنوبرين حقوق عسكري برتبة ميجر فاحم الشر ، ورشد سياسى اشقر يقمصلة سلاح الجو وميجر من قوات الامن بياقة ارجوانية واربعة من جنود الجيش الاحمر الذين كانوا تحت امرتهم . كان السبعة يأخذون نسطا من الراحة . وازاهم رؤوس ، وعلى مقربة منهم يتشاب اخودان مضادان للجو وسفودران حتى النصف . قدم سيستوف نفسه فقال له الحقوقي :

- هل عندك فكرة؟

- نعم .
- حسنا . ستمك سفر الاخودين الآن ، ثم نبدأ العمل .

اتجهزوا الحفر بعد ساعة . جلس سيستوف على الارض وتدلّت رجلاه في الاخود . ألم به التماس بسبب التعب والجوع ، فلم يلاحظ كيف غفا . رأى في المنام يادى ذى يده حديقة تسير فيها ماشا ببرة عسكرية عليها شارات الحقوقي العسكرية ، ثم رأى شفتهم الواقعة على شارع اوساشوكا في موسكو ، دخلها شخص بملامح خطر وبصوت المدنى الذى قلته التثنية اسر ، وسأل عما اذا كان لديهم طعام . راح سيستوف ييمت عن السدس في جنبه لكى يطلق النار عليه ، ولكنه لم يثر على السدس ...

استيقظ لان شخصا دفعه الى الاخود وهوى عليه من فوق . ثم سفر الاخودين في الوقت المناسب : فعلى ارتفاع كبير فوق اشجار الصنوبر خلقت مآثرات وراحت تقصف الغابة بالقنابل .

قضى سيستوف نهائين في غشاة غيبابية بسبب التعب والجوع ولانه لم يقد طعم النوم ثلاثة ايام تقريبا . كان ينزل قارة الى الاخود منتظرا انتهاء الغصف ، فينفذ قليلا ، وقارة يخرج من ليتفقا في الشمس حيث تتدلى رجلاه في الاخود وينقو قليلا ايضا ، وقارة ثالثة يسجل المحاضر عندما يقفادون المحتجزين ويبدأ الحقوقي والمرشد السياسى الاقدم والبيجر باستجوابهم . فيضع سيستوف المفكرة على ركبته ويسجل الكلمات بتمتهى الصمودية . وكان الحقوقي يقول له كل مرة :

- سجل باختصار ، سجل ما هو رئيسي فقط !
والامر الرئيسى هو ان جميع المحتجزين لم يكونوا مخربين ولا جواسيس

ولا فارين . كانوا مجرد اناس يشتغلون من مكان الى آخر، أو يبحثون عن احد ما او عن شيء ما ولا يهتمون عليه لان الامور تشوشت واعتلطت الحابل بالنابل . كان البعض منهم قد تعرضوا للقصص الجري والمتران وارتموا من الاشاعات بشأن جنود الانزال الالمان والديابات الالمانية فدفنوا هوياتهم او مرقعوا خوفا من الاسر .

وبعد الاستجواب كان يطلق سراحهم عادة، ويقال لبعضهم الى اية جهة يجب ان يتجهوا بصورة تقريبية، ولا يقال لبعضهم الآخر اى شيء، لان المستجوبين لا يدرون ماذا يقولون فمحجزين . وكان كثير من الذين يطلق سراحهم لا يرغبون في الانصراف لانهم يشعشون من ان يحتجزوا من جديد فى مكان ما وتوجه اليهم تهمة التشهير .

وكان اثنان من المحجزين الشكوك فيهما جدا، وهما بيرتين عسكريين ولكن بدون هويتين، قد سكم عليهما بالاعدام ريبا بالرماس كمحجزين، لانهما لم يقدموا اجوبة، توجب بالثقة بشخصيتهما والجهة التى جاءا منها والجهة التى يقصدانها وفيما بعد تحدث الحراس الذين رافقوها الى طرف الغاية كى يطلقوا النار عليهما ان احدهما يكى وطلب الانتظار مؤكدا بأنه سيوضح كل شيء، وان الثانى طلب الانتظار فى الابداء، ولكنه حثف فى اللحظة الاخيرة، امام نواتج البنادق: «يحيا هتلر!»

وكان بين المحجزين خلال يوم واحد جندي مجنون، وهو شاب فارغ القامة جدا يدين، ورجلين كما لدى العمالة ورأس طفولى صغير وجليق على رقة طفولية طويلة . لم يتحمل القصف الجوى فخيلى اليه انه وقع فى الاسر عند فاشين ارتقوا برزة الجيش الاحمر، ففرع الى الطريق وراح يلوح بيديه ويصيح بالاعلانات الالمانية المتحللة:

— اقصموا، اقصموا!
اختلط كل شيء فى دماغه بعد ان فقد رشده: خيل اليه ان من حواليه الالمان، وان الطائرات الالمانية هى طائراتنا. ووجد رفاقنا صمودية كبيرة فى ربط يديه .

وقف صاحب اللون مرتشا، وراح يحدق نارة بالحقوق ومارة يستنوب يصيح بهما:

— يا فاشيان، لماذا ارتديتما بزتنا؟ اننى اعرفكما، فلماذا ارتديتما بزتنا؟ اخفقت كل المحاولات لتهدئته واثقاعه انه موجود بين ذويهم . وكما اصلوا اثقاعه كلما انتقد فى نظراته لهيب الجنود .

وعلى حين غرة نقلت الى الجانحين بسرعة وانقلت ونقلت الى جهة وانتشل بنديقة سيستوف الموضوعة عند جذع شجرة وركض الى الطريق بثلاث قفزات هائلة وصاح بصوت جنونى رقيق يشبه الصرير:

— اهربوا! تخلصوا! الفاشيون يطلقوننا! انقلوا انفسكم!
جاء بصوت غير بشرى سمع الجميع، وراح يتشاور على الذرب ملوحا بالبنديقة، وهو ينحنى ثارة ويدخل قامته ثارة اخرى .

شاهد احدهم هذا الشخص الذى يرقص على الطريق ويصرخ مفعورا فاطلق النار عليه من مسده عدة مرات دون تفكير ولكنه اضلأ فى اصابته . ثم اطلق النار شخص آخر واضلأ ايضا .

وادرك سيستوف بان هذا الانسان سيتقل فى الحال، لا بد وان يفتلوه طالما هو يصرخ بهذه الكلمات الغفيلة التى تثير الذعر . صمم على انقاذه ففرع اليه ولم يفكر باى شيء آخر فى تلك اللحظة . ولكن الجندي المجنون، عندما رأى سيستوف راكضا نحوه، استدار شاهرا بنديقه واسرع لقتاله . ورأى سيستوف عن كسب عيته التافزتين من مجبريها والنفعمتين بحقد جنونى، فقفز الى جانب بحيث اتجهت ضربة الحرية الى الفراغ، وامسك بالبنديقة بكلتا يديه: اليسى بمقبها واليسرى بماسوحتها . ولم يطلق احد النار فى هذه اللحظة خوفا من ان يصيب سيستوف . اما هو والجندي المجنون فراحا يتنازعا على البنديقة ليضع ثوان بشكل مسود . وفى هذا الصراع تشبث سيستوف بمقب البنديقة تدريجيا بكلتا يديه، اما الجندي فصار يمسك بالمسورة فقط . استجمع سيستوف كل قواه وسحب البنديقة نحوه ولم يفهم ما حدث فى الحال: فقد اقلت الجندي البنديقة ولوح بيديه وكأنه يريد ان يمسك برأسه، ولكن اليمين لم تلبغا الوجه فهوى الجندي على الذرب وجهه على الارض .

وعندما سقط الجندي ادرك سيستوف ان الاطلاق التى سمعها قبل ثانية من ذلك ليست اطلاقا غريبة بل صادرة من سيستوف نفسه . فعندما سحب البنديقة بشدة لمس الزناد صدقة، وها هو راقد على الذرب الشخص الذى قتله .

تكر سيستوف بان الجندي قتل وليس جريما قبل ان يلقى بالبنديقة ويجلس الترقصا قرب القتل . سقط الجندي ووجهه الى الارض، وقد استدار رأسه الطفولى العليق . وقد بشكل غير مريح ومثير للشكفة . وسال الدم على يفتى فى الارض الشربة: فقد اخترقت القلعة مستحيرة فى تنو البلوم مباشرة . — كاد هذا السافل يشير الذعر بين الناس! — قال كايتن فارغ القامة

بذق غير حليق وقد وقف أزاء القليل. ويده ملس. فهو أول من أطلق النار. وكرر الكناهن: - سائل يثير الغر! وأملت بيعة الكلاب!

ورقم انه كان يتكلم بنقطة وشهوة فان عينيه لمتا كسرتين كميون الكلاب. ويبدو انه يريد بكلماته الخشنة ان يفتح نفسه والأخوين باز. كان على حق عندما أطلق النار على هذا الإنسان.

كان سيستوف حائرا مقبها. قال: عمل قام به في الحرب هو انه قتل واحدا من افراد قواته. أراد ان يتغذى قتله!.. فما انقطع تلك القملة الحقا؟! ظل حتى آخر النهار دون ان يعرف بالفيض ما يجري حواليه. فالبعض يقولون ان مينسك لا تزال كالسابق تحت سيطرتهما، ثم قال البعض الآخر، على العكس، بان الالمان احتلوا بروسيا. وقيل الباء قبل انه امكن على يد سبعة كيلومترات من هنا وقف القبايات الالمانية. وبالفضل كان القصف السدني المكثف مسموعا في الامام دون ان يقترب او يمتد... بلغت جميع هذه الاتباء البثورة سامع سيستوف على نحو غياي غامض: وسط القصف الجوي، وغير الافكار المدهفة عن الشخص الذي اراد اذلاء قتيل وغير التحقيقات والاستجابات الجديدة.

وعند الغيب جاء الي سيستوف جندي اقاد بان العقيد يدعو.

كان عقيد سلاح القبايات، وهو يتمتع بحق قيادة الآخرين جميعا لانه انشغلهم. واقفا عند طرف القاية قرب خيمة مموعة بالاضواء. وفي ذلك الوقت راح اثنان من جنود الاتصال يبدان الي الخيمة سك التلفون البدائي. والي جانب العقيد وقف مفوض الكتيبة في بزة قوات الحدود.

وقال العقيد لسيستوف بدون مقدمات:

- كنت تسأل عن الادارة السياسية للجبهة. فهذا الرقيب يعرف بمكانها - وأشار الي مفوض قوات الحدود - انها قرب موفيلين، وهو متوجه الي هناك ويوصيه ان يأخذك معه.

هز المفوض رأسه بالايجاب صامتا.

- سأخذ حاجياتي في الحال. هل ستنتظر ثلاث دقائق؟

هز المفوض رأسه بالايجاب مجددا وتطلع الي ساعته.

- بكل سرعة! - ركض سيستوف الي الشاحنة ليأخذ حقيقته منها.

يبد ان الشاحنة لم تكن موجودة في مكانها السابق. جاب سيستوف المكان لحظة وكأنه يتصور ان الشاحنة التي اخذت ستظهر من باطن الارض، ثم تذكر ان المفوض يتظره فلوح يده يانسا وركض عائدا.

كان المفوض واقفا قرب الخيمة يرالوح بنفاد صير. وسأله:

- اين حاجياتك؟

- في السيارة، والسيارة لا ادري الي اين ذهبت... - اجاب سيستوف واضاف: - مسافر بدونها.

وشعر بالسرور لانه اخرج من الحقيبة قبل ساعة مظفه المسكرى وارتداه عندما اقترب الباء.

- اجل - قال مفوض الحدود وطبلع على محففته اليدانية الخاوية تقريبا - حاجياتي ايضا كلها هنا، حتى انني لا املك مظفا، فقد احترق في السيارة.

وكان يسمه ان يقول لسيستوف ان كل شيء لديه قد شاع الي الابد: احترق منزله وهلكت عائلته، ولكنه لم يذكر الا المظف المحترق واضاف:

- هيا!

اجتازا سيرا على الاقدام كيلومترين في درب غايي حتى التقى هذا الدرب بطريق مينسك السيارات. وكان سيستوف يتوقع بانهما سيتوقفا عند احدى السيارات المختبئة تحت الاشجار ويستخسانها. كان قد فوت ما قاله المفوض بشأن المظف الذي احترق في السيارة ولم يمه اهتماما. وعندما بلغا طريق مينسك الذي كانت تجوبه سيارات الشحن بين الحين والآخر وقال المفوض لا - منسلب من احدها ايسالنا الي اورشاد ادرك سيستوف ان المفوض لا يشكك بسيارة وانهما سيصلان الي ما يبتغيان بالسيارات المتجهة الي هناك صفة. وقال المفوض:

- تقدم مائتي خطوة الي الامام وسابقي انا هنا. فاذا لم اوقف انا احدى السيارات حاول انت.

ايعد سيستوف مائتي خطوة ورأى جيدا كيف حاول المفوض عدة مرات ايقاف سيارة. ووقع سيستوف يده ايضا ولكن السيارات ما كانت لتتوقف. راحيرا رأى سيستوف ان المفوض اوقف سيارة شحن ورفع باب قمريها واخذ يتحدث مع الجالسين في الداخل.

الذفع سيستوف راكشا نحو السيارة. وفي تلك اللحظة هدر زئير طائرة محلفة على ارتفاع منخفض. انطلق سيستوف على الارض كمداهة، واحس بالرائحة الخافتة للاسفلت الساخن. وبعد عدة ثوان التفت، فلم ير على الطريق لا الشاحنة ولا المفوض الذي كان قربها. فقد وقعت القنبلة مباشرة على السيارة وقصاعد الدعان من حفرة على الاسفلت وتطايرت حوائلها قطع

الحديد اللبوتية، وعلى الطريق تدمجرت باتجاه سينتوف عجلة كانت قد انفصلت عن السيارة . استمرت العجلة في تدويرها بضع خطوات اخرى وكأنها ارادت ان تصل الى قديم سينتوف بالذات، ثم ترنحت للحظة وسقطت فصر حديدها على الاسفلت .

وقد سينتوف وحيدا على طريق مينسك . وكانت السيارات تنهب الطريق وتسر به ، واكتف فواده اسي كاد يدفعه الى الصراخ او التحيب لولا الشعب الذى تجاوز كل الحدود .

قطع سينتوف بضعة كيلومترات اخرى قبل حلول الظلام وبات ليك تلك ، شأه شأن الآلاف غيره ، في اعتدود على جانبي الطريق ، حيث وضع سدارته تحت رأسه وغطى وجهه بياقة معطفه . غط في نوم عميق عدة ساعات دون ان يسمع زفير السيارات التى تنهب الطريق ، ودون ان يصل مسامه هدير القصف الليلي . واستيقظ لان شخصا لوى بياقة المعطف وايس وجهه بيده . وقال صوت :

— كلا ، هذا الرجل حى .

فتح سينتوف عينيه وجلس . فرأى مبيين في حوالي السادسة عشرة من تلاميذ مدرسة المدفعية الخاصة يرتديان معطفين فضيفين بشارة من مدفعين ذهبيين متصلين على طرفى الباقة السوداء . ولماهما ، مثل سينتوف ، لم يتنالا ملأما منذ زمان . فقد نحل وبهاهما الضلوع والاحت نظرة اليأس والفتوط فى اعينهما . كانا شبيهين بصفار الزينان الذى الذى بها من الاعشاش على قارة الطريق .

نهض سينتوف وألهما :

— ماذا يا شباب؟ الى اين اتما ذاهبان؟

اجاب الصبيان بانهما كانا فى سمولينسك حيث ساهما فى التدريب للاستعراض الرياضى المصغى ، وهما الآن عائدان الى مدرستهما الخاصة فى يوريسوف .

وألهما سينتوف :

— اين تقع المدرسة؟ داخل يوريسوف؟

فاجابا بالنفى وقالا انها تقع ابعد من ذلك بسعة عشر كيلومترا باتجاه مينسك . فقال سينتوف :

— اعتقد ان الالمان وصلوا الى تلك المنطقة . كنت هناك بالامس .

تطلع اليه الصبيان بارتياح ، ثم اشاح احدهما بصره . تابع سينتوف نظرة الصبي فرأى على بعد مائتى متر على جانبي الطريق عدة بيث هامدة ، وفى وسط الطريق هوة راحت سيارة الآن تتجاوزها وهى مسرعة نحو الشرق . عندما رقد سينتوف بالامس لم تكن هناك اية بيث . وذلك يعنى ان قتيلة سقطت فى الليل على مقربة منه فقتلت الناس ومع ذلك فام يستيقظ . وقال احد الصبين :

— نحننا انك قبيل ايضا . فالى اين يتعين علينا ان نذهب؟

وقال الثانى :

— ستذهب مع ذلك الى المدرسة . لا يعقل ان يكون هناك المان .

لم يتمكن سينتوف من اتقاعها . لم يصدقا به . ولكنهما فرحا جدا عندما عثر فى جيب معطفه على العلية التى اعطاعا اياه الحقوى المسكرى بالامس ، وعرض عليهما ان يأكلا شيئا قبيل الشفر . كانت العلية تحوى على سبكات صغيرة مملعة اكلوها ثلاثتهم بدون خبز ولا ماء . وافسروا الصبيان . وقال سينتوف يتابعهما طويلا بقلق .

ثم نفخ معطفه ولفظ سدارته وصار على طريق مينسك باتجاه الشرق ، الى اورشا .

كان الجميع فى تلك الايام يسيرون على هذا الطريق ويرميون على الغاية ويتظنون انشاء القصف النوى راقتين فى السواقي على حافى الطريق ، ثم ينهضون ويتبرونه من جديد بخطاهم الشتى . وكان كبيرا على المخصوص عدد اليهود النازحين من ستوليسكى وبارانوفيتشى وولوديشكو وغيرها من بلدات وقرى بيلوروسيا الغربية . والآن ، فى اليوم الثامن للحرب ، تجاوزوا يوريسوف ، وذلك يعنى انهم شوا الرجال من زمان ، منذ اليوم الاول ... الاذن ، من الناس اسفلوا مختلف انواع العربات . فيها الشيوخ بلعاهم وافوادهم الشبية وقتلنوا القرن التاسع عشر . وريدت اليهوديات الموهقات وقد شخن قبل الاوان . وكان هناك الكثير من الاطفال : فى كل عربة ستة او ثمانية اطفال مسر تسلط ميوزهم على ما حولهم نظرات سريعة مرتعبة . غير ان عددا اكبر من الناس كان يسيروا ازا العربات .

وبين المجائز والشيوخ والاطفال بالاسمال الرثة كان غربيا على هذا الطريق منظر النساء الشابات فى معاطف انيقة متربة تثير الشفقة ويتسريحات جميلة مقربة ومائلة الى احد جانبي الرأس . وفى ايدى الجميع صرر من مختلف الاحجام والاشكال . والاصابع مشتبعة مرتعجة من التعب والجوع .

تحرك ذلك الحشد نحو الشرق، ومن جهة الشرق سار قناتاه على ساقى الطريق شيان باليسة، فنية يحملون سناديق صغيرة من الخشب للمأكس وحفائب من الجبلد الاصطناعي واكياها على الاكثاف - أنهم الجندون يسرعون في الوصول الى مراكز التجنيد المخصصة لهم مسبقا كيلا يعثرهم احد هارين. كانوا يسرون للافادة الموت، للافادة الالمان. ويستهضمهم لفسير قدما الايمان والواجب. لم يكونوا يعرفون اين يتواجد الالمان بالقليل، ولم يصدقوا بان الالمان يمكن ان يصلوا الى هذه الانحاء قبل ان يتسنى لهم هم ان يرتدوا البتة العسكرية ويتسلخوا السلاح... كانت تلك واحدة من اسلك ساسى تلك الايام - مأساة اناس تجبروا الموت تحت قصف القذائل على الطرق ووقوفوا في الاسر قبل ان يصلوا الى اماكن التجنيد.

وعلى الجانبين امتدت الغابات والاجمات الوادعة الساكنة. عاق في ذاكرة سيستوف في ذلك اليوم، شهد بسيط. قبيل الساء رأى قرية صغيرة منبسطة على رابية واطلة. البساتين الخضراء الناعمة مغمورة بضوء الغروب الاحمر. و فوق سطوح المنازل يتعالى الدخان، وعلى قمة الزاوية، في خلفية الغروب، اقتاد الصبيان الخيول الى المراعى. مقبرة القرية قريبة جدا من طريق السيارات. القرية صغيرة والمقبرة كبيرة. فان هضبة كاملة مغطاة بالصليبان، الصليبان الضالمة والمائلة والبنية والخشولة بالامطار والثلوج. اهتزت مشاعر سيستوف لذلك كله لتلك القرية الصغيرة وتلك المقبرة الكبيرة ولعدم التناسب بينهما. وحز في فؤاده شعور مؤلم واحسان حاد بالارض - الام التي دأست جزمات الالمان جزما منها هناك، وراء، والتي قد تقطيع فدا اجزائها اخرى هنا. ان ما رآه سيستوف خلال اليومين الاخيرين اقنعه بان الالمان يمكن ان يصلوا اليها ايضا. بيد انه لم يستطع ان يتصور هذه الارض محطلة. فما اكثر الاسلاف المجهولين - من اجداد وآباء اجداد وابداد اجداد - الرايضين تحت هذه الصليبان الواحدة فوق الآخر من مئات السنين! هذه الارض ارضنا في الاعماق لائف مترا ولا يمكن بل ولا يحق لها ان تكون ارضا للغير. فيما بعد لم يشعر سيستوف مطلقا بمثل هذا الرعب المعض: ما الذى سيحدث؟! واذا كانت البداية كهذه فما الذى سيحدث لكل ما احبه وترعرع في احضانه وعاش من اجله؟ ما الذى سيحدث للموطن، للشعب، للجيش الذى تمود هو على اعتباره جيشا لا يتهجر؟ ما الذى سيحدث للشوعية التى اتسم على ابادتها هؤلاء الفاشيون الذين وصلوا في اليوم السابع من الحرب الى مواقع بين ميشك وبوريوسف؟

لم يكن جباناً، ولكنه، شأنه شأن الملايين من الدولتين الآخرين، لم يكن مستعداً لما حدث. قضى القسم الاكبر من حياته، مثل هؤلاء الآخرين، في الحرمان واليمن والنفال. ولذا لم يستطع القتل الرتيب لايام الاولى من الحرب، كما انتفض فيما بعد، ان يسحق معنوياتهم. بيد ان الكثيرين منهم تصوروا في الايام الاولى ان هذا القتل قبّ طائفة الانسان، مع انهم بالذات تحلوه فيما بعد.

قبل سنة ونصف لم يفرح سيستوف عندما عرضوا عليه البقاء في كوادرو الجيش بدلا من التسريح ولكنه وافق على هذا العرض. فالفرقة التى خدم فيها كانت رابطة في منطقة نهر بوغ، وكان فاشيون موجودين فيما وراء بوغ. كان الجو شبيها برائحة الحرب. وكان هو يعتقد بان الشيوعيين في مثل هذه الحالة لا يرفضون الخدمة في الجيش.

وعندما حدث ما ظل يخدم في الجيش من اجله، عندما بدأت الحرب ضد الفاشية، لم يقضى له عند البداية ان يتواجد في وحدته وفي مكانه، فصار انسانا مضيقا يقدم وثائقه لاي كان دون جدوى ويبحث عن هيئة التحرير التى لا يعلم احد بموقعها. وهو الآن، في بحثه عنها، يعتمد عن الجبهة كالهارب من الخدمة.

كان، حتى بعد مقتل مفوض العدو، قد شد العزم على الوصول الى مونيخ طالما قيل له ان الادارة السياسية للجبهة موجودة هناك. ولكنه صمم، في حالة عدم صحة هذا الكلام، على ان يكتف عن البحث عنها ويطلب تعيينه مرشدا سياسيا في اول وحدة يصادفها.

منذ الصباح اخذ يرفع يده لايقاف سيارة ما كما فعل في مساء امس، ولكن لم تتوقف اية سيارة من اجله. فلم يعبأ بذلك وسار بعثاد على الطريق طولا ما يتقي من النهار دون ان يفلتحت الى السيارات. كان تارة ينساق وراء افكاره المرفعة، وتارة لا يفكر بشئ سوى تحريك قديه الثقيلتين كالراسص. ولما كان سيصل ماشيا في آخر المطاف الى اورشا، بيد ان شاحنة توقفت قربه عند المساء. وسأله عقيد كان جالسا في قمرتها:

- ما هي وجهتك ايها المرشد السياسى؟

- اورشا - اجاب سيستوف متجمها.

- لماذا تسير ماشيا؟

- مللت من رفع يدي لايقاف سيارة. - اجاب سيستوف بنفس اللمجة

المتجمهة - سفا، لا يربدون مساعدتي.

- نعم، ليس المغلة قليلين. - قال العقيد - ولكنهم أقل مما يتوقع المرء في مثل هذا الموقف الحرج. ارني هويتك!
قدم سينتوف هويته الى العقيد بلا مبالاة. قالنى العقيد عليها نظرة سريعة واعادها له قائلا: - اصعد.

بعد ساعة من السير السمعور وصلت السيارة الى اورشا. لم تكن هذه السيارة تابعة للعقيد. فقد طلبها بكلمة شرفت لتوصله الى اورشا فقط. وهو، مثل سينتوف، يقصد مدينة موفيليف ويأمل في الوصول اليها من اورشا بالقطار. دخل سينتوف مع العقيد على قوتندان المدينة. وكان مقر القومندانة في قبو احد المدارس. وجلس عند الطاولات قرب أجهزة التلغون ثلاثة اشخاص داختر زرتهم من الصباح وهم الجير قوتندان المدينة وميجران آخران من الماملين في السلك الحديدية. وسأل العقيد:

- هل سيتوجه قطار الى موفيليف؟
في تلك اللحظة تلقى القوتندان الذى وجه اليه سؤاله سماعة احد التلغونيات والتفتت سماعة اخرى على عجل. بيد ان العقيد امسك كتف القوتندان بيده القوية وادار وجهه نحوه قسرا.

- اجيبني، انا اسألك: هل سيتوجه قطار الى موفيليف؟ ومتى؟
- تهمل، ايها الزئيق العقيد! - قال الجير بصوت ابح - لا يد ان يتوجه قطار... والتفتت سماعة التلغون الذى ناداه قراخ يستمع ويفند وجهه اكثر قسوة كلما اصاب الاستماع، واخيرا اطلق شتية كثية والتقى بالسماعة. - لن يتوجه قطار، ايها الزئيق العقيد! ويؤكد ان تحكم على ذلك بنفسك! اخبرونا الآن ان الطائرات قصفت قطارا يحمل ذخيرة، وتحلم كلا غملى السكة. ولن يتوجه اي قطار الى موفيليف!

- لا بأس، فليذهب الى الشيطان - قال العقيد يهدو لسينتوف - امثال هذا الجير لا يعرفون شيئا غير اتباء التفتير والتدبير. ولربما بالاسكان ان يمر القطار بهدو. فلنذهب الى المحطة ونعرف الحقيقة هناك. لم تكن معرفة الحقيقة في المحطة بالامر اليسير: الانوار مغلقة. واناد القوتندان العسكري ودير المحطة بهمس غريب انها لا يعرفان شيئا عن ذلك بعد. واخيرا تمكن العقيد من العثور على احد الماملين في السلك فقال له هذا بهمس ايضا وكأنه يوح سرا لا يجوز اليوح به ان قطارا يضاعيا

يجرى تشكيله على السكة وراء الضمعة وان هذا القطار سيتوجه الى موفيليف. فقال العقيد:

- فلتسرع!

يبدر ان هذا الانسان الكهل المحنك الذى رأى الكثير في الحياة كان، مثل سينتوف، يشر بالوحدة ويتمثل الى المشاطرة البشرية. فقد حدث سينتوف بانه وصل بالطائرة الى موسكو من دائرة الفولغا العسكرية وبين رئيس لاركان يلقق ووصل الى بوريسوف بحثا عن فيلقه، وكاد يقع في الاسر، وقضى يوم امس كله يقود في المعركة سريعة ظلت بدون قائد، وعرف اليوم بان فيلقه غير موجود هنا، فقد وصل الى منطقة اوسيبوفيتش - بويروبسك ولذلك فهو ذاهب الى هناك عن طريق موفيليف. واضافت فيلق:

- كان من الممكن بالطبع الاستمرار في قيادة السرية. ولكن يجب احلال النظام مع ذلك! اننا نأثقل اليوم الثامن، والحمد لله. حان الوقت لأن نفيق من القيوية! طالما عينوى رئيسا لاركان يلقق فيجب ان اصل الى مكاني وليس كافيا ان احصل اليديقية وانيلع مع المنطلمين. عندما احاط قيادة السرية الى ملازم اول اهتمنى احد الدفلمين بالجين.

- وبم اجيبته؟ - سأل سينتوف

- بم اجيبه؟ سددت لكمة الى بوزه الكريه لكى يكون اكثر ذكاءا في المستقبل، وانصرفت.

احتقن وجه العقيد عندما تذكر ذلك، واشتاط غضبا ذلك الوجه المشعب المتجه اصلا.
سرقا وقتا طويلا بين السلك بحثا عن القطار وكدا يحدث دائما تقريبا لشخص الواثق من نفسه والذي يعرف ما يردو، التفت حوالهما بالترجيع زهاء عشرة رجال يرتبون في السقر الى موفيليف لىختلف الاسباب.

وفى اثناء بحثهم عن القطار اغارت القناتلات الألمانية على المحطة. ورأزت القاطرات البخارية الواحدة تلو الاخرى فى سلك المحطة الدزدسة.

كانت هناك بضعة عشرات من القاطرات في محطة اورشا. رأزت تلك القاطرات تذكر احداها صغير الاخرى نافذة سحيا من البخار الابيض. وكان صغيرها مربعا وكتيبا بشكل قلع. كان اكثر اربابا من مدير الاصف الجوي الذى تعود عليه سينتوف خلال هذه الايام. وشيلى اليه ان القاطرات

تشكى ياغلى صوفها ولا احد يعرف لمن تشكى: السماء ام البشر؟ انها تشكى
وتشد النجدة، بينما تهال السماء بوابل من القنابل على الارض السوداء فتتفجر
تلك القنابل بين الساكن وعلى قذبان السك الحديدية وفوق الناس المنطحين
على السكك - فوق الناس النصارى المتصممين الخاضعين الذين استشاطوا غيظا على
كل ما يجري حولهم.

بعد انتهاء الغارة وصلوا الى المضخة فلم يجدوا هناك اى قطار.
جلسوا جميعا للاستجمام على اكوام الخبز قرب القضيان. ولم يكن اى منهم
راغبا فى الكلام. ولكن الصمت كان مستحيلا كذلك: فقد طلع كأس النصر
لدى كل منهم. فقال احدهم بترية كثيفة وسط الظلمة التى لم تمكن سينتوف
من رؤية وجهه فى تلك الليلة:

- فوجئنا ولم نكن على علم او تصور.

- او لم نكن على علم فالجيبه اذن - رد العقيد بعد فترة صمت -
ولكننا كنا على علم وكنا نتوقع ذلك. وعند الاستجواب لا شئ غير
القوضى.

- تشويش كبير الى حد مدesh! - قال احدهم فى الظلمة بصوت رفيع
مستغرب - انه امر يثير الدهشة.

- كتيبة الهندسة التى اخذهم فيها كانت مراوغة فى يايوستوك - قال صوت
جهورى - رخي - قالى اين انسجيت الآن؟ ..

- ابعث عنها، ومن جند يبعث! - اجاب صوت غائب بشدة ويبدو.
وازم الجميع الصمت بضع دقائق.

- دينا كارثة آيب ١٩١٤ فى الاكاديميات وسخرنا من ساسونوف،
وها نحن نكرر الشئ ذاته ... قال لهجة خشنة نفس الصوت المديدى البارذ
الذى رد على جندي الهندسة، وواصل كلامه: - على العموم سنتنصر بسهولة،
فى اراضى الغير، وبالق الحائث ... يعيش! يمش! .. وهلمجرنا.

- سنملى الى اراضى الغير، كن واثقا من ذلك ايها ال ... مدفزة اننى
لا اراك هناك فى الظلمة ولا اعرف ريتك! - رد العقيد غائبا - ولكن الحق
معك: فالقوضى واسعة، واسعة جدا ... والامر الاهم هو ان علينا نحن ان
نصغى الموقف وليس غيرنا!

اتار ذلك جوف من الزرد والبلحظاظ. وقال احدهم اننا الروس نغلب
تسريع الحصان ولكننا نسحقه سريما فيما به. بيد ان احدا لم يؤيد ما قال.
- لينا فى معركة ١٨١٢. فيجب الآن تسريع الحصان بسرعة، والا

قنوف نتراجع حتى سويلينسك.

وقال العقيد ان حكاية الحصان بدءا من الالمان.

كانوا يتجادلون، ولكن اسرارهم تترش بنفس الغضب والامس. كانوا
منسحقين ليس فقط للاضطراب الواضح تماما، بل والاكثر من ذلك لان
المعارك تسير فى مكان ما ولان وحدتهم قتالوا، بينما لم يصلوا اليها هم
حتى الآن ولا احد يعلم متى سيصلون اليها. وقال احدهم:

- كادوا يصفوننى يوم امس ريبا بالراسع كمغرب! كادوا يدعون المدس
فى فنى وكأنى حسان. لقد ساهمت فى تحرير بيريكوب، اما هؤلاء الغلمان
الشفلة فقد شهروا المدس فى رجبهم!

وتبعاً سأل العقيد وكأنه تفكر شئاً، سأل من الشخص الذى لم يعجبه
صوته البارذ:

- انت، يا صاحب كارثة آيب، هل انت مسافر معنا الى موفيلين؟
اتبعث عن وحدتك؟

بيد ان احدا لم يرد على هذا السؤال. ولعل الذى وجه اليه السؤال لم يكن
راغبا فى الجواب، او لعله انصرف ... وكان واضحا يعلم الغلام ان المانسين
التفتوا الى بعضهم البعض بحثا عنه. واخيرا رن صوت جندي الهندسة الرخيخ:
- اعتقد انه ذهب. فقد كان جالسا قريبا.

- بالطبع، يصادف ان نرى المفجورين ايضا - قال العقيد بعد فترة
صمت، ولعله يريد على كلمات جندي الهندسة، او لعله يريد على انكاره هو -
يوبره من يستحق ان يشر المدس فى وجهه، ولكن يصادف انهم يشهرونه
ليس فى وجهه من يستحق ذلك ... فلتنهش! - ونهش قبل الاخرين - الشيطان
اعرف بهم. ربما لديهم مضخة اخرى فى مكان ما. فلتنهش لنبعث عنها.
لم يعشروا على مضخة اخرى. ولكنهم وصلوا بعد ساعة الى عادي تحويل
القضيان الذى اشار الى عربات توقف سواء بعيدة بدون قاطرة وقال بشة ان
تلك العربات متصفاة الى قطار يتوجه الى موفيلين.

ذهب الجميع الى العربات بعد ان تقبرا من البحث مدى. وعلى عربتين
مكشوفتين بين العربات البضاعية انتصب باصان جديدان من سيارات الاركاب.
قال العقيد:

- فلنصعد الى الباصين - وتسلق احدى العربتين وحاول فتح باب الباص
فانفتح. - اذا تحرك القطار سنسافر على هذا النحو والا ننسيت الليل على
الاقبل.

وصعد سينشوف الى الباص ايضا . وجلس على مقعد جديد مطلق بالشمع وتلمسه بيده وكأنه فقد تفتت خلال هذه الايام بوجود شيء ما بيديه ونظيف، ثم مال برأسه الى زجاج النافذة الباردة وغدا .

استيقظ في الصباح ولم يتمكن من معرفة مكان وجوده . كان مسافرا داخل الباص، وإلى جانبه، على المقاعد الاخرى، ينط عسكريون غرباء، في النوم، ووراء النوافذ من كلال الجاهلين تطلق غابات عصفراء مشمشة دافئة . ذكر بانه يسير على طريق السيارات، وبعد ذلك تذكر ما مر به ليلًا وادرك بان الباص راقت على عربة القطار المكشوفة والقطار هو الذي يسير . لم يخدعهم عامل التحويل . فالقطار كان يقترب من موفيليف .

أخذ قومندان موفيليف هوية سينشوف وقراءها مرارًا بين يديه الجنودين المتورطين . لعله كان متعبًا جدًا حتى انه في المرة الاولى ينظر الى الورقة دون ان يرى شيئًا، وفي المرة الثانية ينفقت منها الكلمات التي تقع عليها نظراته، وفي المرة الثالثة فقط يبدأ بفهم ما هو مكتوب عليها . وقال لسينشوف ان الادارة السياسية للجبهة موجودة على بعد ثلاثة عشر كيلومترًا عن موفيليف . — عبر هذا الجسر العرالي هناك من النافذة، ثم الى الباص على طريق

السيارات باتجاه لورشا . عند الكيلومتر الثالث عشر، ستري في الغاية ... حائط الحظ سينشوف . فقد تمكن من ايقاف سيارة ييكاب على الجسر . في قمرتها جلس مع السائق ملازم اتصال، اما داخلها فملأوا بالقتاليل اليدوية . وبعد سينشوف لنفسه مكانًا على التناوب ونقلته السيارة الى غابة كثيفة تمتد الى اعماقها عدة طرق جديدة غير معبدة، وفزل سينشوف في احد تلك الطرق .

توجه الى اعماق الغابة . ساء الطقس وتساقت المطر رذاذاً . وعلى سفوح هضاب مكسوة بالاشجار كان يجري في كل مكان حفر الاعاديء واُنشاء المخايخ المغمورة . وفي بعض الأماكن انقضت رشاشات مضادة للجو اربعة اربعة . ويبدو ان هيئة الاركان والادارة السياسية للجبهة استقرت هنا ثواب . وقال سينشوف مغفوس غرقه نحيبًا في مغللت جلدي اصفر غدا فاقما يسيب المطر ويحميا ريشم طيب وشرايين اصفرين . كان واقفا عند الطريق وكان يشبه يضل الحرب الاهلية تشاباهيا .

توجه اليه سينشوف . فاخذ المغفوس بطاقة اجازة سينشوف وامسك بها يضع ثواب تحت الرذاذ فومت عليها قطرة تحولت الى بقعة بظلمية على ختم المدلولين في موسكو . وقال المغفوس، وهو يطوي البطاقة نصفًا على نصف:

— لانسف اثني لا اعرف اثنى هيئة التحرير الآن . واعترف بانني لا اعرف حتى الآن اين يقع القسم السياسي لجيشكم الثالث . وعلى العموم ... — اراد، على ما يبدو، ان يقول بانه لا يعرف عمودا اين الجيش الثالث نفسه، ولكنه لم يقل ذلك، بل اكتفى باضمامة كالجدة — يتبين عليك ان تخدم هنا، عندنا ... — وقدم وثائق سينشوف ليس الى سينشوف نفسه بل الى مغفوس الكتيبة السمين المنزود الوجهتين التي كان واقفا اترده ويخيل لسينشوف انه يعرفه — فليعمل الرقيب المرشد السياسي عندكم . فان قورناتشيف سينيب لامت طريقًا، اليس كذلك؟

ايدته مغفوس الكتيبة بان قورناتشيف سينيب لامت طويلاً، وتقلب السباح له بالافسراف واخذ سينشوف معه .

— سيقى عندنا اذن — قال لسينشوف بعد نصف ساعة وقد جلس معه في سيارة جيب مخيئة تحت اشجار الشوح .

على ارضية «الجب» تربوس راحا يحسبان الشاي منه حسب الدور، وعلى ركبتى مغفوس الكتيبة جريدة ملها كومة من التسماسل الفواح . وقال المغفوس:

— غلقت زوجتي في موسكو . وزملت منها آنذاك . ولماذا تزويدني باللقام؟ ساعيش على ارزاق الجيش! . اما الآن فانا سرور ...

التسماسل من موسكو، ومغفوس للكتيبة، وهو رئيس تحرير جريدة جبهوية، من موسكو ايضا . في العام الماضي وصل سينشوف الى موسكو للاشتراك في دورة صحفية قصيرة، وكان هذا المغفوس يلقي محاضرات في اللدوة عن الحياة الحزبية . وكان هو اذك انسان يتابعه سينشوف خلال الايام الخمسة الاخيرة وله معرفة، ولو قليلة، به . والامر الاهم هو انه لم يمه بحاجة الى التجوال والتسكع وتقديم وثائقه الى ابي كان وسام اجوية من قبيل «لا ادري» و«غير معروف» . لقد وصل انخيرا الى وحدة يوسمه ان لا يبحث بعدها عن شيء، وبإمكانه البقاء هنا وتلقى الاوامر والتزام بما جاء الى الجبهة من اجله .

وتهدد سينشوف عينيًا لكل هذه المشاعر التي انهارت عليه دفعة واحدة .

— ماذا بك؟

— تبيت من التسمك .

— الامور عصبية عمودا — قال مغفوس الكتيبة — اصاب المخربون قورناتشيف

بجرارح امس . هل تترقه؟

- كلا.

- في السابق كان يعمل في جريدة تكم «واية الكفاح». كان قادما إلى هنا إلى الإدارة السياسية، في سيارة هيئة التحرير لئلا ذاققه احدهم ويده مصباح. طلقوا منه موته وعندما هم بإخراجها اطلقوا النار عليه من السندس في جيبه. واعتقلوا. فمن فعل ذلك؟ ولماذا؟ اصدرنا عدد اليوم من الجريدة - نزل المفوض حسب الظاهر يستقل من موضوع إلى آخر، ولكنه في الواقع يتحدث عن الوضع العصيب - ولكن لا ندرى إلى أين نبحث بها. البريد الميداني لا يعمل بعد. ولا ندرى أين مواقع الوحدات. هذا الصباح وزعت جميع العاملين على السيارات وبشتمهم إلى مختلف الطرق لكي يقدموا رزمة من نسخ الجريدة إلى أية وحدة يمشرون عليها. الامور عصبية للغاية - قال المفوض في الختام وادى سينشوف بالسفر إلى موفيليف للاتحاق بالخدمة والمساعدة في اصدار الجريدة. واغضب قائلا: - هناك الآن ثلاثة اشخاص فقط: السكرتير وماعلى على الآلة الكاتبة والمشرف على الاصدار.

- هل البادة كافية؟ - سألته سينشوف.

- اصدرها مما هو متوفر. وسأصل إليكم فيها بعد. أي مادة تقصد؟ - من المفوض كنفية - ربما سيحضرون مادة في المساء. سيوزعون الجريدة ويحضرون شيئا. فهل لذلك ائت مادة ما؟ - تسأل المفوض والقي بنظرة على سينشوف. بيد ان سينشوف تطلع إليه صامتا، وتكر في نفسه: «واية مادة يمكن ان تكون لدى؟ اجل، عندي مادة. لقد رأيت خلال هذه الايام اكثر ما رأيت طوال حياتي. ولكن هل يمكن طبع ذلك كله إلى جانب نشر البلاغات الاداعية التي اقيمتها رئيس التحرير ويحتفظ بها الآن على ركبتيه مع البسماط؟! البلاغات تصدرت عن الممارك الكبرى في مناطق الحدود، اما انا فلم اشك من الوصول من يوريسوف إلى ميشك الجديدة عن الحدود حتى قبل ثلاثة ايام. فما الذي ينبغي تصديقه: هذه البلاغات ام الذي رأيته بعيني؟ أو لعل الحقيقة هي هذا ذلك على حد سواء. ربما تدور هناك، في الامام، على الحدود معارك دفاعية طاحنة ولكنها ناجحة فعلا، اما انا فقد وقفت في منطقة يسيطر عليها الالمان، واستولى على العرب فلا استطيع ان اتصور ما يجري في الاماكن الاخرى؟».

وحتى لو كان هذا ذلك حقيقة على حد سواء فالحقيقة في الجريدة لا تتغير. فان بلاغاتها القسبة عن الاداعية تدعي انها سدها حقيقة! ذلك هو واقع الامور، وذلك هو الاستنتاج الوحيد.

- ليست لدى أية مواد - قال سينشوف بعد صمت طويل وهو يتطلع

إلى عيني رئيس التحرير مباشرة. وقد فهم كل منهما الآخر. عاد سينشوف إلى موفيليف تحت جنح الظلام في نفس سيارة هيئة التحرير التي جرح فيها ليلة البارحة تورباثيف الذي لا معرفة له به، وكان السائق هو نفسه سائق البارحة. راح طواق الطريق يتحدث عن حادثة الاسم، حتى ان سينشوف صار كلما يوقظهم في مراكز التفتيش يقدم هويته بيده اليسرى ويمسك السندس بيده اليمنى، وهو السندس الذي اهتم رئيس التحرير بالحصول عليه من اجله في الإدارة السياسية.

خلال الليل تمكنوا كيفما اتفق في مطبعة موفيليف المثقة من اعداد البروفات واصدار عدد جديد من الجريدة الجبهوية. احتل نصف الجريدة البلاغات الاخيرة المصادرة عن مكتب الاستعلامات، وقد نشرنا باحرف كبيرة كي ينفلا سكانا اكبر. اما ما بقي من مواد فقد جمع كيفما اتفق عند منتصف الليل من الترايلين الذين وزعوا عدد الاسم. وكانت تلك لبحات قصيرة عن مختلف البطولات مقبضة من احاديث اشخاص انسحبوا طوال الاسبوع عبر الممارك او تمكنوا ثورا من التخلص من التطويق الالمانى. وبالتدريج اغتنى من تلك اللحاحات كل ما يسطر ذكره عن الاماكن التي تدور فيها الممارك الآن. اغتنى ذلك في البداية بالقام الدرايلين، ثم بالقلم الاحمر الذي يستخدمه سينشوف لكي يجعل تلك اللحاحات مطابقة للبلاغات، ولعل تلك اللحاحات تكتسب طابعا سكانا عندما تنشر قرب البلاغات التي تتحدث عن معارك الحدود المتواصلة. فالناس يحاربون ويمسحون آيات البسالة ويعتقلون الفاشيين. ولكن اين؟ ذلك ما نتحدث عنه البلاغات.

وعلم سينشوف حتى من الاقوال الشحيحة التي ذكرها الدرايلين الماثقون إلى هيئة التحرير خلال الليل ان ما رآه على ماريك ميشك حدث ليس على ذلك الطريق وحده. فقد اقتحم الالمان اماكن كثيرة. والوضع، في الجبهة الغربية على أية حال، عسير غاضب، وليس من صلاحية الجريدة الجبهوية ان تكشف ذلك المفوض! لقد ادرك سينشوف هذه الحقيقة فراح قلعه الاحمر يعمل دون تردد. ولكنه لم يكن يفهم شيئا آخر: كيف امكن لذلك ان يحدث؟ لم يفهم ذلك فصار يتحدث مسائلا: هل من المعقول اننا لن نتمكن زعم كل الجهود بان نحول الوضع في الايام القريبة القادمة؟ كل ما رآه عيناه يقول له: كلا، لن نتصن. بيد ان روحه ما كانت تتقبل الترسوخ، فهي تتوق بالعكس! ومع انه كان يحق له ان يصدق عينيه فان ايمان روحه اقوى

من كل ما هو واضح لليأس، وما كان يومه أن يصبح تلك الأيام لولا هذا الإيمان الذي كان راسخا لديه بشكل غير ملحوظ، كما لدى الملايين من العسكريين والدينيين الذين انزعجوا في تلك الحرب بأعوانها الاديمة.

عند الفجر وقبيل البدء يطبع المدد قرأ سينتسوف من جديد يذهب متبلدا مملوا يمد سطر، ثم قرأ مغلقة ورقه على الأرضية الحجرية الباردة في المظلمة. كانت مكانا المظلمة المتينة تقوى متعبة، وكانت الأرضية تهتز بعض الشيء تحت رأسه.

تذكر سينتسوف ابنته قبيل أن يذهب في قومه وأدرك بغضب عاجز أنه الآن، بعد أن مبار يعمل في جريدة أخرى وفي قطاع آخر من الجبهة، لن يتمكن إطلاقا من معرفة شيء عنها، إلى أن يتغير الحال، في أقل تقدير، شيئا جديدا...

الفصل الثاني

في الصباح غادرت سيارات الجريدة الأربع مبنى المطبعة، وفي كل سيارة مراسلون وعشر رزم من نسخ العدد الذي طبع توا. وظل إسابوب التوزيع كما كان عليه يوم أمس، حيث تنقل الجريدة بمختلف طرق السيارات وتوزع على جميع الذين يصادفهم الدراسلون، وفي الوقت ذاته يجمع الدراسلون ما ينسبر من مواد لأجل العدد التالي.

صرف سينتسوف في النوم على أرضية المطبعة ثلاث ساعات لا غير. وكان قد امتنع في خلالها مرة واحدة عندما وصل رئيس التحرير في الفجر. نهض سينتسوف من قومه بذهن غائم تماما. غسل وجهه في ماء الحنفية وشد حزامه وخرج إلى الشارع وصعد إلى غرفة الشائعة، ولم يصح من قومه بالتمام والكمال إلا عندما بلغ طريق يوبرويسك. كانت الطائرات تزار في الجو، نفى الخلف، فوق موبيليف احتدمت معركة جوية؛ كانت قاذفات القتال الألمانية تهاجم جسر التدبير على ارتفاع منخفض، بينما استيكنت نعليتها المكونة من سبع أو ثمانى مقاتلات على ارتفاع كبير في معركة مع ثلاث من مقاتلاتنا الخماسات البوئشي التي اقلعت من مطار موبيليف.

كان سينتسوف قد سمع أن هذه «البوئشي» تفوقت في إسبانيا وستغلب على المقاتلات الألمانية والامطالية واليابانية. وهنا أيضا في البداية اشتعلت النار بطائرة «هيرشيت» وسقطت، ولكن بعد ذلك انقلبت وسقطت اثنتان من مقاتلاتنا دقة واحدة. وظلت الطائرة الأخيرة في الجو وحيدة.

أوقف سينتسوف سيارته وخرج منها وراقب للحظة كتيب كانت مقاتلتنا تحوم بين الطائرات الألمانية ثم اختفت جميع الطائرات وراء السحب، في حين واصلت قاذفات القتال الهادئة تحليقها الواسع فوق البحر الذي لم تتمكن من أصابه على ما يبدو.

—ماذا؟ هل قواميل السير؟— سأل سينتوف رفيقه الجالس على رزم الجريدة في داخل السيارة. وهو معاون مرشد سياسي لقبه لوسين الذي يشبه اسماء البئات.

كان لوسين هذا شابا تشيخا غادر القامة ومسيما متورده الوجهتين يخلعته شقراء انفلفت من تحت طماقيه الجديدة الانيقة. كان في بزته التي تناسبه تماما وملطائه الجديد المشدود وبندقيته الرشاقة الجديدة المعلقة على كتفه دون تكلف يبدو بهيئة عسكرية انيقة أكثر من أي عسكري صادفه سينتوف خلال الأيام الأخيرة. وكان سينتوف يشعر بالارتياح لأن الحظ حالفه برفقة هذا الانسان.

— حسب ادرك ايها الرفيق!— اجاب لوسين وقد نهض قليلا وادى التحية بيده.

كان سينتوف قد لاحظ في الليل، عندما اصدروا الجريدة ان لوسين يتحلى بمادة نادرة بين الصحفيين العسكريين، وفي المحافظة على الدراسيم العسكرية. وقال سينتوف:

— لعل من الافضل ان اجلس اذا ايضا في داخل السيارة.

الا ان لوسين اعترض بتأديف:

— لا انضمك بذلك ايها الرفيق المرشد السياسي! فالرفيق الاقدم يتعين عليه، حسب الامور، ان يجلس في قمرة السيارة. والا غلن يكون ذلك مناسبا. ويمكن ان يوقفوا السيارة... ووقع يده الى طماقيه بالتحية من جديد.

صعد سينتوف الى رزمة السيارة فتحركت بهم. كانت تلك نفس السيارة التي عاد بها مع نفس السائق من اركان الجبهة في موغيفيل يوم امس. وقد اراد الانتقال الى داخل السيارة في الواقع خشية أن يلميه السائق من جديد بأحاديثه عن البحريرين. بيد ان السائق جلس وراء مقود القيادة واجما ولم ينس بيت شفة. ولعله لم يأخذ قسطا كافيا من النوم، أو لعله غير راغب في هذه الرحلة باتجاه بوبرويسك.

اما سينتوف فكان، على المكس، متحمسا مليب المزاج. فقد اخبره رئيس التحرير في القجر يان وسداتنا فيما وراء بيريزينا وعلى شارف بوبرويسك قد للحت اضرازا بالالامام يوم امس، ولذا كان سينتوف يأمل بالوصول الى تلك المتعلقة اليوم.

شعر بيل شديد لسير قدما، الى هناك حيث تدور المعركة. وهو بذلك مثل الكابرين من الناس الذين لا يتشيزون بالجين بطيختهم والذين شاهدوا وتحملوا الايام الاولى من الحرب عبر الهزج والدمج والذعر الذي انتاب الدروب المتاعمة انجيه.

صحيح ان رئيس التحرير لم يستطع ان يوضح بدقة أية وحدات هي التي للحت اضرازا كبيرة بالالامام، ولم يشير على وجه التحديد الى المكان الذي حدث فيه ذلك. بيد ان هذا لم يلق سينتوف كثيرا بسبب قلة خبرته. اخذ معه الخارطة التي رسم فيها رئيس التحرير باصبه دائرة حول بوبرويسك. وراح الآن يتطلع اليها. مقدرا الوقت الذي يحتاجه في الطريق بسرعة ٣٠ كيلومترا في الساعة. وحسب ان ثلاث ساعات تكفيه على وجه التقريب. في البداية صادفوا يمد موغيفيل مباشرة حقولا وغابات ليست كبيرة. وكانت الغضيرة في كل مكان، الا انها مقطوعة في اماكن عديدة باكوم من التراب عريضة نازة وضيقة ثارة اخرى: فعلى جانبي الطريق حفرات اخاديد وغنادق مضادة للقذبات. وكان جميع العاملين في حفرها تقريبا يرتدون البلايس المدنية. وفي احيان نادرة تلوح بين القفصان ومناديل الرؤوس قمصلات جنود الهنسة الذين يوجهون العاملين.

ثم دخلت السيارة غابة كثيفة. وفي الحال غيم القصد والهفوه، فلا احد هناك. راحت السيارة تجوب طريق القاية ملويلا، ولكنها لم تصادف احدا لا من البشر ولا من السيارات. في البداية لم يلق سينتوف لذلك، ولكنه فيما بعد اخذ يشعر بخرابة الامر. في ضواحي موغيفيل كانت هناك هيئة اركان الجبهة، ووراء بوبرويسك جرت معارك ضد الالامام. وكان سينتوف يعتقد ان بين هاتين المواقفين يجب ان توجد هيات للاركان وقوات، وبالتالي حركة للسيارات. ها هم يقطعون نصف الطريق. وبعد ذلك اجتازوا عشرة كيلومترات اخرى وقطعوا عشرة اخرى، اما الطريق فلا يزال خاليا. واخيرا كادت شاحنة سينتوف تصطم على مفترق الطرق بسيارة «جيب» جاءت من طريق غايي.

فتح سينتوف باب القمرة ولوح بيده فتوقفت «الجيب»، كان فيها كابتن مشاة قال انه مراقب قائده فيلق المشاة. صمم سينتوف على الذهاب معه لتوزيع الجريدة في وحدات الفيلق، طالما ان جميع الرزم كانت لا تزال في داخل السيارة دون ان تمس. بيد ان المراقب اجمع على عجل بانه كان في مأمورية وان الفيلق غادر مكانه في تلك الاثناء. وهو نفسه يبحث الآن عن فيلقه، ولذا فلا جدوى من الذهاب معه. ومن الافضل ان يأخذ عدة رزم من الجريدة في سيارة «الجيب» وعندما سيشر على قيادته سيوزنها بنفسه. قدم له لوسين رزمتين، فوضعهما الكابتن على المقعد الخلفي لسيارته التي انطلقت وراء الاشجار. اما سيارة سينتوف فواصلت طريقها نحو بوبرويسك.

مقرت طائرات «ميرشيت» الالبانية فوق الطريق عدة مرات. وكانت

الغابات ملاصقة له، فراحت الطائرات تمر فوق قنن الأشجار يلمح البصر فلم يتمكن سينتوف من الفرار من السيارة إلا مرة واحدة. إلا أن الألمان لم يطلقوا النار على السيارة، فذريعا كانت قلوبهم أعمال أكثر أهمية.

بقى من المسافة إلى بيريزينا، حسب الخارطة عشرة كيلومترات لا أكثر. وطالما تجرى التعارك على تلك الضفة من النهر، وراء بويرويسك، فلا بد من وجود مؤثرة ما أو قوات الإنسان الثانية على هذه الضفة. راح سينتوف يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ويصدق في أعماق الغابة بانفعال. إن فراخ الطريق اللامض يستثيره أكثر فأكثر.

ونجأة ذبل السائق بشدة.

على تقاطع الطريق العام مع درب ضيق ضاع طريقه بعيدا في الأفق كان هناك جندي على حافة الطريق. وقف بدون تنقية، غير أن قلبين يوديين تدلنا من نطقه.

سأله سينتوف من أين هو وما إذا كان هناك قائد عسكري ما. فقال الجندي أنه وصل مساء أمس مع ملازم ضمن جماعة من عشرين شخصا على سيارة شمن من موشليف، وكلف بالحراسة هنا ليوقف الأفراد القادمين من الغرب ويهبطهم إلى الشمال على هذا الدرب، إلى مركز رعاية الغابات حيث يعمل الملازم في تشكيل وحدة عسكرية.

وانتضح من الاستجواب اللاجئ أن الجندي مربوط هنا منذ مساء أمس، وأن البنادق وزعت عليهم في موشليف لكل واحد من اثنين. وأنه وقف في البداية مع جندي آخر، ولكن هذا اعتفى عند القجر، وأنه بحث خلال هذه الفترة إلى المركز المذكور حوالي ستين شخصا، ولكنهم، على ما يبدو، تسوه، فلم يستبدله أحد، ولم يتناول طعاما منذ مساء أمس.

أعطاه سينتوف نصف البسماط الذي ملأ به محفظته الميدانية وأمر السائق بمواصلة السير.

وبعد كيلومتر واحد أوقف السيارة اثنتان من رجال الميليشيا ظهرا راكبتين من الغابة في ششمين رصاصيين، وقال أحدهما:

— إيهما الرقيق القائد نحن في انتظار أوامرك!

— أية أوامر؟ — سأله سينتوف متدهشا — عندكم رئاسة تبعانها، أليس كذلك؟

— ليست لدينا رئاسة. يمشون إلى هنا، إلى الغابة، أمس الأول لكي ننصّب جنود المقاتلات إذا تزلوا. فأى جنود مقاتلات سيزلون هنا إذا كان الألمان قد سبوا نهر بيريزينا!

— من قال لكما ذلك؟

— الناس يقولون. ثم هذا هو دور المدفعية... ألا تسمعون؟

— مستحيل! — قال سينتوف مع أنه راح ينمت متسمعا وشيل إليه أن دور المدفعية يسمع في الامام. — كذب! — قال ليهدي نفسه بلهجة فيها من العناد أكثر مما فيها من الثقة.

— إيهما الرقيق القائد... — قال رجل الميليشيا ووجهه شاحب مقغم بالغمز والتصميم — انكم متوجهون إلى وحدتكم في أغلب الظن. خفونا منكم واعتبرونا جنودا محاربين. فهل يتعين علينا أن نتنظر هنا إلى أن يجيئ الفاشيون؟ أم يتعين علينا أن نزعج البر؟

وقال سينتوف أنه يبحث فعلا عن وحدة عسكرية، وإذا كانا يريدان السفر معه فليصدا. وسأل أحد الرجليين:

— إلى أين انتم ذاهبين؟

— إلى هناك — أشار سينتوف بيده إلى الامام مباشرة. فهو الآن لم يعد يعرف إلى أين هو ذاهب وإلى متى سيظل يرتحل.

ثم رجّل الميليشيا الذي تحدث مع سينتوف بالصعود إلى السيارة فلسمه الآخر من ششمه من الخلف وراح يهيمس له بشيء. ولعله ما كان راغبا في السفر باتجاه بويرويسك.

— اذهب إلى الشيطان!... — قال الرجل الأول غاضبا وانفدع متأقفا لصعود الشاحنة فرفع رجله ليشلق متن السيارة ودفع وقيته بجزسته في صدره. وتحركت السيارة. ظل الرجل الثاني واقفا متحيرا حتى مرت السيارة به، ثم لوح بيده يائسا وركض ورامعا وأمسك بمتنها وألقى بيده عبره والسيارة مسرعة. فان بقائه وحده مخيف أكثر من السفر إلى الامام.

سبحت فوق الغابة وسط هدير كثيف يطغى ست من قاذفات القنابل الليلية الضخمة من طراز تـبـ٣ ذات الحركات الأريمية ويضيل لجمره أنها تزمت على صفحة السماء ولا تقلير. ولم تكن قريبا أية طائرة من مقاتلاتنا. وفكر سينتوف مرتعبا بطائرات «هيسرشيت» التي حلقت توا فوق الطريق فاضطرب اضطرابا شديدا. إلا أن قاذفات القنابل اختفت عن الانظار بهلوه، وبعد بضعة دقائق سمعت في الامام انفجارات القنابل الثقيلة.

مروا سريعا بمؤثر على الطريق ينفث بان المسافة حتى نهر بيريزينا أريمة كيلومترات. وغفا سينتوف على يقين بأنهم سيصادفون وحدتنا في القريب الجليل، فلا بد من وجود بعض القوات على هذه الضفة من النهر.

وعلى حين غرة ظهر بضعة اشخاص من النابتة وراحوا يلوحون بأيديهم
يتسعين. فطلع السائق الى سينتوف متسائلا، ولكن سينتوف لم يقل شيئا
فواصلت الشاحنة سيرها. وشيئا الاشخاص الذين خرجوا الى الطريق يصيحان
عبر راحت ايديهم الكبرية بشكل اوراق على اقراصهم. فقال سينتوف قسائق:
- توقف!

ركنش الى السيارة غريف هندسة يلهث وسأل من سينتوف عن وجهته.
- الى بويرويسك.

سمع الغريف الرق الذي تصيب على وجهه وبلغ لابه مرتبشا حتى
اشدت حركة بلعومه وقال بان الالمان عبروا الى هذه الضفة من بيريزينا.
- اي المان؟

- الالمان...

- اين؟

- على يد سمالة متر من هنا. وكانت لنا معركة معهم قبل قليل -
واشار الغريف الى الامام - نحننا بمجموعة نحو خطك الالمان، اما هم فاطلقوا
النار من احدى الدبابات، وقتل احد عشر شخصا منا بقلعة واحدة. وما هي
البقية الباقية - والقي بنظرة حائرة على الجنود الواقفين قربه - لم يبق غير
سبعة اشخاص... بعيدا لو كانت لدينا متفجرات او قتاييل وذوية ولكن ما
القي تقعله بها الدبابات؟! - ضرب الغريف الارض غاشيا بمقبب يفتقته.

لا يزال سينتوف مترددا لا يصدق بان الالمان قريبين جدا، الا ان
محرك الشاحنة صمت، فسمع يوشح في الحال اطلاق نيران الرشاشات بشدة
الى يسار الطريق على مسافة قريبة جدا، على خط الضفة من بيريزينا دون
ادنى ريب.

- ايها الرقيب المسؤول العياشي! - رفع لويين صوته من داخل الشاحنة
لاول مرة طوال الطريق - هل تسمح لي بالكلام؟ لعل من المناسب ان نعود
حتى انتشاح الامور؟

لاحت على وجهه القنود عادة والشايب حاليا امارات الرعب. ولكن
هذا الرعب لم يمنعه من محاولة سينتوف حسب الاصول العسكرية. فقال
سينتوف الذي شحبه لونه ايضا:

- فلفند.

لم يكن يصور حتى الآن بانهم كانوا يقرعون في الاسر لدى الالمان
بمد نصف كيلومتر او كيلومتر. فسمع السائق بشدة على دراسة تحويل السرعة

واستدار بالسيارة - فمرت امام انظار سينتوف الوجوه المتحيرة للمحاربين الذين
تركهم على الطريق.

- توقف! - صاح سينتوف خجلا من ضعف غزيتته وضغط على كنف
السائق بقوة جعلته يركو من الالم - اسعدنا الى داخل السيارة - مد رأسه من
داخل القمرة ونادى الجنود - اسعدوا، ستجنون مني.

وبالرقم من مرور سنة ونصف على خدمته في الجريدة العسكرية كان
ذلك، في الواقع، هو اول امر يصدره الآن في حياته لغيره من الناس ليجده
انه اتسان كان عدد الكميات على طرفي يافته اكثر مما عندهم. فقرر الجنود
الى الشاحنة الواحد تلو الآخر، وتلكا آخرهم فراح رفاقه يساعدونه بأيديهم على
الصعود، رآى سينتوف الآن بالذات ان هذا الجندي جريح: أحدى قدميه
في التربة والاخرى حافية ملطخة بالدماء.

ترك سينتوف القمرة وامر بمساعدة الجريح في الجاوس على مقعد
فيها. فمتدا رأى بان اوارده قد لفلت وأصل اصدار تلك الاوار، فخلدت
من جديد. اجلسوا الجندي في القمرة وصعد سينتوف الى داخل السيارة.
واسرع السائق بالسيارة عائدا الى موبيليت بعد ان امتنحته نيران الرشاشات
التي قدت سموة اكثر فاكثر. وصاح احد الجنود مرتبعا:

- الطلقات!

فقال جندي آخر:

- طائرنا.

رفع سينتوف بصره ارقى فوق الطريق مباشرة وعلى ارتفاع غير كبير
نسيا ثلاثا من قاذفات القنابل شب-3. ولعل القصف الذي سمع كان من
فعلها. كانت الطائرات عائدة بسلام وهي تحلق الى الاعلى بارتفاع متزايد
تدرجيا. الا ان الشعور الحاد بالكآبة والذي اجتاح سينتوف عندما فوجئته
الطائرات الى تلك القمة لم يفارق الآن ايضا.

وبالفعل، فمن مكان ما في الاعالي، من فوق السحب الباردة وثبت
طائرة صغيرة من طراز «ميسرشرين»، سرية كاليوب، وراحت تلحق بقاذفات
القنابل بسمة متعينة.

تشبث جميع ركاب الشاحنة بمنها صامتين وقد نسوا انفسهم وقوا الخوف
الذي استولى عليهم ثوبا، نسوا كل شيء في الوجود وراحوا ينتقلون الى الجوى
يرقب قطع. مرت «ميسرشرين» بشكل منعقد تمت مؤخرة قاذفة القنابل
الثالثة التي تخلصت عن الآخرين، فدارت دحانا في لمح البصر وكان عود

نقاب اشعل في ورق بموقد. استمرت في الطيران قليلا وهي تستغنى ويصالي منها دغان متزايد، ثم تملقت في مكانها لحظة وسقطت على الغاية بعد ان شقت الهواء بخط دخاني اسود.

لمعت «ميرشيت» في ضوء الشمس وكأنها خيط فولاذي رقيق وارتفعت الى الاعلى واستدارت ثم اتجهت حادة نحو مؤخرة قاذفة القتال الثانية. وصمحت صلية رشاش قسيمة. وانفجعت «ميرشيت» من جديد، وظلت قاذفة القتال الثانية محطقة فوق الغاية نصف دقيقة وهي تميل بشدة على احد جناحيها، ثم انقلبت وهوت ثقيلة على الغاية في اثر الطائرة الاولى.

رسمت «ميرشيت» بأزيز عتقة وانفجعت بخط مائل من الاعلى الى الاسفل نحو مؤخرة قاذفة القتال الثالثة والاخيرة التي كانت قد انفجعت الى الامام. وتكرر الشيء ذاته. صلية رشاش لا تكاد تسمع من بعيد، وازيز حاد منبعث من الطائرة الالمانية الخارجة من حركة الانقباض، وضط دخاني اسود يسبح بصمت فوق الغاية ثم هدير الانفجار البعيد.

— طائرات اخرى! — صاح العريف مرتبعا قبل ان يستعيد الآخرون انقاسهم من هول ما راوه لولا.

وقفت داخل الشاحنة وراح يلوح بيديه على نحو غريب وكأنه يريد ان يوقف قاذفات القتال الثلاث الجديدة التي لاحت فوق الغاية عاتدة بعد القيام بغارة جوية. كان يريد اقتادها من الكثرة.

تطلع سينتوف مذعورا الى اعلى وتشبث بكلتا يديه بنطاقه، وجلس قربه رجل المايشيا ووضعه يديه على صدره وهو يبهل ويرجو الطيارين ان يلاحظوا بأسرع ما يمكن هذا الجسوب الفولاذي القليل الذي يتلوى في السماء!

كان جميع ركاب الشاحنة يبهلون الى الطيارين بشأن ذلك، الا ان الطيارين ربما لم يروا شيئا، وربما رأوا ولكنهم عجزوا عن فعل شيء. وانفجعت «ميرشيت» كالشعة الى السحب واختفت. وبرز في ذهن سينتوف امل بان عتاد الطائرة الالمانية قد فقد.

— انظروا، طائرة المانية ثانية! انظروا، طائرة ثانية! — صاح رجل المايشيا.

ورأى سينتوف طائرتي «ميرشيت» وليس طائرة واحدة تهبطان من السحب وتلمحان ما، الواحدة جنب الاخرى تقريبا، بسرعة لا تصدق بقاذفات القتال الثلاث البليطة، وتمرقان ازاء قاذفة القتال الثالثة. نفثت دغانا فانفجعت المقاتلتان الالانيتان يرمح الى اعلى وكأنهما فرستان لقاء بعضهما البعض،

ثم ابتعدت احدهما عن الاخرى في الجو وتبادلتا المواقع ووقتا من جديد فوق قاذفة القتال ذاتها وتماثلت صليات الرشاشات بصوت جاف. اندلعت النار في الطائرة دفعة واحدة وهوت متطايرة شذو مذر قبل ان تصل الارض.

وتوجهت المقاتلتان لتصيد قاذفتي القتال الثقيلتين اللتين حاولتا بلوغ ارتفاع اكبر وظلتا تحلقان ببطء وعناد فوق الغاية مبتعدين عن الشاحنة التي تحاول اللحاق بهما على الطريق وقد تكسدا ركابها بصمت في كتلة واحدة سحبتها الالم.

ما الذي يفكر فيه الآن ملاحو هاتين الطائرتين الليليتين الثقيلتين، وما الذي يؤملون فيه؟ ما الذي يستعملون القيام به غير هذا التحليق المفيد فوق الغاية بصرعهم البليطة الى حد اليأس واغيب في شيء واحد هو ان العدو سيحتاج ويخطئ الحساب ويدخل بنفسه حيز رشاشات مؤخرتهم.

وفكر سينتوف: ولماذا لا يهبطون بالمقاتلة؟ ربما ليس عندهم مظلات اطلاقا.

سمعت صليات الرشاشات هذه المرة قبل ان تقترب المقاتلتان الالانيتان من قاذفة القتال. فقد حاولت هذه الطائرة ان تدافع عن نفسها. وفجأة لم تخرج «ميرشيت» التي مرقت قرب قاذفة القتال من حركة الانقباض واختفت وراء حاجز الغايات. حدث ذلك بالبحر البصر فلم يدرك ركاب السيارة في الحال ان المقاتلة الالمانية اصيبت. فهورا ذلك فيما بعد وتماثلت تهاليل الفوج وانقطعت في الحال. فان «ميرشيت» الثانية حاجبت قاذفة القتال من جديد واضرمت النار فيها. وفي هذه المرة سقطت من الطائرة، وكأنها استجابة لفكرة سينتوف، عدة صرر الواحدة تلو الاخرى. هوت صرة واحدة كالمحجر الى اسفل، وانفجعت المظلات فوق «السرور» الرابع الاخرى.

راح الالمانى الذي فقد رفيقه يطلق صليات الرشاشات ليأثر له ويحوم في دوائر فوق المظليين. كان يطلق النار على الطيارين الهابطين فوق الغاية. وقد سمع ركاب الشاحنة صلياته القسيمة. فهو يقتصد في العناد، اما المظليون يهبطون فوق الغاية ببطء شديد. ولو تمكن ركاب الشاحنة انذاك من التطلع الى بعضهم البعض لرأوا ايدهم تقوم بايادة واحدة: الى الاسفل، الى الاسفل، الى الارض!

المقاتلة الالمانية التي حوت فوق المظليين رافقتهم حتى الغاية وحلقت على ارتفاع اعلى فوق الاشجار وكأنها تنطلق الى شيء آخر على الارض ثم اختفت.

أما قاذفة القنابل السادسة والأخيرة فقد ذابت في اللفق. ولم يمد في السماء شيء، وكأنها لا اثر لوجود هذه القاذرات الضخمة البليطة المزلاء. لم يمد هناك وجود لا السيارات ولا الناس الذين كانوا فيها ولا لسلطات الرشاشات ولا لطارتي «ميرشيت». لم يمد هناك شيء غير السماء الخاوية وبضعة أعمدة من الدخان الأسود اتخذت تجميع فوق الغابة.

وقف سينتوف داخل الشاحنة المكشوفة المتعلقة على الطريق وراح يبتكي مقعلا ومهتاجا. يبكي وهو يلحس بلسانه دمعه المالحة المناسبة على الشفتين ولم يلاحظ أن الجميع كانوا يبتكون معه.

- توقف، توقف! - كان سينتوف اول من استماد رشده وطرق يقبضته على سطح قمرة السيارة.

- ماذا؟ - رد السائق رأسه متحالا.

- يجب ان نبحث عنهم - قال سينتوف - يجب ان نبحث عن هؤلاء الظليين، فاريمنا لا يزالون احياء...

- لكني نبحث عنهم، ايها الزئبق القانده، ينبغي ان نقطع شوطا آخر، نالهمنا حملهم الى امد - قال رجل البليشا وقد انتفخ وجهه من البكاء كما تنتفخ وجوه الاطفال.

قطبوا كيلومترا آخر وتوقفت السيارة فنزلوا منها. كانوا جميعا يتذكرون الالمان الذين عبروا نهر بيريزينا، ولكنهم تسوهم في الوقت ذاته، وعندما ادر سينتوف رفاقه بالتوزع والتوجه للبحث عن الطيارين في كلا جانبي الطريق لم يترس احد.

جاء سينتوف ورجلا البليشا والغريف الغابة طويلا، على يمين طريق السيارات. وصاحوا ونادوا ولكن ما من مجيب. لم يمشروا على احد لا من الظليين ولا من الطيارين. والحال فان الطيارين سفلوا في مكان ما هنا، في هذه الغابة، ويجب العثور عليهم من كل بد، والا فيميشر عليهم الا لالمان! وبعد ساعة كاملة من البحث الشاير عينا خرج سينتوف الى الطريق عائدا.

وكان لوسين والآخرين واثنين قرب السيارة. وجه لوسين مخدش وقملمته مزقة وجيوبه مملوءة حتى ان زر احدها قد انقطع. وكان ممسكا بمسلة:

- قتلوهما ايها الرفيق المسؤول - قال لوسين بمرارة ومسح بيده وجهه

المتحدر.

- ماذا يد؟

- تسلمت صنوبرية. فقد تعلق احدهما، المسكين، في اعلى الصنوبرية وظل مبتا على هذا النحو قدام الى اعلى ورأسه الى الاسفل. كانوا قد قتلوه وهو في الجو.

- واثنائي؟

- قتلوا الثاني ايضا.

- هؤلاء القاشين يمشرون من البشر! - قال احد الجنود بحقد شديد.

- اخذت وثائقهما - لس لوسين جيبه المقطوع الثر - هل تريد ان اسمعها لك؟

- تفتيح عندك.

- غدا المسدس على الاقل - قدم لوسين الى سينتوف مسدس البراونينج

المتحدر.

تطلع سينتوف الى المسدس ودمه في جيبه. فسأله لوسين:

- وانتم، ألم تمشروا على احد؟

- كلا.

- وانما لوسين:

- يتخيل الى ان الذين هبطوا على ميمنتنا حملتهم الريح التي ابعده.

ينبغي ان نتقدم بالسيارة حوالي اربعمائة متر، ثم نزل رشدهم الغابة بشكل سلسلة. بيد انهم لم يمضوا بحاجة الى تمحيط الغابة. فعندما تقفمت السيارة اربعمائة متر وتوقفت خرج لثانها من الغابة طيار قصير القامة بقملمته وعوذة جوية مائلة على جبينه حتى العينين وهو مثقل بحمله. كان يحمل طيارا جريعا آخر في بدلة عمل ويداها تفلوان رقية الاال وقدماء تنسحبان على الارض.

- خذوا - قال الطيار بايجاز.

فرح اليه لوسين وبعض الجنود واخذوا الجريح منه ووضعوه على العشب قرب الطريق. اخبروا الرصاص كلنا ساقه. وقد بانفاس ثقيلة على العشب وهو يفتح عينيه تارة ويقضمها تارة اخرى. وعندما راح لوسين يقص على نجل بالسكين الصغيرة جزمة الجريح وبدلته ويفسده جراحه، خلع الطيار القصير القامة خوذته ومسح العرق الذي كان يتصبب على وجهه كحبات البرد، وحرك كتفيه اللتين تحدرتا من ثقل ما حمل.

- هل رأيتم؟ - سأل متعجبا في آخر الامر، وارتدى خوذته بعد ان

مسح العرق، وسحبها على جبينه وكأنه لا يريد ان يرى احدا ولا يريد ان يراه احد. فقال سينتوف:

— حدث ذلك فوق رؤوسنا ...

— رأيتكم كيف يهلك صقور مقاتلين كصغار القطاط العمياء؟.. — عاد الطيار إلى الكلام، وأرتمش صوته بمرارة، ولكنه تجاوز ضعفه ولم يصفث شيئا، بل غطى جبهته وعينيه بالخوذة.

ولاد سيستوف بالصمت. فلم يكن يعرف بإسداً يجيب.

ثم قال الطيار:

— يا غصنار: قضينا وسائلنا للعبور وأغرنا الدبابات مع الجسر. نفذنا المهمة. أتم يكن من اللازم تزويدنا بمقاتلة واحدة على الأقل لتعطية الجميع؟

فقال سيستوف:

— عثنا على اثنين من دقاتكم، ولكنهما قتيلان.

— نحن أيضاً لسنا أحياء، — قال الطيار، ثم أضاف بلهجة أخرى تماماً هي لهجة الإنسان صمم على التحلي برابطة الجأش وأجاد ضبط النفس — هل أعذتم وثقتكما وسلاحكما؟

— أجل — أجاب سيستوف.

وقال الطيار ملتفتاً إلى الجريح الذي أنهمك لوسين في تضييده:

— أفضل ملاح للفرج في التحليقات الليلية والطيران العمى. انه ملاح طائرتي! كان ذلك أفضل طامع في الفوج، وقد قدموه ضحية بالمجان! — صاح الطيار واعتنق ببرائه من جديد، ثم ضبط نفسه في الحال كما في المرة الأولى، وسأل بلهجة جادة:

— هل تتحرك؟

وضموا الملاح الجريح داخل الشاحنة عند الجدار الخلفي لقمريتها، حيث الهزات أقل، ورضعوا تحت قدميه رزماً من الجريدة. وجلس الطيار بجنب ملاحه، عند موضع الرأس. ثم جلس الآخرون، تحركت السيارة، ولكنها قرملت بشدة بعد لحظة لا غير.

كان ذلك هو المفقود الذي انقسم فيه سيستوف مؤثراً بقسماله مع جندي المرأة. وكان الجندي لا يزال مرابطاً هناك. وعندما رأى السيارة عائدة هرع إلى منتصف الطريق وهو يلوح بقبيلة يدوية وكأنه ينوي القاءها تحت الشاحنة.

وسأل الجندي من سيستوف بصوت جعل فؤاد هذا الأخير يتجمد في

داخله:

— أيها الرفيق المرشد؟ كيف يجوز ذلك؟ انشئ افك هنا اليوم الثاني ولا احد يحل محلي ... هل من المعقول انه لا يوجد امر آخر، أيها الرفيق المرشد؟

وادر ك سيستوف انه اذا اجابه بلهجة وافقة بعدم وجود اوامر اخرى وبأن احدا سيأتي ليحل محله فانه سيبقى هنا في مكانه. ولكن من يستطيع القول على وجه التحديد بأن احدا سيأتي ليحل محله؟

— افغيك من نوبتك. — قال سيستوف وهو يحاول عثا ان يفكر الصيغة العسكرية التي نسيها والتي تقال عادة عندما يبقى القائد الاقدم مروض من مهام الحراسة. — افغيك من نوبتك، وفيما بعد ستخبرني بما تريد ان تقول! — كرر سيستوف دون ان يفكر شيئاً من الصيغ العسكرية، وكان يخشى ان الجندي لن ينفذ امره بسبب عدم الثقة في صياغته، كان يخشى ان يبقى هذا الجندي في مكانه فهلك. — اسعد إلى السيارة، ستذهب معي!

تنفس الجندي الصعداء، وشد القبلة اليدوية في طاقه رصم إلى داخل الشاحنة. وسالما تحركت السيارة ظهرت في الجو ثلاث طائرات اخرى من طراز ثب- ٣، توجهت إلى بوبرويسك. وتراقبها هذه المرة إحدى مقاتلاتنا. ارتفعت المقاتلة في الجو عالياً، ثم مررت فوق قاذفات القنابل في محاولة لقياس سيرها البعيل. يسترعها المضاعفة.

— هذه الطائرات الثلاث محروسة. — قال طيار القاذفة التي سقطت، ولاح في صوته شعور بالارتياح تجاوز مصيبتها الشخصية.

وما كاد سيستوف يجيبه حتى ظهرت من السحب مقاتلتان من طراز «ميسرشميت». اسرعتا نحو قاذفات القنابل فاستدارتا مقاتلتا للقائهما. صمدت إلى الأعلى بإزوية قائمة في غطى البوارجة، ثم انقلبت على جناحها ودرقت قرب إحدى المقاتلتين الألمانية وأضربت الناريها. فصاح الطيار في الشاحنة:

— تحرق، انظروا، انها تمشق!

استولت فرجة الناز على ركاب الشاحنة. حتى السائق اسبك بالمقود بيد واحدة وبد بدنه من نافذة القمرة. وسقطت «ميسرشميت» وقفز منها السائق فتح منقلبه عالياً في السماء. وصاح الطيار من جديد:

— سقطت الطائرة الثانية أيضاً، أوكد لك — قال ذلك وهو يهتز عند سيستوف دون ان ينتبه لنفسه.

ارتفعت المقاتلة بسرعة، إلا ان الطائرة الألمانية الثانية ظهرت فجأة فوقها. ولعلت من جديد صليات الرشاشات، فصدت «ميسرشميت»

الى الاعلى. وهبطت مقاتلتنا والذئبان يمشن منها. وانفصلت عنها كلمة صغيرة سوداء. واخذت تهبط بسرعة فائقة لا تكاد تلحظها العين، وعندما كادت تبلغ تم اشجار الضويز، وخيل لرائين ان كل شيء انتهى، انفتحت المظلة اخيرا. قامت «ميسرشيته» باستدارة واسعة هادئة في الجو ثم اتجهت نحو بورويرسك على اثر قاذفات القنابل.

انصب الطيار في داخل الشاحنة وراح يتلفظ بلفظ الشاتم ويلوح بيديه، وانهمرت الدموع على خديه. شاهد سينسوف ذلك للمرة الخامسة، وراح يوجهه الآن كيلا يراه من جديد. لقد سمع مجددا صليات الرشاشات من بعيد، وسرع الطيار يصر بامثاله ويقول يئاس وقتوط: «صعقت». ثم اغلق الطيار وجهه بيديه وهوى على ارضية الشاحنة.

امر سينسوف بايقاف السيارة. كانت المظلة الالمانية لا تزال تموم عاليا فوق الغروب، وكان طيارنا قد هبط في منطقة لا تبدو بعيدة حسب تقديرات البصيرة - حوالي كيلومترين - باتجاه بورويرسك.

وقال سينسوف مخاطبا لوسين:

- اذهب الى الغابة واقبض على هذا القاشي. غنمك عددا من البحاريين.

- هل نحضره حيا؟ - سأل لوسين بجد.

- على قدر الامكان.

لا فرق بالنسبة لمينسوف اذا كانوا سيقبضون على الالمانى حيا ام ميتا. كان يريد شيئا واحدا، هو ان لا يتقابل هذا الالمانى مع القاشيين الآخرين عندما يصلون الى هنا.

فعلوا الجريحيين - الصلاح والتبندى الجالس في الشجرة - من السيارة ووضعوها تحت شجرة، وتركوا في حراستها ذلك المحارب ذا القشيلتين اليدويتين والذي غفاه سينسوف من مهام الحراسة. وفكر سينسوف: «هذا الجندي لن يترك الجريحيين مهما حدث».

نومه لوسين والبريف وباقي الجنود الى الداية القبض. على الالمانى، اما سينسوف فقد اصطحب الطيار وزجلى الليشيا وعاد بالسيارة باتجاه بورويرسك من جديد.

جاءوا الطريق وهم يحدقون في جوانبه لعلهم يلاحظون المظلة من السيارة مباشرة. فهم يتصورون انه هبط على مقربة من الطريق.

في تلك الاثناء كان الطيار الذي يبحثون عنه راقدًا بالغلغل في نسخة صغيرة في الغابة على بعد مائة خطوة عن الطريق. وكلا يظن

الالمان انار عليه في الجو ظل هابطا ببرد اعصاب امداء طويلا دون ان يفتح المظلة، ولكنه اضل الحساب في الاخير وسحب سلفته فتح المظلة بعد ثانية واحدة من الطلب. فانفتحت المظلة قرب الارض تقريبا فانكسرت كلها ساقى الطيار وارتطم عودوه القفري بقربة. وظل راقدًا قرب هذه القربة وهو يعرف بان كل شيء انتهى. فان يده من الخصر حتى الاسفل مشلول نهائيا، ولم يتمكن حتى من الزحف على الارض. وقد على سبيله يتطلع الى السماء وهو ينث دما. اما «ميسرشيته» التي اسقطت مقاتله فقد راحت تطارد قاذفات القنابل الغزاة الآن، ولاح في السماء ذنب دخاني. رقد على الارض انسان لم يكن بهاب الموت علاقا في الواقع. وشلال حياته القصيرة فكر اكثر من مرة بدون ارتعاش الربعة بانهم سيقطون طائرته ذات يوم او يحرقونها شلما اسقط هو واسرق طائرتهم مرارا. ولكنه رغم طبيعته غير الهبائية التي تثير حسد رفاقه فقد انتابته الآن رعب يبلغ حد اليأس. اقلع لحيى قاذفات القنابل، ولكن واحدة منها احدثت على مرأى منه، واتجهت الآخرين نحو الاقوى وهو عاجز عن مساعدها. كان يعتقد يانه راقد في ارض احتلها الالمان، وهو يفكر غاشيا بان القاشيين سيقبضون قربه مسرورين لانه يرقد قتيلًا عند اقدامهم، هو ذلك الانسان الذي كثبت عنه الصحف عشرات المرات منذ عام ١٩٣٧، من الحرب في اسبانيا!

كان حتى الآن يفتخر بذلك، يل ويثافي به احيانا. ولكنه الآن سيكون سيدا لو لم يكتب اسمه عنه ابدًا، ولو طر القاشيين عندما يبحثون الى هنا على جثة الملازم اول الجوهول الذي اسقط قبل اربعة اعوام اول طائرة من طراز «فوكو» فوق مدريد، وليس على جثة الفريق كوزيريف حاليا. ففكر بنفسه ويأس يانه حتى لو مكنته قواه العائنة من تمزيق ثاقفه فان الالمان سيفرقوه وسيطابون بانهم اسقطوه، هو كوزيريف الذي يعتبر من اولائل الطيارين الممتازين السوفيت، اسقطوه دون انى غناء.

ولاول مرة في حياته لمن ذلك اليوم وثق الساعة الفلزين كان يفتخر بهما في السابق حيث استدعا ستالين نفسه بعد معركة خالدين - غول ومنحه ترقية من عقيد الى فريق وعينه قائدا لسلح مقاتلات فيلق باكملة.

انه ليس بحاجة الآن، وهو يواجه الموت، الى ان يكذب على احد: فهو لم يكن يبيد قيادة احد، ما عدا نفسه، وقد غدا جنرالًا ولكنه ظل في حقيقة الامر ملازم اول. وتأكد ذلك منذ اليوم الاول لحرب بانفعل صورة. تأكد ذلك ليس معه وسده. فالبسب في الترقية العاجلة التي تلقاها وغيره هو

البسالة المستقلة التلير والأسرة التي تم إزالتها بالدم. بيد ان نجيحات الجنرال لم تحل له القدرة على قيادة آلاف الناس ومئات الطائرات.

ولأول مرة خلال السنوات الاخيرة التي انشئت لها نفسه وامتلأت بالكبرياء تحسن الآن، وهو يحسبتر وإفقا على الارض معظم النظام بلا حراك، فداحة البأساء التي حدثت له ومدى القذبح غير المتحد الذي اقتره برصيه شخصيا ارتقى رافضا، دون خوف او وجل، قمة سلم التسلم العسكرية الطويل. تذكر تماحله ازاء واقع اقتراب الدلاع الحرب، رمو قيادته عندما اندلعت. وتذكر مطاراته حيث لم يكن نصف عدد الطائرات على أهبة الاستعداد للتحال، وتذكر مطاراته التي احترقت وهي جائئة على الارض، وتذكر ملياريه الذين اقلعوا بيأس تحت قصف القنابل وهكذا قبل ان يتسكنوا من بلوغ الارتفاع السطوب. تذكر اوارمه الشخصية المتناقضة التي اصدرها في الايام الاولى من الحرب وهو في حالة نفسية متسعة مصعومة، حيث كان يحوم بظفرة مقاتلة مجازيا بجناحه في كل ساعة دون ان يتفكر في انقاذ شيء تقريبا.

تذكر البرقية اللاسلكية التي وصلت قبل الهلاك اليوم من احدى فاذفات القنابل تب-3 التي توجهت لقصف المعبر واحترقت والتي كان من الاجرام ارسالها نهارا بدون نظيفة من قبل المقاتلات ولكن ملياريها صعدوا على الاقلاع واقلعوا بانفسهم لان تدمير المعبر امر ضروري مهما كالت الثمن، في حين لم تكن توجد مقاتلات نظيفة والحماية.

عندما حظ في مطار موشيف حيث اسقط في طريقه طائرة «ميرشيت» التي صادفته في اليوم صنع بصامة الاذن صوتا يعرفه جيدا هو صوت الميجر ايشيكو، رفيقه القديم منذ الدراسة في معزة يليبس الجوية: «فلنقاذ المهمة ونحن عائدون. احرقنا اربع طائرات، وسيحرقون الآف. نوبت في سبيل الوطن. وداعا! بلنوا شكرنا لكوزيريف على النطفية الجيدة!». اسلك رأسه يديه ويجلس دقيقة كاملة بلا حراك لكي يقيد رغبة استولت عليه في اعراب السدس والانتصار في المعال هنا في غرفة مناوب المخابرات. ثم سأل عما اذا كانت طائرات تب-3 ستوجه للقصف الجوي ام لا، فقبل له ان الجسر دمر، ولكن هناك أمرا بتدمير الرسمى مع وسائل الميور. ولا يوجد حتى الآن، كما سبق، اي سرب لقاذفات القنابل النهائية، ولذا اعلنت ثلاث طائرات اخرى من طراز تب-3.

ترك غرفة المناوبة راكضا واستقل المقاتلة واقلع دون ان يخبر احدا. وعندما نوبح من السحب ورأى فاذفات القنابل المظلمة في الاسفل ساله

كانت تلك واحدة من لحظات السعادة القليلة التي عاشها خلال جميع الايام الاخيرة. وبعد دقيقة شائن معركة ضد طائرة «ميرشيت» وانتهت هذه المعركة بسقوط طائرته.

منذ الايام الاولى للحرب، عندما احترقت في البطارات جميع المقاتلات الجديدة من طراز ميغ التي تسلمتها المائرة العسكرية مؤثرا، انتقل الى طائرة إي-١٦ القديمة ملبيا بقدرته الشخصية ان بالامكان على هذه الطائرات ايضا مقاتلة «ميرشيت». كان بالامكان مقاتلتها، ولكن بصعوبة كبيرة، فالسرعة غير كافية.

كان يعرف بانته لن يسلم نفسه للاسر، وكان مترددا فقط بشأن لحظة الانتحار، هل ينتحر بعد ان يقتل احدا من الالمان اذا اقتربوا منه، او ينتحر قبل ان يقع في القنبوية كيلا يأسر الالمان قبل ان يموت.

لم يكن في فؤاده مجال للرب. كان فيه امي ولوية لانه لن يعرف مآل الامور فيما بعد. اجل، كانت الحرب مياقة. ولم يكن الوقت للتسلح جيدا. اجل كان هو، والكثيرون غيره في البداية يرتكبون يمارسون القيادة على نحو سوء. بيد ان كيانه العسكري كله يرفض الفكرة الفظيمة، فكرة ان الالمان سيستمرن على خسرنا كما في الايام الاولى، ويرفضها كذلك ايمانه بجيشه ويزاقه، واخيرا ايمانه بنفسه، وهو الذي اضاف اليوم رقم كل شيء طائرين قاضيين الى التسع والعشرون طائرة التي اسقطها في اسبانيا وبتوليا. آه لو لم يستغل طائرته اليوم، لقتهم درسا واي درس! وسوف يلتقونهم! كان هذا الايمان المتحس يبعث في بدنه المعظم، ولايلاحة ظلا ثابتا لفكرة سواد: «لن ارى ذلك ابدا».

زوجه التي بالعت بمكانتها في حياته، شأنها شأن كل الارواح الصغيرة، لن تصدق ابدا بانه لم يفكر بها في ساعته الاخيرة. لكن تلك هي الحقيقة. ولم يفكر بها ليس لانه لا يحبها، ففقه ظال يحبها- بل لانه كان يفكر بشيء آخر تماما. فقد كانت تلك مصيبة عظيمة تتشابل امامها وتتهن المسببة الصغيرة الشأن في هذه اللحظة، وهي عدم رؤية ذلك الوجه الجميل المراتي بعد الآن ابدا.

يقال ان الانسان قبل المبات يتذكر حياته كلها. ربما تلك هي الحقيقة. ولكنه قبل الموت تذكر الحرب وحدها! يقال ان الانسان قبل المبات يفكر في امور كثيرة دفنة واحدة. ربما تلك هي الحقيقة. ولكنه قبل الموت ذكر في شيء واحد هو الحرب. وعندما سمع اصواتا فجأة

وهو في شبه غيبوبة، وعندما رأت عبادة السلطنتخان يالدم ثلاثة اشباح تقف قرب منه، ثم يفكر سعى في هذه اللحظة بشئ آخر غير الحرب، وأم يتبادر إلى ذهنه أي شئ آخر سوى ان القاشيين يقتربون منه وأن عليه في البداية ان يطلق النار عليهم ثم على نفسه. الممسك على المشب قرب يده، لمس رصاصيه الأربعة قبضة الممسك الخشن، كما لمس رصاصه الخامس الزناد. رفع يده من الأرض بجمهورية وضغط على الزناد المرة تلو الأخرى وراح يطلق النار على الاشباح الرائدة الباقية في شيايب الدم. عد خمس طلقات وبه يده بالمسدس نحو وجهه، خوفا من الخلق في المساب، والمطلقة على نفسه في موقع الاذن.

وقفت رجلا البليشيا وسيتيوف عند جثة الطيار المنشر. وقد امامهم اقصان غارق بالدماء في شوة مليار وعلى شارتي ياقة فمضات الزرقاوين نجمات التبريز. حدث ذلك كله في لمح البصر، فلم يتسن لهم ان يفهموا من حول ما رأوا، كانوا قد غلظوا من وراء الشجيرات الكثيفة الى الفسحة فأروا الطيار راكدا على المشب وتادوه وهرعوا اليه، بينما راح هو يطلق الرصاصة تلو الرصاصة عليهم دون ان يلتفت الى مساحهم: «نحن رفاقك!» وعندما وصلوا اليه تقريبا سعد المسدس قعر صدغه وانفجس ثم سكن.

ركع رجل البليشيا الاقدم على ركبيته وفتح جيب القمصانة واخرج وثائق القتيل مرتبها في حين ظل سيتيوف المصموم واقفا وقد امسك بيده جبهته التي اختبرته رصاصة، ظل واقفا دون ان يشعر بالآلام، ولم يلاحظ الا الخدر وآلام ينسج عبر قمصانه. قبل ثلاثة ايام اطلق النار صدقة على الشخص الذي كان يريد انقاذ، والآن كاد الشخص الآخر الذي اراد سيتيوف انقاذه ايقاضا، ثم قتل نفسه وهو الآن واقف عند قدميه مثل ذلك الجندي المجهول الرائد على الطريق.

ربما تصور الطيار انهم الذين يستحقون رجل البليشيا الرصاصيين. ولكن هل من المعقول انه لم يسع لتدافع وعن رفاقك، رفاقك؟! ظل سيتيوف ممسكا بجنبه الليل بالدم، وركع على ركبيته وشد من ريد البليشيا كل ما خرج من جيب صدر التريل. وبينه صورة امرأة -سنا- بدعي مستدير وشعثين كبيرين باصميين رياتين. كان سيتيوف واقفا من فته رأى هذه المرأة ولكنه لم يتذكر متى واين رتحت الصورة وجد بلقافة عضوية الحرب واستفارة الواسم هوية شخصية باسم اغري كوزيريف.

«كوزيريف» كوزيريف... - كرر سيتيوف في محاولة جديدة لتذكرك. وبهذه اللحظة تذكرك كل شئ دفعة واحدة: ليس فقط وجه هذه المرأة التي يعرفها جيدا منذ سنى الدراسة، وجه ناديا كازانيفا أو كما كانوا يسمونها في المدرسة نادكا، بل وكذلك هذا الوجه الذي شوهته الرصاصة والذي يمرره من صورة في الجرائد.

كان سيتيوف لا يزال راكبا عند جثة كوزيريف عندما ظهر طيار قاذفة القنابل والسائق الذنان حرا لسايعها الملاق الرصاص. عرف الطيار كوزيريف في الحال. وجلس على المشب قرب سيتيوف والتي فطرة مسافة على الوثائق وسامها صامدا ايضا، وقال عبارة واحدة لا غير بلهجة مقيمة باللعنة اكثر من المعتن: - يا العجب... - ثم قطع الى سيتيوف الذي كان لا يزال راكبا على ركبيته ويده تمسك بقمصانه البيلة بالدم، وسأله: - اذا يدا؟ - اطلق النار... وبما اعتريه الماضين - أوما سيتيوف الى القتيل.

فكان الطيار: - اطلع القمصانة لاسدك.

يبد أن سيتيوف الذي قاربه الاضواء تذكر الالمان وقال بانف يمكن تضديد فيما بعد، في السيارة، اما الآن فيجب حذو جثة الجنرال اليها. دس كلا رجلي البليشيا ايديهما بشكل غير مريح تحت كفتي كوزيريف ورفعا قليلا وحمله الطيار والسائق من تحت الركبتين، وبما سيتيوف واهم مشرا وممكا جرحه يدا كالسابق وقد احس بالآلام يتزايد عليه.

- يجب تضديدك - كرر الطيار عندما وضعوا جثة كوزيريف داخل الشاحنة التي تحركت بهم.

علع الطيار قمصانه على عجل والسيارة سائرة، ثم خلع قميصه وامسك بأذنيه باصابعه القميرة القوية ومرتة الى عدة قطع دون ان يلتفت الى اعتراضات سيتيوف. ثم رفع ملوف قمصانة سيتيوف وشده بقطع من قميصه وقال بلهجة عارلة بالامور:

- جرح قاذف، ميلشم. وستصل دون ان توت. فلتسحب القمصانة الى اسفل. سحب القمصانة وشد الحزام عند الخصر اسفل الجرح لأن سيتيوف من الألم.

- الشيطان يعلم كيف استطاع ان يفسيك... قال الطيار بلهجة اعتذار بعد ان التقى نظرة على سيتيوف، ثم على كوزيريف التريل، ثم على سيتيوف من جديد.

بعد يضع دقائق وصلوا الى السكان الذى تركوا فيه البريجين .
كان السلاح الجريح فى غيبوبة ، اما الجندي المصاب فى ساقه
فقد رقد على ظهره وتلاحقت انفاسه الشائفة . وجلس قريبا جندى الحراسة
بجانبه اليويين .

اين الباقون؟ - سألهم سينتوف .

- هربوا الى هناك - اولى الجندي ياتجاه موغلييف - حملت الريح
المظلة بعيدا الى هناك . ربما يقبضوا عليه . سمعت اطلاق رصاص .
اعتقوا الجريجين والجندي واصلت الشاشنة سيرها .

اصر الثليار على ان يجلس سينتوف فى القمرة هذه المرة .

- ووجهك شاحب جدا ، فلا تكن ... - غاطبه بكلمة يديته ولكن بركة
وسنان فالصاع له سينتوف .

كانت المدفعية خلفهم تدوى بين الفينة والفينة ، وفى بعض الاحيان
تعمل هبات الريح اصوات صليات الرشاشات . قطعوا كيلومترين وتوقفوا ،
فلم يروا لرسين والجنود .

ثم انك سينتوف نفسه يصعبه اذ كان راغيا فى السير الى ابد خليا ،
واستمع من جديد الى اطلاق النار الذى تحمله الريح وقال بانه يجب الانتظار
هنا الى ان يخرج من الغابة الرفاق الذين توجهوا لتحصين الالمانى .

وتهاذت من الخلف كالسابق اصوات اطلاق النار . ونجس سينتوف
نظرات متسائلة متجهة صوبه ، ولكنه صمم على ان ينتظر خمس عشرة
دقيقة ، فظل جالسا ينتظر . وعندما بلغ غروب دقائق الساعة المد المقرر قال :

- فادهم من جديد .

راج رجل البليشا الاقدم يصيح مكورا وراسته كالقوى على فمه . الله يعلم
كم مرة صاح بصوته المدوى ، ولكن الغابة لا تزال صامتة كالسابق . فقال سينتوف :
- قتلتم سافة اخرى .

غير انهم قطعوا مسافة قصيرة جدا . فقد اوقفهم بعد نصف كيلومتر
ملازم بيزة الدبابات كان قد خرج من الغابة الى الطريق . كان غائبا وعلى
صدره بتدق رشاشة المانية . وبين ورائه نهض من الساحة الدوابة لطريق

الثان من جنود الدبابات يمينتين مصوبتين :

- قفوا ! من اتم؟ - فتح البلازم القمرية بشدة .

فاجاب سينتوف بانه من هيئة تحرير جمهورية بيهورية ، وهو الآن يبحث
عن رفاقه الذين توجهوا لقتلهم على طيار الداني .

- من هم رفاقك؟ كم عددهم؟

فاجاب سينتوف ان عددهم سبعة : محارب مرشد سياسى وعريف وشمة
جنود . وشعر لسبب لا يعرفه بانه مذنب فى شيء . فقال الملازم ساعرا :

- هكذا اذن . لقد احتجزناهم ، وهم يقولون بانك ساعدتهم على الفرار

من الجيش ! اوقفوا السيارة بعيدا عن الطريق وتماثلوا حتى الى آخرنا وسوف
تأكد هناك من هم رفاقنا ومن هم رفاقكم ومن اتم فى شقيقة الامر !

اثارت هذه الكلمات غضب سينتوف ، بيد ان شعوره المتزايد بذنبه
الارواحى حال دونه ودون الاقتدار . وبدلا عنه انقبض الشخير الذى عد بده
من داخل الشاشنة :

- يا هذا ! - صاح بالملازم - تعال هنا ! البجير يكلمك ! تعال هنا
وبعد متفارك !

لاذ الملازم بالسمت ، وانضخت اوداجه بالغضب ، ولكنه اقترب من الشاشنة
واقفى نظرة على داخلها . وما رآه هناك لين قلبه ان لم نقل جملة يغير رأيه .

- تقدموا مائة متر ، وهناك مدخل الى الغابة ، فاستديروا فيه ! - قال
سينتوف متجهما وكأنه يؤكد بانه ليس ملزما بالاعتذار . - قفى كل الاحوال
لدى امر يعلم السلاح لاحد بالمرور ...

- يا يورتيغايين ! - صاح على احد مساعديه من جنود الدبابات -
اصعد الى البنيان ، ورافقهم الى الكايش ! فبا ! - اوقف من جديد الشاشنة
التي تمركت - فلنزل المقاتلون من السيارة ! متبقون هنا !

قفز من السيارة كاذبلى الفيليبيا والجندي ذو القنبلتين اليويين .
فان لهجة الامر لم تترك مجالا للماطلة .

- تحرك ! - لوج الملازم بيده ليس لسينتوف بقدر ما لجندي الدبابات
الذى وقف على عتبة السيارة لمرافقتها .

عندما دخلت الشاشنة الغابة بعد ان سعلت بصريه تحت فلفلها الكبير
الاغصان التى ردمت بها ساقية الطريق شاهد سينتوف مدفين من عيار ٣٧
سلم مخبأين بين الشجيرات واموزتاها مصريتان نحو الطريق . وجلس قرب
المدفين جنديان متباعدة القدمين الواحد مقابل الآخر ، وقريهما كومة من القنابل
اليوية وحزمة من اسلاك التلغوك ، وهما منهككان فى ريبك القتال .

سارت الشاشنة فى درب مترج بين الاشجار حتى بلغت فسحة صغيرة
خاصة بالرجال . وهناك شاحنة فى داخلها صناديق عتاد وكومة بنادق ، والى
جانها وقفت سيارة اتصال مصفحة مغلفة باغصان الشوح .

اصطف اربعون جنديا يحملون البنادق وراح عريف الدبابات يصدر
اوامره المتقطعة بالاصطفاء والفرار. رأى سينتوف بينهم وجوها يعرفها ممن
ارتحلوا معه بالسيارة.

وقرب السيارة المصفحة جلس على الارض كائنا دبابات يرتدى خوذة
وقد استند بكوعه الى صندوق التلغون اليدائي واخذ يكرر في السماعه:

«الو، الو، الو...»

والى جانبى جلس عسكري دبابات آخر يرتدى خوذة ايضا ووراها

وقف لوسين وهو ينقل ثقله من رجل الى رجل. وضع الكابتين الساعة ونهض متسائلا:

«متى سيدون سلك الاتصال يا ترى؟»

كان قد رأى بالبلطح السيارة التى وصلت وكذلك سينتوف والطيار
اللذين ذلوا منها، ولكنه تامل وكأنه لم ير احدا، وبعد ذلك فقط سقى
بالقادين. ومائل بكلمات متقطعة جمعت كل المعلومات فى جملة واحدة:

«اننا مساعد قائد فرقة الدبابات السابعة عشرة لشؤون المؤخرة، واتساءل
من انتم؟»

مظهره لا يشبه اطلاقا مفكر رجال المؤخرة رغم تأكيد على انه
مساعد فى شؤون المؤخرة. فهو كبير الجسم ويملك العمل القذرة المذقة التى
يرتديها محروقة من الجنب، ومسلط يده اليسرى مضط حتى الاصابع يشأى
تتمتر عليه الدم، وعلى صدره تتدلى بقية المانية كالثى على صدر الملازم،
وقدنه غير حليق من زيان، وبوجهه مسود من القصب، وينبأ تشمان بلغم رتيب.
«اننا...» بدأ «الطيار بالكلام، ولكن مظهره يدل تماما على هويته.

تفامله الكابتين باياداة وقال:

«واضح انهما الرقيب الميجر. انت من قادة التتالي التى استعقلت،
اليس كذلك؟»

هر الطيار رأسه بالايديا مشجها.

«ولكن انت، انا واثناك» غط الكابتين غطوة نحو سينتوف.

«لقد كانت لكم» تكلم لوسين اللواقف وراء الكابتين.

«الزم الصمت!» تامله الكابتين غير المكثف دون ان يلمح اليه.

فقتبعت تملتل! انا واثناك! - كرو الكابتين اخطالا سينتوف بنزلة

من العشوة.

«فى البداية ارنى واثناك انت! - انضم سينتوف مائحا بالكابتين

بسبب موقفه غير اللوى تماما.

«اننى فى مواقع وحدتى ولست ملزما بعرض واثناكى على احد» قال
الكابتين بهذين غير متوق بكس سينتوف.

اعرج سينتوف هويته الشخصية وبطاقة الاجازة، وتذكر الان فقط ان
الوقت لم يمهله لاستلام الوثائق الجديدة فى الجريدة. شعر بعدم الثقة بالنفس
فراح يوضح القضية، مما زاد فى عدم ثقته بنفسه.

«وثائق غامضة بعض الشيء» قال الكابتين مائحا وهو يميدها الى سينتوف -

ولتفترض ان القضية كما نقول، فلماذا تنقل الناس من الخط الامامى الى
المؤخرة، من الذى عوك بذلك؟

منذ اللحظة التى قال له فيها اللازم شيئا من هذا القبيل على طريق
السيارات كان سينتوف راغبا اشد الرغبة فى ان يوضح ان ذلك سوء فهم.
ذكر كيف هرع الجنود الى السيارة وكيف اخضعهم معه كى يتقدم، وكيف
اخذ قضا بعد جندي آخر.

الا ان ما اثار دهشته ان الكابتين لا يعتبر كل ما حدث من سوء
الفهم. بالمكنس، ظهر بقصه ذلك بالذات:

«الرجب يهول الامور! هل يمكن قليقة واحدة من دبابه ان تغفل
عشرة اشخاص دفعة واحدة؟ وفى النهاية؟.. كذاين! سقطوا من الرجب، اما
اثنين مرتبة فقد ترك نصفهم بدلا من جمعهم، ثم اطلق سائيه فريج على
الطريق. اما انتم فقد خدمتم بهم! فبهذه الطريقة يمكن نقل اعداد كبيرة من
الناس الى المؤخرة: ينضمهم اترتب والبعض الآخر ييسث عن وحدته
فى المؤخرة... يجب البحث عن الوجدات فى المقدمة، هناك حيث يوجه
الكل!» واضاف الكابتين الى قوله هذا شئمة باذية خففت من غضبه، ثم

قال بصوت اهدأ وايضا بيده نحو العريف الذى يمارس تدريب المغالين: «

هناك سيمودون الى رشدهم استعدادهم الى رشدهم وتتودهم فى المعركة» فقال
للدعورين الى موغلييت غير جائز. قددهم هالك ليس بالمقابل! اتنا بحاجة الى

المغالين هنا. فقد ارنى قائده الفرقة ان اعد حتى هذا الساء امدادات عددها
٣٠٠ شخص ممن يتشكون فى اللقيات، وسوف اعد تلك الامدادات. اعاهدكم

على ذلك! وسأخذ مرشدك السياسى وسأخذك ائت ايضا» اثبات الكابتين
بلهجة متحملة على نحو غير متوقع. فقال الطيار متجهما شانه فى كل ما يقوله:

«انه جريح فى جنه. يجب نقله الى المستشفى».

«جريح؟» سأل الكابتين والاحت فى نظراته رغبة مراثية لعمله على
خلع ثيابه وعرض جرحه.

وفكر سينتوف: «لم يصدقوه، وتجاهه فؤاده من شدة الغضب.
الا ان الكابيتن رأى بنفسه البقعة القائمة على قمصلة سينتوف. فاستدار
نحو لوسين قائلا:

- اخبر مرشدك السياسى لماذا ترفض البقاء والمشاركة فى المعركة.
ام انك جريح كذلك وتخفى الامر على؟

- لست جريحا! - صاح لوسين بصريز غير متوقع، وانكشف وجهه
الجميل مثلثويا. - ثم اننى لا ارفض شيئا. انا مستعد لكل شيء! ولكننى
سكفت من قبل رئيس التحرير بان اؤدى المهمة واعود، ولا استطيع التصرف
على هواى بدون امر من رئيسى!

- بماذا تأمره؟ - سأل الكابيتن من سينتوف. - اوضاعنا صعبة. وليس
لدى ولا مرشد سياسى واحد المجموعة كلها. فككتنا الحصار اس لا غير،
اما اليوم فقد زجوا بنا لسه نغرة للاخريين. وفى الوقت الذى اجمع فيه
الناس هنا قضى فرقتنا هناك، على فھر بيريزينا، ياخر رجالها!

فقال سينتوف بدون حماس:
- اجل، بالطبع يمكنك ان تبقى ايتها الرفيق لوسين اذا كنت راغبا.
ولو كنت انا... رفع بصره الى لوسين فادرك من نظرة عينيه انه لا يريد
البقاء، بل ينتظر منه كلاما غير هذا.

- اذن انتهيها - قال الكابيتن مخاطبا لوسين مباشرة وبلمحة صارمة -
اذهب الى المرئف ومارس قيادة المجموعة بالتعاون معه.

- اخبر رئيس التحرير بهذا التصرف المتعسف، ثم انك ايضا...
صاح لوسين يوجه سينتوف، ولكنه لم يتمكن من اكمال عبارته لان الكابيتن
اداره قسرا بيده القمصلة ودفعه الى الامام.

- سيخبره من كل يد! اذهب وفقد الامر. فانت فى فرقتنا الآن.
واذا امتنعت عن تنفيذ الاوامر ساركك من طعم الحياة.

انصرف لوسين وغاص رأسه بين كتفيه، فلم يبد، فى لحظة واحدة، ذك
العسكري الاقنق الفارغ القائمة كما كان عليه قبل ذلك، اما سينتوف
فقد شعر بجور فقلع رشر على الارض.

تطلع اليه الكابيتن باستغراب، ثم تذكر بانه جريح فهم بان يقول
شيئا، الا ان جهاز التلفون بعث صاصة خفيفة فالتفت الكابيتن الساعة على
عجل:

- اسمعك ايتها الرفيق المقدم! ارسلت مجموعة فى الاتجاه القديم،

وشكلت مجموعة اخرى، الى اين؟ سامجل فى الحال. - اعرج من عب بدته
خارطة مغالوية ياربع صفحات ويبحث بنظراته عن نقطة ما ورسم عليها خطا
عيقا بنظره. - امرك. تراطيب فى الكمين. - وادرك سينتوف انه يتكلم عن
المدفعين قرب طريق السيارات - وربطنا القنابل اليدوية اذا دعت الحاجة. ان
لجعله يبر!

صمت الكابيتن وظل طوال دقيقة يستمع وارتمت على وجهه امارات
الفرحة. ثم قال اغيرا:

- كل شيء واضح، ايتها الرفيق المقدم، واضح تماما. عندنا الآن... -
اراد ان يقول شيئا، ولكن الذى كان على الطرف الثانى من السلك قطع
الاتصال على ما يبدو، فقال الكابيتن مرتبكا: - امرك. انتهى الكلام. ذكرت
انا ايضا كل ما على.

وضع الساعة على جهاز التلفون ونهض وتطلع الى وجه الطيار
بنظرة مبهمة وكأنه قادر على ان يقول شيئا سارا لهذا الانسان الذى احترق
طائرته ترا وذلك رفاقه على مرأى منه. وقد قال بالفعل، قال الشيء الوحيد الذى
يمكنه ان يفرح الطيار الآن:

- المقدم يقول ان من السعيد اليوم قيام الالمان بهجوم عبر طريق
السيارات. فقد عبر قسم غير كبير من دبابات الالمان. اما الباقى فقد

اوقفتموه اتم وراء فھر. بيريزينا. الجسر تحطم شذر مذر، ولم يبق له اثر.
- الجسر شذر مذر وضمن شذر مذر. وما داعى للافتخار! - قامله

الطيار، ولكن تماثيل وجهه انفتحت عن افتخاره بهذا الجسر رغم كل شيء.
- ما اقطع اشتراق طائرناكم! غصصنا اصابتنا باسناننا من الاسف! -

قال الكابيتن فى محاولة لتخفيف على الطيار - سقط طيار البانى هنا، وادرت
ان اتجسر عليه حيا، ولكن هيها. هل يمكن اقتاع الناس بدم قتل به
كل ما شاعدهو!

- اين هو؟ - سأل سينتوف وهو ينهض بصعوبة.

- هنا، يرفد وراء الشوح. من الانفصل ان لا ننظروا اليه - لوح الكابيتن
يبد - كما لو دامت دبابية... - وانصاف بدم ان لقي نظرة على سينتوف الشاحب

بمعل الزئيف: - يمكنك ان ترحل طالما انت جريح، فلا مانع لى من سفرك.
- فى سيارتنا جريحان آخران. - قال سينتوف وكأنه يبرر جريوة

اقتربها - وقيل - اراد ان يذكر ان القنابل يربثة فريق ولكنه عدل عن ذلك:
فما الداعي للكره؟ - فلذهب - قال مخاطبا الطيار.

- اعتقد بانى سابقى هنا - قال الفيلارد بحزم وبدون استعجال: كان يفكر بذلك طوال الوقت، وقد صمم الآن ولا يريد التراجع عما صمم عليه - هل تعطىى بنديقة؟ - سأل من الكابتن .

- كلا - هر الكابتن رأسه بالرفض - كلا، يا عزيزى الصقر! ما حاجتى اليك، وماذا ينفعا بئذاك؟ اذهب الى هناك - أوما الى الجو بشم! يده المغمدة - اننا نراجع ابتداء، من سولسك ونأتالم يوبيا لقلعة تمليقاتكم. اذهب وسلق، لوجه الله، ذلك كل ما هو مطلوب منك! اما الباقى فتؤديه بانفسنا! توقف سينتوف قرب السيارة منتظرا الخاتمة .

الا ان كلمات الكابتن لم تؤثر فى الفيلارد. فلو كان لديه امل فى الحصول على طائرة جديدة بدلا من طائرته التى تحطمت لما بقى هنا، ولكن لا امل له فى ذلك، فصمم ان يقاتل على الارض. وقال لسينتوف:

- اذا لم تعطىى بنديقة ساحصل عليها بنفسى. - وادرك سينتوف ان الفيلارد لن يتراجع عن عهده - ارتحل، ولكن ابذل جهك لايصال الملاح الى المستشفى حسب الاصول .

لزم الكابتن الصمت. وعندما سمع سينتوف الى قمرة السيارة ظل كابتن الدبابات والفيلارد واقفين صامتين جنباً الى جنب: احدهما شخم فارغ القائمة والآخر قصير عريض الكتفين وكلاهما عتيدان غاضبان متألمان للاخفاقات ومستعدان لقتال من جديد .

- ما هو لقبك ايها الرفيق الكابتن؟ - سأل سينتوف من القمرة يمه ان تذكر جريده تة لاول مرة .

- لئى؟ لماذا تسأل عن لئى؟ هل تريد ان تشككى على؟ عينا تحاول . لئى هو لقب كل ابناء روسيا . ايفانوف . سجله . ام انك متفكره بدون تسجيل؟ عندما خرجت السيارة من الغابة الى الطريق رأى سينتوف من جديد الجندي الذى اعفاه من مهام الحراسة . كان قد جلس مع الجنديين الآخرين وراح يفعل كما يفعلان: يربط القنابل اليدوية يسك التلغون كل ثلاث او اربع مما استغرق الطريق حتى موفيليف اكثر من ساعتين . فى البداية تهادى مدير الدفعة من الخلف، ثم عم السكون . وعلى مسافة عشرة كيلومترات من المدينة رأى سينتوف مدافع تجرها الخيول الى مواقعها على شمال الطريق ويمينه، ورأى رقلا من المشاة يسير على الطريق . كان فى وى غائم، وبخيل اليه انه راغب فى النوم، اما فى الواقع فقد انتابته التعبوية بين سين وآخره، وكان يفتق منها كل مرة .

على اطراف موفيليف كانت مقاتلتان تحومان على ارتفاع كبير لاغراض الحراسة ويدل صمت الدفاع المضادة الجو على ان المقاتلتين من طائرانا . تطلع سينتوف اليهما فرأى انها من طراز سيغ . كان قد شاهد هذه الطائرات فى قروندو فى الربيع . وقال عنها المارون انها اسرع من ميسرشميت، بكثير .

هالست الامور سيئة الى هذا الحد - فكر سينتوف من خلال الشعب والالم دون ان يفكر بان هذه الثقة ظهرت لديه ليس من رؤيته لقوات التى تشغل مواقعها قرب موفيليف ولا طائرته الصيغ اللاتين تحترسان اجواء المدينة، بل على الاكثر، من تذكره لرجال الدبابات الذين احتجزوا سيارته، وتذكره الجلازم الشبه برؤس المقدم .

عندما توقفت الشاحنة قرب المستشفى العسكرى استجمع سينتوف قواه لآخر مرة: اسلك بمنى السيارة واقظفر حتى ينقلوا منها السلاح الفاقد الوعى والجندي الذى يثن عبر اسنائه المصطكة والفريق القاتل . ثم امر السائق بان يتوجه الى الجريدة ويخبرهم بانه ظل فى المستشفى .

اغلق السائق مؤخرة الشاحنة . والتقى سينتوف نظرة على رزم الجريدة الناقطة فى الدم وتذكر بانهم لم يوزعوا منها شيئا فى الواقع، ثم بقى وحيدا على قارعة الطريق .

دخل بنفسه بدمه استلام العرضى . اخرج من جيبه وثائق الفريق ووضمها على الطاولة، ثم اخرج هويته الشخصية ومد يده بها الى العرضى، وقيل ان تأملها منه استلزام على جيبه بشكل غريب وهوى على الارض قائل الوعى .

بعد ساعة اكتم قوتندان موغليفت المكري، وهو نفس الجير الذي راجعه سينتوف قبل اسبوعين ولكنه هذا اكثر انفعالا بسبب الارق، ان هيئة تحرير الجريدة الجبهوية ارتحلت قبل يومين. وفكر سينتوف متزعجا ولم يكلفوا أنفسهم باشماري.

-الى اين ارتحلت؟

من القوتندان كنفه وقال بانهم لم يخبروه بوجهتهم. انتقلت اركان الجبهة الى منطقة سمولينسك، وعلى اثرها ارتحلت هيئة التحرير.

-عشا غادرت المستشفى قبل الاوان. كان من الافضل ان تنتقل مع المستشفى الى دوروفويوج ومن هناك تبحث بشكل طبيعي عما تريد. اجتاحت سينتوف هاجس بغض بضرورة التجوال والترحال من جديد.

-شعري اية وحدات توابط عموما في منطقة موغليفت؟

-وماذا يعينك منها؟

اجاب سينتوف بانه يريد الوصول الى هيئة اركان اقرب فرقة عسكرية ليلقى هناك فترة ويجمع الدواد الجريدة ثم يذهب الى هيئة التحرير ليس خالي الوفاض على الاقل.

فتح القوتندان الخارطة على مفضس وأشار الى غابة صغيرة على الضفة الثانية من نهر الدنيبر على بعد ستة كيلومترات تقريبا عن الجسر. وقال ان اركان الفرقة ١٧٦٨ كانت مرابطة هناك.

بعد ان اجاز سينتوف جسر الدنيبر وقطع ثلاثة كيلومترات على طريق موغليفت-اورشا سمع اطلاق المدفعية من خلفه، وراه النهر. توقف على الطريق لمعطات ورائد يستمع الى هدور المدفعية المتقات ثم سار من جديد وهو يفكر في الشيء ذاته، فيما بدأ يفكر به حالما خرج من مقر القوتندان: ما الذي سيحدث؟

كانت اركان الجبهة موجودة قرب مينسك، ثم قرب موغليفت، وقد انتقلت الآن الى منطقة سمولينسك، اي انها اقتربت من موسكو لمائة وخمسين كيلومترا اخرى...

وبهذا حمل العره نفسه على التفكير في ذلك بشيء من الهفوة فان الجغرافية نفسها تهشم الدماغ تهشما.

تلم سينتوف الكثير خلال الاسبوعين اللذين قضاهما في المستشفى. فما اكثر الاشاعات التي سمعها خلال هذه الايام والتي جعلت الدم يغور في الشروق تارة والنفاد يتجدد تارة اخرى! ولو صدق الاشاعات البنية وحدها

الفصل الثالث

بعد اسبوعين من اصابة سينتوف سمحا له بالمشي في حديقة المستشفى مرتين في اليوم. آنذاك وصل امر بترحيل المستشفى الى دوروفويوج. انتشرت بين الجرحى في الحال الشائعة تقول ان الالمان عبروا نهر الدنيبر قرب شكوف وانهم يلتفون حول موغليفت من الشمال.

كان الجرح وموقعا على حد تغيير الطبيب الذي اجرى عملية جراحية لسينتوف: فقد انزلت الرصاصة على الفلوج.

وعندما احس سينتوف بالنقاعة التامة تقريبا راجع نائب مدير المستشفى للشؤون السياسية طالبا منه ترخيصا بمناذرة المستشفى. كان الترحيل المرتقب يخيفه. فهو لا يريد ان يبحث فيما بعد عن مقر جريدته من جديد. فقال النائب مرتابا:

-يخيل الى ان هيئة التحرير ارتحلت.

الا ان سينتوف قال ولما بان ذلك مستحيل. فلو ارتحلت حقا لاخذته معها. فقد وعده رئيس التحرير بذلك.

لم يلح عليه النائب الغارق حتى اذنيه بشؤون ترحيل الجرحى، فظالما يريد هو مناذرة المستشفى فليخادره!

وعند الظاهر خرج سينتوف من بوابة المستشفى بعد ان تسلم وثائقه واليته. كانت موغليفت فارغة نسبيا ويسودها التلق. فقد ظهرت المتاريس على الشوارع، ونصبت الرشاشات وراء حواجز من الاكياس في قواعد اركان المناك.

وقف عند مبنى مطبعة موغليفت التي كان سينتوف يأمل في العثور على هيئة التحرير فيها حارس غير ميال الى الكلام. الابواب وبوابة الباحة الحديدية مغلقة باحكام. ولا يصل من الداخل لا ضجيج المكائن، بل ولا اي صوت آخر. فقد غيم سكوت مطبق على كل شيء.

لحين من زمان، ولو امتداد من الذاكرة الاشاعات الجيدة فقط لراح في آخر المطاف يقرض يده ويخاطب نفسه: كفى! اذا كان الامر كذلك فما سبب وجودي في المستشفى، وفي موفيليف؟ وما الذي يجعل الاحوال على هذه الشاكلة بالذات؟

في البداية عرل لينستوف ان حقيقة الحرب تقع في الوسط، بين هذا وذاك. ولكنه ادرك فيما بعد ان ذلك ايضا ليس هو الحقيقة. فان اناسا مختلفين تحدثوا عن الامور الجيدة والسيئة على حد سواء. وهم يستحقون الثقة او لا يستحقونها ليس بسبب ما تحدثوا عنه بالذات، بل بسبب الكيفية التي يتحدثون بها.

جميع الذين رقدوا في المستشفى لهم علاقة ما بالحرب، والا لما نقلوا الى هنا. بيد انه كان بينهم كثيرون لا يعرفون حتى الآن غير شيء واحد هو ان الالمان يحملون الدوت، ولا يعرفون شيئا آخر هو ان الالمان ليسوا في منجى من الموت.

وكان اكبر قدر من الثقة هو من نصيب اولئك الذين يعرفون الشينين، والذين اقتنعوا من تجربتهم الخاصة بان الالمان يعرفون ايضا. ومهما كانت الامور التي يتحدثون عنها جيدة او سيئة فمن خلال كلماتهم يلوح هذا الشعور. وتلك هي حقيقة الحرب.

ومن هؤلاء الأشخاص كابتن الدفعية الذي تلقى سينستوف منه درسا في الغاية بقواسي بوبرويسك.

القضية ليست في شجاعة هذا الشخص وجبن ذلك. القضية تتلخص في ان الكابتن كان ينظر الى الحرب في ذلك اليوم بنظرة تختلف عن نظرة سينستوف. الكابتن يعرف جيدا ان الالمان ليسوا في منجى من الدوت وانهم عندما يموتون يتوقعون في زحفهم. وهو يخضع كل اعماله لهذا الواقع عندما يفكر على هذا النحو. وكانت الحقيقة بالبلع الى جانبه. كان سينستوف يريد ابعاد الخطر عن الأشخاص الذين هرعوا اليه طالبيين النجدة. اما الكابتن فكان يريد انقاذ الوطن بأرسل هؤلاء الأشخاص الى المعركة.

لم يحتل الالمان آنذاك موفيليف، والسبب بالطبع هو ان بقايا الفرقة التي خدم فيها الكابتن وكل الذين حاولوا القتال والتفوا حول تلك البقايا في ذلك اليوم كانوا يعرفون ان الالمان ليسوا في منجى من الموت. وحتى الذين لا يعرفون ذلك عرفوا في المعركة. فقد قتلوا الالمان وامانوا ولكنهم ربحوا يوما كاملا: فمنا النساء تركزت خلفهم فرقة مشاة جديدة.

علم سينستوف بذلك من رئيس التحرير الذي زاره في المستشفى في اليوم التالي.

أطرى رئيس التحرير على سينستوف بعد ان علم بنبأ الرحلة الى بوبرويسك من سائق السيارة، واعرب عن قلقه على لوسين ولام كابتين الدبابات بشدة على تصرفه الجائر، حتى ان عروفا قمرية انتفخت على عديه التهليلين الطيبين المرتثين من الغضب.

اما سينستوف فلم يكن يشاطر رئيس التحرير مشاعره تلك. كان يعلم بانه قام خلال ذلك اليوم بحماقات كثيرة. ومن حذن الحظ ان تصرفاته تلك لم تكن ناجحة عن الجبن. زد على ذلك انه شانه شأن أي شخص يرقد في المستشفى ويفكر بجراحه كثيرا، قد عجز عن التخلص من الفكرة المؤلمة بان الطيار كان يمكن ان لا ينتشر لولا شمشا رجلي المليشيا الرصاصيان اللعينان الشبهان بالبرزة الالمانية. فان سينستوف لم يفكر بذلك آنذاك، والحال بالحرب تتطلب من الناس ان يفكروا، وان يفكروا طوال الوقت على ما يبدو. وما كان يوصيه ان يشاطر رئيس التحرير غضبه بخصوص لوسين. فان المرشد السياسي لوسين توجب لتوزيع الجريدة، فوجد نفسه في المعركة. ثم ماذا؟ ذلك امر محتمل، وقد حدث بالفعل. وما يقلق سينستوف هو تذكره لكثيرة على وجه لوسين الملتوي. لم يكن لوسين راغبا في البقاء هناك. ولكن الكابتن قال له: «اذا امتنعت عن تنفيذ الاوامر ساهوك من علم الحياة!» فالي م انتهى هذا الجدل؟

حاول سينستوف ان يمرض رايه على رئيس التحرير الا ان هذا اجابه قائلا:

— ماذا؟ هل تطلب مني ان اوزمكم جميعا على الوحدات المقاتلة؟ اليوم لوسين وفدا سينستوف وبعد غد لا ادرى من.

هذا الرأي صائب على العموم، ولكنه، على الخصوص، وضعا يتذكر سينستوف تلك الغاية وتلك اللحظة وذلك الكابتن، يبدو له، على العكس، غير صائب اطلاقا.

تحدث مع رئيس التحرير ساعة كاملة، ولكنهما، على ما يبدو، لم يفهما بعضهما البعض.

وبعد بضع ساعات جرى حادث ازاح لامة طويل جميع الافكار والشعائر الاخرى. فقد سمع سينستوف خطاب شائلين بالراديو.

كبير الصوت ملق في الزوايا قرب طاولة المعرصة المتأوبة. ففتحوا

الكبير بأعلى قدرته، ونصوا أبواب الزهدات على مصاصيها.

تكلم ستالين بصوت يلهل، ميكوت وبشرة جهورية متضرة. وإثناء الخطاب سمعت، مرة، طليقة الفتح حيث شرب جرعة ماء. كان صوت ستالين رخيما غافقا قد يبدو هادئا تماما لولا الفجأة المتبعة المتألفة ولولا قبح الماء الذي أخذ يحسبه إثناء الخطاب.

ورغم انتماله ظلت نغمات صوته متباعدة، وأنساب هذا الصوت الميكوت بلون تعرجات وديون علامات تعجب. وكانت قوته تكمن في عدم التناوب بين هذا الصوت المتناقض وبين الفجأة التي يحدث عنها. ولم تعد في تلك القوة احدا، فالجميع يتوقنونه من ستالين.

كان المراقبون يحزنونه بطرق شتى: حيا لامتناهيا وحيا متفظا. كانوا محبين به وخائفين منه بعض الشيء. وكانوا أحيانا لا يحزنونه. بيد أن احدا لم يشك: بيبانته وأرادته الحديدية. وتلكنا الحبيبتان بالذات هما اللتان اعتبرتا أكثر ضرورة لدى الإنسان الذي تزعم البلد البحار.

لم يعتبر ستالين الوضع قاجا. فمن الصعب تصور هذه الكلمة على شفتيه. إلا أن ما تحدث عنه - الجيش الشيوعي والاراضي المحتلة وحرب الانصار - يعني نهاية الامم. كنا نترجم في كل مكان تقريبا، وكنا نترجم على مسافات بعيدة. كانت الحقيقة مرة كالمعلم. ولكنها حقيقة قبلت في آخر الامر وتم الاعتراف بها، فصار الصدود على الارض مع تلك الحقيقة أمثا وأربع. وكان الرمت يتبع قوة ويحدث شيئا فيكون ستالين يتحدث عن البداية الفاشلة في هذه الحرب الهائلة الفظيعة دون أن يثير لدرجة كبيرة الكلمات والتعابير التي اعتاد عليها، باعتبارها صدمات كبيرة جدا يتعين تذكليها بأسرع ما يمكن.

تلك، على أية حال، هي تفكيرات سينتوف الرافدة في الليل على سرير المرضى وهو يتذكر من جديد. وسط الذين جازوه المحتضر كل تفاصيل خطاب ستالين ونفاذ الذي يمزق نياط الفؤاد: «يا اصدقائي!»، ذلك النداء الذي راح المستشفى الذي يكرره طوال النهار.

سأل سينتوف نفسه في هذه الليلة وهو طريح الفراش: سؤالا يطرحه الناس عادة في سن القوة، سأل نفسه لأول مرة وهو في الثلاثين: وهل سافسي بيباتي من أجل ستالين المجردة أن يقول لي احدا: مت انت لكي يعيش ستالين؟ اجل، سافسي بيباتي، وهذه القضية اليوم امهل مما في لي وقت آخر!.

«يا اصدقائي...» كرر سينتوف فداء ستالين هاسا وادرك فجأة بأنه كان من زبائن في كل الاعمال الكبيرة بل والفضيحة التي قام بها ستالين ويتذكرها هو، بحاجة ماسة الى الكلمات التي قبلت اليوم: «هالواني واخواتي! يا اصدقائي!»، والاصح انه بحاجة ماسة الى الشاعر التي تتلوى عليها هذه الكلمات. هل من المعقول ان مثل هذه الكلمات والشاعر لا تظهر الا بظهور فاجعة كالجرب؟!.

ذلك تساؤل مؤلم مريرا اتصل عنه سينتوف مرتبعا في الحال كما يتضمن الانسان من فكرة تافهة غسية، مع انه لم يكن تسائلا ثائها ولا غسية. كان تسائلا غير متعاد لا أكثر ولا أقل.

فلا امر الاام. هو ما بقي في الفؤاد بعد خطاب ستالين: ذلك التوقع الشوق والانتظار المبرح التغيرات نحو الافضل. وأخذ هذا التوقع، على ما يبدو، يتحقق بأسرع من المتصور منذ الاسرع الاول.

ظلت تتكرر في البلاغات يوميا نفس الابتهاجات التي تدور فيها مبارك طاسنة. وادى ذلك الى المزيد من الثقة لأن انتباه يوبرويسك كان يزد ذكر بين الابتهاجات الاخرى، ولأن الالبان في هذا الانتباه يراوحت في مكانهم بالفعل منذ بضعة ايام: فالمستشفى يعرف تلك الاخبار من مصدرها الاول.

بيد ان جو المستشفى قاج فيها بعد برائة التلق. في البداية ظهرت اشاعة تقول ان الالبان لم يتمكنوا من التوجه الى ميونخ فاستادروا من يوبرويسك ثمر روغانتشيف وجوليون واحتلواها. وبعد ذلك وصل رئيس التحرير فجأة وبقي عند سينتوف لحظة فسأله عن صحته وقال له انهم سيأخذونه معهم اذا ارتحلت هيئة التحرير ثم انصرف على عجل، وكان واضحا أنه لا يريد الاجابة على أية املة. واخيرا، في يوم وصول الامر بالترسيل، تحدث المستشفى كله عن ان الالبان عبروا الدنير قرب شكوف.

يسير سينتوف الآن على حافة الطريق الموزاري لنهر الدنير والسجدة نحو الشمال، الي شكوف هذه. وهو يفكر بصحة او عدم صحة اشاعات الفصاح.

فإذا كانت صحيحة، لسوء الحظ، يتدور مفهوما ارتحال هيئة التحرير من ميونخ الى الواقعة وراء الدنير. ولكن شيئا آخر يظل غير مفهوم: هل من المعقول انهم لم يتمكنوا من الانتظار عشر دقائق ويقفوا بوضعهم فيأخذوه؟ هو سينتوف، من المستشفى؟

لا تبه. مونغليف الآن افساء، يمه يوبين من ارحال هيت التحرير، بانها تنوى الاستسلام. فما الداعي لذلك الاستسلام يا نري؟ اشتد غيظ سينتوف فصمم على ان لا يعود الى هيت التحرير بدون مادة جيدة عن القتال. يمه السير الطويل لاحت عليه بوادر الضعف بسبب الاصابة بالجرح. فقد الكيلومتر السابع الذي قال القويديان ان اركان الفرقة تقع قره لم يكن هناك في الغابة الا آثار السيارات والحفر في الارض الطينية والاعصاب المستخدمة لافراس التمويه والبغرة على عجل. واذا كانت الاركان قد راهبت هنا فان هذه الاعصاب الذائبة قد على انها ارتحلت قبل يوم كامل على اقل تقدير. عاد سينتوف الى الطريق العام ومثرت به مجموعة من السيارات التي تعمل العتاد، ثم شاحنة تسحب مدفعا. رفع سينتوف يده مترددا، ولكن السيارات لم تتوقف.

ثم مرت به سيارة جيب. وطف سينتوف بانها هي الاخرى لن تتوقف، ولكنها توقفت على بعد مائة متر منه. هرع اليها سينتوف وبافاس متلاحقة. - ماذا تريد ايها الرقيب المرشد السياسي؟ - سأل الشخص الجالس قرب السائق. وهو مفوض كتيبة مكشتر الذين صير الحجم مورد الوجودتين وغط الشيب شعره ويرتدي قطارات مسبكة ورجوية.

أوضح سينتوف ياله يبعث عن اركان الفرقة ١٧٦. وقبل ان يجيبه مفوض الكتيبة طالب منه ان يمرض عليه وثاقفه. وكان مظهره لا يبعث على الاطمئنان. ففكر سينتوف ولن يأخذني معه. بيد ان ملاح وجهه المفوض غدت اكثر طيبة بعد ان قرأ ورقة المستشفى. فاعاد الورقة قائلا: - علي انا ايضا ان اذهب الى الفرقة ١٧٦، ولكن غدا. اما الآن فانا متوجه الى الفرقة ٣٠١. وبوسى ان اوصلك اليها.

كان ذلك ملافا سينتوف. فشكره وصعد الى السيارة. ساروا صاحبت زهاء كيلومتر، ثم اوقف المفوض السيارة وجلس على المقعد الخلفي وقال موضحا عندما تحركت السيارة من جديد:

- هكذا افضل. ولا يتبين الاضغاث طوال الوقت من اصيل الكلام. وانما لا استطع يدرك كلام- اينتم برقة وده يده لمصاحمة سينتوف قائلا: شاكوف.

كان شاكوف من هواة الكلام سفا. فهو عندما يوجه اسئلته الرمية يميل برأه الاثيب المستدير على كتفه اليسرى بشكل لطيف كما يفعل الطير ويصطليح الى سينتوف عبر ظلالها باهتمام ولبنة ولسان حاله يقول: وما

الذي سئفوه لي مما يعير الاهتمام؟. وعندما يتكلم يخلع نظارته طوال الوقت ويمسحها وينظر فيها بايمان على القصور من جديد ثم يرتدبها. كانت عيناه بدون النظارات المسكية مريشيتين تماما، فبها حمرانان بجفون منتخفة. اخذ سينتوف يجيب على مقصص دون ان يتدخل في التفاصيل. قال يانه وصل الى الجبهة. في اليوم السادس للحرب وكان في مناطق مختلقة، واصيب بجرح بالصدفة في ضواش بويرويك. يبدو ان شاكوف ادرك بسرعة ان نواذ محنة مثل بالكاتبة، فلم يعد يسأل منه بل راح يتحدث عن نفسه. قال انه استعفى للخدمة في الجيش قبل اسبوع واحد ووصل الى الجبهة يوم اسس بوضه معانرا للدائرة السياسية للجيش الاحمر، وهذه اول رحلة يقوم بها الى الوحدات العسكرية.

- اية محاضرات سئلفي هنا في الجبهة؟ - سأل سينتوف وفكر في نفسه بان وقت سماع المحاضرات قد قات بالنسبة له شخصيا.

- على العموم انا مختص بالاقتصاد - اجاب شاكوف دون ان يلاحظ او لعله لم يكن يريد ان يلاحظ السخرية التي اخطو عليها سؤال سينتوف - اما المواضيع فهي متنوعة: والحرب والوضع الدولي، «القدرة الاقتصادية العربية للاستاء» والمواضيع الاكثر تعديما بالطلع.

- هل انت حاصل على تعليم عسكري؟ - سأل سينتوف.

- لا ادرى كيف اجبك - مسح شاكوف نظارته من جديد ونظر اليها في الضوء بايمان كأنه يتطلع الى المامشي الجديد - عشت في زمن ما، مثل الكثيرين من الشيوعيين في سوريا، مسزولا سياسيا ابان الحرب الاهلية. وتك على الاصح غيرة عيلة اكثر مما هي تعليم.

وتفكر سينتوف بمرارة: «اهل، شيرة. ولكن ليس هناك ما يدل على ان هذه الشيرة تنفعنا. فالقوات الالمانية ليست مثل قوات الحرس الابيض، وهتار ليس مثل دينيكين...». وتذكر بهياج رواية قراها قبل عامين عن الحرب المربقة التي تتطايير فيها الماليا القلانية شفر مذر بد اول شيرة تسدها عاثراونا. سبدا هو جيرة بالوقوف الى طريق بويرويك قبل اسبوعين!

برقت هذه الافكار دفعة واحدة في ذهنه، ولكنه لم يذكر شيئا منها، بل اطلق تنهدة. سأل شاكوف على اثرها بتأبط:

- واجهت مصاعب كبيرة، اليس كذلك؟

- ما قيمة المصاعب التي واجهتها انا! - اجاب سينتوف صادقا - على العموم المصاعب هائلة جدا... - لوج بيده ياتسا بعد ان شمر باللفة ازاء الرجيل

الصغير الاشب الجالس قربہ . فقال شاكوف ولعل بركة رذن سينتوف وكأله يهدئه:

- لا بأس . نعيد زحفهم شيئا فشيئا، ثم نوقفهم ونحقق الانعطاف . في الحرب الاحلية صادفت حالات اموا: قوات يودينتش كادت تحتل بتروغراد، وقوات دينيكين احتلت اوريل وتوجعت نحو موسكو... ومع ذلك سققنا الانعطاف في الاخير .

- لم تكن لدى دينيكين طائرات ودبابات- قال سينتوف متألما .

- صحيح، او صحيح تقريبا اذا اردنا الدقة - قال شاكوف مولفا ولم يلاحظ من جديد ان انه تظاهر بعدم ملاحظة مزاحه- ولكننا نحن ايضا لم تكن فمتك الكثير مما لدينا الآن: لم تكن لدينا عطلت خمسية ولا اربعة ملايين شيوعي...

- لماذا يطلق السالبي الدعاية على؟- فكر سينتوف متفهما . كان فؤاده يمشي عن التهمة، ولكنه يقاوم اغراء التسرع في قبول كل ما يمكن ان يهدئه . - بالطبع- قال شاكوف بعد صمت قصير - كنا قبل الحرب نتباهي ونبالغ في بعض الاشياء، بما في ذلك استعدادنا للحرب . وهذا واضح كليا الآن . ولكن ذلك لا يعني باننا يجب ان نتصرف ونفالي بالاتجاه المعاكس، ونفعل من قيمة قدراتنا بسبب الاعتقادات الاولى . فهذه التغيرات هائلة، وحتى نحن لم نحسب لها الحساب بالشكل الكامل، فكيف بالالامان؟ وانما اتحدث عن ذلك بشيء تأمل على القضية .

- ما الداعي للتقليل؟ فهل يرغب فيه احد منا؟ القضية اتي رأيت ما لا يمت على السرور . ولست راغبيا في انشاد اغنية: وكل شيء على ما يرام ايها المركبة السبناء... .

- سنا، هذه الاغنية ليست بلشفية - قال شاكوف مهتفها . - نحن بلاشفة، وقد خان الوقت لسيان مثل هذه الاغاني .

- هل وصلت من موسكو من زمان؟- سألہ سينتوف وقد تذكر ماشا . - قبل ثلاثة ايام .

- هل قصفوا موسكو؟

- كلا .

- صحيح ما تقول؟

- تعودت على قول الصدق وحده- اجاب شاكوف بنبرة تنيرت على نحو غير ملحوظ وتطلع عبر نظاراته الى عيني سينتوف مباشرة .

- لماذا لم يقصفوها؟ ما هو رأيك؟

- ليست لديهم القوات الكافية . فقد زبوا سلاح الجو كله في الجبهة، ولم يبق لديهم ما يطيرون به الى موسكو .

- هل من الممقول ذلك؟

- اجل . وعلى العموم لا داعي للاعتقاد بان الالمان يمتلكون قوى لا تشق . فالبعض منا اتساقوا وراء هذه المغالاة . وعيا فلما . فهي قريبة من

الذعر . في حين كنت لدينا امياف للذعر: ثم انه ليس من طبيعتنا . ومع ذلك بوجه معصرون- قال شاكوف في الختام بنفس التبرة المتصعبة في صوته الرقيق .

ورقم ان كل ما قاله شاكوف الآن شيه بالترجيح غير الصريح تطلع اليه سينتوف بامتنان . فقد ثبت كلمات شاكوف عن ثقة بعيدة عن

الجهل بواقع الامور المعلى . وتساءل سينتوف بصوت عال:

- يعني ان الهدوء يعود بمسكو؟ اليس كذلك؟

- هز شاكوف كتفيه وقال:

- الروث يطفو على السطح بالطبع . وعلى العموم... فكر شاكوف وانضاف في الختام- الامور طبيعية . ثم غرق في تفكيره وكأنه يزن زناعة ما

قال وكرر . من جديد: - اجل ، الامور طبيعية!

حالما فقط هذه الكلمات ظهرت مقابل سيارتهم عدة شاحنات تنهب الطريق بسرعة هائلة . وفي آخر شاحنة مد شخص اشعث الشر بدون طاقية

نفس يده من قمرتها وسباح بصوت يسم الاذان:

- دبابات! هناك دبابات!

التفت السائق الى شاكوف دون ان يوقف السيارة ولاحت على وجهه الترتيب امارات التنازل . فقال شاكوف يهدوء:

- فلنواصل، وبقي لنا كيلومتر واحد حتى مقر اركان الفرقة . دعر لا داعي له . مستحيل...

لاذ سينتوف بالصمت . فان رغبته في عدم الظهور بظهور الانسان الحذر اكثر من محبة تقوى على التفكير السليم . وبعد نصف كيلومتر

كرر شاكوف:

- مستحيل . قبل في ان قواتنا تحتفظ بخط الدفاع على طول نهر

الذبير، فمن اين وصلت الدبابات الالمانية الى هذه الضفة؟

فلي سينتوف ملتزما بالصمت . وفكر في نفسه: ومن اين وصلت؟ الشيطان وحده يعرف من اين وصلت! .

- هنا، إلى اليمين، على ما اعتقد، مكان الاعتداء نحو متر أركان
الفرقة - قال شماكوف وهو يقرب إلى عيشه، كما يفعل المصاب، يقصر نظره،
محفظته الميدانية وعليها خارطة ملغفة بقطعة من قيلول شفاف. كان على اعتقاد
راسخ، مثل أي شخص يصل إلى الجهة البرية الأولى، بأن كل ما هو مرسوم
على الخارطة موجود في المكان الذي تشير إليه. - فلتنسقف الآن وفرء فلا بد
من وجود مؤثر ما.

وما كاد يأمر السائق بالتوقف حتى فرول هذا من تلقائه. قبل
ساعة ليست بعيدة جداً، على الطريق، أخذت القذائف تفجير الواحدة تلو
الأخرى. والطريق الذي كان خالياً تقريباً قبل ذلك غص بالسيارات دفعة
واحدة: البعض منها ينهب الطريق من الامام والبعض الآخر جاء من الخلف
ليستدير عائداً على عجل. وراح سائق ميانهما الجيب يستدير بها دون أن
ينتظر الاوامر، وعندما حدث قذيفة أخرى ترك السيارة فجأةً وركض إلى الساقية.
فتح سينتوف الباب لكي يقفز ليبد السائق، إلا أن شماكوف
حل المشكلة بشكل أبسط:

- لا تتحرك - قال يدهو لسينتوف وامسك بكفنه ثم جلس بسرعة وراء
مقود السيارة واستدار بها ووضعهما على حافة الطريق. وقد فعل ذلك في
الوقت المناسب، فلو تأخر اللحظة لاحتاحتهم موجة الشاحنات المطلقة بالقصى السرعة.
- والآن فلنخرج. - لقرف شماكوف من الساقية وقادى السائق المنطرح
هناك. - يا رفيق سولويف!

نهض السائق وبقوته ترتطم علماً.

- اذهب واجلس وراء مقود السيارة - أمره شماكوف.

عاد السائق إلى السيارة كشيء، إلا أن شماكوف لم يصعبه إليها بل
ظل يراوح قربها على نحو غريب ويطلع إلى الامام حيث استمر انفجار القذائف.
تلمح لسينتوف فلقاً وقال مدلاً: عدم رفيته في الميادنة إلى الكلام عن
ضرورة العودة:

- أيها الرفيق المفوض فلنعد كيلومترين أو ثلاثة. فقد رأيت هناك
على جانبي الطريق مدافع مضادة للدبابات. وستقابل أحد القادة العسكريين
وتستفسر منه عما إذا كان بالإمكان الذهاب إلى الفرقة ٣٠١.

قال ذلك وكان ينشئ أن شماكوف الذي بدا له الامانة عيذاً رغم وقته
الظاهرية سرفض الاقتراح وسيواصلون السير إلى الامام، إلى الدجهول. بيد
أن شماكوف استمع إليه واطلع إلى الدخان وكأنه يبرر موافقته على العودة:

- لم يكلفوا أنفسهم بأن يعطوا حتى ممسلاً.
وكم سينتوف بعد أن نسي كيف كان متفلاً في اليوم الأول
بسبب عدم وجود سلاح لديه: «هل تعتقد بأن الوبس سينتك في هذا
الحال؟!»

وقال شماكوف بعد أن استند بكوعيه إلى ظهر المقعد الامامي وألقى
نظراً جانبيه على وجه السائق:

- يعني أنك تركت القتالين وهربت.

- حاكمي. طالما أنا مدّيب. - أجاب السائق بصوت منحنٍ دون أن يلتفت.

- كيف احاكمك؟ عيب عليك. هل أنت عضو في الكوسوول؟

- نعم. - أجاب السائق بنفس الصوت المنسحق.

- يا لمار - قال شماكوف - أبنى عضو في الكوسوول أيضاً. ربما
كنت سأدوب من التمار لو علمت بأن ابني تصرفت مثل تصرفك.

- أين هو؟ أينك؟ - سأل السائق فينقوش، فادرك سينتوف بأن كل ما

قاله شماكوف قبل ذلك سيخو لفقاً فارغاً بالنسبة للسائق إذا اضطر شماكوف
للإجابة بأن ابنه الآن في المؤنيرة.

- كان ابني طياراً، من الرماة الجويين. وقد قتل قبل أسبوع. فلماذا
تسأل عنه؟

- لا لشيء - قال السائق يمزيه من الخفوت.

- قف! - نهض سينتوف الذي كان يراقب الطريق.

توقفوا قرب مدفع مضاد للدبابات منصوب قرب ساقية الطريق. وقد
بدأ من بيده وكأنه شجرة زعجت من النابتة إلى قارعة الطريق. وإلى جنب
المدفع جلس عقيد شعر أشيب حليق قصير وبدون طاقية وراح يحسب
الزلا من الترموز. ويدلاً من الرد على تحية شماكوف وسينتوف اللذين
نزلا من السيارة وادخما قاذلاً:

- ابعوا السيارة حوالي عاشر متر، وبعد ذلك ستتمكن.

أمر شماكوف السائق بأن يتنحى بالسيارة إلى الامام ثم ابدأ إلى الشمال
وقال العقيد بأن اللسان يطلق النار على الطريق هناك، على بعد أربعة
كيلومترات. فقال العقيد ونهض وهو يطلق الترموز:

- مستحل جداً.

بعد أن استمع شماكوف إلى هذا الديال الهادئ الذي بدأ لسينتوف
ساعراً بعض الشيء، سأل من الرفيق العقيد عما إذا كان يعرف بموقع أركان فرقة ما.

- أركان قرقة ما؟ - سأل العقيد بنفس التهجئة الساخرة وأردى طاقته وشدة الخلاف البشع على الترموس وعلقه على كتفه - إذا كان المطلوب أركان قرقة لا على التبين فليذهب الي فرقتنا.

- وفوقكم، ما هو وقمها؟ - سأله شماكوف فيادره العقيد يسأل:

- وانت، من أنت؟

قدم له شماكوف هويته الشخصية فالتى العقيد عليها نظرة خاطفة وإفاد يأنه أسر مدنية الفرقة ١٧٦ جاء إلى هذا لتفقد الدفاع المضاد للإبديات وهو عائد الآن إلى مقر أركان فرقة. - سأله شماكوف في الحال:

- وكيف يمكن الوصول إلى الفرقة ٣٠١؟

هو العقيد كسيفي وقال ان مقر الفرقة ٣٠١ كان على مسافة ثمانية كيلومترات تقريبا إلى الشمال، ولكن طالما تطلق النار على الطريق فلنل من غير الجندي الذهاب إلى هناك إلى حين انتصاح الموقف. ولاحظ في وعلله هذه ثورة السخريّة الهادئة من جديد. فقال شماكوف للجنود:

- قيل لي ان مقر أركان الفرقة ٣٠١ اقرب من ذلك. على مسافة أربعة كيلومترات من هنا.

هو العقيد كسيفي من جديد وسأل:

- متى قالوا لك واين؟

- بالأمس، في الشعبة السياسية الجيش.

- لا تصدق كثيرا بما قيل لك بالأمس ايها الرقيب الغفوس، والا فستفسي بقية حياتك في الاسر اذا اهلكت عامل الزمن. ومن المحاكمة ان يقع في الاسر اناس شيب مثلي ومثلك. انت محاصر ايضا؟ - سأل العقيد من سينتوف ملتفتا اليه نصف التفاتة.

- كلا. انا من العاملين في جريدة الجبهة.

- آ... قال العقيد لإذمالة وعظا نموا السيارة يساقين طرولتين كسافي الكركي ويزنعتين لساعتين بهما ذابن.

وتبته سينتوف وشماكوف والكاينين الذي رافق العقيد، وهو قائد بطارية، وكانوا يبدون صموية في اللهاق به.

صعد العقيد إلى السيارة وجلس على البغدة الأمامي ثم انفتحت إلى الكاينين:

- أعبر الناس بان يوصل حصاتي إلى مقر الأركان.

وعندما انطلقت السيارة سأل شماكوف:

- كيف الحال عنكم في الفرقة؟

- الحال؟ - انفتحت اليه العقيد ورفع حاجبيه يسخرية - الحال عموما يجب ان لا يمررها الا الله وقائد الفرقة. اما انا كدعني فافكر على التهور التالي: ما دامت عندها مدافع وما دمتا قد استلمنا اخيرا كمية من القذائف يوم امس فسوف نقاتل. بالامس دمرنا سرية للإلمان حاولت ان تدير النهر واغرقتنا لها ستة زوارق مسلحة. ولكن تلك ليست معركة حقيقية.

وقال سينتوف:

- عندما غادرت مونيخيف سمعت قصص المدفعية وراء الطرف الجنوبي.

قرد العقيد:

- يعني ان سريالين بدأ يقاتل. لاحظنا امس من مركز الرقابة تمسح الديابات. ولكنني لا استطيع الجزم، فانا هنا منذ الصباح، وعلى العموم فسيبدأ القتال جميعا في القريب المجال. لا مقر من ذلك.

اعجب سينتوف بهوده هذا الإنسان الجاد الساخر الذي لم يتسلم القذائف حتى يوم امس، وربما كان قلقا بسبب ذلك. ولكن القلق فارقة الآن قصار وتحدث عن المبارك المقبلة وكأنه رب بيت يقف امام مائدة كل شيء جاهز عليها.

انتصح ان مقر أركان الفرقة ليس في المكان الذي اشار اليه قويندان مونيخيف على الخارطة. فهو موجود في غابة صنوبر غير كثيفة اقرب من ذلك المكان بكيلومتر واحد. وسط الغابة، تحت منبوعة ضخمة جلس على كرس مركب امام طاولة صغيرة مركبة عقيد ضخم يتصبب العرق منه بسبب الحر وقد فتح أذرار قمصته الأثرية ويصاين فتعري صدره الكسكو بالشعر. انه قائد الفرقة، عندما عرف العقيد ان سينتوف من العاملين في الجريدة الجبهوية اطلق لسبب ما تهديدا عفيفا وقال ان شؤون المراسلين ليست من صلاحياته، وان بإمكان سينتوف ان ينتظر هنا قائبه لشؤون السياسة او يتوجه الى الشعبة السياسية. وانضاف العقيد بغضب:

- اما انا فهذا لا يعني. لقد تعلمت درسا. اجل. تعلمت درسا! ولاخ على وجهه المتلنى تعبير حائق وكأن سينتوف مذنب في شيء بحقه.

ابتعد سينتوف وتطلع إلى ساعته، الوقت بداية الساعة السابعة، فترم على الانتظار هنا. اما شماكوف فقد اقترب منه وقال:

- انا ذاهب إلى الشعبة السياسية، وانت؟

- سانتظر هنا. - شد سينتوف على يد شماكوف وهو واثق تماما من انه لن يرى هذا الانسان بعد الآن.

— هل تريد طعاماً؟ — قال العقيد المدفعى الاشيب الذى جاء معه
بالسيارة وقد مر قرب سينسوف — بطاريته وراء الغاية، والمدفعيون سيصلونك،
قل لهم انى امرت بذلك.

— شكراً. عتدى هنا كل ما احتاج اليه — اجاب سينسوف وطبيب
يده على محفظته الميدانية.

كانت المحفظة تضم بالفعل علبه لحم وقطعة خبز تسلمها من المستشفى.
— ماذا؟ يبدو أنك طيب العون من قائدنا فرقة؟ ليس كذلك؟ — فاز

العقيد ورفع صايقه الساخرين وأومأ الى قائد الفرقة الذى يتكلم بصوت عال
وهو جالس الى طاوله المركبة.

— بللى.

— لا تزال. ينبغي ان تتفهمه. اثناء الحرب الفنلندية وصل الينا احد
البراسلين وقال له شيئاً مخالفاً لرأيه. انه سريع الغضب ولا يتأثر فى انزال
المقارب. فزوج بالمراسل فى السجن فوراً لمدة عشرة ايام. ومن سوء الحظ ان
المراسل كان كاتباً واديباً معروف. فقال ذلك للقائد عندما اعتقله، ولكن
القائد لم يعمد اهتماماً، فهو لا يطالع الادب الرفيع. افسحك يان تنتظر
قائمه لشؤون السياسة، اريد ان اقدم لك فصيحة اخرى...

بيد ان سينسوف لم يتمكن من معرفة الفصيحة التى كان آمر المدفعية
الساحر ينوي تقديمها له فقد انفجرت فى الغاية قذيفة ثقيلة فى يادى الامر،
ثم سلسلة متلاحقة من القذائف. واندموا جميعاً — سينسوف وأمر المدفعية
وقائد الفرقة — فى الاتحادية الرملية الصفراء المدفوعة بين اشجار الصنوبر. كان
الالمان يدورون الضربات ليس الى مقر الاركان بل الى نفس تلك البطارية
البراميلة ودارت الغاية والى دعا العقيد اليها سينسوف لتناول الطعام. وانفجح
ذلك من الحوار بين المدفعى الساحر الذى انصرف مع سينسوف فى اخفوه
واحد وقائد الفرقة الذين اثنى جلس فى اخفوه آخر على بعد عشرين
متراً عنهما.

— مكان غير موفق لبراميلة البطارية! — صاح قائد الفرقة وقد اشراب
يعتد من الاخفوه بد انجاز احدى القذائف.

— اسمح لى بالكلام! — اجابه آمر المدفعية صائحاً وقد اشراب من
اخفوهه أيضاً ورفع يده الى ملائحته بالتحية. — كنت قد اخبرتك بذلك عندما
نقلتم مركز القيادة الى هنا!...

وانفجرت قذيفة اخرى. فغاص كلا العقيدين فى اخفوهيهما.

— ما كان هناك داع لاجبارى! — مد قائد الفرقة عنقه من الاخفوه
منجداً واحقن وجهه من الصباح — كان يجب نقلها بدون اخبارى، طالمنا انى
نقلتم مركز القيادة...

— اسمح لى بالكلام — رفع آمر المدفعية يده بالتحية من جديد وقال
صائحاً — اننى اخبرتك فامرت انت بعدم نقل البطارية لان...

أثرت قذيفة جديدة وانفجرت، وفاحس الانسان من جديد فى اخفوهيهما
ثم اشراباً منهما وصاح قائد الفرقة:

— اننى لا اسألك كيف ولماذا. اننى آمرك...

أبتسم سينسوف رغم غطورة الموقف وهو يتنفس من جديد فى الاخفوه
الى جانب العقيد المدفعى الذى لاحظ ابتسامته ونمز له كما يفعل الصبيان.
انتهت القارة بفتة كما بدأت. وبلغ مجمل الخسائر فى القارة كلها
بضعة اشخاص اصيبوا بجروح طفيفة.

— آمرك بنقل البطارية فوراً! — صاح قائد الفرقة وهو يخرج من الاخفوه
بصوتية وينفخ وكرتية السميكتين من الرمل.

— حسب امرك، سننقل البطارية!

— الا ان قائد الفرقة لم يمد ويتطلع الى المدفع، بل صاح على شخص
آخر كى يقوموا له سيارة لتجربه بها الى سرييلين.

— آلو، سرييلين، سرييلين! — صاح يده دقيقة بأعلى صوته بالساعة —
رايشنيكوف يكلمك.. كيف الحال عندكم يا سرييلين؟ انا متوجبه اليك،
واصل القتال دون تردد! — يبدو انهم اخبروه بالتلفون ما يمش على القرح —
انفجرت يا سرييلين، يا لعنة، اضربهم كما ضربنا الحرس الايقش انا وانت!...
انا متوجبه اليك فى الحال! — صاح العقيد بصوت مرجع عم الغاية كلها.
وما كاد قائد الفرقة يرتحل حتى بدأ إطلاق النار من المدافع الصغيرة
التيار وواصل اشراباً تلفوناً اكد بان التليديات الالاتية بلغت طريق السيارات
على يد ثلاثة كيلومترات عن الاركان.

استغل العقيد المدفعى شاحنة وقوسه الى الطريق السام حيث تقع مدافعه.
هم سينسوف بالحاق به ولكنه عدل عن ذلك متردداً فى اللحظة الاخيرة.
ورغم انه قلقل لانتاع نفسه بأنه اراد التفويه معه ولم يتمكن فقد كان
يعرف فى دنيته نفسه بأنه حين. وبعد دقيقة واحدة سيطر على اعصابه وصمم
على التفويه بالفعل، ولكن لم يده هناك من يذهب معه. اقتراب من الطاوله
الصغيرة التى جلس عليها منواب العمليات وانكأ على صوبيرة سميكة.

صارت الاشارات التلفظية تثير المزيد من التلق: الادبيات على بعد كيلومترين، ثم كيلومتر ونصف، ثم كيلومتر واحد...

واسد تناوب العمليات ويحير آخر امار باعداد القنابل القوية وقنابل البنزين.

اعدوا قنابل البنزين، ولكنه انتفىح ان الجميع تقريبا لا يمتلكون ثقايا. نسي الجميع الادبيات يضع دقائق قراوا يمشون في الجيوب عن علب القنابل ويوزعونها فيما بينهم.

وانداح من جهة الطريق العام حدير المحركات ثم نيران المدفعية الكثيفة وهم السكون بعد ذلك فجأة.

مسح تناوب العمليات العرق من جبينه ووضع على الطاولة سماعة التلفون فاقبث عالي في الصمت صوت ارتطامها بطلع الطاولة وقال ان كل شيء على ما يرام اذ دمرت المدفعية الدبابات الهاجمة.

وبعد خمس دقائق دخلت القاذبة سيارة بيكاب غير التبرجات وبين الاضجار وتزل منها رجل كان سينتوف لا يتوقع وصوله املافا.

انه الرمال القوتوراني المعروف في موسكو ميشكا زميله منذ سنى الدراسة في المعهد الصحافي الشيوي وهو الآن يرتدي البزة العسكرية ولكنه غال كليا كما كان عليه قبل الحرب يدنا مرصا صاحبنا تكدلي على صدره آلتا تصوير.

— مرحبا يا ميشكا! — بادره سينتوف فرحا وهو يهز بكلتا يديه يد مفرقة التفتيح الثقيلة ككلمة سدية والذي اعتاد الاكثرون سابقا وساليا على تسببت بصفحة التخبب «ميشكا» بدلا من اسمه «ميشاتيل».

— مرحبا، مرحبا! — اجاب ميشكا باسما وراح يمسح يده الطليقة الفرق المصعب من وجهه المستدير كالملاحة. متى ظهرت هنا؟

«ظهرت» هي الكلمة المحمية لديه.

— من اين ظهرت انت؟ — سأل سينتوف وهو يتطلع الى وجه ميشكا ويضحك بصورة لارادية ايضا.

— كانت سيارتنا تسير على الطريق العام فראيت كيف تسدد القنارات الى الدبابات الامانية فظهرت في الحال وصورتها. دمرنا ثلاث دبابات ندمرا عظيما ولكن الواحدة بعيدة عن الاخرى. ومع ذلك، لا يأمن. يمكن ان انشق احداهما بالاعرى وانفطع المتظار الطبيعية فاحصل على صورة بولنومانية مبيرة جدا!

— ولماذا جئت الى هنا؟

— قيل لي ان مقر اركان القوة هنا، فحسبت لاعرف الى اين يمكنني ان اتوجه للتصوير.

— بلغنا الآن ان عشرين. دبابا الثانية قد دمرت في اطراف موليفيت وراء الدفير — قال تناوب العمليات. فالتفت ميشكا الى سينتوف وعقب على ذلك: — ستكون تلك صورة بولنومانية حقاً! هل تريد ان تظهر معي هناك؟

اصعد الى السيارة.

— لم لا؟

— لن اتبدا سربيلين بدون مرافق من مركز القيادة — تدخل التناوب في الحوار من جديد، فقال ميشكا:

— سأجد بنفسى كل شيء، ولكن الضوء غير كاف للتصوير — تطلع الى السماء التي اخذ لونها يتحول الى رصاصي كالج والكنش وجهه متفردا وبعد ان ادرك نهائيا بأنه لن يستطيع الانتعاش على الطبيعة هذا ورسح للسان: بان يذهب ليتزود بالبنزين، ثم جلس قريب سينتوف على الارض وقال: — اسمع، هل لديك ما يؤكل؟ قانا لم تناول طعاما منذ الصباح.

فتح سينتوف محفظته اليدانية بصمت واخرج منها الخبز وعلبة اللحم. وكان يعرف بانه لا يلدو من الاستفشار من ميشكا طالما هو جائع.

سحب ميشكا سكبنا وقص اعلى العلبة بحركة دائرية وراح يلفهم بالخبم بينهم. بعد ان يلفه بظرف السكين ويرفقه بنفسه كثيرة من الخبز. وبعد ان اجهل على ثلاثة ارباع العلبة التفت الى سينتوف وسأله بقم ملو:

— واثق؟ هل اكلت؟

— كلا.

— غدا، قدم له ميشكا العلبة وبقايا الخبز بأسف. انني دوما انسى وقائي. يا المار.

أخذ سينتوف من ميشكا السكين وبقايا اللحم وايسم. وبعد ان مضغ ميشكا آخر قطعة من اللحم لم يتورع عن التقاطها بالسكين وهو يلمع العلبة الى سينتوف سأله هذا:

— كيف الحال في موسكو؟

— ربما تعبرني كاذبا، ولكنني لم ار موسكو. ظهرت هناك قوتين قاتدا من الجبهة ليعض ساعات، سلبت الصور وبعدت. هل تلمع — تذكر ببحر فجأة — قتل كورينين من جريدة النجم. بقواحي منسك. اسنى عليه. كان شابا طليبا.

كان متأسفا على كطرفين بالفعل، ولكنه كان مسرورا جدا لانه التقط صور اللبائيات اليوم، فصار يتحدث عن كل شيء بنفس اللهجة الفرسية، يتحدث بهذه اللهجة أيضا من جولاته في الجبهة.

قامه سينتوف مسائلا عن رأيه في الوضع عموما بعد تلك الجولات، إلا ان ميشكا لم يكن لديه أي رأي في الوضع العام اطلاقا. فقد رأى بام العين كيف يفتك الالمان علينا بشدة، على حد تعبيره، ولكنه لم يكن يخافه أي شك في أننا سنحرهم مع ذلك.

لم يكن راغبا بالخوض في موضوعات جدية، ولذا فرح مصادفة لودة سيارته الليكاب بعد ان تزودت بالبنزين. وسأل من السائق:

— هل حصلت على ارزاق؟

أخضر السائق من السيارة قطعة كبيرة من الخبز فاقطع ميشكا لقمته نصفها وراح يأكل من جديد. أما سينتوف فذهب ليقدم نفسه إلى نائب قائد الفرقة الذي عاد من التخط الأمامي.

كان النائب اوكرائيا مكشرا طويلا الاثني بشاويين كثيرين متهدلين جملاء شيئا وبقائه فرقة أكثر مما يؤول سياسي. استمع إلى سينتوف متنبها ولكن بصبر ثم قال بانه لا يرى بوقع الادارة السياسية للجبهة في الحال العاشر، فالجبهة تزحزحت، ولكن اركان الجيش متواجدة في ضواحي تشاوي، ولعلمهم سيخبرون سينتوف هناك بمكان الادارة السياسية.

وأوضح له سينتوف بانه يرغب غدا، قبل ان يرسل إلى الجيش، في ان يزور مع المصور منطقة ما وراء الدنبر، حيث يربط الفوج الذي دمر هذا اليوم كثيرا من اللبائيات الالمانية.

استمع النائب إلى هذا الاقتراح بنفس ذلك الصبر المتجهج ثم قال بانه عاد لعود من هناك، وأن من الأفضل الذهاب إلى تلك المنطقة لولا ان ربما لن يتمكن من الوصول إلى هناك في النهار. وإذا عزمنا على الرحيل لولا فمن الضروري ان يأخذ معها بالسيارة دليلا.

— لا بأس، نحن من الجيوشين القدامى، سنصل لوحدنا إليها الرقيق النائب. قال ميشكا بلهجة غير متكلفة وهو يلمع الخبز، وأقرب من النائب متزجعا.

— لا أدري ما اذا كنتما من القدامى او الجدد، ولكنكما من ثقبنا بدون دليل! قال النائب بلهجة قاطعة. سينتوف مرشد الشيعة السياسية من تناول الطعام الآن رسيدهم معكما. هل ستكفيان بالتصوير فقط، أم ستكفيان شيئا؟

— سنعمل هذا وذلك. أجاب ميشكا.

— عندما ستكتب. غامط النائب سينتوف متجاهلا ميشكا بنفس اللهجة المتجهمة. لا تكشف عن مواقع مراقبة الأحداث. فالالمان اصلا يرمقون الكبير. وكأنهم ينظرون في مرآة سحرية، ابتداء الكاب! — أطلق النائب هذه الشبهة على نحو غير متوقع رغم انه عاد من الفوج بعد معركة موقفة. ولعله كان مستاءا لشيء لا يريد التحدث عنه.

وأقرب من النائب مرشد سياسي شاب وقاد:

— أيها الرقيق النائب، وماذا لنا قائد فصيلة الانصار.

— حسنا، تناول طعامك. بعد معهما بالسيارة إلى سربيلين. قال النائب وأولاً إلى سينتوف وميشكا ثم استدار نحو شاب أشقر وسيم هبط من على ظهر حصان. كان في قمصانة جلدية مشدودة ينطلق يتدفق منه مدس ملوؤز يتقابل يدوية. وأصطحبه النائب إلى أعماق الغابة.

بعد ساعة عبرت الليكاب جسر الدنبر مختلفة بطقفة خفيفة على أعضائه ودخلت موفيليف. مقابل المستشفى غادره سينتوف في الصباح وقتت عند الرصيف سيارات اشحن وجرى تحموا يهدو صفت ملوول من نقالات الجرحى المحمولة على الايدي الواحدة تلو الاخرى، وفي الممرق التالي انتصبت البنادق المضادة للجو. وأخذ التماس برأود القادمين على غندتها حيث التحقوا بالمعاطن الشعبة.

كان كل شيء في المدينة يجري يهدو بالغ. فثشرا الهويات يهدو، وأشاروا إلى الطريق يهدو. وكان النظام يسد كل شيء. فبعث هذا النظام التبروز في فؤاد سينتوف. عندما عبرت السيارة الجسر وجابت المدينة أوقفها البنجر الليلي ثلاث مرات على التوالي.

وأخيرا، عند أطراف موفيليف أوقف المرشد السياسي السيارة قرب منزل من طابق واحد وقال:

— سأذهب للاستفسار عما اذا كان سربيلين قد انتقل أم لا. — واعتفى غير رواية المنزل بعد ان عرض هويته على الحارس.

نهات أصوات من وراء الثوكة التي انزلت متازعا باحكام. وبعد لحظة عاد المرشد السياسي وقال لسينتوف يهدو:

— هنا هيئة العمليات التابعة للفرقة، وقائد الفرقة موجود الآن هنا.

وتذكر سينتوف العقيد الضخم الذي كان يصيح في سماعة التلغوف: «أنا نتوجه إليك يا سربيلين!..»

— أين سرييلين؟ — سأل سينتوف الذى سمع بهذا الاسم مرارا اليوم فخيل إليه انه يعرف هذا الشخص تقريبا .

— فى مكانه السابق — اجاب المرشد السياسى .

تجاوزوا آخر دور الاطراف واستداروا نحو طريق مبدع ودمروا من تحت جسر السكة الحديدية، وصافروا من جديد حراسا هربوا اليهم من بين الشجيرات . وكان عددهم هذه المرة اربعة . فقال ميشكا :

— هذا هو النظام !

وعلى المرشد السياسى على قوله :

— عندما تتواجد القوات المسلحة يحل النظام .

تخصص الحراس الهريات وامروا باخفاء السيارة بين الشجيرات . ظل حارسان قرب السيارة وقاد الحارسان الآخران ياتهما سيرافقان الرقاقة القادة الى المكان المطلوب . سار اثنهما فى الامام وسار الآخر فى الخلف ويتبعته مخلقة على منته . وأدرك سينتوف انهما لا يرافقانهما فقط ، بل وضعاهم تحت الحراسة من دوافع الحذر . ساروا متحيزين فى الظلمة ، ثم هبطوا الى مبنى التوصيل وساروا فيه طويلا حتى استداروا نحو خندق عميق واخيرا وصلوا الى باب المخيم المعزز . دخل الحارس الاساسى المخيم ثم خرج وبمه زجل قارع القاعة لدرجة ان صوته فى الظلمة بدا وكأنه هابط من عل . وسأل الرجل :

— من انتم ؟

اجاب ميشكا بهمة بافهم مراسلون .

— اى مراسلين؟ — سأل الرجل القارع القاعة — ما الداعي لوجود مراسلين

هنا فى منتصف الليل؟ اى عاقل يأتى الى فى منتصف الليل؟

أدرك سينتوف من كلتى ويأتى اليه ان هذا هو سرييلين بالذات .

— سأترككم ثلاثينكم متبشرين على الارض حتى الصباح الى ان نفاك

من هوياتكم . من ارسلكم الى هنا؟

قال سينتوف ان قائد الفرقة ارسلهم .

— سأرغبكم على الانبطاح على الارض حتى البد — كرر الرجل بعناد —

وفى الصباح سأخبره بانى ارجوه ان لا يرسل فى الليل الى موقع فوجى اناسا

لا أعرفهم .

واخيرا تكلم المرشد السياسى الذى لم يتوقع مثل هذا التطور فى

الاحداث وتعبير فى بداية الامر :

— ايها الرقيب قائد اللواء اتنى ميروثوف من الشبهة السياسية للفرقة .

انت تمرئى ...

— اجل اعرفك . — قال قائد اللواء — ولدا لا ابدلكم جميعا فليطهون على

لايفس حتى الصباح ! احكمنا بنفسيكما ايها الرقيبان المراسلان ... — انصرفت

بصوت متناثر ثمنا ، ولاحث من وراء هذا الصوت فى الظلمة ايتسامة غير

منظورة — هل انتما على علم بالسوق؟ — يجب على اللواء ان يكون حارسا .

الجميع يكررون فى كل مكان : «المخربون» «المخربون» — اما انا فلا اريد

ان اسمع فى موقع فوجى اية اشاعة من المغربين . اتنى لا اعترف بهم .

فاذا كانت الحراسة منظمة بالشكل اللازم لا يمكن ان يوجد اى مخربين .

اذتلا المخبأ وسوف يثأركا رجالنا هناك من وثائقكما . وعند ذلك سأكون فى

خديتكما . اما انت يا ميروثوف فابق هنا .

دخل سينتوف وميشكا المخبأ وعادا بعد دقيقة . صاحبهما قائد اللواء

يعد ان حل اللين فى قواده محل الشدة وراح يتحدث ، وهو يغطى سيجارته

براحة يده ، عن المعركة التى انتهت قبل ثلاث ساعات ودمر فوجها خلالها تسعا

وثلاثين دبابية البالية . كانت انقلاباته عن المعركة مؤثرة جدا فراح يتحدث

بحساس متزايد ويصوت رفيع مقعم بالقنوة حتى ان سينتوف لم يمه يتصور

ان عمر صاحب هذا الصوت يتجاوز الثلاثين . استمع اليه سينتوف واستقرت

عليه الحيرة : لماذا لا يزال هذا الرجل القارع القاعة ذو الصوت اللين يحمل

رتبة ملخاة من زمان وهى رتبة قائد اللواء ، ولماذا يقوده فوجا لا اكثف رغم

كونه يحمل هذه الرتبة؟ وقال سرييلين :

— يقولون : «دبابات» ، «دبابات» . ولكننا دمرناها واستدعينا . لماذا؟

عشر الصباح عندما يزول الظلام سترون لدى فى الفوج اثنا حفرنا عشرين

كيلومتر من الخنادق ودمارت التوصيل . بالسيطة « دونت » مبالغة . سترون

بالفكسكم غدا : «كروا سكرور نحن ايضا» انظروا ذلك اسدى دباباتهم! —

واشار الى كتلة سوداء لاحت على مسافة غير بعيدة — لم يبق بينها وبين

قرايتى الا مائة متر . وما هى تقف راضية مرضية فى المكان اللازم .

فلماذا؟ لان الجندى فى الخندق لا يشمر بالجبن ولا يقسم اذنيه من الصوت

كالاربع .

كان يدخن سجائر الفلف بلا انقطاع . يشعل سيجارة من سيجارة .

ظل طوال ساعة اخرى يتحدث سينتوف وميشكا عن صعوبة الحفاظ

على المبتويات القتالية فى الفوج بينما كانت مئات وآلاف الالاس طوال

عشرة أيام تسير على الطريق العام الذى يشترك عليه الفوج متجهة من الغرب الى الشرق يودوا بعد ان تم فك حصارهم .

- بين هؤلاء المحاصرين كثير من المذمورين! - قال ميشكا بدون تحفظ .
فزعل قائد اللواء من تأمة الصالحى التى لاحت فى كلمات ميشكا ، تأمة الصالحى لدى انسان لم يمرض بنفسه للمصيبة . وقال مؤلفا :

- اجل . المذمورون كثيرون . ولكن ماذا تريد من الناس ؟ هل القتال يشعرون بالرعب ، ويهون القتال يتضاعف الرعب ! فمن اين يبدأ ؟ يسير المرء على الطريق فى المؤخرة فتبافته دبابة ، يهرب منها الى طريق آخر فتبافته دبابة اخرى ! يتطلع على الارض فتنهال عليه التيران من الجوى ! ذلك هو ميمت الرعب ! ولكن يجب النظر الى ذلك بعين واقعية . ان تسعة من عشرة مذمورين ليسوا مذمورين بلا رجعة . فاذا وفرت لهم فترة هدوء ورثبت امورهم وحيات لهم فيما بعد ظروفًا قتالية طبيعية فانهم سيؤدون الواجب . اما فى حالة العكس فمن البدهى ان . تسع الاعيين وترتفع للشقاء . ذلك لا ييمت على السرور . ولا يبقى لك الا ان تتفرج وتفكر : حينذا لو اجتازت هذه الجموع مواقفك بسرعة . ولكنها تسير وتسير . ومن حسن الحظ طبعاً انهم يسيرون ، فسوف يقاثلون فيما بعد ، ولكن وضعتنا حرج ! - وقال سربيلين فى الاخير : - لا بأس ، لم تجعل امزجة مقاتلين تمتكر مع ذلك . ومعركة اليوم دليل على ذلك . اننى راض ولا اخفى ذلك عليكما ! فى الصباح كنت مرتبكاً كمروس تنظر الخليل . فانا لم احارب منذ عشرين عاماً . والمعرفة الاولى ليست بسيطة ! اما الآن فلا بأس ، انى واثق من فوجى وسيد بذلك ، سيد جيد ! - كرر سربيلين بلهجة تشبه التحدى . - ولكن كفانا شريرة . جو المخبأ خائف ، والمكان خيف . هل جيليتما مضطربكما ممكنا ؟

- نعم .

- نأما هنا ، فوق . واذا سمعنا الرشاشات لا تهتما بها : انها مجرد حرب اعصاب . ولكن اذا هدأت المدفعية فتفضلوا الى الخندق . ساذب لاتنفذ المخافر ، اعذرانى . - رفع يده بالتحية فى التلابة وانصرف الى الخندق برفقة عدة اشخاص انضموا اليه صائتين .

- لن نأكل شيئاً عند هذا - قال ميشكا بلهجة اغتبط فيها الاستهجان والاستحسان عندما التف هو وسيتسوف بمعضلتهما واضلجما على المشب . ظل سيتسوف ينظلم طويلاً . بصمت الى السماء المليدة بالغيوم والذى ليس فيها نجم واحد ، غفاً ، وبعد لحظات ، كما غيل اليه ، سمع اصوات نيران

الرشاشات المكثفة . سمع عبر الكرى كيف تخفت تلك النيران ثم تستمر ، تارة فى هذا المكان وتارة فى ذلك .

واستيقظ سيتسوف لتصوره بان اطلاق النار بائى من جميع الجهات فهو ميشكا الغاط فى الشخير من جنبه :

- اسمع يا ميشكا ...

- ماذا؟ - قال ذلك بصوت ناعس .

- شيء غريب . اطلاق النار بدأ فى الامام ، من القفمين ، والآن يجرى

فى الخلف ، عند الرأس ...

- بدل وضعية نومك - قال ميشكا مبتكناً بصوته الناعس وغط فى الشخير

من جديد .

— ما حاجتنا الى هذا الجسر؟ — سأل سرييلين بلهجة ظلت عالقة في ذاكرة سينسوف مدى الحياة .

— كيف ذلك؟ — هر ميشكا كشيء - وإذا دعت الضرورة الى العودة الى هناك؟ — وأيضاً باصبيه الى الدليلير .

— لن تكون هناك ضرورة، — قال سرييلين — فالجندى لا يحفر الخندق من اجل ان يتركه فزولا عند اول طلب من العدو . تلك قصة قديمة ينساها البعض احياناً : يفترون ويحفرن ثم ... وولج بيده - اما نحن فقد حفرتنا ولن نترك ما حفرتنا . ولا شأن لنا بالآخرين !

نظري عبارته الاخيرة بحسنة من الدفارة . فهي ليست صحيحة ، وهو نفسه لا يفكر على هذا النحو ، ولكن تلك العبارة صادرة عن شعور ما كان سرييلين ليبتجل منه . فهو يعرف ما لا يعرفه سينسوف وبشكا ، يعرف ان الالمان يسيروا الدليلير على يمين « دويليف وشمالها » ، وإذا لم يصل في الساعات القريبة القادمة - اهر بالانصحاب فان فوبه محكوم عليه بخوض المعركة في حالة تطويق . وهو الآن لا ينتظر وصول الالمان بالانصحاب بل ولا يريده . استولى عليه كبرياء الجندى الذي لا يريد التضيق بان احداً قربه يقتال على نحو سيئ - او ينسحب او يفر من المعركة . وهذا بالذات ما قصده الآن من عبارة : « ولا شأن لنا بالآخرين ! » . لقد عدل عشرة ايام بلياليها في تعزيز مواقفه ليس رغبة بل رغبة . وقد ابتدع فوبه في القتال يوم امن وعظي ان يواصل القتال على هذه الشاكلة . انه واثق من ذلك ويرى ان الآخرين يجب ان يفعلوا الشيء ذاته . وعند ذلك يمكن كسب الحرب .

— ما الذي سيحدث اليوم في رأيك ايها الرقيب القائد : هل منتشبه معركة ام لا؟ — سأل سينسوف وقد اصيب بدهى الانفعال المتحفظ اللازم لسرييلين وظل يبتدل في نفسه حذر غامض .

— اشئى ان لا تشبه معركة - اجاب سرييلين بده تفجير - اشئى ان يحاولوا اليوم فتح ثغرة في مكان اضعف . فقد كنت ولا ازال اعتبر تكتيك الالبان على مستوى مروق . فهم ليسوا تكتيكين سيئين - اضاف بشبه لم يفهم سينسوف . بفزاء وايشم بكسوة وثوب لشيء غطر في باله ولكنه لم يفصح عنه . ثم قال للكائين بلوتيتكوف الذى اقترب منه وسياه مصاصاً : لست حليفاً هذه المرة - ايضاً ايها الرقيب الكائين .

عينا الكائين حذران متعبان ، وعلى وجهه تعبير عن الاستعداد المطلق للقيام باى عمل يتطلب منه والتم في الحال لو سحوا له بالتم .

الفصل الرابع

عندما استيقظ سينسوف رأى السماء صافية تماماً . وكانت الشمس مشعة ، ولا يشير الى الحرب الا هدير المدفعية البعيد جدا فلا يسمع الا بالكاد . نزل رافداً يفتح دقاته يفتح عينيه تارة ويضيق ما بين جفونه تارة اخرى ، ثم نهض . كان ميشكا جالسا على العشب جنبه وقد انهزم في عمقة آلة التصوير . فقال سينسوف فرحاً :
— ما اروع الطقس اليوم !

خرج قائد اللواء من الخيماء المظلمة بعد ان انحنى يشده عند الباب . وبدا في ضوء النهار ليس بحمر الشباب الذى تصوره سينسوف في الليل . فظهر سرييلين يدل على كنهه في الخمين ان لم تقل اكثر . خرج من الخيماء بدون طاقية . وكانت الشعرات البيضاء الصفراء المصفوفة بتسريحة مائلة لا تكاد تغطي نصف سلعته المرفيضة . وجهه الكهوى يفتضون عذبة طويل وغير جميل كبروز حصان ، وفي فمه صفان من الاسنان الفولاذية .
— كيف قضيتا ليلتكما؟ — سأل سرييلين وهو يمد شعره المنسد اصلاً . أفتخرج منه الفولاذ عن ابتسامة عريضة ، قطعت على وجهه غير اللبح بسمة من اللطيفة والفتوة .
— فبكرا . لا بأس - اجاب سينسوف .

— يزيد ان تلفظك صوراً للدايات - قال ميشكا بلهجة - هيئة التحرير يامس العاجية الى صور الدبايات .

— سينفرغ الآن قائدة الكتيبة الكائين بلوتيتكوف ، وستقربان معه الى كتيبه . فهو الذى حذر اسى اكبر عدد من الدبايات ، هل تريدان طرح اسئلة على ؟ سأكون مشغولاً فيما بعد بامور الخدمة .

— عبرنا ايها الرقيب قائد اللواء - سأل ميشكا بحماس - لماذا لم نر ولا مدافعاً واحداً مضاداً للجو عندما عبرنا الجسر ليلة البارحة؟

— مدبرة إيهما الرئيق قائد اللراء . عشرة أيام لياليها سحرت الأرض ثم غضت المعركة ، وفي الليل عسلت في رثيم الخنادق .

— اعرف كل شيء ، ومع ذلك لا يد من حلاقة اللق . وإذا أراد الدراسل ان يلتفت صورة لك باعتبارك افضل قائد كتيبة سيجدك غير حليق . عند الرمايلين ملك ووفر لهما امكانية تصوير الدبابات ، وفي السماء اعدها الى هنا — اوباً سربيلين برأسه ايماءة تودع قصيرة والنصرف الى المبنى في الارض . شيعه الكاينين بلوتنيكوف بنظرة ثم مسح فقه الكتيبة بيده واملق كلمة واحدة لا غير : — ها! — سار فتيحه سينتوف وميشكا .

يدا مظهر قائده الكتيبة وكأنه قفى بالفلع عشرة ايام لياليها في حفر الخنادق : طاقينه مدعركة ولله نام دون ان يحلمها ، وجزته مثرية ، وعلى بغطاله وقمصله آثار ملين مسيح كيغما افلق .

لم يبلغ سربيلين في شيء عندما قال ان فوجه معزى المواقف . قفى الطريق الى الكتيبة لاحث في كل مكان الخنادق العميقة التي يربط فيما بينها عدد كبير من ممرات التوصيل الرئيسية والثانوية بحيث يصعب حتى على ليزان المدفعية الشديدة ان تحدث خلا في ادارة الفوج . وقد سحرت لمركز القيادة مخابره معززة ذات تقطبة من عدة مايكات من الجذوع . ونصبت الرشاشات على قواعد ثوابية مستديرة . وقال ميشكا بلهجة استعجاب :

— استحسانات كما عند اليابانيين .

— ماذا! — التفث اليه بلوتنيكوف مستعجرا .

— انها تشبه استحسانات اليابانيين في معركة خالدين — غول . وما لم يقع اجنثا كل واحد على حدة لا يمكن الاستيلاء على شيء .

— هل كنت في خالدين — غول! — سألته بلوتنيكوف بغير اكتراش .

— اجل .

— اما نحن فقد قاتلنا لاول مرة يوم امس — قال بلوتنيكوف واصل

سيره .

الطرف الاسامي المكتيبة يلتفت حول اجمة بلوط فنية ، ووراءه انبسط حقل من الجودار ، وخلفه غابة صنوبر كثيفة والالسان في تلك الغابة . تخفق الغابة سكة حديد والى جانبها طريق للسيارات . وقد قلعت مواقع الكتيبة سكة الحديد والطريق العام وامتدت الى مؤخرة الفوج . امام الخنادق ، في حقل الجودار اغاريد الحماية القتالية ، واليها تمتد ممرات التوصيل ووراء الاخاديد وسط الجودار انتصبت الدبابات الالمانية التي دمرت في معركة امس .

— اين؟ — اين الدبابات الاخرى؟ — سأل ميشكا من بلوتنيكوف بجهش —

كبل لي ان اربع عشرة دبابة دمرت عندكم هنا . ارى سماءا فاين الشمس الباقية؟

— الشمس الاخرى وراء نقاط الحماية القتالية ، ولكنها في منخفض ولا

تري من هنا

— حسنا ، ساطر هناك فيما بعد — قال ميشكا — اما الآن فلنشر من

خذد التي في الجودار .

— الا تستطيع تصويرها من هنا؟ — سألته بلوتنيكوف .

— لماذا؟ الآن فترة حذر .

— فترة هههه — سأل بلوتنيكوف مرتابا واستدعى قائده السرية ، وهو ملازم

اشقر في حوالى العشرين من العمر — اذهب يا خوريشيف مع — وأشار الى

ميشكا — فهو يريد التقاط صور للدبابات . عند من قوات الحماية خمسة اشخاص

وليزسقوا الى الدبابات للتثبت من الوضع هناك احتياطا ، ثم عد معه .

قال ذلك بصوت متكامل متجب . وكان اشد ما يربق فيه هو التخلص

من هذا المراسل الصاخب والنوم قليلا .

— واثت؟ هل سيقى عنى؟ — التفث الى سينتوف .

— كلاء ساذهب معهما . — كان سينتوف يريد ان يلمس ياحيه الدبابات

الالمانية المدمرة .

— حسنا ، افعل ما تشاء وافق بلوتنيكوف بنفس الصوت المتكامل —

اما انا فاسبق هنا لانام قليلا — وابدى اراء ما يمكن ان يظه به الاخرين

لابالية مضاعفة ، لابالية انسان شجاع للغاية ومتعب للغاية .

انصع ان الدبابات تقف على مسافة ايمد مما تصوره . فقد زسقوا

طويلا كي يصلوا اليها . ولم يكن هناك جنود المان في حقل الجودار

ولم تطلق النار من الغابة ايضا .

صور ميشكا الدبابات في البداية منبسطا وجالسا للفرصاء ، ولكنه فجار

بعد ذلك ووقف بقامة منتصبة . كان يريد التقاط صورة للدبابات التسع جميعا .

ولكنها لم تنع جميعها في مجال رؤية آلة التصوير ، وفقت سبع ، وظلت

اثنان خارج ذاك المجال . وانظمت على وجهه ميشكا رغبة مستحيلة ولكنها عارمة ،

فقد كان يريد سحب الدبابتين بشكل ما ليوصلهما بالاخرات .

بينما كان ميشكا منهمكا بالتصوير راح سينتوف يحوم حول الدبابات .

انصبت بجمود الاموات في حقل الجودار ، فلم تبد كبيرة مربعة كما كان

يتصورها في السابق . كانت دبابات قترة باراج مستديرة وأطلة شبيهة بأغطية زمرجات اسطورية . وعلى مقربة من الدبابات عدة جثث لالمان قتل . وقامت رواتح كروية من تلك الجثث .

فرغ ميشكان من التقاط الصور - فاصطحب الدليل وتوجه الى السوية المجاورة ليصور باقي الدبابات . اما سينتوف فقد عاد مع الملازم خوريشيف الى مركز المراقبة لدى السوية . يقع المنحأ المميز الصغير تحت كتيب السكة الحديدية على مقربة من كوخ حفش السكة . فقال خوريشيف لسينتوف باللهجة ودية :
- فلنجلس قرب الكوخ ، لدى هناك ماء وقليل من الطعام . ولا يزال حفش السكة المجوز يعيش هناك حتى الآن .

لماذا ؟

- الله يعلم . يعيش هناك ولا يغشى شيئاً ! وقد عمل جنودى من اجله حيث حفروا له نقفاً ، ولم تقع طوال الممركة لحسن الحظ ولا ذقينة واحدة على الكوخ .

عندما وصلنا الى الكوخ وبدأ الحفش المجوز جالساً على ارضية السكة قرب النفق وقد رفع بغطاله حتى وكبتيه وراح يدق في اشعة الشمس ساقيه النحيلتين الشائختين يلودنهما المنفتحة . والى جنبه جزءته وجواربه المنشورة لتجف في الشمس . جلس المجوز بهيئتين شبه منفصتين وهو يحرك يدهو ، اصابع رجليه البائيتين . وقد ارتدى فوق قميصه القفطان الاسود المائل الى الافة يرة الباقية خضراء قاتمة .

- اههنا بالاس برة ملازم البائي قتل - قال خوريشيف باسماً وقد جالس على الارض قرب المجوز - فارتداهما رأساً بذا ان خلع الكفتانيتين .

عندما سمع المجوز كلمات خوريشيف استدار نحوه نصف استدارة وفتح عيناً واحدة ناعسة ولمس ردى البزة باصابعه وقال باستعجاب :

- جوج لا بأس به ، جوج جيد .

- اليس سارة ؟

- البحر لا يؤذى النظام .

- لماذا لم ترحل الى مونيخ ؟ - سأله سينتوف .

- ما حاجتى الى مونيخ ؟ - اجابه المجوز بكل - نقولون بانكم

لن ترحلوا من هنا . اليس كذلك ؟ - التفت الى خوريشيف .

سكن نرمل .

- وانا ايضا باق معكم . اؤدى واجبى .

- اننا لنعلم هذه الجدة - قال خوريشيف .

- عمل المعروف شيء جيد - فبح المجوز بكسل من جديد اسدى عينيه - شابان طيبين ، ولكن الالمان قتلوا كثيراً منكم بالاس ... كثيرين جداً !

- هل كانت الخسائر كبيرة امس ؟ - سأل سينتوف .

- زاد خوريشيف يعض يديه من الشمس فاسدل سدارته على عينه وقال ان خسائر السوية جسيمة : حوالي ثلاثين شخصاً بين قتل وجرح .

- فلنخلع جزئتنا نحن ايضاً - اقترح خوريشيف - اننا نسير طوال الوقت وارجلنا ملطية .

خلع جزئته ووضع جواربه على عارضة السكة الحديدية واحدة يمتنع بتحرك اصابعه المتخلفة كما فعل المجوز .

- جزئة مشعبة من زين القارسة ، وليس عندى غيرها . اصحابى الجنود غلبوا لى جزئة من ضابطة البائي قتل ولكنها غير مناسبة ، ضيقة عند القدم ويستعمل في راحة الرجل . ربما يضيئون عليها قطعة من قماش سميك .

- كما في عهد النظام الجيصى - قال المجوز - جزئة شياطة عادية مع قماش ملصق .

خلع سينتوف ايضاً جزئته . وذهب خوريشيف ساعياً الى كوخ المجوز وغاد يعمل اربيع ماء وبشرى وثلاث سميكات ملصقة .

- لا تشل على قصبان السكة ففى ساحة - قال المجوز وسلط نظره على السميكات و اضاف : - ستعطل كثيراً .

ولكنه عندما مد له خوريشيف يده باحدى السميكات بدلاً من الجواب اخذها المجوز دون اعتراض وراح ينزع جلدھا .

كان سينتوف يهبط الى خوريشيف بين الحين والآخر وهم يأكلون . لقد ادهش ان هذا الشاب اليفع الشيط الذى يجيد تدبير الأمور الاقتصادية شارك في القتال عند الالمان لاول مرة يوم امس وهما هو اليوم يتحدث عن ذلك وكأنه شيء معتاد لا يخشاه في المستقبل ايضاً .

ظلا جالسين ثلاثين دقيقة ثم قاما ثلاثة من الاستطلاعيين وكل منهم يقود دراجتين هوائيتين المائيتين . كانت الاستطلاعات الليلية قد ظهرت من قنابة الى الصباح الباكر وتركت هذه الدراجات على الطريق العام بذا ان تعرضت لليران وقتل اثنان من الاستطلاعيين الالمان وفر الباقون الى الغاية . وامر خوريشيف بالاستيلاء على الدراجات وقد احضرها الاستطلاعيون . فقال :

— انكروا لنا ثلاثا في السرية: وسلموا ثلاثا الى الكتيبة.
انكشف وجه احد الاستطلاعيين امتعاضا. فكرر غوريشيف امره:
— فقلت سلموا ثلاثا فسلموها. والا فسوف ياخذ بلوتنيكوف الدراجات
الست كلها.
انصرف الاستطلاعيون، في حين اخذت الطائرة الثانية من طراز «ميرشيت»
تحوم فوق حقل الجوارث وترتفع في السماء ثارة وتطفئ ثارة اخرى حول مكان يمينه.
فقال غوريشيف بلا مبالاة:
— انهم يتصفون صاحبك. فهناك البدايات المدمرة.
صوت الطائرة حول الحقل ثم انصرفت وشر سينتوف بالقلقي، ولكن
شيخ ميشكا المضحك لاح في الافق. وصل وهو على كتيب السكة، وعندما
رأى السمكة في يد سينتوف الذي لم يتقسمها كلها بعد قال له: «اعطيها».
وغرز فيها انبابه بنهم. ودخل غوريشيف الكوخ واحضر عدة سمكات اخرى.
وسأل سينتوف ميشكا:
— اطلقوا النار عليك انت؟

— على — اجاب ميشكا مفهوما — ولكنني اتخطعت في الحال على بطني
وزحمت الى تحت الدبابة. فظلت الطائرة تحوم كالبعوضة ولكنها لا
تمتطيح ان تفعل شيئا.

— هل صورت كل شيء؟ — سأل سينتوف.
— اجل، يمكننا ان نذهب.
اجهز ميشكا على سمكة سينتوف ثم انهم بنفس السرعة سمكتين
اخرين وشرب ايريقا من الماء. ارتدى سينتوف جزمته ودفع المجوز وعادوا
لثلاثهم الى كتيبة بلوتنيكوف.
وجدوا بلوتنيكوف جالسا قرب التلفون في المخبأ يعييب على نسق واحد:
— نعم، مفهوم... نعم، مفهوم. سنعمل حسب امرك. — وضع
بلوتنيكوف السماعة وتوض. فسأله سينتوف:
— هل غفوت قليلا؟

— نعم. ولكن هل يمكن النوم بقدر يعرض عبا فأت؟
— سالتقل لك صورة الآن — قال له ميشكا.
خرجوا الى البراء فسلم ميشكا نظرة انتقادية على بلوتنيكوف، على
ذقته غير الجليق ولطافته المدهوكة ويزنه الوضحة والمسدس الالهائي الذي انزلق
من الحزام على بطنه. ثم قال متعاقبا:

— كلا، لا تصطحب للتصوير بهذه الهيئة.
ميشكا يجب التفتحة في التصوير، وبلوتنيكوف لا يصلح تماما.
لذلك. فخذ ميشكا يمسك اوامره:
— شد حزامك بشكل افضل. ابن نفاق؟ هل لديك نفاق؟
— نعم، في الدنيا.
— شد نفاقك لتكون ميتك حسب المطلوب.
عاد بلوتنيكوف الى المخبأ مكرها واحضر نفاقه ولقى به على كتفه
ويثبه الى الحزام.
— شد ايزيم الياقة! — طالبه ميشكا دون رحمة.
تأدس بلوتنيكوف موقع الايزيم وقال بأسى:
— ضاع.
فتنهذ ميشكا قائلا:
— هل لديك خوخة؟
— كلا.

— كيف لا توجد عندك خوخة؟
— يا غوريشيف احضر لي خوخة من احد الجنود — قال بلوتنيكوف
وقد شعر بالملل ولم يغفب شعوره هذا. احضر له غوريشيف خوخة فخلع
بلوتنيكوف ملابته وارتدى الخوخة.

— هل لديك بندقة رشاشة؟
— نعم. احضر، يا غوريشيف، رشاشي من المخبأ.
احضر غوريشيف الرشاشة. فخلعها بلوتنيكوف على عنقه، وبدل ميشكا
من وضعيتها وقام بالتشنج لمدة الاشارة والتفتت صورة لبلوتنيكوف الذي لم تناسبه
اطلاقا لا البوخة ولا الرشاشة، ولا كل التعديلات التي اجراها ميشكا على مظهره.
ثم التفتل ميشكا في الحال صورة لغوريشيف الذي لم ينتظر حتى
يدعوه للتصوير بل اسرع واحذر من الكابتين البندقية والخوخة وارتداهما وبدل
قامته امام آلة التصوير ووقف متوترا دون ان يريش له جفن.

وقال بلوتنيكوف:
— ساهت الكيما عريفا يوصلكم الى الفوج. وقد تالفن قائد اللواء وامر بان
نحضر خلال الليل اخاديد تحت البدايات الانتفاضة ونصيب كميننا هناك. انا
ذاهب لتفتية الامر، فالسواء يقترب. — هز كتفيه متعبا واستدار وانصرف.
عندما مثل سينتوف وميشكا امام سريلين من جديد سألهم:

- ماذا؟ هل اطمعكم بالوثيق؟ ام انه لم يفكر بذلك؟
- اطمعنا على اليوم... قال ميشكا لا على التمهيد، يه ان
سرييلين اعتبر جوابه شافيا فسال دون ان يمكنه من اضافة شيء:
- يعني انكمما التجزما ما اودتما وبسكمما ان ترحلا، اليس كذلك؟
- نعم، ينبغي ان نصل الى موسكو فدا لتسلم البادة من اجل نشرها
في البلد القادم، ولكن يبدو ان اصورك المث ايضا.
- ما الداعي لتصورى، ارحلا فالوقت ثمين.

اثار شيء ما في لهجته اقتباص سينتوف، فقد خيل اليه ان سرييلين يريد
لهم ان يغلبا السكان ياسرع ما يمكن. وكان حذير الدفعية الذي تهادى
طوال النهار من الشمال والجنوب قد ابتعد الآن، في السماء، نحو الاعماق،
الى الشرق، وراء ظهورهم.
- مع ذلك اسبح لي ايها الرقيق قائد اللواء ان اصورك - اصر ميشكا.
فقال سرييلين:

- اذن صورتي مع فائى للشؤون السياسية ورئيس الاركان. موروا
لثلاثتنا لثقتى ذكرى وفاقية الخدمة في الفوج. هل تطلع صورنا فوتوغرافية
مفصلة؟

- نعم - اجاب ميشكا كاذبا، فهو لا يطلع مثل هذه الصور ابدا. - نعم
سأطلع صورنا وسأعطيها لكم.

- لا داعى لاسأله الى هنا - قال سرييلين، ولاحت في صوته من جديد
نفس الالهجة التي اثارته اقتباس سينتوف - ايها الى زوجاتنا وسنملك المناوين.
استدعى جنتي الدراسة وطلب منه ان يدعو فائى للشؤون السياسية ورئيس
الاركان. فسال ميشكا:

ايين زوجاتكم؟

- زوجاتهما في ريزان وزوجتي في موسكو. هل المفكرة معك؟
اخرج ميشكا من محفظته اليدانية مفكرة عتيقة فقلب فرييلين عدة
صفحات فيها وكتب على صفحة فارغة بخط متين واحرف كبيرة: فالتينا
سرييلينا، شارع بيروفوسكايا ١٦، شقة ٤.

بيروفوسكايا... انه شارع قريب جدا من شقة اريسييف على شارع
اوساتشوكا الذي ودعت ماشا منه زوجها سينتوف الى غرودنو.

«غرودنو، غرودنو...» - فكر سينتوف مئات الورات خلال هذه
الايام وهو يتساءل من جديد ويكرر عينا نفس السؤال: «ماذا حدث لهن؟»

بعد لحظة جاء فائى للشؤون السياسية ورئيس اركان الفوج. فقال
سرييلين وهو يمين الى ميشكا:

- يقترح تصويرنا. وعد بارسل الصور الى زوجاتنا.
وتحس سينتوف في لهجته المرة الثالثة تقصيصا كثيلا. «هيا لم نغص
عنه بالكامل».

وقف سرييلين في الوسط ووقف النائب الى شماله ورئيس الاركان الشاب
الرويم الداكن الشعر بعينين سوداوين خزينتين الى يمينه.

- قف انت ايضا معهم - صاحب ميشكا سينتوف - ولكن لا تلتصق
بهم، فقيبا بعد اقص صوركنا واطمئنا لوجدنا من اجل زواجك - لم يكن
ميشكا راغبا في اعادة تعبئة آلة التصوير، في حين كان الشريط ينفذ.
وقف سينتوف الى جانبهم. فالتقط ميشكا الصورة، واخرج مفكرته
وهم بتسجيل باقي المناوين، الا ان سينتوف الذي اراد ان تصل الصور
بالفعل الى زوجات هؤلاء الرجال فصحبهم بان يكتبوا ثلاثتهم رسائل مقتضبة
ورسوف يرسلها الرقيق ميشكا فايشين الى بيوتهم مع الصور.

كان سينتوف يأمل بان يثقل الرسائل العرسلة معه من
الجهة رغم كبره لطبع الصور الفوتوغرافية.

- ما الداعي لرسائل! - هم سرييلين بالاعتراض ولكنه لمح عيني رئيس
اركانه الفتيين الكئيبين فوافق قائلا: - حسنا، سنكتب بسرعة. ولن نجعلكم
تتأخران، فقد حان وقت السفر.

عندما انصرف الرجال لكتابة الرسائل قال ميشكا:

- عيب! حان وقت السفر، حان وقت السفر! انه لا يريد ان يقدم
لنا طعام المشاء. اعرف بنسى: على ان اسافر، ولكنى استطيع العثور على
ساعة لتناول المشاء. اما هره، التبخيل فيطردني.

- انت - لا تفهم شيئا يا ميشكا! - قال سينتوف وقد ادرك بمتنتهى
الوضوح فجأة معنى هذه الصور وهذه الرسائل. وظهر لهبه، في دخليته،
تصميم مخاض. ولكنه تقصيم ثابت ولده كل ما عناه وشاهده خلال الاسابيع
الاثلاثة الاخيرة. فقال لميشكا:

- انتظرني هنا، سأعدي في الحال.

فتح باب متحيا سرييلين:

- هل يمكننى الدخول ايها الرقيق قائد اللواء؟
- ادخل.

كان سرييلين جالسا عند الطاولة يكتب بحروف كبيرة على وريقت
استلها من المفكرة الميدانية. توقف عن الكتابة وأشار على سينيوف بالجلوس
على مصطبة عند الطاولة:

- اجلس. ماذا حدث؟

جلس سينيوف. لعل تعليقات وجهه تنطوي على شيء مثير لغت الانتباه
سرييلين فسأله من جديد:

- ماذا بك؟

- لن أذهب مع رفيقي. اريد ان ابقى بعض الوقت في فوجكم اذا سمحت .
- لبعض الوقت؟ - سألته سرييلين.

- لست راضيا في مقابلة فوجكم - كرر سينيوف دون ان يجيب على
سؤال سرييلين.

- لماذا؟

- يتخيل الى انك لا تفكر بالانسحاب. اريد ان ابقي معكم . -
قال سينيوف وتطلع في عيني سرييلين مباشرة.

هنا، لا تفكر بالانسحاب - قال سرييلين - ولكن لست نحن الفوجيين
في هذا العالم. رأيت الاوضاع عنفا فذهب لفرى ما عند اخرين. الدارسون
الصحفيون قليلون. والوحدات العسكرية كثيرة. اذهب. اذهب. - قال بلهجة
الخفيف في اشفاء طابع تشيخ عليها - لن اسمح لك بالبقاء، فليس لديك ما تفعله
هنا - ودمم بالكتابة من جديد. فقال سينيوف بصوت جمل سرييلين يتطلع
الى عينيته مباشرة :

- ايها الزئبق قائد اللواء! ظلت من الركض كالارنب ولا اعرف عم يجب
ان اكتب. هذا هو الاسرع الزايع للهرب، ولكنني لم اكتب شيئا حتى الآن.
لا ادري، ربما لم يخالني الخط كثيرا، ولكنني وصلت اليوم لأول مرة الى
فوج دمر بالفعل تسعا وثلاثين دبابة ألمانية، فزعتها اخيرا بام الدين. واذ
بدأت المعركة عندكم غدا سوف اراها بام الدين ايضا وسأكتب عنها. انني
اعمل في جريدة يهودية، والجمية هنا عندكم. فإني يجب على ان اتواجد اذا
لم ابق عندكم؟

- اسمع يا رفيق... نسيت اسمك، ذكرتني الى اسم ولكنني نسيت...

- سينيوف.

- اسمع يا رفيق سينيوف - اكنسى وجه سرييلين بمسحة جادة -
انني افهم رغبتك في التواجد في المعركة ، ولكن تضادو حالات يجب ان

يبقى فيها في الوحدات اترادها فقط، وليست هناك حاجة الى ان يقاتل فيها
آخرون ويموتون. ولو كنا ننظر مجرد معركة عادية لسمحت لك بالبقاء،
ولكننا على ما يبدو، سنواجه معركة غير عادية، معركة ضمن التطويق. في
الصباح كنت افترض ذلك افتراضا، اما الآن فانا واثق منه. ألم تسمع بالمفعية؟

- بلى.

- سمعتها بشكل سيء. ولا بد. الألمان الآن على كلا جانبينا، وقد توغروا
وزاد الفئير بعيدا. وقد تواجهنا صعوبات في الطريق حتى لو ارتحلنا في
الخال. اذهب، فانا اريد اكمال الرسالة. الوقت ضيق بالنسبة لي وبالنسبة
لك على حد سواء.

- ايها الزئبق قائد اللواء! - قال سينيوف - ايها الزئبق قائد اللواء! - كرر
بغداد. وبصوت اعلى لكي يجلب انتباه سرييلين الذي اسلك بالقلم من جديد.

- ماذا؟ - كف سرييلين عن الكتابة متهففا.

- انني شوقى، وانا برتبة مرشد سياسي، واريد ان تسمح لي بالبقاء
هنا. فالذي سيحدث لكم سيحدث لي ايضا. اذا وقفنا على قيد الحياة
سأكتب عن كل شيء كما كان، ولن اثقل عليكم، فاذا دعت الحاجة الى
الوقت سامنت لا اسوأ من الآخرين.

- ربما تأسف على ذلك فيما بعد يا رفيق سينيوف! - قال له سرييلين
بلهجة ملاطفة بعد ان سلط عليه نظرة طويلة.

- لن أشرع بالانسحاب - قال سينيوف. وانقا في تلك اللحظة من انه لن
يأبى على شيء، بالقلم، وقد ادرك بان المسألة غدت محاولة ولا داعي للاطالة
في الكلام.

انصرف سينيوف فخبه سرييلين قائلا:

- اشير رفيقك بانني سالتني من كتابة الرسالة بعد لحظات فليستد الرجل .
- اسعفوا اوزانا للسفر - قال ميشكا قرحا وهو يطليط على محفظته الميدانية
المليئة عن آخرها - أمر قائد اللواء بتزويدنا بالطعام دون ان يخبرنا بشيء .
- لن اذهب معك. سابقني هنا لبضعة ايام - لم يكن سينيوف راضيا في
الحقن في التفاضيل

- ماذا تقصد بالبقاء هنا؟ الى متى؟ هل البادة الصحفية عندك قليلة؟
- قليلة.

- مهما كانت قليلة فهي كافية، وفي الدورة الثانية ستجمع كمية اكبر.
- كلا يا ميشكا، سابقني - كرر سينيوف باضراء.

— هذه فذالة! — صاح ميشكا معتقن الوجه وقد بدأ البيط يستولي عليه. —
انت تعلم ياني لا استطيع البقاء منك، طان يوصل احد غزيرى الصور الى هيئة
التحرير.

— صحيح. سافر انت.

— ذلك يبنى انتى اتركك هنا وحدك!

— كفالك! هذرا! سافرو، وهذا كل ما فى الامر.

— حسنا! قال ميشكا وقد غطرت فى باله فكرة اخبرته فى الحال
من الوقت المرح. — ساذعب بسرعة الى موسكو واسلم الصور واعود اليك، الى
هنا. بعد ثلاثة ايام فى ايمد تقدير. ولكن لا تترك هذا المكان. انتظرنى
هنا، انفقنا؟

— اتفقنا! — قال سينتوف وهو يشد على يد ميشكا الثقيلة مودعا.
واجتاح السرور ميشكا فوراً بسبب فكرة الانقاذ التى غطرت فى
باله. — ولذا؟ فقال فجأة:

— اسمع، اكتب فى الآن ولمائة سطر، لكى يكون هناك نص يوضح
كيف دمرت قواتنا هذه الدبابات. واذا اتهد لك بان المقالة منشتر فى
الانواراما المصورة. منشتر فى «الاشتياء» فهل ذلك بالشئ القليل؟

تذكر سينتوف يلقى كلمات سرييلين من ان الوقت ثمين وتردد فيما
اذا كان من المناسب تعطيل سفر ميشكا.

فى تلك اللحظة خرج سرييلين من المشفى يحمل ظرفاً مفتوحاً. وقال
لميشكا:

— خذ، كتبت الرسالة، فيما بعد ضع الصورة فى الظرف واغلقه. هل
انت مستعد لتسفر؟

— فى الحال. غير انه — واولاً — ميشكا الى سينتوف — سيكتب مقالة
قصيرة وسأسافر.

طلب سينتوف من سرييلين السماح له بدخول المشفى وكثافة بقعة سطور
هناك على غصو الشجرة.

فقال سرييلين:

— ادخل، فاننا ذاهب على اية حال. الزيفان الآخران سداك الزيفالين؟

— نعم.

— وافتلك السلامة — شد سرييلين على يد ميشكا وانصرف دون ان يودع
سينتوف على اعتباره غداً من افراد.

دخل سينتوف المشفى ودخل معه ميشكا. فهو يخشى التجبر لو بقى
ينتظار وحيداً. جلس سينتوف ليكتب المقالة، بينما فتح ميشكا المصهفة واخرج
منها قطعة من السجق الجاف وراح يعضه بثلثه.

كتب سينتوف بسرعة بل وبسوة لاجسامه بشروسة الاستجمال. كتب
عن الدبابات الالمانية المدفوعة ومن حيث الالتئام السجاجة بين الجودار ومن
سرييلين وبابونيكوف وبغوريشيف، وكتب اكثر من مرة عن الشئ الزيفى،
عن امكانية سرق الدبابات الالمانية وعدم الانسحاب امامها عندما هاجم.

كتب على عجل، وكانت تدور فى ذهنه عواقب القرار الذى اتخذه.
غلب اليه انه لو لم يسمم على ذلك من قبل ولم يخبر سرييلين به لشعر الآن
بالجن وأرتعل. وراح يفكر بشمفه خجلاً دول ان يدرك ان الناس المختلفي
الطباع يمكن ان يكونوا اقرباء باشكل مختلفة، وان قوتهم تخلص احبانا فى

انهم يخشون عواقب تصميمهم ولكنهم لا يغيرون رأيهم فى ذلك التصميم.

كتب المقالة فى غضون خمس وعشرين دقيقة، وفى ذيل الصفحة الأخيرة
كتب بضعة سطور لزوجته ماشا. ثم طوى الأوراق وسلمها لميشكا وقال:

— خذها. ويعد ان يطمعها على الآلة الكاتبة سلم المودعة الى زوجتى.

ريدا لا تزال موجودة فى موسكو، هذا هو رقم تلفونها. كتبت لها مائتين
من المستشفى، ولكن املى فيك اكثر من املى فى البريد.

— مليا. — تهدد ميشكا. درس قطعة السجق التى لم يجهز عليها فى

المصهفة المبدائية واحد اوراق سينتوف.

خرجوا من المبنى معاً. ميشكا لا يحب التفكير طويلاً لا بما يوزم
عليه هو ولا بما يوزم عليه الآخرون، ومع ذلك ارتضى آنذاك فى فؤاده

الطيب ورغم خشوته فلى غير مفهوم حتى النهاية بالنسبة له. فهو لم يكن
راضياً عن سفره وبقاء سينتوف، لم يكن راضياً عن ذلك اطلاقاً!

— مع السلامة — شد على يد سينتوف — مع السلامة. ساعود اليك.

اعادك! — وامترح شجعة المربع بالقلعة.

جلس سينتوف على طرف الخنفر وراح يتطلع فى السماء الموصصة
بالتجمود ويفكر بان ميشكا سيصل مساء القد يسارته الليكباب الى موسكو وسيحضر

الصور ويطلعها بنفسه وسيضعها وفى لا تزال ميلة على طاولة رئيس التحرير.
وبعد ذلك فقط — سينتوف يعرف هذا — سيتلف ميشكا الى ماشا. سيكون ذلك

فى الليل، وسترفع ماشا السجاجة، اذا كانت موجودة فى موسكو وسيتولى لها
ميشكا انه رأى زوجها قبل يوم واحد حياً يرقق وملياً معافى...

أما هو، في تلك اللحظة من اليوم التالي... ما كان يعرف ما الذي سيحدث له في اليوم التالي، ولم يكن راضيا في التفكير بذلك الآن. فهو يعرف شيئا واحدا: أن عدوه اليوم ليس بلا نهاية. وإن تلك النهاية متحملة في الليل أو في الصباح، وعند ذلك تبدأ المعركة. ولكنه لم يكن يعرف ما الذي سيحدث له في هذه المعركة، ولم يكن يعرف ذلك جميع الذين يتكون منهم فوج سربيلين، أولئك الذين يملسون هنا، على مقربة منه، في الخنادق، وأولئك الذين يتواجدون على بعد كيلومتر أو كيليتين في المخابئ المظلمة وفي ممرات التوسيل، وعلى مسافات أبعد، في تلك الاضاديد التي ربما أنجز سفرها بلوكتيكوف الشابر تحت الدبابات الألمانية المدمرة في سهل الجودار.

لا سينتصِف ولا ميشكا الذي تمكن الآن من اجتياز الجسر على الدتير ودراج بلوره يفكر سينتصِف بعد أن تركه هنا ما كان يصعبهما أن يتصورا ما سيحدث لهما غدا.

ميشكا المتألم لتركه رفيقه في غدا التجهية ويموته هو إلى موسكو لم يكن يعرف أن سينتصِف سيظل غدا عليهما مغان دون أن يقتل أو يصاب بجرح أو حتى يمشي، ولكنه سيكون متعبا إلى أقصى حد. سينط في النوم في قعر هذا الخندق.

أما سينتصِف الذي يحدد ميشكا لانه سيحدث غدا مع ماشا في موسكو فلم يكن يعرف أن ميشكا لن يصل غدا إلى موسكو ولن يتحدث مع ماشا، لانه سيصاب بجرح مميث في الصباح قرب تشاوس حيث تعلق عليه صلبة رشاش من دراجة نارية ألمانية. وستعثر هذه الصلبة يدنه القوي القضم في غدا موانع فيستجمع كل قواه ويضعف إلى ما وراء الشجيرات على الطريق العام فينزع دما ويجهده في ائتلاف الشريط الذي صور عليه الدبابات الألمانية وكذلك بلوكتيكوف المتعب الذي أرغمه على ارتداء الخوذة وحمل البندقية وخوشره الشجاع حسب الظاهر وسربيلين وسينتصِف ورئيس الأركان الخزوين. وبعد ذلك ينصاع لأمر رغبة لا ارادية لديه فيمزق بإصابعه الشبكة الخائفة الرسائل التي ينهاه منه هؤلاء الأشخاص إلى زوجاتهم. وتستقر في اوصال هذه الرسائل فتعطي الأرض قرب جسد ميشكا المحتضر اقتناز بالدم ثم تنطلق من مكانها متدفقة بالريح ومتقلبة في تحليقها فوق الطريق العام البعير إلى تحت عجلات الشاحنات الألمانية وتحت جنازير الدبابات الألمانية الزاحفة نحو الشرق.

الفصل الخامس

فيودور سربيلين الذي ظل سينتصِف في فوجه كان من الناس الذين يتعلمون دون أن يلين لهم عود. وقد شهد سجل خدمته تغيرات كثيرة، ولكنه في الواقع مارس عملا واحدا طوال حياته، حيث خدم الثورة على قدر المستطاع كجندى من جنودها. خدم أبان الحرب الأولى ضد الألمان، وخدم أبان الحرب الأهلية، قاد الأفواج والفرق، ودرس في الأكاديميات ثم التقى المحاضرات فيها، وخدم في الجيش حتى عندما قاده الكدر رغما عنه إلى كوليسا.

أله يتحدر من عائلة مضمدة رفيق، أبوه روسي وأمه تترية هربت من منزلها واعتنقت المسيحية للزواج من والده. ولا يزال والد سربيلين مضمدا في ثوبا الواقة على سكة الحديد التي تحتاز غابات ميشيرا الكثيفة. قضى سربيلين طفولته هناك ومن هناك مافر في الثانية عشرة من العمر مقتبها اثر والده للخدمة في مدرسة الطب في ريزانان. وفي هذه المدرسة انضم إلى حلقة ثورية وتعرض لمراقبة البوليس، وربما كان معسيرة النفى قولا الحرب العالمية الأولى التي جند فيها.

وفي شتاء عام ١٩١٧ شارك المشد سربيلين في أولى عمليات التآخي بين الجنود، وفي شريف العام المذكور عندما غدا قائدا متجنبا لأحدى الكفائب الثورية حارب ضد الألمان الذين هجموا على يترفراد النازية. وعندما تأسس الجيش الأحمر ظل في الأترائب العسكرية التي اعجبته، وعندما وضعت الحرب الأهلية أوزارها كان هو قائدا لفوج في منطقة بيريكوب.

كان العاملان منه والذين يعرفون بداية سيرة حياته يميزون قسمونه، في حالة غيايه، بالمضمد. كان ذلك من زمان بعيد يبتني نسائه، ولكنه هو نفسه يشبهه ببعثته هذه مزاجا في بعض الأحيان. وبعد الحرب الأهلية كان سربيلين يدرس طوال الوقت تقريبا. فقد تخرج من دورة تغير الاختصاص وقاد

قوسا من جديد ثم استمد للاتساب الى الاكاديمية وتخرج منها ثم غير اختصاصه فصار من ضباط الدبابات وعدم في أولى الوحدات الآلية، ثم عاد الى المشاة من جديد وقاد فرقة طوال عامين وبعد ذلك شغل كرسى التكتيك في نفس اكااديمية فريزر التي تخرج منها. قبل خمس سنوات من ذلك التحين. ولكنه هنا ايضا واصل الدراسة حيث عحصن كل اوقات فراغه لتعلم اللاتينية لغة العدو الأكثر احتمالا.

وعندما امتدت فترته في عام ١٩٤٧ استخدمت هذه اللغة اللاتينية والدواوين العسكرية اللاتينية التي عثر عليها في شقته أثناء التحري. كانت الحجة الأولى لاعتزاله هي التحيزات التي وردت في محاضراته وغير المقبولة آنذاك حول الجوانب القوية في الآراء التكتيكية للفيروماتش الذي يهتبه حمار. وقد فكر في ذلك بالذات يوم امس حيث قدر بمرارة وللم تكتيك الالمان حق قدره وباتسم بقسوة للذكرات التي لا يفهمها سينسوف.

بعد الاعتقال الذي ادهشه وصيره انهارا عليه عموما بتهم ما انزل الله بها من سلطان، بالإضافة الى التهمة السيئة الأولى في الدعاية لتفوق الجيش الفاشي. وقد طلب يهود. نفسه مرتين احضار اقاربه للاطلاع عليها، وظل المستحق الثلاثة الذين حل الواحد منهم محل الثاني على التوالي طوال ستة اشهر ينتظرون ان يقع على ما نسب اليه.

وفي آخر المطاف حكموا عليه، دون محاكمة في الواقع، بالسجن عشر سنوات. وبعد ستة اشهر اخرى انهال بالفرض البحر، وهو في السجن، ودون أية توضيحات مطولة على احد الذين خدموا معه ابان الحرب الاهلية، وهو من انصار تروتسكي وقد اولا سربيلين عطا ثقته وسدته عن فكرته من ان الحزب تشوه والثورة هلكت.

كانت فترة السجن في ادراك سربيلين وقتا مضيقا جدا، قبل كل شيء. وهو عندما يتذكر الآن، في الحرب، هذه السنوات الأربع المظلمة يعض على شفتيه اسفا والدا. ولكنه طوال هذه السنوات الأربع لم يلق على السلطة السوفييتية نظرة جريئة ما حدث له. فقد اعتبر ذلك سوء فهم قليلا ونظما وحماقة ما بعدها حماقة. اما الشيوعية فقد كانت رستقال بالنسبة له قضية نظيفة مقبلة. عندما اطلق سراحه على نحو مفاجئ كما نزع به في السجن خرج وقد شاخ وارهق بدنه، ولكن ريمه لم تنفد حتى بتجانبه الشيوعية والريشة.

عاد الى موسكو في اول يوم من الحرب، وكان يريد شيئا واحدا لا غير، وهو ان يصل الى الجبهة بأسرع ما يمكن.

وكان رفاهه القدامى الذين بدلو قضاير جهدهم لاطلاق سراحه قد ساعدوه هنا ايضا. فقد توجه الى الجبهة دون ان ينتظر وثائق الحصول على الرتبة الجديدة بل ولا حتى إعادة العضوية في الحزب. سلم الوثائق الى اللجنة الحزبية وسافر لكي يتسلم قيادة الفوج. كان مستمدا حتى لفترته قصيرة بشرط ان يعود بلا تسوية الى ممارسة عمله الذي تحول مرة اخرى من خدمة عسكرية الى حرب. كان يريد ان يثبت مقدرة بأسرع ما يمكن. كان يريد ان يثبت مقدرة ليس من اجله وحده: فقد اعادوا له سلاحه ورتبته وعلوه باستعادة العضوية في الحزب وبمبته الى الحزب ضد الفاشيين، فما الذي يريد، أكثر من ذلك؟ ولكنه كان يريد ان يثبت يقينته الشخصية ان الحماقة التي اقتربت حده قد اقتربت ايضا ضد الكثيرين ممن لا يزالون هناك من حيث جاء. انها الحماقة بمنها.

كان هذا الشعور يتصاعد لديه مع كل يوم يقضيه في الجبهة. كان الالمان اقوياء. وتلك قضية لا جدال فيها. وكانت الحرب خطيرة، وقد اشتد اوارها بعد الاعتقالات الأولى.

والسؤال هو: من الذي اراد قبيل هذه الحرب ان يعمر الجيش من اشخاص مثله، هو سربيلين؟ يدهي ان التاعمة لا تتوقف عليهم. فالجيش سينتصر في الحرب بدهونهم ولكن لماذا بدهونهم؟ ما انقص من ذلك؟

فكر بذلك فجر اليوم وهو واقف على حزمة من القش حملها له جندي المراسلة. كانت الحركة البوقية الأولى قد عززت ثقته ليس بان فوجيه سيحقق المعجزات، كلا، مع انه كان يربط في ذلك ايضا. لقد عززت الحركة الأولى ثقته بان الامور ليست بالشكل السيئ الذي يذت عليه في البداية. يدهي ان الجيش قاتل بشكل افضل والاشيا بالالمان خسائر اكثر مما يتصوره البرء الذي لا يرى غير البحاسرين يمدون بوافعه. ولعل الجيش قد حارب في مئات الاماكن الاخرى مثلما حارب فوجيه هنا في معركة الأولى.

واذا كان الالمان رغم ذلك يزعجون الى الامام ويطلقون وبضيقون الخناق علينا فانهم باللب لا يستحقون ذلك بسهولة ولا بد من ان يكلفهم غالبا. ضخامة مسرح العمليات وزبح احتياطاتنا في المعركة وتميز آلياتنا التي لا بد من ان تظهر على الجبهة اشيرا بالكميات المطلوبة - كل ذلك سيوقف الالمان في آخر المطاف عند سد سميت. والساعة كلها تكون في مكان هذا الحد.

فترة الهدوء امن لم تبث السرور في فؤاد سربيلين. فهو يفهم ان الالمان لم يمتدوا له ليس لانهم فقدوا الامل في سحق فوجيه، بل لانهم

ويا الإصفي، يجيدون المناورة بقوتهم. وقد بدأت نتائج هذه المناورة تتجلى. لقد اخترقوا خط الجبهة على يمين موغيليف. وشالها. وذلك واضح من هدير المعركة الممتدة نحو الشرق. ولا يجوز عن فهم ذلك إلا الاطّرش. أما هو فقد جالس مع فوييه هنا مكتوف اليدين ينتظر دوره.

كان آخر أمر وصل إلى الفرقة قبل أن ينفطع الاتصال مع الجيش هو الاحتفاظ بالموقع من كل يد. وكان ذلك أمراً لا بأس به لأولئك المتعلمين لبيع حياتهم بشئ باض والذين يعرفون كيف يفعلون ذلك، وخصوصاً عندما لا يأتيهم أمر آخر بالتراجع. وبين يفوت أوان التراجع. ولكن ما الذي حدث، يا ترى، في الفرق الأخرى؟ وإلى متى يستمر زحف الألمان وتطويق قواتنا وأخبارها التي تلحس الأذان؟!

كان أكثر ما يشاء سربيلين وهو يفكر بما سيحدث هو أن يتلقى أمراً متأخراً بالانسحاب. وبالمناسبة، فإذا بدأت المعركة منذ الصباح فلن يتمكن المرء من التخلص من الألمان حتى إذا رغب في ذلك. والشيء المؤلم أن المعركة ستبدأ. الفرقة تخصم موغيليف. وعند مكان تمركزها تلتقي الطرق، وهنا يقع أيضاً الجسر على النهر، كل ذلك مما هو عطفه لا يتركها المرء في مؤخرته دون أن يحاول حلها وتكبيكها.

وتفكر سربيلين بمودة في سينتوف التائم قربه على المشب:

«الليمان جاء به الينا. ربما سيقتي نجبه هنا. لا يزال شاباً كرتيس اركاني. وزوجته شابة أيضاً ولا بد...». وسقطت افكار سربيلين إلى زوجته هو التي تعيش في شقة عتيقة تابعة للاكاديمية العسكرية في موسكو. غندما اعتقلوه تركوها لها هناك فرقة واحدة. لا بد وأن أحدهم قد أتبه ضميره. وتفكر سربيلين برفقة: وآء، يا زوجتي المجوز! شاب شرمك كليا. تمذبت في كتابة الرسائل وسمل القلم على السجى والشرود على رفاقي وروائي لكي يشعروا لي. لما كان اجملك أيام زمان. وما اكبر الحمقى ذوى الرؤوس الساخنة في مختلف الحمايات والذين دهبوا قائلين: لماذا تزوجت من هذا اللديم اللويل ولا تخونه؟»

دوى في القرب هدير وأصبح شديد. فقد أطلق الألمان عدة قذائف دقة واحدة. وتفكر سربيلين بهؤلاء: «ضربوا يلويتكوف. تلك هي البداية». ففّر سينتوف وأخذ يبحث فيما حوله عن سدارقه دون أن يمارقه الناس. فقال له سربيلين وهو ينفخ بغير استعجال عيدان القش التي ألصقت بيوتهم:

«بقيت معنا، اليس كذلك؟ لم يعد هناك مجال للإصفي...

لاذ سينتوف بالصمت.

— إذن فلنذهب إلى الكتائب. أنت تريد أن ترقى المعركة، وستراها الآن.

استمرت المعركة الجديدة على جبهة فوج سربيلين ثلاثة أيام بليلاتها دون أن ينفذ أوامرها تقريباً.

حتى منتصف اليوم الأول لم يتمكن الألمان من التقدم في أيما مكان ورغم فيران الدفعية الكثيفة التي أطلقوها دون أن يبتلعوا بالقذائف، ورغم هجمات الدبابات اللدقة مع قوات الاقوال المدفوعة. وانصبت أمام جبهة الفوج عشرون دبابة ومدفعية أخرى محروقة ومعلوبة. وثلاث مسجلة على حقل الجرداء، كما قال الجميع، خمسماية جقة المائية أو للثماشة جقة كما جاء في البلاغ الذي يرثيه سربيلين إلى الفرقة وهو لا يحب المبالغة. وكانت خسائر الفوج بالارواح أكثر من ذلك. فقد سقطوا بتران الدفعية والدبابات وبتران النشاة الألمان الذين اردوا سرياً بكاملها كانت قد تقدمت إلى الامام من الخنادق. وقفل القادة او المرشدون السياسيون في نصف السرايا، وقفل يلويتكوف دون أن يتمكن من تلوق علم النوم، وفي مركز المراقبة قتل نائب قائده الفوج لشؤون السياسة حيث مرزته إحدى القذائف بأصابة مباشرة.

وبعد الظهير وصل قائده الفرقة المقيّد زايشتكوف إلى سربيلين في آخر زيارة لقواد اقواجه الثلاثة. في الصباح كان قائده الفرقة وراءه للتدبير وقد أدرك بأنه سيظل في طوق المصباح ففزع الفوج المتواجد في النسق الثاني هناك بحيث تكون مقدمته نحو الشرق ومؤخرته نحو النهر. وبعد ذلك عبر النهر وقضى الوقت حتى الظهير في الفوج الذي يحس أطراف موغيليف: فالدفعية الالمانية انهالت عليه بنيران ضاربة، إلا أن ضرباتها كانت اعف من الضربات الدوحية التي سربيلين. ويبدو أن الألمان أرادوا في البداية أن يبيدوا سربيلين ويثقلوا حول موغيليف ليصلوا إلى جسر اللانير دون أن يشتبكوا بمعركة في شوارع المدينة. هذا على أية حال ما قاله قائده الفرقة لسربيلين. وصل إليه في مركز القيادة والبرق يصعب منه بسبب الحر وقد دس يده تحت قمصته ليتنفس فيه الذي يوجعه. فبعد النهار الثقيل الذي صرفه في الواقع أشد ألم قلبه. وقد قائد الفرقة اقتنعهم قرب سربيلين في الخنادق وهو يلتهم الهواء يتلوث متواصل والتجويب المائية السعيدة تستقر تحت جبهته المقلتين.

— قتل غلوشينكو. أعلن قائد الفرقة بمرارة ولوعة عن مقتل نائبه لشؤون

البسابة - قتل بحماقة بقذيفة وقعت عند الجسر بالصدفة!

- ومن الذي يقتلوه بذلك؟ - رد عليه سرييلين - لقد اغترلك بأن فأبى
تتفوق السياسة قتل أيضا، وبقيت بيتنا كذلك.

- أعرف ذلك. وقد جئتكم بمن يعمل محله.

التفت قائلة الفرقة نحو مفوض الكتبة القصير القائمة المورد توجه بإحاييه
الاشييين وبنفائره السمكة ذات الزجاج المزودج. ولم يكن سرييلين قد رآه في
الفرقة مطلقا.

- انه محاصر من الادارة البسابة الجيش الاحمر. - قال قائد الفرقة
بصوته المتقطع وهو لا يزال يلهث - وصل اليها لكي يلقى محاضرات، فأبى
محاضرات يمكن ان يلقي في مثل هذا الوضع؟.

- شماكوف - قال المفوض مقدما نفسه وقد رفع يده بالتحية.

- الوفيق شماكوف اعرب شخصيا عن رغبته في الالتحاق بفوجك - قال
قائد الفرقة - الموقف واضح بالنسبة له. وقد صدر امر تعيينه. ولذا اعتك
بمفوض الفوج الجديد.

تطلع سرييلين الى زايتشيكوف مستغفما. فكرر قائد الفرقة:

- اجل. اهتلك بمفوض الفوج. فان آخر ما نعلمه المرسوم
غلوشتنكو من الشبهة السياسية في الجيش عندما انتقل. الاتصال هو الامر
الذي صدر بأستئناف نظام المفوضين العسكريين. وكان يريد ان يتوجه
بنفسه الى الانواع كي يعمل اليها هذا الامر، ولكن الوقت لم يتسع له؛
الممكنين...

- اجل - قال سرييلين بهد - فترة صحت - مثلهما في الحرب الاهلية.

القائد والمفوض ولا احد غيرها. ذلك يشير الى مدى غلظوة الوضع...

وقال شماكوف بصيغة الجمع:

- احيطكم علما، ايها الوفيق قائد الفوج، انني كنت في حينه اثناء
تعبئة القوات لمحاربة دينيكين مفوضا لفرقة المشاة النازية والاربيين حوالي عام
كامل ولكنني خالما انتهت الحرب الاهلية عدت لممارسة العمل السياسي، وقد
ارتدت البرة العسكرية من جديد قبل اسبوع لا غير.

- هو ايضا ارتدت البرة العسكرية قبل اقل من شهر - قال زايتشيكوف

راويا الي سرييلين - وكان ايضا قائدا لفرقة في حينه، وبعد الاكاديمية تدربت
انا عنده. وهكذا فكل منكم مسؤول كبير - قال قائد الفرقة مازحا ولكن
هذا المزاح كان ميتورا لان ذهنه مشغول كلياً بالتفكير غلوشتنكو. غير انه

حاول ان يمزج من جديد متجاوزا اخلافه - هل بقي عدد كبير من الناس تحت
رئاستك ايها المسؤول الكبير؟

اغبره سرييلين عن الخسائر. فقال زايتشيكوف:

- خسائر الجميع جسيمة. خسائر فادحة! - كرر القول. وفكر من
جديد بمقتل غلوشتنكو.

انتهت فترة الهوة القصيرة وقام الالمان من جديد بالهجوم قبل ان يستنى
لسرييلين ان يتحدث مع شماكوف في صلب الموضوع. وحالما بدأ الهجوم اخذ
المفوض الجديد مرافقا وتوجه الى الكتائب لتتفرق عليها. ونفسه سرييلين قائلا:

- ابدأ بالكتيبة الثالثة، كتبة المتاح الايسر. فهي الاقرب.

وفكر سرييلين في نفسه: «والأهدأ».

اعجب سرييلين بان المفوض لم يبحث منذ البداية عن مكان يلتجئ اليه في
مركز القيادة. ومع ذلك رغب سرييلين في حماية المفوض من الخطر على قدر الامكان.
واثناء هذا الهجوم، وهو الهجوم السادس خلال النهار، ظل زايتشيكوف
في موقع الفوج متجاوزا طوال الوقت مع سرييلين. ولم يقصو وجوهه في الفوج
على سرييلين، لا سيما وان قائد الفرقة طوال مدة بقائه لم يصفو الا امرين
او ثلاثة، مما كان سرييلين نفسه ينوي اصداره بعد لحظة. وبدل ذلك على
انهما يريان ما يجري في ساحة المعركة بمنظار واحد.

ثم ان قائد الفرقة انتهى لم يكن مسرورا ملاقا، عندما تسلم سرييلين
الفوج قبل امسين، لظهور شخص اعل من مرتبة تحت مأموريته، قد نسي
الآن، خلال المعركة، ذلك الشيء، ولم يدع يفكر فيه. ورغم انه تدرج على
القيادة في قوات سرييلين قبل ستين سنة عديدة ورغم انها لا يفرقان بينهما
البعض في الواقع معرفة جيدة جدا فان تلك المعرفة منذ ما قبل الحرب قد لعبت
دورا هاما بالنسبة لكليهما في الوضع الحادى وجعلتهما يتصارحان.
وحالما صد الهجوم السادس يصفو اكبر من صد الهجمات السابقة -
فقرى الالمان على ما يبدو بدأت تنقلص - اسرع قائد الفرقة الى الفوج المتجاور.
وقال لسرييلين مودعا بتمنتي الصراحة:

- اننى لا اعشى عليك يا فيدورو. اننى مسرور مليا لتسلمك قويا

في فرقتي، ولكننى اعتقد انه كان من الافضل ان تقود انا واث فرقتين
متجاورتين، وسنكون على الاقل مطمئنين على الجنائحين، والحال فتحنا نحارب
وليس لدينا جنائحان! في صباح الامس كان على جنائحتنا الايسر جبار اما
اليوم فهو غير موجود هناك!

- لا بأس - قال - سرييلين - كل ما نستحقه موجود لدينا، وسنحارب بما عندنا. وإذا بقينا على قيد الحياة سنخدم حتى رتبة الجنرال. وإذا متنا بروبة العقيد وقائد اللواء فسوف ندقق بهما.

- جيدا لو ندقق المزيد من القاشين - قال قائد الفرقة - اما نحن فلسنا بحاجة الى القربان المقدس قبل الدفن. يبدو ان طائراتهم لا تحلق اليوم - اضاف القائد مودعا سرييلين وهو يتطلع الى السماء.

وكان قوله الاخير تذيير شؤم. فبعد نصف ساعة انهار الالمان يقصف شديد على منطقة التواء فوج سرييلين بالهجوم المجاور. فان اربعين قاذفة قنابل حلقت الواحدة تلو الاخرى على ارتفاع منخفض وشقت كالخنجر خطا عريضا نحو النهر. وتضلل القسم الشمالي من الالفق بشواكة كثيفة من الدخان.

وعندما انتهى القصف الجوي ومرت ساعة اخرى حملوا قائد الفرقة على نقالة غائر القوى وقد اصيب بجرح ثخين في بطنه بشظية قنبلة. وهرع الجراح مع ممرضة الى المركز الطبي وصرفت وقتا طويلا في استخراج الشظية وسط اثنين مكبوت. وبعد الاسابيع بالجراح اعيد قائد الفرقة امرا فاطما بان يحملوه ليس الى المركز الطبي بل الى مركز القيادة، الى سرييلين.

واضططر الطبيب على الرضوخ غاضبا. كان طبيبا شابا عجولا، وكان الجميع في الفرقة يخالطون من العقيد زاييتشكوف غمرا شديدا، ولم يفارق هذا الشعور الطبيب حتى عندما كان زاييتشكوف الريحب راقدا امامه بلا حراك. وبعد ان حُرثت قاذفات القنابل الالمانية كل المسافة بين القنوجين حتى ظهر الدخيرة، سددت الدبابات الالمانية شراياتها الى نفس المكان قبل ان يتبدد دخان القصف الجوي. بلدت الدبابات جسر الدخيرة وتمكنت من الاستيلاء عليه قبل ان تنسف قواتنا. ومع الدبابات وصل البشاة على دروعها. كان عددهم قليلا، سرية واحدة، الا ان القصف الجوي ومجوم الدبابات كانا مباغتين، وبدت زيران النابذ الرشاش كثيفة في الظلمة الى درجة لم تسمح لا لسرييلين ولا لقائد الفوج الذي انفصل عنه في الساعة الاولى من الكارثة بان يتجسرا على ضرب سلسلة الالمان التي اشتركت الدفاع الى الدخيرة وكانت لا تزال غير كثيفة.

لم يجازوا يتبدد الضربة في السماء. فقد حال دون ذلك اندماد الخيرة وكذلك التصور الدبالغ فيه بشأن تمداد العدو. وفي الصباح كان الوقت قد فات. عندما حملوا زاييتشكوف الى مركز قيادة القنوج ثم يكن سرييلين موجودا فيه. فقد توجه في نفس تلك اللحظة الى كتيبة الجناح الايسر التي

تضرت، توجه الى هناك لاصدار الاوامر بشأن الاستعداد لمركبة الصباح. امر قائد الفرقة بان يحملوه الى مركز القيادة مباشرة الى سرييلين، لانه تصور الجرح ميئا وكان يريد احالة قيادة الفرقة الى سرييلين. وعندما نهأ الطبيب وهو يظهر الجرح لزرق القائد بالمخدو اعترض عليه ششية ان يفقد وعيه ولو لدقيقة واحدة. فقد شيل اليه انه سيوت دون ان يتمكن من تسليم قيادة الفرقة الى سرييلين...

كان سرييلين قد علم وهو في الكتيبة بصابة قائد الفرقة بجرح ثخين. ويبدو ان اصدار سرييلين اهم الاوامر اسرع الى المركز الطبي في القنوج متولا برؤية قائد الفرقة هناك. ولكنه لم يجد في المركز الطبي لا القائد ولا الجراح الذي استدعى الى مركز القيادة.

- ايها الرفيق قائد اللواء - قال الطبيب هاسا وهو واقف عند مدخل المخبأ وقد قننى رداؤه الذي يليه فوق التغطية العسكرية - لست انا الطبيب. كنت اريد ان اعالج الجرح بالشكل اللازم في ظروف افضل، ولكن قائد الفرقة امر...

- عيب عليك! - لوح سرييلين بيده ياتسا - هناك لحظات لا تصدر فيها الاوامر الى الاطباء بل هم يصدرون اوامرهم اليها. هل سيبقى على قيد الحياة؟ - فعلنا كل ما في وسعنا، ولكن الجرح ثخين، وظروف الامكانات... - قالت ابوان الشاؤوا! هل تستطيع ان تفعل اكثر مما فعلت؟ - لا اعتقد.

- اذهب، اذن، فالجرحي هناك، في المركز الطبي، ينتظرون دورهم راقدين على الارض - قال سرييلين ودخل المخبأ. كان زاييتشكوف، راقدا على السرير بعينين مفتحتين واسمعتين، وكانت شفتاه ترتجفتان في محاولة لتجاوز الاثين.

جلس سرييلين على مصطبة ثم قربها من السرير. حتى ارتطمت ركبته بشكل مؤلم بمقافة السرير. وقال قائد الفرقة:

- انتهى دورى يا فيودور.

ويستطع من عينه دمة سالت على خده. مسح الدمعة ووضع يده من جذية على الشرفش على امتداد يده. واضاف: - غطى بالمخطف اشعر بالبرد خلج سرييلين المغطى من المسمار على الجدار وغطى به قائد الفرقة فوق الشرفش. وبأله القائد:

- ماذا يفعل الالمان؟

لم يكن من المبدئى اخفاء حقيقة الوضع عن الجريح، ثم ان سربيلين لا يعتقد بان له الحق فى ذلك. فان زايشيكوف الجريح كان لا يزال قائدا للفرقة. واداف سربيلين بان الالمان فرقوا بينه وبين الفوج المجاور ووصلوا الى القدير واستولوا على الجسر فى اغلب الليل. ظل قائد الفرقة صامتا يضع دقائق وهو يهضم هذا التباين ويستمتع افكاره. وكان من الصعب عليه ان يستجمع افكاره، اذ انها تتراكم فى جهات مختلفة: اذا اسفل الالمان الجسر فان ذلك يعنى انهم بضرورة واحدة فصلوا الافواج الثلاثة كلها بعضها من بعض. وذكر القائد بالمقيد ويشيكيش رئيس اركانها الذى يتولى عنه الآن على الضفة الاخرى من القدير. وقال بصوت عال: «كل شيء نادر مدعاة واحدة».

كان يعتقد ان ويشيكيش وليس جيل للاركان، بيد ان نصيبه الاكبر اقصى نصيب. فبعد فقدان الجسر غدا بين فارين ملتصقا بخط الشاطئ الضيق ووراء الالمان. واداف حاول هذه الليلة الخروج من الحصار نحو الشرق فلربما يسمق شيئا، واداف لم يدرك ضرورة هذه المحاولة خسوف يهلك.

كان البحير لوشكاريف قائد الفوج المتفعل الآن والمربط فى اطراف مولييف شجاعا منتهى الشجاعة، ولكنه لا يزال حديث العهد بالقيادة. زايشيكوف واتى من ان لوشكاريف ان يجين، ولكن من الصعب تصور كيفية قيام لوشكاريف بقيادة الفوج مستمدا على نفسه فقط. وقد شعر زايشيكوف بالاسف لانه جرح هنا، عند سربيلين، وليس عند لوشكاريف. فوسوده هناك اكثر لزوما حتى فى حالته الرائعة وهو يلازم السير. ثم شعر بالاسف على نفسه وفكر بجرامه وبعاثته - بزوجته وبنته. كلهن بنات، حتى ان زوجته بكث فى الدرة الاخيرة لانها لم تله صبيا. «من الصعب جدا تربية خمس بنات» - فكر بمائله وكأته لم يعد على قيد الحياة.

واخيرا لم تثنات افكاره وقال:

- اسمع يا سربيلين، استعد لاستلام قيادة الفرقة. حرر الامر. - ساكون مستعدا اذا اقتضت الضرورة. ولا داعى لامر الآن! فان قيادة الفرقة لا تعال الى شخص آخر اذا كان قائدا لا يزال حيا. ستلازم القرائن وستحسن حالتك، فأنت رجل قوى الجسم. - وليس سربيلين يعجز ككف قائده. التى عليه زايشيكوف فظلة مائلة ولاذ بالصلمت. وبماذا يمكن قوله فى مثل هذه الحالة؟ فلو كان هو بلد سربيلين لاجاب نفس الجواب. - ومع ذلك استمد - قال القائد بعد فترة صمت ثم اخفى عينيه.

كان مما يمزيه انه موجود الآن عند سربيلين وليس فى المركز اللئى. فهناك كان سيحمر. بانه مجرد جريح بين الجرحى، اما هنا فهو لا يزال قائدا للفرقة. ظل يضع دقائق مغلق العينين، ثم فتحهما فرأى وراء سربيلين الدوشد السياسى الطويل القائمة التى جاء اليه مؤتمرا فى الغاية. كان الدوشد السياسى سينستوف يرتدى قمصلة وسخة ملوثة بالتراب وهو يحمل بندقية وشاشة الداية.

كان قد قضى النهار كله تقريبا جنب سربيلين، فى البداية فى احدى الكنايب، ثم فى كتيبة اخرى، ورأى كيف اقتضت التباينات مواقع كتيبة بلوتنيكوف. واتحدت دبابة كتيب السكة الحديدية وسلمت كوخ مفتش السكة المجوز وظلت تقصف امدا طويلا من مدفعها وهي على بعد خمسين مترا من سينستوف. وكانت القلائف تنثر فوق رأسه مباشرة. وبعد ذلك خرج بلوتنيكوف من الملتحق ورى تحت الداية بمنزلة من التنايل اليدوية. واشتعلت النار بها، بينما قتل بلوتنيكوف بعد ثانية واحدة بصيلة رشاش من دبابة اخرى.

ثم رأى سينستوف كيف فوت احدى السرايا. اخذ المشاة الالمان يحصدونها ببنادقهم الرشاشة، فرح سربيلين وهو يقود جماعة من المقاتلين على مقربة من المكان يقصد هذا الهجوم بالتيار والقتال اليدوية حتى تمكن من رقه وقد شارك شخصا بين الصين و الآخر فى التشنج واطلاق النار من البندقية.

وليس بعيدا من سينستوف كان مفتش السكة المجوز يطلق النار من البندقية على الالمان. وبعد ذلك التفت سينستوف فرأى المجوز جثة هامدة فى قعر الخندق، وهو يرتدى بزة المألمة مفتوحة عند صدره الاشيب المدمى. واطلق سينستوف قفصه النار من البندقية ورأى كيف قتل المانيا غلور، كما: من باطن الارض، على بعد عشر خطوات عنه.

وعندما تم حد الهجوم قال سربيلين الذى بدا وكأنه يلاحظ كل ما حوله مخاطبا سينستوف:

- وانت ايضا تمكنت من قتل احد الاعداء. ثم امر سربيلين بان يسلموا الى سينستوف بندقية وشاشة اختبئت من الالمان التتيل مع مشطين احباطيين طويلين فى كيس من المشمع وقال: - خذها، فهي غيبتك الشريفة!

حدث ذلك كله من زمان، فى الصباح، اما فى المساء فقد توبيه سينستوف فى الظلمة مع سربيلين، الى السكان الذى اقتحمه الالمان بعد القصف

الجوى. وهناك فزع آكار سربيلين وراح يبعث عنه طويلا ويبحث أن يكونوا قد قتلوه، وشعر بالفزع عندما عاد الى مركز القيادة وعرف هناك أن سربيلين حتى يبرق.

دخل سينسوف الحنجا باسماء ولكنه بوقت بما رأى. رأى ناهر سربيلين النحيب الممحن وهو جالس على المنضبة، ورأى العقيد قائد الفرقة واقفا مخضف العينين على سرير سربيلين. كان العقيد صاحب الوجه حتى خيل لسينسوف بأنه قضى لحيه. ثم فتح عينيه وتطلع الى سينسوف صامتا اذنا طويلا.

وقف سينسوف صامتا هو الآخر، ولا يرى ماذا يفعل أو يقول. وشعر سربيلين بوجود شخص وراءه فالتفت وقال:

— ماذا أيها المرشد السياسي؟ هل حاربت بما فيه الكفاية؟ لم يده لديك الآن سبب لتشكيك من عدم وجود ما يستحق الكتابة؟

تذكر سينسوف مذكرته الموضوعة في المحفظة الميدانية والتي لم يمسها طواك النهار. كان جائعا، ولكنه كان بحاجة الى النوم أكثر مما الى الطعام. وبدلا من الجواب طلب من قائد اللواء مساحا بالانصراف وهو يشعر بتعب شديد ليس في العينين ولا الرجلين، بل في اصاب نفسه من كل المخاطر التي عاشها على التلال خلال النهار. والتي عليه سربيلين نظرة متفهمة مهذبة:

— تريد ان تنام، اليس كذلك؟ اذهب إذن.

— سامنا هنا، قرب الحنجا— قال سينسوف وشعر بالخيال لرغبته الشديدة في النوم، في حين أن سربيلين التفت اكثر منه، على ما يبدو، جالس هنا لا يتنام.

مز سربيلين رأسه موافقا دون ان يلتفت. سألت زاييتشيكوف بصوت خافت:

— ماذا يفعل عندكم هنا؟

مز سربيلين كتيبة ولم يبد جوابا على هذا السؤال. حالما خرج سينسوف من الحنجا دنا شاكوف. وكان هو الآخر يحمل بنادق رشاشة المانية. ضلع بتفريقه ووضعها في الركن ولوى يافته متعبا وأقرب من السرير. لقد أخبروه بأن زاييتشيكوف جرح وهو راقدا هنا، ولم يبق لديه مبرد إيشاول. نوبت ولا بالفضلت. تطلع اليه زاييتشيكوف وسأله:

— هل نستمع بنادق كثيرة؟

— عشرين.

— ثيران يتادقيم الرشاة كتيبة. — قال زاييتشيكوف— غدا واضعا منذ العرب الفتلانة أن من الضروري استخدام النادق الرشاة على نطاق واسع في تسليح الجيش، ولكن الجميع غالوا يتفكرون بذلك مجرد تفكير، وامالوا التفكير حتى بدأت العرب. ربما لا توجد عندنا عشر بنادق رشاة لنفوج كامل، أما هم فلهيهم مئات من هذه النادق!— لاح التذمر في صوته الضعيف الابع. بدأ شاكوف يتحدث عما جرى في كتيبة الجناح الابع. واستمع اليه سربيلين وقائد الفرقة. استمع اليه سربيلين بانتباه واهتمام، ليس استمع اليه زاييتشيكوف بدون مشتت وهو يضيّق صوته بين لحنلة وأخرى من الآلم في يظه. وأخيرا حمل نفسه على الابتسام وقال:

— كأفنى الله طفلا.

وقال سربيلين مخاطبا شاكوف:

— سائقل اليك في الحنجا، أما هنا فتند غفارة ملية لقائد الفرقة.

في البداية أراد سربيلين أن يصبر على قتل قائد الفرقة الى المركز الطبي، ولكنه عدل عن رأيه فيما بعد. فالآن، في طرق الحصار، ليس مرفقا على أية حال، أين هي مؤثرة الفوج وابن مقدمته. فليبق راقدا هنا، فلا أمل في إقناعه بالانتقال الى مكان آخر، إذ أن سربيلين لا يجب الدخول في جدل لا ينتهي الى نتيجة. وقال زاييتشيكوف:

— لست بحاجة الى أية غفارة. فذلك يعنى أفي ارضيتك على ترك مخاأك!

— لا يد من ذلك— قال سربيلين يصرم— ولا داعي لمجادلتي فقد كنت في الماضي مضطربا وقل مرفقة بهذه الامور.

ابتسم زاييتشيكوف عقويا. وتذكر كتيبة سربيلين «المنضبة». وتذكر فترة التدريب في فرقته في عام ثلاثة وثلاثين وتسبائة والى.

لهض سربيلين وقال مخاطبا زاييتشيكوف:

— حاول ان تنام يا نيكولاى. ثم اذا اضطربت. اما اذا تسادب مع الففوش لاستمراس حصيله النهار، وبعد ذلك ستعود اليك اللقى الأيازر. وهل انت بحاجة الى اواصر. الآن؟!— ذكر زاييتشيكوف على المكشوف ويدون غيظ وشعر سربيلين بظلمة— أنت لست مثل لوشكاريف. فلو كان الحال على غير ما هو عليه لقميت الآن بقيادة فرقة، بل فليبق ولاصدرت الاوامر الى ... اذا كان هناك اتصال بيتنا— تذكر الاتصال المقطوع بالجيش واتسم ببرارة.

بوجهه الحسائي الطيب، وقبل حين من الزمن كان رقيق طريق بالقصدة على دروب الجبهة لهذا القوم الشبيب القصير القامة، اما الآن فاصفها قائدة له والآخر مقبوض له أيضا، وهو مرشد سياسي السرية خاضعة لهما. ولم يمدروا ينظرون منه ان يصف في كتاباته كيف يحارب الآخرون، بل يتوقعون منه ان يقابل نفسه كالأخريين. لم يحدث في حياته مطلقا مثل هذا التحول المفاجيء.

المصير لقلادة.

عندما خرج سينتوف تبادل سرييلين وشماكوف النظرات. وقال سرييلين: - عساوت من ذوي البهن الطيبة الى رتبة قائد كتيبة دفعة واحدة. ومع ذلك لم اعقب في اداء الواجب. فلماذا اشك في قابليته؟ - ولماذا ياتجاء اليك؟ - فهل صاروا اموا منا طوال ثلاثة وعشرين عاما من قيام الحكم السوفيتي؟ ام اتنا كنا لكف في بالحدث معهم دون ان نجعلهم يتحولون الى اناس اشداء لا اصدق بذلك! ورغم كل مصائب السوء الحالية لا اصدق بذلك! ربما لم تقدم لهم دوما التربية اللازمة، ومع ذلك لا بأس، فقد قدمت لهم تربية اقوى من التي قدمها القادرون لرجالهم. ربيتهم بشكل لا بأس به، وحتى في السجن تأكدت من ذلك مرارا. الا يشير حديثي عن السجن دهشتك؟

- كلا. حدثني زايشيكوف عما لاقيتوه - اجاب شماكوف بلهجة احترام عجل من ان يبدأ مخاطبة سرييلين بصغير المرد. وفيه سرييلين على طريقته الخاصة. وقال بنفس تلك اللفظة به ان اخفى عليها مسحة من السخرية المريرة: - لم يخالفكم لحظة، ايها الرقيق شماكوف، فالي من ارسلكم المصير عوضا المسؤولية مضاعفة، بل واكثر.

كان بوسع شماكوف ان يرد على ذلك بالكثير. كان يوسه ان يقول بان المصير لم يرسله الى الجيش، فقد اتفق به فعلا. وكان يوسه ان يقول بانه طلب من زايشيكوف ان يكلفه بل واجب ليس قبل، بل بعد ان اطلع على احوال الفرقة. وكان يوسه اخيرا ان يقول بانه ليس اقل من سرييلين ثقة واثباتا بالحكم السوفيتي وبقدرة على تربية اناس مختارين له حتى الرق الاخير، ولذلك فهو يثق به، سرييلين، فثقت به.

الا ان البروضو السابق ومفوض الكتيبة حاليا، ذلك الانسان المحب الكلام في الاوقات الماعدة لم يتمكن من توضيح الامور عندما حملوه على توضيحها. ولذلك لم يرد على سرييلين بشي، مما كان يوسه ان يرد به عليه، بل لزم الصمت لحظة ثم تقطع اليه غير نظارته الصمكية وقال عبارة واحدة لا غير:

دخل شماكوف الدخيل المخصص له لأول مرة. وجلس على سرير القوم الذي قتل في الصباح، كما جلس سرييلين قبائه على سرير رئيس الاركان الذي قتل في السماء. وراحا يستعرضان حميلة النهار ويحاولان التعويض عن عسائر الفوج، كمن يرفع ثوبا مهلهلا، فينقلان هذه الجساة من المحارير الى هنا، وتلك الى هناك من اجل سد جميع الثغرات. وكان من الضروري قبل حلول المساء تعيين قائدة لاسدى الكتائب وقائدتين لسريين وثلاثة مرشدين سياسيين بدلا من الذين قتلوا او اصابوا خلال النهار. تعرف شماكوف حتى الآن على محاورى كتيبة واحدة وبصورة مستعجلة فلم يتمكن من تشرح احدهم وقدم سرييلين جميع الترشحات تقريبا. وعندما جاء دور المرشدين السياسيين تفكر سرييلين سينتوف.

من شماكوف كلفه فقال سرييلين:

- هل يظل يلاحقني حتى يفتلوا ما دامت رتبته تؤكده انه مرشد سياسي فليكن مرشدا لسرية. ان يكون اموا من الاخريين، وحتى اذا كان اموا منهم قلبي لدينا غيره.

بعد خمس دقائق ايقظوا سينتوف فوق امام سرييلين وشماكوف واستمع اليهما وهو يترك عينيه الناعشتين دون ان يتوقع ملاقة شماكوف هنا. تلقى سينتوف النصب الجديد مع تعديات متخفية، وراسوه في الحال، طالما انظلام لا يزال مخيمنا الى السرية، الى غوريشيف الذي جلس معه اسس بالقدم حافية على كتيب السكة الحديدية ولهما الميكات الجففة وهذا يشهدان. - لم امارس القيادة مطلقا - اجاب سينتوف بتردد عندما وجه اليه سرييلين السؤال المهود الذي قد مناه في الظروف الحالية. - هل يمكن من اداء المطلوب؟ - وقال له سرييلين على سبيل النصيح والارشاد:

- حاول ان تقوم. طالما نعمل نجدة على الورد وثلاثة مرميات على شارة الياقة فلي الحق في ان اطلبك بما تشير اليه ريتك. - قال ذلك كله بلهجة غاضبة بعض الشيء، وليس ذلك بسبب غضبه فعلا على سينتوف، بل بسبب رغبته في تأكيد التغيير الذي حدث له. - لم يعد حق الآن يا صاعحاب!

دليل، واذا لم تصل بنفسك الى السكان المطلوب توفيت تعتبر فلان من الجيش! - اجتم سرييلين فمحا الى ان الكلمات الاخيرة فلتت على سبيل المزاح. - لم يكن سينتوف قد اتفق كليا من التزم عندما شد على يدى سرييلين وشماكوف مودعا. وصار كلاهما بالثسبة له من الآن فصاعدا على غير ما كانا عليه في السابق. بالاس كان نسيغا على فوج هذا القائد القارع القامة

- ايها اليريق سرييلين، انا لا اريد الانتفال بسرعة الى الصحايل
بضمير القدر. ارجوكم ان لا تعتبروا ذلك اساءة.
وادرك سرييلين من تركيز شماكوف على كلمة «ساءة» ان هذا فهم
لهجته الساخرة بالشكل اللازم وهو يرفضها. فقال سرييلين الحجب «تصراحة:
- يبدو اننى فهمتكم كما يجب: انكم لا تهتمون بىاضى.
- اجل، لقد فهمتوني كما يجب.
- ولكننى انا لم اتس ماضى. فانا اذكرك بين الحين والآخر. هل
تهتمونى؟

- اجل، «بحكم حق».

- ما اسمكم؟

- سرغى.

- اما انا فاسى فيودور.

- ها قد تمارينا بالتمام والكمال! - فقهه شماكوف فرحا لنهاية العوار
القتيل. - قلو مات احدنا فجأة ليس من اللائق ان لا يعرف الآخر الاسم
الكامل ليستهل في اشارة الوفاة.

- آه يا سرغى شماكوف، يا اخى فى هذه الدنيا وفى التير المسكرى!
- هـ سرييلين رأسه - ان يبيد المرء الموت ليس هو التير المسكرى، انه نصف
التير المسكرى فى اكثر تقدير. المطلوب منا هو ان يموت الالمان باقات. -
نهض وبذل قائمته للثائرة واذا بان الوقت حان لاطلاع القائد على الامور.
فاعرض شماكوف قائلا:

- هل هناك داح للاقعة. انه بحالة سيئة.

- عندما نطلعه نتحسّن حاله. جرحه شتى جدا وليس من الحكمة
ان يرقد هكذا فى انتظار الموت فقط. فظالمه يستطيع اصدار الاراسر نفوس يحيا!
نهض شماكوف هو الآخر وقال:

- من السبب ان يرواى الاطباء على رأيك.

- اننى لا اطلب موافقتهم، فانا نفسى مقصد.

- اهتم شماكوف عن غير قصد، وايتسم سرييلين ايضا لتفككة التى
اطلقها، ولكن وجهه اكتسب مظهر الجح من جديد.

- بدأت تتحدث عن الموت، واقول لك كيلا نعود ونكرر من جديد
وكي نفهمنى قليلا. اننى لا اخشى الموت على مرأى من الجميع. ولكننى لا
يقع لي ان اضع دون اثر اهل فهمتى؟

فصروا اليوم التالي من الصباح حتى المساء فى معركة متواصلة ايضا.
وبالتدريج اسيب قسم كبير من المدافع الميدانية والمدافع المشاة للديابات
فتمكنت الديابات الالمانية فى بعض المناطق من التقدم الى اعماق الدواقر
ورقت ترتفع امداء طوليا بين الخنادق وتحطم الدخانيه بيننازيورها وتقتصف بالمدافع
من الجانب وتصب نيران الرشاشات على طول الخنادق ومرمرات التوصيل. وفى
بعض الاحيان بدا وكأن الالمان احتلوا مواقع القوج، ولكن المشاة الالمان
لم يتمكنوا طوال النهار من اختراق الموقع على اثر الديابات، ويدون المشاة
ما كان يوسع الديابات ان تحقق هدفها حتى النهاية. فبحسب الديابات صرف
ذخيره ونهض من المعركة، واليخص الآخر احترق فى اعماق المواقع يد
ان القيت عليه حزم القنابل اليدوية وقناتى البزيرين.

ويسبب عدم كفاية المدفعية والقذائف كان عدد الديابات المحترقة
اقل مما فى الايام السابقة، ومع ذلك استقرت ثمة ديابات فى أماكن
مختلفة حتى ان ديابة وصلت الى سفيا سرييلين حيث يرقه زايشتيكوف الآن،
وهناك احترقت وتطلت واقعة كالتمثال، فقد سقطت مؤخرتها فى الخندق وارفع
منفعا نحو السماء.

وخلال النهار تم صد ثمانى هجمات المانية متلاحقة.

ولم يتمكن سينتوف الذى التحق بسرعة غوريشيف منذ مساء أمس ان يتطلع الى
ساعته سوى مرتين فقط. ولم يكن لديه متسع من الوقت ليفكر فيما اذا كان هو مرشدا
سياسيا جيدا او سينا السرية. فقد صرف النهار كله فى الخنادق مع المقاتلين
وساروا على قدر المستطاع ان يصدر اوامر ذكية لاولئك الناس القلائل الذين كانوا
على مقربة منه فيما يخص الاشياء الضرورية، كما يعتقد، فى هذه اللحظات
او تلك. كان يأمر بعدم اطلاق النار عندما يرى ضرورة لتمكين الالمان
النهائمين من الاقتراب لاصابتهم فيما بعد بالتأكيه، وكان يأمر باملاق
النار عندما يرى ان وقت اطلاق النار قد حان، وكان يطلق النار بنفسه،
ولم يمتل قتلى بعضا من الاعداء.

عندما انتهى الهجوم الالمانى الاخير، الثامن، بدأ الغلام يتخيم واقترب
منه غوريشيف برأسه المضمدة نحت الدائرة وصاح فى اذنه بصوت عال كما
يخاطب: الاسم: «اجبت القيادة» ايها الدرش السياسى! ». واجاب سينتوف
على ذلك بان هز كتفيه. فلم يكن هو نفسه يعرف ما اذا كان قد اجاد
ام لا. انه يعرف شيئا واحدا، فقد ظلوا فى نفس الخنادق التى كانوا فيها
منذ الصباح، وهذا شيء جيد فى اغلب الظن.

فكر على هذا النحو وذهب فجأة ليقائه على قيد الحياة. فقد قتل
 وجرح كثيرون جدا حواله خلال النهار. عندما قتلوا وجرحوا الواحد تلو
 الآخر على انفراد لم يفكر بنفسه. ولكنه الآن، بعد المعركة، عندما تذكرهم
 جميعا بين جريح وقيل، خيل اليه ان من الغريب افعهم جميعا قتلوا او جرحوا،
 اما هو فلم يصب حتى بجرح طفيف طوال النهار.
 لماذا تنفذ: هل سيقتولون بهجوم غدا؟ - سأل من غوردشيف الذي
 لم يسمه بيما فطلب منه ان يكرر السؤال. كور سينتسوف السؤال مرهقا
 فاجاب غوردشيف مرهقا ايضا:
 - بالطبع، لماذا عليهم ان يفعلوا غير الهجوم؟

كان قد حل القلام نهائيا عندما عاد سرييلين الى قائد الفرقة في
 المخيم المعلوم. كانت الطبقة العليا من السيف قد ماتت، وبرز جده وظل
 متديلا في الركن. وقرب سرييلين زيشيكوف ارتفعت على الارضية اكوام التراب
 التي تشار من السف. وقال زيشيكوف مازحا بمرارة:
 - كادت الدابة تدهسني. اعتقدت ان الالمان وصلوا، وحاولت ان
 استبه لاطلاق النار على نفسي. ليس سنده الذي لاح طرفه من تحت البساطه.
 كيف الحال عند لوشكاريف؟
 - في الساعات الاخيرة لم تسمع شيئا هناك. الوضع هائل. - اجاب
 سرييلين.

- واذا ايضا. جهدت لاسمع شيئا، فقد شيم الهفوء منذ العصر. واذا
 خائف على لوشكاريف؟ قال زيشيكوف قلقل.
 لزم سرييلين الصمت. فهو لم يعد خائفا على لوشكاريف، اذ ان
 الهفوء المطلق خيم هناك بحيث فأت اوان الخوف عليه. وقال اخيرا:
 - سيهدد القوض الآن وسناله. فمن الصيغة يمكن رؤية شيء.
 وقد قال لي يانه يريد صعود الصخرة ليرى.

تصرم نصف ساعة ولكن شاكوف لم يأت. واخيرا عاد وقد امودت
 قصصه من الترق. وقيل ان يبدأ كلامه تجرع قدسين من الماء اغترفها على
 التوالي من الدلو الموزود في ركن المخيم. كان الماء عكرا بترسبات صفراء، فقد
 سقط فيه طين وتراب من السف. وبعد ان اغترف القدر الثالث خلع سدارته
 ونظاره وصب الماء على رقبته الميتة الوردية بشرها الاثيب.

- شاكوف الحرة يد أحداث اليوم، ليس كذلك؟ - قال سرييلين
 بلهجة اغتفل فيها الجيد بالهزل.

- اجل، اشر بالاحتقان، فالعمر له عيوبه. - قال شاكوف بلهجة
 احتقار. وجلس على المصطبة واذا بان الالمان لم يطلقوا النار ولا مرة واحدة
 على الصخرة عندما كان فيها، واضاف موضحا: - برهبها منتور كالمنخل،
 ريبا يظنون باننا رفضنا مركز المراقبة منها. الالباء غير سارة: على سينا
 الوضع لا يزال عادا، حتى ولا الملائكة واحدة. وقيل ساعة، وهذا شيء لا
 يستلح تأكيده، فقد حل القلام، ولكن المقاتلين يؤكدون فيهمهم افضل من
 عيني. شلع نقاشته وسحبها باصابعه واردها بن جديد. - قبل ساعة اقتاد الالمان
 من موشيليف طابورا من الاسرى باتجاه الغرب.
 - هل العدد كبير؟ - سأل زيشيكوف.

- يقول المقاتلون ان عدد الاسرى يقارب التسماية.
 - سمح! انتهى فوج لوشكاريف. قال زيشيكوف ولزم الصمت برهة
 ثم كرر من جديد: - انتهى فوج لوشكاريف.

خيم السكون على المخيم. لاذ الثلاثة بالصمت، وراحوا ثلاثتهم يفكرون
 بشيء واحد: غدا او بعد غد سيجهي دورهم. القذائف قدت. ولا تزال
 هناك كمية من القنابل اليدوية، ولكنها شنفد هي ايضا، ولم تعد لديهم
 قنابل بزنيز. وقد سيبدأ الالمان هجمات جديدة. ولنفرس ان بالامكان
 الصمود يوما آخر، فماذا بعد؟ من الممكن بالطبع القيام بمحاولة للإلتصاف
 ليل والتمسك بقصر الشرق وراء الدبيرة. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟ وهل
 سينجح؟ - ترك مشكلين المتنازعا كل ذلك مدعاة لتفكير المسير. من المؤسف
 والمبهرج جدا ان هذه البواعث التي استغلوا بها منذ بضعة ايام وصعدوا الهجمات
 بنجاح ودمروا حوالي ميتين بداية المائة. واذا تركوا الخنادق قلن يحرقوا كثيرا
 من الدبابات...

كانت اذكار الثلاثة متشابة كليا تقريبا، ولكن ما كان اى منهم راغبا
 في الكلام قبل غيره. سرييلين يتنظر ما سيقله قائد الفرقة زيشيكوف،
 وهذا يتنظر ما سيقله سرييلين. اما شاكوف فقد راح ويثنت بمرارة
 الاثيب المستدير ويتطلع اليها معتقدا بانها، وهو الانسان الحديث العهد
 بشؤون الفوج، يجب ان يكون آخر المتكلمين بخصوص هذه الامور. ولذا
 لم يبدأ احدهم الكلام. فقد صمتوا جميعا واجلوا البت في المسألة حتى نهان
 الفجر.

في الليل سمعت اصداء معركة حامية وراء الدفيير، وعند الفجر عم السكون هناك ايضا. ومن المستبعد ان يكون ذلك هجومًا ليليًا للألمان. فقد لاحظت سرييلين اتهم عادة، لا يحين القتال ليلا. وفكر بمرارة ساخرة: «يكنهم ما يحققونه نهارا». وفي الغلب الليل كانت تلك اصداء محاولة قام بها يوشيكيتش للتقدم نحو الشرق مع ما تبقى من وحدات الفرقة على الضفة اليسرى للنهر.

ومن الصعب التأكد مما اذ كان يوشيكيتش قد نجح في ذلك ام لا. وعلى كل حال فقد غيم الهجوم على الضفة اليسرى، وانتهى. كل شيء، ققى صبيحة اليوم الخامس من المعارك طال فوج سرييلين وحيدا كليًا. وكان سرييلين يتوقع هجمات المانية جديدة مع بزوغ الفجر. ولم يخافه. ادنى شك في انها متبدأ بعد لحظة او اخرى. بيد ان الالمان لم يبدأوا لا بعد ساعة ولا بعد ساعتين. وبالعكس اتفاد الدرافونية ان مخافر الحراسة الحربية الالمانية اغضت اثناء الليل وانسحبت الى الغابة. وكان ذلك لغزا لم يتضح الا بعد مرور ساعة اخرى. فقد ظهرت في اليوم الطائرات الالمانية التي سددت غللال الالام الاربعة الماضية ضربة واحدة لا غير عندما فصلت الدبابات فوج سرييلين عن فوج لوشكاريف. لعل تلك الطائرات كانت بشغلة في اتجاهات اخرى اكثر اهمية. اما الآن فيتمتع على سرييلين وفوجهم ان يتحدا كل ضرباتها الكثيفة. بعد ان منح الالمان الفوج ثلاث ساعات من الهجوم في الصباح عضوا على انفسهم ذلك طوال النهار. فخلال اثنتي عشرة ساعة يكافها- من الناحية صياحا حتى الساعة مساء- كانت قاذفات القنابل الالمانية تعلق على ارتفاع منخفض فوق الفوج ويتعقب بعضها وراء البعض دون ان توقف ولا مرة واحدة قصفها السميت لاكثر من نصف ساعة. كانت القنابل الثقيلة تنصف طل ويرج ملن والقنابل يوزن ١٠٠ و ٥٠ و ٣٥٠ كيلوغراما والعلب المشحونة بالقنابل الصغيرة يوزن ثلاثة كيلوغرامات وكيلوغرامين والتي تشتت من السماء كالحمص - كل ذلك انفجار من الصباح حتى المساء على مواقع فوج سرييلين. ربما لم يزعج الالمان في هذه المعركة بعدد كبير من الطائرات- عشرين او ثلاثين طائرة- ولكنها كانت تقذف على ما يبدو من مطار قريب جدا و بلا انقطاع. فما تكاد تسع طائرات تنصرف الا وظهرت تسع طائرات اخرى تصب وايلا قنابلها من جديد.

وقد واضعا السبب الذي جعل الالمان يسحبون مخافر الحراسة: فهم لا يريدون ان ينفقوا على فوج سرييلين مزيدا من الدبابات والمشاة. وقد

تفرغ سلاح الجو عندهم قاذفوا له دور القنابل التي لا يطاله الغبار، فقرروا تدمير فوج سرييلين وسحقه من على وجه البسيطة دون ان يشكوهوا خسائر. وبعد ذلك يستولون بكل سهولة على ما يشقى. وربما لن يقبوا بالهجوم غدا ايضا، بل سيواصلون القصف المتلاحق. ازعجت هذه الفكرة سرييلين: فليس هناك ما هو اقنع من الموت شيئا دون الرد عليه بالذات. وهذا بالذات ما يخيم على الجو. عندما انتهت الغارة الاخيرة وعاد الالمان الى مواقعهم لتشارل طلام المشاء، والتمركز كانت مواقع الفوج محروقة وبالحياء الذي انفجار عليها من الجو بحيث استحالت الدبور فيها على قطعة سالبة من سلك تلفون يبلو خمسة او عشرة امتار. وطوال تلك الفترة لم يشكوا الا من اسقاط طائرة واحدة من طراز «يولكريس»، اما خسائر الفوج فهي تضاهي تقريبا افح الطائرات التي تكبها في اسلك يوم من ايام القتال، وهو يوم اس. ققى بداية المعارك كان الفوج يضم ٢١٠٠ شخص، اما الآن فلم يبق فيه، حسب الاحصائيات التقريبية، الا ستائة شخص.

ذهب سرييلين يحصل هذه المعلومات المزعومة الى زايشتكوف في المخبأ. وكان عدة مرات خلال النهار يفقد امله في رؤية قائد الفرقة بين الاحياء. فان عشر قتابل من جميع العيارات على اقل تقدير انفجرت في اوقات مختلفة حول المخبأ الذي غال سالما باعجوبة في طوق الموت. وقال سرييلين حالما دخل: -ايها الزئيق قائد الفرقة اعتقد بان من الضروري القيام بمحاولة الاعتراق المصار هذه الليلة واذا لم نعم بهذه المحاولة فسوف يستمرون في ابادتنا غدا من الجو.

اتتبع سرييلين اليوم وانه ليس هناك مفرج آخر، وما دام مفتحا بذلك فقد اسرع ليرتس وايه دون مساطلة.

بدأ صوت زايشتكوف الشاحب الوجه والذي بدأ يجرعه يتضح اصغف مما في يوم اس. قال انه موافق، واعطوا لائتمهم، مع شاكوف الذي جاء في تلك اللحظة، يتناقشون اختيار الانتباه اللازم لاختراق المصار والوصول الى الدفيير. وبعد نصف ساعة تقرّر كل شيء. وتوجه شاكوف الذي يجيد الالمانية الى المخبأ لكي يستحرج المقاتل الالاني الذي غيط من طائرة «يولكريس» المسلحة، بينما توجه سرييلين لتفقد الخنادق، وبنية تجهيل قوسيه المقاتلين في المعركة الالية فرد جميع كل من بقي على قيد الحياة في كتيبة واحدة وياشر بذلك في الحال هنا في الخنادق دون ان يفوت الوقت، حيث اجري بعض التجهيزات وشار الى مراكز التحصن فيبل الاختراق. فلم يكن جائزا تأجيل القضية يوما

آخر ، اما التليل فليس بالامكان تمديده ، انه ليل ثور القصير . وبعد ان
سول سربيلين كتيبة بلوتيكوف التي سرية وعين غوريشيف قائدا لفصيلة التي
نظرة خاطفة على سينسوف الذي التي منصبه وامره ان يلحق به .
عادا الي مركز القيادة ، فمر سربيلين على شاكوف دون ان يفرح على
مخياً زائيشيكوف .

كان شاكوف الخاضع للضابط الشمر قد جلس عند الطاولة
وقفت امامه باعتدال شاب الالماني قارع القاعة يرتدى زرة طيار . كان
وجه الالماني يرتجف بصورة عصبية وكأنه يطرد الزباب عنه . احد
خديه شاحب ، والحد الآخر مغلف ببقع ارجوانية . وسأل سربيلين حالما
اجتزأ العجبة :

...الم تنته؟

—جلسي . اصغعه وارقه على الرؤوف . كان واضحا من تقاطيع وجه
شاكوف انه غير راض عن نفسه . فقد جلس ووضع رجلا على رجل وراح
يعدني بصيانة حيائي عندهم في الاسر اذا رافقته شخصيا غير مراقنا وخلصنا !
واحدة بواحدة ان صبح التعبيرا ! قرر ان يشتريني ، ما اوقفه !
—ما هي نتيجة الاستجواب؟

— قابل جدا . فهو لا يعرف اي شيء تقريبا عن الوضع هنا .
فقد حولهم من بريست هذا الصباح فقط . ويزعم انه قبل يومين لا غير
قريب قلعة بريست .

توقف شاكوف عن الكلام لحظة ، وتبادل النظرات بانفعال مع سربيلين
واذبح مرة اخرى بانهم يفهمان بعضهما البعض جيدا .

—غير مبالغ على التوقف . وليس لديه خريطة . يقول ان الزمالة الجويين
لا يحق لهم الحصول عليها . — تذكّر شاكوف ابنه واضاف : — اعتقد ان
هذا صحيح . وكل العموم فهو لا يتلعنا عاليا ، ولكن نفسيا ...

— ليس لدينا الآن وقت للقضايا النفسية يا سرني — قال سربيلين بلهجة —
وما دام كل شيء واضحا قاوبت ثمين . انا ذاهب . انظرك عند زائيشيكوف .
السافة بين مخياً شاكوف ومخياً زائيشيكوف اقل من مائة خطوة .

— ايها الرفيق قائد اللواء . قال سينسوف على عجل خشي ان لا يكفيه
الوقت للسؤال : — هل تعتقد يانه لم يكذب ينفوس بريست؟

كان سربيلين مستحسلا جدا ، غير ان سؤال سينسوف اعطاه وجهه
على التوقف .

— اعتقد بان تلك حقيقة لا جدال فيها! — اجاب بدة . ولكن لماذا
تلك بها انت؟ فاذا كنت تصور باننا الوحيدون هنا الذين لا يعرفون رفع
الايدي بالاستسلام فان تصورك هذا احمق !

بعد هذا الجواب الخشن سارا صاحبت زهاء اربعين خطوة . وقال سربيلين
اخيرا مبدا الصمت الذي اقبل على سينسوف :

— انت انسان متعلم . ولكن ، على ما اعتقد ، ليس بصورة كاملة .
عندما تبدأ محاورتنا للخروج من الحصار يمين اجراء جرد يوبى صارم للناسخ
صادرة وواحدة . وعلى العموم ستيقي مني .

— اذن ستحاول الخروج من الحصار! — فكر سينسوف واسف لان سربيلين
قرر ان يأخذ له لملل معه . فخلال اليومين التاليين تعود على فكرة القتال حتى
النهاية الى جانب غوريشيف ورجال سريته .

— ستتركك بعد ساعة — قال سربيلين عندما دخل المخياً مع سينسوف .
— انت ستتركك — قال زائيشيكوف — اما انا فقلت . صالحا للتليل . ساقبل
عليك ... — وشد بشكل ضعيف قبضته الممددة على مقلعه .

— لا بأس ، اذا بقينا على قيد الحياة ستتحمل ... فانت واحد ونحن
سبعة .

— هل تأكد اذكم متناق؟

— بل واكثر بقليل — قال سربيلين واضاف : — اذا قررنا قبضتنا بصورة
موقفة سوف نخترق الحصار . قبضتنا قوية .

فقال زائيشيكوف :

— لا داعي للتسويق . اجلسي ، يا سربيلين ، وحرر امر تينيك قائدا
للفرقة . لا فرق فيما اذا كنتم ستعملون ام لا ، ولكنني لم اعد صالحا
للقيادة .

مز سربيلين كنفه .

— حسب امرك .

لم يكن رافيا في الاعتراض لانه يعتقد ان زائيشيكوف على حق . لقد
كان الوقت لذلك . فقال زائيشيكوف :

— لا سيما واننا قد نصاذق بعد اختراق الحصار اناسا من الوحدات
الاخرى التابعة للفرقة . اما في الحصار فنل اللازم وجود يد قوية . انها ضرورية
اكثر من اي وقت آخر .

— اوما سربيلين برأه صامتا . وهو يعتقد ان ذلك صحيح ايضا .

- اجلس وعمر الامر- قال سرييلين مغاملاً سينتوف بضمير المفرد من جديد وكأنه يريد انتهاء الحوار الذي كان بينهما قبل قليل . ولم يكن سرييلين رافياً في كتابة امر تميمته يخط يده .
جلس سينتوف عند الطاولة وسأل:

- كيف احمره؟

- بكل بساطة- قال زاييتشكوف وقد صرت اسنانه بسبب الالم .

- انني اسأل لانه ليس لدى غير قلم الرصاص- قال سينتوف وقد اخرج قلم الرصاص من جيب قمصته وتطلع اليه يارتباباً ، فاقلمم مكسور الفحة . قدم له سرييلين سكيناً فراح سينتوف يبرى القلم ، بينما ظل زاييتشكوف يتطلع الى السقف صامتاً . وحالها اعد سينتوف القلم يداً زاييتشكوف يملئ عليه:

- «امر رقم...- راح طواك دقيقة تقريباً ينفذك بجبهة متفتحة رقم آخر امر اصدره على صعيد الفرقه، وعندما تذكره قال:-...رقم ١٦ . بسبب امابتي يجرح اكلفت امر فوج المشاة الا ٥٢٦ . قاته اللواء سرييلين باستلام قيادة جميع وحدات الفرقة المجهوده الى»- قال سينتوف ينتظر استمدار زاييتشكوف بالاملاء، ولكن زاييتشكوف قال: هذا كل شيء- وسمح يده بجبهة البليل بسبب الضعف والتقى برأسه على الرصده- فلاقع . كلا، تهمل . في محففتي قلم احمر- احضره!

رفع سينتوف من جدار الحنأ محفلة زاييتشكوف البطة على مسداس واخرج منها قلماً احمر مديب الفحصه ووضع ورقة الامر على المحفلة واقرب من زاييتشكوف الذي نهض قليلاً على كوعه وامسك بالقلم ياماميه الضعيفة وراح يوقع . وعلى الحرف الثاني من اسم عاتاته ارتمش القلم واتكسرت قممته وتركت على الورق خطاً لا لزوم له .

- يا للشيطان!- قال زاييتشكوف - ابر القلم!

اشد سينتوف سكين سرييلين من جديد وبرى القلم فامسك به زاييتشكوف ببجهه ملمووظ وراح يكمل التوقيع بعباية، ثم سجل التاريخ .
- اخذ- يا سرييلين .

تراً سرييلين الامر وطواه وشبأه في جيب قمصته .
عندما توجه الى الجبهة لقيادة فوج كان واقفاً من انه سيعين الوقت الذي تعود فيه الامور الى تصانها نهائياً ويطلب منه ان يسلم القوم ويسلم فرقة . ولكن من الذي يتوقع انه سيضطر الى استلام هذه الفرقة بالذات وفي مثل هذه الظروف؟!

- هل تسمح لي بالانصراف للاستعداد لاعتراق الحصار؟- قال سرييلين راتماً يده بالحنية . قال ذلك زاييتشكوف ليس حسب المادة ، بل لانه اراد ان يقول على هذا النحو بالذات الآن والذرة الاخيرة .

وقد فهمه زاييتشكوف تماماً ، وبعدلاً من الجواب مد له يده الضعيفة البليلة مبتحاً . شد سرييلين على يده بحرارة وخرج من الحنأ .

ومن خارج الحنأ دوى صوته الجهوري آمراً:

- قادة الرايا جاهزون؟ فليأتوا جميعاً الى!

لم يكن ذلك السير سهلا على سرييلين. فهو كهل نهشته قسوة الحياة وارتعته الايام الاخيرة من الممارك الطاحنة، بيد انه يعرف ان كل الاحور، حتى اصغرها، مهمة وملحوظة من الآن فصاعدا، في ظروف الحصار. حتى مشيته هذه في مقدمة الرتل مهمة وملحوظة.

سار سينتوف وراء سرييلين مندحسا لخنقة وسرعة غطاء. وكان يتقل البدنية الرشاقة من كنفه اليسرى الى كنفه اليمنى وبالمكس. فقد آلم الشعب ظهره وبقية وكففيه وكل ما يمكن ان يتأثر بالالم.

ما اروع الغابة المشمسة في تموز! تقوى فيها رائحة الصنغ واللحلب الدافئ*. وتتسرب اشعة الشمس من الاعضاء المهيضة لترتدش على الارض بقعا داكنة صفراء. ووسط اوراق الموسم المنصرم الابوية اعشبرت نباتات الفراولة البرية المنتشرة كقطرات مرحة حمراء. وكان الجنود يتحنون لالتقاطها بين القينة والقينة. ورغم الاجهاد كان سينتوف يسير مستمنا انظاره بجمال الغابة. وراعى يفكر ولا تزال احياء، مع ذلك لا تزال اشياء».

امر سرييلين قبل ثلاث ساعات بان يسجل قائمة باسماء جميع الذين تمكنوا من عبور النهر. وقد سجل تلك القائمة، وهو يعلم ان عدد الباقين على قيد الحياة مائة وثمانية واربعين، لقد عك في الممركة او غرق ثلاثة ارباع الذين قادرا ليليا باعتراق طوق الحصار. مات ثلاثة من كل اربعة، وظل على قيد الحياة اربعة فقط. وهو سينتوف، ايضا رابع اربعة.

وكانت السادة، كل السادة، تلتخص في السير على هذا المتناول عبر هذه الغابة حتى الساء دون الالتقاء بالالمان، ومن ثم الوصول مباشرة الى قوتنا. فلماذا لا يتصق ذلك يا ترى؟ فالالمان، في آخر المطاف، ليسوا متواجدين في كل مكان. ثم ان قوتنا ربما لم تنسحب مسافة بعيدة جدا!

— ماذا تعتقد ايها الرفيق قائد القلوة، هل تنسحب مسافة بعيدة جدا؟ — لا ادرى حتى متصل، — اجاب سرييلين سائرا في شبه التفاتة — ولكنني اعرف باننا متصل في وقت ما. والحمد لله على ذلك!

بدأ كلامه جادا، وانهاه بسخرية متجهمة. كانت افكاره على طرفي نيفض مع افكار سينتوف. فالمناسبة تدل على امكانية السير عشرين كيلومترا اخرى، في اكبر تقدير، عبر الغابة الكثيفة مع تماشى الظهور على الطريق العام. وكان سرييلين يأمل في اجتياز هذه المسافة قبل حلول المساء. ولكن مواصلة السير نحو الشرق تتطلب من كل يد عبور الطريق العام ثارا هناك، وذلك يعني الالتقاء مع الالمان. وان التفتل من جديد في اعناق الغابات المرسومة

الفصل السادس

كان الصباح شمساً متبراً. سار السائة والخمسون شخصاً، البقية الباقية من فوج سرييلين، عبر الغابات الكثيفة على الضفة اليسرى من النهر، مسرعين في الايمان من مكان البور. وكان واحد من كل ثلاثة منهم مصابا بجراح طفيفة. وبين البرسي خمسة بجروحهم شديدة وقد امكن بجمجمة ففلهم الى الضفة اليسرى من النهر، حيث تناوب على حملهم بالثقلات عشرون* من اقوى المحاربين الذين غصصهم سرييلين لهذا الغرض.

كما حملوا زايشيكوف المحتضر الذي يقى عليه قارة ويستيق تارة اخرى فينتطح الى السماء الزرقاء والى فنن التصوير والبنولا الشمالية فوق رأسه. انكاره مشرقة. وقد خيل اليه ان كل شيء يهتز اهتزازا؛ ظهور القتاتلين الذين يحملونه تهتز، والاشجار تهتز، السماء تهتز. كان يصمت بصوتية الى السكون فيسمع فيه تارة اصدااء القتال، ولا يسمع فيه شيئا قارة اخرى، فيعود اليه الوعى ويخيل اليه انه اصيب بالعمى. وفي واقع الامر كان ذلك مجرد سكون فلي لا اكثر.

لهذهو يعم الغابة. لا شيء غير سرير الاشجار يملئ الريح واصوت خفى للقاتلين المتجسبين، وطفقة قمرهم في بعض الاحيان. بدا السكون غريبا ليس فقط لزيشيكوف المحتضر، بل وللآخرين ايضا. فقد نسوا الهدوء حتى صاروا يرون فيه خطرا. وكان البنيار لا يزال يصاح من البسة الجنود السائرين ويحوم فوق الرتل مذكرا اياه بجميع المبور.

سار سرييلين في مقدمة الرتل بعد ان يمث الدوريات الى الامام والى الجانبين وتروك شياكوف مع فريق حماية المؤخرة. كان يجبر قدميه بصوتية، ومع ذلك شيل للسائرين خلفه باله يسير بخفى خفيفة سرية وبتقة انسان يعرف الى اين يسير، انسان مستند للسير على هذا المتناول اياما عديدة متواصلة.

بخط أخضر على الخارطة في الطرف الثاني للطريق العام بدون لقاء الإلمان
أما معنى توقفيها دهشاً للغاية، ولم يكن سرييلين يصدق باحتمال هذا التوقيف،
وذلك معنى أنه يتعين عليهم غرض الممركة من جديد أثناء الخروج إلى الطريق
العام ليلاً. كان يسير ويفكر بهذه الممركة المتوقفة، كان يسير ويفكر وسط
الهدوء وضفيرة الغابة التي جعلت مزاج سينسوف يتحسن يطمئن.
- أين قائد اللواء؟ أيها الرقيب قائد اللواء! - صاح جندي من القوية
اللامية بصوت مرح عندما رأى سرييلين وخرج إليه - يعني اللزائم غوريشيف!
قابله أفراد كرفان، من الفوج ٥٢٧.

- عجيب! - أجاب سرييلين مسروراً - أين هم؟

- هناك! - أومأ الجندي بأصبعه إلى الأمام حيث لاحت بين الأشجار
الكثيفة أشباح عسكريين قادمين.

تس سرييلين تبه ليجل في عطاء.

كان جنود من الفوج ٥٢٧ يسيرون وعلى رأسهم قائدهم - كابتن ويلزيم
ثان. كلهم يرتدون الزيئات العسكرية ويحملون السلاح. وكان اثنان منهم
يحملان وثايقين يديويين.

توقف الكابتن الاجمده يدايرته المائلة وقال جهاماً:

- مرحبا أيها الرقيب قائد اللواء!

تذكر سرييلين أنه رأى ذات مرة في مقر أركان الفرقة. وهو، على
ما يظن، ممثل شعبة المهيمات الخاصة.

- مرحباً، يا عزيزي! - قال سرييلين - اعتكك بالوصول إلى الفرقة، واهني،
الجميع يشغلك! - عانقه وقبلة قوية حارة.

- حفرقاه، أيها الرقيب قائد اللواء. قال الكابتن متأثراً بهذا الاستقبال
الذي لا تسمح به الانظمة العسكرية - يقال أن قائد الفرقة معكم هناك، اليس كذلك؟

- معنا - قال سرييلين - حملنا قائد الفرقة، إلا أنه ... قطع كلامه
دون أن يكمل: - سنذهب إليه الآن.

توقف الرتل، وراح الجميع يتطلعون بفرح إلى القادمين. كان عددهم
قليلاً، ولكن الجميع اعتبروا ذلك مجرد بداية. وقال سرييلين لسينسوف:

- وأصلوا السير إلى مكان التوقف المقرر - وتطلع إلى ساعته اليدوية
الكبيرة - لا تزال هناك مشرون دقيقة.

واصل الرتل سيره على مضض، بينما اشار سرييلين إلى الكابتن واللازم
الثاني وجميع الجنود الذين جاؤوا معهم للمحاق به وسار يطعم لملقاة الرتل.

وكانوا يحملون التبرجس في الوسط. ثم قال سرييلين يدهو المجنود الذين
يحملون زايشتيكوف: - سمعوا.

وضع الجنود الشفالة على الأرض. وكان زايشتيكوف رائداً مطلقاً، العيتين
دون حراك. وزالت مسحة الفرح من على وجه الكابتن. كان غوريشيف
قد أخبره حالما التقى به أن قائد الفرقة جريح، ولكن مظهر زايشتيكوف اثار
دهشته. كان وجه قائد الفرقة في السابق مكتئباً لاسر، أما الآن فهو ليجل
شاحب كروثه الاومات. وبدا أنه مدنياً كافف الميت. وتركزت الانسان
أثارة سوداء على الشفة السفلى الشاحبة. فوق المصطف امتدت يده الضعيفة
البائسة البيضاء. كان قائد الفرقة يتحضر، وقد فهم الكابتن هذه الحقيقة
حالما رآه.

لوى سرييلين رجله المتفردتين من التعب وركع بصعوبة على إحدى ركبتيه
قرب الشفالة وخاطب زايشتيكوف الذي حرك يده على المصطف في البداية
ثم غص على شفته وبعد ذلك فتح عينيه. فقال له سرييلين:

- ويعدنا بعض جنودنا من الفياق ٥٢٧!

- أيها الرقيب قائد الفرقة! أنا سبتين ممثل شعبة المهيمات الخاصة وصلت
تحت تصرفكم. وأحضرت معي مفزعة من تسعة عشر شخصاً.

فطلع زايشتيكوف صامتاً بنظرة صمدت من الأسفل إلى الأعلى والنبشت
من أصابعه البيضاء المستقررة على المصطف حركة ضعيفة قصيرة. وقال سرييلين
الكابتن:

- اقرب فهو يدهوك.

وعند ذلك ركم الكابتن على إحدى ركبتيه مثل سرييلين، فاطلق زايشتيكوف
شفته التي كان يعض على طرفها وهمس له بشيء لم يسمعه ذلك في الحال.
وأدرك زايشتيكوف من نظراته بأنه لم يسمع ما قال تذكر القول مرة أخرى
بصوت:

- الرقيب سرييلين تسلم قيادة الفرقة، فقدم له تقريرك.

- اسمع لي بالكلام - قال الكابتن دون أن ينهض مخاطباً هذه التمره
زايشتيكوف وسرييلين معاً - أحضراً معنا راية الفرقة.

أعلنت إحدى وجنتي زايشتيكوف يفتور. أراد أن يشتم قلم يتكهن.
- أين هي؟ - همس يفتغيه، ولكن همس لم يكن مسموعاً، فطلب

بغفرة من عينيه وأرسلها! - وأدرك الجميع طلبه.
فقال الكابتن:

- التقيب كوفالشوك هو الذى حملها على يده . أيها التقيب قدم الراية .
الا ان كوفالشوك راح اصلا ، وبدون انتظار الاوامر ، يفتح خزانه
خالى به على الارض ورفع قمصته الى اعلى وفتح قماش الراية المملووف . على
يده المار . وبعد ان فتحها امسك باطرافها حتى يتمكن قائد الفرقة من رؤية
الراية كلها - مدموكة وشبيهة بمرفق الجنود ، ولكنها سالمة . يكلمتها المعروفة
جيلا والمطرزة بالذهب على حرير احمر : «فرقة المشاة ١٧٨» المأثرة على وسام
الراية الحمراء لجنيس العمالي الفلاحى الاحمر» .

نظر زابيشكوف الى الراية وبكى . بكى كما يبكى انسان محضر
خاوت قواه . بكى يهدو دون ان تتحرك عضله على وجهه . وانمايت الدموع
يبطل الواحدة تلو الاخرى من كاشا عينيه . وبكى كوفالشوك الفارح القامة
الذى امسك بالراية بكلتا يديه القويتين الطويلتين وهو يتطلع من فوق الراية
الى وجه قائد الفرقة الزاقد على الارض ، بكى كما يبكى رجل قوى جبار عزه
ما حدث - تشبعت حنجرتة بالبغرات وواحت كفتاه ويده الكبيرتان الممككتان بالراية
ترتمش من النحيب . اعلق زابيشكوف عينيه ، ودرت عن يده ابتلافة جعلت
سربيلين يلتفت به مرتعا .

- كلا ، لم يقص نحبه . فقد ظل النبش يدق ضغيفا . لقد اغص عليه
من جديد كما اغص عليه مرارا هذا الصباح . فقال سربيلين يهدو الى الجنود
الذين كانوا يفتلخون في وجه زابيشكوف صابئين - احماو وسيروا .

تحسن الجنود على القتالة ودفعوا يرفق واصلوا السير .
وقال سربيلين لكوفالشوك الذى ظل واقفا والراية بين يديه :
- لنف الراية على يديك من جديد . فما دمت قد حملتها فواصل ذلك .
طوى كوفالشوك الراية باعناها ولغها على يده وضغط قمصته ورفع
الحزام من الارض واراداه .

- أيها الرقيب الملازم الثانى انضم مع جنودك الى آخر الرتل - قال
سربيلين للملازم الذى كان قبل دقيقة يبكى هو الآخر ، وظل الآن واقفا
ومركبا على مقربة منه . عندما مر آخر الرتل فربهم امسك سربيلين يده الكاتبين
وسار الى جنبه تاركا بينهما وبين آخر جنود الرتل زهاء عشر خطوات .

- شيرنى الآن يا تعرف وما رأيت .
اغمد الكاتبين يتحدث عن المعركة البليبة الاخيرة . عندما صمم رئيس
اركان الفرقة يوشكفيتش وقائد الفوج ٥٢٧ يرشوف اختراق الحصار ليلا نحو
الشرق تشب معركة نزارية . ويرى الاختراق بمجموعتين على امل الالتقاء

فيما بدء ، ولكن المجموعتين لم تلتقيا ، ففس يوشكفيتش نحبه على مرأى
من الكاتبين يد ان اصامد بالمشاة الامسان . ولا يعرف الكاتبين ما اذا كان
يرشوف الذى قاد المجموعة الثانية لا يزال حيا ام لا والى اين وصل اذا كان
لا يزال على قيد الحياة . وعنت القجر اخترق الكاتبين الحصار ووصل الى
الغاية ومع ١٢ مقاتلا ثم صادف ستة آخرين وعلى رأسهم الملازم الثانى .
هذا كل ما كان يعرفه .

- عظيم ، انكم تستحقون الثناء ! - قال سربيلين - لقد حفظتم راية
الفرقة . من الذى اهتم بذلك ؟ انت ؟
- انا

- عظيم - كرر سربيلين - لقد اقحرت قائد الفرقة قبيل الفؤاة !
- هل سيهوت ؟ - سأل الكاتبين .

- ألم قر بتسلك ؟ - سأل سربيلين يهدو - ولذلك بالذات تسلمت منه
القيادة - فلتسرع ، ولتأخذ بقدمة الرتل . هل تستطيع انت ان تسرع ام انك
تعب جدا ؟

- استطيع - قال الكاتبين باسم - فانا شاب .
- من اى مواليد ؟

- ١٩١٦ .
- ٢٥ عاما فقط - صفر سربيلين متدهشا - ما اخبر ما يتحنونكم الرتب ؟
عند الظهر ، وساما توقف الرتل للاستراحة الاولى الكبيرة جرى لقاء
آخر اقبح سربيلين . فان غوريشيف العاد اليمر الذى لا يزال يسير فى العورية
الامامية شاهد جماعة من الناس منزوية بين شجيرات كثيفة . كان ستة اشخاص
نائمين على الارض ، واثنان يجرسانهم . واثنان جنتى يعمل بتدقيق رشاة
المائة وطبيبة عسكرية جالسة بين الشجيرات وعلى ركبتيها ممدس . ولكنهما
يصرخان على نحو سيء . فلماذا غوريشيف ان يمزج قليلا . قفز من الشجيرات
امامهما مباشرة وصاح : «يدين رقم ١» وكاد يحصل مقابل ذلك على صلية
من بتدقيق رشاة ، واقترح ان هؤلاء الاشخاص من فرقتهم ايضا ، من وحدات
المؤخرة . وكان احد الثائمين مدير مستودع المؤنة ، وقد قاد مجموعة مكوفة من
سنة من عيال المستودع والسائين والطبيبة التى بائت ليلتها بالصدفة آنذاك فى بيت
مجارو .

عندما احضروهم جميعا الى سربيلين افاد مدير المستودع ، وهو كهل
اصبل جنة اثر بداية الحرب ، ان الدبابات الاسلمية مع قوات انزال على دروهما

اقتصدت قبل ثلاث ليال القرية التي كانوا مراكبهم فيها . وقد تمكنوا من الخروج من القرية الى البساتين وراء البيوت . لم تكن لدى الجميع بنادق ولكنهم لم يرفضوا في الاستسلام للالمان . وقد اخذ هو على عاتقه مهمة ايصال رفاته الى قرأتنا عبر الغابات . فهو من ابناء سيبريا ، وكان من الانتصار السور في الناس . وقال :

« ها قد وصلت بهم . صحيح اني لم اصل بهم جميعا . فقد قُتلت ١١ شخصا . اذ اصطدمنا بقذرية البانية ، ولكننا قتلنا اربعة فاشيين واستولنا على سلاحهم . وقد اطلقت النار هي على احد الالمان من الخس - اوما الى القلبية .

كانت الطيبة شابة صغيرة البدن حتى يخلو لمره انها لا تزال صبية . كان مراكبهم وسيتسوف الاقارب قريبه ، بل وجميع العائدين يتطلعون اليها بدعشة ورقة . واشتدت دهشتهم ورقة قلقهم عندما بدأت تصعد عن نفسها روا على استلهم وهي تلك قطعة من الخيز .

تحدثت عن كل ما جرى لها وراثة سلسلة من الاشياء التي هي بحاجة ماسة الى القيام بكل منها . ذكرت لهم كيف تخربت من معهد طب الامتان . وعندما بدأ الجيش يقبل عضوات اتحاد الشبيبة (الكومسول) التحقت به بالطبع . وبعد ذلك اتضح انه ما من احد يريد علاج اسنانه عندها ايان الحرب ، وعند ذلك تحولت من طيبة استان الى ممرضة ، لانه لا بد من القيام بعمل ما ! وعندما قتل الطبيب أثناء غارة جوية صارت هي طيبة لانه لا بد من ان يعمل احد محل الطبيب ، وتوجهت بنفسها الى الممرضة لاحضار المواد الطبية لانه لا بد من احضارها لاجل الفرج . وعندما احتاج الالمان القرية التي باتت فيها غادرت القرية بالطبع مع الجميع لانه لا بد لها من ان تهاجروا . فقل يمكنها ان تبقى مع الالمان ؟ ولما بعد ، عندما اصطدموا بالدورية الالمانية وبدأ تبادل الاطلاق النار اصيب احد الجنود امامها وراح ين يشد ، فزجعت لتضميد جرحه ، ونبأة . فتر امامها الماني ضخم الحبة تسحب السمس وتقلته . كان السمس ثقيل فاضطرت الى اطلاق النار وهي تمسك به بكلتا يديها . ذكرت ذلك كله بسرعة وبهجة طفولية متلاحقة ، ثم اهبطت على قطعة الخيز وبلست على قرمة وراحت تبعد في شيء الى العناية الصحية . في البداية اخبرته بضع رزم تضميدية صغيرة ، ثم محفلة تجميل سدود صتيلة . وراى سيتسوف الفارع القائمة في هذه المحفلة غلبة بودرة واحمر شفاة جعله الفغار اسود اللون . دست احمر الشفاة وغلبة البودرة تحت الاشياء الاخرى

في المحفلة كيلا يراها الآخرون واخبرته مرلة صغيرة وعلمت السدادة وراحت تمشط شعرها الطفولي الرقيق كالزنب .

وبعد ان مشطت الطيبة الصغيرة شعرها واقتت نظرة على الرجال المحيطين بها وانسلت على نحو نير ملحوظ وانجذبت في القابة قال مراكبهم :

— امرأة مدعشة !
ثم كرر هذا القول وتعلب على كيف شاكوف الذي كان قد لحق بالمرل ويس قرب مراكبهم أثناء الاستراحة . واضاف قائلا :

— امرأة مدعشة ! من اليب على الانسان ان يجبرن قربها ! — وانطبع على وجهه ابتسامة عريضة فلحمت اسنانه القلاذية ومال الى الوراء وافلق عينيه غفقا في الحال .

جلس سيتسوف القرقصاء ولامس ظهره جذع صنوبرة فتطلع الى مراكبهم وتناوب بانتيح ثم سألها شاكوف :

— هل أنت متزوج ؟
هز سيتسوف رأسه ايجابا وسأول ان يبعد التماس فراح يتصور ما كان ستصير اليه الامور لو اصررت ماشا آنذاك ، في موسكو ، على نيتها في السفر معه الى الجبهة ولو تمكن من ذلك ... ها هما ينزلان من القطار معا في بيرسوف ... وماذا بعد ؟ من الصعب حتى تصور ما سدت فيما بعد ... ومع ذلك فهو يعرف في قرارة نفسه ان الحق كان معها وليس معه في يوم الدواع المرير آنذاك .

ان قوة القضب الذي يحمله على الالمان بعد كل ما عاها قد محت كثيرا من المحدث التي كانت قائمة في وعيه قيمة مضي . فلم يعد يفكر بالمستقبل دون ان يفكر بشروية اباداة الفاشيين . فلماذا يا ترى ، لم تستكن ماشا من الاحساس بما يحس به هو ؟ ولماذا اراد ان يتزوج منها ذلك الحق الذي لن يسمع هو لاحد بانزاعه منه ، ذلك الحق الذي لن يستطيع احد ان يتزوجه من هذه الطيبة الصغيرة مثلا .

وقطع شاكوف حبل افكاره :
— هل لديك اطفال ؟

كان سيتسوف طرول الوقت ، طوال هذا الشهر يقنع نفسه ببناء ، كلما اذهالت عليه الذاكرات ، بان كل شيء على ما يرام وان ابنته في موسكو من زمان . فارتضع لشاكوف بايجاز ما سدت لاسرته . ولكنه كلما اشرع على حمل نفسه بتصديق ما تصوره تنفد ايمانه بصفته .

تطلع شماكوف الى وشه وادرك يانه كان من الافضل لو لم يوسيه اليه هذا السؤال . فقال له :

- حسنا، ثم . ففترة الاستراحة قصيرة، وان يتسع الوقت لثري شيئا في المنام!

وهي اى مقام يتحدث؟! - فكر ميتشوف سائقا، ولكنه لم يصبر دقيقة واحدة بعينين مفتحتين، فغادر رأسه وهوى على ركبتيه . اوتشش وفتح عينيه من جديد واراد ان يقول شيئا لشماكوف . وبدلا من ذلك غر رأسه على صدره وغط في نوم عميق .

تطلع اليه شماكوف بحسد، وتعلم فظافره واخذ يمسح عينيه بسبابته وابهامه . عيناه تؤوليانه من الارق، وتخيّل اليه ان ضوء النهار ينتزها حتى عبر الجدران الخلقية، في حين لا يعرف النعاس ملابته اليها .

خلال الايام الثلاثة الأخيرة رأى شماكوف عددا كبيرا جدا من القتل بمرأته القتل، حتى ان الاسى الأكبر الذي دقته بقوة ارادته الصلبة في اعنق اعناق القواد ان تنجس من تلك الاصابع وطفا على السطح وتحول الى شعور تجاوز ابنه وشمل اولئك الذين قتلوا على مرأى منه وحتى اولئك الذين لم يشهد موتهم بل سمع عنه مجرد سماع . وفيما هذا الشعور وكبر حتى انقلب الانى الى غضب شديد . واخذ هذا الغضب بخناق شماكوف الآن . كان يبالسا بفكر بالفتاشين الذين داسوا الى حد الموت، في كل مكان، في كل دروب الحرب، آلافا مؤلفة من الشباب الذين ولدوا، مثل ابنه، مع ميلاد ثورة أكتوبر، وأبادهم الواحد تلو الآخر، سيادة بعد سيادة . انه الآن يعتقد على هؤلاء الالمان مثليا كما يعتقد على افراد الحرس الأبيض في الحرب الأهلية . وهو لا يعرف سقدا اشد من ذلك، وزيدا لا يوجد في الطبيعة خد اشد منه .

باللاس كان يجماعه الى بذل جهود نفسانية كبيرة لكي يصدر امره باعدام الطيار الألمانى . ولكنه اليوم، بعد شعاع البور الذي تحز في القواد، وبعد ان واح الفاشيون، كالفنصيين، يحدسون بالبنادق الرشاشة في مياه النهر رؤوس الجنود الجرحى وهم يقاتلون الفرق انقلب في داخله شيء لم يكن يريد ان يتقلب نهائيا حتى هذه اللحظة الأخيرة، تقطع على نفسه عهدا، دون تبصر، بان لا يرسم في المستقبل هؤلاء القتلة ايدا، مهما كانت الظروف والملايسات، لا في الحرب ولا بعدها! ولعل وجهه الآن، وهو يفكر في ذلك، لعل وجه الانسان المنطف الكهل الهائى عادة والقلب

يبيته، قد اكسى . في هذه اللحظة يتعبير غير متعاد اطلاقا، حتى ان سرييلين ناداه فجأة :

- يا سري، ماذا بك؟ هل حدث شيء؟

كان سرييلين واقفا على المشب وقد فتح عينين واسعتين وراح يتطلع اليه .

- لا شيء اطلاقا - ارتدى شماكوف نظارته فاكتسب وجهه مظهر المعتاد .

- اذا لم يحدث شيء، قفل كم الساعة؟ الى اين الوقت؟ فليست

لدينا رغبة في تحريك الاطراف عيضا - قال سرييلين مازحا .

تطلع شماكوف الى ساعته وقال ان فترة الاستراحة مستتبه يمد سبع دقائق .

- اذن قلائد لحظة اخرى - واطلق سرييلين عينيه .

بعد استراحة لمدة ساعة، وفي الفترة التي لم يوافق سرييلين على

اطاها ولو لدقيقة واحدة رغم تعب الرجال، تحركوا من جديد مستعدين

بالندرج نحو الجنوب الشرقي .

وحسب حلول استراحة المساء انضم الى الفصل ثلاثين شخصا من

الهاتين في الغابات . ولم يكن بينهم احد من افراد فرقهم . كان الثلاثون

شخصا الذين صادفهم بعد الاستراحة الاولى من افراد الفرقة المجاورة المرباطة

الى الجنوب على الضفة اليسرى من نهر الدنيبر . وكانوا يتنزل الى اقلاج

وكتائب منتقلة والى وحدات المؤخرة . ومع ان بينهم ثلاثة ملازمين ومرشدا

سياسيا اقدم فان احدا لم يكن يعرف اين مقر اركان الفرقة ولا حتى الاتجاه

التي انسحبت فيه الاركمان . ولكن امكن من الاقوال غير المترابطة والمتناقضة في

الغالب تصور للرحلة المألمة لكافة .

قبل بدء الهجوم الألماني الشامل كانت متصلة بشكل سلسلة على مسافة ثلاثين

كيلومترا في مقدمتها . فضلا عن ذلك لم يشن لها الوقت الكافي او لم

تتمكن من تنزيه مؤلفها بالشكل اللازم . فسعها الالمان طوال عشرين ساعة

بلا انقطاع، وبعد ذلك القوا في مؤخرتها عدة وجبات من قواش الانفاز واغلاوا

بالادارة والاتصال وبدلوا في الوقت ذاته عيود نهر الدنيبر في ثلاثة اماكن

دفعه واحدة تحت تغطية من سلاح الجو . انكشفت وحدات الفرقة وفرت من

بعض المواقع وقاقت قتالا ضاريا في بعضها الآخر، ولكن ذلك لم يثر من

سير الامور عميوا .

كان افراد هذه الفرقة يسيرون بجماعات صغيرة، بفردين او ثلاثة .

وكان بعضهم يحمل السلاح . والبعض الآخر اعزل . وبعد ان تحدث سرييلين

معهم ضمهم إلى زلفة وشغلهم مع جنوده. وأبقى الزلّ ضمن الزلّ ولا سلاح مشرا إلى أنه يتعين عليهم أن يحصلوا على السلاح بأنفسهم في المعركة وليس لدى التفصيل سلاح احتياطي من أجلهم.

تكلم سرييلين معهم بصفة واحدة ولكن دون أن يفهمهم. غير أنه اعترض بنفيظ على المرشد السياسي الأقدم الذي يور علم وجود السلاح لديه بأنه حافظ على برته بالكامل وعلى البطاقة الحزبية في جيبه. وأكد سرييلين أن الشيوعي في الجبهة يجب أن يصون السلاح مثلما يصون البطاقة الحزبية. وقال:

— اننا، أيها الزئيق العزيز، لسنا متوجهين إلى الجولقة، بل نحن تعارب. وإذا كان أسهل عليك أن يمدك الفاشيون من أن تنتزع نجيحات الغرض من يافتك بنفسك فذلك يعني أنك تحتفظ بضميرك. ولكن ذلك وسد قليل بالنسبة لنا. أتنا لا نريد أن يمدنا الفاشيون، بل نريد أن ندم الفاشيين. وبدون سلاح لا يمكننا تحقيق ذلك. تلك هي القضية! التمس بالزلّ واتوقع أنك ستكون أول من يحصل لنفسه على سلاح في المعركة.

عندما ابتعد المرشد السياسي الأقدم مرتبكا بضع خطوات زاداه سرييلين من بعيدة وشلع من عزله إحدى القنيتين اللويتين وسلمها له قائلا:

— خذها لاجل البداية!

سجل سينتوف باعتباره مراقبا لسرييلين في المفكرة أسماء القادمين ورتبهم وأرقام وسدانهم، وكان مسرورا بضممت لها يتحلى به سرييلين من صبر وهدوء وهو يتحدث معهم.

من غير الممكن التغلغل في روح الإنسان، إلا أن سينتوف تصور عدة مرات خلال هذه الأيام بأن سرييلين لا يشعر بالخوف من الموت. «يما ليس الأمر كذلك في الحقيقة والواقع، ولكن القضية بدت على هذا النحو بالذات».

وفي الوقت ذاته لم يظواهر سرييلين بأنه لا يفهم لماذا يخاف الناس ولماذا قروا وتجربوا وألقوا بالسلاح. بالعكس، فقد جعلهم يتحسسون بأنه يفهم ذلك، ولكنه قرى لهم بأمراء في الوقت ذاته فكرة تؤكد أن الخوف الذي انتابهم والهزيمة التي لحقت بهم — كل ذلك كان في الماضي. كان الأمر على هذا الحال في الماضي، وإن يتكرر في المستقبل. وقد قدّوا سلاحهم، ولكن يومهم أن يحصلوا عليه من جديد. ولعل ذلك هو الذي جعلهم، وهم يصرفون بدء التحدث مع «سرييلين» لا يشعرون بالانسحاق حتى

عندما تكلم معهم بصفة واحدة. وكان محقا عندما لم يفهمهم من الذئب، ولكنه لم يلق الذئب كله على عاتقهم. وقد شعروا بذلك وأرادوا أن يشتروا بانه على حق. قيل الاستراحة المسائية حدث لقاء آخر لا يشبه اللقاءات السابقة.

نقد جاء عريف من الدورية الجابية السائرة في غمار الغاية وبمه شخصان مسجلان أحدهما جندي قصير القامة يرتدي سترة جنديّة محبوكة فوق قمصته ويعمل بتفنية على كتفه. والآخر رجل فارغ وسمي في — وإلى الأيمن بانف مدبب وشعر أشيب يلوح من تحت المداورة ويضعى على وجهه الحائلي الخالي من الضوضاء مسحة من الفتوة والأهوية والليل. كان يرتدي بنطال خيالة جندا وبزيم من جلد فاسر، وعلى كتفه رشاشة جديدة بقرص دائري، إلا أن سدايته كانت قدرة مدهمة، وكانت قدرة مدهمة أيضا قمصته الجندرية التي لا تناسب بدنه، فهي ضيقة البياقة عليه وقصيرة الردين.

اترب العريف من سرييلين وقد شعر بتفنيته وهو يلقى نظره شذراء على الرجلين وقال:

— أيها الزئيق فأند اللواء! اسمح لي بالكلام! احضرت محشزين. احتجزتهما واحضرتهما تحت الحراسة نظرا لمظهرهما ولأنهما لا يكشفان عن حريتهما. وقد رفضا تزج سلاحهما، ولم تكن راغبين في إطلاق النار في الغاية دون موجب.

— غالب أمر شبة العمليات في هيئة أركان الجيش العقيد يارانونف — قال الرجل العامل الرشاقة بصوت متقطع، بفعل وبشيء من القبط وقد رفع يده بالتحية ودل قائمه أمام سرييلين وشما كوف الواقف قربه.

— اعتذر — قال العريف الذي جاء بالمحشزين وقد رفع يده بالتحية هو الآخر. يد أن سمع هذا الكلام، فالتفت إليه سرييلين وقال:

— لماذا تفتقر؟ حسنا فقلت عندما احتجزتهما، وحسنا فقلت عندما احضرتهما إلى. واصل عدك على هذا النحو. يوسلك أن تصدرف. ابرز عيونك — التفت سرييلين، بعد أن أطلق العريف، إلى المحشيز دون أن يخاطبه بربته.

ارتضمت شفتا المحشيز وانفجرتا عن ابتسامة مرتبكة. وشغل سينتوف أن هذا الشخص ربما كان يعرف سرييلين، ولكنه لم ينتبه إلى وجوده إلا الآن. نهش أشد المشقة لهذا اللقاء.

بالفعل، فالتفت العريف قائ أن اسمه العقيد. يارانونف وهو يعمل هذا الاسم. وهذه الثريفة فعلا ويعمل بالمنصب الذي ذكره عندما اقتادوه إلى

سرييلين لم يكن يتصور إطلاقاً أنه يمكن أن يقف أمامه سرييلين هنا بالذات، في الثانية، وهو في بزة عسكرية ويحيط به ضباط آخرون. فقد غيل إليه بأهله الأولى أن قائد اللواء القارع القائم هذا يرشاشه الإلمانية على كتفه يشبه للدرجة كبيرة شخصاً يعرفه.

— سرييلين! — هتف الرقيب وتشر يديه، ولم يكن يعرف ما إذا كان قد فتحها من شدة دهشته أو أنه أراد أن يماق سرييلين.

— نعم، أنا قائد اللواء سرييلين — قال سرييلين بصوت متخشب جاف على غير العتوق — انني قائد الفرقة التي كلقت بقيادتها، ولكن من أنت؟ لقد الآن لا أدري من أنت؟ إبرز هويتك!

— سرييلين، أنا بارانوف، ماذا دهالك؟ هل جئت؟

— أرجوك المرة الثالثة أن تبرز هويتك — قال سرييلين بنفس الصوت البتضخ.

— ليس عندى هوية — قال بارانوف بعد صمت طويل.

— لماذا؟

— فسيتمها بالهتقة... تركتها في القمصلة التي استبدلتها بهذه... بفصيلة الجندي هذه — لمس بارانوف بأصابعه قمصته الدهنة الضيقة القصيرة.

— تركت هويتك في تلك القمصلة؟ إشارة العقرب هل بقيت على تلك القمصلة؟

— نعم — نهذه بارانوف.

— ما الذي ييمثل اسمك بالذك فائب أمر شبة العمليات في هيئة اركان الجيش العقيد بارانوف؟

— أنك تعرفني، عندما معا في الاكاديمية! — دهم بارانوف وقد اسقط في يده.

— لتفترض ان ما نقول صحيح — قال سرييلين دون أن يخف من القوة التفتيشية في صوته والتي لم يتعود عليها. سيتسوف — ولتفترض ايضاً أنك قابلت شخصاً غيري فمن سؤك شخصيتك ورتبتك وتصبك يا ترى؟

— سألني هذا — اشار بارانوف إلى الجندي الواقف قرب بسترته الجلدية.

— هل عندك هوية ايها الرقيب المتعائل؟ — التفت سرييلين إلى الجندي دون أن ينظر إلى بارانوف.

— نعم... — تلمس الجندي لحظة دون أن يعلم أية صيغة يخاطب سرييلين.

— نعم، ايها الرقيب الجنرال! — فتح سترته وأخرج من جيب قمصته هوية

جندي الجيش الأحمر ملاذقة بقطعة قماش وسلمها إلى سرييلين الذي قرأها بصوت عال:

— هكذا أدت، والجندي بيتر ايليتش زولوتاريف، الوحدة رقم ٤٢١٩ كل شيء واضح. — اعاد الهوية الجندي — سخرني، ايها الرقيب زولوتاريف، هل تؤكد شخصية ورتبة وتنسب هذا الرجل الذي احتجز منك؟ — اشار سرييلين إلى بارانوف بأصبعه دون أن يلتفت إليه.

— بالقيبط، ايها الرقيب الجنرال، انه فعلا العقيد بارانوف وأنا سافته.

— يعني أنك تشهد بان هذا قائدك، أليس كذلك؟

— بالقيبط، ايها الرقيب الجنرال.

— كذلك سخرني يا سرييلين! — صاح بارانوف متفعلاً.

— الا ان سرييلين لم يلتفت إلى جهته.

— من حسن الحظ أنك، على الأقل، تستطيع ان تؤكد شخصية قائدك، والا فكان من المحتمل ان يقدم روبا بالرصاين، من يدري؟ ليس عندى هوية ولا شارة ياقة، قمصته غريبة عليه، وبزيمته وبشالته من جزبات وبشاميل القباط... بدأ صوت سرييلين يكتسب بسمة أفسى وأشد. وبعد فترة صمت سأل: — ما الذي دعاكم للجنى إلى هنا؟

— ساجدلك الآن عن كل شيء... — هم بارانوف بالكلام، الا ان سرييلين قامله وقد التفت إليه نصف التفاته هذه المرة:

— السؤال ليس موجهاً إليك. — وشالط الجندي من جديد: — تكلم... بدأ الجندي كلامه، متلخفا في البداية، ثم بصوت أكثر ثقة وپرنية في علم نسيان شيء، فقال أنهما وصلنا من الجيش قبل ثلاثة ايام وبأنا الليل في مقر اركان الفرقة، وفي الصباح توجه العقيد إلى الاركان فبدأ القصف الجوي فوقاً في كل مكان. ووصل سائق من المؤخرة وقال ان انزلا ألمانيا هبط هناك، وعندما سمع هو بذلك أخرج السيارة من التكرج تحوطاً للطوارئ. وبعد ساعة جاء العقيد وأكفأ واستدعه لان السيارة جاهزة وصعد إليها على عجل وأمر بالمعوية إلى تشاوس بارسم ما يمكن. وعندما بلغا الطريق الثام سمعا إطلاق النار الشديد وشاهدوا الدخان فعدوا إلى الطريق الترابي وسارا عليه ولكنهما سمعا من جديد إطلاق النار وشاهدوا الدبابات الألمانية على مقترق الطريق. وبعد ذلك استدارا إلى طريق خال يتجه إلى الغاية ومنه دخلوا الغاية مباشرة وأمر العقيد بإيقاف السيارة.

كان الجندي وهو يفكر ذلك يختلس النظر أحياناً إلى أمره وكأنه

يشبه تأكيداً منه، في حين وقف هذا سامناً مطمئناً الرأس. فقد بدأ اصعب الامور بالنسبة له، وهو يدرك ذلك. وكرر سرييلين كلمات الجندي الاخيرة :
- امر بإيقاف السيارة، وماذا بعد؟

- وبعد ذلك امرني الرقيب العقيد ان استخرج من تحت المقعد قمصتي وسدائتي العتيقتين، فقد استلمت اليه جديدة مؤخرًا واحتفظت بالقمصة والسيارة من تحت. وطلع الرقيب العقيد قمصته وطاقمته وليس قمصتي. وسدائتي وقال بأنه يتعين علينا الآن ان نخرج من الحصار سيرا على الاقدام، وامرني بان اصعب التيزين على السيارة واسرها. ولكنني - قلمش السائق - ولكنني، ايها الرقيب الجنرال، لم اكن اعرف ان الرقيب العقيد نسي هناك هويته، في قمصته، ولو كنت اعرف ذلك لذكرته به طبعاً. ولكن كل شيء احترق مع السيارة.

واحد باله مذنب.

- هل انت سامع؟ - التفت سرييلين الى بارانوف - سائقك يأسف لانه لم يذكرك بهويتك. - ولاحظ في صوت سرييلين مسحة ساخرة - من الضعف تصور ما كان سيحدث لو انه ذكرك بها. - والتفت من جديد الى السائق - وماذا بعد؟
- بعد ذلك سرنا يوسين متخفيين الى ان صادفناكم...
- اشكرك ايها الرقيب زولوتاريف - قال له سرييلين - اودع اسمه في القائمة يا سيستوف. الحق بالزلزل وانضم اليه. وستقدم لك الارزاق في الاستراحة.

هم السائق بالانصراف، ولكنه توقف وتطلع الى امره متسائلاً، الا ان هذا ظل كالسابق واقفا مطمئناً الرأس.

- اذهب! - قال سرييلين آمراً - يومك ان تنصرف.

انصرف السائق. وحل صمت ثقيل.

- ما حاجتك الى السؤال منه بحضوري؟ كان يومك ان تسألني ولا تشوه سمعي امام الجندي.

- سألته لاني اثنى بكلام جندي يحمل هوية الجيش الاحمر اكثر مما بكلام عقيد استبدل برتبه ولا يحمل شارة يافة ولا هوية - اجاب سرييلين - لقد انقضت الليرة امامي على الاقل. لقد وصلت الى الفرقة لتتابع تنفيذ اوامر قائده الجيش اليك كذلك؟

- بلى - اجاب بارانوف وهو يحدق في الارض.

- ويدلا من ذلك هويت من اول. خطر تواجههم! تركت كل شيء. وهريت، اليس كذلك؟

- ليس كذلك تماماً.

- ليس تماماً؟ كيف اذن؟

الا ان بارانوف لا بالصمت. فليس لديه ما يريد به رقم شعوره الشاذ بالاحاطة.

- هل انت سامع يا شاكوف؟ يقول اني شوتت سمعي امام الجندي - شيء مضحك! لقد جبن وتغلق جبين الجندي برتبه الآخري والثقي بهويته، ويقول انني شوتت سمعي. لست انا الذي شوتت سمعك امام الجندي، بل انت الذي شوتت سمعي فسياد الجيش امام الجندي يتصرفك الشين. اذا لم تخش الذاكرة، اعرفت انك كنت عضواً في المريب، فهل احرق بطاقة العضوية ايضاً؟ - احترق كل شيء - نشر بارانوف يديه.

- نقول انك نسيت جميع الوثائق في القمصة بالصدفة اليس كذلك؟ - سأل شاكوف. يهوه وهو يشارك في الحوار لأول مرة.

- بالصدفة.

- اعتقد انك تكذب. واعتقد بأنه لو ذكرك بها سائقك اضلخت منها مع ذلك في اول فرصة سانحة.

- لماذا؟ - سأل بارانوف.

- انت اعلم.

- لقد سرت حاملاً السلاح.

- اذا كنت احرق وثائقك دون ان يكون هناك اي خطر قبل قاتك متلقى السلاح عند مغابك لاول الماني.

- احتفظ بالسلاح لانه يخشى اللاتاب في الغابة - قال سرييلين. فساح بارانوف متقللاً:

- احتفظت بالسلاح ضد الالمان ضد الالمان!

- لا اصدق - قال سرييلين - كانت لديك، انت امر الاركان، فرقة كاملة تمت تصورك ومع ذلك هربت منها، فكيف تتمكن لوحدك من محاربة الالمان؟

وتجأ قال بارانوف يهوه:

- لماذا تعيل الكلام يا فيودور؟ فاننا لست صبياء. انني عارف بماذا فعلت.

الا ان هذا الموضوع المباحث، التي يشبه تصرف شخص بذل كل جهوده تولا لتبرير فعلته ولكنه غير رأيه في الحال وتصور بان من المفيد له ان يتكلم بصورة اخرى قد اثار لدى سربيلين موجة شديدة من الاثبات.

— ماذا انت عارف ؟

— انا عارف بذنبي وسأعدهو بالدم، اعلمني سريفة، او عل الاقل فضيلة. فقد توجهت على اى حال ليس الى الالهان بل الى قوتنا.

نهول تصدق بذلك ؟

— لا ادرى — قال سربيلين — اعتقدت انك لم توجه الى احد. سرت فيما للظروف وتحسبا لتقبلاتها ...

— اننى اتمنى اللحظة التي احزمت فيها وثاقتي ... — بدأ بارانوف من جديد الا ان سربيلين قاطعه قائلا :

— اننى اتمنى بانك آسف الآن. انت آسف على تصرفك لانك وصلت الى قوتنا، ولو انك وصلت الى قوات الغير فانا لا ادرى هل كنت ستأسف ام لا. ماذا تعتقد ايها المفوض — ضابط سربيلين شماكوف —

هل نسلط هذا العقيد السابق سريفة ليقودها ؟

— كلا — اجاب شماكوف.

— فضيلة ؟

— كلا.

— رأى من رأيك. بعد كل ما حدث افضل ان اكلت ماثلتك بان يتولدك على ان تنوده ! — قال سربيلين، وضابط بارانوف لاول مرة بلهجة اخف بعض الشيء. — من السابق : — اذهب، وانسحق بالزلزل مع وضاحتك

الجديدة هذه وسأول، كما قلت، ان تغسل ذنبك بالدماء ... يداه الالهان — وبعد لحظة انصاف : وبدمائك اذا اقتضى الامر. السلطة التي تفتح بها

هنا انا والمفوض فجعلنا نزل ريتيك الى جنبى غادى الى ان فصل الى قوتنا الرئيسية. وهناك بوسمنا ان توضح تصرفاتك، وبرسمنا ان نوضح تصرفنا.

— هذا كل ما تريد ان نقوله لى ؟ — سأل بارانوف وقد رفع يصره وسلطه على سربيلين بحدة.

ارتفع عرق فى وجه سربيلين عندما سمع هذه الكلمات، سعى انه اغلق عينيه لئلا يرى بعض تغييرها. واجاب شماكوف بدلا عنه اجابة قاطعة :

— احمد ويلك على اننا لم نعدكم دينا بالريصاصى لجيتك.

فتح سربيلين عينيه وقال :

— يا سينسوف، افوج اسم الجندى بارانوف فى سجل الوحدة. واذهب معه — واولا — الى جهة بارانوف — الى البلازم غوريشيف وقل له ان الجندى بارانوف وضع تحت تصرفه.

— السلطة ييدك يا فيودور، سأفعل كل شيء، ولكن لا تتوقع باننى مانسى لك ذلك.

عقد سربيلين يديه وراء ظهره وطقطق بظلام مشعلها ولاذ بالصمت. فقال سينسوف لبارانوف : « هيا، وشرا بالهياك بالزلزل الذى ابعد فى الامام.

التي شماكوف نظرة متحفظة على سربيلين. فقد انفضل لما حدث واحسن بان التماس سربيلين اشد. وواضح ان قاتله اللوا تأثر كثيرا ميقا

لسلوك الشين لزميله القديم الذى كانت لديه عنه سابقا، فى اغلب الغلن، نكرة اخرى اقصل بكثير.

— فيودور !

— ماذا ؟ — رد سربيلين وقد ارتشش كما لو استيقظ من النوم تولا. فقد غرق فى لجة الافكار وسى ان شماكوف يسير جنبه.

— لماذا تفكر مزاجك ؟ هل خدمت ما امدا طويلا ؟ هل تعرفه جيدا ؟

التي سربيلين على شماكوف نظرة مائة واجاب بلهجة متداخلة غريبة عليه، وقد ادهشت تلك اللمحة المفوض :

— وما قيمة معرفتى ؟ ! الافضل ان نسرع فى السير حتى مكان الاستراحة !

لاذ شماكوف بالصمت، فهو لا يحب ان يشغل على الآخرين. وقد كلالها السير وثلا عاشين — جنيا الى جنبه حتى مكان الاستراحة دون

ان يتسا بيت شقة. فقد انصاع كل منهما وراء افعاله.

لشماكوف فى ظنه. فمع ان بارانوف عدم بالفعل مع سربيلين فى الاكاديمية، الا ان رأى سربيلين به كان اسوأ رأى. فقد اعتبره

شخصا وموليا لديه بعض القابليات ويهتم بالتزقي فى الخدمة وليس بمصلحة الجيش. فعندما كان بارانوف مدرسا فى الاكاديمية كان مستعدا لتأييد هذا

المبدأ اليوم وذلك البدا غدا. وكان مستعدا لتعت الابيض بالاسود والاسود بالابيض فهو يتكيف بهارة لما قد يعجب كبار المسؤولين حسب رأيه ولا يستنكف حتى عن تأييد التبدلات السائرة المستندة الى الجهول بالواقع

التي يعرفها هو تمام المعرفة.

اعتمد اساسا على التقارير والالاء عن جيوش الاعداد المحتملين،

فكان يبحث عن نقاط الضعف الفنية والورغوة ويؤزم الصمت، تزلزلاً، بشأن الجوانب القوية والخطرة لذا البدو المنتظر. ورغم صعوبة الكلام في هذه المواضيع آنذاك لام سرييلين بارانوف على ذلك مرتين وجها لوجه، والبرقة الثالثة على الألف.

واضطر فيما بعد الى تفكير ذلك في ملايين غير متوقعة اطلاقاً. الله وحده يعلم مدى الصعوبة التي واجهها سرييلين الآن، أثناء الحوار مع بارانوف، في حين اكداره وعدم مواجهته بكل ما اعتدل في فؤاده.

لم يكن يعرف هل هو على حق ام لا عندما تلقى ببارانوف ما ظنه به، ولكنه يعرف جيداً ان الوقت والمكان غير مناسبين اطلاقاً الآن للذكريات سواء كانت جيدة او سيئة!

ان اصعب لحظة في الحديث بينهما هي عندما تطلع بارانوف الى عينيه فجأة بنظف وتساؤل. ولكنه، على ما يبدو، صمد لهذه النظرة انبساطاً، فالتصرف ببارانوف بعد ان هدأ بعض الشيء. والدليل على ذلك هو عبارته الوثقة الأخيرة.

لا بأس، فليكن! سرييلين لا يريه ولا يستطيع ان يتقن شخصياً من الجسد ببارانوف الذي يقدم تحت امرته. فاذا قاتل ذلك يسأله فان سرييلين سيشاركه امام الآخرين، وإذا قضى عليه بصورة مشرقة فان سرييلين سيخبر بذلك من يهجه الامر، وإذا جبن وهرب فان سرييلين سيأمر باعدامه ربما بالرصاص كما يأمر باعدام أي شخص آخر يقدم على مثل هذا التصرف. كل ذلك في حدود المنقول والصواب، ولكن ما القل الامر على نفس سرييلين! توقفوا للاستراحة قرب مسكن بشرى صادفهم لأول مرة في القاية طوال النهار. فعل طرف فسحة محروقة بمثابة بستان انتصب منزل قديم يسكنه حارس الغاية. وعلى مقربة منه يتر بعث السرور في انبساط البقائيل الذين ارفعهم الحر. اوصل سينتوف ببارانوف الى خوريشيف وخرج على المنزل. وبعد سكوناً من عشرين، باب القرفة الثانية مغلق. وتهادى من هناك صوت امرأة تئن وتتنحب. جذران القرفة الاولى من جذوع الاشجار المخلقة يعمران عتيقة. وفي الزكن الامين ما يشبه المحراب وقد غلفت عليه اية وثائق رخيصة بدون اطر معدنية. وعلى مصطبة عريضة جلس مع القائمين اللذين دخلوا المنزل قبل سينتوف شيخ في الثمانين من العمر يدهش صارم صامت وهو يرتدي قميصاً ابيض نظيفاً وسروالاً ابيض نظيفاً أيضاً. وجهه مليء بالفضول والتعجب المعقبة كالتشوق وعلى رقبته التحفة تدلي صليباً بسلسلة معدنية محكوكية.

استقبلت سينتوف مجوز صغيرة نشيطة ربما هي جسر الشيخ ولكنها بدت اصغر منه منا بسبب حركاتها الرمية. استقبلته بالنعادة احترام والتعاطف من الرف الجداري الخلفي بمنشفة قدما جفلسا آخر وضعت على المائدة امام سينتوف الى جانب القديسين الآخرين وقارورة اللبن. وكانت المجوز قبل دخول سينتوف تسمى الفاسطيلين اللين.

سألها سينتوف عما اذا كان بالامكان الحصول على طعام لقاعة القرفة ونفوسها واضاف بان الخبز موجود للديما.

- لا شيء غير اللين - نشرت المجوز يديها مثالة - ويمكنني ان اعمل القرن والخبز الطماطس اذا كان لديكم وقت. لم يكن سينتوف يعرف هل ان الوقت يكفي لطهي الطماطس ام لا، ولكنه طلب منها ان تلبسها على كل حال.

انهمكت المجوز باعداد القرن وقالت:

- بقيت لدينا طماطس قليلة، من العام الماضي ...

احسب سينتوف قدماً من اللين، واراد ان يشرب قدماً آخر، ولكنه نظر الى القارورة قرأى فيها اقل من النصف، فشم بالخبيل. انصرف الفاسطيلان اللذان ارادا في اغلب الظن ان يشربا المزيد من اللبن. وظل سينتوف مع المجوز والشيخ. وبعد ان اعدت المجوز الصطب في القرف دخلت القرفة الثانية وعادت بعد لحظة ومعها علبة ثياب. وفي كلتا المرات عندما فتحت الباب واغلقته اتيجست منه موجات البكاء الاليم العالي. فسأل سينتوف:

- من يبكي هناك؟ ماذا حدث؟

- حفيدتي دونكا، قتل خطيبها. يده معطلة ذاعني من التجديد. اقتادوا قطيع الكولوز من فليدوفو. فذهب مع القطيع، وعندما عبروا الطريق امام قصبتهم الاثارات وقتل. انها تنحب اليوم الثاني - قالت المجوز متأوبة. اشعلت الصطب ووقست على النار قدماً فيها طماطس معقولة مسبقاً، ولطها غسلةا لمانتها، ثم جلست قرب الشيخ على المصطبة واستندت بكوعها على المائدة وسألت بأني:

- كل عائلتنا في الجبهة، اينأنا هناك واستعدنا هناك. هل سيضل الالمان الى هنا قريباً؟

- لا ادرى.

- جاء البعض من فليدوفو وقالوا ان الالمان وصلوا الى تشاوسى.

— لا أدري— كان سينسوف لا يدري، فلما يصادا يجيب. فقلت العجوز:

— يبدو أنهم سيصلون قريبا. فمئة خمسة أيام جبرى اقتياد القطعان. فليس ذلك عثا. ونحن أيضا— وأشارت بيدها النحيقة إلى الفارورة— نشرب الحليب آخر مرة. سلبنا البقرة أيضا. فلما عدوها، وقد يميلونها أو شاء الله. وقالت جديتنا أن عددا قليلا من الناس بقي في قبليدوقو، الجميع يتركونها...

فقلت ذلك كله بينما ظل الشيخ صامتا. وطوال الفترة التي قضتها سينسوف في المنزل لم يلفظف الشيخ ولا كلمة واحدة. كان طامعا في السن حتى يتقبل للمر أنه يرى أنه يموت الآن دون أن ينتظر دخول الألمان. تنزك على أثر هؤلاء الأشخاص الذين يرتدون بزات الجيش الأحمر. واشتوى على سينسوف حزن شديد لمظهره وكآبة مؤلمة لساعة اليكاه من وراء الجدران فلم يشعر وخرج بعد أن قال أنه سيعد في الحال.

وحالها بهل على درجات المدخل رأى سرييلين قادمة إلى المنزل. فهم بمخاطبته:

— أيها الزئبق قائد الأولاء...

ولكن الطيبة الصغيرة التي رأها مؤخرا سبقته راكضة إلى سرييلين وقالت بانفعال أن العقيد زايشيكوف طلب حضوره في الحال. فتبع سرييلين الطيبة الصغيرة. يتولى أقل من الرصاص ولوح بيده لسينسوف الذي رجاء أن يدخل المنزل للاستحمام وقال:

— فيما بعد، إذا بقي لدى وقت.

كان زايشيكوف رافدا على النقالة في ظل أشجار البندق الكفيفة. أسقوه داما ليتو، وربما تجربهم بصوبة. فقد تبللت ياقة القمصة والكتفان.

— أنا قريب يا فيكولاى— قال سرييلين وقد جلس على الأرض أزا زايشيكوف:

فتح زايشيكوف عينيه ببطء شديد. فعنى هذه الحركة جملة يذل جهدا يفوق طاقته.

— اسمع يا فيدور— قال هامسا— أطلق النار على. لم اعتد اتحمل هذا المذاب. نفشل على.

— لا استطيع— قال سرييلين بصوت مرتفع.

— اننى لا أذنب لوسيد، اننى أفلعل عليكم جميعا— تلفظ زايشيكوف كل كلمة بمنتهى الضعوبة.

— لا استطيع— كرر سرييلين.

— أعلنى سفساه وأطلق النار بنفسى.

لأذ سرييلين بالصمت.

— تعشى المتقولة، أليس كذلك؟

— لا يجوز أن تطلق النار على نفسك— استجمع سرييلين قواه أخيرا وأضاف:— ليس لك حق في ذلك. فيقولون ثائبرا سينا على الآخرين. ولو كنا لنسير لوحدا نحن الاثنين...

لم يكمل عبارته، ولكن زايشيكوف المحقصر فهمها بل وصدق بأن سرييلين ما كان ليسته من حق الانتحار لو كانا لوحدهما.

— ما أشد عذابي— أغلق عينيه— آء، يا سرييلين، لو كنت تعلم ما أشد عذابي. لأن اتحمل! أعلنى منوما يخلصنى من المذاب، أصدر امرك إلى الطيبة لكي تعطىني شيئا، طليت منها فرفضت وقالت ليس عندها نوم. لكنه بفسلك، ربما هي تكذب.

وقد من جديد بلا سرارك وأطلق عينيه وأبلىق شفتيه بشدة. ففحص سرييلين ونحى جارتها واستعصى العلية. فسألها بصوت خافت:

— هل هناك أمل؟

نشرت بيدها الصغيرتين ثم قالت:

— لماذا تسألنى؟ هذه هي المرة الثالثة التي اعتقد فيها بأنه مات أو يكاد. إن يعيش أكثر من ساعات قليلة.

— هل لديك «نوموم» ما؟— سألتها بهدوء وحزم.

تلفعت إليه الطيبة رمية بعينين مظلومتين وأسمنين.

— منزع؟

— اعرف بأنه منزع. على مسؤوليتى. يزيد لديك أم لا؟

— لا— قالت الطيبة وبغى إليه أنها لا تكذب.

— لا اتحمل رؤية عذابه.

— وهل تصور باننى اتحمل؟— أجابت وبأغتت سرييلين بكماء بللى «ديها».

أشاح سرييلين بروجه— عنها رؤوسه إلى زايشيكوف وجلس فريد يشتعل في وجهه.

ذبل الوجه قبيل الممات وبدأ أكثر قوة بسبب شعاعته. وتذكر سرييلين أن زايشيكوف أصغر منه بست سنوات كاملة. وفي أواخر الحرب الأهلية

كان قائدا شابا للفصيلة في حين تسلم سرييلين قيادة فوج. هذه الذكريات البعيدة جعلت الأبح الأكبر الذي يحتضرين بيده أخوه الأصغر يفتحق بعبارة واجتاحت اسمي مريض فؤاد هذا الإنسان الكهل وهو يحنى فوق ذلك. وتفكر سرييلين: جاء، يا زائيشيكوف. كنت انسانا عاديا عندما تدرت عنى. خدمت افضل من الآخرين تارة واسوأ منهم تارة اخرى، ثم قاتلت فى الحرب الفنلندية، وربما قاتلت بيساقه، فليس عشا ان منحوك وسامين. ثم انك لم تجبن فى معركة موغيليف، ولم ترتبك وواصلت القيادة طالما كانت قدماك تحملانك، وما انت راقد هنا تتالجسكرات البوت فى الغابة ولا تدرى ولن تدرى ابدا متى واين ستنهى هذه الحرب... التى تجرعت مرارتها منذ البداية....

ففع زائيشيكوف عينيه ورأى سرييلين قربه فهمس قائلا:

— سدا لو حافظتم على رزم الفرقة على الاقل!

كلاء، لم يكن فى غيبوبة. كان راقدًا يفكر بنفس الشيء الذى يذكر به سرييلين تقريبا.

لم لا؟ قال سرييلين بيقنة — ستعمل الرأية ونفضل حامين السلاح ونبين كيف قاتلنا. فلماذا لا نحتفظ بوزم الفرقة؟ فمن لم فلفطحه، واما هذه كشويى باننا لن نلفطحه...

— كنت سأتحمل لولا فظاعة الالم — واطلق زائيشيكوف عينيه — اذهب، فذلك اشغال! — قال بصوت خافت جدا وبهجه كبيره ثم عض على شفت من جديد بسبب الالم...

فى الثامنة مساء وصل فصيل سرييلين الى الطرف الجنوبي الشرقى من الغابة. وتبين العارطة ان هناك كيلومترين من الاشجار المخمللة، وبمدا يمتد الطريق المام الذى لا يمكن تماشيه بآية حال. ورواء الطريق قرية وسفلة محروقة وبمدا ذلك. فقط تبدأ الغابات من جديد. توقف سرييلين وافراده للاستجمام قبل ان يصلوا الى منطقة الاشجار المخمللة، وذلك توقفا للمعركة ويومر الطريق فى الليل على اثر تلك المعركة. وكان يتعين على الزبال ان يتناولوا طعاما ويناموا بعض الشيء. كان الكتيرون منهم متعبين من زمان وجرحى برون اقدامهم بصموبة، ولكنهم بذلوا قصارى جهدهم لانهم يعرفون بانهم اذا لم يصلوا الى الطريق المام مساء، ولم يبرروا فلا غار كل جهودهم السابقة تضيق سدى، الا يتعين عليهم والمام هذه انتظار الليلة التالية.

تلفد سرييلين الفصيل وتثبت من الدوريات وارسل الاستطلاعيين الى الطريق المام. وبمدا ذلك حاول ان يأخذ قسطا من الراحة فى انتظار عودتهم. ولكنه لم يتمكن من ذلك فى الحال. فما كاد يختار لنفسه مكانا على المشب تحت شجرة غليظة حتى جلس قربه شاكوف. واخرج من جيب بنطاله منشورا ألمانيا باحت اللون وبمدا استقر منذ عدة ايام فى الغابة، ومن التمشور فى يد سرييلين وقال:

— سدا، واطلع. عثر عليه التجنيد واحضروه. لا بد وان الماقرات

القت مثل هذه التناشير.

مسح سرييلين عينيه المورقطين البلمصقنى الروس وقرأ المنشور باعتنام من الله الى ياته. وجاء فى المنشور ان الجيوش السبالبية دحرت وتسلطت وانه تم أسر سة ملايين شخص وان القوات الألمانية احتلت سمولينسك وهى تقرب من موسكو. ويستنتج من ذلك ان المقاومة لا جدوى منها. وبمدا هذا الاستنتاج وعدان: والبقاء على حياة كل من يسلم نفسه للامر طوعا، بين فى ذلك القضايا والمؤولين السياسيوه واطعام الاسرى ثلاث وجبات فى اليوم وتوزيع القذائف المقبولة فى المالم المتمدن لهم... وعلى ظهر المنشور رسم مضطرب واسع عليه من اسماء المدن مينسك وسمولينسك وموسكو فقط، ولكن السهم الشمالى للجيوش الألمانية المهاجمة تجاوز كثيرا حسب القياس العامة مدينة تولوفا، ما بلغ طرف السهم الجنوبي المنطقة الواقعة بين بيتزا وتامبوف. اما السهم الاوسط فيكاد يبلغ موسكو. فان وانضى المنشور لم يتجرأوا بمدا على احتلال موسكو.

— عجا... بيلا — قال سرييلين ساعرا وولوى المنشور واعاده الى شاكوف — سدى انت، ايها الفؤس، يمدونك بالعناية. ماذا؟ هل نستملم؟

— حتى قوات دينيكن كانت توزع مناشير اذكى من هذه — التفت شاكوف الى سينسوف وسأله عما اذا بقى لديه ثقاب.

اخرج سينسوف على الثقاب من جيبه واراد ان يهرق المنشور الذى قدمه شاكوف اليه دون ان يقرأ، الا ان شاكوف لوقف:

— اقراء اولاً، فهو لا يمدى!

قرأ سينسوف المنشور بتجهر مشورى ادهشه هو نفسه. فان سينسوف قتل اثنين من الفاشيين اسم الاول وامس بالبنكية فى البداية ثم برشافة ألمانية، ربما قتل بيديه اكثر من اثنين، ولكنه متأكد تماما من

الاثني عشر. وهو يريد ان يقتل المزيد منهم؛ ولذا فهذا المشور لا يعنيه...
فكر سينتوف والمشور مكتوب بلغة روسية ركيكة، وشماط الثقب
بالغة التي لم تجف تماما بعد واسرق زاوية المشور التي أغتصت كالملوك.
وفي تلك الاثناء استند سرييلين على طريقة الجنود، ودون ان يضع
الوقت، كى يأخذ قسطا من الراحة تحت الشجرة التي اختارها. ودعش
سينتوف عندما رأى بين الحمايات الضرورية القليلة في محفلة سرييلين البدائية
وسادة مطاية مطوية كالورقة. فنهضا سرييلين فانتبه غداء النحيلان على نحو
يثير الضحك ووضعها تحت رأسه بشور من الارتياح.
- احملها منى طوال الوقت هدية من زوجتي! - قال ياسا لسينتوف
الذي كان يتطلع الى هذه الاستعدادات الغنوم، ولم يقل ان هذه الزيادة تذكارية
لان زوجته يشتها له من البيت قبل عدة سنوات فاعدها معه الى السجن
في كولومبا ذهابا وابايبا.

لم يكن شاكوف يريد النوم طالما سرييلين سينام، الا ان هذا
اقتضه بالنوم قائلا:

- ان نتمكن اليوم ان ننام بالتحاف. ففى الليل لن ننام، اذ
قد نضطر الى غوض معركة، لا سامح الله. ولا يستطيع القتال بدون نوم
حتى البغوضون! ثم تفضل علينا واغلق عييك ولو لساعة كالتأجبية في بيت
الذباح.

امر سرييلين بايقاظه سالما يعود الاستطلاعيون، فتهد مرتاحا على
الحشب. وغفا شاكوف بعد ان انقلب على جنبه مرة او مرتين. اما سينتوف
الذى لم يصدر له سرييلين اية توصيات فقد عانى صعوبة كبيرة في الصدود
لقولية الرقاد والنوم. ولو قال له سرييلين صراحة ان بإمكانه ان ينام لما
تحمل ولرقده، الا ان سرييلين لم يقل شيئا، فراح سينتوف يقاوم التعاس
ويقيس القسوة الصخرة التي رقد تحت الشجرة فيها قائد اللواء والبغوض بخلواته
جبية وذهابا. فى السابق كان قد سمع ان الناس ينامون سائرين، اما الآن
فقد يجرب ذلك بنفسه، حيث كان يتوقف فجأة ويفقد توازنه. وسمع من
خلفه خوريشيف ناديه بصوته الخافت المروع.

- ماذا حدث؟ - سأله سينتوف وقد التفت اليه ولاحظ يثقل علامات
الانفعال الشديد على وجه خوريشيف المرح عادة كبريه السنيان.

- لم يحدث شيء. عثرنا على مدفع فى الغابة. واريد اشعار قائد
اللواء.

ظل خوريشيف يشكلم كالسابق بصوت خافت، ولكن سرييلين،
على ما يبدو، استيقظ للكلمة ومنفع. جلس مستندا الى يديه وانلفت الى
شاكوف النائم ونهض يهدوه وأشار بيده كى يلزم خوريشيف الصمت ولا
يقطع المقوض. عدل من وضعية قمصته وأوبا لسينتوف ايضا كى يلحق به
فخطا يضع خطواته فى اعناق الغابة. وهناك سمح لخوريشيف ان يدلى بما لديه.

- اى مدفع؟ السانى؟
- روسى، ومنه خمسة مقائيل.

- هل هناك قذائف؟

- قذيفة واحدة فقط.

- قليل. هل هو بعيد من هنا؟

- حوالى عشرين خطوة.

مز سرييلين كتفيه لينفض بقايا التعاس وطلب من خوريشيف ان

يرافقه الى مكان المدفع.

اراد سينتوف ان يعرف فى الطريق سبب انفعال الملازم الهادى

عادة. ولكن سرييلين سار صامتا طوال الطريق، ولم يكن من اللائق ان

يسكر سينتوف صفو هذا الصمت.

بعد زعاج شمسامة خطوة رأوا بالفعل مدفا مضادا للدبابات من

عيار 82 ملم منصوبا فى اجبة من اشجار الشوح الغنية. وعلى مقربة من

المدفع جلس على طبقة كثيفة من الأوراق الابرية الصغراء المدفون النعمة

الذين بلغ خوريشيف سرييلين بينهم مختلفين بأفراد فصلته.

نهض الجميع عندما رأوا قائة اللواء، ونهض المدفون متأخرين بعض

الشيء، ولكن قبل ان يتمكن خوريشيف من اصدار امره. ويادعهم سرييلين:

- مرحبا، ايها الرفاق المدفون! من هو أمركم؟

تقدم الى الامام تقيب بطلاقة ذات حافة مطفورة ومظلة بشرية

الدفية الاسود. وفى موقع احدى عييه جرح متفتح. واليحق الملوى لعينه

الاشرى يرتجف من شدة التوتر. الا انه وقف على الارض يشات وكأن فميه

القائيتين فى جزمة مرفوعة مشبتان الى الارض بمساير. وربع يده كالتأنيص

النشود، يردنها الموزع المحروق الى حافة طاقتيه المغلورة، واناد بصوت

قوى رنيم باله شينشاكوف تقيب البطارية المستقلة التابعة المشبادة للدبابات

وفى فى الوقت الحاضر أمر الموجهة وقد اوصل المدفع التنبئ من البطارية

عبر المعارك من ضواحي مدينة بريست الى هنا.

— من اين؟ من اين؟ — سأل سرييلين الذى تصور ياته لم يسمع الكلمة الاخيرة بندقية.

— من ضواحي مدينة بريست حيث دخلت البطارية بكامل افرادها فى اول معركة مع الفاشيين — قال النقيب بلهجة قاطعة.

وشيم الصوت.

تطلع سرييلين الى المدفعين وهو يحاول ان يقتنع نفسه بان ما سمعه الآن حقيقة لا جدال فيها. وكلما اطال النظر انهم اتضح له مزيد من الجلاء ان هذه السكاية التى لا يتصورها العقل هى الحقيقة عينها، اما ما يكتبه الامالان فى منشوراتهم عن انتصاراتهم فما هو الا كاذب يشبه الحقيقة لا غير.

خمسة وجوه مسودة انحلتها الجوع، خمسة ازواج من الايدي المرحقة البهكة، خمس قمصلات منهجرة فقرة مزقتها الانفصال، خمس ينادق إمامية انتزعت فى المعركة وبدفع واحد، آثر مدفع لدى البطارية قفل ليس بالجيد بل على الارض، ليس بايجابية بل بايدي الجنود، الى هنا من المحدود على بعد يتجاوز ٤٠٠ كيلومتر... كلا، انكم تكذبون، ايها السادة الفاشيون، لن نتحققا ما رايكم!

— هل علمتموه بانفسكم يا ترى؟ — سأل سرييلين وكاد يخفق بعمراته وهو يشير الى المدفع.

اجاب النقيب، فلم يتشاك الاخرون انفسهم وادجوا يتكلمون وما تذكين بانهم اوصالوه بمتختلف الوسائل: استعملوا الخيل لسحب، وسحبوا بالنفس، ثم حصلوا على غيل من جديد، وسحبوا بانفسهم مرة اخرى... — وكيف عبرتم به العواجز المائية، كيف عبرتم الغدير هنا؟ — سأل سرييلين من جديد.

— على ذلك، قبل لبثتين...

— اما نحن فلم نغير ولا مدفعنا واحدا، — قال سرييلين وألقى نظرة على جنوده جديما، ولكنهم احسوا ياته انك يلمو شخصا واحدا لا غير يلمو نفسه فقط.

ثم تطلع الى المدفعين من جديد:

— يقال عندكم كذائف ايضا.

— قذيفة واحدة، آخر قذيفة — قال النقيب بلهجة اعتاد وكأله مذنب فى سهو فلم يعوض فى الوقت المناسب عن نقص الاخيرة.

— اين انقستم القذيفة ما قبل الاخيرة؟

— هنا، على يد عشرة كيلومترات تقريبا. — اشار النقيب الى الخلف، الى مكان امتداد الطريق العام وراء الغاية — ليلة البارحة دحرجنا المدفع الى الشجيرات قرب الطريق العام ويتصوب مباشر سدينا فزبة الى طابور من السيارات فاصبنا السيارة الامامية فى مقدمتها مباشرة!

— الا تخافون من انهم يمكن ان يشعلوا الغاية؟

— بلنا من الموت، ايها الزئبق قاتل الذئب، فليخافوا منا هم!

— ألم يشعلوا الغاية؟

— كلا، ولكنهم القوا بالالغام فى كل مكان. واصيب آمر البطارية بجرح مميت.

— اين هو؟ — سأل سرييلين باستعجال وراى ينقسه اين هو قيل ان ينسى سؤاله...

فى الجهة التى اشار اليها النقيب بنظراته ارتفع قبر طرى ياهت الفون تحت حشوية قديمة فضحة وباعرية حتى قبتها. وكانت القاس الالمانية الخريضة التى حفروا بها التراب المشوش كى يرفسوه قطعة قطعة على القبر قد ظلت مفروقة. فى الارض كصليب كريمة.

وعلى الصنوبرية المتبقية لا يزال الصمع ينز من سز غليظ عتيق بشكل صليب. وعلى صنوبريتين اخريين الى يمين القبر وشماله حزان عميقان غاضبان وكأنهما يتحديان الصغير ويقطعان بصمت عهدا بالعودة.

اقترب سرييلين من القبر وضع طاقته وتطلع صابتا الى الارض امدا طويلا وكأنها يريد ان يرى من خلالها ما لن يستطاع احد ان يراه ابدا — ربه الرجل الذى ارسل عبر المعارك من بريست حتى هذه الغاية وراء الغدير كل ما تبقى من بطارته: خمسة جنود وبدفعا واخر قذيفة.

لم يكن سرييلين قد رآى هذا الانسان ابدا، ولكنه شغل اليه انه يعرف جيدا. فهو رجل يشبه الجنود رغم المخاض، وهو رجل يجافون بحياتهم من اجل انتشار جيشه من المعركة، رجل ينفذون اوامره حتى بعد معاته. انه الانسان الذى يمثل بكل ما يمكنه من تخليص هذا المدفع وفؤلاء الرجال. ثم ان هؤلاء الرجال جديرون بفائدهم. كان هو على هذا القدر من البساطة لانه راقهم وراققوه...

ارتدى سرييلين ملابته وثد بصمت على يد كل من المدفعيين. ثم اربا الى القبر وقال:

— الاسم؟

— الكاين غوييف.

— لا تسجل شيئاً — شاهد سربيلين ان سينستوف هم بالتصحيح — فلن النساء حتى الرق الأخير، ولكن كلنا بشر وكلنا عرضة للموت. فسيجل! وادرج أسماء المدفوعين في قائمة المقاتلين! اشكركم على حسن خدمتكم أيها الرفاق! أما قديتكم الأخيرة فاعتقد باننا نستخدما هذه الليلة في الحركة.

كان سربيلين قد لاحظ بين أفراد فصيله خوريشيف الواقفين مع البقيتين رأس بارانوف الأشيب، ولكن نظرهما لم تلتقيا إلا في هذه اللحظة، فقرأ سربيلين رياء من فكرة الحركة المرتقبة في هاتين العيتين اللتين لم يتمكن صاحبهما من اخفا نظره.

— أيها الرقيب قائد اللواء! العقيد يدعوك! — لاح شبح الطيبة الصغيرة من وراء ظهور الجنود.

— العقيد؟ — سأله سربيلين. — كان يفكر في بارانوف فلم يفهم في الحال ابي عقيد ذلك الذي يدعوه — نعم، انا قادم، في الحال — قال بعد ان فهم ان الطيبة تقصد زايشيكوف.

— ماذا حدث؟ لماذا لم تستدعوني؟ — سألت الطيبة وقد شدت راحتيها امامها يبراة عندما أرأت الرجال متجمعين حول قبر طرى.

— لا بأس، فلنذهب، لم يسن الوقت لاستدعائكم! — وضع سربيلين يده الكبيرة على كتفها بلاطقة خشنة تحمل الطيبة غوة تقريبا على الاستدارة وسار معها دون ان يرفع يده من على كتفها.

وظل يفكر ببارانوف وهو يسير جنب الطيبة: وأنه مجرد من الايمان والشرع والضمير. عندما كانت الحرب تبوء بعيدة كان يجأ بان النصر لنا، وعندما بدأت كان اول الهاربين. فطالما اترقب واستولى عليه الخوف فذلك يعني، برأيه، انا ان ننصر! كلا! فما عدلك، هناك الكاين غوييف ومدفوعوه، وهناك نحن، الاحياء والاموات، على دولتنا، وهناك هذه الطيبة الصغيرة التي تحملني حتى الممسي بكلها يديها... —

واحس سربيلين في هذه اللحظة ان يده الثقيلة لا تزال مستقرة على كتف الطيبة النحيلة، كيست مستقرة فقط، بل تستند الى هذه الكتف. اما هي فتسير وكأنها لا تلاحظ هذا الثقل، بل ويبدو انها رفعت كتفها عمدا. انها تسير وريها لا تنصوب بانها يوجد في هذه الدنيا اناس مثل بارانوف. فقال سربيلين للطيبة بصوت خنوف مكتوب بمحض الشئ ورفع يده:

— نسيت يدي على كتفك.

— لا بأس، يمشك ان نسيته الى اذا كنت متعبا. فأنا قوية.

واجل، انت قوية — فكر سربيلين — ولن تهلك مع اناس مثلك. تلك حقيقة لا جدال فيها. أراد ان يقول لهذه المرأة الصغيرة شيئا رقيقا مفعما بالثقة يأتي جوليا على افكاره بشأن بارانوف، ولكنه لم يجد ما يقوله لها؛ فصارا صامتين حتى المكان الذي يرفه فيه زايشيكوف.

— أيها الرقيب العقيد! احضرت سربيلين. — قالت الطيبة بصوت خافت بهد ان يادرت الى الزوكر على ركبتيها قرب نافذة زايشيكوف.

ركم سربيلين الى جانبها، فابتعدت جانبها كيلا تسيقه عن الاعترا ب من رأس زايشيكوف الذي سأل بهمس غير مفهوم:

— هذا انت يا سربيلين؟

— انا.

— اسمع ما ساقوله لك — قال زايشيكوف بنفوت اشد ثم صمت. — انظر سربيلين لحظة، وانظر لحظة اخرى، قائلة، ولكنه لم يكن مقدرا له ان يعرف ماذا اراد قائد الفرقة السابق ان يقوله لقائدها الجديد.

— قضى فحج — قالت الطيبة بصوت لا يكاد يسمع. — رفع سربيلين ملاقته بيده وظل لحظة راكما على ركبتيه برأسه عارء، ثم نفخ بصموية وانصرف دون ان ينس ببنت شفة.

عاد الاستطلاعيون وافادوا بانهم شاهدوا دورية الباقية على الطريق العام وسيارات تسير باتجاه نساوي. فقال سربيلين:

— يبدو اننا سنفعل الى الدخول في معركة. اوقظوا الرجال وليصطقلوا! وبعد ان عرف سربيلين الآن ان تقيقاته قد تأكدت وان من المستبعد

بحر الطريق العام بدون معركة تخلص نهائيا من الشعور بالارهاق البدني الذي انهال عليه منذ الصباح. فقد كان مصمما كل التصميم على الوصول هؤلاء الرجال الذين استيقظوا من النوم وحملوا السلاح الى المكان الذي يجب عليه ان يؤصلهم اليه، الى قواتنا، ولم يكن يفكر بغير ذلك، ولم يكن راغيا في التفكير على نحو آخره فلا شيء، غير ذلك، يمكن ان يرضه.

لم يكن يعرف ولم يكن يسمي ان يعرف في تلك الليلة القيمة الكاملة لكل ما حققته افراد فوجيه. وكما هو الحال بالنسبة له وبالنسبة لمؤرويه لم تكن تعرف القيمة الكاملة لآلاف اشقر من الناس الذين قاتلوا حتى الموت في آلاف الاماكن الاخرى يصعد لم يكن الا لمان قد سيرا له الحساب.

لم يعرفوا وما كان يومهم ان يعرفوا ان جنرالات الجيش الالباني
الوقوف آنذاك في زحفه على موسكو ولينينغراد وكيف سينتون بعد خمسة عشر
عاما شهر تموز ١٩٤١ شهر الاماني الضللة والاتجاهات التي لم تحول الي
انتصارات .

لم يكن يومهم ان يتوقعوا اعترافات العدو المبررة هذه في المستقبل،
ولكن كل واحد تقريبا ساهم آنذاك، في تموز بقسمة في المجهود الذي اسفر
عن هذه النتيجة بالذات .

وقف سرييلين يستمع الى اوامر الضباط التي يوجهونها الي جانودهم
باسوات غير عالية . وتمركز الرتل يش، من عدم الانظام في النظام الذي غير
على الغاية . واطل القصر الارجواني المسطح على قنن الاشجار المستنة . وانتهى
اليوم الاول في محاولة الخروج من الحصار...

الفصل السابع

حل هدوء نسبي على الجبهة الغربية بعد معارك يليا الهجومية الموفقة
في اب وايلول ١٩٤١ . كان لواء الدبابات بقيادة المقدم كليوفيتش مرابطا
في غابات يليا الجنوبية . وكانت كتيبة الاستطلاع تشكل بمثابة كتيبة مشاة،
قطاعا دفاعيا طولها اربعة كيلومترات على الخط الامامي .

تقبل بداية الحرب كان كليوفيتش قائدا لواء الدبابات المرابط في ضواحي
ملوشيم . ولم يبق في عداد المقاتلين الا سبعون شخصا من افراد اللواء الذين اشتركوا
في الحرب منذ البداية . بعضهم قتل عندما فك اللواء الحصار عبر الغابات
باتجاه ملوشسك وبوبرويسك . وبعضهم قتل الآخر قتل دفاعا عن موليفيتش ، وبعضهم
الثالث اصيب هناك في معركة يليا .

وتقبل القتال في يليا استكمل قوام اللواء مناصفة من دبابات بـ٧
التدريسية ودبابات ت-٣٤ الجديدة، وفي الدبابات التي سار الجميع يسمونها
اختصارا ٣٤٥ . واتضح ان دبابات ٣٤٥ مشاركة جداء، ولذلك بالذات وقع
عليها العبء الرئيسي لمعارك يليا . كانت كل كتيبة تماني من تقص في عدد
الدبابات، ولكنهم لم يسمحوا اللواء الي المؤخرة بل وعدوه بان يتسلم بعد ايام،
وهو في مواقفه مباشرة، امدادات بالرجال والدبابات . والدبابات هذه المرة من
نراز ٣٤٥ فقط . وسار كليوفيتش الذي اعجب بهذه الدبابات كل الاعجاب
في معارك يليا ينتظر وصولها بفارغ الصبر الى درجة لا يتفهمها الا جندي
الدبابات الذي تمكن باصوبة، مرتين خلال هذه الحرب، ان يفتخر من دبابات
بـ٧ . واليران تلتهمها كلبية ثقاب . كان واضحا منذ اواخر معارك خالخين -
غول (١٩٣٩) ان هذه الدبابات الخفيفة والجيدة السرعة تعاني من ضعف التدرج
والسلح . ومع ذلك استخدم كليوفيتش هذه الدبابات المثقفة بالذات وهو
يواجه الحرب على الحدود الغربية دون ان ينتظر استبدالها بالوعود بدبابات ٣٤٥ .

وفي اليوم الخامس من الحرب كاد كليوفيتش يطلق النار أمام الجنود على قائده إحدى سراياه الذي اجتاحته نوبة من الهياج الماجز فراح يصرخ بمحمور المقاتلين ويصيح بأنه لا يجوز القتال يطلب التقارب هذه ولكنه توسيه بعد ساعة الى المعركة فطلب دبابه الماتية واسترق هو ايضا عل مرأى من كليوفيتش.

انقلب كليوفيتش في معركة يلنيا شعور مزروع: شعور الافتخار بجنوده الذين تمكنوا على الدبابات الجديدة من تعطيل الدبابات الألمانية كما يعلم الدوم الجوز، وشعور المرارة لأنه لم يكن يمتلك في بداية الحرب ولا دبابه واحدة من هذا الطراز، فاضطر الى ان يقضى بدبابتين أو ثلاث مقابل دبابه واحدة العدو، في حين كان يومه ان يقضى بدبابه واحدة مقابل دبابتين. والآن، خلال فترة الهدوء، اصبح جميع دبابات بيت-٧ المتبقية في الكلاو وغرب في اذهان رجاله بمشاد ان بالامكان القتال على هذه الدبابات ايضا، ولكنه كان في حيلته ينتظر وصول الدبابات الجديدة أكثر مما ينتظر اي شيء آخر في الدنيا.

كان يفكر بلوانه ولا يفكر بأي شيء آخر، لأنه ليس لديه اي شيء سواه. قبل الحرب كان يعيش مع أربعة اشخاص، ثلاثة نجبهم والزابع كان يعتبر نفسه ملزما برعايته، وهم ابنته وابنه وزوجته وحملته. وفي اليوم الثالث من الحرب قتل الأربعة دفعة واحدة بقليلة وقمت على سيارتهم في الطريق العام، بينما كان هو يعتقد بأنهم تمكنوا من التزوج بسلام. وعندما يلته الخبر كانت المعركة جارية فلم يتمكن حتى من الذهاب الى هناك ومحمور دفن ما تبقى من جندهم. كان في الثلاثين من العمر، ولو تبادر الى ذهن شخص ما بان يسأله: وأجل، حدث لك حادث لا أقتطع منه، ولكن البراءة امامك فهل من المقول انه لن يوجد فيها ما يستطيع ان يعوض عما فقدت؟» لأجاب بصراحة، في أغلب الظن، رغم نطاعة مصيبي: «وسيبد بالبيع». ولكنه طوال جميع هذه الشهور لم يتبادر الى ذهن احد من اركان الذين سموا صوته القوي وأورا تماثيل وجهه المثلث بالحكام ان يسأله: كيف يفكر ان يعيش بعد الحرب وحيدا؟ ثم هو ايضا لم يفكر بذلك. كان هو نفسه تجسيدا للحرب. وما دامت الحرب قائمة فلم يبق في فؤاده الآن مكان لشيء أو لاسد، بعد هلاك أسرته، ما عدا الحرب ومسالمتها وسماحتها.

في مساء الأول من تشرين الاول جلس كليوفيتش في مقر اركان اللواء، في كوخ مائل قدر من الخارج وظلطف صغيل من الداخل، فهو متزمت

يجب النظافة، - وراح يطالع والعامرات الجديدة الجندی الشجاع شليك. لقد قرأ اكرتية الجيهوين بارتياح هذه الاقاميس التي انها كاتب جيهوى ساخر، الا انها لم تعجب كليوفيتش. قتالما يفريرونا أكثر مما نضربهم، نحن السابق لاوانه الاستهزاء بهم. ربيع ذلك قرأ تلك الاقاميس لانه تعود على قراءة الجريدة الجيهوية من التي انها ياتها يمشا عما قد يكون نالما من انجاسية العلية للخدمة العسكرية.

رن جرس التليفون على الطاولة. بنسخة مبحوسة. انقطع كليوفيتش الساعة يد ان ملوى الجريدة على المكان الذي يلته في مقالعتها كيلا يصرف جهدا فيما بعد للثور على ذلك المكان. كان على الطرف الثاني من السلك أمر الكتيبة الاستطلاعية الذي افاد بوقوع حادث طارئ. ففى مؤخرة الالمان، امام مقدسة الكتيبة، اندلعت اصوات متكررة لاطلاق النار من ارشاشات والبنادق ارشاشة والماديه، كما سمعت انفجارات قنابل يدوية. ايد كليوفيتش الساعة عن اذنه وفتح مصراعى النافذة وانضت. وانفطحت الاذن المدربة اصوات معركة نائية لا تكاد تسمع. وقال كليوفيتش للساعة:

- انا متوسيه اليكم، انظرونى.

كان الطرف الامامى القاذبة محتجا ووطيا، فقد تسافلت ثوا زخات قصيرة من البطل. سار امام قائده اللواء كليوفيتش الليفتنانت الذي يمشو لاستقباله. وكان كروما يديه القافضين على البندقية ارشاشة فائتين من تحت السعف الشيع الميل. عندما مر كليوفيتش قرب دبابه بيت-٧ الموهقة في خندق عميق فكر في الشيء ذاته الذي يشغل باله طوال الوقت: «حيدا لو استلمت دبابات ٣٤ بأسرع ما يمكن!».

كان مركز المراقبة منتصبا في آخر طرف القاذبة. وفي النهار يرى يوشوح من هنا مرج اخضر لم تجش اعشابه، هايك بالندار نحو الجندول، ومرج آخر صاعد بنفس زاوية الانحدار الى القاذبة، ولكن على الضفة الاخرى، الضيقة الألمانية. وعلى السرج تقف جينا الى جنب دبابتان محترقتان، احداهما سوفيتية من طراز بيت-٧ والاخرى الماتية من طراز ت-٤. ظلنا واقفين على هذا النحو طوال شهر تقريبا كثرأون لا يفرق بينهما احد.

وفي الامام كانت تصاعد فوق اماكن مختلفة من القاذبة التي يعلتها الالمان صواريخ الاشارة البيضاء والحمراء ويطلع ويضئ الانفجارات. ولم يد تبادل تزيان الرشاشات والبنادق على مسافة كيلومتر ونصف وراء السط الامامى الالمان، كما افاد أمر الكتيبة الاستطلاعية قبل نصف ساعة، بل نقا قريبا

جدا. والساعة من هنا سعى الخط الامامى للالمان اربعمائة متر، وتبادل إطلاق النار كان كل بعد خمسمائة متر تقريبا وراء ذلك الخط، اى فى الاماكن التى يمر بها الخط الثانى من خنادق الالمان حسب معطيات الاستطلاعات.

انتقل الى كليوفيتش الاضطراب الذى اجتاع جميع الحاضرين فى مركز المراقبة، فقد كانوا جميعا يفكرون بالشئ ذاته ويخشون تصديق ما يفكرون به. - يا ايفانوف، فلتتوجه الظروف الى الدياتيات! - امر كليوفيتش كسر الكتيتة الاستطلاعية بعد ان استمع الى تقرير عن المراقبات التى تمت خلال الثلاثين دقيقة الاخيرة.

- حسب امرك. ستتوجه الظروف الى الدياتيات! - قال ايفانوف ولم يتمالك ثقبه فسأل: - هل منضرِب لملقاتهم ايتها الرقيب المقدم؟ - سنقرر حسب الظروف. نقل الامر!

هبط كليوفيتش الى المخفى وأمر سجنى الهاتف بان يتصل بآركان الجيش.

كان قد تلقى الى الجيش للمرة الاولى قبل ان يتوجه الى هناك، ولكنه حان الوقت للاتصال بالجيش من جديد. وتبل ان يتمكن الجنى من تدوير مقبض الجهاز رن جرس التلفون، فان آركان الجيش نفسها ظلت قائد اللواء. وقال قائد الجيش:

- ماذا ترى هناك؟ اخبرنا!

ذكر كليوفيتش انه يرى الصواريخ ووميض الانفجارات وان معركة تدور فى مؤخرة الالمان وان المسافة من مركز المراقبة حتى مكان المعركة ثمانمائة او تسعمائة متر.

- جارك الايسر يقول الشئ ذاته. ولكن المعركة الى يمينه. كل شئ يجرى امامكم مباشرة، على جبهة ضيقة. ما هو تقديرك للموقف وما الذى تنوى فعله؟

اجاب كليوفيتش بما كان يفكر به هو ويفكر به جميع الموجودين فى مركز المراقبة: ان وحدة تحاول فك الحصار فى قطاعهم بمعركة عبر الخط الامامى الالمانى. وطلب المساح، بعد ان اعد الدياتيات، باجراء استطلاع من خلال الفتال على يمين وشمال القطاع الذى تسمع فيه اصوات المعركة فى مؤخرة الالمان.

صمتت الساعة يضح ثوان، ثم قال القائد ان المعلومات المتوفرة لديه نافية بعدم وجود اية وحدات مطلقة وبمحاصرة من زمان فى اقرب مؤخرة للالمان،

وربما يكون ما يسمعه استقرازا ذكيا الهدف منه جعلنا على التفهم الى الامام فى البداية ثم سحقنا والانفداع على اجسادنا الى ولاقنا.

- ماأشد هذا الاحتمال بنظر الاعتبار ايتها الرقيب القائد، وسانخذ اجراءات الحذر وصاروك دياتيات ٣٤ فى كمين.

- كم بعدها عنك الآن؟ ١١٩ - فاطمه اتقانه.

كانت كل دياتية من طراز ت. ٣٤. آنذاك ذات قيمة كبرى على صعيد الجيش كله، فكان قائد الجيش يفكر بعدها.

- ١١٩ - اكد كليوفيتش - ومع ذلك فاذا كانت وحدة من قواتنا مختفقة الحصار فكيف لا تساعدها؟ - سمع كليوفيتش اصواتا لم تكن كلماتها واضحة. ربما كان قائد الجيش يتحدث قرب التلفون مباشرة مع احد اعضاء المجلس الحربى او مع رئيس الاركان. وبعد دقيقة قال:

- اقبل. واخبرنا كل نصف ساعة.

وضع كليوفيتش الساعة، وشرع بالاستعداد للهجوم دون ان يشيع الوقت. اخذ الساعة من جيبه وتحدث مع امرى الكتائب واصدر اوامره. اما المعركة فى الامام فكانت تهدو وترعد متحركة تارة الى اليسار وتارة الى اليمين، وتقترب الى الامام تارة وتبتعد اصواتها بشكل متناق تارة اخرى. كلا، ليس ذلك استقرازا، فهناك على يد ثمانمائة متر من هناك، بين غطلى المواقف الالمانية، الاول والثانى تحرك الناس وتدفوا الفسحايا وعاولوا اختراق الحصار. وها هم ينسحبون الى الوراء مطولين من جميع الجهات بيزران الالمان الذين تحركوا هم ايضا وراسوا يضيئون الخناق عليهم لحظة بعد اخرى. ويخيل لهم انه هناك بين المواقف الالمانية يهيم قلب سى يترب دما وتنهش من جميع الجهات. وضعت الرصاص وصلبات الرشاشات والفتجايات الثقافات...

ولو امر قائد الجيش بعدم نيجة الحاضرين الذين اجتازوا فى اغلب الفل مئات الكيلومترات وها هم الآن يهلكون على يد خطوات من مواقع قواتهم لكان ذلك احلك يوم فى حياة كليوفيتش العسكرية. ولو تبيأ له احد مسبقا بأنه سيقبل من كل يد بعد ثمةتهم لتوجه الى هذه المعركة مع ذلك بدون اى تردد.

وعندما زحف هذا القلب الجريح التهوئى، هناك بين المواقف الالمانية، بالثقافة دموية ياتسة اخيرة الى الامام مسافة مائتى متر نحو الخط الاول من الخنادق، وعندما اقتربت دياتيات ت. ٧ الثانى مع مائة وخمسين من افراد الكتيتة الاستطلاعية نحو، لم يكن ذلك مجرد هجوم ليل جسر، بل كان تحركة

روسيا منبأً وعيناً لجميع الذين تتكون منهم الكتيبة الاستطلاعية بعد ان نقلت صفوفها في المعارك البرية.

انفتح ان فكرة كليوفيتش في تسديد الضربة الى شمال ويمين القطاع الذي اخترق منه اعداؤه الحصار من المؤخرة الانائية كانت صائبة. وقد آتت ثمارها فوراً.

تظاهر الالمان عبر الخنادق وممرات التوصليل الى مكان الاعتراق المنتظر لكي يلقوا سجنه الضيقة بسداد من الاجساد الحية. وعندما صفوا من الجانبين زفير مجرعات الدبابات والهبات الروسية «لورا» اعادوا يتوزعون على عجل من جبهة في الخنادق على الشمال واليمين. ان هذا التمركز المكون في الليل لا يد وان يثير البلبلة. وحدثت تلك البلبلة بقوة اشد لان اختراق الحصار من المؤخرة والهجوم من المقدمة كانا مفاجأة مزدوجة بالنسبة للالمان.

توقف القتال بعد ساعة. كان يدلع احياناً هنا وهناك، ثم يهتف نهائياً، ثم تصاعد صليات رشاش متاعرة في مكان ما في الظلام وكأنها تطرق دلو قارفاً. فقد كليوفيتش دبابتين انجمرت بهما الالغام الالمانية، وبسر خمسة عشر مقاتلاً سقطوا بنيران المدفعية كلتا ضفتي الجداول. ولكن حتى الحسابات البليدة غير الدقيقة اطلاقاً تفيد بان كتيبة كاملة - اكثر من ثلاثمائة شخص - تمكنت في بلبلة القتال من اجتياز مواقع الالمان. وهذا هم، هؤلاء الأشخاص الذين اخضعهم القرعة، لا يزالون يقضيون على السلاح وهم يجاء موزون الالسية، جرحى واصحاء، يتوزعون على الخنادق والمخابئ، التابعة لقواتنا المدرسة.

عندما كانت كساحات الجليد والمضاربات التابعة لسته بلدان تملى على انقاذ بنة قويله، وندمهم ١٢ شخصاً، من الكتلة الجليدية راحت كل محطات العالم الاداعية فتابع تلك الاحداث. وكثبت كل صحف العالم عن الطيارين الذين انقلوا من اسر الجليد وكاب الباحرة السوفيتية «تشيلوسكين». وكانت عشرات الملايين من الناس تنتظر بفارغ الصبر انباء الحملات الثلاث التي قوبلت دفعة واحدة الى الكتلة الجليدية «القلب الشمالي» لاقاد اربعة اشخاص.

اما ما حدث خلال تلك الليلة في قطاع الكتيبة الاستطلاعية التابعة للواء الدبابات الـ ١٧١ فقد شغل نصف صفحة فقط في ثثرة البلاغات الجبهوية المتعاقبة، ولم يشر حتى في بلاغات مكاتب الاستعلامات. الا ان اعظم فرصة بين كل الافراح الجبيرة بالانسان هي فرصة اناس انقلوا اناساً آخرين. ولم تكن تلك الفرصة قليلة ابداً لان احداً لم يكتب عن هذا الحادث. جس

المنقول والتاويل جنباً الى جنب في كل منبأٍ من منبأٍ لواء الدبابات بقيادة كليوفيتش، وراحوا يتعاقبون ويتبادلون الآراء ويقاطعون بعضهم بعضاً باحاديث غير مترابطة عما حدث وكيف حدث. اكادوا الرغيف والعصيدة والحلوى الحلوة حتى الشبع وغفلوا في نوم عميق على الاسرة والتخت وعلى ارضية المخابئ، وعلى اغصان الشوح الابرية الشائكة.

في المعركة الاخيرة جرح قائد المجموعة التي اشتركت الحصار سريبين يكاتيا سايف. سجد مراقبه واثنان من جنود الرشاشات على معطف الى داخل كوخ كليوفيتش ووضعو على سرير خشبي قرشت عليه بطانية مضربة زرقاء. وقد قائد اللواء سريبين بقائه الطويلة الوسعة وقتحه غير الحليق ورأسه الاصلع وقد تدلت منه شمرات شبيهة على الواسائد البيضاء المائلة، ولكنه يرتدى برنزه العسكرية بالكامل، وعلى صدر قمصانه وباسم الرتبة الحمراء، وعلى طرف ياقته المتسحفة شاراتاً معينتا الشكل، اسداهما حقيقة ذات مينا، متشتر، والاخرى صوفية منتزعة من شريط الطافية.

استند سافا سريبين بالنيطال الممزق في اعل الركبتين على البطانية الزرقاء وكان الدم يتجسس منهما عبر لثافت الشاش الملطخة بالاصباح. وبمه ان وضعه الجنديان على السرير خرجا من الكوخ مع مراقق كليوفيتش الذي اسرع لاصطحابهما واطماهما، بينما ظل مراقق سريبين - وهو مرشد سياسي متب وقارع القامة - واقفاً كالملك العارس عند رأس قائده وراح يتطلع في وجهه طوال الوقت من اعل الى اسفل يد ان استند يكويعه الى ظهر السرير، جلس كليوفيتش على مصعبله قرب السرير.

- ايها الرقيق قائد اللواء! دعوت الطبيب وسيحضر في الحال. اسمح لانا بان نقسمك قبل ان نحدث.

- لا داعي للطبيب، ايها السدم - قال سريبين يشفيتم تتعذران بصموية - نفلاني الى الكتيبة الصحية مباشرة. فهذا لا يمكن اجراء عملية. ولكن في البداية اعطاني قائد الجيش بالقفون. هل عندك تلفون؟

- نعم.

- من هو قائد جيشكم؟

ذكر كليوفيتش لقب القائد. فسأل سريبين عن اسمه ولاع ظل ابتسامة على وجهه المروق:

- سرغي فيليبوفيتش، أليس كذلك؟

- نعم.

— درست معه في الأكاديمية! اعطيه!

لم يترصد كليوفيتش وراح يتلفت إلى القائد. ففى كل الاحوال عليه ان يقدم تقريره الى القائد. فقد تأخر عشر دقائق بسبب الانشغال وقال عندما رفع القائد الساعة:

— المقدم كليوفيتش يتكلم. بنتيجة القتال وصلت الى موافقى مجدوة من حوالي ثلاثمائة شخص يحملون السلاح. قائد المجموعة يريد ان يتحدث معك: اعطه الساعة— قال القائد.

استدار كليوفيتش متحاشيا الطلوة وسحب السك من تحت قوائنها وقرب الدفون من وسادة سرييلين الذى وضع رأسه فرأى وبه مرافقه وأشار إليه بنظرة فهمها ذلك فى الحال فدخل من الموائد وساعد قائد اللواء فى التهوؤ قليلا. وقال الجريح فى الساعة ليس بصوت هادئ، كما كان يتكلم مع كليوفيتش، بل بصوت مرتفع على قدر ما يستطيع:

— ايها الرقيب قائد الجيش! يكلمك قائد اللواء سرييلين، اوصلت الى مراقبتكم فرقة المشاة السادسة والسبعين بمدد امانته والى عهد بها الى... مرحبا يا سرغى فيليوفيتش، سرييلين يكلمك...

وفى تلك اللحظة قط، عندما تلفظ الكلمات الاخيرة ارتعش صوته واخشتق بعمقته، وانهار على جنبه مع الوسائل التى لم يتمكن الدرافق من الامساك بها لشدة الضمامة. سقطت الساعة على الارض. رفعها كليوفيتش وسمع الكلمات التى قالها القائد وهو يتصور بان سرييلين هو الذى يستمع اليه.

— سرييلين؟ اى سرييلين؟.. أهن انت يا فيودور فيودوروفيتش؟

قال القائد بالساعة التى اتفعلها كليوفيتش لان سرييلين ركد مقعيا عليه. اتسنى الطبيب المسكرى الذى وصل واكضى على الجريح، وراحت العمرة تضج على المضغلة باستعمال اربعة ابر الحقن والامبولات.

— لماذا لا تتكلم يا سرييلين؟ انت ام غيرك؟ اى سرييلين انت؟ لماذا لا تتكلم؟— كان القائد يصيح بالساعة.

تطلع كليوفيتش الى سرييلين القائد الوهن ونسى ان عليه ان يقول للقائد من زمان ان الذى يسمعه الآن ليس سرييلين، بل كليوفيتش.

— ايها الرقيب القائد— قال كليوفيتش اعيرا بعد ان اشاح بنظرته عن سرييلين الذى راحت العمرة تمسك يده بالقليل والآن قيل ان تحضن بابرة— بكاء المقدم كليوفيتش— قائد اللواء جريح، وقد اغشى عليه.

— صف لى منظره. هل هو نجيت طويل واصلع بعض الشيء؟

— بالضبط — اجاب كليوفيتش دون ان يتطلع الى سرييلين.

قد انطمت فى ذاكرته مدى الحياة صورة سرييلين النحيف الطويل الاصلع بعض الشيء. وانطمت فى ذاكرته ان احدى اللواتين المينتين محكومة البناء والاخرى منتزعة من شريط اللطاقة، وان حل صدره وسام الراية الحمراء، وان رجل يظل الجيش معه جيشا على الدوام حتى وان انسحب من الحدود الى بيليا. انه انسان لا داعى لنظر اليه مرتين لكن يفهم البره ويتذكر اى انسان هو.

— ات هوى سرييلين!— صاح القائد فرما بالثقلين— من اين جاء؟ لقد كان...— كاد القائد يقول لكليوفيتش ما لا داعى لقوله، ولكنه اضاف بانة يحصل ينضه الى اللواء— هل عندكم طبيب؟ ماذا يقول الطبيب؟

— عندنا طبيب ايها الرقيب القائد، سأأمله.— التفت كليوفيتش الى الطبيب— سباني قائد الجيش الى هنا الآن. وهو يسألك عن حالة قائد اللواء. كان الطبيب متحيا على سرييلين وهو يجس فيه.

— لا داعى للمجى الى هنا— قال الطبيب دون ان يلتفت— مناضح قنط الرقيقين، ومنشفة الى الكتيبة الصحية، الى غرفة العمليات مباشرة. فالوقت ثمين جدا. اخبر قائد الجيش بذلك.

اغذ كليوفيتش الساعة من جديد:

— ايها الرقيب القائد. الطبيب يقول ان من الضرورى نقل قائد اللواء قورا الى غرفة العمليات فى الكتيبة الصحية— تأوه القائد بالساعة واطلق بصوت خافت شجعة مبررة.

— اخبر الطبيب، اذن، بان ينقلوه. وقل له بانى سأتى الى الكتيبة الصحية، ربما ستمكن من الوصول قبل العملية... كلا، لا تقل له. فأريما ينقلون هناك ويخطون فى العملية... قل له بانى سأتى الى الكتيبة الصحية بعد العملية مباشرة. وبعد ان يثبوه نقلن الى رئيس الاركان واخبره بما تبقى. اما انا فلن عتدى شيء اضيف.

بعد عشر دقائق احضروا النفاة ووضعوا سرييلين عليها. ورافقه كليوفيتش مودعا حتى السيارة الصحية. وثبه مراقب سرييلين... اراد ان يصعد الى السيارة يد الطبيب والمنرفة، ولكن الطبيب قال له بانة ليس هناك مكان فى السيارة، بل وليست هناك ضرورة لذلك.

— مهما يكن من امر، ايها الرقيب الطبيب، فانى ساذبح منكم— اصلح الدرافق بدتن السيارة الصحية. فالتفت الطبيب الى كليوفيتش مستعينا به:

— ايها الرفيق التقدم!

الا ان كليوفيتش باغت الطبيب بان ايد المرافق، فهو يرى ان من الطبيعي ان يذهب المرافق مع قائده الى الكتيبة الصحية.

— لا بأس، ايها المرشد السياسي، اصعد الى السيارة، فلا بد من وجود مكان فيها. ثم عد بنفسك هذه السيارة.

— اذا سمح قائد اللواء.

— مفهوم. ولكن اذا عدت نعال الى مباشرة.

تحركت السيارة وصاح منها المرشد السياسي:

— ايها الرفيق التقدم، اخبر مغرورنا شاكوف ياتي وافقت قائد اللواء! وابتعدت السيارة.

ذكر كليوفيتش لحظة ياته كان قد رأى هذا المرشد السياسي الفارع الفاتح، ثم عاد الى الكوخ ونقل التلفزيون الى مكانه السابق وقلع الى مساعده لشؤون المؤخرة ليحذره من الاقراط في اطعام المقاتلين المنهكين ومن تقديم الفودكا لهم في غرفة الفرح.

فحاول ذلك ان يجيب بكنة في التلفزيون:

— ليس بالامكان تنقيده كرم الضيافة عند جنود الدبابات.

فرد كليوفيتش بدهجة قاطعة:

— سأل ان تنقده. وخلال هذه الليلة هي لهم جميعا امكانية الاستحمام.

وسكون ذلك ضيافة افضل.

وبعد ذلك تلقى الى مغرور اللواء وسأل منه عما اذا كان موجودا قربه شاكوف مغرور المجموعة التي اخترقت الحصار.

— نعم، موجود. اصيب بدمية بسيطة. فقد انقصر لعم فربه ولكنه الآن

بخير بعد ان أخذ قسطا من النوم. وسوف نتناول طعام الغداء الآن.

— حسنا، تناولوا عشاءكما. وسأتي اليكما انا ايضا الآن. — قال كليوفيتش،

واصدر امره لمرائنه باجراء اللازم في حالة عودة المرشد السياسي المعيت. وخرج من الكوخ.

كانت غيوم ريادية مرسقة واطقة تجوب السماء وتطاردها الريح. وبين

تلك الغيوم قومض نجوم الخريف الياقة. وشبه على الجبهة هدوء موات حتى لكأن القتال لم يحدث فيها إطلاقا.

وفي تلك الاثناء كان سينتوف يتخرج في السيارة على طريق النابية

التموج، وهو جالس القرفصاء عند رأس سربيلين.

في منتصف الطريق اعتماد سربيلين وعيده ولكنه ظل صامتا. وكان بين احيانا عبر اساقفه المصمتة عندما تهتز السيارة على تنوعات الطريق. واخيرا سأل: — الى اين نحن؟ الى الكتيبة الصحية؟

وعندما سمع صوت سينتوف وعرفه طلب منه، بعد الوصول الى الكتيبة الصحية، ان يعود الى الفرقة. هكذا ظل طول اكثر من شهرين يسمى يناد تلك المجموعة من المقاتلين الذين اخترقوا الحصار حاملين السلاح. وما هو الا ان ايضا يسميهم بنفس الاسم.

— اريد ان ابقى معك — قال سينتوف وهو يفكر بالكتيبة الصحية

والسليبة المرتقبة.

ولكن سربيلين فهمه على نحو آخر وقال:

— كلا، يا اخي. بهذه الطريقة ستذهب معي الى الاورال. فهل يعلم احد اين سيباليجونتي؟ ومتى ستعارب اذن؟ ان الحرب في ميعاتها الآن! — يودى ان انتظر التسمية فقط...

— ذلك ممكن! — قال سربيلين بعد ان فهم قصده — اعتقد، حسب

فهمي كمضيق سابق، ان الجراح ليست خطيرة، ولكن الامر الخطر هو كثرة الدم الذي تروث.

تهدأ ثم سأل بنته:

— هل تتذكر كيف كانت طيبتنا تبكي لان من غير الممكن نقل

لدم الى الجرحى اثناء الحصار؟ المقاتلون مستعدون لتبرع بالدم ويداها هي ماهران، ولكن نقل الدم غير ممكن. ليست هناك ادوات ولا مخزون... اجل،

يا اخي، ما اسوأ ان يكون الدم ازيل، ليس هناك ما هو اسوأ من ذلك.

وبالنسبة الى قنصها، واهتم بها!.. قل لشاكوف ان يهتم بها، واهتم

بها انت ايضا... — لمس سربيلين، وهو يقول هذه الكلمات، يد سينتوف

بيده الباردة من كثرة ما فقدته من دماء.

احس سينتوف بهذه التلمسة فقال بصوت مرتعش:

— ايها الرفيق قائد اللواء...

ولم يعرف ماذا ضيفت الى تلك الكلمات.

لم يكن في هذه الحرب يفتش فقدان احد اكثر من فقدان سربيلين،

ولكنه لا يستطيع بالطبع ان يستغفقه بصوت مسدوع: «ايها الرفيق قائد

لواء لا تمنا!».

كان كل العاملين في الكتيبة الصحية مشغولين جدا. فقبل وصول سربيلين

كان قد نقل إلى الكتيبة كثير من المصابين بجروح شديدة .
ولم يكن هناك محط رجل في شعبي استلام وتوزيع الجرحى والتخفيف
لتعليمات .

حاولوا نقالة سرييلين على عجل من السيارة وفتحوا مشمع باب خيمة
استلام الجرحى ودخلوها .

دس سينتوف نفسه وراء النقالة وشاهد في ضوء المصابيح الاصفر
لباهت المرة الأخيرة وجه سرييلين الشاحب الذي اكتسى بصحة زرقاء مائلة
إلى بياض . وقال سرييلين وكأنه يريد على وجه سينتوف الصامت :
- لا تخف ، لن اموت . فما بيت من اجل ذلك .

المرضون المتعبون يحملون النقالة يسيرون كثيفة من لفافات مريولة .
اكتافهم تهتز وتزتمش ، ووجه سرييلين يرتشش معها .

ولى ملاقاتهم حمل مرضون آخرون نقالة عليها شخص مغلي بشرشف .
ولعله ميت . انزوى المرضون في الممثل ووضعوا النقالة ثم حملوا سرييلين
إلى زحمة العمليات .

ظل سينتوف ينتظر قلما حوالي الساعتين قرب زحمة العمليات ، واخيرا
خرج الطبيب العسكري الذي رافق سرييلين من لواء الدبابات وقال بانهم اجروا
له نقل الدم واستخرجوا رصامتين ، وان قلبه تحمل ، ويمكن القول بأنه
لا يوجد الآن خطر مباشر على حياته . واضاف الطبيب بحدقة :
- في الوقت الحاضر .

الا ان سينتوف لم يسمح هذه الكلمات الاخيرة . فقد فهم الشيء
الرئيسي : سيعيش !

وامتلا فؤاده كله بفرحة العودة إلى رفاهه ، تلك الفرحة التي كانت
ترشح تحت قفل القلق على حياة سرييلين .

اتبع الطبيب العسكري بان ينتظر عشر دقائق وتوجه إلى آمر الكتيبة
الصعبة لكي يتلغن منه إلى شياكوف .

اراد آمر الكتيبة الصعبة ان يقتنه بدم المخابرة . فان قائده لواء
الدبابات التقدم كليوفيتش تلغن إلى هنا واخبروه بكل شيء ، كما
اخبروا المسؤولين في الجيش . الا ان سينتوف اسر على رأيه كالأصم ،
فتمكنوا في آخر المطاف من النور على شياكوف ، حيث اتصلوا بلواء
الدبابات عن طريق غير مباشر ، عبر اركان قرية المشاة التي تتبعها الكتيبة
الصعبة .

اخبر سينتوف شياكوف بالالفون عما سمع هذا من كليوفيتش فيما
يقص العملية وسالة سرييلين الصحية . ولم يكتف سينتوف بذلك فاضاف
بأنه سيأتي إليه ويحدثه شخصيا مرة اخرى . فخفت شياكوف من حساسه قائلا :

- حسنا ، ولكن فلتوكل ذلك إلى الصباح . فقد غلثت جزئي واريده
ان انا ، ثم انه حان الوقت لك ايضا كي ترتاح وتهدأ قليلا .

الا ان سينتوف لم يمد يرف السبيل إلى الهدوء .
احتسب الشئ الساعين والتمسك بالبساط على عجل ونهض قائلا بأنه
في عجلة من امره . واثاء الترويع اسلك فجأة بكوع آمر الكتيبة الصحية
وراح يوضح له سيدا طول غمس دقائق اخرى من هو سرييلين وما هي
اهمية بقاءه على قيد الحياة .

وبعد ذلك راح يتحدث بنفس الحساسة طول طريق العودة وقد فتحت
فريقته ، وهو يشرح تليبيب العسكري النسان كيف تمكنوا من فك الحصار .
وحتى عندما وصل إلى كوخ كليوفيتش لم يربط في النوم فورا عل
السرير الذي اعد له خصيصا .

ثم يمكن كليوفيتش موجودا . وقال مراسله النسان متبرما ان المقدم
توجه إلى الخط . الامامي ليتأكد شخصيا من كيفية سحب الدبابتين اللتين
انفجرت بهما الانعام تحت جنح الظلام .

في البداية صمم سينتوف الذي عمرته فرحة الانفعال دون ان تفارقه
ان ينتظر عودة المقدم ، ثم تمشى داخل الكوخ وأخذ يسأل الجندي المراسل
عما اذا كان لواء دباباتهم قد فك الحصار ام لا واين ؟ واخيرا طلب منه ان
يتأكد مما اذا كان الحزام ساعنا وعلى يتمكن من الذهاب للاستحمام الآن
بالذات وليس في الصباح .

وذكر المراسل : وبألبطشان ، اي حمام الآن؟ حيدا لو وقد انوم
قبل ان تنهار ساقاه ولكنه لم يقل شيئا ، بل استدار وتحنن وتخلع معاذفه
من سمار على الجدار وتوجه للاستفسار بشأن الحمام .

عندما عاد كان سينتوف يغط في نوم عميق وهو جالس على السرير
وقد تلى رأسه على كتفه .

من الجندي رأسه ثم خلع جزمة المرشد السياسي المبللة الدهشة وقد
لقاف ساقيه الاسود كالسباح واملسك يكتفيه والقاء على الوبادة .

عندما فتح سينتوف عينيه كان الكوخ مضيقا وكان كليوفيتش بجزوته
وبنظامه وقائمه جالسا على مصطبة امام مرآة معلقة على الجدار . وقد لف

رفقة بمشقة خفيفة وراح يملق شعره. التفت إلى سينسوف نصف التفتاة والموسى بيده، ومغتم رأسه حليق، والنصف الثاني مغلى برغو الصابون وقال: - ما قد استيقظت اميرا.

- ايها الوليق المقدم - قال سينسوف وقد غصص سابقه من عل السرير وراح يتفلق بانتياء الى مخيفه - ألم اخطي السمع امس؟ لتيك كليوفيتش، ايس كذلك؟ - بل. - ثم ماذا؟ - انا سينسوف. - ألا تعرفني؟

وضع كليوفيتش الموسى صامتا على وف النافذة وراح يتأكد، كأنما للمرة الاخيرة، مما اذا كان ذلك ممكن الحدوث ام لا. تلقف نظره هذا الانسان النحيل المريض المتكين بذهنه غير الحليق وهو ينهض من السرير. وثوبه كليوفيتش لملقاته على عجل. تماثقا. واغرورت عينتا سينسوف بالدموع نتيجة الغضب والاضغلال. وقال كليوفيتش ياسا:

- فكرت امس بانى كنت قد رأيت هذا العرشه السياسى سابقا! - اما ان اقم لمنك من معرفتك بهذا الرأس الحليق، لو لا لتيك. - حايت على النصف - تذكر كليوفيتش وعاد الى المرأة ليكمل الحلافة. لربها كانا سيفرحان لقاء بعضهما البعض فرحا اكبر فى ملايسات وظروف اخرى. الا ان لقاء الامر فى المعركة كان يحد ذاته اقصى خسة يتمكن البشر من الاحساس بها.

كانا سيدين حقا يوم امس، اما الآن فهما مسروران لقاتهما ولتسكنهما من الضرب على بعضهما البعض رغم الانفطاع والفراق منذ سنى الدارسة الابتدائية. ولذا غدا السور بينهما اكثر حرسا. وقال كليوفيتش وهو يغلى رأسه برغو الصابون من جديد قبيل مواصلة الحلافة:

- اسوال فائد لا بأس بها. نفلو من الكتيبة الصحية، ويقال انه يستقل بالطائرة الى سيكو. قد سألو عنه من حيث اركان الجبهة، بل وربما من مقر القيادة العامة! وزاره قائد الجيش بنفسه منذ الصباح. لماذا لا يزال برقية قائد لواء؟ ألم يكتب الوقت لتركه؟

- لم يكتب. - اجاب سينسوف دون ان يخوض فى التفاصيل. كان قد سمع بهانى سرييلين، ولكنه الآن يد شويين من الشتاء، لم يفكر بالحدث عن ذلك. - يبنى ان فركتا شيتي يدون قائة ...

- لو كانت فرقة حقا علموا لها على قائة! - رد كليوفيتش - ماذا، هل كنت فيها منذ البداية؟

شرح سينسوف بمتى الاياماز، وايماز ادمته هو نفسه، قصة تجواله قبل ان يلتحق بسرييلين.

- يبنى انك همت حل وجهك وصرت جنديا - قال كليوفيتش يضحكة استصاح - جمعت انا ايضا كثيرا من الهامين خلال خروب من الحصار. وبينهم مقاتلون شجعان يصعب حل حتى ان اتصور كيف غشت بدورهم! تدا فؤاد سينسوف من هذا الاطراء غير المباشر، فذكر ما كان يفكر به مرارا عندما شربوا من الحصار، قال انه لن يطلب العودة الى الجريدة، وسيظل فى الفرقة.

- فى حالة ما اذا احتفظوا بها ولم يرتدكم جديا. لقد جاء مسؤولون من الجيش ومن الجبهة انظر فى قضيتكم. ولا ادري ما هو رأيهم ... - ما الداعي للنظر فى قضيتنا! لقد تخلصنا من الحصار كوسدة عسكرية بالبراز والسلاح والرماية ...

- لو كان الامر على غير ذلك لكان مصيركم يختلف تماما، ولأرسلوا عباد الله من اثنائك الى الاختيار المنصوص عليه قانونا ولتمنيم كثيرا: من انتم ومن اين جنتم ولماذا ومتمت فى الحصار ولماذا خرجتم منه؟ - ايشم كليوفيتش ابتسامة مزينة عندما تلفظ الكلمات الاخيرة. فزعل سينسوف وقال: - هل هناك ما يستحق الابتسام؟ وهل فى ذلك شىء طيب؟

- اى شىء طيب؟ كان الافضل لو اننا قتالنا الآن ليس فى يليا، بل فى ضواحي كيتسبيرغ، وكان الافضل لو ان الالمان هم الذين يخرجون من الحصار بدلنا! ومن المحتمل عموما ان قاله لكم سرييلين شيئا ضروريا احتفاظ بفرقة برقمها وامدادها بالمقاتلين، وليس توزيع ما تبقى منها. ذلك شىء محتمل جدا - كرر كليوفيتش، فقد اراد ان يهدى من دوع سينسوف الذى اكفهر وجهه بشكل ملحوظ - لا سيما وانكم اشتدتم الحصار ورايتكم مرفوعة. قبل ايام كتبت الجريدة عن مجموعة اشتركت الحصار ووصلت بلا شىء، ما عدا الراية. فما اشد القسوة التى ثارت حول ذلك!

- وما اليس؟ فى ذلك؟ - سأل سينسوف يزعل.

- وما الجيد فيه؟ - سأل كليوفيتش بدور - بالانافة الى الراية يجب اختراق الحصار بالديابات والسدائق وقائس يصلون للقتال فيها بعد! اما راية فالمر لمزم برقمها دوما اذا احتفظ بضمير! لقد حسلتا نحن ايضا راية علما خرجنا من الحصار فى سلقويم، ولكننا لا نعتبر ذلك مغفرة لنا، فكيف يجوز التصرف على نحو آخر؟ ثم اننا خرجنا من الحصار. يسع ذبايات

من مائة وأربعين دباية. وليس لدينا ما نتفاخر به! أما مخدر الباردة فراح يكرر: «الرأية، الرأية!». فما الذي خرجوا به ما عدا الرأية؟ وكم عدد الاحياء الذين وصلوا؟ ذلك ما لم يكتب عنه المخدر ولا كلمة واحدة، وكأنها هو غير مهم على الاطلاق. قال له احد من محبي الكلام فرحا بأنه ظل على قيد الحياة فراح هو يكتب ويحلم...

يبدو انك لا تحترم الصحفيين كثيرا! - قال سينسوف.

ما الداعي لاحترامهم؟ فلما جربوا بانفسهم ما يحدث للفؤاد عندما يفرجون من الحصار ويحملون الرأية ولكن بدون دبابات لما كتبوا بهذا الشكل! - انا، مثلا، جربت ذلك بنفسى - قال سينسوف، فقاطعه كليوفيتش: - لا تتكلم عن نفسك الاك، فانت جندي صالح.

قال كليوفيتش ذلك واخرج من تحت الطاولة جزمة جيدة ملفوفة يخطئ وتفوح منها رائحة الفار وربما عند قدمى سينسوف واضربت: - عذرا، وجرب. اتضح ان الجزمة ضيقة، فأسف كليوفيتش لعدم وجود جزمة غيرها لديه. وتطلع الى قدمى سينسوف العائيتين وقال:

- قوائم فضيحة تصلح للعشاء فقط ...

- لقد مشيت بها غير قليل ...

- وهل تعتقد يائى ما مشيت؟ فعندما بقينا بدون دبابات سرنا مثل الشاة. وبانحصار: بلادنا البحرية شامة واسعة ... ولو قال لى احد فى عام ١٩٣٩، بعد معركة خالخين-غول، بانى سأمش على هذا النحو واقطع هذه المسافة لتصورت يانه يمزح ولقلت له ما لا يرضيه! ولكن لا بأس - ففتح المستشفى بالكولوزيا ومسح رأسه به بعد الحلاقة، ومسح ما بين سابقه وكأنه يدعوا احد الشاربزة، ووقف على هذه الصورة امام سينسوف: قصير القامة، عريض الشكين وقد نثأت عضلاته من بحث فائتله. - لا تفهم، انتظر عندما ادخل البانيا على دبابتي الـ ٣٤، وساخضك على درعها اذا لم ترحل معك قبل ذلك الى دومة الخلود ولم ينضرب على قرونا نجمتين خشبيتين. يا غارستوف، هل احضرت الفطور؟ - سأل كليوفيتش عندما سمع صرير الباب يفتح واداء ظهره.

- بالفيضا! - وضع الرمال ابريق الشاي على المائدة مع الاراني

المخلطة بمنشفة.

- هل الحمام فارغ؟

- يصعب القول بأنه فارغ، ايها الزئيق المقدم ...

- بعد ان نثر الشاي رائق المرشد السياسى الى الحمام. هل احضرت له ملابس دافئة؟

- بالفيضا! ولكن اعشى ... - تطلع الرمال الى سينسوف الفارع القامة. - فلنظر فى الحال - قال كليوفيتش وهو يرتدى قمصته - فانا مستعمل، عليك ان تحلق فذلك. الرئاسة تريد ان يجتمع شياطينكم فى الحادية عشرة. اما لديك فقد طالت كلحية قدس، ولا يجوزك الا السليب على الصدر.

اثناء الفطور لم يعد كليوفيتش الى الاحاديث الجيدة، وكان مستعبدا على العموم.

فصح كليوفيتش سينسوف ان يتناول الطعام ببطء ويضعه جيذا. بعد الجوع الشديد، واحتس قديس من الشاي على عجل ونهض.

- اعاننى. حان موعد الذهاب. اذا اردت ان تكتب الى اهلك بانك بحث حيا كالمسيح فاكتب لهم وسلم الرسالة الى الرمال غارستوف، وسيبثها اليوم مع برتقالة اليدائى.

- كيف حال عائلتك؟ اين هي؟ - سأل سينسوف فجأة ودون ان يعتمد فى ذلك.

- ليس عندي عائلة - اجاب كليوفيتش بصوت مشتبب غريب وخروج دون ان يودعه.

تطلع سينسوف بنظرة صاعقة الى الباب الذى افتلق بعد خروج كليوفيتش. وفكر سينسوف: ولماذا اجاب بهذا الصوت المشتبب؟ ما الذى حدث لعائلته - غرام، غيابة زوجية، ملاقاة؟. وعندما الفت نظره بنظرة الرمال الصعبة المائة ادرك بان كليوفيتش كان يقصد الموت، وليس الغرام او الخلاق او الغيابة الزوجية ...

اجتمع فى الخيمة الواسعة للشعبة السياسية التابعة لقواء ثلاثون من القادة والمسؤولين اليابانيين الذين فكروا الحصار ووصلوا مع مريطين. خلال الليل حلقوا ذقونهم جميعا واحتصوا ونهذوا. وكان البعض من الذين وصلوا بهيئة متردية جيذا يرتدون الآن بزرة رجال الدبابات الرمادية. فقد رقت القلوب، اذ انها ليست من حجر. وبناء على امر من كليوفيتش تفتق مخاض مساعدته لتؤثر المؤخرة عن عشر بزات سلمها لهم.

عندما دخلوا الخيمة وتضافوا فحين لم يتسكنوا فى الحال من معرفة بعضهم البعض، وكان من الصعب بان لى واحدة قسوها فى ظروف انسانية وامتعاد وحلاقة قد غيرت ملامحهم الى هذا الحد.

قدم مفوض الكلية شكاكوف للقادة القاديين رفاقه في السلاح ووضع على الطاولة قائمة باسماء ٣١٢ شخصا تمكنوا من اختراق الحصار عبر مواقع الألمان .

كان عدد القادة القاديين ثلاثة: مفوض فوج من الشعبة السياسية للجيش، وهو ريجل ريفن طيب القلب اسود الشعر عليه آثار السهاد اذ كان يتحلب ملول الوقت، ويقدم من شعبة التشكيل الجيوية، وهو ريجل كولر جلس بقامة مستدلة كالعصا (مثل سينسوف للوحة الاولى باقه شتد جدا)، وميجر قصير القامة من الشعبة الخاصة وهو يريدى لسبب ما بزة ريجل الملود ووجهه متجههم يشفيه المزمزمين .

حوار الصباح مع كليمنتش جمل سينسوف يتجسس خيفة . فبدا من ان يقولوا قبل كل شيء، كما كان يعلم، بصفت جميع الذين فكوا الحصار حاملين السلاح رافعين الراية ويقدموا الشكر لهم بمعاية على حسن خدمتهم، جميعهم لسبب ما في غيبة بدمر عن القتالين ... وعجل لسينسوف ان كل شيء سيجري كس كما اراد الى حد يشير اليه .

الا ان الحوار بدأ، على العكس، بلهجة غير مفيظة اطلاقا .

كان اول المتحدثين هو مفوض الفوج من الشعبة السياسية للجيش . قال بلهجة الرقيقة ان الاحطاف السهيب حثاء على مقربة من النقط الامامي، ليس من الحكمة بشيء . ثم ان ذلك يمكن القيام به فيما بعد عند الوصول الى المكان المطلوب في منطقة يوشوف حيث سيجري نقلهم اليوم بالذات . وان الرفاق القادة والمسؤولين السياسيين الذين يهتلم ثيابة عن قيادة الجيش بخروجهم من الحصار يجب ان يفهموا بان المسألة التي طرحها الفريق شكاكوف حول ما اذا كانت فرقهم متشبهة ومتحفظ يرقمها وتتوزد بالامدادات ام لا ليس هي مسألة لا يمكن البت فيها اليوم وليلة . ثم ان البت فيها ليس من صلاحية بل وليس حتى من صلاحية قيادة الجيش . وحتى يتم حل هذه المسألة من قبل الجهة الاعلى يتعين اعتبار جميع الذين خرجوا من الحصار ليس بمثابة وحدة عسكرية، بل جماعة تكونت مؤقتا في ظروف الحصار وادت مهمتها بهذه الصفة . وطالما الامر كذلك فهي الآن غير مجبوزة كجماعة، وان الذين من صلاحيتهم الاهتمام بهذه القضية سيحاولون من الآن فصاعدا مسألة كل فرد من افرادها على حدة انطلاقا من رتبته ومصفيه وملكه اثناء الحصار . واضاف المفوض:

- لا سيما وان التعليمات التهديدية تقيد بان الجماعة تضم ١٠٧ اشخاص

فقط من الفرقة السادسة والسبعين بعد الساعة . اما الثلاثان الباقيتان فيمكنوا من القتالين الذين التقوا بها من وحدات مختلفة وفي اوقات مختلفة .

عندما كان يتحدث راج شكاكوف وبسح بطرف مندليه عينيه الدامتين من الارق تحت نظارته ويطلع بابتسامة طوال الوقت الى مفوض الفوج . فقبل ذلك دار بينهم حوار تمهيدى، ولذا فان شكاكوف ينتظر بقلق ما اذا كانت المفوض سيتكلم بالشكل الذي يريده شكاكوف ام لا .

ثم التفت مفوض الفوج الى مقدم من شعبة التشكيل فقال القدم بصوت مخضب انبث كالصواري باقه عندما يصل المقاتلون الى المكان المطلوب وينظرون تحت امرة المسؤولين هناك سيستمع الحوار معهم . اما الآن فيتعين على الرفاق القادة ان يصغوا للمقاتلين ويوصلهم، تحت قيادتهم، الى السيارات التي تقف في الاجمة على بعد كيلومتر واحد من هنا ويوزعهم عليها بعشرين مقفلا وضابطين اثنين لكل سيارة . والمكان المقصود هو قرية لودوكوفو بفسلحي يوشوف، والمسافة مائة واربعون كيلومترا والطريق باتجاه الجنوب الشرقي عبر بيليا - ساياس - ديميشك، ثم على طريق سيارات يوشوف نحو الشرق . والفواصل بين السيارات اثناء الطريق ثلاثون مترا، وفي حالة حدوث غارات جوية ينبغي توزيع المقاتلين بعيدا عن الطريق الدام . ويترتب هو بسيارة صغيرة في مقدمة الطابور . وبعد ان ادلى القدم بشك التوجيهات بصوت كثر الطبل لزم الصمت وبدا عليه انه لا يريد ان يضيف الى ذلك شيئا .

عندما توقف القدم عن الكلام وجه مفوض فخرج مؤالا الى الميجر من الشعبة الخاصة:

- هل لديك ايها الفريق دانييلوف، تعليمات على ذلك ام نبدأ بالتحرك؟ لزم الميجر الصمت برهة يشفيه المزمزمين، فهو لا يريد الاستعجال في الرد، ثم انفجرت شفتاه اخيرا وقال بصوت رقيق شديد انه كسبت لديه اية تعليمات، ولكنه يريده ان يوجه مؤالا الى قائد الجماعة، والتفت عند ذلك الى شكاكوف:

- هل جرى تسليم السلاح؟

- اى سلاح؟ - سأل شكاكوف .

- سلاح الغنينة الموجود عند افراد الجماعة .

- لماذا يتعين علينا تسليمه؟ - سأل شكاكوف متفهما . - سلاح غنينة ام لا، لا فرق . انه سلاحنا، فكنا الحصار به، فما الذي يجمنا لنسلمه؟

اضطرب الميجر واضجوا .

انتظر الميجر حتى هذا الصبح فقال: دون ان يرفع صوته؛ يانه لا يوجد في الجيش سلاحنا او سلاحكم. يوجد في الجيش السلاح المقرر حسب الملاك والذي يوزع في الوقت المقرر لتوزيعه. ولا يجوز ان يكون لدى العسكريين الذين يرسلون لاجل التفتيش والتفتيش سلاح عموما، فاهيك عن سلاح التفتيش. يجب تسليمه وليس حمله الى المؤخرة. ذلك شيء لا يحتاج الى جدال.

ليس معروفا ما اذا كان ذلك يحتاج الى جدال ام لا! - قال شاكوف بعدة - سوف تقدم تقريرا نطلب فيه الابقاء على فرقنا - قال: ذلك ونسى كليا بانه لم يكن اطلاقا محسوبا على ملاك هذه الفرقة. - لن نناقش هذه المسألة معك هنا، ايها الرقيب مفوض الكتبية - قال الميجر - ليس من صلاحيتنا ان نثبت فيما اذا كانت الفرقة ستبقى ام لا. ولكن يجب تسليم كل سلاح الكتبية بنفسه انتظر من حل هذه المسألة. - ما عدا سلاح الضباط الشخصي! - قال المتقدم المتخشب من شعبة التشكيل يصوت عالم وبشيء من التعجب على نحر بافت الجميع كليا، بعد ان ظل صامتا حتى تلك اللحظة.

يبدو ان شيئا في هذا الحوار قد مس ورا شخصيا عميقا لدى هذا الانسان الجاف. ونهش شاكوف وقال وهو يشد قبضته:

- كل ذلك مهين. مهين! - كرر بصوت عال فدوى صوته بألم: - مهين جدا، عيب علينا امام القائلين! - ثم صاح بوجه الميجر: - ألا تشعر بالجلد؟ كان الميجر قد نهض هو الآخر، وشعب اونه بعض الشيء، وضغط بيده على احد ابرصيه مصفطه الميدانية أولا ثم على ابرصيهما الثاني. وركز بصوت خافت جدا ثم لم يقرق اصغاه:

- لدينا اوامر، طلبنا توضيحا بشأنها راسلتنا هذه التوضيحات التي توجب علينا تنفيذ تلك الاوامر، ولذا يجب تسليم سلاح الكتبية، ايها الرقيب مفوض الكتبية.

في معمان الجدال دخل النخبة كليوفيتش الذي لم يكن موجودا من زمان، من البداية تقريبا:

- ايها الرقيب مفوض البو، اسمح لي بالكلام. دعاني الى التليفون فالد الجيش وطلب ان اخبرك بان المجلس الحزبي الجيش امر باجراء الاصطفاف الاحتفالي للجماعة التي اخترت المصارع بقيادة قائد الكارو سريجين والاصطفاف الحاشد القصير بثماسة وصولها هنا، في موقع الوحدة الموكلة الى.

التفت الحاضرون الى بعضهم بعضا. كان مفوض الفوج في دغية نفسه راضيا. ففي الصباح، قبل ان يصل الى هنا، امره عن واية لآمر الشعبة السياسية وقال ان الاصطفاف والاصطفاف يجب ان ينفذ في المكان ذاته، في لواء الدبابات، الا ان امر الشعبة السياسية قال بان الوقت والمكان غير مناسبين. لذلك على مقرية من الخط الامامي. فمن المحتمل ان يصفقهم العدو لا سبح الله!

وتكرر مفوض الفوج: مع ذلك فالتنتيجة صارت كما اردت انا، وليس كما اراد. ذلك يعني انهم غيروا رأيهم في المجلس الحزبي!.

كان مقدم شعبة التشكيل والميجر دانييلوف خاضعين للجهة وليست لذهابا ارامر مباشرة بشأن مكان وكيفية عقد الاجتماع الحاشد، ولكن ليس بالامكان الاعتراض على قائد الجيش الذي يتواجدان في مواقفه. فقد اكتفيا بان تبادلوا النظرات صامتين.

الا ان شاكوف فرح على المكشوف وقال قبل ان يتمكن احد من اترد على كليوفيتش:

- هل تسمح لي بالكلام، ايها الرقيب مفوض الفوج؟

- نعم، انني اخصي اليك.

- ايها الاكابر موراثوف! ايها الدرش السياسي سيتنوف! اصبرا الامرار بشأن اصطفاف... الفرقة! - بعد فترة صمت اضاف بمتاد هذه الكلمة التي انتفرت من اذهانهم جميعا.

- هذا شيء جيدا - قال كليوفيتش بعد ان جلس الى الطاولة - صحيح اني اصدرت امرى بذلك، ولكن لا بأس من التكرار، فالوقت ضيق، وقائد الجيش قال: اعتقدوا الاجتماع دون املالة!

تطلع كليوفيتش بنظرة ملؤها المشاهدة الى شاكوف الذي لاحت عليه امارات الفرح. فقد اعجب كليوفيتش بهذا المجوز العنيد، كما كان يسميه في دغية نفسه، فان شاكوف اشيب الشعر كليا. لقد تفهم كليوفيتش مدى تألم شاكوف على جنوده، وهذا ما حملته، هو كليوفيتش، على ابداء مبادرة. فقد كذب عندما قال ان قائد الجيش اعتداه الى التليفون. خرج من هنا غصيبا وتلقن الى القائد بنفسه وطلب منه السماح باجراء الاصطفاف الاحتفالي والاصطفاف الحاشد القصير هنا، في اللواء. وبالصبط. - قال القائد بلهجة غاضبة. يبدو انه كان مشغولا جدا - لقد بحثنا اليكم وكيل آمر الشعبة السياسية، فلماذا تفشل انت؟ اقلا يدرك هو بنفسه؟ - ولا ادري، ايها الرقيب

القائد. - قال كليوفيتش- يبدو ان لديه اوامر اخرى- واية اوامر اخرى؟! اجروا المطلوب، ولكن بدون اشارة.

- حسنا - قال مفوض الفوج واستند الى الطاولة بقبضتيه- هل هناك اسئلة اخرى؟ - السؤال القديم: بخصوص السلاح - قال شماكوف ملاكرا.

- ايها الرقيب القديم - فاطمه الميجر مخاطبا كليوفيتش- ألم يصد قائد الجيش امرا بعدم تسليم سلاح الغنيمة؟ كلا- اجاب كليوفيتش.

- يبقى القرار، اذن، كما كان - قال مفوض الفوج على عجل دوش ان يسمح باستئناف الجدل- بعد الاصطفاف والاجتماع يجب تسليم سلاح الغنيمة وركوبه السيارات!

- لحظة! ايها الرقيب مفوض الفوج- نهض التقدم المتخشب من شدة التشكيل. تطلع الى شماكوف، وثرق في الصمت الحميم طريقة جافة يسارية المقفولة على الطاولة وقال حانقا:

- اطلب من الرقيب مفوض الكتيبة ان لا يستخدم في الاجتماع كلمة «الفرقة»، لان مسألة ابقاء رفقها غير محلولة، وانكم لستم فرقة بل جماعة فككت البصائر وهي مكونة من مقاتلين وضباط من اربع فرق مختلفة ومن وحدات منفصلة اخرى.

اراد شماكوف ان يصرخ في وجهه «يا قسطين، انك غشبة لا غير!» لكنه ثمالك اعصابه وقال:

- سمعا وطاعة!

فالامر الرئيسي يجري كما اراد هو: يستصف الرجال الآن وتشكرهم، اما الباقي فالى الشيطان! الباقي سيقترع فيما يده.

نهض من وراء الطاولة وهم بالحق بالآخرين، الا ان الميجر كان قريبا وقد لمس رذته يرقق:

- ارجوك، ايها الرقيب مفوض الكتيبة، ان تستظلي لاقول لك كلمتين! - انني اصغي اليك، ايها الرقيب الميجر. - قال شماكوف بشي من الاستغراب،

فقد غلب اليه انه لم يق ما يتوجب الكلام فيه.

- المسألة... - انظر الميجر بصبر حتى خرج الجميع ولم يبق في الخيمة غيرهما- انا، حتى الآن لا تعرف ربهالك جيدا، اما انت فترقمهم ما هو رأيك، هل تستطيع ان تتحمل المسؤولية كاملة عن كل واحد من اخذوا الحصار معهم؟

- المسؤولية؟ - سأل شماكوف على عجل بصوت متشدد- اعتقه انهم اجابوا بانفسهم على سؤالك بعدم البقاء عند الامكان ويوصلهم الى قواتنا عبر الممارك.

- انني افهم ذلك، ايها الرقيب مفوض الكتيبة- قال الميجر يد ان سمع رد شماكوف الشديدة الهلجعة- ان وصولهم الى قواتنا بالنسبة لي حقيقة ثلثها بالنسبة لك. ولكنهم ساروا تحت قيادة، وفي مثل هذه الاحوال قد يخرج من الحصار مع الآخرين شخص ما كان ينبغي الخروج منه، ولما كان قد اضطرر تحت امره القيادة فهو مضطر الى الخروج مع الآخرين ولكنه لهذا السبب او ذاك لا يستحق ثقة القيادة. ألا يوجد عندهم الخاص من هذا النوع؟

- اولاً، اعتقه انه لا يوجد عندنا اشخاص من هذا النوع- قال شماكوف بسرعة- وثانياً، لقد قطعنا الجبهة ووصلنا اخيراً الى املنا، واننا لا افهم ما الذي يشغل بالك.

- لا يشغل بالي شيء، ايها الرقيب مفوض الكتيبة- اجاب الميجر مظهرًا يائه لا يرى انفعال شماكوف، اجاب بصبر يدل على تحمله الخارق- يهمني، كائنات يتحمل مسؤولية عمله، سؤال آخر: الا يمكن ان يوجد بين الرجال الذين وصلوا معكم اشخاص انضموا الي جبايتكم لافراض غيابة بهم، وقد سحقل تلك الافراض جزئيا بدمويهم الجبهة معكم، وفيما يد سيقفون تلك الافراض كليا، حيث يتصرفون بالطريق قبل ان يفتشوا؟ ادرى اذا كان عندهم مثل هؤلاء الاشخاص ام لا. ولكن الخبرة تقبل ان وجودهم محتمل. ومن الافضل التفكير بذلك الآن، قبل فوات الاوان.

- ليس لدى مثل هؤلاء الاشخاص- كرر شماكوف مبتعدا- عشنا على سافل واحد واعلمنا، ربما بالوصاص دون ان نتصل فساتك. وكان هناك سافل آخر انضم اليهم. اما بخصوص فوات الاوان... اراد ان يقول: وآء، يا بقيتي العزيز، في الآونة الاخيرة صرنا نفكر كثيرا وقيل الاوان بان هذا الشخص يشير الرية، ثم ادركنا بعد فوات الاوان انه يستحق الثقة مع ذلك!». اراد ان يقول تلك الكلمات، ولكنه ضبط نفسه وقال بدلا من ذلك انه عمل ستة في حياته، في هيئات اللجنة الاستثنائية لعموم الاتحاد السوفييتي وانه يعرف معنى القطة لا اقل من معرفة الرقيب الميجر بها... اذا كان المرء بالمطيع يرى فيها سيفا وليس مكنتة!

— ماذا تصعد؟ — سألت الميجر بلهجة بيافة.

— اقتصد — قال شماكوف ينفس لهجته الخفيفة — انه يجب على المرء ان يتق رفاقه. فيدون تلك الثقة تحول القطة الى دمية وفخرا انقلبت كلمات شماكوف على سمعه، الا ان الميجر ما كان يريد ان يتصور بان هذا التحدي موجهاً اليه، فاجاب ببرود ان ذلك صحيح، الا ان الموقف اليوم يتطلب مراعاة الاوضاع، والاضاع مقدرة الغاية، ولا يجوز التفاوض عن ذلك.

— اتنى لا اتفاوض عنه، ولم اكن اتفاوض عنه!

— اذن، فليس عندي ما اضيفه — قال الميجر — ساماخر في آخر الظهور. وفي سيارتي والجيده مقدمان خاليان. برسلك ان تسافر معي — اضاف فجأة وكأنه يريد ان يؤكد بهذه الدعوة غير المتوقعة بالنسبة لشماكوف انه، هو الميجر دانييلوف، يؤيى واجبه هنا. ويمتد بانّه على حق، ولا يعير اى اهتمام لكل الجذالات العقلية مع مقوض الكتيبة الشديدة الانفعال. القرب عبر غاية الصنوبر يمتد بعيداً، حتى الافق، وتسن للخريف التي لاحت عبر التيمر تلقى بقمع شاحبة على الارض الرطبة بعد مطر يوم امس والمخفأة بالانز الصنوبرية. في الاماكن التي تلوح فيها الرمال بين تلك الابرة كانت تلك الرمال منقطعة بنقط صغيرة بعد المطر. وعندما يجب التسم تصاقط من اشجار الصنوبر القطرات التي خلفتها امطار الامس على الاشخاص. فراح المقاتلون الممطون تحت الاشجار يفضا سكون ويتكشرون ويسون اصابعهم تحت ثيابات قمصانهم...

استراحة.

خلال الليل والصباح اوصلا الى الكتيبة الصحية زهاء ثلاثين شخصاً آخرين ممن ظلوا متحصنين يوم امس في صف المقاتلين. اصطلت على طول الدرب مئتان رائحة وثمانون شخصاً — وهذا العدد هو بالضبط نصف العدد الوارد في قائمة مساء امس قبيل المعركة.

كان جميع المصطفيين يحملون السلاح. وكان زهاء خمسين شخصاً مسلحين ببنادق، اما الباقون فقد تسلموا تدريجياً، طوال شهرين ونصف من الممارك، بالسلاح الالماني — بالبنادق البادية والرشاشة. وتدلّت من احزمة البعض قتالاً بدوية المانية ذات مقابض طويلة.

في الجناح الايسر انقضت ستة رشاشات يدوية — اثنتان روسيات واربع

المانية — كانوا قد حملوها من العساور. وعلى مسافة ابدء في الجناح نفسه، انصب مدفع هاون ميداني الماني كبير وعلى يمينه قذيفتان غير مستعملتين. ووقفت امام المدفع المقرنة القائمة على خدمته والكمولة من ثلاثة من الدفيعين الذين قدموا من غوامس يريست والتحقوا ويقالض سريليين في اليوم الاول لحصار. ولا يعرف احد كيف استطاعوا ان يحملوا يوم امس من هذا الجحيم الليل التقلع الذي اغتسل فيه العمايل بالنابل تلك الماسورة النضخة وراقعتها وسعى القذائف. لا يعرف احد ذلك، فقد ظل سرا من اسراهم. اما الآن فهم يفقون قخورين به دون ان يخفوا مشاعرهم.

وفي الجناح الايمن وقف التيب كوفاليتشك بفاتة النضخة القارئة السلطة على الجميع. وبغنى الهيئة التي ظهر فيها ذات مرة امام القائد السابق للفرقة المجد زابيتشكوف. كان كوفاليتشك قد اصيب اثناء الحصار ببرزين طليئين ثم يبرح اخن. وهو الآن يقف غصه الراى يتشلى فلفيف، وقد اتسع سكباه كبطل من أبطال الاساطير، وامسك برأية الفرقة المنتشرة وصاريتها عند قدميه. وبهما يكن من شيء، فقد حمل هذه الرأية بيده من البداية حتى النهاية ووصل بها سالمة!

عندما استلموا قبل نصف ساعة الامر بالاضطفاف وراحوا يبعثون عن كوفاليتشك عثروا عليه في طرف الناية جالسا على قربة وقد فحق سكبته الملوحة وراح يمد صابرة جديدة. اما الآن فهو يقف ويده الرأية المظينة الى الفاراية الجديدة. وكان بوسع الجميع ان يقرأوا على قماشها الباعث الفهري. بعض الثمى نفس الكلمات التي قرأها الدوسوم زابيتشكوف قبل اكثر من شهرين: «والفرقة ١٧٦١ المعاززة على رسام الرأية الحمراء والثابطة جيش الاحمر العمالي الفلاحى...».

كان سينتسوف، كالاخرين، ينتظر بفارغ الصبر بداية الاحتفال. وقد وقف على مقربة من الرأية وراح يتحدث الى شخص لم يتوقع ان يلتقى به هنا.

قبل ان يتلفن كليموفيتش الى قائد الجيش استدعى سيقا، وتحسلا لتلواؤى، قائد كتيبة الاستطلاع مع جنود الدبابات الذين استعملوا في المعركة الليلية، وذلك ليعاموا في المراسيم. وصل قائد الكتيبة بسيارة شحن، وقد نزل منها المقاتلون الذين جاءوا معه. وعندما جبط هو من قمرتها التقى بالمرشد السياسى التحيف الفارخ القائمة جدا والذي تتلى من وقته بنقطة رشاشة المانية. تطلع كلاهما — كابتن سلاح الدبابات والمرشد السياسى — الى بعضهما البعض

صامتين يضع دقاتي. وأخيرا يادر سينتوف الى الكلام، لان ذلك اللقاء علق في ذاكرته اكثر مما في ذاكرة الكاينين وقال:

-التقينا في سويسرا بوبرويسك، اليس كذلك؟ احتجرتني انت، ثم اقيمت معانتي لوسين عنده... والطار ظل محكم ايضا...

-بالضبط! -قال الكاينين مرحبا- مع الاسف انك لم تبق معنا، والا لمارينا جنينا الى جنين!

-كنت جريحا آنذاك -ذكره سينتوف.

-هل التأم جرحك الآن؟

-التأم.

-لم يضرنيو اليه جرحنا اخرى؟

-لم يضرنيو بعد.

-انت محظوظ ان... اما انا فقد نهضو في كنفى خلال هذه الفترة، واقطعتوا قطعة من طر... مدثرة عل هذه اللقطة البديهة.

-هل كنت آنذاك والآن ايضا في هذا اللواء ملول الوقت؟ -سأل سينتوف.

-اجل، فكيف لا؟

-افصح ان فائدكم... اراد سينتوف ان يقول هزيل في المدرسة، ولكنه قال بدلا من ذلك: من معارف القدامى.

-لاحتلت كيف؟ -قال الكاينين باسما- اما انا فقد كنت آنذاك اتحدث معه بالتلغون بصوتك. فلماذا لم تخبرني؟ كان يوسى ان اعطيك الساعة في الحال!

-في تلك اللحظة ما كنت لتعطيني الساعة! انا اشك في ذلك! -قال سينتوف ضاحكا.

-سحتل- اطلق الكاينين ضحكة متبسرة- عندما تكون الازواض عسيرة فانا مضطر بادورى ان اكون متشدا بعض الشيء. ولكننا استقبلناكم هنا بكل ترحاب، فقد اخترقتم الحصار باتجاه كيتيى الاستعلامية مباشرة!

-اعتقد انك كنت مساعدا لشؤون المؤخرة، اليس كذلك؟ لوح الكاينين بيده تلويحية مستهينة وقال:

-عندما يشق المرء طريقه عبر القوات الاملاية ينشئ اين هي المقعدة رابن هي المؤخرة. فانه يمد الضربة الى الوجه مباشرة، وتارة يتنافس كالحصان.

كنت مساعدا لشؤون المؤخرة، فصرت استعلاميا. وبالمناسبة، لا داعي لان

اوضح لك ذلك، فانت نفسك كنت مع الذين اشتركوا الحصار. وبجرعهم ببالة خيالية، اجل خيالية! فطوال شهر لم يخرج من الحصار احد، وتصورنا ان احدا لن يخرج. يبدو ان قائدكم يتحمل ببالة خيالية! -انصاف باستحسان-

-يقال انه اصيب بجراح، فهل ذاك صحيح؟

هو سينتوف راسا بالانجاب.

-شيء مؤسف!

-اسمع -تذكر سينتوف لوسين من جديد- كيف حال ربيقى

الذى عندهم؟

-انقصه معاون المرشد السياسى ذا الطاقة البائلة؟ -قال الكاينين

تهفعا-انه، بالمناسبة، شخصية متمعة. في البداية عائد ورفض البقاء

عندنا. وبعد ذلك، عندما رأى ان محاولاته اخفقت، فاقبل ثلاثة ايام

بشكل مقبول تماما، وفي اليوم الرابع، عندما استمر الوضع بعض الشيء،

توجه الى القيادة راسا واشتكى من الاكراه ومن تمسكنا بالبحر. وسافر الى

جريدته. كنا نترى منه مدياة لقاء ايام القتال تلك، وبغيرنا رأينا، طبعنا

عندما غادرتنا.

-والطيار؟

-لا ادرى به- هو الكاينين كفيف- في اليوم الثانى اصيب بجراح،

ولا ادرى اين هو الآن في السماء ام عل الارض ام تحتها.

-ولا يزال لقبك ايفانوف، وكل ابناء روسيا لقبهم ايفانوف؟

-كل ابناء روسيا -اجبت الكاينين.

طبيب عل كفف سينتوف يود، وانسحب الى الوراء نهضا ثلاث

خطوات، ووضع يديه عل صدره وتطلع طويلا باصجاب شديد الى التربة

التي كان يسلك بها التفتيح كوقالتشوك.

-ما اروع ذلك! حتى البدين يقشع له!

تقدم شاكوف الى وسط الدرب واسدأ امره بالاستعداد، فاستمد

الصفى المستطيل وقرع سلاحه وتجهد الجميع وكان عل رؤوسهم الطير. وعلى

الجناح الايسر للصف وقت بمسافة بينية طولها خطوتان جند الدبابات من

الكتيبة الاستعلامية وعلى رؤسهم قائداهم.

وتقدم الى الامام مقبوض القروح الذى قال بصوته الرقيق الواطى

انه يتكليف من المجلس الحزبى والجيش وبالتايمة عنه يهتتم بمأثرة الخروج

من الحصار حاملين السلاح واثمين التربة. ولم يذكر كلمة الفرقة ولا الجماعة.

فقد تحدث ذلك وقال مباشرة: «أيها الرفاق! احثكم...». وردا على هذه التحية هتف الصف من صميم القلب وباصرات غير متجانبة «نحن في خدمة الاتحاد الشيوعي!».

ثم خطا مفوض الفوج خطوة إلى الوراء، وخطا المقدم كليوفيتش خطوة إلى الأمام.

لم يقل مفوض الفوج الذي تكلم قبله أي شيء مهم، لم يقل غير بضع كلمات عادية. ولكن عندما احتوى كليوفيتش، قبل أن يتكلم، الصف كله بظفرة من عينيه بوقت بالدموع تهمر على شهود الكثيرين. فقال بصوت الجهورى:

«أيها الرفاق الثقاتون والقادة! لن ينسى لواء الدبابات السابع عشر أبداً ما أنزلتكم وأخوتنا في القتال الطويل عند الكيلومتر ٢١١ حيث مددنا لبيضنا البيض يد الصداقة الكفاحية. وإن كنيشتنا الاستطاعية - وأشار بيده إلى الكابتن إيفانوف الواقف أمام جنوده - ستظل دوماً تفخر بأنكم وصلتكم إلى قواتكم في قضاها القتال. أيها الكابتن، أصدر امرى بالطلاق صلبة قهية الصداقة الكفاحية!»

رفع جنود الدبابات بنادقهم واطلقوا صلبة التحية. وخيم الصمت. وانتظر كليوفيتش لحظة أخرى، ثم قال الشيء الوحيد الذىبقى عليه، كما يعتقد، أن يقوله: «الموت للمحتلين النازيين!»

وكان شماكوف ثالث المتكلمين. وكان خطه هو الأصعب فقد تحين عليه اهتمام احتفال التكريم والتلفظ بأجر الكلمات الدافئة تماماً حول تسليم السلاح وتزويج السفر إلى المؤخرة.

كان يريد قول الكثير، ولكنه ضبط نفسه، ولذلك تمكن من أداء المهمة. وتحدث صوته لهلعة عندما مد يده إلى الرأية وقال بأنهم سيبدون بقيادة قائد اللواء سربيلين الذى خرج من الصف موقنا وتحت هذه الرأية بالذات، وأية الفرقة ١٧٦ على نفس الطرق التى اتسحبوا فيها. وبذل جهداً ارادياً حتى استعاد صوته لأن الدموع لا داعى لها هنا، وصاح بشىء من المرح على سليقته ذاكراً بفضيף الالفاظ تقربياً المبارة التى كان سيتولها ستالين بعد عام من ذلك التاريخ: «سيجيء العيد إلى شاربنا أيضاً، أيها الرفاق!».

ودى بين الصفوف هتاف وأرواء المضطرب المخلوط بدموع الانتمال.

توقفت شماكوف لهلعة، وكان حسب الظاهر هادئاً جداً، أما فى دخيلته فكان يذلل جهداً هائلاً ليظهر بالهدوء. ثم قال بدهشة كأنها هى البديهية ذاتها: طالما يتوجهون إلى مؤخرة الجبهة فمن الضروري قبل السفر تسليم كل أسلحة الغنمية الموجودة، وكذلك ذخيرة هذه الأسلحة، ريد الاستجمام وإعادة التشكيل سيبدون جميعاً بالسلاح كما يجب، أما سلاح الغنمية فهو ضرورى للجبهة هنا. وعندما شعر بين الصفوف بهيسيس الخيرة انشاق قاتلاً:

«منحفظ، أيها الرفاق، بقرائم كل ما سنسلمه، لكنى نتذكر من الذى قرع سلاح الغرب أثناء اختراقنا الحصار، الا لسان نزعوا سلاحنا، أم نحن نزعنا سلاح الألمان.

ثم قال أن سيارات الشحن وصلت لنقلهم إلى المؤخرة، وسيبدأ ركوب السيارات فور تسليم السلاح. وأصدر أمره بالاستراحة.

تقدم قادة السرايا والفصائل من الصف وشرعوا بتسليم الأسلحة، أما شماكوف فقد التفت إلى مفوض الفوج والذى عليه نظرة متسائلة: «ماذا؟ هل نسنا كل ما اتفقنا عليه؟». رفع ذلك رأسه بالإيجاب.

«مع ذلك لم تضبط نفسك فذكرت الفرقة!» - صر صوت المقدم المتخشب موجهاً اللوم إلى شماكوف.

«لم أذكر الفرقة، بل ذكرت رأية الفرقة!» - أراد شماكوف أن يجيب بأهية غاضبة، ولكنه استبدل الغضب باللين وأجبت: «الافضل أن لا تتورط معي أيها الرفيق المقدم، فانا متفعل فى الديالكتيك، ولدى درجة عليية فى هذا المجال» ولو بدأنا نتجادل بشأن الصياغات فسنأكل من كل يد! استغرق تسليم سلاح الغنمية ساعة. بعض المقاتلين سلموه بإيمالة، فما دام تسليمه واجبة فملحهم. والبعض الآخر زعلوا وأحوا ويلفون الشتايم هساء أما البعض الثالث فقد أخفوا المسلمات، إذ أن التخلي عنها مؤلم حقاً. سلم سينستوف بنديته الرشاشة الألمانية وظل يدون سلاح، فلم يكن لديه مسدس. وأوضح أن سبيلنا كثيرين صادوا فى مثل سالة. قائلاً: «الفرج من الحصار لم يمتدروا المسلمات سلاحاً جيداً ولذا فبسلوا عليه البنادق الرشاشة أو القنصيرة الغنمية.

«أرسوا، أيها الرفاق!» - قال كليوفيتش فجأة بعد أن اقترب من شماكوف. فقد خرج إلى كليوفيتش قبل لحظات منابو العمليات وقال له

شيئا جعل مزاجه يتغير في الحال، وأضاف: - اسرعوا، كي نغادروا المكان
بعد خمس دقائق!

شد على يد شماكوف دون أن يدعل في التفصيل وسجا الباقي
واستدعى أيفانوف قائلا:

- فليخس، أيها الشكايب!

ولحق بهما سينتوف، ونادى كليويفتش:

- أيها الرائي المتقدم!

توقف كليويفتش واستدار نحوه وشد على يده:

- وداعا يا عزيزي، ارسلوا ولا تتأخروا، اعزوني، ليس عني

وقت...

وواصل سيره

الفصل الثامن

منذ أكثر من ساعة والظاهور المكون من ثلاث عشرة شاحنة وسيارات
جيب في المقدمة والمؤخرة يسير في درب غايي يؤدي، كما يقول المارفون، إلى
طريق يوشنوف العام.

الطقس جاف من جديد والرياح شديدة بعد الاضطراب التي تساقطت يوم
أمس. وعلى جانبي الطريق اختلطت اجساد أشجار الخريف الصفراء والحمراء
بالجفول الخريفية الرمادية المتبسطة حتى الأفق البعيد. وكانت الأوراق الغالبة
التي تتلاعب بها الريح تغير الطريق ملأثة بين عجلات السيارات. وفي
بعض الأحيان تلوّح الشمس عبر الغيوم، فيبدو الجو دافئا مرعا.

قبل أن يصعدوا السيارات، عندما كانوا يسادون السلاح، سأل سينتوف
من شماكوف عن الواجبات التي يتعين عليه أدائها الآن وعن السيارة التي
ينبغي له أن يصعد إليها.

فعمدا فقد سينتوف فجأة سريليين الذي كان يؤدي له كل الواجبات
دعوى واحدة - واجبات المرافق والمراسل والشكايب، أحس بأنه متفرغ على
غير المعتاد.

- لا تستعجل! - قال له شماكوف بركة ويدون تكلف. فقد رقد
قواء شماكوف بعد احتفال التكريم واستأ بالبطية آزاء كل ما يحيط به -
سقط في الاسر عندما فصل، يومك أن تصعد إلى أية سيارة تريد.
في الوقت متسع، وسيكون يومك أن تقود قدر ما تشاء!

وصعد سينتوف إلى أول سيارة تصادفه وسط الظاهور.

والى جانبه في السيارة جلس الجندي زولوتارييف الذي وصل اليهم
للك مرة مع العقيد بارافوف. وكان زولوتارييف يرتدي نفس السترة البلدية،
ولكنها الآن مزقة متهرئة. وكان يحمل نفس البلدية التي شاهدها سينتوف

أفذلك. وعندما كانوا في طوق الحصار لم يطلع ببنغية من سلاح الفتية، فربح الآن حيث لم يعلم بنتيقته.

وجلس جنب زولوتاريف من الجهة الأخرى سائق من لواء الديابات طلب منهم أن يوضحوا إلى قاعدة الاتصال في المؤخرة حيث تقف شاحنته. في البداية دار الحديث حول شيء واحد، هو سلاح الفتية الذي سلموه. وكان السائق من لواء الديابات يطلق نكات متواصلة حول هذا الموضوع، فيقول:

- بالطبع لا يطلع احد بهاولكم ورشاشاتكم حتى ولو غنمتم مدفا. اما البنادق الرشاشة فيصور النزاع حولها بالذات. فكيف وافقت قيادةكم على تسليم هذه الفتية للسمة؟ لو كنت قائدا لكم لما سلمت شيئا على الإطلاق! - ما الداعي لنقلها إلى المؤخرة! الحاجة إليها في الجهة الأمامية! - اعترض سينتوف ليس من مصمم الفؤاد، بل من أجل وضع الأمور في نصابها. - في الجهة! انكم لستم مسافرين إلى سيبيريا، ستعودون إلى الجهة من جديد!

- سمعوه، ولكن ليس فورا.

- توضيحاً لك صابئة إنها الرقبة الدرة السياسية - أجاب السائق باحترام غلغوى، ولكن يوشى ساخر في العينين الباكيتين. - ولكني لن أسلمها إطلاقاً أو كنت بذلك! مشيت صواع شديد على شتاتكم هذه! ... قائد اولنا يضع يده عليها دون شك. وسيفول: اتركها هؤلاء! وسوف يأتي مسؤولون من مؤخرة الجيش بلا ريب وسيفولون: اعطونا بنادق! وسأني آخرون من الفرقة المجاورة وسيفولون حق الجيرة: الا تتنازلون لنا عن شيء منها؟ اما عن هيئة أركان الجيش، تحدث ولا سرح! سيأتون ويأخذون البنادق! وسيفولون انكم، يا جنود الديابات، حصلتم على بعض الغنائم في يلنيا. وعلى العموم كان القتال فيها ... في يلنيا سامياً، والغنائم قليلة ... أجل، قليلة ... وانتقل الحديث إلى المعارك الأخيرة في غوساخي يلنيا والتي لم يشارك فيها السائق المذكور، كما فهم سينتوف، ولكنه، على ما يبدو، يكرر ما سمعه عن الآخرين. فراح يتحدث بشيء من البساطة ويقول انه كان لدى الألمان في معركة يلنيا ثمانى فرق وجيش كامل، وأن قواتنا ضربتهم بشدة، ولكنها تراكمت بعض الشيء، في الأخير، ولولا تأخر النتيجة من الجيران، كما يقول السائق (لم يبق بالقيبط أى «جيران» وما هو وجه تفسيرهم) لكان بالإمكان تفسيق الشناق على الألمان جميعاً.

كان جميع الجنود في السيارة يستمعون إليه باهتمام والسيارة تتناقل على الطريق فيفرون بعض الكلمات والبارات ويشاءون عنها من بعضهم البعض. وعندما تحدث السائق عن تفسيق الشناق سأل احدهم ببراءة:

- يعنى انا افلتناهم، اليس كذلك؟

- لم تفعلهم، قداما - أجاب السائق - ولكنهم سحروا آياتهم ... فقد قلت ان الغنائم قليلة.

ومع ان جميع المستمعين قروا لأن قواتنا ضربت القوات الألمانية بقرتها التامى في معركة يلنيا ولكنهم اعتبروا في الوقت نفسه عدم السير بالأمان حتى النهاية وعدم تفسيق الشناق عليها اهانة شخصية لهم. فقد كان جميع ركاب السيارة يتحرقون شوقاً إلى أجل الألمان يقعون في الحصار ويموتون ما عاينوه هم.

وبعد ذلك، بعد فترة من الصمت، سأل احدهم عن حجم الخسائر في معركة يلنيا.

- ماذا أقول؟ ... - أجاب السائق بدون تحديد - ذلك شيء نسبي.

ثم ان الخسائر بالارواح شيء، وبالآليات شيء آخر... وأدرك سينتوف ان الخسائر جسيمة، وأن السائق لا يريد التحدث عن ذلك الآن.

وسأل شخص آخر:

- وسلاح الجوع؟

- لا تحلق طائرات! - أفلت السائق يده من متن السيارة. وأوماً بها إلى السماء - نحن نسير ولا طائرات هناك. وقد صادقت أيام لا يستطيع المرء ان يخرج أفنته من الخندق. اما الآن يوصى ان أقول اننا نسير دون أى خوف. صحيح ان الأيام الأخيرة هادئة، وأن الطائرات نادراً ما تطلق، حتى ان ذلك يشير لثقل، فما سببه؟

- ومع ذلك، ما هي الخسائر؟ - سأل بنادق من جديد الجندي الذي تبادل عن الخسائر في المرة الأولى. - عذركم، مثلاً، في اللواء، كم كان عذركم في بداية الحرب وكم هو الآن؟

- ماذا أقول؟ ... - حارل السائق ان يتملص من الجواب - في المعارك الأولى خسروا عدداً من القتاتلين، وبعد ذلك خلال اختراق الحصار تكبدنا خسائر أخرى. صحيح ان بعض القتاتلين انضموا إلينا في الطريق ... - انضموا إلينا أيضاً - رد غة أشخاص دفعة واحدة.

وراصل السائق كلامه متعلّياً:

— ثم إن الذين تخلفوا عنا كان يمكن أن يلتحقوا بغيرنا. واحدة بواحدة. ثم أعيد التشكيل، وبدأ الحساب من جديد. وبعد ذلك نسي القتال في ضواحي بلينا، وما نحن ننظر الإمدادات من جديد... فكيف يمكن عد الأفراد؟ أثناء مثلاً، في القواء منذ الأيام الأولى، منذ بلوتيم.

— هل إن عدد أمثالك كبير؟

— لم أحسبهم، لا أدري! — قال السائق متحيراً.

وفكر سينتوف من جديد: «ليس كبيراً! ثم سأل:

— كيف تستلمون الرسائل الآن؟ هل البريد الميداني يعمل جيداً؟

— الرسائل تأتي، ولا استطع القول أنها سريعة أو بطيئة، ذلك يعتمد

على مكان وجود الإهل. فإني أهك انت، مثلاً، أيها الرقيب المرشد؟

— لا أدري! — أجاب سينتوف عابساً.

ما كان يريد الخوض في هذا الموضوع.

— لا يوجد شيء أصلاً من الجهل بمكان الإهل — نهّد السائق ولاذ

بالصمت.

عندما سمع سينتوف هذا الجواب فكر «ربما ضاعت عائلته هو أيضاً.

وربما العكس هو الصحيح، ضاعت عائلته أما عائلتي فقد عثروا عليها خلال

هذه الفترة. فالعرب ليست كلها تامة، إذ تصادف فيها حمادة أيضاً!...»

استند بكنهه إلى السيارة وراح يتطلع إلى الأسفل، إلى شريط الطريق

الرمادي المنفصل تحت العجلات، ويفكر بما ينتظروه، هل هو السعادة أم

التحاش؟ أين أبحث؟ ثل ساعته عادت معها إلى موسكو عندما وصل هو إلى

الجيبة. أو ربما بقيتا هناك، في غرودنو، وذلك يعني أنه لا شيء معروف

عندها، ولا شيء يمكن أن يعرف... وأين ماشا؟ هل التفتحت بالجيش أم

لا؟ لم يتمكن من الكتابة إليها صباح اليوم، فقد عزم على الكتابة في

المساء بعد أن يصلوا إلى المكان المطلوب. رسال سينتوف:

— إذا كانت العائلة في موسكو فهل تصل إليها الرسالة من هنا في اسبرغ؟

— في حوالي عشرة أيام.

— وحتى تصل الرسالة إلى فيازما، مثلاً... سأل سينتوف من جديد.

— في مدة أطول من أن فيازما أقرب — قال السائق — فالريد يصل إليها

عن طريق موسكو... فيازما تابعة إلى محافظة سوليفسك، ومحافظة سوليفسك

يحتلها الفريش!

كان سينتوف يأساً: «ماذا؟» فقد سمع بكلمة «الفريش» لأول مرة. إلا أن السائق الذي لاحظ الحيرة تنزلق على محيا سينتوف قال موضحاً:

— نحن الآن نسمي القاشين «بيالفريش». ألم تسمع بهذه الكلمة هناك، أثناء الحصار؟

— لم نسمع بها — أجاب زولوتاريف بدلاً من سينتوف.

فضحك السائق وقال:

— ذلك يعني أنكم كنتم معزولين عن العالم تماماً.

— أناك على حق. كنا معزولين — قال زولوتاريف ويطيب على

ركبة سائق لواء الدبابات — فانا، مثلاً، لم أسك بمقود السيارة منذ ثلاثة

أشهر تقريباً.

— كلنا لم نملك بشيء طوال ثلاثة أشهر وأكثر، ولا أحد يتشكى.

تسير صابرين، أما هو فيذرف الدموع على مقوده... — قال صوت مرح رفيع

من ركن السيارة.

ونضحك الجالسون في السيارة واضافوا إلى ذلك بنضح عبارات أكثر

ابتذالاً. فاستمر الليل وشمل الجميع لبضع دقائق، ثم غفت من جديد.

وقال زولوتاريف بمتاد مؤكداً على اختصاصه في القيادة ومسكاً بزودن

سائق لواء الدبابات:

— انني آخذ إلى مقود السيارة. بودي إن اجلس وأراه الآن — وأوماً

إلى قمرة الشاشة — وأسير!

— هل كنت تعمل في شاحنة؟

— كلا، في سيارة صغيرة. كانت سيارة «جيب» جديدة تماماً.

— ماذا؟ هل تصنعها أم أنك تتركها؟

— أحرقها... أمرني بإحراقها...

— كنت سائقاً لمن؟ — سأله سائق لواء الدبابات.

— كنت سائقاً لأحد... — قال زولوتاريف والتفت نظره بنظرة سينتوف

فلم يضب إلى ذلك شيئاً.

فقد شامت اللباسات أن يكون كلامها شاهدين على الكيفية التي

حلت فيها الشخص الذي ما أراد زولوتاريف ذكره الآن.

في الشهر الثاني من الحصار كان سينتوف يسير ذات مساء ببطواته

العريضة في قسيطة غوروشيف وهو يعمل أمراً من أوامر حرييلين.

كان الرقيب في ذلك المساء شبيهاً بالوضع في الأيام الأولى من الحصار. في

الليل فوجِب في كلِّ بد اختيار الطريق العام، وكان القتال سينشب في أغلب الظن.

بعد أن تحدث سينتوف مع خوريشيف جلسا ليدعن قبل أن يتوجه في طريق العودة. وسبق خوريشيف اعيمونة في السخاء، حيث قدم له، لأجل سجارته لف واحدة، مسحوق التبغ الرخيص المخلوط بأوراق الأشجار الجافة المغروسة.

أخذ أفراد القافلة مواقعهم حوالي بين الشجيرات. كان البعض يستعدون لأن اسلحتهم جاهزة خفيفة، أما الآخرون فراحوا ينظفون سلاسلهم استعداداً للمعركة.

كان زولوتارييف جالساً قرب سينتوف وخوريشيف وهو ينظف بندقيته متشكياً من أن مسح السابورة بقماشٍ عجاف يكون زيت البنادق يشبه سكر حبيرة الإنسان بفشرة جافة.

وعلى بعد عشرين خطوة منهم جلس بارانوف على قرمة وأتهمك بتنظيف مسدس من مسدسات القنينة.

ويتكلم من سربيلين كان سينتوف قد سأله خوريشيف اليوم بالذات عن بارانوف، فأجابته متفهماً بأن بارانوف يقاقل ليس على ما يرام، ويبحث عن الأسهل..

وأوضح خوريشيف فكرته قائلا:

— قبل أيام استبدل بندقيته بالرشاقة بمسدس أعده من أحد المقاتلين. البندقية ثقيلة عليه كما يقول! فهل يوسى أو يوسمك أن تقوم بمثل هذا المبادلة؟ اننى لا أقوم بها. وان هلكتك! فالذى ينوى القتال حتى آخر قطرة من دمه هل يستبدل البندقية بهذه الدمية؟

وها هو بارانوف جالس على القرمة بعيداً عن الآخرين وقد أتهمك بمسدسه.

وفكر سينتوف آنذاك: لماذا يجلس متفرداً؟ وإجاب بنفسه: ربما لأنه ليس واضعاً على مصيره. والآخرين يشعرون بذلك فتجنّبونه.

هكذا فكر بارانوف، ثم أخذ فسا من السجارة وتطلع إلى زولوتارييف فرأه يتحاشى شواية التدخين وينظر إلى جهة أخرى، فسلمه سجارة اللف وقال: «أخذ قسماً».

أمسك زولوتارييف بالسجارة حذراً يامسحياً وأخذ نفساً عميقاً وقصيراً كيلاً يستأثر بالأكثر وأعاد السجارة إلى سينتوف.

وفى تلك اللحظة دوت طلقة.

— من أطلق النار؟ — صاح خوريشيف بصوت أبع غاضب وقد فزع ناعضاً. كانوا قد رابطوا على مقربة كبيرة من الطريق العام، بحيث لا يمكن بآية حال السماح بمثل هذه الأمور. ولكن لا حياة لمن تنادى. فقد عز بارانوف صريماً. كانت الاطلاقة من مسدسه، وقد أصابت الطلقة جبينه مباشرة فاحتوت رأسه.

ظن سينتوف آنذاك أن بارانوف انتحز بعد أن تحب من المخاطر البوية أو شاف من المعركة العرفية. وربما كان هناك سبب آخر، من يدري؟ فهو لن يرد على التساؤلات...

ألا أن سربيلين هز رأسه عندما أخبره سينتوف بذلك وقال: — لا أصدق بأنه يمكن أن ينشتر. الاطلاقة بالصدقة، مع أن قصد أسبانيا: صار مهملًا لا يهتم بنفسه، وأخذ يظف المسدس بأعمال أيضاً، وهو سلاح جديد عليه. ذلك هو سبب الرصاصة فى الجبين. وبوسعك أن تصفها كما تشاء: بالصدقة أو بدون صدقة.

ظل سينتوف على رأيه، وعلى العموم فهو لم يفكر بذلك ملويلاً. فإن المعركة الليلية التى قتل فيها الكثيرون قد شطت فوراً على ما حدث.

وشطب سينتوف اسم بارانوف من القوائم كما يفعل عادة عند حساب كلِّ الحناظر. وانتهت القضية عند هذا الحد...

ولكنه عندما التفت فلفرة سينتوف بنظرة زولوتارييف الآن تذكر كلاًهما الصوت الجاف. لتلك الاطلاقة فى النهاية والى قطعت. حبل حياة الشخص الذى لم يرغب سائقه السابق في ذكر اسمه.

— هذه قرينى، هذا منزلى الحبيب! — صاح سائق لواء الدبابات مرصاً وطرفاً على سطح قنوة الشاحنة: — تمهل، هنا ينبغي أن تستدير نحو قاعدة التصليح.

فى السكك الذى نزل فيه يمشى إلى أعماق الغابة طريق عليه آثار سير جديدة. وعلى طرف الغابة استقرت مدافع مضادة للجو فى جفر مريضة ومنطقة شباك تمويه. وعلى الطريق نحو أعماق الغابة زحفت دبابتان من طراز ت-٣٤ وهما تزاران مختلفين حوزوا مستنة مزودة.

تذكر سينتوف كلام السائق عن قاعدة التصليح وفكر فى نفسه «لعلهم يجربون السير بعد التصليح».

تجاوزوا الدرب الثاني وواصلوا السير. بعد ان افصح لهم المجال طابور من الشاحنات الجديدة الخضراء المليئة بصناديق الذخيرة. وكانوا قد صادفوا طابورا آخر من هذه الشاحنات قبل ذلك، عندما خرجوا من النابية. وقد رأوا المدافع المضادة للجو. ليس للمرة الاولى. فقبل نصف ساعة شاهدوها لمحا في اجمة قرب احد الجسور التي اجتازوها. كانت اعمدة الدخان تتصاعد فوق النابية في بعض المناطق. وشاهد سينتوف في احد الاماكن بطارية للمدافع الثقيلة. وعند مداخل الجسور وقف الحراس.

وعلى ارتفاع شاهق سمحت نحو الغرب ثلاثة اسراب من تسع قاذفات قنابل سوفيتية في كل منها وترافقها المقاتلات.

ولو سألت سينتوف الآن عما يهدئ من روعه أكثر من أي شيء آخر بعد ما عاناه في الحصار فربما اجاب ان ما اعاد الاطمئنان الى فؤاده هو بالذات امارات الجيش ودلائل النظام العسكري المرتسمة على مشهد الحياة السلمية فان هذه الامارات والدلائل وبشاشة بعد له بان ما شاهده لن يتكرر بعد الآن، وان الجيش نهض هنا، نهض من زمان وعلى نحو راسخ، وان لن يتسحب امام الالمان.

عندما تذكر سينتوف الالمان الآن كان يريد شيئا واحدا لا غيره، هو ان يفعل بهم كل ما فعلوه بنا، ان فطادهم مثلنا طابورا، وان تقصفهم ونطلق النار عليهم من الجو، وان قتلث عليهم وسحقهم بالذبايات. وان نطوقهم ونقتهم بدون طعام ولا ذخيرة، وان نأسرهم ولا نرحمهم، مثلما فعلوا بنا تماما. اراد سينتوف ذلك، واراد بشدة يجعله يفهم في وجه الشخص الذي يتجرأ على القول بأن ثأره هذا سيهدأ في يوم ما وان حقه هذا سينضب.

كانت الشاحنة تسير وكان سينتوف يفكر بهجومنا المرتقب: فهذا الهجوم سيحقق في وقت ما، اليس كذلك؟

والى جانب ذلك كان هناك شعور آخر، شعور بالاستحجام والسعادة القادرة. فخلال شهرين ونصف امتلا ذهنه وبصرته برؤية الارض والسعادة والصنوبر والبترول، والقمح والخالية في الغابات، واجمة الشوح هذه التي تركض الآن لملأاة الطريق. والهوى يخيم في بعض الاحيان عبقا ما كنا حتى يمكن سماع الانتفاص... الا ان ذلك كله، على ما يبدو، كان هناك، في مشورة الالمان على غير ما هو عليه هنا: فاليتولا غير البترول، والصنوبر

غير الصنوبر والارض غير الارض، وحتى الهوى يشغف عما هو عليه... اما الآن فكل ما يلوح امام الانظار يفرح القلب ويشير السعادة. كانت السادة تنبت من كل شيء: من السيارة التي تنهب بهم القرب نهبا، ومن عصلات شعر خوريشيف الشقراء المتطايرة في الريح، حيث مد رأسه من قمرة الشاحنة البائرة في الامام، ومن اشجار الشوح، السماوية اللون واشجار البتولا الصغيرة الازرق، ومن الاجسام المتعقولة، ومن دخان المدافع، والناس، والمدافع المضادة للجو، ومن طائراتنا المتحلقة في الاعالي، ومن مقاطع الاغنية النتبعة من الشاحنة في الامام.

كان سينتوف يسبح في هذه السعادة القادرة ويشطط بنهم الى كل شيء يعين سجينين دامعين من الريح ويضم دون سبب، وهو يتحس برود الخريف الذي يكتشفه مشربا الى تحت ياقة المطف.

وعلى هذا النحو بالضيء كان مقبوض الكتيبة شماكوف يتسم احيانا مع نفسه صامتا، وهو جالس ينظر من النافذة الجانبية في سيارة «الجيپ» بأخر الطابور. كان جالسا على المقعد الخلفي بين الميجر داتيلوف والطبيبة الصغيرة. وفي بعض الاحيان يقلع سبل افكاره فيطلع للحظة الى الامام، الى ظهري السائق والمراسل المروضين الجالسين على المقعدين الامامين.

لقد تبخر على اية حال، ان لم نقل ثلاثي نهائيا، شيط شماكوف في الصباح بسبب تسليم سلاح النخبة. تبخر لانه صار في طلي الناحية وبدا الآن قليل الاعية. ثم ان المقائين، عندما وصل الامر الى حد تسليم السلاح، ملحو بهدوء اكثر مما كان شماكوف يتوقع. ولما كان الشرء الرئيسي الذي دفعه الى الجهاد من خوفه من تعرض جنوده للاعتاق، فقد عث الامر عليه تلقائيا.

الطبيبة الصغيرة لم تتأوه ولا مرة واحدة اثناء الحصار، ولكنه ضياح اليوم احسب ضجاءا بركعة. فنامت طوال الطريق بشكل كومة ساخنة محمومة منزوية في الزكن. اما شماكوف فكان يتطلع من نافذة السيارة ويدخن باوتيلج سيارة اثر اخرى من سجنائ «كازيك» من المحافظة التي ينهب داتيلوف لها كل مرة يقتحمها امامه.

في البداية، عندما عرض عليه الميجر داتيلوف ركوب سيارة «الجيپ» هم شماكوف بالرقت، لان غيظه كان لا يزال شديدا. وفيما بعد، عندما ركبا السيارة وانطلقت بهم اراد ان يواصل النقاش مع داتيلوف بصدد القطة الحقيقية والانتياب الفارغ، ولكنه اجل ذلك لانهما لم يكونا لوسهما في

السيارة. فقد كانت الطليعة مع شاكوف، وكان مع دانييلوف مقاتلان، وبعد نصف ساعة فقد شاكوف الرقبة في الجدار.

وكلما طال سير الشاحنة كلما نما في قواده التعصب ويدهن الزهرن الشمور بالفرسة، بل والرقعة. لأنهم خرجوا من الحصار بأجوبة، أحياء سالين، بعد كل ما حدث، خرجوا مكربين عبر الممركة.

وأخيرا، عند انتهاء الساعة الأولى من الرحيل لم يعد يشمر بأي غيظ على دانييلوف، فقطع حبل الصمت. غييم الصمت على السيارة بسبب شاكوف، ولكن هذا الصمت أخذ يثقل عليه قبل غيره. فقال:

— مؤخرة جبهتكم بعيدة.

— من قال بعيدة؟ — اعترض دانييلوف وهو راغى لأن المفوض الذي اعنيه بالفعالة التزيه في الصباح لم يده، أخيرا، يعمل غيظا عليه. — السافرة طليعية! فالجبهة واسعة، ومن في الجناح. وإذا تواجدت مؤسسات المؤخرة قرب احد الجنائحين فانها ستكون بعيدة عن الجناح الآخر.

— فلنترك مؤسسات المؤخرة وشأنها — قال شاكوف بالجبهة تنم على ان كلامه عن المؤخرة يستهدف يده الحديث لا غير — من الأفضل ان نحدد كيف حال موسكو. هل تقصرت كثيرا؟

— لم ازر موسكو. ولكنني سمعت قبل يومين اقوال شاذة عيان. التدهور قليل. فهم لا يسمحون القدو بالاعتراق!

— واقع! — قال شاكوف فرسا — هل تعلم ياني عندما التفتت بالجبهة في اواسط نموذ كنت ينسى اهدأ الرفاق من أبناء موسكو وغيرهم بأن العدو لا يسلك فوق موسكو، وحتى لو حاول فلن نسمح له! وأيضا يده، أثناء الحصار، قرأت مختلف المنشورات... فلن يقدمها التفتت عندما يفترون عليها؟ للمفوض... ولذا قرأت منها الكثير! — قال ساعرا — وفي بعض الاحيان كنت اشاق على موسكو اشد الخوف! فمناشيرهم تدعي انه لم يبق من موسكو شبر على شبر. كنت افهم انهم يكذبون، ولكن الى اي حد بلغ كذبهم؟

— أجل انهم يكذبون بقدر كبير جدا — قال دانييلوف — يقال ان التدمير في موسكو لا يبلغ اثنين بالمائة.

— واقع! — كرر شاكوف فرسا.

وبعد ان بدأ كلامه بالسؤال عن موسكو لم يتوقف وراح يطرر دانييلوف بمختلف الاسئلة الاخرى: عن المؤخرة، وعن الجبهة، وعن الخسائر وعن المعنويات،

عن كل ما يدور بهاله وما لم يتمكن من الكلام عنه في ليلة البرادة، تلك الليلة المبرقة تقريبا في لواء الدبابات.

— يمكن القول انك داهموني مباشرة دون ان تسمح لي بالتعظيم لحالة الاستعداد الحربي — لم يتحمل دانييلوف العبوس فابتسم اخيرا.

— لا بأس، اصبر وتحمل! — هقمة شاكوف — لقد صبرت انا وتحملت اكثر من ذلك. فطاول شهرين ونصف لم اقرأ ولا كلمة مطبوعة واحدة ما عدا اكاقيب الفاشيين!

ويطرح على دانييلوف عدة اسئلة اخرى، وأخيرا عن مدة وصول الرسالة من الجبهة واليها. قائلان جميعا من بنى البشر، وتشغل بالهم جميعا أمور بينهما...

رفجأة، بعد ان اجاب دانييلوف على السؤال الاخير وحرك ملاقبته الى الامام وحك قفاه في انتظار السؤال التالي، سمع بدلا من الصوت شخيرا راكنا متبا. فقد غفا شاكوف دون ان يكمل الكلمة التي بدأها، غفا كثيرة اقتطعت في الحال. فالتعب السديد اجهز عليه هو ايضا في آخر المطاف...

— هيا، اذك، اذك، اذك! استيقظ!

سمع شاكوف هذا الصوت في فوذه، ولكنه لم يستطع ان يستيقظ. — استيقظ، هيا.

فتح عينيه. كانت السيارة واقفة. ولم يكن فيها السائق والمراسل، كما لم تكن فيها الطليعة. اما دانييلوف فقد فتح الباب وهو واقف في خارج السيارة وراح يسحب بقوة من يده.

— اسرع الى الساقية! ... الطائرات! — صاح دانييلوف بنفضب، ولكن بدون اضطراب، والحق يقال.

نزول شاكوف الى الطريق وقفز الى الساقية. كانت الطليعة جالسة هناك تسمح عينها بقيمتها وتبشع باعتذار. كانت لاهمة ولا تدرى كم تقلعون من الطريق وما هو الوقت الذي صرفوه في التوهم.

القائمة تحيط بهم من كل الارباء. توقف الطابور كله وتجمد في مكانه. لم يبق في السيارات احد. فقد تمسكوا من التوزع على ساقيتي الطريق. وكان اثنان او ثلاثة في الامام لا يزالون يميرون الطريق واكتفين.

قدمت الطائرات من جهة الغرب. كانت مرتفعة وقرية، ولكن ليس فوق الرؤوس بعد.

— ربما هي طائرانة عاتية؟ — قال شاكوف بتردد من أجل أن يهدئ من روع الطبيب بالأساس، مع أن الهدئ القليل المتقطع المعروف لديه كان يقول له أن الأمر ليس كذلك، وأن الطبيب ثم تكن قلقة إطلاقاً.

فقال دانييلوف ساخراً:

— سئري ذلك الآن، اليس الأفضل أن نجلس؟

تطلع إلى شاكوف بنظرة فيها شيء من الدهشة، وجلس الترقصاء قبل فلس الأرض بيده قليلاً، ثم راح ينفض الرمل من اصابه بكل عناية. مرت عدة لحظات مضطربة أخرى، انطارت الماتية، وهي الآن فوق الرؤوس مباشرة، وأولها قدقت قنابلها لاخطأت الهدف. قال شاكوف ذلك لدانييلوف. فاجاب هذا:

— صحيح. ولكنها ربما تستدير إذا كانت قد لاحظتنا. فالأفضل أن نستظر ثلاث أو أربع دقائق أخرى.

الآن انطارت ثلاث لم تستدر. سفلت في نفس الاتجاه ونفس الارتفاع. ومن مكان ما في الإمام أخذت المدافع المضادة للجو تصريها ببطء، ولكن على نحو دقيق نسبياً. في البداية ذابت عدة كريات بيضاء خلفتها انفجارات القذائف المضادة للجو بشكل غيوم صغيرة تحت الطائرات، ثم ظهرت تلك الكريات فوق الطائرات وإلى جنبها. ثم ارتفع الدخان من إحدى الطائرات، فالت الطائرة جانباً والدخان المتصاعد منها يزداد كثافة. أما الكريات البيضاء، فراحت تتناثر من جديد في السماء، ولكن هذه المرة على مسافة كبيرة خلف الطائرات. — انطارت أولها وبا لانساف! — دملت امارات الاسى محل امارات اسل! وكانت أول من قفز من الساقية. وبعثت امارات الاسى محل امارات المضادة على محياها فتغير بسرعة تغير وجوه الانطلاق.

— ما أشد مملكت! يكفى أنهم عابوا إحدى الطائرات! — قال دانييلوف. — يمكن ركوب السيارات الآن!

خلع طاقته الخضراء، طاقته رجال الحدود، وراح يلوح بها للمقاتلين كي يصدوا إلى السيارات.

— كل تعلم... قال شاكوف التي فارقته، بعد ظهور الطائرات الانامية، حالة القرفة القاتمة وعاد إليه من جديد الشعور بالمسؤولية عن المقاتلين. — سأترككم، وسأخذ إلى إحدى الشاحنات وسط الطابور. مقوض القروح في الإمام وأنت في الخلف، وسأكون أنا في الوسط. ذلك أفضل. أما الرقبة الطبية فانركها تحت رعايتك! — يتسم وكفى على طول السيارات التي كان المقاتلون يصدون منها.

كانت سينتوف جالسا في الشاحنة عندما ركض قريبا شاكوف بخطوات رياضية متزنة. ركض بقاته القصيرة المكتنزة وشعره الاثيب، وبدا من سرعته وكأنه في عمر أقل من عمره.

— القلب لا يزال يتحمل رغم بلوغى الثانية والخمسين! — قال يروح ويدون لهاث مخطبا سينتوف والآخرين الذين كانوا يتطلعون إليه من السيارة.

اجتاز سيارة أخرى وسعد إلى التي تلتها، صعد إلى السطح وليس إلى القمرة، مما أثار ارتياح المقاتلين الجالسين هناك. وكان سينتوف طوال الوقت يرى في الإمام رأسه المستدير الاثيب المكتشف.

وعندما تحرك الطابور من جديد ارتفعت الأرض والهواء مرارا من انفجارات القنابل في مكان ما في الإمام.

وظل الجميع يتوقعون انفجارات أخرى، ولكنها لم تحدث. فقال زولوتاريف: — لا يبدو أنهم انجزوا النصف. لقد رشوا قنطرة فقط! فبادا تستطه

إيها الرقيق المرشد؟ كان رأى سينتوف من رأى زولوتاريف. لم تشكر امزجة المقاتلين. فان نصف جنود الدافع المضادة للجو الذين اسقطوا طائرة على مرأى منهم قد بددوا القتل الناجم عن ظهور قاذفات القنابل الانامية.

بعد بضعة كيلومترات تلكأ الطابور، فقد وصل إلى المكان الذي سقطت فيه القنابل قبل قليل. لقد غضب الالمان لفقدان الطائرة ذافوا بعدة قتال على مواقع البطارية المضادة للجو والمراقبة قرب الجسر على نهر صغير. البطارية لم تصب بأذى، إلا أن قنبلة سقطت على مقربة من الجسر وشوهت الطريق أمامه وادت قوة مدمرة الانفجار إلى تحطيم دربوونه وقسم من أرضيته. توقف الطابور في البداية، ثم، رأى سينتوف من بعيد أن سيارة والسيب عبرت الجسر بعدد ثم أخذت الشاحنات تمرير الواحدة تلو الأخرى. وعندما اقتربت سياراتهم من الجسر وقف سينتوف على منها ليراقب عبور السيارات الانامية. في تلك اللحظة كانت شاحنة شاكوف تمر الجسر، وكانت على المكان الذي طاربت أرضيته — بطول أربعة أمتار تقريبا. ماربت الشاحنة باستقامة على عارضتين خشبيتين سيكتين كانت الأرضية تستند إليهما. سارت السيارة ببطء ودقة. وأزاحرت المبعلمان الإامينان أو المعلقين قيد انملة لمسقطات السيارة.

وهذا بالذات ما حدث للسيارة التالية التي كان غوريشيف جالسا في قنبرتها. ربما لم يكن السائق محتكا كالأخرين، فقد انصرف بالمقود

قليلًا، وانزلت البجلة الخلفية من المارضة، فسقطت السيارة وعلق عود كرادنها بأحدى المارضتين، ومن حسن الحظ أن عجلتها الإماميتين نشبتا بالمارضة الثانية.

لم يصب أحد بأذى. إلا أن أحد المقاتلين سقط من متن السيارة بسبب الصدمة ووقع في التهرير، وما هو مخرج من الماء مبتلا من رأسه حتى قدمه، ورفاقه يضحكون عليه.

وبعد لحظة وقف غورييف على الجسر وراح يصدر أوامره إلى المقاتلين الذين قزلوا من سيارته والسيارة التي يستقلها سيتسوف وشغلوا أماكن متناوبة لكن يعضوا السيارة على المارضتين بجهود متضافرة.

وصاح شماكوف من الصفقة الأخرى بعد أن كور قبضته أمام قفه كالقو: هل تنتظركم أم لا؟ ولكن دانييلوف الذي تجاوز سيارته والجيبيه من طرف الطريق الشاحنات المتوقفة ووصل إلى الجسر أجابه بتلويحه من طاقته الخضراء بأنه لا داعي للانتظار، ولا داعي للتمسك على الطريق.

ثم صاح: - وصلوا سيركم. المسافة قصيرة من هنا إلى طريق يوشنوف. بعد خمسة كيلومترات تصادفون مفرق الطرق فاستدبروا نحو اليسار وسلمق بكم. ثم أن سيارة والجيبيه تسير في الامام وتترككم الطريق!

صعد شماكوف إلى سيارته التي سارت إلى الامام لتلحق بالشاحنات الأخرى، أما العمل على الجسر فقد استمر خمس عشرة دقيقة أخرى.

وأخيرا عبرت الشاحنة الجسر بسلام. وأمر دانييلوف جميع ركاب السيارات الأخرى بأن يتزلوا منها، وبسج للسيارات بالبورود واحدة تحت إشرافه شخصيا. وعندما وصلت آخر سيارة إلى الصفقة الثانية تحرك دانييلوف بسيارته والجيبيه على إثرها. وواصلت الشاحنات سيرها نحو طريق يوشنوف أمام كي تلحق ببقية المايوز.

لم يكن أحد يعلم، لا مقوض الفوج من الشعبة السياسية للجيش، ولا التقدم من شعبة التشكيل، ولا شماكوف الذين ساروا في أول الكابور ووسطه ولا دانييلوف الذي سار في آخره أن فيائق القبايات الألمانية اخترقت الجبهة الغربية جنوبى وشمالى يليا قبل بضع ساعات، وأنها ترسف عشرات الكيلومترات في الإعماق ساحة مؤترات جيشنا.

لم يكن أحد منهم يعلم أن اتقوت الاضطرارى عند الجسر والذي شطر مايورهم إلى شطرين قد قسمهم في الواقع، جيبيهم، أو جميعهم تقريبا إلى أحياء وأموات.

لم يكن يوسع. شماكوف أن يعلم بأن الشاحنة التي صعد إليها ستكون آخر سيارة تستدير بسلام من طريق يليا إلى طريق يوشنوف.

ولم يكن يوسع دانييلوف أن يعلم أن طريق يليا الذى يستد بموازاة الجبهة تقريبا سيقتو بقة مايورهم بعد عشر دقائق إلى المفرق على طريق يوشنوف في اللحظة التي يصل فيها إلى هناك، عبر مؤتراتنا، الفصل المتقدم القبايات والشاقلات المدرعة الألمانية.

لم يكن يعرف ذلك ضار باطمانا إلى الامام، لقاء الموت. قال دانييلوف للجيبيه: - سيرر زمار. اربعة كيلومترات. حتى الطريق العام، وسيكون ذلك

ثلث المسافة. كيف ساك الآن؟

- لا بأس - ليست الطيبة جيبيها الساخن - حرارتى مرتفعة قليلا، وسيرر ذلك بسلام. دخن ولا تهتم - أضافت عندما لاحظت أن دانييلوف أخرج سيارته ثم دسها في جيبيه من جديد - أنا لا أدخن، ولكنى أحب الدخان - قالت بما اعتادت عليه من تكرار ذات وأطلقت عينيها، مع أنها لم تدر رغبة في الترم، كيلا يتردد الميجر في التدخين.

ظلت الطيبة مختلفة العيئين وراح الميجر دانييلوف يدخن ويتأقش من جديد، مع نفسه، الشجار الذى جرى في الصباح بينه وبين شماكوف. النظام شيء لا يتقبل الجدل. وظالما هو موجود فلا يجوز لأحد في الجيش أن يخرفه، مع أنه، إذا اردنا الحق، لم يكن في هذه الحالة ميلا إلى سحب هذا السلاح من اصحابه. وقد وضع نفسه ذهنيا مكان شماكوف، ولكن: لو كنت محله في الصباح لانقلعت أيضا. فهناك فارق كبير عندما يفرج العدو من الحصار على أنقراد أو مع شخص آخر أو شخصين بدون بزة عسكرية ولا وثائق، وعندما تتفرق الحصار وحده كاملة سلاح السلاح والوثائق وشارات الرتب. فالمعالة في هذه الحالة تتطلب ترك سلاح الذخيرة عند اصحابه وأن كانوا متجهين إلى المؤخرة. فمن صفهم أن يفتخروا ويتباهوا به! وفيما بعد من واجبنا أن نعمل اللازم لنثبت من نزاهتهم، دون أن نقبل كراذبتهم. وإذا حصل أن بينهم ساقلا فنزغ سلاحه.

لم يكن دانييلوف راضيا. هل سادت اليوم، كما لم يكن راضيا على بعض الأشياء الأخرى مما صادفه منذ أن انتقل من وحدات الحدود إلى الشعبة الخامسة. فذلك عمل عسير.

اكتسب دانييلوف خبرة كبيرة خدمته الطويلة في قوات الحدود، واصيب بجراح في معركة غالينغول. وانسحب مع البقية الباقية من فصله

من لوسباج. وهو يشتغل بصيرة ثاقبة وذاكرة حادة وقابلة على سير اغوار
الناس، وكيفية الثقة أو الارتياح بهم. ويفضل هذه الصفات كان دانييلوف
من اولئك الأشخاص الذين يلاقيهم العمل في الشعبة العامة تماما. انه
غير مبتدئ بنفسه، ولكنه كان يحس بأنه في المكان اللائق به.
ولانه تمكن من التفتش على جواسيس وسريين حقيقين خلال مدة طويلة
فهو يدرك تفوقه على بعض المائتين معه ممن لا يفرقون بين الحقائق والاكاذيب،
بل ولا يبدون الاهتمام اللازم بذلك احيانا. اعطى دانييلوف الحرب على
ادخال هؤلاء المستخدمين وخلال مدة قصيرة من خدمته في الشعبة العامة
تسنى له ان يكشف بلا رحمة عن حقيقة واحدة منهم.

وعا هو الميجور دانييلوف بالذات يتقدم الآن الى الموت، دون علم
منه، اناسا تخلصوا ثوبا من يرثي ذلك الموت.

— سنسبل الآن الى المشرق الذي تحدثت عنه— التفت دانييلوف الى
الطبية وفتح نافذة السيارة عندما رأى انها ليست فارغة.

وفي تلك اللحظة انفجرت القنبلة الاولى ولوح دانييلوف اللبابات
الالمانية ترسف عبر الحقل لتتسلق طريق يمتدح...

لم يتسع الوقت لاستدارة السيارة، ثم ان دانييلوف لا يمكن
ان يشد النجاة وحيدا ويركض الطابور في محنته. فتح الباب بشدة وكان
هو اول من قفز الى الطريق حاملا البندقية الرشاشة الموجودة معه طوال الوقت
في السيارة. وقفز على اثره سائقه ومراسله بسلامتهما. وصاح دانييلوف بالطبية
وسحبها من السيارة من يدعا:

— اتقري!

وحشد على الطريق شيء يفرق التصور.
التهمت البراز الشاحنة الاولى التي توقفت في عرض الطريق. وفردت
الشاحنات الباقية وامسكملت الرأسة منها بالاسرى. وانفجرت القنابل على
الطريق وعلى جانبيه، وقفز المقاتلون من الشاحنات وانطلقوا على الطريق وفي
الواقى وراكضوا في الحقل. وضربهم اللبابات بالمدافع والرشاشات.
وصعدت دبابة الى الطريق العام ورايت ببدا الطابور وراحت تقلب
الشاحنات الواحدة بعد الاخرى في الساقية بصواريخ شديدة وتسحق المقاتلين
وهم يفتقرون من تلك السيارات. ومن النافلات المدفوعة السائرة وراء الدبابات
قفز سربون البان وراكضوا الى الجانبين وراحوا يمحضون كل ما هو حي
بينادهم الرشاشة المصوبة على مستوى البطل بشكل مروسة.

ولم يده الوقت كافيا، بل ولم يكن بالامكان. جميع المقاتلين الذين
جرد ثلاثة ارباعهم من السلاح واصدار الاوامر لهم. ولم يبق غير حماية
الراكضين بالثار على قدر المستطاع وبيع التحيلة بشئ اقل.
وبدا ما قلته دانييلوف سائقه ومراسله.

انطلق دانييلوف في الساقية وراء سيارة، وهو فرح — اذا كان بالامكان الحديث
عن الفرح في هذه اللحظة — شيء واحد هو ان الالمان المنتشين بالنصر السير
تقزوا من التفلات المدفوعة وسيفترقون منه راكضين وعدة ذلك ميتخل عفدا منهم.
الثبت دانييلوف الى الوراء فرأى وراء الطريق شجيرات تمكن بصفة
مقاتلين من الوصول اليها راكضين تحت وابل الرصاص.

— اسرع الى الشجيرات ولن تصابي! — لمس دانييلوف بكموه. كلف
الطبية المنطعة قربه في الساقية — عجل كيلا يفوت الاوان!

الا ان الطبية نظرت اليه نظرة صاعقة ثم اشاحت بوجهها، فهي لم
لكن تريد ان تسرع ولا ان تنجو من الاساية. كانت تريد ان يمشي
لها الوقت كي تطلق النار من مسدسها على الالمان ثم تموت فلا تعرف
شيئا ولا ترى اكثر مما رأت!

وعند ذلك دفعها دانييلوف من كتفها واستدار بها ودفعها من الساقية.
عندما وجدت نفسها فوق ثلقت عاجزة، ودم قرحها جديان راكضان
تركضت في أثرها متخعة مع الثيار.

تلبظت الله الآخرين من ان يروا قبل الممات ما رأى دانييلوف
ون ان يفكروا بما فكر فيه. لقد رأى الاشخاص المنزل الذين جردهم من
السلاح، هو دانييلوف يهيمون الآن على الطريق ويطلق الالمان النار في
ديورهم. قليلون جدا هم الذين تمكنوا من اطلاق طلقتين او ثلاث طلقات
بأثرة قبل ان يغرروا صريين. فالاغلبية مائت عزلاء من السلاح وسحروية
من آخر فرقة بشرية مريضة هي قتل العدو قبل الموت. كانوا يفرقون وكان
العداء يقتلونهم من الخلف. كانوا يرفضون ايديهم وكان العداء يقتلونهم بالوسية.
حتى في انطلق الكوايس لا يمكن ابتداء مسؤولية اقصى من
المسؤولية الادارية التي لا تفل عن ذلك قطاعة والتي وقعت من نصيب دانييلوف
الآن. قال الموت نفسه سهل لا رعب فيه بالمقارنة معها.

لقد قبله دانييلوف، تقبل فيه الموت دون خوف او وجل. فبعد
ان دفع الطبية من الساقية فتح النار على الالمان وقتل خمسة منهم قبل
ان تحطم رصاصة المانية جميعته.

ان آخر ما سمعه في حياته هو صلبة اليقظة الرشاشة التي ملطها على
الالسان مباشرة، عن بعد ثلاث خطوات، مراسله الذي طال عمره بتأني
واحدة عن عمره.

وبعد بضع ثوان وقت الجنود الالمان عند الجثث الثلاث المسجاة
في الساقية. وانحنى ليشتتات الباني غطي هذه المرق برصامة يمتدبل منع
بالدم وراح يتنصص الشاويين الخضراوين الصارشتين على ياقة البيجر الروسي
الثقل المسجي. عنه قديمه.

الفصل التاسع

في المساء الثالث بعد ما حدث في طريق. يوشوف سار ثلاثة اشخاص
في غضم الغاية على بعد خمسين كيلومترا تقريبا عن مكان الكاثرة. والاصح
ان اثنين منهم كانوا يسيرون وهما الدرشه اليابسي سيثوف والجندي زولوتارييف.
والشخص الثالث هو الطبيب العسكرية تاتيانا اوفسيانيكوف، او تانيا كما صار
يسمونها سيثوف للتصغير. وقد فقدت منذ ظهر اليوم قدرتها على المشي.
فصار الرجلان يحملانها، حسب الدور، على الظهر في المعطف المشمع وكانها
في كيس كبير.

جاء دور سيثوف. سار محني الظهر وهو بعد في نفسه الالف خطوة
لتيانية حتى الموقف الاخير. لف طرف المعطف المشمع على قبضته كيلا تدلته
اصابه الواهة ولا تسقط الطبيبة من على ظهروه. وأمامه المحموم يستقر على
كفيه ويترجرج ككتلة موات مع كل خطوة يتخذ فيها. وفي بعض الاحيان
كان يتحنى ليضع قبضته المرق الساخن الذي يسيل على عينيه فيرى تحت كوعه
الامين قس الطبيبة التبتليت من المعطف. احداها بجيزة والاشرى حافية
ممسوحة، وهي صغيرة جدا كقدم طفلة. لا يبدو هذا الحمل طفلياً على
سيثوف وحده في وقت غير هذا الوقت. الا ان الرجلين اللذين شارتا قولها
بعد اربع ساعات من السير على هذه البقيرة قد شمرا بالعجز، واسف سيثوف
لانهما لم يتوقفا منذ البداية لكي يتعلما اغصانا. ويصنعا منها نقالة. فهذا
شيء لا يد من القيام به في مكان التوقف!

كل خطوة يخطوها جميع الذين فجوا في اللحظات الاولى هناك، على
الطريق العام، صارت الآن تخطوى على مزيد من الصدق والخطاير، وتذكر
بجاء اخرى وبوت آخر في اية جهة تشبه اليها تلك الخطوات.
فالذين تبعوا في اصافق الغاية على يسار الطريق في انتظار حلول الليل

فعلوا ريبا بالرصاص عنه المتعقب من قبل الجنود الذين دخلوا النائية. وريبا كان الالمان في حالات اخرى يأخذون الاسرى، ولكن رصاصة اردت بالصفة اراء على العكس، يستهوى البرود قائد فوج دبابات الاساس الذي راقب الجزيرة من برج دبابته، فأخذ الالمان يأترون لهذه المفاجأة دون رحمة.

وبعكس ذلك كان مصير الذين فروا الى المكان الذي بدا افق امانا، الى التجمعات الصغيرة على يمين الطريق. فقد ظلوا احياء، لان الالمان لم ينجسوا عنهم هناك، وفي تلك الليلة نفسها وصلوا الى ما وراء الطوق الالمانى. واجتمع عدة مئات من الجنود حول الملازم شرويشيف بعد ساعة من التكاثر فعادوا ببيادته دون ان يضيئوا الوقت مدى وتلاقوا عند المساء مع جنود الدبابات من لواء كليمويتش، وتعين عليهم ان يخرجوا مع هؤلاء من حصار جديد.

اما الذين دخلوا النائية وساروا غيرها باستقامة نحو الشمال مؤلفين في الاضداد عن الالمان فقد بقوا على العكس، في مجال سير طواير الدبابات وارتال البشاة التي اسرعت لطلق طوق الحصار الكبير حول فيازنا.

كان سيستوف من هؤلاء. فقد قفز من السيارة وهرع الى النائية وسار دون توقف في الساعة الاولى بعد التلاصق وهو يفكر في شيء واحد - الابتعاد لأكبر مسافة ممكنة. في اللحظة الاولى التي سمع فيها الاطلاقات ورأى الدبابات والالمان الذين قفزوا من الناقلات المدعمة استسكت يده بالهوى في المكان الذي تتدلى فيه عادة بقية الرشايش على الصدور... ولكن البقية لم تكن موجودة، لم يكن هناك اي شيء، حتى المسدس. وعند ذلك قفز من على متن السيارة وهرع الى النائية.

التقى مع زولوتاريف بعد ساعة. فبعد ان ركض وقطع عدة كيلومترات توقف وبالي الجذع متعباً ممرراً كى يلتقط أنفاسه، وفي هذه اللحظة اقترب من زولوتاريف بسترته الجلدية المرفقة، والامر الاهم انه يحصل بتدقيق على كفه.

— لماذا تأخر ايها الرقيق المرشد السياسى؟

كانت هذه الكلمات الاولى التي قالها زولوتاريف افضل الكلمات التي يوسنها ان تميد يشد شخص مستحق ايزول نسى طوال ساعة انه كان قائدا، بل والله ملزم بأن يظل قائدا.

— مستغرق في الحال - اجاب سيستوف وهو يحاول التظاهر بالهدوء ويتطلع في تلك اللحظة ليس الى زولوتاريف بقدر ما يتطلع الى بتدقيقه. «ها نحن اثنا، ولدينا بتدقيق على الاقل» - فكر سيستوف وقال لزولوتاريف من أجل ان يستعيد هدوءه قليلا:

— فلتجلس لتدخن.

جلسا في المكان ذاته، تحت الصبورة، اخرج سيستوف من جيبه علبة سجاير «كازيك» تكاد تكون كاملة، واخذ يدخن اثناء تسليم السلاح كان مساعد كليمويتش لشؤون المؤخرة قد وزع، بأن من سجاير «كازيك» على جميع القباط الذين خرجوا من الحصار.

— يبدو اننا اغنياء ايها الرقيق المرشد - قال زولوتاريف وقد اخذ بارتياح قصفا عتيقا.

— لا يوجد اغني منا! - قال سيستوف - بتدقيق واحدة لشخصين!

— اليس عندك مسدس؟ - سأل زولوتاريف.

— لى وصل بتسليم البقية الرشايش موقع من مدير المؤخرة! - قال سيستوف بتعجب شديد - واذا دعت الحاجة ساطق اثار منه!

— لا بأس، منحصل على سلاح بشكل ما، ايها الرقيق المرشد! - قال زولوتاريف مؤثرا ووضح بانه منذ نصف ساعة كان يسير في اثر سيستوف، ولم يقترب منه في الحال.

لينا كانا جالسين يدخان تذكر سيستوف من جديد كيف جلسا كلاهما على هذا النحو قبل شهر ونصف يدخان وينظران الى بارانوف. وفكر سيستوف: «من جديد قدو للمقاتل ان يخرج مع قائده لوحدهما، فكر زولوتاريف واكتفه شعور بالسيولة المريرة الارادية عن تصرفات بارانوف اللعين.

وسأل سيستوف على الفور تقريرا: «لماذا يا ترى لوحدهما؟ فلما الوحيدين في النائية، ربما يتمكن من تكوين جماعة كاملة قبل حلول الظلام.

الا ان تلك الآمال غابت، قيمة نصف ساعة من التدخين عثرا على الطيبة المزعجة، ولم يصادفوا احدا غيرة حتى حلول الليل.

«اجل، هناك من يشتحق النائية فعلا» - تذكر سيستوف كلمات سريجين عندما رأى الطيبة الصغيرة.

يبدو ان كل انسان يصل في وقت ما الى نهاية القرى المخصصة له. وهكذا كان سال هذه المرأة الصغيرة التي لا تعرف الكلل، فما اكثر ما فعلته اثناء الحصار، وما اكثر ما زجعت على الارض لتضيق الجرحى في الاناكن التي يرتب فيها الالمان عندما يرفع رأسه! .. اما الآن فهي بالكاد تعجز قنيتها وتخرج قليلا، ووجهها نحيل قزبي من الحصى، وحتى المسدس الذي يتدلى دوما من جنبها بدا الآن قليلا للغباء. كان شاكوف قد اراد

منذ الصباح اوصالها الى الكتيبة الصحية للملاج، ولكنها سقطت غايضا وارجلت مع الجميع، وهذا ما حقته!

عندما رأيت سينتوف وزولتارييف فرحت واسرعت نمرج لملقاتهما حتى كادتا نسط.

- اوى، ما اشد فرحتي! - راحت تكرر كالاطفال وهي مدسكة يعلو معظم سينتوف - ألا يوجد احد غيركما؟ ألم تصادقا احدا؟

- واقت؟ - سألتها سينتوف بدورها.

- لم ار احدا. رأيت الكثيرين عندما فرروا في الغاية، وبعد ذلك فسخت قدسي، فسرت لوسدي. من حسن الحظ ان شماكوف انتقل الى الشاحنة في الوقت المناسب! - هتفت بغتة بفرح.

- من حسن الحظ انه انتقل او من سوته انك انت ام تنقلى ...

- ما كان يومه ان ينتقل او كان يعرف بالامور - قالت القلبية وكأنها تخشى ان يظن سينتوف سوادا بالمفوض.

- هذا شيء واضح - قال سينتوف ساخر - لو كنا نعرف عمودا لدا ... لوح بيده ليترد افكاره المبررة وقال يان من حسن الحظ انها حية على اية حال وانهما اتفقا بها.

- اى حظ هذا؟! - قالت واودأت الى قدمها - فسخت قدسي، ثم اننى اشعر بارتفاع درجة الحرارة - وضعت راحة سينتوف على جبينها - هل تشعر بالحرارة؟

- لا بأس، يا اختي - قال زولتارييف الذى بدت له الطليعة العسكرية اوقسيانيفكا صغيرة جدا وياقعة بحيث تصعب مخاطبتها بالكورة - لا بأس، يا اختي! - كرر مؤسبا - استمعك ولو على الظهور فيبد كل مساعدتك للناس لا يدخل بجنبتك الا الكلب!

واليوم، وهو اليوم الثالث، حدث بالذات ما قاله زولتارييف بسبب طليعة قلبه. ففى النهار فسخت القلبية على رجلها المفسخرة فاشتد الالام فى مشطها ولم تمد قادمة على المشى. وما هما يتناوبان فى حملها على الظهر منذ عسى ساعات.

صحيح انها حاولت بمد الفسخ ان تسير بنفسها وطلبت من سينتوف ان يطلع لها يديها وان يحاول تجبير قدمها المفسخرة. جلست ممشية بجذور قاتلة من الارض، وامسك بها زولتارييف من خصرها من جهة الخلف وقبض سينتوف ما عليه منه، فراح يدير قدمها ويسحبها والرق يصيب منه ... وزنم

كل التعليمات التى قدتها له يهمل متخو بالالام لم يتمكن من مساعدتها بشيء ... وانظروا الى تكييف المطفة المشع وحمل الطليعة على الظهر.

وما هو يسير رعى على ظهره، وبحسب الخطوات التبقية حتى المكان الذى قررا التوقف فيه، الخطوات تتناقص - ثلاثمائة ... مائتا ... مائة وخمسون ...

اما هي فقد احست ببدى الصعود الى يمانها فى السير فهست فى افقة همتا ساعنا بيد ان اقلقت من الحالة الشبيهة بالتيبوية:

- اتزكى! - هل انت سامع؟ التزكى ... يؤلمنى انكنا تمنذيان يمسبى! - اهمل على ان ايتي لوسدي ...

ولم يكن بالامكان اومها على هذه الكلمات، لانها قالت الحقيقة بل لانها تنكر الآن بالآخرين اكثر مما تفكر بنفسها.

واخيرا توقفوا. فرش زولتارييف على مرتفع معظم سينتوف الذى القاه على كتفيه طالما كان سينتوف يحمل الطليعة، وساعده فى التخلص من حبله يروق.

تبركت المريضة. فقد تختد كل شيء فيها عندما كانا يحملانها كما فى الكيس. وسألت بصوت خافت:

- ماذا؟ هل نبيت الليل؟

- كلا - قال سينتوف - اوقدى الآن، وستناقش ما يشئى فله.

ارأى الى زولتارييف فانزويبا جانبا.

- ما العمل؟ عينا اننا استعملنا فى الفسخ. كان من اللازم ان نصنع نقالة فى الحال.

- كيف - استعملنا. ايها الزفيق الرشد؟ - اعترض زولتارييف - كنا نرى الطريق عن قرب والسيارات تسير عليه. ولو توقفت لاعداد النقالة والمسيحاة القاريوت بهالخير.

- اعترضنى - انك على حق - قال سينتوف موافقا - اما الآن، افلا يجب ان نمد النقالة؟

- لا داعى لاعداد النقالة، ايها الزفيق الرشد، الافضل ان نسرع قبل حلول الظلام لنصل الى الناس، ونتركها عنهم - قال زولتارييف واثقا - فاذا وصلنا حملها. ابعد من ذلك مشوت.

- والاذنان؟ اقترينا من ثلاث قرى، فرائعهم يسيرون فى كل مكان.

- ما المومل؟ سواصل السير فى الغاية. فريما نمر على مسكن فيها. فهل من المتصور انها غالية تماما؟

- شيء فطنج أن نتركها لوسدها .
- ليس لوسدها بل مع الناس .
- فطنج مع ذلك .
- وإذا مات بين أيدينا أليس ذلك فظيما؟ - انصت زولوتارييف وقال :-

أهنا نتأدينا .
عادا إلى الطيبة دون أن يتفقا على رأى . كانت واقدة وقد رفت صدها بعض الشيء على كوتها ، ووجهها محترق محموم ، كانت تنظر إليهما بقلق شديد .
- لماذا ذهبتا فجأة؟

- كيف نذهب عنك يا ثانيا؟! - قال سيستوف .
- الا انها كانت تفكر كثيرا ما يفكر به هو ، فليس ذلك هو ما يقلقها .
- لماذا تقرران بدوني؟ فما دمتا نسير معاً ، فلنقرر معاً ايضا .
- حسنا . - صمم سيستوف على مصارعتها تماما - تحدثت مع زولوتارييف عن النقالة وعن كيفية مواصلة حملك ، ثم فكرتا بذلك أن تتجلى الطريق الطويل .
- صحيح - قالت دون أن تدرك بعد ما يريدان ، ولكنها مستعدة لتخفيف عبء أى قرار يتخذانه .
- قررنا أن نسير على الناس لكي نتركك عندهم ونواصل السير .
تهددت .

- حسناء لعينة ، حمقاء ، لعينة! ..
- لانت نفسيا لانها لم تسمع قديما ولا تستطيع السير معها . كانت تدرك انها على حق ، ولكن البوت الآن آمن عليها من اليقظة بدونها .
اخذوا عسلا من الراساة وواصلوا السير ، وقبيل أن يخيم الظلام عثرا على درب شبه مهجور يتجه إلى اعماق الغابة .
قرر سيستوف أن يستدبروا قساروا بمساعدة الدواب محمولين الا يسيروا آثاره . وتحويلا للطريق ماروا على مسافة مائة متر .
بعد ساعة وصل بهم الدرب إلى فسحة في الغابة فيها عدة منازل وورشة طويلة للتجارة . لم يكن هناك فاس ولا سيارات . والورشة لا تعمل بالاطنج . الا ان الاعشاب المنقطة بشكل الواح والسطوانات تدل على ان البمل كان يسير هنا على قدم وصاق قبل فترة .
توجه زولوتارييف للاستطلاع ، بينما ظل سيستوف مع الطيبة .
لح بصوت خافت:

- يا إلهان ، اذا كان الناس هنا ليس طيبين لا نتركاني عندهم . الافضل ان نسلمني مسلمي وساتحرو .
- لماذا تغويين غير طيبين؟ - قال سيستوف غاضبا - فهل ان كل الناس سيئون ما عدانا نحن؟

- أنت وزولوتارييف طيبان . فما اطول المسافة التي حملتاني بها!
- اني اشعر بالخجل .
- ما الداعي لهذا الكلام؟ - قال سيستوف ينفس اللهجة الغاضبة -
قولي ذلك لغيري ، وليس لي ! نحن نمرقك على حقيقتك منذ ثلاثة اشهر ، ولا داعي للمواربة ! لنفترض انني انا فسخت قدمي وليس أنت ، فهل تتركيني؟

- من الصعب حملك . انت طويل جدا! - قالت وابتسمت ليس لان سيستوف طويل القامة بل لان هذا الرشيد السياسي الطويل والشجيم في اغلب الاحيان يتحدث معها الآن بهذه اللهجة الغاضبة بسبب طيبة قلبه لا غير .
لزمت الصمت بضع ثم سألت: - هل انت متزوج؟ كنت اريد ان اسألك عن ذلك من زمان ، ولكنك غاضب طوال الوقت .

- وهل صرت طيبا الآن؟
- مع ذلك صممت على ان اسألك .
- متزوج . وبناتي ابنة ، واسمها مثل اسمك : ثانيا - اجاب هابا .
- لماذا أنت زعلان بهذا الشكل ، فاننا لا اريد ان اؤف نفسي لك .
عندما سمع هذا الكلام طلوع إلى ميخايل اليميد وفكر بان الناس غالبا لا يفهمون افكار بعضهم فهمهم غالبا هذا الآن ، وقال بصوت هادئ يمين كما يتخاطب مقلدا صغيرا:

- انت لا تفهمين! .. كل القضية انني لا اعرف اين ابنتي واين زوجتي . زوجتي في اغلب النزل في البهية شك . وقد تذكرت ذلك كله دفعة واحدة .
انا بخصوصك فأنا اعتقد انك افضل امرأة في العالم - واضاف باحسا -
واخت امرأة . هل تصورين ان حملك خفيف؟ ليس فيك اى ثقل في الواقع!

لم تجبه بشيء ، بل تهددت ، وثبتت دفعة صغيرة في زاوية عينها .
فقال سيستوف:

- حسنا ، كنت اريد ان اضعكك ، اما انت ... ها هو زولوتارييف

يمر .

اكد زولوتاريف الاطلياع الذي تكوّن لديهم من بعيد. فلا اثر للامان، ولكن هناك اناسا يعيشون قرب وربة التجارة. فخلال دمج الساعة التي مره منبطحا على طرف القسمة لأجل المراقبة شاهد موقعا بمكانين يخرج نرقين من المنزل الواقع على طرف القسمة ويتطلع الى السماء ويستمع اصوات الطائرات. ثم خرجت بنت راكفة وعادت الى الكوخ راكفة ايضا.

ولم ار احدا غيرها!

— فلنذهب اذن. — قال سينتوف.

رفع الطيبة يديه مع المصطف الشبح وحملها كالعقل دون ان يضعها على ظهره. وقال زولوتاريف محذرا:

شليس من اللازم ان ادخل المنزل للاستطلاع؟

الا ان سينتوف قال باصرار:

— طالما لا يوجد المان فلنذهب مباشرة. فهل نحن بشر ام لا؟

خيل اليه ان من الامور الهينة القيام باستطلاع في اراضيهم، في دياره. في منزل كان يوصفه هو او اي شخص آخر في السابق، قبل الحرب، ان يحمل اليه على الديدن امرأة مريضة ويدخله في اية لحظة دون تردد. وقال:

— لا اصدق بان سفلة يعيشون هناك. وإذا كانوا سفلة فمنذ لم يبتدعوا.

وصل حاملا الطيبة على يديه الى المنزل في طرف القسمة وطرق الباب بقدمه. صرخت اندراج ياوقاب صبية في الخامسة عشرة من العمر ورات شخصا قارع القامة عريض الشكين يديه نحيل جاسيء، وهو يحمل على يديه امرأة ملفوفة بشحم. يدا الكيرفان ثمرشان من الشب، وعلى كلا رديه. وهذا ما لاحظته الليث في الحال — نجيمات النغوش الحمراء.

وعلفت الرجل القارع القامة وقت رجل آخر قصير يرتدي سترة جلدية مزقة ويديه يندقية. وقال الرجل القارع القامة بصوت الأخر:

— غبرينا، يا بنت، أين نضع الدريضة؟ — وعندما رأى الرغبة في عيبتها، اصناف بصوت ارق: — الا ترين المصيبة التي حلت بنا؟

فتحت الليث الباب على مصراعيه ودخل سينتوف حاملا الطيبة على يديه والقي نظرة سريعة على داخل المنزل. كانت القرقة شبه قروية تقرب

من غرت مثالي البدن: قرن حجرى، ومصطبة واسعة على طول الجدار وغوات واداة عليها سفرة مشتمة وقوف جدارية مزينة بورق مخرم ... وسأل سينتوف البيت وهو لا يزال يحمل الطيبة على يديه:

— هل في البيت احد غيرك؟

— بالطبع، كيف لا؟ — دوى صوت ابع من خلف ظهره.

التفت سينتوف نصف التفافة وراى في الباب الدوي الى القرقة الثانية نفس الشخص الوحيد السابق على المكازين والذي تحدث عنه زولوتاريف. كان كهلا مكتنز البدن بشعر متهدل مهمل ولحية شقراء كثة على وجهه المتروفل. عندما راه — ان سينتوف يهم بوضع الطيبة على المصطبة اوقفه باليداة وقال:

— انتظر لحظة، اذهبى، يا ليانا الى غرفة النوم واحضرى الحشية من السرير والركن هناك البطانية والشرشف، احضرى الحشية فقط! وبسرعة، فمن الصعب الانتظار.

تطلع سينتوف الى صاحب البيت مباشرة، ولعل تعابير وجه سينتوف قد عكست ما يعمل في نفسه، اى تسميته على البطانية بكل ما يترقب للمواطن السوفييتى الذى يواجه محنة على المواطن السوفييتى الآخر، رغم الحرب والحصار. سأل صاحب البيت:

— بالبادا، تنظر الى هكذا؟ هل تريد ان تعرف بانى فرح لسجنتكم ام لا؟ ما الذى يفرحنى؟ فالطريق الى هنا مستقيم، وإذا وصل الالمان ستكون تلك نهائيا زهائيتكم. فما العمل عند ذلك؟ ضفى الحشية هنا، على هذا الطوف، واطربوها عند الرأس، فطولها كات — التفت الى الصبية التي فرشت الحشية على المصطبة باستعجال.

وضع سينتوف الطيبة وقوم ظهره بصوبة. وخيل اليه ان عروقه كلها تمددت.

— يبدو انك شجاع جدا! — قال صاحب البيت بلهجة اختلط فيها الاحترام بالهترة: عندما رأى النجيمات على ردف سينتوف — الالمان يصلون ويحولون هنا: ماذا يبين وانت لا تزال تفعل شارة القفوس ... يا ليانا، احضرى له الحرب! الا ترى ان الناس متعبون وعطشى! .. اجلسا وحلا ضيعين طينا. احسن عكازيه الى الجدار وتثبت باليداة يديه وجلس قبلها فالتفت عن المصطبة صرير ثقيل. — ربما من الافضل ان اعيتكم في السرداب. فانا اما ان اخاف او لا. اخاف اخلاقا. هل تريدون ان تبتئسوا قليلا؟

هز سيستوف رأسه بالايجاب.

- وبعد ذلك؟

قال سيستوف انهما سيذهبان الى التجر ليصلا الى قوتانا، ويودعهما ان يشركا الذكورة المريضة هنا. فمرارتها مرثونة ورجلها مفسوعة. ويثنى لها ان ترقد امدًا طويلا. وحتى لو جاء الامنان فالمرأة يمكن ان لا تثير شكوكا شديدة لديهم، لا سيما وانها مريضة وابست جريحة. فقال صاحب البيت: -ذكورة؟ ظننت انها زوجتك.

- لماذا؟ - سأل سيستوف.

- ليس كل الناس يحملون المرأة على ايديهم بهذه الصورة. اذن فهي ذكورة. - كمر صاحب البيت والقطب عكازيه واقرب من رأس المريضة ووضع راحته على جبينها وقال: -كيف مرغت الى هذا الحد! انك ملتفة.

ليس ذلك تفقيده؟ - كلا، انه برء وربما التهاب الرئتين - قالت الطبيبة بعد ان بلغت ريقها.

- وان كان تفقيدا، فانا لا اخشى التفقيده. اصبت بكل انواعه. وقدكم ماذا حدث لها؟

- فصح.

- مستعصم القدم غدا، ربما تحتاج الى تشير. لا يجوز التعامل فيما يخص التقيين. لقد جربت ذلك بنفسى مرة، وانا اعرج منذ ذلك الحين. فلتعارف: غافريلا رومانوفيتش بيريكوف. اسم ابن رومان، واخبرت نفسى بيريكوف (المترن) ليكون مناسباً لعايانتنا - قال ساخرًا وشد على يد الطبيبة الساخنة ثم صافح سيستوف وزولوتاريف.

دخلت الطبيبة الفرفة تحمل دلوًا وقدسا مدينا.

- قدسى لها الماء الا... - قال صاحب البيت بما يميز سلوكه كله من رعاية خشنة وابتاء الى الطبيبة - من اين جستم؟ وكى يومًا قضيت في الطريق؟ فقال سيستوف وعلت معياه ابتسامة مريرة لمصره الهم ويسرون: اذا حسبتا الوقت كله، منذ ثلاثة وسبعين يومًا. فقال الرجل مستغفرا: - وكيف ذلك؟، وأوضح له سيستوف باختصار كيف حدث ذلك.

اطلق بيريكوف صفره الدهشة وقال:

- اجل، مستعصم صعب جدا! يمكن القول ان كل شيء مغلوب من جديد هنا رغم وصولكم الى دياركم. - ثم التفت الى ابنته وقال بعد ان رق

تد - لينا، اسمى، اتركى الحشية هنا، وستأمن معها فى غرفة النوم، اما نحن الرجال فنقتضى الليل هنا.

ركبت الطبيبة فرجة لاعداد السريز. وبكى فموتة بفرار ايها. وبعد عدة دقائق حمل سيستوف الطبيبة الى السرير اللريش الكبير المرن والمغويش بحثًا من الریش فى الغرفة المجاورة.

- آه، ما اروع، شيء يصعب تصديقه! - همست الطبيبة - ساعطى يا صبية فى خلع ثيابي! - خيل اليها ان الرجال خرجوا من الغرفة، ولكنهم كانوا هناك ولم يخرجوا الا بعد ان سموا هذه الكلمات.

ونادى بيريكوف ابنته:

- لينا، تعالى للمعلقة!

- ماذا تريد؟ - اخرجت الصبية رأسها من الباب متسللة.

- لا تسللى، تعالى الى هنا واعطى الباب عائقا!

اقتربت الصبية منه.

- ساعديها فى خلع ثيابها، واذا كانت ترتدى ملابس داخلية بما يرتدونه فى الجيش اعطيتها ايضا واعطيتها قميص امك. كل ما عليها ماء! يخس الجيش احميه وشيأه فى مستودع الحطب. هل تعرفين اين؟ فى نفس المكان الذى شابتا فيها. برة ذاك الذى جاء اليها آتينا امس. فربما لا يهتمون بها لانها ارغاء. واحضرى الهوية والثائق وسوف اخبئها بنفسى. ام انك تخافان ذلك؟ - التفت الى سيستوف.

- الافضل ان تبقى عندها، فقد تحتاج اليها فيما بعد.

- من بدري؟! - قال بيريكوف ساخرًا - بالاسى مر بنا احدهم... لن اذكر رقبته، فليذهب الى الشيطان... لم يطلب حتى طلبا، اهتم باستبدال بيته فقط! اخبر من جيبه كل التقود يريد بهى الى وقال: - «سلها كلها، واسطى بدلها ملابس مزرعة». اعطيته قميصا وغطالا، ولكنهما سالمان، فلم اعثر على آية مزرعة، والملتق سراحه، فليذهب الى حيث يريد. فما هو صفنا على الشخص الذى ترتمى شفاعه من الخوف فيهمس بكلام لا صوت فيه! احتفظت بيزته مع وثاقته. وانما هل تويان مواصلة السير بهذه الصورة؟ هز سيستوف رأسه بالايجاب. فقال الرجل:

واذا صادفك الاملان؟

- سبتان. - قال زولوتاريف الذى لم يشرك فى الحوار حتى الآن.

- هل تستطيع القتال بها طويلا؟ - اوما الرجل الى البتة الموضوعة

عند الجدار - ومع ذلك لاحظت أن الخوف من الألمان شديد، والرعب شديد!

- شىء - مرعب حقاً! - قال ميتسوف.

- صحيح - قال الرجل مبتدئاً - شىء - مرعب عن قرب - وأكثر رعباً عن بعد.

ونادى ابنته التى اجتازت الغرفة وأكسمة وطلب منها أن تعد طعاماً بعد أن تنتهى من مساعدة الطيبة.

وفى الوقت الذى كانت الصبية تروح وتجيء فيه وتغلق النوافذ يستأثر من تماثيل الأكراس وتد المائدة اشبع ميتسوف وزولوتاريف الى موبز هفصة حياقه صاحب البيت على حد تعبيرة.

بدأ هذا الحديث بنفسه قائلاً:

- ربما ليس من اللائق أن نسالنى عن هورتى وعن احوالى. فقلت انا فى ضيافتكما، بل انا فى ضيافتى. ولكنكما تتركان عندى هذه المرأة، وذلك يعنى أن الفسير يطالبكما بأن تمروا عند من تتركانها، اليس كذلك؟

فقال ميتسوف ان الامر كذلك بالضبط. وعلق الرجل ساغراً:

- هالضبطه اذن؟!

تمسكت عن حياته بصورة مشتتة، ففارة يتناول ادرا، وتارة يتناول ادرا آخر. حياته غير موفقة، وهو انسان ففسور كثيرًا.

ذات مرة، ايان العربى الاخيلة، قال رئيس فرقة عمال فى تخزين الاخشاب:

آمر فضيلة. وكان عضواً فى الحزب، وصل رئيس فرقة عمال فى تخزين الاخشاب. هناك تجمعت رجله عندما كان فى سالة سكره ففترت فيها بعد. لم يكن عندهم طبيب جراح، فنشر القصد رجله كما نشر الخشبة. وبعد ذلك لم يتحمل هذه العادة فذهب الى مستوى منحل وأولع بالسكر ويفر كل ما كان يملكه وفصل من الحزب، حتى انه صار يتسكع فى الامواق. وقيل ست

ستوات وصل الى هنا، الى ابلة احد المستعدين السابقين الذين عمل معهم...

- اقصد امها - وأوباً الى الجدار الذى يفصل بينهم وبين الصبية - عندها طفلان، وكلامها ليس منى.

انتشله تلك المرأة من الهوة التى انحدل اليها، فظل يعيش معها وصار يعمل ميكانيكياً فى ورشة التجارة هذه، وتبنى طفلين غريبين عليه.

قبل اربعة ايام حلت بمائلتهم مصيبة. فبعد ان سمع ابنه السبتي وهو فى الرابعة عشرة من العمر كثيراً من اخبار الحرب من المقاتلين الذين

سلبوا فى ورشة التجارة اشغفى فجأة. ربما التحق بالوحدة التى حوت بهم فى ذلك اليوم. وفى الليل غرست الام فى انه دون ان تخبر احدا لثعبه ابها.

- اما الآن فقد اقلب كل شىء! الامان فى كل الاجزاء، ولم تعد فى بند اليوم الثالث. عندما طرقت الباب تلتفت انها عادت. لم اشرب

الحبر منذ مدة طويلة جداً، ولكني تبرعته اس من شدة حزنى. ترك المتعود قنينة والتزمتها ليلاً نهاراً، ولا ازال اذكر انى شربتها، وانا سكران. انها لا تقول شيئاً، ولكني اشرب بالى شربتها. وهى غير متعوده على ذلك...

ناراً، يا ليلى، هل التفتت من اعداد المائدة؟.. فى القنينة قليل من النبيذ، انقريتها حتى يلامس...

كان فى القنينة حقاً قليل من النبيذ. احس الرجال نصف قلاع مضلع لكل منهم واكلوا بطاطس باردة معلبة اكثر من قلاع.

- كيف حالها؟ - اوباً صاحب البيت الى الباب - هل قلت لها هذا؟

- قيل ان اقدم لكم - اجابت الصبية.

- اذت على حق، فلا تعطين...

بعد ان شرب زولوتاريف وتناول الطعام تشنج رأسها ووضع اليدقة فرباً، والتفت بالتره الجدية دون المائدة كلام ونام قرب الجدار على الفس الذى جلبته الصبية. اراد ميتسوف ان يزور الطيبة، ولكن الصبية منته

عنه الباب قائلة ان الرفيضة غفت نوا.

عاد ميتسوف وجلس عند المائدة. فسأله صاحب البيت:

- الا تريد ان تأكل الزبيد؟

- شكراً. اعشى ان ازيد. بعد جوع طويل.

- ربما انت على حق.

قلل بيريكوف من قتل الضحايا. ووضع كوبيه على المائدة:

- قل لى ايها الرقيق المرشد التيسى كيف يجوز ان يحدث ذلك؟

جنرال، قائد فرقة. وأبليت فرقته في غاياتنا حتى أرسلوها إلى الجبهة. الجنرال
مكتاف لا جدال في ذلك، فقد وصل مع جنوده عبر الماروك من المدفوع.
ثم سيع فرقة من جديد وتوجه إلى الجبهة... وأسلته: «هاها الرقيق الجنرال،
لا تقل لي بأنكم لم تفكروا حتى في المنام بالانضمام إلى هذه الامم،
قانا اعرف بأنكم لم تكونوا تفكرون بذلك، فالامور سارت ليس على ما
تريدون. ولكن ماذا نعتقد الآن، قل صراحة: هل ستفعلون من هنا؟ وهل
يظهر الانسان هنا في مثل هذا؟»

عندما تلفظ بيريوكوف هذه الكلمات رفع رأسه وألقى بنظرة بطيئة على
الممثل وكأنه يودعه.

— وماذا اجابني؟ وماذا تقول؟ ستزحف غدا إلى الامم وستقاتل
وصوف تفعلهم من يليا كخفولة اولي. ثم ماذا؟ توجهوا بالفعل وحققوا
وطردوهم من يليا! اما الآن، فماذا حدث؟ انطلق الجنرال إلى الامم من
غايبي وحرر يليا، ولكن الالمان تجاوزوا يوم امس. تجاوزوا إلى مسافة
بديدة جدا! يقال ان عائلة الكلفون - تلقت يوم امس من اوقرا إلى زنايتكا
قربوا عليها من هناك ياتلغة الاممالية. والمسافة إلى زنايتكا باتجاه الشرق
اكثر من خمسين كيلومترا من هنا!

— مستحيل! - قال سيستوف.
— كيف تقول مستحيل؟ الجنرال حور يليا، ولكن الالمان في زنايتكا
ورامعا. فاني هذا الجنرال الآن؟ غيبرلي!

— اين؟ اين؟... فغضب سيستوف فجأة - انه يقاتل في مكان
في الحصار. وكان يوستا نحن ان نقاتل لولا المياعة... فبها يكن من
شيء فقد وصلنا من موييليت إلى يليا. وكان هناك ما يحملنا على القاء
السلح، ولكننا لم نلق به! فهل الاخرون اسوأ منا يا تري؟

— وما ليسوا اسوأ، ولكن الالمان طوفوك من جديد! فهل كان من
اللازم انتظار ذلك؟ وما كان يتعين عليكم ان تسولوا عليهم من هنا دون
هناك؟ ولكنكم وقمتم بتسلطون حتى يصغموكم على اذانكم. ثم هناك مساة
اخرى: هل تصيدون؟ واذا لم تصيدوهم فهم يفسدون حتى الراييين! ثم
انك انت وجنديك، من انما يا تري؟ انكم من الراييين.

— كلا - قال سيستوف.

— من الراييين...

— كلا، لست حتى من الراييين، انما تسير للاحتياق بقواتنا ومنصل اليها.

— واذا قابلنا الالمان؟

— ستقتلهم.

— واذا قابلنا دبابه هل ستقتلها ايضا؟ اما انا فأتقني ان لا تقابل
احدا، اذهب بولوه إلى ان تصلا إلى قواتنا. فاذا صادفنا بعض الالمان فالاغلب
انهم سيقتلونكم قبل ان تقتلهم.

— لا ادري - لا سيستوف برهة، والتي ذهبا نظرة على
قل ما شاعده وعاناه منذ اليوم الذي عبر فيه جسر موييليت وإلى عند سوييلين،
ثم قال: - اعرف شيئا واعد، ربما قتلنا القليلين منهم، ولكننا قتلناهم على
نذر البسطاخ.

— هذا ما تعرفه. فما الذي لا تعرفه؟ لقد بدأت بكلتي ولا ادري.
— لا ادري اين كل آلياتنا. لقد اخضت وكان بقره لحسها يساها
من الارض ومن السماء على حد سواء!

— ثم ان القاراتهم... قال بيريوكوف بعد لحظة من الصمت - لدري
نوف رؤوسنا متوجهة إلى موسكو. في السماء تنبه إلى هناك وفي منتصف
الليل نعود. وانا اخرج من المنزل واتسنع لاصرف هل ان عدد الطائرات المائدة
كثير؟ وهل الهدير في السماء كبير؟.. على كل حال، ثم! ولا تلمني لاني
تنبك بالكلام. فلربما انت آخر مرشد سياسي اتكلم معه، وعدا ساضطر
إلى التكلم مع الالمان. اذا وصلت إلى قواتنا وقدمت تقريرا عنهم بالنيابة
عني، ربما لديكم خطط للانضمام إلى موسكو: على سخط كوتوزوف، ولكن
يجب التفكير بالناس ايضا. ويدهي ان بعض المراسم في بعض الشقوق لا
تعب الحكم السوفييتي، ولكنني لا اتحدث عن المراسم، بل عن الناس.
فلو قلتم لي صراحة بأنكم مستعجبون وان لديكم خطة من هذا النوع لشددت
الرجال وانقلعت انا ايضا. اما الآن فماذا على ان اقول؟ هل اعيش هنا
واتسج بأذيال الالمان؟ هل اقول لهم اني شخص طيب، مفصول من الحزب
ولست موافقا على الحكم السوفييتي؟... لماذا تتركونني في مثل هذا المصير؟
كان من الافضل لو ارتحلت. هكذا قل لهم ايها المرشد السياسي! ولكنك
ان تقول لهم! مستحيل! مستحيل! وصلت تحت امركم. هذا كل ما ستقول.

— لماذا؟

— من يدري؟ ولكن لا نلق بخصوس الليبية. فلن اسبح بان

نقتل اذا بقيت حيا.

— ان لا اغشى عليها، قانا والله منك.

«ليس لديك ما تفعله غير ذلك». قال بيروكوف وقد عادت إليه إيمانه الشهمة الساخرة. أطلق الصباح وأصطليح يُقِيلَا على المصطبة. لتعلم قليلا ثم غط في شخير عميق.

وقد ميتسوف وظل يتطلع إلى السقف، وتخل إليه أن السقف غير موجود وأنه يرى سماء سوداء ويسمع فيها عذيرا متفعلنا لقاذفات الترتيجه إلى موسكو. كاد ينفو عندما لمست وجهه فجأة يد طفولية:

«أيها الزئبق المرشد»- جلست الصبية القرفضة وهضت له- الطيبة تدعوك.

نهض ميتسوف مرتبع الصبية حافيا إلى الزفة المتجولة.

«ماذا بك؟»- انحنى على الطيبة الصغيرة- هل تشعرين بسوء؟

«كلا»- حالتها أفضل، ولكنني اعشى أن يعنى على أو أغفر، فتحان دون أن أودعكها.

«لن نذهب بدون توديع»- ستودع.

«اترك لي خمس»- كى يبقى تحت الوادة. حسنا؟ يودى أن تعطيك إياه، ولكنني أنا أيضا بحاجة إليه.

ولكن ميتسوف أجاب دون تردد بأنه لن يعطيهما المبدس، لأنه بحاجة إليه فعلا، أما بالنسبة لها فهو يمكن أن يؤذى إلى هلاكها لا غير. وأضاف:

«فكرى يتسلك. بزنك خرابوا، وسنى ملايك الفاضلية غيرهما، فكيف يجوز أن يبقى المبدس تحت الوادة؟! إذا لم يأت الألمان قتل نخاحي إليه، وإذا جاورا سيكون المبدس سببا في هلاكك... وهلاك مصيفيك- وبهذه الكلمات منحها ميتسوف من الاعتراض- طولى أن تنامى. هل حقا أن حالك أفضل؟

«حقا... إذا رأيت مربيين حذو عنى. حسنا؟

«حسن».

شد يرقق على يدعا الساخرة.

«اعتقد أن حرارتك أعلى.

«أشعر بالمثل طوال الوقت، وعلى العموم لا بأس.

«أيها الزئبق المرشد»- أوقته الصبية عند العتبة- أريد أن أقول لك... صمتت لحظة لتستع إلى شخير أيها- لا تخش شيئا على تاتيانا. لا تفكر بأن أين- قالت «أى» وليس «زوج أى»- شرب. أنت متأكد لأمى وأخى... لا تخش شيئا ولا تسمع قوله بأنه فصل من المرب. فقد كان ذلك من زمان بعيد. وبالطبع بدأت الحرب ذهب إلى اللجنة الحزبية في الشاحية ورجاهم

أن يعيدوه إلى المرب. تأتورا قضيت في المكتب الحزبى في استشارة القابات، ولكنهم يد ذلك التعقلا بالخيش جميعا، فلم يقد الاجتماع. لا تخش شيئا بسببه!

«أنا لا اعشى شيئا.

«وانا سأفعل كل ما استطيت!»- همت الصبية بحماس من جديد- سأقول بأن تاتيانا من اقاربتنا. وقد اتفقت معها على ذلك. أعادك كغفر فى الكوسمويل!

«هل أنت غشو فى الكوسمويل؟»- سألتها ميتسوف.

«منذ أيار الماضى.

«أين هويتك؟

«هل تريد أن تراه؟»- سألت الصبية باستعداد.

«لا داعى لذلك. حيدا أو نجدين مضيدا ليحبر إياها قصها. فانا لم استطع أن أفعل ذلك، أنه يحتاج إلى خبرة.

«سأجده وأضفوه!»- قالت الصبية بنفس لهجة الاستعداد-- سأفعل كل ما يلزم!

صعدت ميتسوف بانها متعبد المشهد فعلا وستعفوه وستفعل كل شيء. وتغشى بحياتها من أجل هذه الطيبة الصغيرة.

رقد من جديد وغفا هذه المرة فى الحاك دون أن تشغل باله أية فكرة. انقطف الضوء. خيل إليه فى المنام أن الصغير يزغ، ولكن المنزل كان مغلقا كالقايق عندما فتح عينيه. أراد أن يعلق عينيه من جديد ولكنه انزلق على النافذة غط غشوي عريض سريع. وهو يدل على شيء واحد لا غيرا ضوء. سيارته وصلت إلى ورشة البعارة.

قفز ميتسوف وأيقظ زولوتاريف وصاحب البيت قبل أن يرفقه جزئته. ولطم النافذة ضوء آخر.

«جاء الانسان!»- قال بيروكوف بصوت أبع- انظروا حتى جاورا! اسرعا! قفز على ساق واحدة منشبا بالجدار حتى وصل إلى النافذة المطلقة على الحوش وسحب اطارها ففتحها. على مصرعها.

«هيا! اخرجوا غير الحوش وتصلنا إلى القاذبة عن طريق البائس»

ولن يروكنا. اسرعا!

ووصل غير النافذة المشقوقة ضحيج عدة سيارات. أقص ميتسوف الجبال لزولوتاريف ليخرج أولا، والتقط جزئته التى لم يتسع الوقت لادخالها مع الحاف وغير النافذة.

يسرا باليرة العسكرية. في المنزل الأول اخضر الناس بهما، وفي المنزل الثاني ارتعدوا خيفة على جلودهم.

وعندما غادروا المنزل الاول عند الفجر قال زولوتاريف لسيستوف :
- هؤلاء روس حقيقيون، ليس كذلك ايها الرقيق المرشد؟

- نعم.

وعندما غادروا المنزل الثاني عند الفجر قال سيستوف لزولوتاريف :
- لن نخلف البيرة حتى الموت، لكن نقتل عيون امثال هؤلاء الجبناء! واجابه زولوتاريف انه ما كان يهتم على المرشد السياسي ان يطيحهم ساعة روهل مقابل الطعام، كان يجب ان فيض في وجعهم.

- لقد بصقت بان قدمت لهم مائة روهل. فليضحوا اليصافي يها! - ويقولون ان اينهم في الجيش! - قال زولوتاريف منفلا - ما اسوأ الحظ اذا كان يصيح عليه ان يريق دمه من اجل امثال هؤلاء الولادين! - بالاحاققة الى الواقعيين هناك الحكم السوفيتي.

- صحيح. ولكن ذلك شيء صعب! - لم يوافق زولوتاريف.

كان هذا الحوار يدور آخر حوار بينهما. لانهما بعد نصف ساعة، عندما كانا يبعدان اوديا غاليا شديد الاحترار ارتعدا بالثلثين من جنود الاتصال اللذين يبدان سلكا تلفونيا. كان اللقاء مفاجئا لارنك وهو على حد سواء. الا ان الروميين المائرين من العصار يعضر كوشين متنبهين كانا اسرع من اللاتينيين اللذين احسبوا قهوة الصباح نوا وراحا يصفران انغام انية بطل متحم.

سحب زولوتاريف بنفوقه واطلق النار على احد اللاتينيين قبل ان يتمكن هذا من خلع بنفوقه من كتفه. اما اللاتيني الاخر فقد فر مرمعا عبر الشجيرات، وركض سيستوف في اثره وهو يطلق النار من مسدسه حتى يراه قتلا بالطلقة السابعة والاخيرة في المسدس.

وبعد ذلك اخذا بنفوقه وبيت الخراطيش وركضا في الغابة ليبتعدا اكثر ما يمكن عن مكان انطلاق النار. وظلا يركضان الى ان سقطا عاجزين بين شجيرات كثيفة. فكري فقط نذكرا، وهما راقدان، كيف حدث ذلك كله. «ها قد فنتنا» - فكر سيستوف بعد ان تذكر البوال الذي وجبه اليه.

في المنزل قرب ورشة النجارة: «واذا صادقم المانيا». وتذكر رده على السؤال: «اذا صادقمهم فنظلم!».

- فلنذهب - قال زولوتاريف - والا فقد يشعلون الغابة، اننا لم نبتعد كثيرا...

كان ذلك في الوقت المناسب تماما. فالبسيارات الاخرى كانت لا تزال تستخدم، بينما توقفت احداهما قرب المنزل. وتماثلت اصوات المانية. فالبسيارة خاصة بالرجال.

اجتاز سيستوف وزولوتاريف البستان وركضا بين اكرام الغضب المنثور حتى وصلا طرف النسخة فوجلا ليلتمكلا انقاسهما. تطلع سيستوف وهو يرتدى جنزته الى الوراء، الى المكان الذي استدارت فيه البسيارات الالمانية وهي تتبر مختلف الانواع بأصواتها. وارضى الصباح في احدى نوافذ المنزل الذي تركه سيستوف وزولوتاريف قبل خمس دقائق، ثم اضى في نافذة اخرى. كان الضوء يتحرك من تحت قماش الجفاس الذي يغطي النافذة بشكل غير محكم فكان مرثيا من هنا.

عندما رأى سيستوف هذا الضوء اثناه شعور حاد بالمجز. فقبل ساعة كان يوسهما، على نحو ما، ان ياقنا عن المرأة الرائدة هناك بهذه البنية وهذا المسدس. اما الآن فقد تركت وسيدة بدون اية حماية، تركت الى ضمير الناس وتحت رحمة العدو.

وفكر زولوتاريف بالشيء ذاته.

- جذا لو لم تقل شيئا في هذيان الحمى - قال زولوتاريف واضاف: - هل يمكن ان تفسد ايها الرقيق المرشد السياسي؟ القلب يكاد ينفطر.

- احشى ان يروا!

- ان يروا. شيئا، ستفعلني بالمعطف...

وفكنا فلا لوسدهما، وسارا لوسدهما ستة ايام اخرى الى ان فرق بينهما المسير وفنهما في جهنم مختلفتين.

في هذه الايام الستة تحملا كل ما يقع من نصيب رجلين مسلحين في بزة عسكرية يشقان طريقهما الى قراوتها عبر معسكر حربي للعدو. تحملا البرد والجوع والخوف من الموت مرارا. كانا مرارا على فاب قوسين او ادفى من الهلوك او الاسر، وسعما الكلام بالالمانية على يد عشرين غطوة وسعما وزير السلاح الالمانى وزير البسيارات الالمانية واشتبا راحة التيزين الالمانى. ناما اربع مرات في شبابت اكتوبر الباردة حتى كادا ان يتجمدا، وتسكتنا مرتين من البيت في المنازل.

في احدى اللتين استقبلهما اهل البيت مسرورين، وفي المرة الاخرى ارتعدوا ليس منهما بل من المسير الذي يتظلمون على عرف الالمان بيتهما عندهم. وفي كلا المنزلين اللذين باتا فيهما التفت الناس خصوصا الى انها

— حسنا — قال سيستوف وعلق البيئية الالمانية على كتفه وأصابت :
يتحول إلى انها ثقيلة . أتني امير بلون بندقية من زمان حتى نسيت انها ثقيلة .
عند ذلك تصفح زولوتاريف بان يلقى بالسندس ، فقد استخلف كل
وصاصاته . الا ان سيستوف لم يكن واعيا في ذلك . فقد احتفظ بالسندس
وقال انه سيحتر على رصاصات له .

وبعد ذلك ظل من جديد مع هذا السندس الخالي وحده . كانا
قد عبرا النهر في الليل خوفا حتى الرقبة . وسقط فجأة في بفرة عميقة فأغرق
البيئية الالمانية والمعلق . وكان قد ربطها سوية بحزامه ووقفها فوق رأسه
اثنا العبور . ولم يتمكن بعد ذلك من الثور عليها رغم خوفا في الماء وراقم
البحث الجاد . وهكذا ظلا كلاهما بينتيقة واحدة وسفرة جلدية واحدة .

حدث لهما خلال هذه الايام السنة كل شيء ، سوى امر واحد هو
انهما لم يسكنا من الوصول الى قواتنا . وكلنا تعمقا في سيرهما المتواصل
نحو الشرق وجدنا ان الالمان تنحوا اكثر .

واخيرا بدت احلامهما بالوصول الى خط الجبهة امرا غير قابل للتحقيق .
وكانت الوحدة اقل شيء عليهما . في يمشي الاخير كانا يتكلمان عن ذلك ،
وصارا يصوروا ان الفترة العصيبة التي قضياها مع سربيلين في الطريق من
موتغيليف الى يانينا فترة سعيدة بالمقارنة مع ما يمانيان منه الآن . سيذا لو
عثرنا على وحدة نقال من اجل فك الحصار لكي يتسحق بها !

صحيح انهما صادتا ذات مرة قبيل حلول المساء ملازمة اول بيرة
عسكرية مع سبعة مقاتلين مسلمين . اراد سيستوف وزولوتاريف ان ينضما
اليهم ولم يمتنعوا اللازم اول على ذلك . ولكنه خلال الليل تغير رأيه .
قربا شك في ما قاله سيستوف من انهما يشقان طريقهما من الحصار
منذ يوليو . وفي الصباح سمع زولوتاريف عن بعد حفيف الشجيرات التي
سبها التجرد البكر . فالتفتان فهوسا وانصدروا لوجدهم دون ان يفتقدوا .
وسأل زولوتاريف سيستوف :

— ماذا؟ هل نلقى بهم؟

فقال سيستوف :

— طالما لا يفتن بنا فلينحوا وشأنهم .

ولكنهما لم يعثرا على الوحدة العسكرية التي تقابل للخروج من الحصار
والتي يسكن الالتحاق بها . يبدو ان القوات التي خرجت من الحصار في قبايزا
سكنت طرقا اخرى ...

آخر مرة باننا الليل في الغاية . كان الطريق العام يلتف حول اطراف
لغاية ، وكانت السيارات الالمانية تسير عليه في سيل متواصل تقريبية .

انتهزا الفرصة فعبرا الطريق راكنتين سارا في اعماق الغابة زهاء كيلومتريين ،
وقدما انفسان الشوح وكوماها . ودخلا الكومة ونظما يستر زولوتاريف المجلدية
المنزقة . كانت الايام حتى ذلك الحين جافة ، بينما تساقط المطر في مساء
اليوم . تاما في القيد والارطوية متلاصقين لكن يحافظا على الدفء . زد
على ذلك انهما يمانيان من البوع الشديد ، ففي الصباح انتهت البقية الباقية
من الطعام الاثني اثنان من آخر منزل باننا فيه .

ولم يكنا قادرين على التمر . فقال سيستوف بسخرية كالحمة :
— من السيف اني اغرقك الحزام . لو كان معي لشدته به يطلى
ليسهل تحمل الجوع .

— لم لم فنش حقيقتي الالمانيين بحثا عن الطعام؟
هذه ليست المرة الاولى التي يبدى زولوتاريف فيها اسفه على ذلك .
وبعد صمت قصير قال :

— الطريق الذي عبرناه مديد بالعصى ، فاي طريق هو يا ترى؟
— ربما هو طريق فيريا . فقد ظلت مبدئين الى الجنوب . وربما هو
بالذات الطريق من مبدئين الى فيريا .

— وكم تبعد فيريا هذه عن موسكو؟

— حوالي المائة .

— نعم ... — قال زولوتاريف متأملا — يعني انه بقيت مائة كيلومتر من
موسكو . ولا تزال نحن نسير عبر الالمان . شيء لا يصدق الحق ... — انصت
في موجة الهدير الثقيل الواسي الذي اذاع على صفحة السماء — موسكو!
يشي انهم لم يخلطوا ما دامت طائراتهم تعلق بها!

وقدما صامتين يصنع دفاثق .

— يا ايها! — ناداه زولوتاريف ينسبه المعبر .

كانا من ابناء جبل واحد . فالمرشد السياسي سيستوف في الثلاثين
من العمر والجندي زولوتاريف في السابعة والعشرين . وقد تأخرا في العصيبة
في الحياة التي عاشاها الآن والتي تركتهما الاثنيين ، كما يميل اليهما احيانا
وسيدين في ارض شامسة . ولذا وضعت الكلفة بينهما دون ان يشعرا .

— ماذا؟

— تركنا اللبينة ولم نكتفها!

«كيف نقلها؟ لو غرقنا، فلا، لرقعناها فوق رأسنا. أما الآن فماذا نعمل لها؟ لو اغرقناها معنا لاحت في الطريق، فهل ذلك أفضل؟»
«انت محق طبعاً - وافقه زولوتاريف، ثم تنهد وكرر القول: - لقد تركناها مع ذلك!

«ما الذي تريد؟» - سألت مستصوف متفهماً.

«ما أهمية الذي أريد... أريد شيئاً ولا استطع تحقيقه... ذلك ما يزعجني... هل تعلم ماذا أريد؟»
«ماذا؟»

«لو قيل لي: «ها زولوتاريف هل توافق ان نفلطح بدلا من القنبل على هتلر بحيث تقتله وتخلص انت ايضا؟» سألتهم: «هل مستصوبه؟» ولو عدوا: «مستصبيه»، ولقلت لهم: «هيا! موافق». هل تصدق؟»
«اصدق».

«وأفكر في بعض الاحيان: لماذا صرت انا الثمين سابقاً فيوسى تماماً ان اكون من جنود الديابات!

ثم ماذا؟»

«لا شيء». أريد ولو مرة ان أطلق النار عليهم ليس من البندقية بل من السلاح، بنفسى، شخصياً. أريد ان اعلم لهم شأراً مشدداً او سيارة بقنوتى! عندما نصل الى قوارنا لن اصدق بالسواك. فلنغيرها الى الصيقات!... سيوفون بذلك سابق وسيميلونك الى السواك.

«سأفعل ذلك، سأفعل! - لا! زولوتاريف بالصمت ثم قال: - يا ايفان!

ماذا؟»

«قل لي هل سيحتل الالمان موسكو؟»

«لا ادري».

«ماذا تتوقع؟»

«لا اصدق».

وعبرت السماء موجة جديدة من الهدير الواسع.

«توسعت الطائرات الى هناك...»

«يا ايفان، اين كنت؟»

«في البداية الابتدائية: أولاً، ثم في الثانوية المهنية».

«وانا ايضا. في اية ثانوية؟»

«ثانوية الاعشاب والتجارة، وانت؟»

«ثانوية البرادين التابعة لمصنع وصوتوف للالات الزراعية. وبعد ذلك؟»
«بعد ذلك عملت، ثم توسعت للدراسة».

«اين؟»

«فى المعهد الشيوعى للصحة».

«اما انا فقد عملت طوال الوقت. على الجرار وعلى الشاحنة، وفى الجيش فقط انتقلت للعمل فى سيارة شقيقة. ماذا تتوقع هل سيشفى سربيلين؟»
«لا ادري». قال الطبيب يانه سيشفى.

«حقاً لو التحقنا بفرقة من جديد! ما هو رأيك؟»

«رأى من رأيك. عندما نصل الى هناك سقدم طلباً».

«قلت لي بانك عملت سابقاً فى فيازنا، اليس كذلك؟» - سأله زولوتاريف فجأة.
«فى فيازنا - اجاب سيستوف ولاذ بالصلص طويلاً بعد هذه الكلمة».
«كان قد تذكر فيازنا مراراً، والآن بعد سؤال زولوتاريف قدر عدد الكيلومترات من هنا اليها، وقرر ان من اللازم الاستدارة لحيوها اذا لم يتمكنوا من الوصول الى قوارنا. وهناك فى فيازنا سيبحثان عن اشخاص يعرفونهما ريلستفان بالانصار».

فى تلك الليلة فكر هو وزولوتاريف بان فيازنا التى ظلت بعيداً فى مؤخرة الالمان محتملة من زيان. ولعل من الاسهل عليها كليهما، رغم كل شيء، ان يرحلا ما حدث هناك بالفعل.

فى تلك الليلة كان ملوك الحصار حول فيازنا يتقلص اكثر فاكثراً، ولكنه لم يكن بإمكانه ان يطبق عليها كلياً. فان قوارنا المحاصرة هناك كانت تهلك فى آخر المعارك المستعينة ضد الديابات ووفائق البشاة الالمانية. ولكن هذه الفياقك التى تلتكأت فى ضواحي فيازنا هى التى كان خطر فى انفس: الحاجة اليها فى ضواحي موسكو بعد بقعة ايام.

ان التطويق والانسحاب الفظيعين الهائلين اللذان فى اكتوبر على الجبهة الغربية وبجبهة بريانسك كانا آنذاك سلسلة متواصلة من عمليات الدفاع البدهية بسوءها والى تشبه الزبال المتناثرة تحت السمات بشكل حيات نازة وبشكل كتبان نازة اخرى، ولكنها حالت دون المددات الالمانية ودون الوصول الى موسكو رأساً.

الشخصيات الزائدة فى الغاية بضواحي فيازنا فى تلك الليلة، والذذان يتدحرجان بانها. كالثبات صغيران تحسان اعزلان تقريبا، كانا رغم ذلك ذرتين من تلك الزمال التنا بنفسيهما، بارادتهما، تحت عجلات الآلة الحربية الالمانية.

لقد حالوا أيضا دون وصول الألمان إلى موسكو مع أنهما في تلك الليلة بالذات كانا يرتبجان من الفكرة المتشائلة: «هل سسلمها؟» دون أن يعلما بعد أن موسكو لن تسلم أبداً.

اقتضتها في القجر أصوات معركة حامية قريبة. لم يكن الخيط الأبيض قد انفصل عن الخيط الأسود بعد في الغاية. نهضا وتوجها للاقعة تلك الأصوات وهما يمرقان شتيا واحداً. طالما نشبت معركة فهناك ليس الألمان فقط، بل وقواتنا أيضاً. وإذا جالهما الحظ فيصلا إلى هنا.

الحرب تقيس الأشياء بقياسها. فقد نحو أصوات الانفجارات المهلكة وصلبات الرشاشات المدمرة بنفس الاستعجال الذي يسير فيه الناس في أوقات أخرى للاقعة صوت الحياة، وبنار الهداية والدخان المتصاعد من منزل بشري وسط الشوارع.

— ربما هناك الخط الأمامي؟ قال زولوتاريف.

كان سينتوف أيضاً يريد التصديق بذلك، ولكنه فكر قليلاً وقال إن ذلك أمر مستبعد. لو كان الخط الأمامي يمر من هنا لما عجم مثل هذا الكهوف في الليل. ومن المحتمل أن قواتنا تشق طريقها عبر مؤخرة الألمان. سارا إلى الأمام، وبدت المعركة وكأنها تسير ليلافها، وصار بالإمكان التأكد من أن الرشاش الذي يطلق صلبات قصيرة من مسافة قريبة من هنا هو رشاشنا «مكسيم» وليس غيره. وقال زولوتاريف:

— أنهم يقتصدون بالخراميش.

وهز سينتوف رأسه مؤكداً.

سارا زعم ما ظني من أخرى. انبج القجر في الغاية، فصارا يلتزمان بالزبد من الحفر شبيهة أن يعادفا الألمان قبل أن يصل إلى قواتنا. وضجأت انفجرات قذيفة على بعد مائة متر. وكذا، ثم انبج في الفترة التي لا يزال الدخان يتصاعد منها، وتوالت انفجارات القذائف الواحدة تلو الأخرى إلى شمالهما وجنوبهما.

كانت عدة بطاريات تتللق النار.

في البداية ظن سينتوف أن الألمان لم يحسبوا الحساب جيداً وزاحوا بغيرهون في مكان خال. فرح لهذه الفكرة ونسى الخطر لحظة.

ألا أن القذائف غلظت تنهال بانتظام على نفس ذلك المكان، فأدرك سينتوف أن الألمان ينصبون هنا حاجزاً نادراً يتعلم على قواتنا طريق الاختراق.

وسأل من زولوتاريف:

— ماذا تنتقد، هل تنتظر متطعين أم تستمر في السير؟ في الأمام وأصلت الرشاشات صلباتها كالسابق.

— قلستمر.

اخذا يركضان متطعين ثارة في حفرة خلفتها قذيفة رتارة في هذه، رتارة على أرض مستوية.

— هل من المقول أنا سبيل سقا إلى قواتنا؟ اننى لا أصدق ذلك. قال سينتوف عندما انبجأ عند جفع صنيورة كبيرة وهو يلبث بعد الركن السريع.

وكانت تلك آخر الكلمات التي سمعها من زولوتاريف. انفجرت قذيفة. وعندما نهض زولوتاريف رأى المرشد السياسي ملقياً على الأرض ويداه مشورتان وأرأسه وجبينه غارقان بالدم. — أياها، إياها! — هز زولوتاريف سينتوف من كتفيه.

ألا أن سينتوف لم يجب.

عند ذلك ألقى زولوتاريف بدن سينتوف الجاندة على كتفيه وسار إلى الأمام نحو أصوات الرشاش.

بعد زهاء أربعين خطوة سقط فلم يتحمل الثقل. نهض ورفع سينتوف على كتفيه من جديد وسقط مرة أخرى. ظل راقداً وهو يشير يانه لأن يتمكن من اتصال سينتوف.

في حين أن الثواني تمضي، وقد خيل إليه أن اطلاق الرشاشات أخذ يشهد.

وعند ذاك صمم على الوصول إلى قواتنا راکفاً بالقصى السرعة والاستقامة بأحد والمودة التي هنا معه.

دس وثائق سينتوف في جيبيه بأصابع مرتشة، وبعد أن تردد لحظة غلغ من على المرشد السياسي قصصته المتعلوطة الأزار.

كان قد عزم على العودة إلى هنا بعد أن يصل إلى قواتنا، ولكنه يحتمل أن لا يصل إليها، وما كان يريد للفاشيين أن يترقبوا على المرشد السياسي من قصصته فيهنود ويسخروا منه حياً أو يمتلوا به ميتاً.

ركض مسافة قصيرة وألقى بالمقصلة وسط أشجار شوح صنيورة، وبعد زهاء مائتي خطوة صادف أربعة مقاتلين وراكضين يسحبون رشاش «مكسيم» وراهم. ثلاثة منهم جنود دبابات والأربع هو الملازم غوريشيف بشخصيته المبهودة ونصهته الشفراء التعديلية من سذارته المائلة.

وصل زولوتاريف رأكسا الى قائد فصيلته في اللحظة التي أبتلع فيها ذلك وراء الرشايش بعد أن ركض مسافة. وكان اول من رأى زولوتاريف يركض تحوهم قفص بدون انفعال وبإستقامة وكأنه كان ينتظرو:
- ها هو زولوتاريف يهبط من السماء! عندك غرامطش؟
- نعم!

- أبتلع اذن وأطلق النار! سيظهر القريش الآن من جديد.
ركض قريشهم عدد آخر من جنود الدبابات والنشاة وانبطعوا بين الأشجار. وكان الجميع ينتظرون بانفصال إلى الخلف، إلى أعماق الغابة، التي حيث استدار غوريشيف بقوة رشاشه.
وصال غوريشيف دون أن يلتفت إلى زولوتاريف:

- حيث ارسلك؟
- مع سينتوف.
- أين هو الآن؟
- اصيب بجراح ثخينة. على مسافة غير بعيدة من هنا. أرسل به شخصاً ما وسنعود به.
- أين تركته؟

أشار زولوتاريف بإصبعه على نحو تقريبي إلى المكان الذي ترك فيه سينتوف حسب اعتقاده.

- أين اصيب بالجراح؟ - سأل غوريشيف من زولوتاريف، ولكنه بحسب في ذهنه كيف ينبغي صحبه بشكل افضل، ولكنه لم يكمل فكرته فالتصق بالأرض، لأن صليات الرشاشات ارتطمت بالأشجار فوق رؤوسهم وأسقطت الأوراق الصلبة: - أنتم تخيفوننا، ولكننا تجعلكم هدفاً لنا! -
نقظ غوريشيف بشتمه وصرخ ووجهه الصلبة الأولى قبل أن يرى زولوتاريف الهدف الذي أطلق النار عليه.

بعد ذلك رأى زولوتاريف أيضاً ذلك الهدف. فالألمان كانوا يترაკسون بين الأشجار.

وعالماً طلق الرشاش، فطلق رشاش آخر يدوى قربه ورشاش ثقيل على مسافة أبعد إلى اليمين.

وقلت صليات البنادق الرشاشة الألمانية تضرب الانهصان فوق الرؤوس. تمكن زولوتاريف من إطلاق الرصاص عدة مرات على الألمان المتراكبين. ثم أبتلع الألمان.

وأعلى غوريشيف إشارة الانفصال وكفسا. ركضوا حوالي مائة متر ولربوا مواقعهم من جديد.

ولم يتخلف الألمان هنا أيضاً. فقد أعدت القذائف الخفيفة تصغير بين الأشجار، ثم تاهوت من جديد أشباح متواكفة.

وفتحت رشاشات غوريشيف والرشاشات الأخرى على يمين النار من جديد فأرغمت الألمان على الانسحاب، وتغير جنود غوريشيف مواقعهم مرة أخرى.

زحف زولوتاريف إلى غوريشيف وسأله:

- ما العمل؟ أعلى مقاليداً وسنترفع للنزول على العرشة السياسية... إلى أين نترفع الآن؟ - قاله غوريشيف - ما أشد حماقتك! أين هو الآن؟! أرى.

وأشار زولوتاريف بيده، قائلاً، قد أدرك أن المكان الذي فكر في الذهاب إليه قد احتله الألمان في سياق القتال بينهم.

- كان يجب أن تسحبه آنذاك، أما الآن فما فائدة الكلام؟! - قال غوريشيف بغضب.

- اذن سأذهب لوسدي! - قال زولوتاريف.

- لا تمثل مشهداً انتحارياً! وأصل الملاق النار! الا ترى أن القريش قادمين!

حقاً فقد اخذ الألمان يترაკسون من جديد بين الأشجار على مسافة أقرب من السابق هذه المرة. قائد زولوتاريف يطلق النار على الأشجار المنخفضة الرقعة، اخذ يطلق النار بصورة مستتية ولكن يجد وهارة مثل كل ما

لته طوال خدمته العسكرية.

...كل ما فعله الملازم غوريشيف ومنه عشرة من مقاتليه وعشرة من جنود الدبابات هو أن مارس التفتية في قطاع صغير لتجنح نواف الدبابات بقيادة كليمنتش الذي كان يشق طريقه في تلك الليلة عبر المؤشرات الألمانية.

وكان لواء كليمنتش يدور وحده قطعاً من قطعات الجبهة الغربية التي واصلت القتال وزحجت في مؤشرات الألمان فأرشة غابات شواسي يسكنو بأجسادها وأجساد الاعاء. طوال تلك الليلة والنهار التالي ومتنصف

الليلة التالية في معارلة لاختراق الطرق الألماني وقد اختبرته في آخر المطاف بعد أن فقت نصف أفرادها.

حققت تلك القطعات هذه الاعوجبة بزيان قليلة ودماء غزيرة، ولكنها

عندما اختيرت الحصار لم يرسلوا للاستعداد واكمال صفوفها بالامدادات، بل تركوها في المكان الذي وصلت اليه .

كان الخط الامامي الذي ينسحب طوال الوقت نحو موسكو يتفطع في تلك الايام ثائرة هنا وتارة هناك تحت ضربات الالمان . وقد سدت احدى هذه الثغرات على الفور بالوحدات التي خرجت من الحصار توا وزودت على عمل بالاطلاق والتناوب اليدوية والخرطوش .

وفي مساء ذلك اليوم الذي اخترقوا فيه الحصار قاتل هؤلاء الرجال من جديد، ولكن بجبهة نحو الغرب هذه المرة وليس نحو الشرق . وكانت موسكو ليست امامهم ، بل وراهم . وكان لديهم من جديد ولو قليل من المدفعية ، كما كان عليهم حيران يستدوهم من اليمين واليسار . ورغم التعب الذي تجاوز كل الحدود فقد كانوا مسرورين لذلك .

الا ان زولوتاريف كان يشعر بالعماسة ومع انه كان انسانا متفهما ، مجرد جندي بسيط ، فقد اثبت في الصباح التالي من اختراق الحصار انه يعاجبه من كل يد الى مراجعة قائد لواء الدبابات التقدم كليوفيتش .

كان كليوفيتش قد تخلص ببعض الصلدة من التيران المتعاضلة فماد سالما من مركز المراقبة الى مركز القيادة ووقف قرب بوابة الدفوة الريفية التي دمرتها القذائف . خلع خوذته وبد رأسه الحليق بارتياح تحت العطر الخفيف الذي يشاقط رذاذا كالدش .

وقال كليوفيتش لكاتبين الدبابات الواقف قربه :

— جيدا . لو تساقط هذا العطر اسودا ، انه يتلف العطر . وسبكون حال الجميع ميتا وسال الالمان اسوأ .

ثم القى نظرة منحرفة على زولوتاريف الذي اقترب منه :

— ماذا تريد ؟

ذكر زولوتاريف ما يريد . واحس بان قائده اللواء ليس لديه وقت لامالة الحديث معه ، ولكن كليوفيتش استمع اليه دون ان يبدى تفسرا وقامله مرة واحدة فقط عندما قال زولوتاريف انه سمع من المرشد السياسي انه كانت له معرفة بالريق التقدم .

— المعرفة شيء لا قيمة له! — قامله كليوفيتش — اننا نضحي بحياتنا يوميا دون تمييز في سبيل الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم . لبة معرفة يمكن ان تكذب : انشاء الحرب ؟!

ولاست في صوته مرارة الانسان الذي قتل على مرأى منه كثير جدا من

الاناس الطيبين بحيث ام يمد يستطع ان يأسف لاحد اكثر مما يأسف لغيره ، وليس ذلك بسبب تعجز المشاعر ، بل بسبب العدالة .

ثم قال ، بشع كلمات ايضا ، عندما اخرب زولوتاريف وثائق ميتسوف من نفسه :

— يؤذيت ضميرك لانك لم تعد لاندشاله اليس كذلك ؟

— يلي .

— عندما غبت هل كنت تفكر بانك ستعود اليه ؟

— نعم .

— لا داعي اذن لتعذيب النفس . اردت ان تفعل الافضل ، ولكن الامور جرت كما ارادت الحرب ! تصادف حالات لا يعرف ثمنيتها حتى الرب ! —

تذكر كليوفيتش في هذه اللحظة انه لو لم يقرر بنفسه ما هو الافضل ، ولو لم يرسل عائلته من سلوفين الى سلوتسك بالسيارة لما وقعت عليها القنبلة ولا رجعت بهد ست ساعات بالقطار ولظلت على قيد الحياة مثل الكثير من العوائل الاخرى .

— اعلموها !

اخذ من زولوتاريف وثائق ميتسوف وسلمها الى الكاتب الواقف قربه وقال :

— عموها ، يا ابقاتوف ، مع الاخريات .

ثم يوضع قصده . فقد كان ذلك مقهورا لكليهما : في الصندوق الحديدي لينتقل معهم كمخيرة الشهداء كانوا يصفون فيه طوال الوقت الذي صرفوه في اختراق الحصار وثائق جميع الذين سقطوا في القتال وثيقة بهد أخرى ...

وأخيراً وصل إلى الصورة التي عرفها دور شك: فقد سقط هنا عندما انفتحت القديلة.

هذا هو المكان بالذات! وهذه هي بقعة الدم الكبيرة التي تشتري الأرض بها. سقط يديه من جديدي إلى صدره، وكأنه يرى نفسه بالغايلة وسدعا لأول مرة. ولكنه لم يجد القصلة.

وفكر سيثوف لأول مرة متردداً: «ربما اعتقد زولوتارييف بأني قليل رغبة متى...»

وبلغت مسامحه أصوات قتال عن بعد. كان إطلاق النار لا يزال مستمراً هناك. وكان يشيخ السير إلى هناك! تسمع من جديدي ونهش على قدميه مترفعاً قرأ المائتين اثنين ويجهان نحوه. اسدعها يحمل بندقية وهو على بعد ثلاثين خطوة تقريباً، والأخر قريب جداً وقد صوب بندقية الرشاشة نحوه.

— هالت!

شاهد سيثوف ثم الألماني السمور المتحوش حتى الآن، وهو مستعد لإطلاق النار عليه في بطنه، ففكر سيثوف ذللاً بالقدس الفارغ من زمان في جيب بطنه، ورفع يديه وأحس بأنه سيقط إذا ارغضوا على الوقوف هؤلاء بهذه الصورة.

من أكثر من ساعة على إصابة سيثوف برصعة وجراح، وراح الألمان يشيخون القادة بلغة يد القتال التي تلب هنا وانتقل إلى جهة الشرق.

ظل الألماني ذو البندقية مع الألمان الآخرين الذين أصبحوا أبعد منه يؤاملون ميرهم غير الناية، أما الألماني ذو البندقية الرشاشة فقد أشار بقومتها إلى الجهة التي يتعين على سيثوف أن يسير إليها. وقاد سيثوف إلى الخلف، إلى الجهة التي وصلا منها في الصباح هو وزولوتارييف.

سار سيثوف ببطء مع أن الألماني كان يصيح به بتمترأ، حتى أنه دفعه بالقوة مرة ببندقية الرشاشة في الخافضة.

غف الفوار في رأس سيثوف، وصار يوصيه أن يسير بأسرع من السابق، ولكنه لم يسرع. لأنه ما كان يخاف من هذا الألماني. السائر خلفه.

فليذهب إلى الشيطان، وإطلاق النار علىه. — فكر سيثوف بلا مبالاة تقريباً وهو ينصت إلى أصوات القتال البعيدة أكثر فأكثراً.

أقباد الألماني سيثوف إلى مجموعة من الأسرى الآخرين الجائعين على طرف القاعة بحراسة المائتين كهلين مسلحين ببندقيتين. قال لهما شيئاً وهو يشير إليه. أخرج أحد الألمان دفترًا رسم فيه علامة زائد في البداية ثم سيجل

الفصل العاشر

لم يكن سيثوف يعرف القصة التي قضاه في غيبوبة، هل هي غمس دقائق أم ساعة؟ ولكن أول إحساس شعر به عندما استعاد وعيه هو الإحساس بالهدوء. رفع رأسه واستند إلى يديه وجلس يسبح برأيه الدم الذي غطي عينيه. ثم تلقت حوائيه فلم ير أحداً.

— زولوتارييف! — صاح بصوت ضعيف، ثم كثر بصوت أعلى: — زولوتارييف! علق أن زولوتارييف كتل فراح يبحث عنه بتقارنه وهو جالس على الأرض. ولكنه لم ير زولوتارييف حوائيه لا حياً ولا ميتاً.

لس سيثوف رأسه. كان ناقماً كله بالدم، ولكن الألم ينعث من جانب واحد، من فوق الفخذ. ذلك يدون حذر الجلد المشوش بأصبعه فندت عنه صرخة، وسال الدم على الجبين.

نهش. واجتاحته قشعريرة، ولكنه أحس بأنه ليس ضيقاً إلى هذا الحد، وأنه يمكن أن يمشي. وضع راحته على صدره وضغطها بحركة غريزية ثم أبعدها عنه متردداً، فقد رأى في البداية يمتعين دمويين على فائلك الوسخة، وأدرك بعد ذلك أن قصصه غير موجودة.

ثم يتصور ما حدث في الواقع. فقد فكر في شيء آخر: علق أنه غلب قصصه دوراً وبى ونهباً في مكان ما مع الوثائق. كان يفكر مراراً أنه إذا كان لا مفر من الموت فينبغي عليه أن يترك الوثائق أو يخبئها. وأربما فعل ذلك عقوباً في الغيبوبة.

جلس على الأرض واحدة يبحث حوائيه قرأ على المشب الذليل دريماً من يقع سواداً. أنها قطرات دم. لم ينهش من الأرض، بل راح يضحض. يشبه الشجيرات الصغيرة النابتة حوائيه، وتحرك عائداً على دريب قطرات دمه. ولكنه لم يجد بين الشجيرات لا القصلة ولا الوثائق.

شيئا، فله لقب الالمانى الذى اقاد سيستوف، وانصرف هذا الالمانى بعد ان التفت مرة اخرى. اما الالمانى الكهل الذى يحمل الدفتر فقد تطلع الى رأس سيستوف العديم وقال له:

«-جيس ديتج*!

وجلس سيستوف جنب الاسرى الاربعة الآخرين، واحدهم جريج بيده والثاني معصوب الرقبة والثالث ممزق القم والغد يفتل دما بلا انقطاع. وبغلا لسيستوف انه يعرف المقاتل الجريح بيده. وهكذا كان.

فقد اقترب منه المقاتل الجريح وقال حاسبا:

«-ياها الرقيق المرشد السياسى، اين سمعنا الاقدار؟ من حسن الحظ انك تمكنت من خلع القمصنة فى الوقت المناسب!

«-لا اذكر كيف خلعتها.

«-حسنا فعلت -قال المقاتل بنفس الهمس المؤلى- فما الداعي لان يمدوك بعيدا؟

فيما بعد اضطر سيستوف الى تذكر هذه الكلمات مرارا.

«-كنا نحلم باننا قد نجونا نهائيا! -واصل المقاتل كلامه بعد ان صمت قليلا- وما هى النتيجة!

انتصحت انه عاد آنذاك، على الطريق العام، الى جنود الدبابات مع غوريشيف وقاتل نسبة ايام الخروج من الحصار معهم. واليوم تخلف عنهم بسبب الجرح واسره الالمان اثناء التصفية.

«-المسافة بعيدة من هنا؟

«-سواءى ثلاثة كيلومترات.

«ذلك يبنى ان كليوويش خلع قوته من الحصار قرب يليا رغم كل شىء» -ذكر سيستوف بشعور من الاحترام والغيرة الزميرة.

ومضى له المقاتل من جديد:

«-لن اعطيك ريتيك بعد الآن. فها ينصتان ايتا.

كان الالمانيان بالفعل ينصتان مع انها لم يفهما شيئا على ما يبدو. «-شولفين! شولفين! **» صاح احدهما بصوت اراد له ان يبعثر متخفا. لم يكونا يريدان للاسرى ان يتحدثوا فيما بينهم.

* اجلس!

** صعد! صعد!

وبعد ثلاث ساعات جميعا عند طرف الغاية ككل الذين اسروهم هنا بعد الاعتراق الروسى للبحار، واقتادهم بطاير على طريق غايبى فى البداية، ثم على الطريق العام باتجاه يورونسك.

فى الطاير اريوم شخصتا تصفهم صابون بجرح مازقة. ولم يكن هناك احد تستحق العناية حمله. فالالمان، كما تهامس الاسرى فيما بينهم، قد انطلقوا الرصاص فى الغابة على جميع المعصابين بجرح ثخينة. وفيما بعد ذلك، لم يبد الحراس قسوة كبيرة. كانوا يستجوبون الطاير ويصرخون: «شولفين! شولفين!» اذا لاحظوا اسدا يتكلم.

وربما اخذ يلعب دورا ميمنا الدفتر المرافق الذى يحتوى على علامات الزائد الصليبية، والامر الالهم انه يحتوى على الرقم الاجمالى لعدد الاسرى. فقد انتقل هذا الدفتر الآن من الجنى الالمانى الكهل الى الملازم الالمانى الكهل ايضا الذى رافق الطاير. وهو رجل طويل القامة باثنين مثل ساقى الكرعى، يسير على حافة الطريق شجها دون ان ينظر لا الى الحراس ولا الى الاسرى. «-سيتادوتنا هكذا حتى السبا الى مقر التصنيف التابع لهم- همس مقاتل اعرج يسير الى جانب سيستوف ورفيقه مضغمة بلخاف شائى وسخ- وبعد ذلك يصفقنا ويبدأون بالتساؤل: «هل بينكم ضباط؟ مرشون؟ صابون؟ يهود؟...»

«-من اين تعرف ذلك؟» سألهم سيستوف.

«-وقفت فى الاسر عنهم مرة. وغربت، وما انا افق من جديد! ولكن يقدموا طعاما الابد ان ينتجوروا الجميع.

هذا المقاتل ذو الرقبة المضغمة هو من اولئك الاسرى الاربعة الذين انضمم سيستوف اليهم فى الغاية. وهناك عندما جالسين تمكن سيستوف ان يخرج من جيبه خبسة مسدس الصاى ويدهم تحت جلود الضمورية. فلما السدس الى جانب القمصنة المخلوطة يمكن ان يكشف عن هوية صاحبه.

ولكن الا يفتشى سره احد من هؤلاء الاربعة؟ احدهم يعرف بانه مرشد سياسى. والثلاثة الاخرون كان يومهم ان يسموا صاحبهم بخطاب سيستوف فى الغاية ويثبته. لم يفكر سيستوف بذلك الا فى هذه اللحظة عندما تكلم المقاتل المضغمة الرقبة فجاءه عن التصنيف. فذكر سيستوف بذلك، وطرده هذه الفكرة فى البال: «لن يترفوا، وهذا المضغمة الرقبة لن يعترف ايضا. لقد تعددت عن التصنيف ليس بسبب ذلك، بل بالنكس لكى يحدوني كى اكوي انا على خدر...»

بعد مسيرة ساعتين امتدار الطاير من الطريق العام نحو طريق جاتنى، ثم امتدار من هذا الطريق ايضا. كان الطريق مقطوعا ويخفق مضاد الدبابات حفرته

فوقنا. وكان جمع من النساء تحت الحراسة يعمل في ملء هذا الخندق بالمالا والايدي.

وصاح احدكم في الطابور:

- يهدرون عمل البشر!

- يمايقين البشر! - صاح شخص آخر في الطابور بصوت عال ايضا:

دستم قد سقرتم الخندق بانفسكم عندما قاطمروه الآن وايديكم!

- شواطين!

توقفت الساعة عن العمل الاجباري والقيين من فوق الاكاثاف نظرة على الاسرى، وعندما رأين حراسهن صاحوا بهن باصواتهم الخشنة البهيمية.

وقال البقال المقسم الرقبة لسينتوف:

- ربما يشتموهن بلغتهم.

بعد كيلومتر من الخندق البشاد اذبابات اوقف الحراس الطابور عند قرية خاوية مدمرة جدا بجنار المدفعية، وعلى طرفها بنى جنري سالم تقريبا وعليه رقعة: «دار ولادة».

ورغم الحرب والتدمير في كل مكان ظلت في هذا المبنى انقاس جديدة.

ولم تشييده انيز في الزيج اوفى بداية الصيف، قبل الحرب.

وانقش انهم اوقفوا الطابور قرب هذا المبنى لاسلماهم وتقسيد الجرحى.

وقامت الايدي الروسية بهذا وذلك. ففي مطبخ دار الولادة، على الارضية،

اكوام من البطاطس ويغير الدلف. وانهمكبت امرأتان في مطبخ عصيدة بدلو

وفي طست كبير مطلي بالبناد. وفاحت من المطبخ رائحة القشور والثراب

والدخان. كانوا يلهون الضام هنا ليس للاسرى، بل للسكان الذين اقتادهم

لاجل الاصلح الثرائية. الا ان الملازم المرافق الطابور كان، على ما يبدو،

يعرف هذا المكان، فقصه بقاتيه الطويلتين مع الطابور في هنا مباشرة.

في المطبخ عشر قصاع من الالونيموم لا غير. اصطلت الاسرى حسب

الدور وراحت الطباخة تصب في كل قصعة مفرقة واحدة من سائل البشعر والبطاطس

غير الناضجة. وعندما ترى بين المقترئين منها اشخاصا مرهقين جدا تنتحب

كل مرة بدلو صديرا كسي ولوعة.

كان الطليخ ساعنا كالمهيب، ولكن الجميع اكلوا باستعجال وهم يحرقون

شفاهم كليا يمسحوا رفاقهم ينتظرون طويلا. وكان الالمانى واقفا قرب الشايخة

يراقها كيزا تصب المزيد لاحد، وكيزا يقرع منها احد الاسرى للمرة الثانية.

احتسب سينتوف قصعة المرق كلها واروق فشتيه، وكاد يفتقا! اغلق

يده وابتلع القى المتلفع الى شجره ونحب الى القرية المجاورة للطليخ، حيث كانوا يفسدون الجرحى.

ولم تلك الدقة كانت دقة لتوليد، اما الآن قضية طابرة ومصطبان

فقط. وقرب احد الجدران ردت دقة اجساد مغلطة كيفما اتفق على قس

نشت عليه شرايف قذرة. وصدر عن احد تلك الاجساد اثنين مستناب، ولله

اثنين امرأة.

انهمك شخصان في تضييه الجرحى، وهما مدمرة عجوز جدية وطبيب

عجوز ضخم بوجه شديد وجه الامد ويدين لا تزالان قويتين ماهوتين، ولكنهما

زنتيمان بين الحين والآخر اما بسبب الشيطونة اما بسبب وجود الالمانى

هذا كما انى الطليخ. غير ان ذلك الالمانى كان يقول: «يشيرغ! غيرغ! ه».

يضا يكرر هذا: «يشيلر! شيلار! ه».

- امير - قال الطبيب لسينتوف عندما جلس على المصطبة وسلمه رأسه.

رأس الطبيب على الجرح اوكسيد الهيدروجين الودش، وحلق لثقا من

الشعر بنشرة بيضاء شفاقت من المقص الذى لمس الجلد المذوق. ثم مسح

ذلك البقعة بالورد، مما جعل سينتوف يهوى من الالم، وبعد ذلك وضع شيئا

اخر وقربه بشكل مؤلم من جديد باصابعه على الجرح، ودفع سينتوف

دعاه عفيفة. لكن ينتقل الى المصطبة الثانية وقال للممرضة:

- نعمايه!

واجنس في مكان سينتوف شخص آخر يده مبهمة الاصابع.

اخذت الممرضة وفي تمرج برجلها التفسير وكفها التهدلة ففسد

رأس سينتوف وتدمع بهمس غاضب. في البداية لم يفهم سينتوف ما تقول،

ولكنه ادرك بعد ذلك انها تلمز الالمان لانهم يشكون على نيكولاى نيكولايفيتش

وبمقتضى عن العمل بهدم. يبدو ان كلا المجوزين - الطبيب والممرضة - قد

نالا معا امدا طويلا جدا، وهى الآن متألمة زنتيمها الجراح اكثر من لها

على الجرحى.

رأى سينتوف الآن وجه الجراح الذى لم يتمكن من رؤيته عندما كان

جالسا على المصطبة تحت يده. وادرك سينتوف مدى الغضب الذى يشعله

هذا الانسان الضمير الى العمل كطبيب. فالالمانى لا ينتظر، يضا يريد

* كفاية! كفاية!

** اسرع! اسرع!

هو أن يبالغ أكبر عدد من التجسس في بيعه المأثورين والقبائين رغبا عنه. كان وجهه الاسدي يحاويه الاثني عشر واقفه العريض المشقوق وشاربيه المتصلبين التتصين كشوارب القبط يتصب مرقا بسبب التوتر وقد ارتسخت عليه امارات التماسه والهاج. ولو كان يستطيع لروبا قرع ملحقه في حنجرة هذا الانساني اللعين الذي يكرر بلا كلل: «شيلو! شيلو!».

بعد ساعة امروا الطايور بالاصطاف من جديد. ولم ينتع الوقت لتضيد بعض التجسس، ولكن الملازم يسأل الكركي قتلح الى ساعته، ولم تمض هناك احمية لاي شيء بعد ذلك. فالحراس مستحيون في اقبال الاسرى الى المكان المعتولب. وصاروا يسرعون في شطاعم ويجادون بغيظ أشد.

الا ان ذلك كله انتهى فجأة، وتوقف الطايور طويلا. ففي الاسام اترصدت السيارات الالمانية، وخيل لرائي من هنا ان سيلها بلا نهاية. كان يوسع طايور الاسرى ان يستدير طبعيا لتجنب الازدحام، الا ان الثانية في ذلك المكان تضيق على الطريق من جانبيه، ويبدو ان الازدحام يسأل الكركي لم يكن يميل الى تجنب الازدحام غير العاية.

— ها قد توقفنا! — قال المقاتل ذو الرتبة المضادة لستينسوف، فهما يهيران من جديد جنباً الى جنب.

— لم يعيدوا تضديد رقبته، لم يكف الوقت، اليس كذلك؟ — سأل ستينسوف.

— كنت جريحا، في وقتي دمل... سنقف طويلا. هل تعتقد انهم يلزمون بالنظام؟! ليس عندهم نظام. عندهم تشويش ايضا. عندما اقتادونا في المرة السابقة الى المعسكر رأيت خلال الجيوبين اللذين قصيتهما هناك قبل ان اهرب ازدهاما كثيرا مثل هذا، وكنت قد مرة افكر: اين طائرنا؟ — سمعت يرحا ثم قال بلهجة خالصة: — آه، يا ليتني ادعيت الآلات لاخفت الالم!

لم يجيب ستينسوف شيء، ولكن جاره ما كان يريد ان يصمت: — عندما نضوءك هل رأيت اشخاصا واقفين على الارضية؟

— رأيتهم — قال ستينسوف — واعتقد ان بينهم امرأة...

— ليس امرأة واحدة، كلهم نساء! قالت لي ذلك الطليانة وهي تنصب في الدرك. كلهن نساء، وكلهن مغطويات الرأس. فاذ فؤادنا زمرت للاما في احد الاماكن قرب الخندق الضيق لهذبات. ولكن الالمان ارفعوا اصداءهم على انتزاع تلك الاتهام من الارض بالايدي. اما اللواتي انقهرت يهن إلاالاتام ولكن فقد طمروهن هناك في الخندق مباشرة.

كان ستينسوف ملول اليوم، منذ اللحظات الاولى للامس، في سالة تسحق قطع، ولكنه شعر الآن من جديد بأنه لا يمكن ان يلزم بالالابالة شأن ما اذا كان الالمان سيهدونه ام لا، وما اذا كان يميل ام سيسقط في الطريق فيطلقون انثار عليه... فقد اراد من جديد ان ينجر منها كلف الشن: اراد ان ينجر ليس بمجرد تجاة، بل تجاة تمكنه فيما بعد من اجل نثر الالمان ثارا لهذا الخندق المشادة للبايات والذي تطعمه النساء بايديهن، ثارا لهذه الايدي التسوية المتقطعة...

اعلمت المقاتلون الالويان من طراز ايل بزيتر فوق الطريق لم يدرك لا ستينسوف ولا الاسرى الآخرون ما حدث. ادركوه في اللحظة الثانية من تصرف الالمان. فقد اعدوا يتقاتلون الى السواقي من مشن السيارات مباشرة، وانبع الحراس على الارض، بينما موقت فوق الطريق الكمام طائرات اخرى بدد متزايدة...

وصارخ شخص ما يصوت رنان قبيل الدوت. وهو بعض الاسرى على الارض ليثما على بعضهم راقفين يتطلعون الى السماء كالدجورين.

— ليدرو! تمو بويون! ليدت اويو!... — صاح بالاسرى. الملازم الالمانى المتبع على الارض.

تهدرو عن كل ما كان يلازمه من هدو وراح يجاز ويسحب باضطراب نفسه الذي اشتبك بجراه. ربما كان مرعبا ومعبيا له ان يرقد على الطريق كاصادة، بينما ظل هؤلاء الاسرى واقفين بكل فاقهم فوق رأسه. الا ان الطائرات استمرت باطلاق النار من الرشاشات وهي تترق قوقهم، ولم تكن لديه القوى الكافية لا لعمل نفسه على القوف ولا لعمل هؤلاء الاسرى على الانبطاح. كلا، سوف يرفعهم على الانبطاح!

— تمو بويون!... صرخ راحة يطل الرصاص من محفاه على حشد الاسرى الذين ظلوا واقفين على الطريق.

فلتهرب، يا رفاق! — صاح ستينسوف بصورة مباينة له نفسه عندما رأى المقاتل ذا الرقبة المشددة يسقط عند قدميه وقد اسلك رأسه يديه — فلتهرب! — صاح مرة اخرى وقرر غير الساقية وانزع نحو العاية محملا الشجيرات الصغيرة وقد سمع كيف ركض عدة اشخاص وراءه متسللين الانفاسان. واستمر فوق الرأس ايزر صياحات الرشاشات. ووراء سمعت الانفجارات وصياحات البنادق الرشاشية.

— انبطحوا، انبطحوا على الارض! ...

لم يعرف سينشوف عدد الذين تمكنوا من التخلص آنذاك. فقد ذروا إلى جهات مختلفة من الغاية ولم يتقابلوا فيما بعد. سار بدون توقف تقريبا، وكان يجلس أحيانا يضع دقائق لكي يلتقط انفسه. سار ببقية ذلك اليوم القصير من شهر أكتوبر حتى حل الظلام نهائيا، وسار طوال الليل أيضا. سار عبر الغاية، عبر قوينة معروفة عن آخرها، وسار عبر الغاية من جديد، وتجاوز خندقين متساويين لأدبيات خندقا آخرى مجهولة. في أحد تلك الخنادق ارتطم بجيش، فالتفت ذلك، والا لتجدد. فقد خلق قفصا أحد القشبي وسرقة قفصا بهلجة جديدة تقريبا، سوى يقع قليلا من الدم على طرفها. وبعد قرب فئتين آخر قفصا شوية أردناها مصوية فوق عصابة التضديد بعد ان اصطكت اسنانه من شدة الألم. وهم يان بأخذ بتدقية كانت دموية هناك، ولكنها كانت بدون زقادة، بحيث عنه كثيرا ولم يجدد. ثم اجتاز طريقتين أحدهما خالدا، أما الآخر فقد مر به، بعد دقيقة من اجتيازه، طابور من الدراجات النارية الالمانية. تشتم روائح العرائق وشاهد التاييب وسع الاطلاق النار تارة إلى اليسار وتارة إلى اليمين. وذات مرة غيل إليه ان الاطلاق النار يجري في جميع الجهات. وشيل إليه آنذاك انه يجتاز غط الجبهة. وكان قد اجتازه بالفعل...

ولكنه عندما شر عاجزا على الأرض وسط الغاية عند القنجر سمع من جفينة غير الانفجارات ليس على اليمين ولا على الشمال وليس من الوراء بل من امامه على مسافة بعيدة. نعمت ادراكه بسبب التعب، فلم يخطر بباله ان هذه الانفجارات البعيدة يمكن ان تكون قصفا ألمانيا لمؤخرتنا. فقد شأء على الكسكس، ان عبور للجبهة كان مجرد تصور وأن غط الجبهة في الواقع لا يزال امامه.

قرر ان يثقف نفسه مهما كلف الامر ولا يقوم بمجازفة، فشرّب من ماء المستنقع وزحف إلى الشجيرات. فمن الأفضل انتظار الفسق ومحاولة عبور الجبهة ليلا. فالأمل بالليل أقوى مما بالنهار. بعد ان صمم على ذلك نطأ في نوم عيق استغرق عدة ساعات، واستيقظ عندما بدأ الجو يمتد قليلا. نهض وسار من جديد حتى قطع زهاء خمسة كيلومترات في الغاية التي لا تزيد ان تستوى. ذات مرة غيل إليه انه يسع اسواتنا، بل وقد دوت اطلالة قريبة جعلته يرتجف. ولو قومه نحو تلك الاصوات وتلك الاطلاقة أوجد مباشرة إلى موقع الكتيبة الضعيفة المرتبطة هناك. ولكنه كان لا يزال يعتقد بأنه لم يبر غط الجبهة وأن هذه الاصوات وتلك الاطلاقة الغاية وأن عليه ان يسير إلى أبعد.

وأخيرا، عندما شيم الظلام كليا تقريبا خرج إلى حقل وبيد فيه خندقا مضادا للهبات. عبر الخندق فوصل إلى قرية منزلة مكونة من ثلاثة منازل تبعد رايها اسبحة من انفسان مضيقورة.

ارتقى الزاوية واقترب من المنزل الواقع في الطرف. كان الهدوء، ومع ذلك، فخيال إليه ان المنزل مهجور، ولكنه عندما اقترب منه فخرج من وراء زكن. المنزل نحو مقاتل كهمل يحمل دلو. وكانت تلك هي الميزة! فان وجود المقاتل الذي سار باليد نحو البئر دون تكلف قد يبد كل شكوكه: لقد وصل إلى قوائنا.

تطلع سينشوف إلى الجندي وتطلع الجندي إلى سينشوف. كان سينشوف البصر عمرا من الجندي الذي بدأ في الاربعين، ولكن سينشوف لا يدري بأي مظهر هو الآن بعد ان ماللت لحية في غضون اثني عشر يوما. ولذا دهش عندما سأله الجندي، الذي تطلع إليه باهتمام:-

-- ماذا تريد يا أبتي؟

عطا سينشوف صامتا خطوتين باتجاه الجندي الذي يعمل الدلو حتى ان هذا تراجع وسأله:-
-- من تريد؟

الا ان سينشوف به كالفا يديه صامتا كالسابق وراح يهز به الجندي مع الدلو المزعج فيها. ويمكن اخيرا من تلفظ كلمة واحدة:-
-- وصلت! ...

-- اجل، وصلت ولكن... -- قال الجندي والدلو لا يزال يرتج في يده لان سينشوف ظل يهز تلك اليد. ولكنك سرت اكثر من اللازم كثيرا! فخط الجبهة الامامي ظل وراك لمسافة عشرين كيلومترا، فهل يعقل انك لم تصادف احدا قبيلا؟

-- كلا. سرت ليلا، وكنت انام في الغاية لهارا. ظننت بانني سأسير ليلة اخرى...

-- ما هي ترتيبكم؟ -- سأله الجندي وانتقل فجأة إلى نهضة الاحترام وراح يتطلع بمزيد من الاهتمام إلى لحية سينشوف شبه الشبيهة -- رتبة مقدم؟ او رتبة أعلى؟

ولمع في عينيه يريق الارياح: فقربا خرج من الحصار جزرا ووصل إليه هو شخصيا. ورغم تفقد الوضع العام فإن هذه العادة يمكن ان تبث السرور كثيرا لهية.

الا انه سينتسوف غيب آلامه:

- انا مرشد سياسي.

- حسنا، ايها الرفيق المرشد السياسي، فلما ان تنتظرنى لاذهب الى
البشر واعود، واما ان تراقبني، وبعد ذلك اوصلك الى مرشدنا السياسي الاقدم.
فقد وصلت الى منزله بالذات!

سار سينتسوف يرفقه حتى البشر وانظروا الى ان اغترف اماما، وعاد معه
الى المنزل دون ان يصدق يساعده حتى النهاية.

- اجل... اطاعت لحيمة مناسبة تماما - اجتاز التجديد مع سينتسوف المسافة
الى مدخل المنزل ووضع الدلو وقمع احد البابين على المدخل وقال: - ايها
الرفيق المرشد السياسي الاقدم، اسمح لى بالكلام! احضرت اليك الرفيق المرشد
السياسي الذي وصل من الحصار تورا.

جلس في المنزل الرفيقي عند المائدة شخص في منتصف العمر يجتس
المرق من قدر موضوع على جريدة. يجلس يجتس المرق حزينا وقد اسند غده
بيده كفا تقبل المجاز، وانفتحت الى الباب وهو لا يزال يستند غده بيده.
وجهه طيب الاسارير رفيق فيه شيء من وجوه المجاز، وشاربا يلقته زرقاوان
من مستطيل واحد لكل منهما، الامر الذي يجعل سينتسوف يترك يانه وصل
الى وحدة جوية.

احدى قديمي المرشد السياسي الاقدم في جزيرة والاخرى بجورج صوفى.
والجزيرة على الارضية، وتستند الى المائدة عصا من صنع يدوى منحوتة بناية.
وفكر سينتسوف: - ربما اضغاث له هذا المقاتل. فكر سينتسوف بذلك
ليس ماء مع ان هناك آلاف الامور الاخرى الاكثر أهمية والتي كان يومه
ان يفكر فيها الآن.

- تفضل، ادخل - ساقفه المرشد السياسي الاقدم وهو ينهض قليلا - ما
ابعد ما قذف بك الدهر! - قال مؤسسا واضحا - انت جائع، اليس كذلك؟
- جديا لو شربت شايا! - قال سينتسوف مع انه لم يتناول طعاما
منذ يومين فقد كان يريد ان يتدفأ اكثر من اى شيء اخر.

- مشروب الشاي في كل الاحوال. - اوما الى ابريق الشاي على المائدة -
ولكن كل دقا في البداية - مسح المعلقة بقطعة خبز وصحب القدر مع الجريدة
على المائدة ليقربه من سينتسوف.

اخذ سينتسوف المعلقة وبدأ يأكل، بينما راح المرشد السياسي الاقدم
الجانوس فبات ينظر اليه بالذات وليس الى كيفية تناوله الطعام.

قيل ان يجهر سينتسوف على المرق اذمع هذه النظرة وتذكر انه جلس
مرتديا القبة. وعند ذلك ترك المعلقة والقدر على مفض وامسك القبة بكفنا
يديه وعلفها متأوها من الألم. وقد تصبقت القبة بالشاي في احد الامكن.
- هل انت جريح؟ - سألته المرشد السياسي الاقدم عندما رأى الشاش
وعليه بقعة دم قاتمة.

الا ان سينتسوف لم يجبه الا بعد ان اكمل التهام الملمتين الاخيرتين:
- جرح طفيف. كانت الرجة شديدة الى درجتها، فقد استمدت رثدي
بالكاد. اما الجرح فلم يمس الا الجلد والشعر...

- اين ضحكوك؟ - سبب له المرشد السياسي الاقدم الشاي في القدر
المعدني وقربه منه.

جاء هذا السؤال في محله. فقد سار سينتسوف دون ان يخلع القبة،
وظل الشاش ثقيل. حدث عن مكان وكيفية التفضيد، ثم حدث عن باقي
القصة.

كان المرشد السياسي الاقدم الجالس. قياه قد خرج من الحصار هو
الاخر في يونيو ويوليو من الحدود نفسها، وبعد ذلك رقد في المستشفى وخرج
منه قبل الاوان ووصل الى الجبهة من جديد قبل ثلاثة ايام لا غير. استمع
الى سينتسوف بشعور من المشاطرة ولم يجبه في حديثه، ما يشير الدهشة ما عدا
واقتر ان الشخص الذي حدث له ذلك كله جالس الآن امامه حيا يرزق وسليما
على العموم.

- لم اكن اتصور بانى سأتجاوز الجبهة لمسافة عشرين كيلومترا. واصل
الى الطيارين مباشرة! - قال سينتسوف وايدد القدر الفارغ.
رقال المرشد السياسي الاقدم. موضوعا ليس للمرة الاولى على ما يبدو،
قضية شارتيه اللتين تثيران التساؤل:

- لا تهتم شارتيه يلقى. ففى بداية الحرب كنت مقبولا لكنية خدمة
المطارات. اما الآن فتحت لسنا طيارين، اننا كتيبة لجناء. القائد والمفوض
السايقان، محاصرا الانسان بقنبلة واحدة. فاقولت اننا الى هنا من المستشفى
مباشرة، كذا أرسل القائد الجديد من لجنه التجديد المتطوعة. ونحن نحضر منذ
ثلاثة ايام ليل نهار. وقد اقمنا من الحظ الذي حفرناه في اليوم الاول. -
من رأسه غائبا - اذا اعتقد ان الاشتراك في المعركة دفاعا عن موسكو فسوف
الشاة افضل من الحفر هنا لم نرك ما نحفره! ولكنه يقال ان عدد الجناد
غير كاف. انها مكتوبة في مكان ما، اننا نحن قمحس عليها!

يعني ان الوضع عصب قرب موسكو، اليس كذلك؟ - سأل سينتوف بصوت متألم.

كم مرة طن خلال هذه الحرب ان اصعب ما فيها قد تم تجاوزه، ولكنه لا يزال في الالام؟ ثم ان هاتين الكتلتين اللتين تتغلظها الآن لاول مرة بصوت عال يقرب موسكو قد مرزاه مع انها قايما بصوته هو. قربا موسكو! .. فهل هناك ما هو افزع من ذلك؟

.. نعم، طبعا، نتاجه يتلخص علمنا في حفر الارض. ولكن الوضع عصب على ما يبدو. - قال الدردش السياسي الاقدم على مضض بعد ان ازم الصمت برفة، ثم تتلعغ الى وجه سينتوف الشاحب والى ضماده واضاف: - توجد كتيبة صبية ليس بعيدا من هنا.

هز سينتوف رأسه: - كلا، اتنى اريد ان اقاتل ما دام الوضع كذلك! سأتام عندكم، اذا سمحت، وفي الصباح سأذهب.

الى اين؟ - الى الجبهة، مع أية اعدادات. اعتقد بانهم سيقبلوني جديا، فاذ لا آمل في اكثر من ذلك بدون هوية ووثائق!

لم يدهش الدردش السياسي الاقدم. - فقد كان يتوقع هذا الاعتراف من منتصف حديث سينتوف، لان الذين خرجوا من الحصار محتفلين بهوياتهم يبدلون عادة من غرض تلك الهويات باعتزاز. اما سينتوف فقد تحدث عن كيفية بقاءه بدون هوية. تحدث عن ذلك وأسس فجأة بان مبدئه يتصلح اليه بارتياح لاول مرة خلال كل هذا الوقت، وكان لسان حاله يقول: لماذا تكذب؟ لقد مرزمتها عندما جاء الالام... شيء مخوم!.. وهو يصادف اميانيا، فما الداعي للتكذب؟

- ما دام الامر كذلك - قال الدردش السياسي الاقدم - ثم هنا اذن مع الجندي الذي استيقاك، مع يفرييوف. اما انا فأسأله. ما هي الشائعة قد وصلت لتأخذي. كانت قد دوت منذ فترة قصيرة سيارة بالفعل ثم صمتت وراء النافذة. - اشغلنا كثيرا. - نحفر هنا شنادق واخاديد ونقيم هناك حواجز الاشجار... والا فكيف؟... - اراد ان يواصل كلامه، ولكنه توقف. فبعد ان قال له سينتوف شيئا لم يصدقه ما عاد راغبا في مواصلة الحديث بصراحة، وكرر قائلا: - ثم الآن، وفي الصباح سنوسلك انا وقائده الكتيبة حسب الاصول... يفرييوف، يا يفرييوف!..

- حاضر، ايها الزئيق العرش السياسي الاقدم! - قال الجندي وقد ظهر على الكتيبة.

- سامعني يا يفرييوف، رجاء، في ارتقاء العجزة... انهما مشكاة عويصة بش الجراح... كانت العجزة الاخيرة موجهة الى سينتوف. فقد شعر الدردش السياسي الاقدم بالخليل لانه مضطر الى غلب السامعة.

اتحنى يفرييوف واسلك بالجزية ودس الدردش السياسي الاقدم وجله فيها وهو يتولى من الالام. ثم التفت الصما السمنة الى المائدة وخرج وهو يهرج. تبع سينتوف الدردش السياسي الاقدم ولكن هذا اكتفى بان وجه وهو سائر بضع كفات الى يفرييوف وصعد الى قبرة الشاحنة دون ان يلتفت. شيع يفرييوف السيارة بنظرة سأل:

- هل تعلق بوسى؟

- نعم.

- ولكن ربما تريد ان احلقك؟

لم تكن لدى سينتوف الا الثقة الكافية ولا الرغبة في الامتناع. فمن القرب الامور عليه ان يخلص على العصفية ويلقى برأسه الى الوراء ويشمر يان احدا يحلق له ذقنه!

كان يفرييوف يعلق له ذقنه، بينما اخذ النعاس بشفاته وصار يسمع بصوتية غير النعاس ان الكتيبة تقوم بانشاء الخط الثالث، بينما تنسحب نمن على القوام، وان من حسن الحظ ان سينتوف التقى بالنعوس وليس بفاته الكتيبة، وان الالامان قصفوا في التهاد الخندق المضاد للبراريات واصابوا هناك عشرين شخصا مع ان صلاهم للعمل محدود، فالتيلة لا تفرق بين الناس، وكلهم صالحون لها...

ثم غلب سينتوف نهائيا، مال رأسه فجرح بألم عنه فكه.

- لا يجوز النوم، اذ قد اذهبك على هذا النحو... قال يفرييوف مؤثيا، واقطع رقعة من الجريدة الدوشوية تحت القدر والصفها على مكان الجرح. وبعد ان حلق ذقن سينتوف خرج الى الباحة وصبى على يديه بصفة انداع من الماء فاغسل سينتوف محاولا ان لا يبال القصداد. وسأله يفرييوف:

- هل تريد استدال القصداد؟
فراصن سينتوف قائلا بأنه يشي ان يلبس رأسه، وتكاتب متبعا. عرجا على مستنوع وضعت فيه، كيهاما اتفق، حاجيات وشعيرة واكياس نظاشن زلفوت، وعلى مصفيلة خيفة فرشت شحنة متالية.

- ثم هنا - قال يفريموف وهو يشير إلى المصطفية .
- وانث؟

- انا جنوني ويجب ان اكون على استعداد، وربما يأتي قائد الكتيبة
غدا سينتشف حالنا وضع رأسه على المصطفية، واستيقظ في منتصف
الليل .

- انهض! انهض! هزه يفريموف دون ان يرى ضرورة للالتزام بصيغة
الاحترام في مخالفة شخص لم يستيقظ بعد - انهض يا رفيق! - انتقل الجندي
إلى صيغة الاحترام - حالنا رأى سينتشف يخفض قلبه من المصطفية - قائد
الكتيبة يدفعه!

اخذ سينتشف يرتدى حزمته بينما دخل يفريموف الفقرة المجاورة .
- لقدت ابركم! - سمع سينتشف هذا الكلام عندما اجاز الدعايز .
- حسنا، فليدخل - تهادى صوت فتى يشبه من القدر - اثنى متعب
جداً، فمن اين جئت هذا ...

جلس عند الطاولة قرب مصباح الكيروسين ملازم اول قصير القامة مكتئب
اليدين يوجه شتدير شاحب وحاجبين جهيلين كأنهما رسما وضعا وعينين جاحظتين
يقض الشيء . وبسبب البرد التي على كتفيه مغطيا ملوثا حتى الياقة . وعلى
المصطفية المقابلة استقرت طاولة ملوثة بالاصباح ايضا .

- هل تسمح لي بالدهول؟ - سأل سينتشف، وكاد يرتطم في الباب
يفريموف الذي قال له الملازم الاول في الحال: «يرسك ان نذهب» . - مرسيها!
- غلطيتي حسب الاصول! - قال الملازم الاول بسرعة ونظف .
تطلع إليه سينتشف صامتا ووقع الطاولة من المصطفية ووضعهما عن
الطاولة وجلس .

- انهض! - صاح به الملازم الاول .

ظل سينتشف جالسا يطلع إليه بصمت .

- انهض! - صاح الملازم الاول مرة اخرى .

ظل سينتشف جالسا .

امسك الملازم الاول جراب سنبه .

- عشا تعونني! - قال سينتشف دون ان يتزعزع من مكانه - «موتوني
مرارا دون جدوى . انا مرشد سياسي، رتيبي تعادل رتبك . تصعبا على
التوقف، لذلك جالس . لا سيما وانك انت ايضا جالس .

- اين وثائقك؟

- ليست عندي وثائق .

- طالبا ليس عندك وثائق، فليست بالنسبة لي مرشدا سياسيا! انهض!
هكذا بدأ الحوار بينهما دون ان يشعر بأي خبير . راحا ينظران طوليا إلى
بعضهما البعض، ولعل الملازم الاول ادرك بأنه لن يجعل هذا الشخص على
«نهض حتى ولو اطلق الرصاص عليه . واخيرا بدأ الملازم الاول كلامه باستهانة
مسلحة ببرهانه وكأنها يتكلم عن احد مرؤوسيه:

- سادست مفوض، ولكني خلافا له لا اصدق يقى، كرر امامي
استاذك .

فوجئ سينتشف بذلك حتى انه لم يفهم في الحال . فقال: - بعد
ثانية صمت طويلة بهاج مكتوب:

- حسنا، سأكرر عليك اساطيري .

تذكر في الوقت المناسب لهما، على أية حال، عسكريان، وأنه وصل
في موقع واحدة يقودها هذا الملازم الاول بالذات، ومع انه ذكر قصته كاملة
لفيوس هذه الوحدة، فإن من حق قائدها العقابية بان يكرر له ما قاله .
يخبر سينتشف بهذا نفسانيا فكرر بتزاهة قصته من البداية حتى النهاية .

كان سينتشف يتحدث وكان الملازم الاول ينصت إليه دون ان يصدر
ما يقول . كان في مستقبل العمر مرتبكاً نموذج الطيبة . وكما يحدث للناس الضعفاء
المعتزين بانفسهم ولدت مشاعر الانزياك الغضبي الضيق ثمينة ودية شديدة في
عند تصديق الآخرين . كان قد طلب بنفسه الانحياز بالجبهة، ولكنه عندما
وجد نفسه في هذه المعركة الشظيفية في ضواحي موسكو، ومشرق منذ اليوم
الاول كقصص الجوى في سفل مكشوف اصابه شعور بالخوف الشديد لم يقاتله
لثلاثة ايام . بذلك قصارى جهده ليلتزم كالسابق بتطلعات السواك التي ترضىها
عليه بزمته العسكرية، فراح يدخل ارتعابه متبهما مرؤوسيه بالجبن . ولكنه ما
لقد يستطيع ان يتخبر نفسه . وهو الآن ايضا، امام سينتشف، يشير في
الاصاق نفسه بأنه ما كان يرسم ابدا ان يتحمل كل ما حدث عنه هذا
الانسان: ليس يرسم ان يتحمل ثلاثة اشهر من الحصار ولا ان يسير حتى
السلطة الاخيرة بيزة القوقوز، ولا ان يهرب جريحا من الاسر تحت وأبلى
المراسل . وطالما يعرف بأنه عاجز شخصيا عن تحقيق ذلك فلم يكن يريد
«تصديق» بان الآخرين قادرون عليه . لم يكن يريد التصديق بذلك دفعا
عن نفسه .

استمع الملازم الاول إلى سينتشف ولم يصدق له ليس لان

سيستوف لا يمكن تصديقه، بل على العكس، لأن الملازم الأول وأب كل الرقية في انقاع نفسه بأن هذا الشخص الجالس أمامه يكذب، والآخر من ذلك أنه ربما كان مغرباً ألمانيا وإن هذا المخرب سيحتجز من قبل الملازم الأول كروتيكوف وليس غيره، وسيقضى عليه بالذات كروتيكوف الذي وصل إلى الجبهة قبل ثلاثة أيام لا غير ولكنه يدرك الموقف أفضل من بعض الذين تواجدوا في الجبهة وعولجوا في المستشفيات. وخلال هذه الأيام التي تتنابها فيها إرماعات داخلية انعكس مراراً تمت نظرة مقوضة الضياء والتمتمة لكل شيء، وهو مسرور تشكبه من الفتوى عليه هنا على الأقل، الآن شلاء بغاذ بصيرته وصراته وحاسه الذي لا يرسم في الخدمة العسكرية، وهو الحساس الذي لا يخلط به هذا التنصت من البشر عندما لا يتقل على اقتحامهم الخوف والرعب على حياتهم.

قاطع سيستوف مراراً بأسئلة متوالية سافرة:

«كيف لم تحفظ بأية وثيقة؟ وكيف ظلت السيرة العقائدية جديدة تقريباً رغم الطريق الطويل الذي تقطعتك؟» وكيف ظلت السيرة العقائدية جديدة تماماً سيستوف أعصابه هذه المرة أيضاً وأوضح له بصير أنه غلب السيرة من أحد القتلى.

ولكنه عندما قال له الملازم الأول فجأة:

«مكناية غريبة: جرح في الرأس وفيلوب، ثم تشككت من قطع حوالي أربعين كيلومتراً بعد ذلك كله! - لم يتحمل سيستوف، ونهض بكل قامة وخلع بدون استعمال السيرة العقلية ورفع التمسلة والقائلة وقال: - هل ترى؟ - أشار بأصبعه إلى الجرح المزروع على جنبه لقد لحوت مسباراً في جنبه عصبي لك. وهذا - وأشار إلى رأسه المغمض - من أجل التمويد أيضاً. فليس هناك أي شيء، هل اشعلت القنصل؟ - لست طبيباً، فلا تقدم علي حقائق! - قال الملازم الأول مرتبكاً، وكانت تلك الكلمات هي أول ما أفلح على إصابته في تلك اللحظة.

تطلع إليه سيستوف بضع ثوانٍ منتظراً وقال: «أسف عليك!» - ورفض القضاة وأخذ يرتدى السيرة بنض البطء الذي ضلعهما فيه.

فصل الملازم الأول بصغرة فكرة نزهة بإدراحت إلى ذهنه فجأة: كل ما قاله هذا الشخص حتى الآن هو الحقيقة بعينها. طرد هذه الفكرة لأنها غير مبرعة بالنسبة له. لم يكن رغباً في تصديق سيستوف، وقد احس سيستوف بذلك.

«حسناً، أذهب للتوم، وغدا منتظر في أمرك!» - قال له الملازم الأول أخيراً بلهجة ذات دلالة.

نهض سيستوف صامتاً، والتي عليه نظرة متغالية وخرج دون كلمة توديع. بعد أن غاب الملازم الأول كروتيكوف لوحده نهض وبقي واقفاً يهدوء زهاء دقيقة يتسبح إلى سيستوف وهو يأوئ إلى القرائش وراء الجدار، ثم جانب القوة متكرراً بما يمين عليه فله.

كان ينبغي في الحال إرسال رسالة مع يفريوف إلى القرية المجاورة التي نزلت فيها اليوم بالذات الشبة الخاصة للفرقة التي بدأت بالوصول إلى هذا المقطع. شغلت الشبة المدكورة مترايل في طرف القرية، وجعلت كتيبة البناء تشمر باليقين. يجب إرسال يفريوف الآن لكي يأتي الماسون في الشبة الخاصة هذه الليلة لينظروا في قضية هذا الشخص!

ينبغي أنه كان بالإمكان تأجيل ذلك إلى الغد، ولكن شيطان الضرور القين الممزوج بدم اللثة بالنفس دفع الملازم الأول كروتيكوف من ظهره، فهو يتعرق شقاً إلى الشيت من صواب شكوكه. أخذ يحفظه من على الطاولة وأخرج منها دفتر الميديا وحرر رسالة إلى الشبة الخاصة وعلوى الوثيقة واستعدى يفريوف.

كان يفريوف يفتر جالساً على المصطبة في الليل. وقد دخل فضاء متنزلاً. وقبل أن يفتر أحس بأن الملازم الأول يجوب الفرقة من ركن لآخر على نحو لا يشر بخير.

استمع يفريوف إلى الأمر وأخذ الرسالة ونهض وقال: «سبب أمرك!» متفهماً بأن ذلك كله لا داعي له. ثم التقى نظراً استهجاناً على الملازم الأول وعلق بتفكيره على كفته وخرج إلى الشارع بعد أن صق الباب.

أما الملازم الأول فقد جلس إلى الطاولة بعد أن جانب الغرفة طويلاً، ثم غر رأسه الشعب على الحفلة.

لم يبق طعم التوم تقريباً ثلاثة أيام لباليها. فقد ارتفعت مقاومة الشعور بالخوف، ومع ذلك بذل قصارى جهده في تكوين الأشجار وسفر الخنادق والاعاديء ونسب الجوارح البسادة للديابات، وقد تب حثماً يتعب جميع الناس، وحالاً ألقى عليه اللحظة غط في نوم شياي عيق.

ولم ير في أحلامه التعيين لا الخنادق والجوارح ولا الفنايل المتفجرة على برأى منه، ولا المرشد السياسي الحديث برهجه الغائب والذي هم يتطلع الضماد من على رأسه. مرق في أحلامه وتكررت نفس الوجه الساتى المليح الذي يثير

الشقة وقد ارتب من الفرقا المفاجيء. وراح يدمدم بشقيه الثاعنين المطلقين دون رقيب. رأى في المنام ذلك الوجه فانبسم وعده المتفكر مستقر على الطاولة ولم يكن وجهه هو شيها ملافا يذكى الذى رآه سينسوف...

— اصبح لى بالكلام ايها الرقيق الملازم الاول...

ارتطم الملازم الاول وهو يفتح عينيه ويرى عيني ناستين يفرمون واقفا امامه وقد وقع يده بالتحية الى قبته واليدنية على كتفه. وقف بقامة معتدلة الا ان مضبات ساخرة يرقق في عينيه اللتين تشعان مليحة.

— اصبح لى بالكلام! ثم قالوا ان مشاغلهم كثيرة. واذا اردنا فيمكنك ان توصله اليهم فدا، والا فيمكنك ان تفعل ما يحلو لنا. وقالوا وعندكم رئاسة خاصة بكم فراجعوا حسب المائدة! وقالوا ايضا: عبر الرقيق الملازم الاول— وقتا لاحد اللبضات الساخرة في عيني يفرمون بشكل ساخر تماما— ان هذه الحالة لا تشبه حانة المخربين، فليمن نوما عادنا ولا يعض شيئا!.

— يمكنك ان تصرف!— قال الملازم الاول حائفا.

الا ان يفرمون لم ينصرف. خلع قبته بدون امتحان واخرج منها نفس الورقة المنزوعة من دفتر المبدئي والتي اعطاه اياه الملازم الاول ووضعا على الطاولة. — امروا بان اعيد اليك هذه الورقة، وقالوا— واستفظروا بها في قلوبهم، اما نحن فليتنا الكثير من الاوراق!.

— اذهب، قلت لك اذهب!— احس الملازم الاول بالسخرية في كلمات يفرمون، ولكنه لا يتمكن من ادائه فاكنتى بان صاح به.

خرج يفرمون الى التهليز وانبسم ساخرا في الظلمة ودخل الى مستودعه. وسبدا لو سكنت هذه الهلوة على المرشد السياس!— فكر يفرمون وهو يواصل الانبسام— من السؤف ان تاتي الآن!

الا ان سينسوف لم يثم. وعندما حدثه يفرمون، من تحدث، من الارضية التي ذام عليها قربه بعد ان تنازل له عن مصطبة، وقص عليه تفاصيل رستك الى الشعية الخاصة وتغريوه الى الملازم الاول، لم يهتف ذلك الملاقاة من حزن سينسوف.

ما اشد الكآبة التي يمكن ان يسببها لاحد الناس شخص غريب عليه ولم يكن يعرفه حتى يوم اس! لم يصدق الملازم الاول سينسوف، فشر هذا الاخير بالانسان رغب انه لم يحب ملازمه هذا يمتزم هذا الملازم الاول ولم يتصور انه ملتب امام احد، ولا سيما امامه.

رقد سينسوف بعينين مفتحتين وراح يفكر بزلوفاتوف: «هل هو حى ام قتل. لا احد غيره يعرف ما حدث هناك، في الغابة، عندما اغمى على. فهل هو الذى اهتم به، ام اتى فقلت ذلك بدون وعي وعلقت قصصلى وطرزتها ريد ذلك لم اعلم عليها! ام انه كان هناك شيء آخر لا اعرفه وليس يوسى حتى ان اتصوره». ولكن ماذا استطاع ان اقول للشخصا الذين لا يصدقوننى؟ هل اقول لهم ما اعرفه ام ابدع شيئا لا اعرفه!...

كان يسائل نفسه، بينما تدور في اعماق ذاكرته نفس البشارة التي انطبعت فيها ريبا الى الابد، والتي قالها سرييلين بعد التبور في اليوم الاول من المصالح: اسهل على البره ان يفت امام جدار الاندما من ان يتعلم بنفسه نحيبات المقوضة.

وتذكر المقاتل الذي سألته في الساعات الاولى من الامر: «هل تمكنت من خلعها؟». وبعد ذلك تذكر عيني المرشد السياس الاقدم اللتين يرقق ايها يقض الاثريب فجأة، ثم تذكر اسئلة الملازم الاول بنفس الهياج الذي ملئت آتيت باقية في دعيته. وظهر بان اعماق روجه فجأة تصميم هائل على التصك بزيه دون اى تنازل. ولكن بان الشبة الخاصة في بالذات الجهة التي يمين عليه ان يذهب اليها طالما لا يصدق الآخرين بما يقول. كان الحوار مع الملازم الاول صغفة شديدة له جعلته، رقا عنه، يتصور ويوجها مرثاة اخرى واسئلة متشككة اخرى، ويوجنا متباينة يفياء: «ها! ما فاضح اكاذيبك في الحال!». كلا، فسيذهب الى الجهة المنزوعة، حسب اصول الخدمة، بان تثبت من كل شيء من البداية حتى النهاية، وسيذهب اليها الآن دون تأجيل! فليشوا اذا كان ذلك يومهم! واذا عجزوا عن ذلك فليرسلو الى الجيش المعابر ويجريوه في القتال!

غضب سرييلين من على المصطبة وارندى الجيزة والبرق القطبية والقبعة، وغشا فوق يفرمون الذي يشخر باطمئنان شخيرا عافنا، وخرج الى التهليز. انبسط على الارضية عيطل شوي شيف منبث من الباب الثاني. فتح سينسوف الباب ودخل الغرفة الثانية. كان الملازم الاول قائما ووجهه مغرور في الويادة، وقد وضع زيبته القذرة على قضاة من جريدة. وعلى المصطبة قربه استقر حزامه وفراجه، وعلى الطاولة محفظة اليدانية. كان المصباح لا يزال يضيء. وقد اسرد زيباجيه من المباح.

— ايها الملازم الاول— ناداه سينسوف، ثم كرر «ون ان ينخفض صوته— ايها الملازم الاول!

الا ان اللازم الاول كان يغط في نوم عميق.

اراد سينتوف ان يوقظه ويقول له بأنه يتنوى الذهاب الآن، دون ابطاء، الى البنية الخاصة، تحت الحراسة او بدون حراسة حسب مشيئة الزعيم اللازم الاول. ولكنه بعد ان ناداه مرتين ولم يتمكن من ايقاظه غير رأيه. اقترب من الطاولة وفتح الصندوق دون استعمال المفتاح ووقع من القدر المعدني الموجود فيها واحد قلم رصاص مبريا بنهاية من الصندوق وكتب بضع كلمات، ثم اخذ من المصطبة نفس ذلك السهم الذي هدده به اللازم الاول اثناء الحوار ووضعه فوق الرسالة. وعندما اقترب من الباب التي بتفترق ساعده على هذا المشهد، على اللازم الاول انظار في نومه والضياع الذي احترق فيه سبي النهاية تقريبا والرسالة والمسدس الموضوع فوقها...

ولو جارك مخرب حقاً لما بقيت على قيد الحياة!

انطلق الفجر، وكان الطريق يمتد من القرية مرتفعا الى تلة شديدة الانحدار. وعلى يمين كيلومترين ونصف من هناك لاحت منازل الاطراف مرادية اللون. وكان يفرغوف قد ذكر كيف قطع هذا الطريق في الثلاثة أسابيع الثلاثة. ولم يتروا سينتوف في وجهه.

بعد زهاء كيلومتر ازوري سينتوف على حافة الطريق لتمر سيارة شحن قادمة من الجهة التي يقصدها.

«ربما توجهت هذه السيارة لتتخذ اللازم الاول» - فكر ساخرا ونصرو الهوج والبرج الذي سيؤود عندما يستيقظ اللازم الاول. وواصل سينتوف طريقه.

استيقظ يفرغوف عندما سمع صغير السيارة قرب المنزل. قفز وأبهر ستارة الجفائن من النافذة. كان الشجر قد اقبل في الخارج. ثم التفت الى مكان المرشد السياسي فلم يجد. خرج على الفرة المتجاورة ليرى هل ذهب المرشد السياسي الى اللازم الاول. ولكن اللازم الاول كان قادراً في الليلة اولى وقد سمع الصغير هو ايضا فراح يفرغ عينيه بكنة يديه ويبحث حواري خاصاً.

قفز يفرغوف الى الخارج متحقدا ان المرشد السياسي خرج والى الحلال لقصده ساجته. دار يفرغوف حول المنزل فلم يجده، ثم ناداه عدة مرات: «ايها الزعيم المرشد السياسي!» ولكن ما من من صبي.

وعند ذلك دخل المنزل وتباطأ بالسير في الدليلز، وتردد قليلا، ولا بد من ان يتنقل النبا، ثم دخل الغرفة.

كان اللازم الاول جالسا على السرير يفكر عنيده.

«ماذا، هل جاءت السيارة؟ ألم يخل الى ذلك؟

«اشتغى المرشد السياسي» - قال يفرغوف بعد ان عدل قائمه.

«كيف؟ اشتغى؟

«غير موجود، لا في الداخل ولا في الخارج» - قال يفرغوف.

«هكذا اذن؟ هكذا تعمل البنية الخاصة؟ ذهب، ذهب السافل،

الشرير! - صاح اللازم الاول كروتيكوف بصوت المتصغر لشعوره بصواب رأيه. وبدأ وجهه في هذه اللحظة سديا بقدر تمامه رسمه يفرغوف...

في تلك اللحظة لم يرها، كلامها، رسالة سينتوف.

عثر اللازم الاول على الرسالة بعد ان انهال بالدم الشديد على يفرغوف وبعد ان شرح هذا من الفرة وتذكر كروتيكوف مسدسه. انزعج المدس جانبا

وقرأ الرسالة متحيراً عدة مرات، وهو قرح لشيء واحد هو ان يفرغوف خرج

من الفرة والحمد لله. في الرسالة خمس كلمات لا غير: «انا ذاهب الى

البنية الخاصة» الا ان المدس كروتيكوف الموضوع فوق الرسالة كان يمشا

بلاطة سامة تضاف اليها. سبي ان اللازم الاول كان يكرى من مرارة الاذاعة.

اما سينتوف فواصل سيره على الطريق. ورغم الوقت المبكر صادف

عددا من العسكريين، ولكن احدا لم يلتفت اليه شخصيا، لانه كان حليفا

يرتدي ملابس كالكثريين: قبعة فرو عليها نجمة ويلوح من جانبيها بالكاد طرف

ضخام الشاي، وسفرة قفازية بسيطة وقبعة متفرقة. فليس الجميع يرتدون جنزات

جديدة. كان بدون بطاقة، فليس الجميع يحملون بندق. وباختصار، فلم يكن يختلف

كثيرا عن العسكريين الآخرين البارزين او الساقطين على الطريق في ذلك الوقت.

ان التصميم على شيء امر له قيمته. فحتى الشبهة تشتت رغم التعب

والاجهاد... القرية التي توجه اليها سينتوف، اذا نظرنا اليها من المنازل

الى تركها، تبدو وكأنها واقعة على الطريق مباشرة، ولكنها في الواقع بعيدة

عنه بعض الشيء. وفي الامام جسر دمرته قبلة وقربه درب ملتف، وبعد هذا

الانطلاق يمتد الطريق مستقيما، بينما تقع القرية الى اليمين، ويتبين عليه

ان يستدير نحوها.

اقرب سينتوف من الدرب الملتف في القرية الذي تلتكأت فيه سيارة

وجيب. مارت به قبل قليل وفاضت في اخنود عميق حفزته الشاحنات على

الدرب. راح السائق والضابط يتفاهدا. فضع السائق الباب ليدبر العقود يده،

بينما راح الضابط يدفعها من مؤخرتها.

التفت الضابط فرأى سينتوف وناداه:

— أيها المقاتل، تما إلى هنا، ساعدنا في دفع السيارة! هيا اسرع! ..
انصاع سينتوف غفويا إلى هذا النداء الأمر واقترّب من السيارة وراح
يدفعها من المؤخرة. دفعوها بما فتحتهم من الهمّة.

— حسنا، شكرا. — قال القائد وهو يقوم ظهره وينفض أذيال معطفه
من الإقذار.

قوم سينتوف ظهره هو الآخر فالتفت فظن أنها.

كان هذا الضابط هو لويسين بعينه، لويسين حيا سليما كما كان في
الماضي بالضبط ولكن بثلاثة كمكيات على ياقته بدلا من كمكيتين.

دهش الاثنان، ويبدو أن دهشة لويسين أشد من دهشة سينتوف.

— لويسين؟! مرحبا!

وهد بعينها على يد بعض، وهما لا يزالان متدهشين.

— كنا قد سجلناك في قائمة الضالّين ..

— وهل أخبرتكم زوجتي؟

— ذلك ما لا علم لي به ... أين كنت؟

— خرجت من الحصار أمس ... إلى أين أتت ذاهبا؟ إلى هيئة التحرير؟
إين هي الآن؟

أفلت لويسين يد سينتوف أخيرا. وثلاث من وجهه آثار الانفعال الإرل
رسل محلها شعور بالثوق.

— عندما توجهت إلى الخط الأمامي كانت هيئة التحرير في بيرغوشكوفو.
— بيرغوشكوفو في الرب شلوس موسكو! — هت سينتوف وكان ذهنه

حتى الآن لا يتقبل فكرة اقتراب الجبهة من موسكو إلى هذا الحد.
— لماذا فلان يمكن لها أن تكون؟! قضيت خمسة أيام لا أكثر في

الخط الأمامي فقبل لي في الشعبة السياسية للجيش أن هيئة التحرير لم تعد في
بيرغوشكوفو. فقد انتقلت إما إلى موسكو، في مبنى مجلة «غودوك» إما وراء

موسكو على سكة حديد غوروكوفسكوي. ففي الأوتة الأخيرة انقضت هيئة التحرير
مقرا لها في قطار، وربما انتقل هذا القطار. وربما لا تزال في موسكو.

تلك هي أحوالنا! — أجاب لويسين بهمة.

وكان ميت هذه الهمّة أنه قضى خمسة أيام في الخط الأمامي وهو
الآن مترجح بعد أن تخلص من الشعور بالخطر وله نفس ورشه كالمصنّفور وأتجه

عائدا إلى هيئة التحرير يحمل محفلة ملأى بالوداد السخيف.

— وافت، إلى أين؟ — سأله لويسين، ثم تفلّح إلى وجه سينتوف التحيل
واضاف: — يمكن القول أنه بقي منك نصف إنسان!

— إلى أين؟ — سأل سينتوف بدوره. — طلالا إلى حاديتك غادعت منك،
إلى هيئة التحرير. هل ستأعني؟

قبل خمس دقائق لا غير كان على ثقة راسخة من أن طريقه يتجه
قطر إلى حقين الترتيل اللذين لاسا من بعيد على طرف القرية. أما الآن

فقد شبل إليه أن أية رتبة غير الرتبة في الذهاب إلى هيئة تحرير جريدته مع
لويسين الذي يميل عليه من النساء إنما هي شيء غريب. فالفقاء مع لويسين هو

مسيره، وهو مصير سعيد بالطبع. ومن الذي يمكن أن يشك بذلك في تلك اللحظة؟
— بالطبع، أصعد! — قال لويسين بعد أن تلثم اللحظة قصيرة جدا — صحيح

أن والتجيب، ليست سيارتي، فهي سيارة الشعبة السياسية للجيش، ولكنها موصلة! ...
إلا أنه صدر السواق قبل أيام قانون صارم بعدم نقل أحد من الطريق.

ركبتن اعتقه أنه لن يحدث شيء، ليس كذلك! — التفت إلى السائق الذي
وَلَفَ قريهما يسمح يديه بخرقه.

— لا تهنتم! — أريتم السائق فرحا لمعادة هذا الشخص الذي التقياد
بالصدقة. — لا سيما، وألك ستتحمل المسؤولية إذا حدث شيء! — اضاف السائق

ويخرج باب السيارة وأعطى لمينتوف مكانا قريب إمتعة السفر التي تشغل نصف
الغرفة الخلفي.

احتل السائق مقعده وجلس لويسين جينه، أما سينتوف فقد سبق
مشيكي ودس نفسه في المقعد الخلفي. ومن كومة الأمتعة المتفطلة بمشع ساقط

على ركبتيه مجالجا قدر التفصفت به بنائيا عسيده محترقة واملقة ومضاح سيارة.
— دسها تحت القدين! — التفت السائق عل صوته الجيلة — ولدت اسدي

السيارات تحت القصف الجوى قاطعت منها يقص الحاجيات.

سأوت «الجيب» بسرعة نيبا. ففكر سينتوف بأنهم يمكن أن
يسلوا على هذا النحو إلى موسكو نفسها في غضون ثلاث ساعات تقريبا. وتصور

أن واقع كونه اسيرا في مثل هذا الوقت قبل يومين إنما هو من نفع الخيال ...
وربد ثلاث ساعات سيكفي في موسكو ... وهذا شيء لا يصدق تقريبا، كما

لا يصدق بأن لويسين جالس أمامه وأن السيارة تنقلها إلى هيئة تحرير جريدتهما.

وهل اريد أنه مسبب للتحقيق، ولكنه بدأ يهز كما في الحمى؛
ليس من المحتمل أن ماشا لم ترتحل وأله سيرها بعد يضع ساعات؟

— اسمع! — قال سينتوف للويسين بلهجة بعيدة عن التكلف مع أنهما كان

يعرفان بمضهما بقضا لا أكثر من يوم واحد، إلا أن كل ما عاياه منذ ذلك اليوم إبان الحرب أضاف إليه قوة فنية جعلتها يرقمان الكلفة بينهما منذ اللحظات الأولى - أصبح! - سيستوف صريع في هذه الأمور - ألم تزل على انذاك في يوبرويسك؟

لقد تخرج بنفسه منذ ذلك الحين مصائب لا تعد ولا تحصى، فليس يوصيه أن يشعر بعد فوات الآوان، بلغة مذنب بحق لويسين، ولكنه الآن يدرك أكثر مما في ذلك الوقت مدى صعوبة الامر على لويسين في ضواحي يوبرويسك، ولذا ما كان يريد أن يترك ظلا للزعل بينهما.

فهذه لويسين دون أن تلتفت الى سيستوف، ولما فهمت لفترة اول بعد الشيء ما يجدر بشخص لا يحمل غيظا في الواقع. وقال وهو يتفحص:

- ليس لديك ما تقوله غير هذا؟ فانا نسيت ذلك من زمان. ان

ما اكثر الملاحظات التي حدثت منذ ذلك الحين. هذا أولا، وثانيا - بالعكس، فيفضلك نعددت في القتال.

كانت كلمة «يفضلك» هذه هي الدليل على الزوال غير المتسنى، إلا أن سيستوف لم ينتبه الى ذلك في تلك اللحظة.

- هل تعلم يانني قابلت فيما بعد كابتن الديابات وقال لي...

- ريتل يانلر، السلون! - فاطمة لويسين.

- أصبح! قال انهم قدسوا أصحك لامتجك مدالية، ولكنهم عندما عدت الى هيئة التحرير غيروا رأيهم.

- طغاف! - قال لويسين متظاهرا بالالامبالاة. ثم استدار نحو سيستوف وضع محطته وقال - هل ترى؟

كانت على صدره مدالية جديدة للبالاة.

- حصلت عليها بدون مساعدة منهم!

- متى؟

- في معارك يانينا. فقد بقيت منذ البداية حتى النهاية في فرقة واحدة، وتحقق ما توقعت. فقد حررت تلك الفرقة بالذات يانينا. متعوا قائم الفرقة

وسام ويظل الاتحاد السوفيتي ويتحون مدالية الياساة!

حدثت عن قائد الفرقة وعن نفسه عفوا وعلى نحو يوحى بانها الاثنين فقط يستحقان التقدير.

- يعني ان جنود الديابات لم يظفروا! - لم يتحمل لويسين فساد الى

الموضوع الذي يبحث السرور لديه.

- كلا.

- وماذا قالوا غير ذلك؟

- لم يقولوا أكثر منه. فقد دار الحديث عنك عرضا - قال سيستوف ولم يلاحظ كيف اهان لويسين بكلمة «عرضا» - لم يتسع الوقت للكلام، فبعد ما عين حرسا من جديد.

وراج يتحدث عن الحصارين اللذين وقع فيهما، ويحفظ بين مشاهد الحصار الأول والحصار الثاني.

فاطمة لويسين مرارا باسئلة وملاحظات انزلت عبر كتفه، وعندما تحدثت سيستوف عن الرسائل التي ارسلت مع ميشكا فايتشين الثقت اليه لويسين من جديد:

- صحيح؟ هكذا اذن، وصل الي هناك، في حين يمشي عنه بعد ذلك

لي كل مكان... ولم يبقوا له على اثر ضاع!

- ضاع... كرر سيستوف بصوت مكبوت كالصدى، وتصور لثانية واحدة ميشكا امامه حيا يدس في سيب فيصلته بحرص وعناية اوراق الرسالة التي لم تصل على ما يبدو. ضاع... يمشي بدا الامر آذناك على العكس...

- ضاع! - كرر لويسين - ألم تكن تعرف؟

- من أين لي ان اعرف؟

- طوبىا، طوبىا.

- حسنا، فلتترك اساطير وشأنها! - قال سيستوف فجأة في منتصف حديثه وقد

تذكر كلمات البلازم الآلاف وفكر بارتياح في التحول الذي حدث بين سيستوف الذي كان يجلس في المنزل في تلك الليلة يستمع الى اسئلة البلازم الاول الرتبة

وبين سيستوف الجالس الآن مع لويسين في السيارة الشجوة الى موسكو - حدثني

عنا في هيئة التحرير، والاهم ان تحدثني عما يجري في الجبهة وفي موسكو وما

يجري عموما...

- في الجبهة، على حد فهمي، القتال البسيط مستمر - قال لويسين -

الالمان يشغلون ونحن نقاتلهم. قنا الذي يمكننا ان نفعل غير ذلك؟

ومع ان الوضع في الجيش الذي عاد منه، صعب في الواقع ورغم انساب هذا الجيش امام ضربات الالمان، توجد لويسين بعد ان قضى الايام

لاخيرة في الخط الاساسي عاتدا الى هيئة التحرير رغم كل شيء بمزاج أفضل

من مزاجه عندما سافر الى الجبهة. فقد سافر آذناك الى المجهول، الى شعرة

الاشاعات عن الكثرة التي حدثت، ولكن حتى واقع الانسحاب المصيب جدا

بدا عن كلب أنقل ما كان يصوره عن يده. زد على ذلك انه عاد حيا سليبا... ذكر سينتوف الحقيقة، مع انه اعرب عنها بشئ من الصلاة الثلاثة لمن يريد ابرار خيرة.

- اما بخصوص موسكو فلا ادرى. فريما شري البعض على انفسهم، اذ كانت هناك مثل هذه الاموية عندما غادرتها. تستل وري- اضاف بلهجة التفتيش.

في تلك الاثناء اجتازوا جسرًا كان يجري على جانبيه غرر هيكال معاق من الخسنة، ثم مروا بمنتقد متصاد للمبانيات، وسط من الحواجز المعدلة من قضبان السكك تمتد الى الافق، ثم مروا بدة صفوف من الاعيدة الممتدة لحواجز الاسلاك الشائكة ثم هيكال معاقلي اخرى من الخسنة لم تفرز في الارض يده. فقال سينتوف:

- بينوا الحواجز في كل مكان. وقد وصلت من الحصار اسم مبارزة الى كتيبة بناء.

ليس معروفًا كيف ستعبر الامور لو لم يبدأ هو هذا الحديث. ولانما قد بدأ فلا بد من ان يصل فيه الى نقطة يدرك فيها لويسين نهائيا انه اصطعب الى موسكو شخصا بدون وثائق.

يلهي ان مثل هذه الحالات ليست جديدة على لويسين الذي وصل الى الجبهة في الايام الاولى للحرب، ولكن الجديد عليه هو انه هو بالذات لويسين، وليس غيره، وفي هذا الوقت بالذات حيث وصل الانلمان الى ضواحي موسكو، يقبل على مسؤوليته الى موسكو شخصا خرج من الحصار بدون أية وثائق. واذا اربنا لفة فان فكرة هذا الاحتمال تبادرت في ذهنه في الحال، في اللحظة الاولى التي سأل فيها سينتوف دخل توصلي؟ وهذه الفكرة هي سبب ذلك التلكؤ القصير الذي اجاب لويسين به: «بالطبع!»، ولكنه لم يتجرأ آنذاك، عندما اتى السيارة، على ان يسأله بشأن ذلك في الحال. فقد تصرف سينتوف بشفقة عقدت لسان لويسين. اما الآن فان سينتوف يقول بكل بساطة انه ليست لديه وثائق، بل وهو يلوم الملائم الاول الذي قد يكون، في اعتقاد لويسين، ابله بعض الشيء، ولكنه على العموم تصرف تصرفا حائلا.

واصل سينتوف كلامه دون ان يلاحظ بان رقية لويسين الجالس امامه تلتفت وتصلت فجأة. فلم يد لويسين يدبر رأسه، وبدلا من الاسئلة وتعليقات التعجب السابقة صار يتلفظ بصوتية كالمتي يضم- نعم.

اما سينتوف فلم يلاحظ ذلك بهد واستمر يتحدث. كان يتصور عدم وجود الوثائق لديه، وعصويا به حادثة الاس مع الملائم الاول، مصيبة سيفطر الى تحمل آثامها. ولكن واقع سفره الآن مع لويسين الذي يعرف، خلافا للملائم الاول، من هو ومن اين جاء، وقوجه الى هيئة التحرير التي يرقوله فيها ايضا والتي كان يالامكان ان يظل يمدل فيها حتى الآن لو لم ينصه آنذاك في مستشفى موليفيت، كل ذلك اصعب لديه مؤقنا الاحساس بالحميم القملي المصيبة التي انتهالت عليه.

واصل حديثه عاتقا في التفاميل دون ان يلاحظ اطلاقا ان لويسين لم يده يستجيب له. ولم يكن يستطيع ان يتصور ابدا ما يفكر فيه لويسين الآن، والحد فان لويسين كان يفكر بأمر ذات صلة بمصير سينتوف العريق كله. كانت السيارة قد مرت بأحد مراكز التفتيش قبل يده الكلام عن الوثائق، مرت السيارة بدون تفتيش دقيق. فقد اكتفى جندي التفتيش ويديه علفان صفران بالطلع الى السيارة التي غرملت قربه وسمع لها بالمرور يده ان رأى ان جميع ركابها من العسكريين.

الا انه يتعين عليهم الآن ان يتوقفوا هناك، في الاسام، عند الكيلومتر التاسع عشر، في اول مركز موسكوي للتفتيش يتميز بالصرامة الكبيرة. لويسين يتذكر ذلك من مغادرته موسكو، وهو الآن يلوم نفسه بشدة على حماقة في اصطحاب سينتوف.

«الحق! كان يجب ان اسأله مدة البداية - راج يتصوب وهو على استعداد لضرب جبهته بجمع كفه - اسأله ولا أقعد، بل الفصح بالهبة التي ينبغي عليه مراعاتها وأهدد بانى سأعير هيئة التحرير. اما الآن فله العولاء». - ايها الزريق الشرط السياسي - قال الحار. وكأنا يده على انكار لويسين وهو قلق من حديث سينتوف ومثل بصورة اكبر من مظهر لويسين لتجهبهم - فطنا الكيلومتر الثاني والعشرين، وما نحن تقطع الكيلومتر العاشر والعشرين، وهناك عند الكيلومتر التاسع عشر مركز التفتيش... لم يجب لويسين بشئ. ولأن بالسمت نصف كيلومتر آخر وهو يدوارع نفسه، ثم قال بصراحة فجأة:

- أوقف السيارة، فلتخرج للحظة - التفت الى سينتوف.

خرج سينتوف متحيرا لتوقعهم هنا بالذات. لم يكن هناك احد على الطريق في هذا المكان. من اليمين غابة، ومن اليسار حفول ونازل زرقية. حاول دون جدوى ان يفة كرام اسم هذه الضاحية.

- فلتنبه قليلا - امسك لويس بيده وابسده معه بفتح خطوط من السيارة .
لم يكن راجيا في الكلام بحضور السائق ، لانه خجل من هذا الحديث رغم انه يعتبر نفسه محققا .

- اسمع ! - بدأ لويس باستجابه وتساؤل - الوضع متوتر في شوارع موسكو وسوف نفضل الى مركز التفتيش وليست عندك وثائق .

الا ان سينتشف فهم كل شيء قبل ان يكمل لويس عبارته .
كان لويس ينتظر من سينتشف ان يرد ولو بكلمة . الا ان سينتشف ساط عليه نظرة ثقيلة فاركا له امكانية مواصلة الحديث اذا اراد او قطعه عند هذا الحد .

- لماذا لا تجيب؟ - سأله لويس اخيرا .

- ماذا يمكنني ان اقول ؟

- لو قلت لي في الحال ، عندما سمعت الى السيارة ، بانه ليس عندك وثائق ...

سينتشف صامت ، ويخيل للويس من ملامح وجهه بانه سيرفع يده ويصفه !
تراجع لويس خطوه ، وحول قتل يده من قدم الى اخرى ، وبعد ذلك سأله :

- ما القيل ؟

- سنا - قال سينتشف بصوت مكتوم - اوصلني الى مركز التفتيش وسائق .

- السائق من هنا ليست بعيدة - قال لويس مثلثا - ويومس طبا ان اوصلك بمسافة اقرب ، ولكن لا يجوز ان اوصلك الى المركز مباشرة ، فمن الضروري ان تتوقف على مسافة نصف كيلومتر على الاقل ...

- لماذا ؟ لماذا لا توصلني الى المركز مباشرة ؟ - بدأ سينتشف يفهم لماذا لا يوصله الى مركز التفتيش ، ولكنه لم يجد مبررا للرافة بلويس .

- لان ... - تلعثم لويس . وكان عليه ان يقول الشيء الاصعب الا ان -

قتل الغريب مشوح متنا يائسا ، لا سببا بدون وثائق . فكر انت ، فنحن سنؤذي السائق ، واننا سناعمل اذى لا داعي له . اما انت . سنوف يمتحزونك في كل الاحوال ، متى او بعض ، سينحزونك في هذا المركز ... اما انا فأفضل المواد وعلى ان لا تأخر لويس من اجل نفسي بل من اجلها ! ويرسمهم هنا ان يحيلوني مباشرة الى التوقيف لمدة خمسة ايام لانني اصطيرتك على هذا النحو بدون وثائق ... ولديهم حق ! وما الفرق بالنسبة لك فيما اذا وصلت راجيا ام ماليا ! ؟

- وما قيمة الخمسة ايام؟ - قال سينتشف ساخرا رغم حالته القصية للامانة . - انت تعتقد بانه ليس هناك فرق ، واننا اعتقد بان الفرق كبير بين ان اصلي ملك الى مركز التفتيش ونسلمني انت وبين ان اجيء لويس سيرا على الاقدام من المصارا ! فالشيطان وسده يعلم كيف ظهرت انا هنا في شوارع موسكو ! من اين جئت؟ ولماذا ؟ وكيف اوضح لهم بانني لست هاريا من الجيش ؟

- لا يا س ! - قال لويس - عندما يمتحزونك ويبدأون بالاستفصاح اكون ان قد وصلت الى هيئة التحرير وستحصل من هناك بالافزون مع مركز التفتيش مباشرة ...

- اجل ، سوف تفصل ! - قال سينتشف باستقار - حسنا ، اذهب ! - اخذت بلهجة قاطعة دون ان ينظر الى لويس ، بل راح يدهق في الارض .

- ماذا بك؟ - حاول لويس ان يهوي الامر .
- ما كان ينبغي ان تأخذني منك - قال سينتشف بصوت دون ان ينظر اليه - وطالما اخذتني فوجب ان توصلني . لا تخف من الايام الخمسة . واذا كنت تخافها فما كان ينبغي ان تأخذني ...

ثم يفكر لويس الا ان ياتي سينتشف بسفريه ، ولكن سينتشف في الواقع يكاد يفكره الآن .

- انت ساقط ! ذاك اللازم الاول مدفوع لانه لا يعرفه ولكنك ... انت ساقط !

رفع يصره ساقط وسلطه للحظة على لويس ثم استدار وشبك يديه على ظهره وعصرهما حتى ظففت عظامهما .

- اقبل ما تشاء ! - لم يجد لويس ما يجيب به فصاح وكأنه قد اقترح على سينتشف حلا مدينا ولكن هذا رفضه .

سعد لويس الى السيارة وصفق يابه بشدة . وضع سينتشف يده ان دار ظهوره كيف انطلقت السيارة .

لم تكن قد تحطفت في حياته ابدا اذال كائني تحطفت في هذه اللحظة !

استدار وراح يتطلع الى السيارة ملوفا ، ويدار مشككا على ظهره حتى اختفت من مجال الرؤية .

الفصل الحادى عشر

مدرسة الاقتصاد التى درست فيها ماشا اوتيميكيا منذ ثلاثة اشهر، منذ منتصف يوليو، تقع فى مباني مدرسة داخلية سابقا عند الكيلومتر الثلاثين على طريق كاتوجسكويه القديم.

فى مساء ١٦ اكتوبر سمحت الادارة لماشا وصديقتها نيوسا جورافسكايا بالبيت فى موسكو كى تأخذوا من البيت بعض الملابس التى قد تدعو الحاجة اليها فى مؤشرة الامساك.

التجو بارد والرياح شديدة. قطعت الممراتان الطريق كله فى شاحنة مكشوفة كانت متوجهة الى موسكو لاحضار الاغذية. رعدنا على القش والتحقنا بنשמع سيك. مما يستعمل عادة فى نظف الشاحنات. تدفأت ماشا وغيل اليها فى الظلمة تحت الشمع ان تلك ليست شاحنة متوجهة الى موسكو لاحضار الاغذية بل هى الطائرة اليابلية التى منطلق فى قامها فى الظلمة على هذا النمو لتتجهز بخط الجبهة وتهبط بالمظلة فى مؤخرة الامساك. اكتمت الدراسة قبل اسبوع، وهى الآن تنتظر بين ايدينا واخرى آخر التلميذات والرحيل.

كانت تعلم بانها ستتهبط بالمظلة مع جهاز الامساك فى واحدة من النقاط الثلاث المقررة على مقرية من سوليسك وان عليها فيما بعد ان تذهب الى المدينة لممارسة سبلها السرى. وتنفذ الامساك التى سيكت لها، الى جانب تزويدها بهوية باسم مستعار، انها كانت تعيش فى سوليسك فى من الطفولة مع امها، وهى الآن لم تستكن من السفر من فيفيسك، فلهذا فقدت امها اثناء القصف الجوى وجبات الارجاء عدة شهور بحثا عن مآرق فقررت ان تصل الى سوليسك، الى غائلها التى تعيش هناك. عنوان هذه المظلة - وهى انسان عتيق ذو اسم وثقب حقيقيين وليس مستأجرين كما عند ماشا - هو العنوان الذى يتبين عليها ان تحفظ عن ظهر قلب فى آخر لحظة قبل الاقلاع.

رقدت ماشا فى داخل الشاحنة مغطىة صدورها الى ظهر نيوسا الثانى. وراحت تكرر - بهمس لا يكاد يسمع - «فيرونيكا، فيرونيكا...».

فيرونيكا هو الاسم المستعار الذى الملقب عليها، ولكنه لا يجيبها. خيل اليها انها لن تستجيب لمن يتادها بهذا الاسم استجابة طبيعية دون اندهاش. وفيرونيكا، فيرونيكا... كررت شفتها بارادة تكاد تدنو من الصوت.

هذا اليوم بعد الاصطفاف المبائى قال آثر السرية: «فلينفرق الجميع ن هذا اوتيميكيا وجورافسكايا!». ومنذ تلك اللحظة شعرت ماشا بان المستقبل نهرك تحوها ونحوها من مستقبل الى حاضرها.

ولم تخطئ فى ظنها هذا. منحتها امر السرية اجازة حتى الصباح لكي تأخذ من منزلها فى موسكو ملايسها «البدلية» على حد تسميره. ويبنى ذلك انهم سوف يراسون بالمظلات للعمل السرى فى المؤشرة ليس مملتا فقط بل ونيوسا ايضا. فان عاملات الامساك اللواتى يرسلن الى فستائل الانصار يزودن بيزات ويحافظن قوه قصيرة.

«عشا يرسلونها الى هناك...» فكرت ماشا بهديتها. كانت قد تكررت بذلك مرارا. فهى تظن ان نيوسا ذات تربية رقيقة جدا وهى غير متحكة رام ترثيها فى العيادة بعد، ولذا لا تصالح للعمل السرى. زد على ذلك انها حسنة تلتفت الانظار بجمالها فى الحال...

ولم تكن ماشا تفكر على هذا النحو فيما يخصها شخصيا. كان اكثر ما انخداع هو التحقيق قصدها وخصوصا بعد ان لم تفتح ظلتها اثناء الطوب قبل اسبوع ولكنها استطاعت بالكاد ان تسحب حلقا النظلة الاحتياطية. اميدلت رغبة الزيادة على القتل فادارت ظهرها البارد الى نيوسا وفصحت طرب الشمع قليلا كي ترى وان يبين واحدة السماء المبهلقة فوق الشاحنة. كانت سماء الغروب باردة فى السماء بدون قمر ولا نجوم، بدون غيوم ولا سحب. كانت وبادية مستوية لا يرى اهلها شيئا عليها او من خلالها.

فكرت ماشا: «يوسع فى الدنيا اناس يعرفون شيئا ما، ولا فرق اذا كان صالحا او ظاهرا فان فيرونيكا، مثلا، تعرف ان ابعادا وقع فى الحصار وخرج منه. وهو الآن يعمل كبيرا الجراحين فى مستشفى ميدانى على الجبهة الغربية. وهو يكتب لها رسائل، وهى تكتب له رسائل بالبريد اليدى... واعودا جرح وبتر مشط وجهه وهو راقد للعلاج فى مستشفى قازان ويكتب لها رسائل ايضا... هناك اذاس كثيرون يكتبون الرسائل ويستلمونها ويقابلونها انما رأوا اثارهم او سمعوا عنهم شيئا... اما انا فلا اعرف عن اهل شيئا

غيرا او شراء. لا اعرف ولا كلمة واحدة عنهم... لا اعرف شيئا عن ابنتي، وامى وزوجى، وليس من نصيبى الا التفكير المتواصل والتساؤل عما اذا كانوا احياء ام لا.

فى الاسبوع الاول من الدراسة فى هذه المدرسة طلبت بذاجة، كد. صابوت تفهم الآن، ان يرسلوها الى منطقة غرودنو ان امكن بعد ان تنهى الدراسة.

— لماذا؟ — سألها مفوض المدرسة بنشونة. كان يعرف ملاقات حياة ماشا بالكامل من صميمية الاتصال وسيرة حياتها، ولكنه يمتنع ان يتسائل مع مشاعري غير سرورى، بل يضار فى هذا الوقت. — لماذا؟ — كرر السؤال. لكى تتلقى استرلك شخصيا؟ سئرى محاولة للقيام بذلك يدرك. اما فلهورك هناك فيمكن ان يهلكها ويهلكك معها لا اكثر... تلك فكرة سخيفة! — قال بنشوب ويضى. من السخرية — زوجة مرشد سياسى عالت مع زوجها فى غرودنو سنة ونصف تريد ان تعود للعمل الدرى الى هناك! ماذا حل التحقت بدورت لاعتبارات عائلية؟ اذا كان الامر كذلك قمنا بتعليق.

— كلا، بالطبع — قالت ماشا وقد كلبت بعض الشىء، لان املا اخبر فى ان تستطيع اذا عبرت خط الجبهة ان تشر على امها وابنتها او تعرف عنهما شيئا قد لعب كذلك دورا ما فى تصميمها على الالتحاق بهذه المدرسة بالذات.

ور على ذلك ثلاثة اشهر، وقد اعتادت فى آخر اللطاف، ورغم ما تتميز به هذه الفكرة من صبيحة مأساوية فاجعة، على ان امها وابنتها ذير «هناك» وانهما اذا كنا على قيد الحياة فانها ستعرف بذلك ولكن ليس قريبا على الاطلاق. الا ان فكرة نزولها فى مؤخرة الامكان حيث ان تعرف شيئا عن زوجها ظلت كدقائق شيئا لا يسلق.

حقا، كان من الصعب ان تصور بانها آنذاك، فى بيوين، قد ش على يديها عبر السياج فى المحطة وانت سبر المحطة الميدانية وقفز الى القربة وهى تسير... وبعد ذلك قفز اليها شخص آخر فحببها عنها... وبذلك انتهى كل شىء، كل شىء على الاطلاق...

تمتعت ثلاث مرات استفسارات ام تحصل على اى جواب عليها، وانكنت بفضل اصراها من ان تعطى مرفئين بمقابلة فى الادارة السياسية، المرة الاولى بعد التحاقها بالمدرسة مباشرة، فى يوليو، والمرة الثانية قبل اقتراف فى سبتمبر بعد ان حصلت على اجازة لمدة ١٢ ساعة خصيصا لهذا الغرض.

فى المرة الاولى، فى بيوين، قالوا لها انه ليست لديهم مؤت معلومات عن مراقبة هيئة تحرير الجريدة العسكرية «راية الكفاح» التى يعمل فيها زوجها. انقلها هذا الجواب وهذا من روعها فى الوقت ذاته، فهم لا يعرفون شيئا ليس عن سينسوف فقط، بل وعن هيئة التحرير كلها، فلا يمكن لهيئة التحرير يكاملها ان تستغنى انهم، الآن لا يعرفون شيئا، وسيعرفون فيما بعد! تركت عندهم رقم صندوق بريد المدرسة وطلبت من مفوض الكلية الذى نالها ان يكتب لها ولو كلمتين حالما تصلهم اخبار عن هيئة التحرير. وعدا المفوض، ولكنه لم يرسل شيئا طولا شهرين.

وتركت عنوانها كذلك عند زميلة ايناليفيش بريكوف صديق المرحوم ليها والذي يعيش فى منزلهم. اخذ منها المرحوم بريكوف مفتاح صندوق بريد المنزل وروى بان يفتح الصندوق مرة كل يومين واذا وجد رسالة ما يسوق يمشيها اليها فى السالك. ولكنها لم تستلم اية رسالة خلال هذه الفترة. وعندما راجعت الادارة السياسية فى سبتمبر المرة الثانية قابلت مفوض كلية آخر، تاحولير رداية الكفاح» من العصار سلام، وهى تعمل الآن فى المكاتب اللازم، ورئيس تحريرها غورييف وهو نفسه الذى كان رئيسا لتحريرها قبل الحرب. وما يؤسف له ان الجواب الرسمى الذى وصل من هناك على الامتناع يقول ان سكرتير هيئة التحرير المرشد السياسى سينسوف لم يعد الى مكان عمله بعد الاجازة.

لوجاه هذا الجواب قبل شهرين قلريا حاولت ماشا ان تقنع مفوض الكلية بان ذلك مستحيل وانها نفسها ودعت زوجها عندما سافر الى غرودنو... ولكنها الآن فى سبتمبر، وبعد ان فهمت الكثير مما لم تكن تفهمه، بل ولم تستطع ان تفهمه فى يوليو ويوليو، تهافت وانصرفت ذاسية حتى ان تقول: وداعا. ولم يعد بعد الاجازة — يعنى انه لم يعد، ولكن ماذا تعنى «لم يصل»؟ لو انه دخل المستشفى او قاتل فى وحدة ما لكتب لى. يعنى انه وقع فى العصار... فليس هناك احتمال آخر.

هكذا ذكرت وهى تهوى نفسها. فكرت وهى تحاول ان تتحمل رافضة كل الاتصالات الاخرى. ومع ذلك كان قواعدا خفيا بشور فوار يكاد يشبه شعور الزوجة التى تحسن به عندما تذكر ابنتها. وهى حالات الضعف والانسك وراء هذا الشعور يدور لها زوجها، ذلك الرجل الكبير القوى العريض الكبير، اصغر من الطفل الصغير...

ويخيل إليها عند ذلك أن الأرض والحرب هائلتان إلى حد يفوق التصور. وفي هذه الحرب ضاع شخص لا يعرفه أحد ولا يحتاج إليه أحد غيرهما شخص صغير هو زوجها... ويخيل إليها في تلك اللحظات أنه إذا تمكن عيلا... ان يربطها هي الباقية هنا بذلك الضائع هناك على بعد هائل فستكون تلك هي المحزنة.

وقد اختارها هذا الشعور الآن أيضا وهي تتطلع إلى السماء الرمادية الوامضة السابعة بيضاء فوق الشاحنة. لم تكن هذه السماء راقية في الأجوبة عن أي من أسئلتها، مع انتهاء، على ما يبدو، تعرف كل شيء. ماشا لا تعرف أين زوجها شيئا، ولكن أصدًا ما لا بد وان يعرف أين زوجها الآن وماذا يفعل وابن يرقه وربما يفكر. والامر الرئيسي أين هو؟
«الحب...» فكرت ماشا فجأة - ما هو الحب؟ هل هو أوتياشي... ثم حثي إلى وبكائي، أحيانا، في الليل؟ أم هو عدم ربيتي في النظر إلى أي رجل غيره؟ أم هو كتابتي إليه رسائل أن ترسل إلى أي مكان؟ اجل، كل ذلك صحيح. ولكنه قليل جدا بالمقارنة مع ما أحس به. وما أرقب في قوله ولا أجيد الكلام منه! لا أدري... لا أدري... ما أتى أريد الآن أكثر من أي شيء آخر - سألت نفسها من جديد - أنني أريد... فكرت متأللة واجابت اجابة قاطعة بأن أكثر ما ترقبه هو ان تكون الآن هناك حيث يكون...

«وإذا كان الوضع هناك مرعبا ويمكن ان يتحولني؟ أريد ان اكون هناك رغم ذلك! وإذا أصبت بجراح؟ ليكن، فلنصبص بجراح سوية! وإذا متنا؟ فليكن، ولنت سوية...»
من يدري؟ ربما كانت هذه الأفكار الآن، في اثنين الحرب، جواب على ذلك السؤال الرئيسي الذي فكرت فيه قبل قليل وهمت: «لا أدري... لا أدري...»

فلت ماشا رأسها بالشبح من جديد كي تتخلص من الريح التي تهب في الشاحنة واستدارت على جنبها الآخر. حملها التفكير بزوجها على التمدد في أدنى صديقها مبالغة، فخلعت ثوبها فتألمت وسدت أذننها بعد ان شمرت بدفعة غفيرة. وقالت يتأوب لليد:

«أنت محالة: تتدخين بي! سيذا لو لم يخطوا الغاز. فقد نذبت إلى منزلي لنستحم...»
«من يدري؟ ربما لم يخطوه» - قالت ماشا.

— شيء مستبعد - قاليلغات فظيمة!..

ومع أنها قالت «فظيمة» ومع أن كلمات البلاغ الذي قرأته هي وصديقتها ومائل فتيات المدرسة يوم أمس: «الوضع في الاتجاه الغربي للجبهة تدور» قد ادهشتهم وأزعجتهن إلا أنهم مع ذلك لم يدركن بالكامل فظامة هذا البلاغ.

... مدرستهن تعيش حياة متنزعة، على أفكار متجهة إلى المستقبل القريب والخطر هناك وراء غط الجبهة. وعندما ترقد ماشا على الشرف القطني الخشن وتلتفت بالظلمة العسكرية الموقلة تفكر دوما بالشئ - كيف تنتهي هذه الأيام - الهائلة في المدرسة الداخلية والدروس أمام السيرة وتركيب وتفكيك الترميزات الإلصكية وتناول الفطور والغداء والمشاة في وقت محدد وهمس الليل من المستقبل، وكيف سيبدأ هذا المستقبل هناك وراء غط الجبهة. وتفكر باللقاء السرى الأول وبالتالي الذين منتمل معهم: هل هم مخلصون أم لا؟ أم ان احدا من الغولبة سيكون بينهم؟ وتفكر - باحتمال وقوعها في ايدي الألمان وكيف سيذبحونها وكيف يجب عليها، مهما فعلوا بها، ان تلمز الصمت بشأن كل ما عرقه هنا في هذه البنايات الهائلة لمدرسة الأطفال الداخلية التي لم تعد من زمان لا مدرسة داخلية ولا مدرسة لاطفال...
كان منطق حياتهن يجعل التفكير في المستقبل يزعج عفويا أحيانا تفكير ماشا. وصوبحياتها بما يجري اليوم في الجبهة. كني يقرآن قبل كل شيء. وانضمام مركز الأنباء الواردة من وراء الجبهة عن عدد الفلبيين الذين ابادهم في القناتين الرقيقين. س. أو الفريق ك. وزلاؤه في فصائل الانتصار، أو عن العارة التي شفيها على مقر أركان للمدنيين أو صهرج القود الذي اضطره التارفيه والطريق الذي زعموا بالاعلام أو المنزل الذي احرقوه بعد ان سكنه الاطفال العائد الباريون قوت بيديرلينغ... كانت أفكارهن مركزة ليس على البلاغات الواردة من الجبهة، بل على ما يجري هناك، وراء غط تلك الجبهة إلى حيث سيظهرون من في القريب العاجل، ولعل ذلك القليل من الأتانية الذي يتجلى في هذا التركيز شيء مذكور اذا فكرنا في كل ما ينتظرون...

ترقت السيارة فجأة. وسمعت ماشا صوتا قرب رأسها في الشاحنة يقول البارة المبروقة: «هنا تفكم رجاء». غشخت أوراق بيد مدير ترميز المدرسة السابط بيدريين الجالس في قرة السيارة، ثم غشخت فقس الإزراق بيد أشخاص الذي اعلموا منه، وبعد ذلك سأل الصوت الجاف الذي امر في البداية ببرس الوثائق:

- ماذا نصلون في الشاحنة؟

- في الشاحنة عسكريان تحت امرتى. ولكنى انا الاقدم في مجموعتنا.

- ليس لذلك أهمية. قال نفس الصوت الجاف.

بهبت ماشا ونوبوا بعد ان اذاحتا الشمع الذى صر فوق رأسيهما.

تطلع الى داخل الشاحنة ملازم طارح القاذبة وجهه تحيل بارز العظام.

وقف وراءه ليس جندي واحد من الخفر، بل ثلاثة. وقال الملازم:

- وثقتكم؟

اخرجت ماشا ونوبوا بطاقتي الاجازة وسلمتها له. اضمن النظر فيهما ثم

اعادها واستدار دون ان يسلط نظره على نوبوا، الامر الذى كان شقوا عن الشاحنة.

- يمكنكم ان ترحلوا.

- انظروا كم هو غاضب! - قالت نوبوا.

- اربية الشخصا بالكمال - قالت ماشا وهي تطلع الى الخلف.

تذكرت من جديد يلاغ مساء أمس والكلمات التى ردت فيه: الوضع

في الاتجاه الغربى للجهة قدوره. وسر القلق فى فؤاده لهذا البلاغ. واهللا.

الخبراء الاربعة بدلا من الخفرين الذين كانوا واقفين هنا فى سجنهم.

على طول جانبي الطريق العام تكدست الحواجز القنفذية المضادة

للدبابات غير المنصوبة بعد والمليحة من قضبان السكك. ثم مررت الى

عبر مازيس على الطريق فيها مر ضيق يتسع لسيارة واحدة فقط. قبل

بضعة ايام سمعت فى المدرسة بانة يجرى تمزيق موسكو بل وتنشأ المتاريس.

الا ان السماع بذلك شيء روى هذه المتاريس، لا سيما عند مداخل موسكو،

شيء آخر.

- اوفى، والا متبردين - قالت نوبوا بعد ان اضلجعت في داخل الشاحنة.

سولت ماشا نظرتها بصمومة عن الطريق - وقودت من جديد ازاء نوبوا

بعد ان تطلعت بالشمع.

ليس من السهل الجزم بما اذا كان في ذلك شهر ام لا، غير ان

بتادعيا دافنتين تحت الشمع طواك الثلاثين دقيقة التى صرفتها الشاحنة في

الطريق من المحقر حتى شارع بيروفسكايا حال دونها ودون رؤية اطراف

موسكو على حقيقتها ورؤية ما كان يجري فيها خلال ذلك المساء.

توقفت السيارة.

- ماذا، هل تزلان هنا؟ - سأل يوريلين الذى فتح باب السيارة

وطرق على منها بركة يده.

خرجت ماشا ثم نوبوا من تحت الشمع وبعثنا قفزا من السيارة بعد

ان وضعنا قدميهما على عجلتها.

من يهم زل من المدنيين الملحقين بالنادق وهم يسرون بطلاقة ويغير

النظام. كانوا من اعمار مختلفة وبالبسة مختلفة، بعضهم يرتدى عبطا وطاقية،

وبعضهم يرتدى سترة قطنية وقبعة شتوية. ماروا متجهين وبدون انشاد. وكان

البعض منهم يمشى.

- تلك هي الحال يا عزيزتى! - قال يوريلين متنهدا دون ان يتزل من

الفتنة. ومع انهم قطعوا بضعة شوارع لا غير بعد ان استداروا من طريق كالوسيكويه

فقد رأى ما لم تراه الترانان وهما راقدتان تحت الشمع داخل الشاحنة. -

تلك هي الحال! - كرر يوريلين وفكر بآسره: بزوجته وطفليه الساكنين في

أشرف الآخر من المدينة، قرب مخفر سيوتسكى، كما فكر في ضرورة

التمكن من شرم هذه الليلة بقتال ما ذاهب الى الشرق. - بعد ان اسلم

اللاطية من المستودع ساجى الى هنا غدا في تمام الساعة، فالتفت الى

الشارع.

اضلقت السيارة ثاركة ماشا ونوبوا وحيدتين على الرصيف عند ركن الزقاق.

- هل نذهب الى منزلى وأما؟ - سألت نوبوا وقد انكبشت فى الرصيف

بجدة - فلا احد عنده، ليس كذلك؟

قلت ماشا تتابع بنظراتها زل المدنيين غير المستقم والسائر بعيدا على

قارعة الطريق. ولم تحب في الحال لانشغال بالها بأفكار مقلقة.

- ما هو رأيك؟ - سألتها نوبوا من جديد.

منزل ماشا قريب، وراء المنعطف، بينما يقع منزل نوبوا على بعد

نسبة احياء، ولم تكن نوبوا راقبة ابدا في القناب لومسدا. وقالت لها

نفا:

- كلا. في البداية اجمع حاجياتى ثم آتى اليك.

- حسنا. سافطرك.

- كلا. لا تنتظرينى، اذهبن. وسألى انا فيما بعد.

استمتت من القناب الى منزل نوبوا رأسا ليس بسبب العاجليات، بل

لانها كانت تريد ان تخرج على المجوز بوكوف اضرف ما اذا كانت قد

وصلها رسالة ام لا. ولكنها لم تكن تريد ان توضع ذلك نوبوا. فالتوضيح

ببني الكلام عن زوجها وعن قلها عليه، وهو يعنى نشدان النعم الرومى عند

شخص يحتاج هو اليه، فهو انتمت من ماشا لنفسها.

— حينئذ، صافى: قالت نيوما طائفة مترودة بسبب صلابه ماشا. قالت واشعلت سجارة بانفمال وكأنها تنظر من ماشا ان تغير رأيها. ظلت واقفة امام ماشا وهي تتخى مغادرتها. وقفت فارقة القامة جميلة القد حتى يمحطها العسكري الضعاف وجنيتها الخبثة الواسمة اكثر من اللازم. تطلعت اليها ماشا باهتمام واست بان فؤادها يلفح بالالام الرقيق على نيوما وبصافها الجميل الضمير الزاد، كما يحيل لمشاء، وقوامها الانثوي انبثاغ اللان — القوي والضمير في الوقت ذاته.

فكرت ماشا وهي تطلع الآن الى نيوما بما فكرت فيه مرارا: انها اكبر سنا من نيوما واوقىء انها اكبر واوقى لانيها متزوجة ولديها طفلة ... اجل لديها زوج وطفلة، ولكنها لا تعرف عنها شيئا. فكرت ماشا وهي تطلع الآن الى نيوما بما كانت تذكره نيوما والضمير الاخريات احيانا في الاحاديث بينهما: ما الذي يتطرق لو ومن هناك، في الدوشرة، في ايدي الالمان قبل ان يتمكن من الانتحار؟ كادت ماشا تصرخ لهذه الفكرة، ولكنها تماثلت نفسها، وبدلا مما كانت تفكر فيه قالت بصوتها الهادئ الصافي الذي اكتشفه مسحة من الأسى:

— ما اسمك يا نيوما! — وتذكرت ان سيستوف كان يقول لها وما اسمك وهو مضج بها رغم انها ليست جميلة مثل نيوما اطلاقا. قال لها ذلك عندما كانت تشرف على ولادة تانيا، وعندما كانت — وهي متأكدة من ذلك — غير جميلة ايما. وسالها تذكرت ذلك انقياها القلق ليس على نيوما، بل على نفسها. وفكرت بالتحليق المرتقب الى مؤخرة الالمان، ثم اغتاطت من هذه الفكرة الجيئة وقالت لنيوفا بحدة تقرب من الخشونة:

— انهي، ماذا تنتظرين؟

قالت ذلك ودخلت الزقاق. اجتازت المدخل المعروف لديها. وكان يابه ملتصقا على مصراعيه، فدخلت الباحة. كانت غالية، جميع التوافق سواء منقذ بورق التعقيم وكأنها عياد. وقرب المدخل السابح الاعمى الذي يعيش بوبوكوف في طابقه العلوي كادت ماشا تسقط على الارض اذ تعثرت بحشية ملقاة في الباحة. السلم منظم كما في داخل مدخنة. عندما بلغت الطابق العلوي بحث طويلا وبصورة عشوائية عن زر الجرس، فلم تثر عليه، فطقت الباب وام نعم جوابا من وراء الباب. ثم دوى صوت بوبوكوف الابع:

— من هناك؟

— ماشا.

كانت حتى الآن، وعلى عادتها منة الطويلة، تتخيل من بوبوكوف المجرى الشاكس. لم يجب المجرى بشيء. وتهادى حفيف حذائه متجها الى احدى الغرف ثم رجع حذائه نحو الباب. انهمك طويلا في مالمجة النزلاج والسلسلة وقطع الباب اخيرا. — ادخلي. انا هنا لوسلى. ولانا مريض.

الدهليز منظم، فراقق بوبوكوف ماشا الى غرفة الطعام مباشرة. وفي تلك الغرفة سرير حديدى كبير مغطى بالنيكل وعليه فراش مدعوك. قيد وفاة زوجة بوبوكوف نقل السرير الى هذه الغرفة وانتقل هو اليها وقدم الغرفة الثانية لابنه

المتروك.

— اجلسى! لماذا ذات واقفة؟ — رتب بوبوكوف الفراش على عجل ويجلس عند المائدة وهو يسلك، قرب الحنجرة، بالياقة المحكوككة لمعطف قرو قديم كان يرتديه في المناسبات، ولكنه يرتديه الآن فوق ملابسه الداخلية مباشرة. جلست ماشا قبالته عند المائدة التي تعرفها جيدا. ففى شفقتهم مائدة مملدة تراعا كل يوم منذ ان كانت صغيرة. والد ماشا وبوبوكوف اشترى في وقت واحد ومن حانوت واحد مائتين من هذا الشرع الذي يمكن تسميته، اشترىها عندما نزلوا معا في اواخر العشرينات في هذه الشقق العمالية الاولى.

— ما هي اخبارك؟ — سأل بوبوكوف وهو ينظر الى ماشا ويبدو براحة راحة التحليق الذي تمت حول صلته شميرات شيئا طويلا بشكل ملحوظ: الشقة ديدة ورارة. يتأثر بالبرد.

— ما الذى يمكن ان اقوله؟ — حزت ماشا كنفها. — ظننت انك ستقول في شيئا.

— يورى ان اقول، ولكن ليس لدى ما اقوله. صندوك فارغ، بالامس خرجت وفتحة.

تهدت ماشا بشدة.

— لماذا تنهدين هكذا؟ — سأل بوبوكوف متندرا واطلاق بدوره تهدئة عميقة — طويلا اسبوعين لم اتج صندوكك، فقد رقدت اسبوعين في المستشفى لاصابى بقت. — واس فتحت الصندوق فوجدته فارغا.

— اين امك؟

— ارتحلوا. فقد تم ترحيل الصنع ...

— واقف! لماذا بقيت؟

— قلت لك انى اجبت بقتى وفتحت في المستشفى. رقت شيئا.

الآن من اللازم، فاصب ...

كان يوبكوف قد احبل على العاش قبل ثلاث سنوات، ولكنه صار
لعسل في الورشة عندما اندلعت الحرب.

- وهل متعلق بهم؟

هو المجوز رأسه فنيا.

- لا اسوأ من الانتظار واللحاق. ساجد عملا في احد المصانع الصغيرة
التشيكية. سامعل في مصنع القذائف. كان في بيتي ان ارتحل سابقا، ار.
الان فلا اربط في ذلك. فالهاريون من موسكو كثيرون حتى بدوني. لقد
موتت أنت في التشوارع ورايت بنفسك. في الصباح خرجت من بيت
لاشترى خبزا ورايت بمقاهر هذا الهرب فقصت اشترازا: تفوو...

يوبكوف يحب وضع النقاط على الحروف.

- منظر الباحة يبعث على الخجل. المفاوش ملانة على الارض وريشه
يتطاير مثلها في سبي بايل. كلا، كن اترك موسكو مطلقا، على العناد! -
سعل ودمس يده تحت المعطف وسدد صدوره.
- اعتقد انك مريض الآن ايضا.

- قليلا. اخذت برضا. حالما غادرت المستشفى اصيبت بالبرد. مرضت
على مرض... مصنعا اُنقل الى مدينة مياس. يقال انه توجد مدينة بهذا
الاسم في محافظة تشيليابينسك. زارني ابني عندما كنت في المستشفى واخبرني
بذلك. الشيطان وحده يعرف موقع المدينة بالضبط. بحثت عنها في الخوذة
فلم اجدها. الى اي مستوى خطا! مصنعا الميكروبي الاصيل تقلود في
قرية لا اثر لها حتى على الخريطة... لماذا بحث الى موسكو؟ وضع بصره
في ماشا- اذا كان ذلك من اجل الرشايل فمارسها له اذا وبلت. فان
لي الهرب، لا تخافي. ساقى هناك كسبار صدى، في غشية. حتى التصبر
النهائي... ام انك متعبد بان الالمان سيحلون موسكو، لا؟

- كيف تقول ذلك، يا روسيا ايفانوفيتش! - اطلقت ماشا سرعة ميترا
لهذا السلوك الغامض، قادرك المجوز ان هذه الفكرة لم تدور في بالها.
- ليس في ذلك صعوبة - قال يوبكوف قريبا لفتها الترامعة ولكنه فار
ذلك، كعادته، بدافع من التشاكسة، لا غير. - سيذا لو رايت كيف هرب
البعض نهار اليرم! اوقفت ادمهم، وهو ريبيل فخمتم رسائته: «هل عندك سلاح
بالمفرق؟» فراح يبعث في جيوبه كلها دفعة واحدة، وتناثرت اوراقه على
الرصيف. ولكن من انا بالنسبة له؟ وماذا اربط الي هذا العبد؟ ذلك
يعني ان قواده شاو وليس في عروقه غير الرعب!

اخرج المجوز يده من عيه ولوح بها غاضبا فوق المائدة ركائه يزيح
انقارا غير مرئية.

- وانت؟ لماذا بحث الى هنا اذا لم يكن من اجل الرشايل؟

- يمد اهام سيرسولونا الى الجبهة، فبحثت لاجد بعض الحاجيات -

قاله ماشا ملتزمة بقواعد التبذية في عدم انشاء سرها لاجد.

- يعني انهم يرسلونك اكثر ايضا الى الجبهة؟ فمن اكثر يا ترى؟
القت ماشا نظرة صامتة عليه. فقال دون زعل:

- حسنا، لا تجيبى اذا كان لا يحق لك ان تجيبى! ولكن قلنى
اى شيئا واحدا قد يهتفى: هل المكتبة كلها ثنائية مثلا في عهد كيرينسكى،
او ان فيها رجالا ايضا؟

- فيها رجال - اجبت ماشا عفويا.

- المبدل لك! يعني ان الامور عندنا لم تتدهور يمد الى هذا الحد - ثم
يوبكوف وصمت فابدا طويلا وكأنه يتردد فيها اذا كان يتبين عليه ان يتحدث
مع هذه البيت التي لم تزل تعرف في حياتها الا القليل ويشرح لها ذلك
لشيء المهم جدا بالنسبة له والذي يفكر فيه طوال الوقت في الآونة الاخيرة.
ولكنه ليس لديه احد غير ماشا يمكنه التحدث اليه بهذا الخصوص. وهو لم
يبد قادرا على السكوت. - رقت في المستشفى وكان من احد المقدماء. وهو
من الجبهة ولكنه غير جريح، كان مثلي مصابا بالفتق لا غير. وانتج ان
هذا المرض يمكن ان يوبد حتى في الجبهة. وسأله: «قل لي من اين
جاءت هذه الملاحظة؟ اين كنتم اقم السكروين؟ لماذا لم يعرف الرقيب
تسايل منكم شيئا عن ذلك قبل اسبوع على الاقل او حتى قبل ثلاثة ايام؟
هل عندكم ضمير؟ لماذا لم تعيروا الرقيب سائلين؟»

- وماذا قال لك؟ - كانت ماشا قد طرقت على نفسها مرارا هذا السؤال
الدوئم، ولكنها لم تخرجه بصوت مسموع وبهذه الصراحة وعدم التوق مثلها
نمل يوبكوف الآن.

- ماذا قال؟ لم يقل شيئا. كلمنى، انا المجوز، بخشونة. اما
بالنسبة لك فكل شيء مفهوم على ما اقول. اليس كذلك؟ - قال يوبكوف
داغدا. - في الشهر الماضي لاسنى امرأة شابة من باسنتا بسبب لاسنى الطويل؛
نكل شيء مفهوم بالنسبة لها. اما اليوم فقد اجتازت هذه المسكينة الباحة
حاملة الحقبة حتى كادت ساقها تلغويان. واذا كان كل شيء مفهوما بالنسبة
لك انت ايضا، فالحل ملك، والافضل ان تصمتى.

- لا أدري، يا زوسيا أيفاتوفيتش، عشنا سنة ونصف على الحدود تقريبا في مدينة غرونتوف. فمن منا لم يفكر هناك بالحرب؟! بذهبي أن الجميع كانوا يفكرون بها! وبعد ذلك حصلت على اعيننا شاة فخرتنا امي وتانا هناك قبيل اندلاع الحرب مباشرة! انني لا أدري بخصوص الآخرين، ولكن اليوم نفسى وزوسى: كيف استطعنا ان نقبل ذلك؟ لا أدري. اكاد افقد رشدى عندما افكر في ذلك.

- سأقول لك الآن رأيي - قال بوبكوف بصراحة وبشئى من النهاية بعد حصة طويل - لا أدري أية مبررات كانت هناك، فهذا شئ فوق مستوى. عندما ينجى ضيوف للحيوان تسع عطفة اعداد النافذة وراء الجدار! فكيف يجوز ان نتحدث قوات يكاملها على مقربة منا ولا احد يسمع بها. ذلك ما لا نلهمه! ولكننى اقول اننا اخطأنا في تقدير قوة الالمان. وان قوتهم هائلة. ذلك صحيح. والا لما استطعنا ان نحملونا من الحدود مباشرة - ونسج بوبكوف يديه على النافذة أمامه واشرب بشفة كله بانجلاء حاشا - لست صغيرة، رائت تمرين بعض الامور في عسكرى هذا. فقولى لي: هل بنقلنا نحن بشئ للجنش الأحمر في زمن ما رغم كل الصعاب التى واجهناها؟ وعلى حدنا يوما ان الجيش الأحمر احتاج الى شئ، ونرض الشعب تقديسه له؟ اجيبني! حل حديث مثل ذلك ام لا؟

- لم يحدث - قالت ماشا وقد سكنت قليلا. - اما الآن فاستعذ ان الجيش الأحمر ليس عندك كل ما يجب ان يكون عندنا! فكم متى من الوقت ونحن لا نستطيع ان نوقف الفاشيين؟ ولما اسأل الآن واريد ان تتحملوا مسؤولية ذلك: لماذا لم يخبرونا؟ كان يوسى على الاقل ان اسلم هذه الشقة واعيش في غرفة واحدة. وكان يوسى ان اعيش على كسرة من الخبز وعلى مرق الاشباب مثلما في الحرب الاولى، من اجل ان يكون عند الجيش الأحمر كل شئ، كيلا يتسبب من الحدود... لماذا لم يغيرونا بتراسة؟ لماذا سكتوا؟ حل انا بحق ام لا؟

- لم تكن ماشا تعرف هل ان بوبكوف الجالس امامها والذي يتكلم، بل ويجاز بذلك كله بحق ام لا. ولكنه رغم مرارة ما يجاز به فقد احس ان بين جوارحه قوة تجعله يشعان بانها قويات مستدان لكل التضليلات: لاكتفاء، بريق الاشباب وكسرة الخبز، بل وللاقدام على أية معركة ولى موت من اجل تصحيح وتبديل كل شئ من اجل ان نهجم نحن على الالمان وليس هم علينا!

- لا بأس، يا زوسيا أيفاتوفيتش، سوف نقطع رقابهم - قالت ماشا باهية تقرب من المرح وفي سرورية المشاعر التى استرقت عليها.

- شكرا لك. لقد اوشعت لهذا الجوز الاحمر! - قال بوبكوف متدبرا - انى انهم، ليس اسوأ منك، من الذى سيكون فوق من الذى سيكون تحت في آخر الامر! ولكن لماذا نحن تحت الآن ومنذ شهر؟ ..

- لماذا؟ لماذا تقول تحت؟ - قالت ماشا وتحيرت بسبب الهجوم الجديد الذى شنه الجوز - المعارك جارية، وهى معارك ملحمة يطالع ...

- اعرف من البلاغات ان المعارك جارية - واصل بوبكوف كلامه مصرا على رأيه - هنا شربناهم: هناك اسراهم، هناك ارفناهم نسقمهم ... ومع ذلك سلمنا بريانسك وقبائنا قبل ثلاثة ايام! فما معنى ذلك؟ هل نحن فوق ام تحت؟ ماذا يعنى ذلك برايكهم، براى العسكريين؟ انك عسكرية جاقية! لم تتمكن ماشا من اجابته، فورا التفتة حديث الدفاع المضادة للجو دمة واحدة على مسافة قريبة، وقال بوبكوف بهوى:

- سكنت افكر: لماذا نأمرنا اليوم؟ - ثم تطلع الى الساعة الجدانية القديمة المتبقية من عهد ما قبل الثورة ونهض وسأله:

- هل تذهبن الى الملجأ؟ - ورائت؟

- كلا. نجلس هناك كالتلشاشان، ومن وقتنا يدور التردد والهدير. لذا

استند ان البقاء في البيت افضل... ماذا؟ هل ستذهبن ام لا؟

- كلا. سناظر ملك هنا.

- اذن فلننتفى! الضو ونزف السارة - قال بوبكوف فرحا ببقاء ماشا -

بلست ليلة البارحة قرب النافذة وظلمت الى مشقة مشرا!

اهلك بياقة معظم الثور عند المتحيرة واقترب من زر الكهرواء غامضا الضو ورفع ستارة التعتيم الورقية.

جلست ماشا على رف النافذة الى جانب الجوز. الشقة في الطابق

المرتفع، والمنازل هنا ليست عالية، فلاححت امام الانظار سماء واسعة دون

فيها كل شئ. وبعد ميلجول يالافت السطاري. كانت السماء كترشف اسود هائل

منبس فوق المدينة كلها وفي كل لحظة يشتقى بصريف في آلات الاماكن

وفي كل مكان يشتقى فيه تومس كريات تقصر الفذات المضادة للجو.

وعلى مقربة كبيرة سيء، وراء المنزل، كانت بطارية مدقية تطلق

قذائفها كالرعد فيطلى هديرها بين الحين والآخر على كل الاصولات الاخرى.

وبين الصلوات يتهاذى، كما فى جهاز راديو مشوش، دوى المأثورات المتعطل المرتفع. واهتز المنزل عدة مرات من انفجارات القنابل، وفى مكان ما غير بعيد اندلعت السدة اللهبى وانطلقت.

وبعد ذلك سمعت ماشا تطلق فى مكان قريب سدا. فقال يويكوف: - شليلة من قنيفة ارتطبت بالشرية - ثم اضاف ملثما الى ماشا - ألا ترفدين أن تبينى؟ قريبا قليل نحونا شليلة وتصايين بهيروج بالزواج... لم تنجب ماشا بشئ وظلت تتطلع الى السماء. - الدفاع المضاد للجو قوى، وليس من السهل اختراقه - قال يويكوف فى إحدى لحظات الهدوء النسبى. وتأكيده لقوله لعمت بقعة كبيرة صفراء جدا بين الكريات الصغرى للانفجارات القذائف المضادة للجو فى اعلى السماء. وبعد ذلك تحولت تلك البقعة الدخانية الشكل الى زاوية صفراء ثم الى صليب متور، ودوت الى الاسفل، الى الضلام، متحركة الى بقع صغيرة عاتقة. وصاح يويكوف: - استقلوها!

بدأت نيران المدافع المضادة للجو بالغفوت، وصارت الكريات الصغرى تنفجر بكيمات متنافسة، واخذت احدى الاصواء الكثيفة المتصالية فى قبة السماء تتلحح الى الافق الواحدة تلو الاخرى.

- مرت هذه النوبة - ظل يويكوف يتطلع عبر النظارة - وعلى هذه الصورة يبدو الليل وكأنه حريق سلوم. وعندما نخرج فى الصباح ترى الدخان يتصاعد فى امكان قليلة. هنا منزل محترق، وهناك منزل محترق، ألا اوسكو سالة! قال يويكوف هذه الكلمات وانزل السيارة فظلا لحظة فى ظلام داس. ثم اضاف وائل الضو:

- لا بأس، الحرب زائلة. الا ترفدين إن تشرى شيئا معي؟ شكرته ماشا ورفضت. فان نيوما تنظرها، وربما هى قلقة الآن. يجب ان تأخذ ماشا حاجياتها بسرعة وتذهب اليها لتنام ليشتا عندها. - شكرا لك، يا زوسيا ايفانوفيتش! شارب الشاي فى الدوة القادمة! متى فى الدوة القادمة؟ - مأل المعجوز بلهجة صارية. فجزت كتفها: - لا ادرى.

- حسنا، اذهبى! - صق يويكوف الباب بعد أن غربت ماشا ورائلته بالمزلاج. اجتازت ماشا الباحة من جديد ولجنت مدخل المنزل الى شقتها. الفرح تهب وبصراما باب المدخل المتقوسان يحتكان بالمالايوفيتش اللتين وضعا نحتهما فينشت من هذا الاحتكاك صرير كتيب.

وتكررت ماشا: ماذا لو كانت هناك وراء القنوب الدخانية فى صندوق البريد العماق على باب شقتها فى الطابق الثانى رسالة تنظرها وقد وصلت اليوم وليس اسرع؟ ماذا سيحدث لو كانت الرسالة ليس من سينتوف، بل من جهة تتهادى؟

استكبت بهزبون السلم وصعدته فى الظلمة واغرست المدافع من حبيبه اقدملة وراحت تتعسس فقبيل القفل. ولكن يدها انقضت بشئ بحث خشخشة مدنية مفاجئة. ارتجعت ماشا وسحبت يدها فى البداية، ثم مدتها من جديد وجعلت سالكا دائريا يربط شدة مفاجئ. وكان اسعدا داخلها فى قبيل القفل. استكبت ماشا ببغضى الباب فانفتح قليلا بشكل مربع، إذ لم يكن مغلقا. وفقت ماشا لحظة فى الظلمة دون حراك، وقد انشمر يدها لخوف مجهول من هذا الباب والمفاتيح، ثم غضبت على نفسها واتحنت الباب ودخلت الخفة.

فى البداية خيل اليها ان كل شئ هادى هناك، ثم سمعت انغفا متفعلته تتهادى من الفرة الثانية. اجتازت عتبة غرفة النوم وتكررت المصباح ليعبر فانجرحته من حبيب مغطها العسكرية.

فأرت سينتوف ثالثا على التحشية الخالية على السرير ووجهه مغرور فيها وقد تدلت مقبلة رأسه منها، وهو يقبته التثوية ويستره القنيفة ريجز الدوة. كان يغط فى نوم عتيق دون حراك وبانفاس متثاقلة مزكوبة.

الثالثة ليست مخطئة بشاردة تعظيم. انطلقت ماشا المصباح واسرعت عشوليا لاتزال مشائر التعظيم الثورية فى كلتا الفرفش، ثم اسرعت الى المطبخ وانزلت المشارة هناك، وركضت الى الباب، وانفجرت منه شدة المفاتيح وانفلتت، وضضلت على كل الاضرار الكهربائية فاشتعل المصباحان الدبيران فى الشقة - فى الدهليز وفى المطبخ.

بعد ذلك قفط عادت الى غرفة النوم التى تسرب اليها عبر الباب المتفتوح تود خافت من الدهليز. كان سينتوف لا يزال ثالثا ورأسه متدل من التحشية. ركبت ماشا على ركبتيها ورفعت رأس زوجها ووضعته على الوادة. لاح طرف شاش متسج من تحت القبة الدخانية على الرأس يمانية، فخالفت ماشا من ان تغلغها، لم يسبقفقط سينتوف. وخيل لماشا ان حرارة مرتفعة. لامست قوده بشفيتها فلم تجده سائعا، بل كان ميلا بقطرات العرق.

وبعد ذلك غلملت ماشا بسرعة محبوبة قبعتها التثوية ومسطها ريجزتها وكان يوسع ملثمتها ان توقف هذا الانسان الغافل فى نومه. ومرت الى المطبخ

تألمت النار التي بدت بالكاد ضوئاً بنسجياً خفيفاً يوهن على السليح
وغامت من السمار على الجدار طشتاً معدنياً كبيراً وصبت فيه ماء ووضعت
على النار.

ثم فتحت بالمفتاح خزاناً في غرفة الطعام وأخرجت يابغات وشراباً
ويطالاية وأتريت من السرير من جديد، وفي هذه اللحظة فقط أشرب بدلاً
كله نحو زوجها فأنفتكت كثيفة والصمت صرخاً بقلوبه وانتحبت بدمارة وسعادة.

الفصل الثاني عشر

لا يستطيع أن يغض في مثل هذا اليوم العميق إلا شخص بلغ آخر
درجة من الإيهام.
وصل سيستوف إلى شقته ونفا منهاراً على التحفة الخالية قبل مجيء
زوجه بوقت قصير.

دبت ثعالب ساعات بين اللحظة التي غفا فيها والحظة التي أنزل فيها
لوسين من السيارة فظل وحيداً على الطريق العام على بعد عشرين كيلومتراً
من موسكو. وقد كلفته هذه الساعات الثماني غالباً.

تدبّر ظل وحيداً على الطريق استل لانه تمالك أعصابه ولم يصنع
لوسين. فما الذي يمكنه أن يفعله الآن؟ ربما كان من الأصوب، رغم كل
شيء، أن يرجع إلى مركز التنشيط ويحاول أن يوضح لهم كيف وصل
إلى هنا وإلى أين هو ذاهب، إلا أن الناس لا يفعلون دوماً ما هو
الأصوب.

عمداً وقف وحيداً على الطريق لمن سيستوف اللحظة التي سافر فيها مع
أوين، ولكنه لم يمد يديه التراجع في الوقت ذاته. فما دامت موسكو قريبة
نسبياً يذهب على أية حال إلى هيئة تحرير جريدته السابقة، ويوفد يصل
إلى هناك من هذا المكان الذي تركه فيه زميله لوسين.

وفي حالة اليأس والهمياج التي اكتشفت سيستوف مسمم بأفعال على
محطته الوصول إلى هيئة التحرير دون أن يمر بأى من مراكز التنشيط. وإذا
أعفق في ذلك، وإذا اجتزوه قبل ذلك فالفرق غير كبير، فهو ليس
هناك من التجهية ولا ينوي الهرب منها!

ومن المؤكد تقريباً أنه ما كان يوسد أن يمر ويصل إلى موسكو ليوم
قبل ذلك أو ليوم بعده. ولكنه في ذلك اليوم بالذات، في ١٦ أكتوبر،

انصرف عن التفريق العام وتماشى مراكز التفتيش ووصل الى الاطراف التي يعرفها جيدا، ثم وصل الى وسط موسكو دون ان يستتبعه احد.

فيما بعد، حيث غدا ذلك كله في طي الماضي، صار سيستوف يلوذ بأذيال القسمة كلما تحدث احد بمرارة وألم عن ١٦ أكتوبر يحضونه. فلم يكن يتحمل تذكر موسكو في ذلك اليوم، كما لا يتحمل شخص رؤية وجه عزيز عليه وقد شوهه الوب.

يلهي انه كان هناك في موسكو نفسها عدد كبير من الذين بذلوا قصارى جهودهم لعدم تسليمها، فضلا عن القوات التي كانت تقاتل وتموت في ضواحيها في ذلك اليوم، ولذلك بالذات ثم تسلم موسكو. الا ان الوضع في جبهة ضواحي موسكو بدا وكأنه نشأ مباشرة على نحو لم يسبقه مثيل في فظاعته وعظورته خلال الحرب كلها. وكان الكثيرون في موسكو خلال ذلك اليوم مستعدين بآس وقنوط للتصديق بان الانسان سيدخلوها غدا.

وكما هو الحال دائما في مثل هذه اللحظات المأساوية، فان ايمان الاوائل وعملهم غير الملحوظ لم يكونا واضحين للعيان بالنسبة للجميع، بل كانوا يبدون بالصارف فقط. اما الحيرة والرب وقلقوه التي تلازم الآخرين من غير الاوائل، فقد كانت على مرأى من الجميع وذلك بالذات هو ما ملأ على السطح وما كان يرمسه ان لا يظفر عليه. فان عشرات ومئات الآلاف من الناس نهضوا وثاروا من موسكو في ذلك اليوم تخلفا من الاناث. غصت بهم شوارعها وساحاتها بشكل سيل عارم سرع نحو محطات القطار ونحو الطرق الشمعية الى الشرق، مع ان التاريخ، وتفوق ذلك توجه المقاتلة لم يكن له فيما بعد الحق في اداة الكثيرين من عشرات ومئات الآلاف من اولئك الناس على قرارهم.

سار سيستوف في شوارع موسكو ولم يهتم به احد فيها بحال ذلك اليوم المزعج من حياة المدينة. فقد كان الناس يسيرون بعضهم بعضا ويبحثون عن بعضهم البعض دون جدوى ويكسرون ابواب الشقق المغلقة ويتظنون بأس ويقولون على مشرفات الطرقات وتحت ساعات الشوارع المتوقفة ويعيرون ويكونون في دوامات ساحات المحطات.

نسى سيستوف لويسين من ثمان. فالحق قد على هذا الانسان غدا شيئا ناهيا في خضم العصية التي اجتاحت سيستوف وراحت تتقاذف كالخبطة في شوارع موسكو. لم يعد يلحن لويسين، بل اذ يلحن نفسه. فلو تصرف على نحو آخر وذهب الى الشقة الخاصة كما قرر في البداية لرينا سلموه بنقطة

هناك، على بعد مائة كيلومتر عن موسكو، حيث كان يقترع نصيرها. الا ان الحصول على امل في ذلك يتطلب السير حتى النهاية فيما بدأه. وهو الوصول الى هيئة التحرير.

واخيرا استدار من ساحة نيكيتسكيه القامصة بالسيارات والناس ودخل في زقاق غلينوفسكي حيث تقع ادارة جريدة «غودوك» (والصغيرة) التي كان قد زارها ذات مرة قبيل الحرب.

تفوح من الزقاق، كما في كل مكان، رائحة الدخان، وتحمل هبات الريح من قارعة الزقاق رواد الاوراق المحروقة الذي يدوم في جوه جميع نوافذ ادارة الجريدة مغطاة باحكام بساتير القصوى من الداخل، وقرب الباب اسفل يقبل مثل جلس على مصطبة يواب. عجوز برتلي مغطا اسود من ملابص عال السكك ويده بنفقيه من عيار صغير. كان جالسا لا يعبأ باضطراب الناس الراكضين امامه في الزقاق حاملين حاجياتهم.

اقترب منه سيستوف وسأله، مع توقع التام لجواب بالثقة، عما اذا كانت له وصلت الى هنا هيئة تحرير الجريدة الجبهوية ام لا. هن البواب رأسه صامتا.

— ماذا؟ هل ارتحلت ادارة «غودوك»؟ — سأل سيستوف مع انه كان ولما ان ادارة الجريدة ارتحلت.

— واثت، ماذا تريد؟ — رفع البواب رأسه الآن فقط — ارتي هويتك؟ — ما حاجتك الي هويتي؟

— لكي اعرف هل يتبين على ان اجيبك ام لا! — قال العجوز بغيظ. اجل، ارتحلت «غودوك»، اما الجريدة الجبهوية فلم تصل وليس معروفا

ما اذا كانت ستصل ام لا. كان ذلك واضحا. بيد ان سيستوف نزل بملوح في مكانه ويطلق في تولاعة ادارة الجريدة دون ان يعرف ما ينبغي له قوله.

وعطرت على ياله فكرة: يا ان هيئة التحرير غير موجودة في موسكو فبني المنور على سربلين. فقد نقلوه الى احد المستشفيات في موسكو بالذات ... ولكن كيف تمر عليه! — سأل صوت آخر متعقل في دخليته — في اي مستشفى؟ ومن الذي سيدلك على سربلين اليوم وسط كل ما يجري هنا؟

في ساحة أريانسكايا، ليس بعيدا من هنا، يقع مبنى الادارة السيامية الجديد. تذكر سيستوف انه كان هناك في عام ١٩٤٠ قبل ثمانية في غرودنو

وتفكر: ألا اذهب الي هناك؟ ولكن من يسمع لي بالدخول بدون هوية؟ ثم هل ان هذه الادارة لا تزال هناك؟ في مستتب ... واذا لم اذهب الى هناك، فالى اين؟ الى اين اذهب يا ترى؟ ...

وتبادرت الى ذهنه من جديد الفكرة التي ملأها من زمان: «ربما كانت ماشا موجودة في موسكو مع ذلك». ورغم مقاومته لهذه الفكرة المستحيلة فقد دفعته من رفاق خيلينسكي الى شارع اوساتشيفكا، الى المنزل الذي تولى به الى الجبهة.

في منتصف الطريق حمل نفسه من جديد على عدم التفكير في المستحيل. فليس في الشقة احد. ذلك امر بدهي ولكنه ذهب الى هناك ليس لانه يأمل في شيء! فهو باس الحاجة الى الحبوب في مكان ما واستعادة انفسه ولو على درجات السلم! وبعد ذلك سيغض وسيذهب... ولكن الى أين؟ الى مقوضية التجنيد على الاقل. سيذهب وسيقول لهم، دون الخوض في ايا تفاصيل وتوضيحات، بأنه يريد قبوله مطلوباً... فلا بد من وجود وحدات قيد التشكيل... ومعروف انهم يرسلون البيض الى الجبهة مباشرة!.. وهناك سيرض فضته بعد المعركة الاولى! ولن تكون تلك احمية عنده. المهم هو ان يقولوا الآن ويرسلوا الى الجبهة! اجل، هذا هو القرار الصحيح!

ولكنه، في اللحظة الاخيرة، عندما اقترب من باب داره وتذكر فئته بكل التفاصيل كيف جمعت ماشا حبيته في يوتيو هناك، واد هذه الشقة التي على الطابق الثاني، لتدعه الى الجبهة، ليخبره من ذهنه كل الانكار ما عدا تذكره فيها وفي احتمال وجودها هنا.

باب الدخول مفتوح على مصراعيه، وقد وضعت تحتها طابقتان. وعلى الرصيف ربيت كسرات من مقعد. لم يفتش سيستوف لذلك يمد كل ما راه وهو يجتاز موسكو ماشيا. وكل الكسرات بقده، وسعد الى الطابق الثاني وطرق على الباب يقبضه.

ظل يطارق على الباب لخصته وقد التصق وجهه به مع انه ادرك من زمان انه لا احد في الشقة. وفي هذا الطريق الهائج اليأس تركز كل القنوط التي ملأ فؤاده عن آخره.

واخيرا عدل قائمه واستدار ولوح يده رزول من السلم متحرراً. خرجت من بوابة الباحة وراجعة الى التوراة سيارة شحن مليئة عن آخرها بالغنص والاكراس حتى ارتطمت اعاليها باسفل طاق البوابة الاولى. وفي عرض الشارع راج شخص يترافق ويروح بيده في الهواء ويصيح: «وللها الى البوابة الى اليسار، والآن عدل المقود، عدل...» واخيراً خرجت كشاحنة من الباحة. وتوقفت الشخص الرافض في عرض الشارع عن وقفه ومسح العين عن وجهه بدون سترته الجوخ، وعرفه سيستوف. انه مدير السكن المسؤول

عن هذه البنايا، واسمه كلوشكين أو كروبيكين. سيستوف لا يتذكر اسمه جيداً، مع انه يعرفه قبل ان يتزوج ماشا.

- اسمع! - صاح سيستوف - اسمع! - كرر بصوت اعلى وعطأ قعر سير السكّن وانخذ بخطاه واسك بياقة سترته حتى اشتقت.

- ماذا بك، هل جئت؟ - تخلص المدير صامتاً وهم يقرب سيستوف،

؟ انه يعرفه، فقال: - انت الذي ملّكت الباب بهذه القوة؟ - نعم.

- زوبيك ارتجعت.

- الى اين؟

- لا ادري. هل يمكن تذكر الجميع؟ - صعد مدير السكن الى الكسرة - اما القوائم فقد احرقناها. احرقنا كل شيء اليوم، حتى كراسات ارقام التلغرافات احرقناها. احرقنا كل شيء! - كرر من على السيارة بلهجة فيها شيء من الحماس. -

زوبيك سافرت في يوليو، وكانت ترتدي بزة عسكرية.

- اين هي؟ - صاح سيستوف وهو يدخل وراه السيارة التي تحركت.

- قف! - صاح مدير فجأة وطارق على قمرة السائق براحته عدة طرقات. اسم! - نادى المدير سيستوف. عندما توقفت السيارة. - عطلى

المصباح الثاني ليشقككم.

فتح حبيته نثراً وأخرج منها حافلة كبيرة من سلك معنى يدلي منها زئجه طنيناً مفتاحاً.

- ابحت من مفتاحكم فيها وعذو. ولكن بسرعة.

اقرب منه سيستوف وراح يفتش المفاتيح بتردد.

- هيا هيا! - استعجله المدير وهو ينظر الى السائق الذي مد عنقه بلفظ صبره - غداً كلها! - صاح المدير وتراء له كل المفاتيح.

أقلت. سيستوف شدة المفاتيح قسقت مجلبة على الطريق.

وعندما مر هيكل السيارة امام عيني سيستوف سأله:

- الى اين انت مافرا؟

- عالمي من حال الجميع! - صاح مدير السكّن. - اما ضو في العزيب.

اهل يفتتح على ان انتظر وصول الامانات حتى يشقوني؟

«يا رب الشوم: ياغضوب العزيب» الغضب سيستوف المفاتيح وتذكر

بغضب تلك اليد القوية المكسوة بالشعر والتي اسكت بها قبل قليل من على

الشاحنة.

راح يتفحص المفاتيح الواحدة تلو الأخرى وفكر فجأة بأن لما بدأ ربما تركت رسالة في الشقة تحسباً للولائم...

فاستولت عليه فكرة الرسالة هذه حتى صعد السلم وأكبها وفتح الباب وخرج إلى الشقة تاركاً شدة المفاتيح في الباب من الخارج.

لم يجد رسالة. لا على المائدة التي تستقر عليها المنضفة اليومية التي صنعها يرميها جيداً - ذورك - عتيق، تمثل مقدمته رأس القم، ولا على السرور في غرفة النوم حيث لم يكن هناك غير حشية مخططة خالية وسادة بدون شرف وقد برز الريش منها.

الدولاب معلق. حرك سينسوف مفهضه قلم يفتح. واستقرت ريلفا سميكة من الفئار على كل شيء - على الأرضية والكراسي والمائدة المازية. كوة النافذة في غرفة الطعام تهتز من الريح وقد انفلت زجاجها. اتفاق سينسوف الكوة وجلس قرب المائدة والتي بيده التحيلتين المتخافتين عليها.

كل ما مر به هو، وسائر الذين كانوا معه، شكل الصلابة والصدور البيضاء من موفيليف، يتسم بقيمة أو تقدم قيمته تبعاً للجواب على سؤال بسيط واحد: هل مستنصر أم لا في هذه الحرب التي بدأت على هذه الفرقة من الففاعة بالنسبة لنا؟ عدد الصحايا لا ينحصر في تلك القائمة العسكرية التي قدموا إلى شاكوف بنسوحى إليها بعد أن خرجوا من الحصن الأول. قض جوازهم قائمة طويلة لجميع الشخصيات التي أقدم الناس عليها أمته وهم يشترط النصر بحياتهم. ولكنه رأى هناك في موسكو الآن علامة استفهام مائلة سوداء، كالمسحاة، توضع على هذه القائمة الدامية أمام عينيه.

ولو كان سينسوف في حالة أخرى ربما شكك من أن يفرق ذهنياً بين إمكانات لفندان وموسكو وبين الهزيمة التي لا مفر منها وإثباتاً التي تشمل كل شيء. إلا أن روحه الآن تشبه ذوركا نهالت عليه الأحلام الواحدة تلو الأخرى بكملة جعلته يبدأ بالرق في آخر المطاف. وبالاحتمال في ذلك كله أمامه هذه الشقة الخالية الصامتة، لا زوجته فيها ولا مملته التي يفتاح هذه الشقة إليه شخص يغادر موسكو لأن الألمان - كما يعتقد هذا الشخص - سيدخلون موسكو قريبا. حرب هذا الشخص من موسكو في سيارة شحونة بالمش. وسينسوف وإثني تماماً من أنه حرب بدون امر رسمي. حرب لإنقاذ رقبته الشينة كرقبة ثور ويديه القويتين البكرتين بالشر والذين يمين عليهما بالذات حمل البندقية...

كلا، لم يحسد سينسوف هذا الثور الذي يشبه الخالاص. ولكن سم

ويبدو بطاقة الحزب في جيب سينسوف، وعدم تمكنه الآن من الذهاب إلى اللجنة الحزمية المحلية الواقعة على بعد ثلاثة شوارع من هنا والتي انضم إلى الحزب في حينه عن طريقتها، وعجزه عن القول هناك: وأنا، الشيوعي سينسوف، جئت للدفاع عن موسكو، لسببى بندقية وغيرى إلى أين أذهب! - ذلك ما يفرق هؤلاء.

قال يفكر بذلك سببى تبادرت إلى ذهنه فجأة، وعلى حين غرة، كما تخطت أهم القرارات في حياتنا، فكرة مشائلة، ولماذا لماذا لا استطع الذهاب إلى اللجنة المحلية لاقول هناك: وأنا، الشيوعي سينسوف، أريد أن أطلع عن موسكو؟ ألم أعد شيوعياً ذلك الثور الهارب بالشارحة ليحيى، وأنا لم أله شيوعياً ثم يصدقني البعض، وقد لا يصدقني الآن أوفياء، ولكنني لا أعرف نفسي بعيداً فلماذا أفكر بالذهاب إلى اللجنة الخاصة وإلى هيئة تحرير وإتي مغربية التجديد وأخشى الذهاب إلى لجنتي المحلية التي انتسبت إلى الحزب عن طريقتها؟ من الذي يمكنه أن ينعني من ذلك؟ ومن يحق له أن ينعني؟

فنهض، فخرج من شدة الغضب. ذهب إلى المطبخ ويبحث طويلاً في الخزانة على الرفوف حتى عثر، لحسن الحظ، على قطعة خبز جافة كالقشماط. اقرب من الخسلة وضع الحشوة ليحرقها، فضاء الماء. انكأ على الجدار وراح يبارر الخبز تحت الحشوة ويلتهم الخسرة التواضع البليلة الواحدة تلو الأخرى بنهم شديد وهي تتراقب من بين أصابعه.

وبينما كان يلتهم الشريحة الأخيرة حدثت المدافع الضخمة للجو من وراء جدران المنزل، وانساب على النافذة غير المعصية غيوم من الانفجارات الكثيفة، واهتز المنزل لانفجار قنبلة.

انقل الحشوة وراح يشمع إلى إطلاق المدافع الجوية ويتكرر نفس الشيء القطيع الذي تبادر إلى ذهنه عدة مرات هذا اليوم وتضاملت مصيبتها الشخصية أمامه: هل يعقل أننا نستسلم موسكو؟!

- سأذهب الآن! - قال لنفسه حامساً بعد أن تذكر اللجنة المحلية، ولكنه عندما ترحل عن الجدار أدرك بأنه إن استطاع الوصول إلى اللجنة الآن فهو بصاحبة إلى الرقاد قليلاً. يجب أن يرقه قليلاً ثم يذهب. وصل إلى غرفة النوم مستنداً يده إلى الجدار، وتشتت يستند السرير التيكلي البارد وهوى سيطر على المشية الخالية.

- سأرقه قليلاً وسأذهب - فهمس يناد - سأرقه أربع ساعات ثم أذهب...

عندما حاولت ماشا إقناعه يدل وضعية قوه دون أن يستعطف والد يصوت
 أيج وريب في البداية ثم على قعر متألم حتى كاد قلب ماشا يتفطر له.
 وصارت مستعدة للبقاء هكذا، محتبة عليه ساعة أخرى دون أن تحاول إيقظه.
 ولكنه استيقظ بنفسه. فمن أعماق رعيه الشجب أيقظ شيء. حال بينه وبين
 النوم. فتململ قبل أن يستيقظ نهائيا وفتح يديه والتي بهما متاثلا على كتفي
 ماشا من كلا الجانبين وضغطهما، ثم فتح عينيه فجأة وكأنه تلقى ضربة ولم
 يكن في عينيه لا نفاث ولا اندعاش. كانا قمعينين بالسعادة وسعدا
 بسعادة لا حدود لهما، سعادة لم تر مثلها ماشا قبل ذلك أبدا طوال حياتها ولم
 يقدر لهما. أن ترى مثلها في أية عينين.

ولم اوهما سينتوف طول قرن من الزمان على أن يتبع السعادة التي
 يريدان لما استطاع أن يتبع أي شيء غير هذا الوجه الحبيب البطل باليد
 المنيرة عليه والمتعلق بوجهه في وضعية ليست ملائمة تماما. لقد انصرفت
 إلى آلاف الأميال فظافة الأيام العديدة المنصورة وانقلع ما فيها هذا اليوم
 ومن جديد لم يعد سينتوف بنفسه شيئا.

اسك بكفني ماشا ورفق وجهها بأعلى من وجهه وأيقظهم. لم فكر
 الإبتسامة حزينة ولا ثبث على الشفقة، كانت الإبتسامة عادية جدا، أنها إبتسامة
 المتادة. سمعت ماشا في وجه زوجها التحيل الذي تغير إلى حد مرعب وتكررت
 بأن منظره الذي أثار حلمها في اللحظة الأولى ليس فيه ما يسى. أبدا.

ويكلم ما يتصل به فؤادها الجور من صفاء وصراحة بعيدة عن المجازفة
 وأحد تفسر لنفسها بامتصاص كل ما حدث. أنه قائد فضيلة للانفصالية
 استدعى بالظاهرة التي. موسكو. ولم تكلف. ماشا نفسها بالتفكير في قصوره
 هذا. لماذا يقود الانصراف ولماذا يستدعيه هو بالذات وعلى الأخص
 فقد قالوا لهم في المدينة يوم أمس أن طائرة قتلت من البومرة الألمانية
 إلى موسكو قبل أيام. عددا من قادة القضايل الذين أخفوه من المطار مشكوك
 دون أن يتيروا ملابسهم، لكي يقدموا تقاريرهم في الحال.

كانت أملاكها خلال هذه الشهور تصور لها سينتوف في مختلف الوجه
 ومختلف الأماكن. وما أكثر ذلك الرتب والأماكن التي تخلفه فيها! ولكنه
 الآن، منذ اللحظة الأولى، بعد أن وجدت هذا التغيير، وليس غيره. انهزم
 زوجها، لم تعد قادرة التفكير بالمعاملات أخرى.
 انفتحت سينتوف ودفن في ليلها واستد ظهره في الجدار، فاستحرك ببطء
 وهذا. وانفتح الشحوب على وجهه.

لماذا حدث لاسك؟ هل أنت جريح؟

استمد لتوقع الآلم بقلع القيمة بكلماته. إلا أن الشاش هذه المرة
 لا يلتصق بالقيمة، فلم يشعر بالآلم، ولذا صلت ماشا التي صدقت في عينيه
 بشرة بكلامه عندما قال أنه أسيد بهتلى طريف

هل تريد أن أبعده الضاد؟

أقال. بأنه لا داعي لذلك. فقبل ثلاثة أيام ضمهوه حسب الأصول ومن
 الأفضل عدم الأساس بالفضاد.

لما هي أخبار ماشا ونيكيا؟ - سألت سينتوف وقرأ الجواب على وجهها
 قبل أن تتكلم.

لم يسأل أكثر من ذلك، فما الذي للاستة؟ ظل ممسكا بيدها عدة
 دقائق فلما أصبكت بهما آنذاك، عبر سباح محطة يانوروسكيه أثناء إقترافهما...
 غدت ماشا أكثر خجافة، وقد حلت شهرة بتفسر بها كائن، وخيل
 له وهو يرامه في بيئها العسكرية بياقة فمصاعها العريضة بنفس الشيء، والش
 لا تناسب رزقيتها. أنها تحولت فجأة من امرأة التي فتاة، ليس إلى هيئتها
 قبل الزواج. بل إلى تلك الفتاة التي ودعها سينتوف في وقت ما إلى الشرق
 الأنص قبل أن تست سنوات.

وقال أخيرا:

تقررت مع ذلك الالتحاق بالخدمة العسكرية؟

نعم.

كنت أقصود ذلك. ولا اعتقد بأنى سأقنعك بذلك هنا.

ذلك يعني أن البارئ رتب لنا هذا اللقاء. قالت ماشا لاهة، أعطوني
 اجازة اليوم فقط. ولم أكن هنا منذ شهر. وقد التقينا، أنت بالذات وأنا
 بالذات، في يوم واحد...

يعني أنه كانت هناك ضرورة قصوى لدرى بقينا بعضي. قال سينتوف
 وعلقت على زجهه المرحق تلك الإبتسامة البلية التي نمرها ماشا جيذا، ابتسامة
 التي أكبر منها. عمرا. وأكثر اطلاع. لا تستغربي. الانفصل أن تبهتني
 لماذا جئت ولماذا لم تأت إلى هنا شهرا كاملا، وما هي طبيعة خدمتك وأين؟
 أهدت ماشا بحازلة شبيهة للاعتراف. فكل ما حدث لها ليس مهما بأية
 حق. لكنه اعتد دائما بهو من الرعب وألقها برزق وبلى. من التسلط.
 سأحدثك عن كل شيء. ولكن تلك القصة طويلة. الأفضل أن
 نأكل في الغنجر ابن تلميذ؟ وهل كنت في الجبهة؟

تأملت ماشا الى وجهه الجميل الصب والى الغضن العظيمة التي لم
يشهدنا سابقا على جانبي شفتيه المشدقتين، وانطرت الى عينييه اللتين انطورتا
على شيء ما. ام تستطع ان تشاهده، ولكنه لم يكن موجودا في السابق -
واذ كنت يافنة يتعين عليهما إما ان تقول له كل شيء، او لا تقول له شيئا على
الاملاقي. لقد حصلت بالكلمات لانها ترفة بان الهم هو ان تساعده في
الانكسار والرقاد بأسرع ما يمكن. فحشته بياضاً عن نفسها وقد عرفت دفعة
واحدة كل التوجهات التي تلقاها في المدرسة بشأن الالتزام بالصمت في او
مكان وايه توجيهات واسم اي انسان... وإذا اردت الحقيقة فهي لم تفكر
بذلك الآن. فالتوجهات التي وجدت نفسها فيها والشخص الذي تحدثت له
عن ذلك كله ليس مما تخص عليه التوجهات مهما كانت.

استمع سينسوف اليها وهو مسك بيديها كالسابق، ويشعر بين القينة
والقينة كيف ترتعشان في راحتيه عندما تريد ماشا ان تقوم بياضاً او لتأمر
ما بيديها في سياق الحديث. حدثه عن كل شيء ما عدا نقطتين: الآدمي
في انهم يريدونها في البؤرة في الأيام القريبة القادمة، والثانية هي ان
الشاحنة ستنتقلها عند ركن شارع بيروفوكا في تمام الساعة صباحاً.

استمع اليها دون ان تغير تعابير وجهه الا ان شعوبه اراد ان يطر
أو استمع الى ذلك كله قبل ثلاثة اشهر، فاعيك عما قيل بداية الحرب.
لربما احسن بقاءها ما ينظر ماشا وقال لها ذلك صراحة. ولكنه الآن، بعد
كل ما عانته، لم يتصور بان له الحق في ان يقول لها ولا كلمة واحداً
من هذا القول رغم القلق الشديد الذي ملأ فؤاده عليها. لقد رأى أثناء الحصار
لنوع فنان ما لا يقل عما تروى، مثل فعله. فلماذا لا يبق لها ان تفتحه؟
هل يجوز ذلك لانه ينجيها ولا يجهنم؟

سافر على اعصابه وقال عندما صمتت ماشا وطلعت اليه بقلق شديد:
- لا بأس. ربما مصداقون هناك، وراء الجبهة، احداً من مدرك
فإنها؟

- هل تعتقد بان القوت لم يكن كافياً لتجهيز سكان فيانها؟
استند بانه لم يكن كافياً. قال سينسوف بصوت متهدج، فقد ان
هذا السؤال شعوبه. اعتقد بان القوت لم يكن كافياً لتجهيز سكانها. كثر
القول - وتجهيز سكان. من الغري - ثم قرب وجهه من وجهها وغير نيرة. سوك
فقال لها بصوت خافت هادئ: وكأنها يخاطب طفلة صغيرة: - يبدو لي انك لا
تتصورين ذلك بالشكل الكامل حتى الآن.

- هل انت صبي جد؟ - سأله ماشا.
الحق سينسوف عينييه وقصتهما من جديد.
- هل كان الامر صعباً جد؟
هو سينسوف رأسه بياضاً شديدة، فقد ألم به القرار فتناول ان يمسك
نفسه.

- متى وصلت بك الطائرة الى موسكو؟ اليوم؟ - سأله ماشا بصوت
خافت وتميل اليها الى راح يتذكر شيئا عندما انقلب عينييه.
ولأنها سألت بخفت، ولأنه كان يصارع الدوار في هذه اللحظة، فقد
ذله صياح الكلمة التي يمكن ان تدهشه: «المطار» ومع الكلمة الاخيرة
فقط «اليوم» فهم رأسه بالاجاب بياضاً شديدة. وقالت ماشا:
- سأساعدك في خلع ملابسك والاختزال والنوم.

قالت ذلك واربعيت من كلمة والاختزال التي قد توسع له بانه لا
يحبها بالقلادة التي هو عليها الآن، فالتفتك بشئ يده الطفلة التي تنشر
شيها الخوش والكدمات وانهاالت عليها بقبلات حري. ثم وقعت بصورها اليه وقالت:
- سنقتل، حسناً؟

وما الذي يورثه ان يتوكل؟

- طبعاً طبعاً! - فما الذي يورثه اكثر من ان تساعده هناك ليلتان
الصيرتان الريشان القويتان اللتان كان يتكركها كثيراً في خلع ملابسها واختزاله
واستلجانه على الممرير؟

- حالاً وأينك وضعت الماء فوراً على الفياخ ليشخن.

- رصته فوراً؟ ما اكثر حشمتك! - قال سينسوف باسم.

- لست حكيمة. اردت فقط ان اساعدك. يبدو لي انك شعفت كثيراً.
- نعم، شعفت بعض الشيء. - أمسك سينسوف بيده الصغيرة النظيفة في
راسته القذرة، وشرر للحظة برنية عارمة في السنط عليها لحد الألم.
- نسيت ان أسألك، ألا تريد ان تأكل شيئاً؟

- كلا، لا اريد الآن. اجاب، ودهش لانه احس فعلاً بانه لا يريد
ضاماً الآن. - انزعي الى المطبخ، وسأطبخ ملابسك هنا وأتي. - ثم رأى عبر
الجانب محط ماشا المسكوي ملقياً على الطاولة واشادف: - اعتنيت هذا المحط
لاقيه على كسفي.

انتظر حتى انصرفت له المحط، وانصرفت، فشمها بنفثه، ثم انزل
رجليه الى الارضية واحداً يطلع جزمته.

ثم وقف في المطبخ في العلقت الهمغنى بينما راحت ماشا تمسكه كذا
تفعل الام اطفالها، وكما تفعل المجازي من خدم المستشفيات المرضى والجرحى.
عندما بدأت ماشا تمسكه لاحظت في الحالك سزين شعورين على جنبه.
— هل جرحته؟ — سألته بصوت غاقت فبرز رأسه صامتا ويؤكد بأنه جرح.
— اعطيني، رجاء، قدما من الماء. — قال سينتشف يد ان طرفة
ماشا من اجله كالمرضى واستندت بكتفها وأوصلته الى السرير واجلسته عليه.
ولما ذهبت ماشا لاحضار قدح الماء وقف سينتشف على شرف نظيف
بعلبات غير مكشوة والصحن بشرط آخر وعليه البطانية، ورفق البطانية مصف
ماشا. لمس باصابعه القميص الثقيل الخفيف الذي ارتداه بعد الاستخدام.
ثم تشمده ففاح منه عطر الفلوروليا الذي يعرفه جيدا. فالقميص بقي عدة شهور
مع حاجيات ماشا. وكان قميص آخر، مثله، قد وضع على الويادة بدلا من
الشروش.

احضرت له ماشا الماء فخرّب، وفي تلك الاثناء اغلقت ماشا الباب
ورفعت ستارة الحمامة، ثم اخذت منه القدح وضلعت ملايها على عجل ووقدت
قربه وحسّت أذبال المصطف تحت جنبها الذي استشر بردا.

— لماذا لا تنام؟ اذك متعب جدا على ما اعتقد.

— متعب، ولكنني لا استطيع ان انام.

— لماذا جالست؟

— الكلام اسهل بهذه الوسعية. يجب على، اريد ان احدثك...
— فيما بعد. الأفضل ان ترق. فالت متعب. انني اخاف عليك.
فالت متعب جدا. ربما ترعبك الاشياء الكثيفة وتمنعك من النوم. سأفهم
وانزل الستارة...

— لا يزعجني شيء.

— اذن غط ككتيك. احسب المصطف. والا فستصاب بالبرد.

انت حصر على الجلولوس؟

— نعم... ربما لا تعزبن مدى اهمية التقاني بك اليوم...

— لماذا؟

— كلا، لا تعزبن. ولن تعزبن في لم احدثك عن كل ما حدث لي.
وبه ان احدثك ستمزقن، بل انك لا تتصورين مدى شكوى العميق لك
الآن.

— شكرك؟ على ماذا؟

— على حيك لي.

— مضافة! هل يجوز الشكر على الحب؟

— اجل، يجوز.

احسّت بأنه مضط لشيء آخر بالإضافة الى ثقتهما. ولكنها ثم تمكن
من فهم ما حث. لقد كانت في ذاتها تغمغ بشعور الاثنا له لانه حارب
وجرح وظل على قيد الحياة، ولانه موجود هنا، معها، من جديد... ولكنها
لم تفهم حقا سبب شكره لها. ان السيد ان يكون ذلك بسبب تفكيرها
بديه وشكها بريجه او حبا له كالتساق بل واكثر... فذلك شيء طبيعي
على أية حال. وهل يمكن للامور ان تكون على نحو آخر؟
اما هو فقد احس فعلا بشعور من الابتسان العميق لها على قوة حبا ولانه،
بعد ان تلمس هذه القوة من جديد، صار قادرا على ان يحدثها عن كل ما
يذهب ورده لدرجة تكاد تقربها من الموت.

تهدد وايتم في الظلمة وكأنه يودع بهذه الابتسان كل ما حدث بينهما في هذه
الليلة من طيبة ورقة وحسن. اما هي فلم تر هذه الابتسان، ولكنها شعرت بها فساقت:
— هل تبسم؟ لمن تبسم؟
— لك.

وفي الحال غدا جادا وقال بان ثقها ومساعدتها في هذه اللحظة الحرجة
بالنسبة له هما امر شيء في الوجود عند.

— لماذا تقول اللفظة العرجية؟

— اللفظة العرجية — كرر، ثم سألتها فجأة: — ما الذي فكرت به عندما
أتيت لأول مرة بهذه الفمصلة والشرة الفريتين؟ ربما فكرت بالفى عائد من
الانقراض، أليس كذلك؟

— بلى.

— كلا، الامر اوصا بكثيره اوصا بكثيره بكثير.

ارتجفت وتوترت اعصابها. وذكر هو بأنها تستأله الآن عن معنى ذلك.
لكنها لم تتأله. واكتفت بان نهفت قليلا ثم جلست.

عندما كان هو يتكلم اختابها قشعريرة داخلية، بينما هو على العكس،
كان طوال الوقت تقريبا يتكلم بيسوت متوازن وألمح كان يمكن ان يبدو لها
كأن لو ان معرفتها بزوجها اقل مما هي عليه.

ولم صعوبة الكلام، فقد تكلم عن ذلك كله بالتسلسل، من البداية،
ولا لما كان يومها ان تفهمه.

حدثنا عن الليلة التي قصفوا في ضواحي يوريسوف، وعن الجندي الذي جنى وعن طريق يوبرويسك وقتل كوزبريت وعن مارك مويليف وعن الحصار الذي دام شهرين ونصف الشهر. تحدث عن كل ما شاهدته وعاناه: عن سموم القتاتلين غير الهيايين وعن الاستغراب الشديد من قفاعة. وسئف ما يجري، وعن الامثلة الغريبة التي تسطر بالبال: لماذا حدث ذلك؟ وعن المأساة عنه؟

تحدث لها عن كل شيء دون ان يرفف بها، مثلما لم ترفأ الحرب به شخصيا. صب عليها غلال ماتين الساعتين أو الثلاث كل الدواة التي جمعت في دخليته وكل فكل المصاب التي انتهالت عليه طوال اربعة اشهر. صب عليها ذلك كله دفعة واحدة دون ان يما بعدم التناسب بين قوة كلامه وبين مدى جهلها بواقع الامور، ذلك الجهل الكبير جدا رغم اطلاعيها على الحرب من البلاغات والبرائد ورغم امتلاكها لبصيرة وسمع وتفكير سليم يؤكد لها ان كل ما يجري ربما هو اكثر قفاعة مما يتصورون ويكتبون عنه. ولكن ذلك كله شيء، وما قاله سينتسوف شيء آخر تماما. فما قاله افزع واشنع بما لا يقاس. جلست ماشا على السرير لكي تكبت التشنج وقد احطكت اسنانها على طرف الوادة الملقوفة بقميص زوجها بدلا من التشرشع.

لو كان يومه ن يراها لرأى وجهها شاحبا للآفة وقد اشبكت يديها وضغطتها على صدرها وكأنها تريد سامة بان يتوقف ويرجعها ويعملها فرصة لتتسلط انفسها. ولكنه لم ير وجهها. فقد راح يحرق في الجدار وقد تنبث بطرف السرير باحدى يديه ويشق الهواء امامه دون رحمة يده الاخرى المتكورة ويلفك كل ما تكلمس في فؤاده وما لا يستطيع قوله لاحد غيرها. وعندما تحدث عن المعركة الاخيرة في ضواحي يلينا وعن السعادة التي اكتنفته في ليلة اختراق الحصار، في هذه اللحظة فقط ثلثى وجهها البتور المتشعب فتألمت بصوت خافت وتلك هي الحقيقة الاولى التي غف اللسان فيها على فؤاده.

- ماذا يدك؟ سأله.

- لا شيء، تكلمت. قالت له بعد ان سيطرت على انفسها وثلثت ياتها لن تسمح بعد ذلك شيئا فشيئا.

الا ان افزع شيء كان لا يزال ينتظرها. لم يلاحق سينتسوف انها على شفا الغور اللسان فلم يرجعها، بل تكلم عن هذا الشيء الاكثر قفاعة: عن الدبابات التي داهمتهم على طريق يوتسوف وعن الحصار الجديد والامر والهرب.

وقال انه يخلص امامها الآن على حقيقة: بكل ما عاناه وتحمله وقام به، وما لم يستطع ان يقوم به. واذا كان يتعين عليه، بعد ذلك كله، ان يتحمل مسؤولية مصيره المنحصر فانه مستعد لتحمل تلك المسؤولية مرقوع الرأس جيشا كان وامام اي كان، وعصوبا بعد ان رأها هي ماشا!

وبدأة رفع صوته وقال بتشنج في المنجرة:

- ما شأنك المصير هنا؟ التي ابقى على مصيري! ما قيمة مصيري. اذا كان الذي يجري الآن لا افزع منه ولا اشنع. قهوما كان المصير يجب على ان كذب للفتل من اجل موكو. هذا كل ما في الامر! من الذي قال بانه لا يحق لي ذلك؟ كلا، لي كل الحق فيه! ثم هناك سؤال آخر. - نهج صوته نهائيا، فارت عاشا لأول مرة انه فقد السيطرة على نفسه. لهذا لم يصدقني ذلك الملازم الاول عندما جلته وسدته بكل شيء على حقيقة؟ لماذا لم يصدقني وهو الذي وصل ثورا من مسؤولية الجندي فلم ير شيئا ولم يقتل ولا الساليا واحدا! ذلك لانه لم يكن يريد تصديقني! لقد رأيت يفتني انه لا يريد تصديقني! فلماذا؟ لماذا لا يصدقوني؟ - لا تفعل!

- لا استطاع! - صاح وسحب يده عندما ارادت هي ان تلمسها. ولكنها سامته على هذه الحشوة. وكيف لا تلمسه في مثل هذه اللحظة! ركزت عليه الاول:

- لا تفعل.

عندما اهان سينتسوف وصرخ الآن عاد اليها الهدوء فجأة، وغاصت في اسنانها اسناتها التي كانت جاهرة وصراعها الذي يكاد ينفجر: كيف؟ لماذا؟.. لا تفعل! قاله للمرة الثالثة وقد سمعت بانها الآن في هذه اللحظة اقوى منه رغم تجربته الغريبة في الحرب، وان عليها ان تساعده - لماذا تقول ذلك يا حبيبي؟ لا تتكلم هكذا، لا داعي لذلك!.. صارت تنسجه بدلا من ان تجادله.

ورويت وقتها قسارته، تراخي وابسة عن الجدار وغرر وجهه في الوادة ونز على هذا النحو رائدا بلا حراك فترة طويلة.

لمست ماشا كتفه. فقال سينتسوف بصوت مكتوم عبر الوادة:

- تهيلي، لا تلمسيني! سأعود الي رشي في الحال.

ظلت انه يبكي، ولكنه لم يكن يبكي.

- لماذا تقول بانهم لا يصدقونك؟.. - سأله ماشا بدلا من ان

تد عليه مباشرة. فان كلماته يتعوسون عدم تصديق الآخرين له قد هزها
اكثر من اى شيء آخر- كيف لا يصدقونك؟ وانما...
- اعترفتي ب... استدار ورقه على ظهره وانس به ماشا بحركة هادئة.
- اتنى لا اقصد...

- اعترفتي مع ذلك!

لاذ بالست. وصمتت ماشا ايضا.

غلب اليه انها تفكر فيها ينهني نغمة الآن. ولكنها كانت تفكر في
شيء آخر.

كانت تفكر بكل ما ساءه وتساءل نفسها: على تستطيع ان
تجعل ذلك كله- لو كانت في مكان؟ ربما ان تستطيع ان تجعله...
تفكرت كل اياتي السهاد التي كانت تثقل فيها وتفكر بما يمكن ان يحدث
له هناك في الجبهة. وكم مرة شيل اليها انه وقع في الاسر؟ تارة تصبر
بالها يطلقون النار عليه، وتارة تصوره جريح وهو يتلوع في الهذيان ويناديها.
وماشا! ماشا! وتصدت اسنانه مرققة على حافة القنص المعدني. وما
تري ان كل ما كانت تفكر فيه حقيقة: انظر! النار عليه، اماليه يجرع،
اسرود، طلب ماء وصاح: وماشا! وماشا! وكاذ ويختنق من العطش، ولا
احد يفضله جراحه.

- لماذا انت صامتة؟ ما الذي يمتنع على فمك في رأيك؟ (نمالة)

سينستوف.

اقتربت منه. ووضعت رأسه المضمدة على ركبتيها وقالت:

- لا ادري. فريما- تعرف- انت افضل مني.

كانت بالفضل لا تعرف بيم تعيب. ولكنها تعرف الامر الرئيسي: وهو
انه يجب ان يشعر بدى: جيها له. وهذا هو الجواب الاكابر ضرورة له.
بعد ان احس بقوة دعمه الروحي له قل يايجاز وبساطة انه قرر نهائيا
تقريبية قل حينها ان يقبض في صباح الله الى اللجنة الحزبية المحلية التي
انتسب الى الحزب من طريقها في سببه سيذهب ويصدقهم بكل شيء.
وليقرروا هم ما يريدونه مناسيا. وهو الآن لا يخشى الا شيئا واحدا، هو ألا
تحدث ساقا ما في اللجنة الاخيرة ولا تمنعونه في الطريق دورية ما.
- سأذهب منك- قالت ماشا في الحال قبل ان تتركها بانها. لن نستطيع
القيام بذلك: ففي الليل منع التجول، وفي تمام الساعة صباحا تأتي السيارات
المحبة لتأخذها!

- يعني انك ستأخذيني بيدك وسأبش كقطر صغير- انبسم في الظلمة -
حسا، ستأخذني ذلك فيها بعد.

وقفا من جديد كما كان عليه في السابق- كبيرا قويا ماددا.

- سميت قريبا احد الامور- يبدو انه انبسم من جديد- هل لديك ما
يؤكل؟- فانا. جائع كالذئب.

- ثم لم تقل قبل الآن؟ فقد سألتك!

- ثم اكن راغية اذذاك. فقد عثرت هنا قبل حينك على قطعة خبز
من عهد ما قبل الحرب. وبلائها. بداء المضطحة.

- سيكن في معطفي قليل من البسكويت وعالية ولكن لا ادري من
اي نوع من المعليات...

- ما الفرق؟- نمحك سينستوف- حتى ولو كانت الاسبرط الممنوع.
سأبش كل ما بقدها خمسة اقراص من الماء لا غير.

- اترد انت، وسأذهب لاحضرها- قالت له ماشا وقد غفقت قديما
حائشين على الارضية.

- كيف لوقد؟- قال سينستوف وغفقت قديما. ايضا.

نمسا، فالتفت في المعطف على كفها، بينما التفت هو بالبطانية وتوجهها
الى المطبخ وجلسا عند المائدة. اخبرتها ماشا صورة البسكويت الذي بدأ
يلتفت. بينما اخرج سينستوف بصموبة من الجيب الثاني لمعطفها علبة كبيرة.

وقال ضاحكا:

- كنت اذكر طوال الوقت: ما هذا الشيء الثقيل الذي يقبض على قدمي؟
- تسبها تماما.

فتح سينستوف العلبة يسكن المطبخ. جلسا قباله بعضهم البعض
واكلا اللحم المعذب. وهنا يلات قطع البسكويت في صلصة العلب. ثم اغتسى

سينستوف بقية الصلصة وتطلع الى ماشا باسما.

- اعتقد ان مظهرنا الآن يشير الضحك ونفس جالسا في المطبخ الواحد
تقبل الآخر باقلام حافية...

تأثت. ثم- انبسم مستورا.

- هل تملين؟- خالسا اكلت اماليه الناس كتكاتب جائع... شيء معجل.

- لا داعي للجل.

ولكن لا يشتر بالجل. فلما قالت كاذبة على عجل مانيها هي ايضا راغية
ان النوم.

عادا الى المعرفة وبقا كما تعودا في الماضي عنهما كالأب يبينان النوم معا. اضطلعوا على ظهره باسطة يده اليمنى ووقفت هي على جنبها شاسعة خدعا على هذه اليد الكبيرة القوية التي تماثلها يرفق. ولكنه حالما رقا دون في السهاء وراء النافذة ملاقات الدافع الجوية المتزايدة الواحدة تلو الاخرى. - ان نفقوا الآن - قالت ماشا بنحية امل وهي تقفده هو لا تفهما. فهي ليست راضية في النوم.

- كم لا ؟ - قالت سيستوف ناعسا - ستقفو في الحال ...
وبعد دقيقة استحت ماشا بانها غطت فعلا في نوم متعب عميق. كان في الثبات ايضا يغفو بهذه السرعة. ولكنه كان يفتنفس أثناء النوم على نحو آخر - يرفق وتوازن.

لم تسم ماشا طوال الوقت الذي دوت فيه صفارات الانذار الجوية والاول ساعة او ساعتين بعده. وقفت شاسعة خدعا على يد زوجها الكبيرة الدافئة. وهي تفكر بما حدثها به.

يصعب القول بانها لم تكن تعرف ذلك كله في السابق. كانت تعرف وتسمع الكثير منه بصورة متقطعة من مصادر ثانوية. ولكن يبدو ان من اللازم لها ان تسمع ذلك كله دفعة واحدة ومن مصدر الاول - من هذا الرنين الرنان زوجها. لكن تتحسس شخصها القليل الذي افعال ليس فقط على كنفه وتكشفها بل وعلى اكتاف جميع الناس. بالطلع جميع الناس. وذلك بالذات هو المثلح شيء!

- ما افصح التسمية! - قالت بصوت مسدود ولم تكن تسمى نفسها له نعيه هو. كانت تقصد الوضع بجملة. تقصد العرب.

فكرت باسطة يديها وبالذخائر الاخيرة فلاتت نفسها بشدة لاخيرا. الحسنة بالشمع من جديد بعد ففتيش الهويات - في المقر اليوم وصارت بها السيارة في مسكو على هذا النحو دون ان تتطلع الى ما يجري حولها ... وكأنني امرأة لا يعنيا شيء من ذلك! ..

عرفت من حديث زوجها ان عددا كبيرا من الناس قد قتلوا على رؤى من خلال هذه الشهور الاربعة. لم يكونوا يذكرون بانقاذ انفسهم بل كان مهمهم الوحيد هو وقف زحف الالبان. ومع ذلك استل الالبان فيازما واقتربوا من موسكو. ولكن يمكن وقفهم يجب ان نهد الآن جهود اكثر من التي بذلنا اولئك الذين يستندوا ولم يستبقوا. من وقف الزحف الالبان! وتلبوا في ايضه ان تفعل ذلك في العمل الذي متابعه! فكرت بتفاني شديد كيف

دعنا حديث زوجها الى هذا الحدة في حين يتحين عليها ان ترى ذلك كله بام الكين. بل وربما ترى اسوأ منه ولا ترتفع ولا ترتجف!
تذكرت بانها لم تجمع سائباتها بعد. وان من اللازم القيام بذلك طالما هو لا يزال قائما كيلا تسرق منه ولا دقيقة واحدة.
رقت رأسها قليلا من على يده. فحس هو يده المتحددة ويسطها من جديد دون ان يستيقظ.

نهضت واقتربت من النافذة. راسدت الشارة وفتحت الباب قليلا على الغبير دون ان تجد التصميم اللازم على القيام بشيء آخر. فبادت من جديد الى السرير. وجلست على المعطف الذي انزلق لطفه على الارضية وراحت تنطع في وجه زوجها النائم.

جيبته ندى ويدها ممدودتان يفرخ فوق اللطافة. وعلى وجهه عظام عيشان غريبان من التجاعيد. يتحدان من جانبي الشفتين الى الفم دون ان يفترقا حتى في المنام. وكأنهما يثيران الى شيء دخل عزو والى الابد حياء هذا الانسان الطيب القلب. دخل ولم يعد قادرا على الخروج.

وتفكرت ماشا الحقد القاسي الذي تحدث به عن الالمان فجعل يدها يشره. ثم فكرت بهذه الليلة التي لم تنته بعد وتهدت يدهو. غذا لو بعد في يمين عليها الوصول بالطائرة الى مؤخرة الالمان. ولكنها لم تخبره بذلك بلم تطلب منه ان يلتزم بالهدوء ويصونها. كانت قد فكرت في ذلك لحظة. ثم قمته من فرط السعادة. ولكن ماذا لو كانت ستجلب قباحة؟ فما الذي سيحدث لها هناك أثناء ممارسة النشاط السري في مؤخرة الالمان؟ بنى عليها اليوم ان تترك التحليل وتمثل مغرور المدرسة عما يتوجب عليها فعله اذا حدث ذلك.

واجل، اليوم. وبعد وقت قصير جدا - فكرت وتطلعت الى ساعتها. كانت الساعة السادسة. وحان موعد جمع الحجابيات.

فتحت ماشا اللولاب. فاختت في التبدية من الركن الابد ما اعتبرته مسبا من اكثر الحجابيات ملازمة - البستان الصوفي العشن التقديم المرشوش بالنشائين والذي كانت قد جلبته معها من الشرق الاقصى. ثم بحثت على الزوف الاخرى واخذت متدبيل رأس اكله المثل قليلا وبعضا من البية امها التي يتعين تنسيقها وتقصيرها.

لقد ذلك كله في شرف مائدة عتيق ووضعت الصرة على المائدة وانضلت دون استعجال بحضرة الطبخ وتشتغل بنفشه مسكية حتى احسرت بشرفها وضعت بالدف

ثم ارتدت برزها بدون استئذان ايضا، وشعلت شعرها بصورة عشوائية
يلا مرآة وتطلعت الى الساعة ثم جلست على السرير.

- ايها ان! - غرقت انقها في الوادة قرب رأس زوجها ودفعت عند
مخدها يرقق - ايها ان!

غلب اليها انه ان يستيقظ بسرعة، ولكنه استيقظ وجلس في الحال.
- آه، هذه انت؟! - تغلغل اليها بابتسامة الطيبة.

ثم رأى انها ارتدت ملايها فساءل - روتيا:
- انت ذاهبة؟ الى اين انت ذاهبة؟

اوضحت له ان السيارة ستأتي بعد نصف ساعة، في السيارة.
ومستظفرا في ركن الزقاق، ولا يجوز لها ان تفلت هذه السيارة، لان هذا
اجازتها حتى الساعة الثامنة صباحا.

- لا بد مما ليس منه بد... ربما سيكون ذلك افضل - متذممين
انت، ويأمل حتى يصلح الفجر كليا ومأنهيب، كما اختبرته الفارحة. ياروتيا.

ملايى. - انرجي للحظة، فأنا اشعر ببعض الخجل منك.
- سأؤيد نظري - اقتربت من النافذة وازاحت الستارة قليلا وتطلعت الى

الخارج. الظلام لا يزال مخميا على الشارع - انت غريب الاطوار. سارجه
ثم شعر بالخجل فنادا حدث لك اليوم؟

- تلك هي طبيعتي - قال وهو يبتدى ملايى.
ذهب الى المطبخ وجرنته تغلغل على الارضيه، بينما غابت ماشا واقفا

قرب النافذة تسمع اليه وهو يقتل تحت الحنفية.
عاد الى الغرفة وعلق على ضلع السرير المنشفة الجذلة وقال:

- اعطيني غتواك مع ذلك. وسأكتب اليك عن النتيجة مهما كانت
هل سيصدفونى ام لا؟ هل سيحبونى الى الجبهة ام لا؟ وهذا هو الاسوأ.

بذل جهدا في تلفظ هذه الكلمات قفل سوتره حادلا.
تجبرت ماشا. فيم تسيده؟ هل تقول له بانها مسافرة فدا او بد فدا:

لم تكن راغبة في انه تقول له ذلك. هل تسمع من الجواب؟ لم تكن قدردا
على ذلك.

- كم متيبن هنالك، في المصرة؟ - انرى نظرة منحوة على نصبة
الموضوعة على الحائلة - ما هذا؟

- جمعت حاجياتي، اعطيت اجازة لهذا الغرض - لم ينسج الوقت احدا
كي تفكر بكذبة ما.

- ... مفهوم. يعني انك مسافرة قريب، أليس كذلك؟
مزت رأسها بالإيجاب.

- اعطيني العنوان مع ذلك. هل هو رقم صندوق بريد ام هو بريد ميداني؟
اقتلع قصاصة من جريدة صفراء كانت مسطرة على رف النافذة وسجل

رقم صندوق بريد ماشا بيقية من قلم رصاص كانت على الخوان، ووضع
قصاصة في جيب القصاصة وقال سارخا:

- هذه هي وثيقتي الوسيطة حتى اليوم.
ثم صمت قليلا، واضاف لكي يهتئ من دوع ماشا:

- روبا ماتمكن بواسطة اللجئة المعلقة من النور على مرييلين. لقد
جئت لك عند.

مزت ماشا رأسها.
- اذا كان على قيد الحياة واذا كان موجودا هنا بالطبع فيقول كلمة

طبيعي. فكل كلمة شمية الآن بالنسبة لي.
- لا اتصور بان احدا يمكن ان لا يصدقك.

- اما انا فأتصور - تطلع الى عينيها بنظرة مباشرة من عينيها اللتين
بدت غريبتين شالعتين، وغامضتين في وقت معا.

ثم سألتها عن اخيها لانه لم يعد راغبا في المزيد من الكلام عن
نفسه - كيف - حال - ياقل؟ الا يزال في تشيئا؟

- نعم، بحث لي رسالة مؤشرا.
- هل هو متأثر لانه لا يقاتل؟

- متأثر جدا... اسع ياايها ان - قالت ماشا وقد شعرت الآن من جديد
انه كبير وهي صغيرة - ماذا سيحدثا لوسكو؟

- لا ادري. ليس يوصى ان اعطي حكما. لا اريد ان اكتب. لا ادري.
ولكني لا اعتقد باننا سنخسر الحرب! واذا كنت تفكرين باحتلال ذلك فانك

من غدا. كل ما حدثك به هو الحقيقة بعينها. واذا قضى اقول اننا ان
نخسر الحرب! مطلقا!

قال ذلك بشدة بدا فيها شيء من القلق على ماشا: قول متكرر بسببه؟
- كلا. فان رأيي من رأيك - تطلعت ماشا الى عينيها مباشرة - اردت

فقط ان اتيك من شاعري.
ونجاة اكتمى وجهها ببسمة من الاغتراب والبهشة، لاحظها هو

في الحال:

—ماذا بك؟

—السيرة وصلت. اتنى اصبح صوبها.

ارتدت مظهرها على عجل وتلفت ثم بحثت عن الصباح اليدى على المائدة ووسه فى جيبيها بنشيج ويعد ذلك فقط، وهى فى المظف والقبية الشوية، خرجت الى ميت-وف والقت بنفسها على صدره وتجمدت صائبة ملوك دقيقة دون ان تقوى على التللف حتى بكلمة واحدة.

عافها وتجاوز فى تلك الدقيقة الشعور بالاضراب التام عن كل ما كانت له صلة به شخصيا، عن كل مصائبه الماضية والحرفية. ولم يبق فى فؤاده غير التوتب الاستماعى على ماشا لانها متخاف الى هناك، الى الاكسان، ولان ذلك سيتم فى القريب العاجل ولا توجد اية قوة تسمح له بمعرقه ما ستواجهه هناك، ولا بالقيام باى شيء اطلاقا لمساعدتها... —الا تريد ان ترافقنى الى السيارة؟— سأنته وهى تفصل عنه —انها واقفة وراء الركن.

—كلا. لا اريد للمعلمين معك ان يرونى. وعلى العموم لا داعى للتصارع مع اى كان ولا داعى للقول بانك التقت معى. قريبا بعد، عندما اعد الى العليزة البشرية، كما يقال، بوسك، ان تذكرى هذا اللقاء اذا شئت. اما الآن فلا داعى لذلك. عليكم يتطلب اشد الحذر. وقد يستوفك من الرحيل بسبب زوج من هذا النوع—قال بسخرية مرة وفكر للعلقة بشيء من التشقى: وحيدا لو متحركه.

—لا تتكلم على هذا النحو!

عافها بسرعة مرة اخرى وقبها واقفها، بل ودفعها نحو الباب دفعة خفيفة. التفتت ماشا صوبها من على المائدة وخرجت من الغرفة الى العليز دون ان تلتفت.

ولكنها عندما فتحت باب الشقة لحق بها وادارها نحوه من جديد وسأها: —قولى لى الى اين ستفلك الطائرة؟ اريد ان اتصور على الاقل اين ستكونين.

—الى منطقة سمولنسك.

—خفى حذرك. قال بسرعة وبصوت متهدج متشجع—كونى مخادعا كالشيطان، كالشيطان، كالبليس، ولكن لا تقضى اى ايديهم. اربحك، استعملك، هل انت سامع؟ استعملك! لا اريد شيئا، لا شيء، له قيمة، لا شيء... اريد ان تبقى حية فقط. هل انت قاهرة؟!

اخذ يهزها من كففيها كالمجنون ويكرر هذه الكلمات التى قد تبدو لكليها سخيفة فى وقت غير هذا الوقت.

ثم جدا فجاء واتسم وبد لها يده وانتظر حتى تقع عليها بدعا غصفت ليها يسمان وقوة ولكن دون ان يؤلمها.

—وداعا يا ماشا! يا حبيبتى... ماشا، ماشا...

غصفت يده واستدار وعاد راجعا الى الغرفة.

المفت الباب على عجل وركضت حاملة.

التفت ينظره من الباحة على قافلتها وهى راكبة. كانت تتأففة متفجرة على مصراعيها. وفى الفجر الزماني الذى انبجح نوا رأته وجه زوجها بلا دسوخ. لم يلوح لها بدد ولم يصرخ. نال والقفا قرب الشافة يشبهها ينظرته...

فى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم دخلت ماشا غرفة الرفاق لتسيرة امام مكتب مدير المدرسة. لم يكن الرفاق موجودا. انتظرت ماشا دقايق وتهدت وعدت من وضعية تمصتها وطوقت الباب.

—ادخل! —بليها صوت من الداخل.

دخلت. ماشا والمفت الباب وقالت ما تحدثت على قوله خلال ثلاثة ايام من الدراسة فى هذه المدرسة:

—ايها الرقيق المقيد، هل تسمح لى بالكلام؟

—مرحبا، يا اربيتيما—رفع الشخص الجالس وراء الطاولة رأسه عن اوراق المحروسة أمامه—ماذا تريدين؟

—مسألة شخصية، ايها الرقيق المقيد.

—راجعي المفروض.

—المفروض سافر الى موسكو، ايها الرقيق المقيد، وفوضت مستعجلة.

—اجلسى اذن. انتظري—وقاس السيد شيليف فى اوراقه من يديه.

—وبما عيبك من العمل ايها الرقيق المقيد؟—قالت ماشا.

—لو كنت تميشينى لقلت لك ذلك—اجاب شيليف دون ان يرفع رأسه عن الاوراق فجاءت ماشا على كرس قرب الجدار.

المعيد شيليف شخص جديد على المدرسة. فالمدبر السابق اختفى من المدرسة قبل اسبوع. وقيل انه استغل الطائرة بهمة خاصة. وفى اليوم التالى

حل محل شميليف. وصل من المستشفى بعد اصابته بجراح. وراح يهوى
اورقة المدونة على عكازين بسرعة ومهارة ليحرب الشئ على رحله الجرمية
وفي اليوم الثاني ادخل التلاميذ بذكريته المحيية في حفظ اسمة
الاشخاص وتذكر وجوههم. ومع ذلك فلم تنجب به ماشا على العموم. فهو
تعتقد بان انسان مرح جدا وسحب لقلالة. بل ولثاقل عموما بالنسبة للعمل الذي
يتدبرون عليه هنا. واثام. الكلام يتلثم احبانا بشكل يثير الضحك. ويهز
رأسه ويغتر بيديه. ماشا تعرف ان هذا التمز ليس على سبيل التذكير الملائم.
بل هو نتيجة لاصابة قديمة في الرأس. وراى ماشا وراى الزاوية الصواب
على فصيلة الغيبة. وفي طرف ياته الجرح في الجبهة خلال هذه الحرب.
ومع ذلك فلم تكن تميل الى مراجعته. ولو كان ما تريد الحديث عنه يتميز
تأجيلا الى الحد لا تنظرت من كل بد عودة القفوس الذي قادرا ما يتسم ويتكلم.
هو يعطى بشئ اكبر قديما.

جلست تنتظر وتتطلع الى شميليف. فهو الآن لا يتلثم ولا يهز ولا
يتكلم. جلس يكتب صامتا وقد ارتدى نظارات لم تكن ماشا قد رآته فيها.
ولاحظ غصلة كثيفة شيئا بين شعره الاجعد المبكور. وكان وجهه الزاه
معتري السلي. بالانوار تنبأ الآن ويهدهد شامخا.

شهد شميليف مرتين يصوت عال وريبا نسي ويهدهد ماشا وفعلت حاجبا
ومعج جبينه بقده وكأنه يلحد لذكرا ثقيلة وواصل الكتابة.
لم تثير ماشا احدا. بعد. بانها التقت بزوجها. وردا على سؤال قريبا للفتنة
التي كانت تشتظها قرب السيارة - ماذا حدث؟ - اجابت بانها قد ماتت سحر
الصباح.

لم تستد حالها الطبيعية الى النهاية حتى الآن. وقد سررت لان
المدير حيا لها هذه الفرصة لير المفسدة لانتقال الانقسام.
انجز شميليف كتابة الورقة واغلق القفوف ودق الجرس فاستدعي المراسل
وامره بان يوصل الرسالة الى نائب مدير المدرسة الييجر كاريوف. ويخبر بان
يرتحل حسب الامر الذي استلمه سابقا.

بسبب تدهور الوضع في ضواحي موسكو صدر الى الميجر كاريوف
امر بتسلم بيان احتياطي للمدرسة قرب إحدى محطات سكة حديد غوروكوشكايا
ولم تكن ماشا تعرف بذلك. ولكن شميليف بدأ منذ مساء امس بالاصوات
لنقل المدرسة وكان مزاجه متفكرا جدا.

- اقتريني يا ايرينيكا - قال المدير بعد خروج المراسل ونفل عكاز

استند على الجهة اليمنى من الطاولة الى الجهة اليسرى. فريت ماشا الكرسي
وبحث فثألها: ماذا تريدين؟

ارتبش رأس شميليف وغر بجنبه اليسرى. الا ان هذه الغمرة كانت
تعا كالملة. بوليس موجه كما هي العادة.

- كنت افس في اجازة في موسكو ورايت زوجي هناك... بدأت
تذكرها.

- لفتي زوجك سينتوف. أليس كذلك؟ - قال شميليف وتغصن جبينه
بشيء - ايهاك... ايهاك أين...

- أين. بتروف. ايهاك بتروتش. - احضرت ماشا بصوت منهاو.
فد غل اليها. ان شميليف يعرف عن سينتوف شيئا فظعا لا تعرفه هي.

- تسؤل سياسات تتحق بالجهة. ولم تكن لديك حتى الآن أية
معلومات عنه. اما الآن فقد رآته. ويمنى انه عاد الى موسكو... واصل

شميليف كلامه.
- ايها. عاد - قالت ماشا ثم فيها القلق. فما هو الشيء المجهول

بها والذى يعرفه شميليف عن سينتوف؟
- لا ان شميليف لم يكن يعرف عن سينتوف شيئا غير ما هو مسجل

في صحيفة اعمال ماشا. وصحيفة الاعمال هذه مع صحيفة اثنين موجود
في حمار الطاولة. فقد تبين هذه الليلة. ازال ثلاثة من تلاميذ المدرسة الى

مزرعة الايكار. ولذا اطلع شميليف مرة أخرى على صحيفة الاعمال الخاصة
بكل منهم قبل ان يتحدث معه.

- يعني ان زوجك عاد. ثم ماذا؟
- لم تكن الرؤى الشابة الجالسة امام شميليف يمحاهما الطفولي الشاحب

والحار شبيهة بدارقة فريد ان تغلب منه عدم ارضائها بأنفسه لان زوجها
ما ليها. فلماذا جاءت اذن؟ ولماذا هي مضطربة مع انها تحاول السيطرة

على اضطرابها؟
- أولا بدأت ماشا بصوت مرتعش عبارتها التي اهدتها منذ ان كانت

في طريق العودة من موسكو. ماذا على ان افعل اذا اتضح هناك. بعد الإزالة
بلى حائل؟ اننى اعرف بانك لم تكن لي حق في ذلك. ولكن ماذا يجب

ان افعل اذا حدث ذلك؟
- انك لم تكن القضية - فكر شميليف - يعني انها ارتفعت. ولا تريد الصغر

تذكر

كان يستعير بمعرفته بالناس، وقد استاء لانه اغفلًا هذه المرة.
— يعني انك لن تثمكي من تنفيذ المهمة، أليس كذلك؟

احتاجت ماشاء.

— كيف يخيل اليك هذا، ايها الرفيق القدير؟!

— يوسى ان اغفل كل ما يمكن تخيله. قال شميليف وقد أدرك

ان الطبايع الاول صائب والثاني خاطيء، فقرر لذلك.

— ليس ذلك ما تطولون من اجله عند الالتحاق بالمدرسة — احست ان

يان واجهها بالتهيب.

— انا افهم بانك تطولون لى من اجل ذلك — فاطمها شميليف، وهو

يريد مساعدتها هذه المرة — واذا كان الامر كذلك، واذا كنت تتورق اذ

ما تم اعدادك له فلماذا تسأليني؟ فانا لست طبيبًا وابست قارئ كتب.

— اننى اسأل لان ذلك ربما يعيقني هناك — قالت ماشاء وقد شعرت

بالمهارة من اللهجة الشديدة بالذات التي تكلم بها شميليف — فماذا على ان

اقبل شيئًا؟ سأقبل اللزوم.

— كل شيء يمكن ان يعيق العادل في الصعوبات اذا كان يتصارع للملاسلات،

ويصعب ان يعيقه شيء اذا تمكن من اغشاع الملاسلات. يمكن ان تدار

الصعوبات المرأة المرضع والجور والاعمى والاصم والمعمور. ذلك ملاحظ

حين يمكن استغلاله ضد العدو وقصد النفس. كل شيء يتوقف على الانسان

وبلى الصعوبات التي هو مدغمه لتصلها في سبيل القضية. — حسنت شميليف

ثم اضاف: — اعرف سعادة اضطر فيها الاستغلاعي الى كسر رجلي فلما

لأنهم اشتبهوا بانه قيل بظواهر بانه امرج.

نظرت ماشاء مغوية الى مكار شميليف المستند الى الطاولة.

— حسنت ذلك من بوان، وليس لي — قال بعد ان تلفظ بنظرها الى

كسدير الممدودة لا اعير مسألك ذات اعمية من حيث الخدمة، واذا كنت

تريدان شوية بهذا الشأن باعتبار قضية شخصية فيوسك ان تتعدي

طبيبنا، وهي امرأة احسن الحظ.

«الملكة» تزورها — فكر شميليف وهو يتطلع الى ماشاء — يمكن اوسلها، من

تخون.

اعتبر شميليف البساطة بديهية، فقال لما ان بانه يستدعيها مرة اخرى

للمحدث في شؤون الخدمة، وهم بان يصرفها، الا ان الحديث بالنسبة لسلما

كان في يدايه فقط.

وبدلا من ان تهش ماشاء وتصرف قالت بانها لم تذكره، يده، الشيء الاعم.

تطلع شميليف الى ساعته خلسة، فالتفت ثمين. الا ان شيئا ما في

سوت هذه المرأة منه من مقاطعتها، فزجرت ماشاء مع الكرسي الى الامام

بنيكت بديها وبدأت تتكلم.

شميليف يجيد الاستماع الى الآخرين ولم يتعدى على الاستغراب.

فهو يجيد الاستماع الى درجة تجعله يترك جهدا للسيطرة حتى على اضطرابه

العينى اذا احس بان يمكن ان يقيق الحديث، ويدهى ان ماشاء لم

تستطيع ان تثير دهشته بحديثها عن زوجها الذي يمكث اولًا عن وحدته ثم

قاتل في وحدة غربية، وخرج من حصار ووقع في حصار آخر، وكان اسيرا

ورغب من الاسر ووصل اليها في آخر الامر.

ان حكمة هذه القصة معروفة جيدا بالنسبة لشميليف الذي سمع مثلها

من الآخرين، كما انها معروفة اقرب شخصيا لانه تمكن من عبور خط الجبهة

مقرين ذلها وايضا.

الا ان المفزع القاصع لما قالته هذه المرأة الشابة الجالسة امام شميليف

قد لقي صدى في فؤاده لانه رأى في مؤخرة الصدر اشياء اسوأ مما سمعه

هذه المرأة عن زوجها، وتذكر لحظات ثم يتقدم فيها من الشجاعة قرار خاطيء

الا التحمل والغيرة.

يستند شميليف ان الحالة التي واجهها زوج هذه المرأة كانت صعبة

معا، وحتى لو تصرف هو في الاخير ليس بالشكل الافضل فلا يجوز الفاء

الذنب عليه. وكأنا ليس هناك مذنب آخر غيره.

ولكن ماشاء عندما مددت شميليف الى كريمة وصول سيستوف الى موسكو

واظلمت اليه بينين تشددان تأكيدا منه بان كل شيء سيكون على ما يرام في

آخر المطاف فانه لم يتمكن بان يتعهد لها بذلك. فاذا وقع زوجها في

ايدي اناش طيبين غير متحجرين فانهم سيستوفونه الى الجبهة وسيحارب. اما اذا

وقع في ايدي اناش متحجرين غير طيبين فالامر يبقى مشكوكا فيه. ولا احد

يعرف الخاتمة مع امثال هؤلاء!

كانت ماشاء تتكلم وتتطلع الى شميليف وتحس بازواجية غريبة بين

الشكوك التي يكرها بين العين والآخر: «اجل» «اجل» «نعم» «نعم» «نعم» وبين

تأخير الاستياء التي اوتستت على وجهه أثناء ذلك.

وعندما قالت كل ما لديها وسألها عما اذا كانت قد انتهت واجابته

بانها انتهت وقال بايجاز: «سستا» يوسك ان تصرفني فكرت في نفسها:

كلّا، ليس حسنا، انه، مثله، يريد ان يكون كل شيء حسنا، ولكنه لا يدري هل سيكون حسنا بالفعل، رغم تأكيدات «أجل، أجل» نعم، نعم». صمت مائا بالانصراف، متسا اوقفا شميليف بعد ان صمم على قول ما كان يفكر به طوال الوقت وهو يسمع اليها: - اسمي، كل ما حدثني به من زوجك لا داعي للذكره لاحد بعد الآن. - وانا اقول لك ذلك بصفتي رسمية. فأنا اعرف ذلك وأعتقد بين الاعتراف واليت هناك حاجة لاحد، غيرة، ان يعرف بذلك. مفهوم؟ - لم تفهم مائا تماما السبب الذي يجعله يقول ذلك، ولكنها شمرت بالانزواء لانها لم تعد بحاجة الى تكرار انصرافاتها. - مفهوم.

- في الساعة الخامسة بعد الظهر تماني الى مع مدرب مجموعتك! اخبرنا غريبت مائا، وظهر المرافق في الباب فقال له شميليف: - انظروا.

كان متفعلا، فأراد ان يبقى لوسه بفتح فماتن. شميليف لا يعرف الخوف تقريبا عندما يكون مسؤولا عن نفسه، ولكنه لا يحب كثيرا تحمل المسؤولية عن الآخرين. ويخلل هذه التراتبي الثقيلة مرت يباله بلعب البصر طائفة كاملة من الاحداث المتعلقة... هل يتعين عليه البدء. سخر هذه الدواة الى مؤطرة الانسان بعد كل ما سمعها: انه شخصيا واثق منها، واثق اذبه سبب في التنازع مفرقا، ولكن يمكن البدء هذه الرملة لان الآخرين في المدرسة ربما يكون لهم رأى مثير بهذا الخصوص.

وفكر شميليف: «ماذا ستفعل هي نفسها؟ كما مستعدين لارسلها وان نرسلها. ستكون تلك أماسة بالنسبة لها. وحتى لو لم تكن تعلم. لأن عليها ان تصاف اليوم قائما منتظرا البشر قريبا يوما. بعد يوم، ولكننا لا نرتلها، فنفسور باننا لا نلق بها. وهنا: اموا. شيء بالنسبة للاستطلاع العادل في المخاضات. ذلك يمكن ان يجعله غير صالح لهذه المهمة. املافاها.

«ماذا حدث؟ شميليف مقوم المدرسة (التي) كانت مائا تفضله عن شميليف) بما سمع اليوم من الطليعة اوتشينا. فان هذا، المفوض؟ وهو رتب طيب في ادب الطر ولكنه شكل جد في مثل هذه الحالات، سوف يقترح من كل يد تأجيل سفر اوتشينا. وسفعل ذلك بشكل لا يدع مجالا لشميليف ان يصر على رايه. واذا لم يقل شيئا عن ذلك بنفسه لمفوض المدرسة وانا

نسجت اوتشينا ذلك فان شميليف سيكون في موقف خرج. سيدا لانه لم يما بالحديث مع اوتشينا، بل ولم يطلع احدا على هذا الحديث.

وبالرغم من ذلك كله يجب ارسالها. فهذا ضروري للفضية، وضروري لها شخصيا. وليست هناك اية اسباب تحول دون ارسالها!

وسأرسلها! - فكر شميليف يخطف - سأتحمل المسؤولية وارسلها، بدون اية رة سببها.

كانت حسيلة هذه الأفكار هي الخفاف الذي أوقفت به مائا عند الباب. الآن، وبعد ان فعل ما صمم عليه، وانصرفت هي، سخر شميليف من نفسه بمرارة. انظروا الى مدير المدرسة الهنم الذي صمم على القيام بعمل عظيم وهو ارسال مغيره الذي ينتق به الى السكان الذي يعتقد بضرورة ارساله اليه!

وتذكر شميليف أموره الذي وجه له في معركة خالخين-غول لوما لا يساه من الحياة: «اسحق عليك يا شميليف! انت عسكري تفعل رساما على الصخر! صدرك اعترضته الرصاصات، ولكن ليس لديك ذرة من الشجاعة الادوية».

صحيح ان الأمر لم يكن محقا بخصوص «الذرة» آنذاك. ولكن الآن، حيث تفعل، ايها العقيد شميليف، رسامين للراية الحمراء على الصدر، وتحمل على كاهلك سلسلة جديدة من السخاطر التي اجتزتها، وحيث الاناث يهدون برسكو، ألم يمين الوقت لتبدي ما لديك من شجاعة ادوية. واذا لم تكشف عنها الآن فشي يا ترى؟

خالخين-غول! ما انصص النصيرا! بعد ان رأى بام العين كيف تم سحق اليابانيين هناك: في تلك الحرب، تبين عليه ان يعاني بعد عامين ما عاناه آنذاك، وان يخلق بالكلية بير الجبهة الى الجيوش المحاصرة ويرتب عدل اخبارات النرى في مدن لم تصور حتى في ابلغ الكوايس باننا تسلطها الى الاناث! ويقتل القواد اما لشهد طواير اسرانا يملكون الفارق بالآلات وكوكبات اديبات المحترقة، تلك اديبات التي سجلت النصر آذآك في معركة باين-تساغان! اجل... انه الآن يرى الكثير مما حدث في خالخين-غول ينظار آخر

يختص من السابق. وهو الآن ايضا لا يمتيز الجندي الايطاني اموا من الجندي الألماني. وبها يمكن من شيء فقد كنا متيقنين مرتين، ان لم تقل ثلاث مرات، من حيث الآليات. اننا لنحتمس الآن بجلودنا ما يعنيه ذلك!

وفكر شميليف: «على العموم حان الوقت لمرافعة الحقيقة كما هي عليه. حان الوقت من زمان. ولو كنا قد واجهناها حتى النهاية، حتى اللحظة

الاحيرة بعد الحرب الفلكية مباشرة، ولو استخلصنا الاستنتاجات اللازمة، وهذا هو
الاهم، لمار كل شيء الآن على نحو آخر، ولكن لا يزال حتى الآن متبع
من الوقت لمواجهة الحقيقة، بل ومن الضروري والأجوب مواجهتها وقدم التهرب
منها!.

نكرة بأست شديد على نفسه، بأنهم في المدرسة لا يدركون، بعد،
حقيقة الموقف بالشكل اللازم. لا يذكرون تلك الحقيقة حتى للذين سيؤمنون
هذا بأنهم في مؤامرة اللسان والذين سيواجهون ليس فقط واقع الأمور القوي
بل وكذلك الاشاعات المتألف فيها عن الوضع والاعاية والافتراءات. سيواجهون
ذلك وهم على استعداد له أقل بكثير من استعداد هذه البراة التي انصرفت
نوا من مكتبه. يجب تغيير هذا الوضع. يجب اطلاع المعلمين في المختبرات
بشكل أكثر بصدق أكبر وشجاعة أكثر.

انكشف وجه شليف وهو يفكر بالمراتب الكبيرة، الصغيرة والكثيرة،
التي يضمن عليه تقديرا اذا قدم على ذلك. قلهم من ذلك، بالنسبة له
شخصيا على الأقل، ان يتألف قدمه ويستغل الطائرة من جديد ويعبر خط
الجهة ويؤذي مهمة أخرى من تلك التهمات الخطرة التي تعود عليها والتي
لا يخشاهم صوما!

عبرت الطائرة خط الجهة من زمان، واقتربت من سمولنسك حسب
مؤشر الزمن.
الرياح شديدة في تلك الليلة والطائرة تتمايل وتدخل السحب غارة وتخرج
منها نارة أخرى.

وفي الاسفل انبطح سواد رتيب. كل شيء معتد، فلم تر مشاهير الكوا
الجاذبية غير نقاط ضوئية مرقت بنوع مرآت في مكان ما في الاسفل البعيد.
في إحدى الدورات كانت النقاط الضوئية كثيرة، بسلسلة كاملة وفكرت
مألما في البداية ان تلك قربة، وبعد ذلك ادركت انها سيارات الدافعية نسير
على الطريق. فان منتقلة سمولنسك صارت بالنسبة للالمان مؤامرة معينة
فلم يعودوا يمدون مضايح السيارات.

في الساعة الاولى من طيرانهم إلى الجهة وهو بها كانت ماشا تتحدث
مع رفيق الطريق، الفتى والفتاة اللذين يضمن انزالهما أبعد منها. وبعد ذلك
انزوا الصمت. لم يكن أي منهم يريه ان يكشف عن اضطرابه، فجلس

في آخر المقاف على أفراد بين متاديق الشجرات وأكياس المواد الطبية التي تنص
بها الطائرة. الفتى والفتاة يحلفان معا ويبنين ان يهيئا معا ايضا. ابتسطت ماشا
على كيس المواد الطبية وراحت تحسداهم قالمهول معا ليس كالمهول على أفراد.

الساعة الآن الثانية عشرة. ليلا. وقد مر يوم واحد على دخولها
الشقة ورؤية سينسوف.

سكنت جفونها وحاولت ذهنيا ان تجمع في حزمة واحدة كل ما حدث،
كل ما قالته هي وما قيل لها أثناء هذا اليوم الذي لا نهاية له. حاولت
ولكنها اخفقت: فقد تشابك كل شيء، ثم تفككت. فطارة ترى وجه سينسوف
الغني وهو يتحدث لها عن الالمان، وفارة تتذكر كيف حفظت عن ظهر
قلب ما املاه عليها المدرس من معلومات أخيرة: الشوارع والمزوك وكلمة الممر،
نارة ولوح امام عينها وجه العقيد المتأمل وهو يقول لها: ارجل، ارجل،
انضم، انضم، وفارة ترى الشاويش التي لم تكن موجودة في الصباح ولكنها
أظهرت في السماء عندما غادروا المدرسة إلى السلاط، وكذلك العزمة الضوئية
التيقة من مصباح عديم خلط على وجهها هناك.

لم تذكرت من جديد العقيد وهو يسألها فمئة، في السماء، قبيل الرحيل: عن
انبياء الذي خدم عنده ايان معركة خالدين. قول. قالت له ان اخاها في تشبها،
وضع العقيد كلا مكانه تحت ابط واحد ووضع يده الأخرى على كتفها وقال
صوت خافت لا يسمعه غيرها: ولا تخافني بخصوص زوبك. كل شيء سيكون
على ما يرام!.. وشة على يدها طويلا وبلاطة كبيرة كما خيل اليها. فما
ألقى بقصده بتعبير «كل شيء سيكون على ما يرام» هل كان يريد تهديها
نقط، ام انه استغفر وعرف شيئا مالا!

والآن، التذرع عز مغفوش المدرسة ايضا يدها وقال بصوته الجهوري
«لا تروى يا ازميفنا: كل الذين ظلوا هنا يسمونك. كل شيائنا من هذا النوع؟
انهم نراون إلى اقتدار دون ان يميلوا بحيالهم. كل واحد منهم يتصرف
في القتال». ومع انها متعبة عادة بالمغفوش وبالكلبات التي يلقها، فانها لم
تجيب في هذه اللحظة لا بالمغفوش ولا بالكلمات التي قالها. فهذه الكلمات
لم تكن تناسب ما يعمل في مؤامرها مع انها كانت مستعدة على السفر
ولا تريد البقاء ولا تبخل بحياتها. ولكن ذلك كله يستغل عن الكيفية التي
حدث بها المغفوش.

والآن، بعد ان ادركت بانها تفضي المقاتل الاخيرة في الطائرة، شعرت
بجهد شديد. شديد للغاية! كانت حتى الآن تنصو نفسها شجاعة بالفرطة

ولم تفكر مطلقاً بأنها يمكن أن ترتب إلى هذا الحد عندما تصور الغضب الأسود الجوهري. المخلوق تحت قدمها والذي مستقر إليه من الطائرة بعد لحظات. سام قائده الطائرة مفودها إلى الملاح. الثاني وخرج من القمرة فقال: اعدنا بأنهم سيعلقون فوق النقطة المطلوبة بعد ثلاث دقائق.

انهضت ماشاً من ارضية الطائرة. فحص الطيار المظلة ويأمل من ماش بصوت عالٍ مقرباً منه من اذنها. — ما اسمك؟ — سألتها وكان ذلك أهم شيء في اللحظة الأخيرة. «فيريويكاه» — فذكرت ماشاً اسمها الجديد ولكنها قالت وكأنها تردع الماضي: — ماشاً.

اقترب الطيار من الباب وسحب المزلج فافتتح الباب وانفذت حبة من الهواء البارد بشدة إلى داخل الطائرة. غطت ماشاً غطلة واحدة نحو الباب إلا أن الطيار أوقفها بيده وقبض واقفاً وضع ثوبان ويده على كتفيها. رن جرس في الطائرة وأعطى الملاح إشارة من القمرة ولكن يد الطيار نقلت على كتف ماشاً. رن الجرس ثانية. رفع الطيار يده وقال: — هيا!

اقتربت ماشاً من الباب وكادت تسقط إلى الخلف من شدة الجريح. لم أتمتع وعطش نحو الفراغ. وكان آخر ما سمعته في الطائرة هو الجرس الثلاث الضعيف الذي انقطع في اذنها خالداً رن.

الفصل الثالث عشر

عندما اقترب سيستوف من مبنى اللجنة المحلية كان الشارع خالياً وأحد ياردا. ومن جهة دير نوفوديفيتشي ارتفع إلى السماء عمود شفاف من الدخان. قد كان هناك شيء لا يزال يحرق بعد القصف الجوي الليلي. في ركن شارع سادوفابا تمر سيستوف حيث وقمت قدمه على سجل تلفونات على قارعة الطريق وقد اشتق نصفه وهو مفتوح على الحرف «س». أتحى سيستوف على التحلي قفراً على سمعته المفقودة:

سيستوفش. أ. ب.
سيفوفيتش. إي. أ.
سيفوفيتش. ي. ف.

ركب السجل ورفع بصرو. فرأى قمرة جهاز تلفون وقد تحلم زباجها رفضت سماعها وتغلق جزاً من سلكها.

كانت الروح الباردة تلاعب في قصاصات الأوراق المتسحبة في عرض الشارع. وقرب حانوت. الأغنية التي انقطعت إحدى واجهاته إلى تصفين وتحملت واجهة الثانية عن أعرجها وقد ثلاثة مناوين: رجل مليشيا ومدنيان متعطشان ورجلان يتلفين. أراد سيستوف أن يقترب منهم ولكنه تذكر بأنه ليس فيه دوية ويمكنهم أن يحتجزوه قائمته على عجل.

يد خبث. دقائق توقف أمام مبنى عروق. من طابقين، كان سائلاً. دابة أصغر وأبعدة يقصده. ولكنه الآن سمع كله. يقف رادية على اعصرأرو. سحب سيفوفيتش السيفيق. المعنى البارد ودخل. يد أن لاحظ سيارة يغلق قرب مبنى اللجنة المحلية وينقل إليها شخصان أحياناً مكتوبة بالشمع الأحمر.

وبعد العاجز الخبث في الهيرو وقف رجل مليشيا وعلى كتفه بندقية.

«ماذا تريد؟» سأله رجل البليشا.

«أريد مراجعة اللجنة المحلية».

«من بالتحديد؟»

«غولوييف» - ذكر سيستوف لقب سكرتير اللجنة المحلية الذي سلمه هناك في حته بطاقة العضوية، وفكر قلنا ياك الكثيري يمكن ان يستبدل.

«الرفيق غولوييف غير موجود» - قال رجل البليشا - فهو في التنظيم الحزبي.

«اذن فبأقوال شخصاً غيره» لا على التبيين. فأنا بحاجة إلى التكلم...

«ممكن بطاقة عضوية؟»

«كلا...» قال سيستوف يده صمت ثقيل - ولكن انا بحاجة إلى التكلم مع شخص ما، ادع احداً.

«لا استطع» ، فأنا مناب. أوضح لي قضيتك وسألتفون بالتلفون الداخلي.

في تلك اللحظة اصطدق باب البدخل من وراء ظهر سيستوف، وصوت

السلم ألقى شخص اشتر قصير القامة يكاد يكون في عمر الشباب، وهو

يرتدي بظلال خيالة وقصيلة اربعة بحزام سلك الضباط العريض. الاصله

متخذة في جنبه ويبدل منها طرف قراب المسلس.

عندما مر قرب رجل البليشا وألقى قال دون ان يلتفت الى سيستوف:

«انتبهنا» يا يفتسييف، من شخص الاشريف، مع انك قلت اننا في

ننتهى حتى يوم اللد.

وقال رجل البليشا سيستوف بيده عندما ركض الرجل الاشتر المكتنز

ازامها:

«هذا هو الرفيق ولكن مدير قسم التجرد الحزبي» - فراجعه.

عندما سمع الرجل اسمه توقف واستدار وسأل بهمة:

«انا املين! ماذا حدث؟»

«ايها الرفيق ولكن» - قال سيستوف بصوت لوح غليظ وهو يخطو نحو

الرجل الاشتر - انني لا احمل اية وثائق الآن، ولكنني تسلمت هنا في اللجنة

المحلية بطاقة الترشح وطلاقة العضوية. انا بحاجة الى التحدث معك، ان

بالذ الحاجة» - اضاف سيستوف على سبيل وكأفه يخشى من ان هذا الرجل

الاشتر السريع كالكرة سيقفز الآن على قدميه المشهودتين كتابتين وسيلج

يمتددا في الرواق.

الا ان يلكين لم يقفز ولم يمتد بل عطا نحو سيستوف. في

اللحظة الاولى غلب اليه انه رأى في مكان ما هذا الانسان المهرق، وبعد

ذلك فكر بانه لم يره. وعلى العموم فذلك شيء لا أهمية له. ففى هذه

الايام يذكر ان يراجع اللجنة المحلية احد بدون قضية جدية.

«حسنا، تعال معي» اصبح له بالدخول، يا يفتسييف!

افصح رجل البليشا المجال مائنا فلحق سيستوف يلكين.

الفرقة التي دخلها صغرى، بطاقة عليها شبكة حديدية من الخارج

وجزرات جدارية مفتوحة وبنايلها كلها الآن تقوينا. وفي الفرقة مكثيان وسرير

مطوي وتحت غشي خيشة تبن. وعلى السرير رقد شخص تغطي حتى الرأس

بغطاء دفي اسود، وقرب رأسه بغطاء مستندة إلى الجدار.

جلس يلكين على التخت. وأشار إلى الكرسي مخاطباً سيستوف:

«اجلس».

عندما تطلع سيستوف عن كتب إلى الرجل الاشتر وجده في منتصف

أمر وجهه حرك، ولكنه مرقن. وجائنا جلس الرجل اخرج سجارة ودخل

طربها ورده في فمه، ثم تذكر ربه عليه السجائر إلى سيستوف الذي هز رأسه وانضأ. فقد

كان جائداً بشكل قطع منه الصباح، ولذا غشى أن يتفأ إذا دخن بدون فطور.

«ما هي قضيتك ايها الرفيق!»

هز يلكين كفيته متلففا بشدة وأغلق عينيه وتجنبها مراراً كما يفعل

الشخص الذي يقام من زناوة رنية شديدة متواصلة في النوم.

«أسم ماثلتي سيستوف» - درست في المعهد الصحافي الشيوعي، وهناك

في هذه اللجنة المحلية رشحت لتسوية الحزب وقيلت فيه...

«مفهوم» - قاله يلكين بنفاذ صبر - ولكن ماذا تريد الآن؟

ولكني يوضح سيستوف ما جاء من اجله الآن عليه من كل يد ان

يخرج كل ما حدث له سابقاً. فخلع إلى عيني يلكين وقاب:

«انا اعرف ان وقتك ضيق الآن. ولكن اربوكون ان نستمع إلى عشر

دقائق، ان امكن طبعاً.

«لم لا؟» تكلم. فقد جئت إلى اللجنة المحلية وليس إلى حريق...

تصور سيستوف بانه يستمكن من عرض ما هو رئيس في عشر دقائق، ولكنه

تحدث أكثر من ذلك بكثير. وأوجاه إلى اللجنة المحلية معاً أس أو في

ليل، وليس في هذه الساعة المبكرة من الصباح، لما كان يلكين قادراً حتى

من الشاحبة البدنية ان يستمع اليه حتى النهاية رغم تفرق حسن الية.

انتهى سيستوف وأزم الصوت، وانتهت يده مع ذلك إلى عليه السجائر

المستقرة على التخت ودخن سجارة بنهم.

راح يلكين يتطلع اليه صامتا، وهو يقارى مشاعر متناقضة، هذا الشخص، اذا صدقنا كلامه، جريح اعزل، ولكنه مع ذلك سلم نفسه لاسر عند الانسان. ومع انه هرب من الاسر بعد ذلك فقد اجتاز عطل الجبهة ولم يبق هناك، فى الجبهة، بل جاء الى موسكو، الى منزله، الى انه تصرفت، عموما، تصرفت الهارب من الجبهة. ومع ذلك اراد يلكين ان يساعد هذا الشخص الجالس امامه.

لماذا؟ ربما بسبب الصراحة التى قد لا تكون نادرة فقط لهذا الشخص، بل وضارة به.

وكرر سينتوف من جديد ما بدأ به حديثه:
- ليست عنى اية وثائق، ولا احد يؤكد ما قلته. ما حدث حى الاول من اكتوبر يمكن ان يؤكد قائد اللواء سريجين، وقد بحثوا آنذاك الى موسكو للملاج فى المستشفى. ولكن لا اعرف بما اذا كان موجودا هناك ام لا. وبعد الاول من اكتوبر لا احد يمكنه ان يؤكد ما قلت.

وعندما تحدث سينتوف عن كيفية وصوله الى موسكو ذكر اسم لوبين. ولكنه لم يرغب فى ذكر هذا الاسم مرة اخرى. فان تشبه بهذا الساقل لاثبات نزاهته، كشيء القريب بقشة، انما هو فوق طاقة سينتوف.

- لا احد - كرر سينتوف بتصلب ونهض وقرع عقب السيارة فى العلبة المعدنية المتوجبة على الشوارع.

- كيف حال رأسك الآن؟ - سألته يلكين فجأة وتطلع الى رأس سينتوف المصبوب بعد ان فكر بذلك اثناء ذكر المستشفى.

- لا بأس. يؤلمنى قليلا، ربما أخذ الجرح يلتئم.
فقر يلكين من تحت وراح يجوب الفتحة جئة. ودعاها على رجله القصيرين المشدودين كتابفين.

- عجبى، انك حسنا فعلت لانك جئت الى اللجنة المحلية. ولكن ماذا حدث لبطاقة الضميمة؟ - قال يلكين غامضا ورفع كتيبه منهشا وراح يجوب الفتحة من جديد. - لن يعيدوا لك الضميمة - قال بحزم بعد ان توقف قبالة سينتوف.

- اننى لا افكر بذلك الآن، ايتها الرقيب يلكين - قال سينتوف. - انما انهم معنى البناء بدون بطاقة الضميمة. ولكن قل لى الى اين على ان اذهب الآن لاعرض كل ما حدث فى واطلب شيئا واحدا هو ارسال الى الجبهة بمثابة جنى؟ حدثك عن كل شيء، اما الآن فقل لى انت: الى اين يمين

على ان اذهب وكيف افعل ذلك؟ هل تستطيع اللجنة المحلية ان تساعدنى فى ذلك ام لا؟

هو يلكين كثر فيه. لم يكن يعرف شخصا بعد كيف يساعد هذا الانسان الذى فقد بطاقة الضميمة على اية حال واسره الانسان بعد ذلك. ولكن هذا الانسان جاء الى اللجنة المحلية بالذات وليس الى اية جهة اخرى، وهو يفت امامه، هو يلكين، وليس امام شخص آخر.

وسأل سينتوف الذى ارفقه صمت يلكين:
- ربما سيتمكن الرقيب غولوبف من مساعدتى حين يعود.

لوح يلكين بيده يائسا:

- غولوبف؟... اننى انا نفسى لم اراه منذ يوم امس. غولوبف الآن غارق فى الشغل. حتى اننا لم نر منذ خمس ايام، فكيف بغولوبف؟... -

لوح يلكين بيده للمرة الثانية وتفنن سببه وقال ربما من الانفصل مراجعة الضميمة العسكرية المحلية. - فمن الذى يبرسه ان يرسل الانسان الى الجبهة؟

رئيس الضميمة العسكرية المحلية! - واصل يلكين كلامه وهو يلتفت ساعة بالفلون - اريد يوزيرف. يلكين من اللجنة الحزبية المحلية يتكلم. اين هو الآن؟ الا تعرف بالضبط؟ حسنا، سألتفن فيما بعد. - وضع السماعة. -

الضميمة العسكرية المحلية غير موجود. قالوا انه الآن يتفقد بناء التاريس هنا، قرب جسر القرم. رتبته ميخا ولقبه يوزيرف. اذهب وابحث عنه هناك وسدته، وبوسك ان تخبره بانك راجعت يلكين فى اللجنة المحلية وان يلكين بفكك اليه. فهو يرفنى.

تحسس يلكين لهذه الفكرة التى تحمل كل التعديلات دفعة واحدة.

- واذا لم تجده او اذا دعت الحاجة فداك البتا من جديد وكل رجل امليشيا كى يختبر. وسوف اتلغن مرة اخرى الى يوزيرف انا كيد الامر.

تفقا! - قال يلكين. مختبئا كلامه برقة لأول مرة. خلال الحديث كله.

تنفس سينتوف الضميمة، وارتدى قميصه. لم يكن فى الواقع ينظر غيرا من يوزيرف الذى لا يعرفه، ولم يكن راعيا فى مناداة اللجنة المحلية.

فقال له يلكين فى تلك الاثناء:

- ابحث عنه قرب جسر القرم. على عين الجسر وشماله. فهم يمينو التاريس فى كل مكان، على شارع ميتروديريفسكايا وعلى شارع سادوايا...

وقبأة غطرت على يلكين، من خلال هذه التوصيات، فكرة لم تتبادر الى ذهنه من قبل: لماذا لو يفاد هذا الشخص الآن مبنى اللجنة المحلية

ولا يذهب إلى يوليوس بل يخطئ في الحال؟! فقد كان في الأمر الألماني.
وعلى العموم، يمكنه أن يفعل ما يشاء في موسكو في مثل هذا الوضع الآن؛
ويع أن هذه الفكرة تتعارض مع كل ما فكر فيه حتى الآن، فقد شعر ولكن
بالتردد. فهو يريد الآن أن يعثر على من يؤكده له صواب رأيه في تصديق هذا
الإنسان. فقال لميتسوف فجأة بشيء من الصرامة:

— انتظر قليلاً، انظر، اجلس.

جلس ميتسوف.

— اسمع، يا ماليتين! — صاح ولكن.

— ماذا؟ — اجاب صوت مكبوت.

تحرك الشخص الثالث على السرير وانزع المغطى جانباً فكشف عن
رجل مغطى بعينين مفتوحتين وبدين مشبكين تحت الرأس.

— اسمع يا ماليتين، اريد أن امشرك في هذا الأمر — جلس ولكن
على التخت، والتفت إلى ميتسوف: — كرر له قصتك بإيجاز.

— ما أقداني للتركاز؟ — قال الرجل الذي يحمل اسم ماليتين — سمعت
كل شيء، فلم أكن فائماً...

— منذ متى استغفقت؟ — سأله ولكن بانتعاج.

— لم اقم إطلاقاً — اجاب ماليتين — غلظت رأسي بالمغطى ومع ذلك
ثم اغضب.

صوت ماليتين وألمه متجهماً وكأنه يتبعث من أنبوب. وهو يتلفظ الكلمات
بلهات منقطع وكأنه غاضب لأن أحداً يحمله على فتح فمه. وبوجه كالح
تعب، أنه وجه عريض قليل سمات غشنة صامدة، وهو وجه وسم زخم
تجهمه. رقى أعلى جبهة العريضة المستديرة بفق صلاءة تلوها نصف راحة
من شعر أبيض بعض الشيء. أما فمه العريض فقد كان مزموماً على
نحو غاضب. سلب ماليتين فظارات غير ودية على ميتسوف ولزم الصمت.
— ما دمت قد سمعت فيماذا تفصيلاً؟ — سأله ولكن.

— اطعمه أولاً — قال ماليتين بنفس اللهجة المتجهمة — الرغيف على رف
الثافة والسلك الملب هناك أيضاً، أما السكين... — تحرك لأول مرة وأخرج
من تحت رأسه يده القوية الضخمة فانقلب من جيب بظلاله سكيناً «دنيا»
وقدما إلى ميتسوف. — خذها — ومن يده من جديد تحت رأسه.

— حقاً، فانت جائع ولا بد! — قال ولكن معذراً.

اسرع إلى رف الثافة وأخذ من هناك قطعة الخبز وعلى السلك ووضعها

على المكتب أمام ميتسوف الذي فتح السكين وهم يفتح العلية، ولكنه غير
رأيه وانقطع لنفسه كسرة خبز وراح يعضها في محاولة لعدم الاستعجال.
تطلع إليه ماليتين طوال دقيقة تقريباً، ثم مد يده إلى المكتب وأخذ
السكين وانقلب شرقتها وفتح طرفها الثاني الشخص للملابات. ثم قطع العلية
بأوى نطاشها ووضعها أمام ميتسوف، وانقلب طرف السكين من جديد وفتح
طرفها الكبيرة التي قص بها ميتسوف الخبز ووضعها على المكتب ودس يديه
تحت رأسه وأخذ وضعته السابقة.

— اسمع يا ولكن، حيناً لو سقتك شايًا. — قال ماليتين يد أن سلب
قطعة جافية على ميتسوف وراقبه طوال دقيقتين أو ثلاث وهو يأكل.

— من أين لي بالشاي؟ — سأله ولكن.

— اسفد ماأنا مغلياً على الأقل. — يجده ماء في الغلاية عند الصبة الثانية.
ثم ان كسك. — يجعلني انهض بنفسى؟.

— حسناً، اردد — قال — ولكن وأخذ القمح المدنى من رف الثافة. وخرج.
— قلت بنفسك عدة الماليتين؟ — سأله ماليتين عندما خرج ولكن موكفاً

بهذا السؤال أنه سمع حكا كل ما قيل هنا. — هل رأيت بنفسك انك قتلهم
أم انك تعتقد مجرد اعتقاد؟

— رأيت بنفسى.

— سكتي، ولا تشغلي بالكلام — قال ماليتين عندما لاحظ ان ميتسوف ابعد
خيزر. قال ذلك وانقلب عيه مسلحاً الى أنه لن يطرح المزيد من الاسئلة.
عاد ولكن ووضع قدميه الماء الساخن أمام ميتسوف. أكل ميتسوف
ثلاث كمرات من الخبز، ثم حاول ان لا يأكل العليات عن آخرها، ولكنه
لم يتمكن فاكلها كلها وشرب الماء الذي يفرق بالعلم.

— شكراً، انا ذاهب — قال ميتسوف ولهض. — فسأل ولكن:

— بم نضعه يا ماليتين؟

— ما حاجته الى تفصيحى؟ — قال ماليتين دون أن يرفع بصره — لقد
نصحتك انت، ويتبقى الآن العمل بتصبيحك!

— الى اللقاة! — قال ميتسوف.

— مع السلامة! — اجاب ماليتين وفتح عينيه للحظة ثم اغلقهما.

وخرج ولكن مع ميتسوف. وقال لرجل الملبات:

— اذا جاء هذا الزبون مرة اخرى اعبرنى. اذهب اذن الى يوليوس!

كرر ولكن، وخرج ميتسوف من مبنى اللجنة المحلية.

الم بعد الوقت مثلما فى الضجر عندما يبدو قراغ المدينة طبيعيا. فالفرغ الآن يشير الانتياء. لا يزال رجل الميلشيا يمشى قرب واجهة المحلات المحطة على ركن ساحة زويوفسكايا. ولكن التدينين السالمين انصرفا. الشاحنات تجوب شارع سادوايا الدائرى. موت احداهما يأزى قرب الرصيف الذى يسير عليه سينسوف. الشاحنة محملة بالقضبان والاسلاك، وكانت الاسلاك متدبة من مشربها وهي تمتدش الاسفلت. وفي موقف الياس مايدور غير كبير من الناس معهم حقائبهم وقد يمشون من وصول الياس. وماز اناس آخرون يحملون صررا وحشائب فى شارع سادوايا الدائرى، ولكن عددهم اليوم قليل جدا لا يمكن حتى مقارنته مع عددهم بالاسم. وبدت موسكو اليوم اقل قلنا واكثر استعدادا للدفاع من يوم امس.

واجل، سيدعمون عنها حتى النهاية - فكر سينسوف - ولهذا الغرض يبنون المتاريس. سينطونى بتدققة وسأقاتل من المتاريس اذا اقتضى الامر. مقاتل من اجلها هنا ايضا، داخل المدينة - فكر سينسوف - ولهذا الغرض يبنون المتاريس فهل من المعتقد انهم لن يعطونى بتدققة؟ فهل انا اسوأ الخلق فلا يعطونى بتدققة لاقاتل فى هذه المتاريس؟! شئ غير معقول. عاملوه فى اللجنة المحلية ببساطة: بدون عطف ولكن بدون اوتياب ايضا، فبشت هذه العاملة الهذو فى نفسه. وما بشت الهذو فى نفسه على الخصوص هو وجود اللجنة المحلية بالذات، ويقاه سكرتيرها نفسه، وهو غولوبيت وليس غيره، ووجود رجل الميلشيا عند الحاجز فى الرواق، وفل الاويش الى مكان امين، والفيلون يرن والاتصال قائم، وحتى غلاية الماء تالها تمنوى على ماء ساخن.

وراء موسكو المضطربة التى رآها بالاسم توجد موسكو اخرى، موسكو الهادئة كالسايين والنشيطه وغير المرتبة. فان مدير السكن الذى تلقى اليه امر يشدة المقاتيح ليس هو الكل فى الكل. وان ادى اعتقاد من هذا النوع انما هو اعتقاد شئ حتى فى يوم امس!

بعد مشربين دقيقين وصل الى جسر القرم الذى اقيمت عند مدخله حذ متاريس تسد، من جهة، شارع تروستروفسكايا ومن جهة اخرى شارع سادوايا الدائرى. ومن نفس الشاحنة التى تحدثت الاسفلت على مقربة من سينسوف قيل قليل واحوا يتقلون الاسلاك والقضبان. ومن شاحنات اخرى كانوا يلقون بأكياس الرمل على الارض. وفي الزقاق الصغير الى ما وراء محطة التمرر تمبل بضع عشرات من الاشخاص فى اتلاخ القرميد من قارعة الطريق. ولهم

بارا هذا العمل منذ الليل، فقد كانت هناك كوة هائلة من القرميد. وسدوا جزءا من شارع تروستروفسكايا. فقد غرزوا فى الارض صفين من الاعواد ورضعوا بينهما اكياس الرمل، وامامها غرزوا القضبان الحديدية بشكل مائل فبنت كالاتياب والى جانبيها عوارض حديدية ذات نهايات مستطيلة. وكانوا ينزلون القضبان والعوارض من عدة شاحنات اخرى ويقطعونها فى الحال. ففى مكان ابد نسمع رشات قصيرة لتقطع المعدن باللاوكسين. وقت عتد المتاريس ملازم كهل من الاحتياط وعلى ياقة معطفه شارة فوات الهندسة. وراح يصدر اوامره. اقرب من سينسوف وسأله:

- ايها الرفيق الملازم، الم تر الميجر يوفيريف؟
- كان يوفيريف هنا، احضر العاملين وذهب. وعد بان يعود - اجاب الملازم دون ان يلتفت الى سينسوف. ثم رفع بصره وسأله: - ماذا تريد؟ من اين انت؟

- ارسلونى من اللجنة الحزبية المحلية...
- وانتم؟ - التفت الملازم نحو اشخاص آخرين اقربوا منه فى نفس الوقت تقريبا.

بينهم امرأتان وشاب فارغ القادة طويل الرقبة يرتدى نظارات وكهلان نحيلان يشبهان بعضهما البعض شيها كبيرا ويرتديان قبعيتين عتيقتين متماثلتين بحدائق متهدلتين.

- ارسلنا اللجنة المحلية ايضا، والا فمن يرسلنا؟ - اجابت احداى المرأتين.

- اذن اقلوا القضبان والعوارض الحديدية الى مكان التفتيح باللاوكسين واعيدوا القضبان النقطلة وكوموها فى تلك الجهة، على مسافات، فى الاماكن التى سنقرها فيها.

غير ملازم الهندسة الطريق بخطوات سريعة واثار الى اماكن تكديس القضبان والاراضى النقطلة.

فلتذهب لتحمل قضيبا - غاطب الشاب الطويل الرقبة سينسوف. انشى سينسوف صاندا وامسك بطرف القضيب ورفقه مع الآخرين فشر بارتيح ان قوة يديه ظلت على حالها تقريبا رغم التعب والاجهاد. فى البداية حلوا القضبان على الاكتاف، ثم صنعوا كلاليب من اسلاك سبكية واعلوا ينقلون القضبان باذخار تلك الكلاليب فى لغزوها، مثلما يجعلها عادة عمال السكك الحديدية.

أزاد عدد الناس، البعض يحملون القضبان والعوارض المتعلقة وغير المتعلقة إلى هنا وهناك، والبعض الآخر يحفر الطريق بنشها بالأساليب الجديدة. وعلى الجانب الآخر من شارع سادونايا دوت مطوقة عمادة بالهواء المضغوط. وعمل في قصص القضبان والعوارض بالأكسجين شاب عريض الشكين يرتدي بدلة عمل وسرة قطنية مبطنة. ويعد ساعتين من العمل، عندما غلغ هذا العمل، على رجلي من سينسوف، فناع حماية الوجه، افتتح انه امرأة بشرة احمراء وانف اقبلي. هيا، قريبا المارسة، يا شيوخ، فان على متوقف بسيككم! - ساحت بتهمة مداعبة على سينسوف والواقفين الذين يحملون المارسة هذا وهما يرتديان قبعتهما المتهولتين. وقد عرف سينسوف منهما انهما يحملان امينى مكتبة في دار الكتب. تقع بناية هذه الدار العريقة ليس بعيدا من حياء على شارع سادونايا، وقد دمرتها قنبلة. تحدثنا عن ذلك مرارا لثاء الدمل ولم يهدأ روعهما مطلقا.

انتهى امر بالخليل - قال الشاب الطويل الزقية لسينسوف بصوت خافت شجون - فوسعي ان اكون في الجبهة، وأكون هناك، ولكنني غاديت المستشفى قبل اسبوع فقط، فقد اصبت بالتهاب المعى الاعور المتفح، واجبروا على عملية. حساسة! في هذا الوقت اصبت بالتهاب المعى الاعور، اليس حساسة؟ الا تعتقد بذلك؟ - سأل وسلط على سينسوف، وهو يسير حاملا المارسة، نظرا من عينيه المنجولين المسابتين بقصر الجسر.

فقال له سينسوف، وهذا بان التهاب المعى الاعور شيء خارج ايراد البشر. واخبرت: - لا اقلص لك ان لا تعمل تقلا، والا فيمكن ان يفتق الجرح. - كلا، من رابع المحبيلات! - قال الشاب يخطو وكأنها لا يمسح لجرحه ان يفتق.

امشروا في نقل القضبان والعوارض ساعة اخرى أو ساعة ونصف، ثم اتحقروا بانذين يعفرون الحفر على الطريق.

وقال احدهم: - ما اقصى ارض موسكو! - مع الاسف ان الالمان لا يعرفون كم حفرنا لهم هنا. ولو عرفوا لانحسروا رأسا...

لم يعترض احد على هذه الكلمة، ولكن احدا لم يدفعها. فاناس يحملون بيعة. ومع ان احدا منهم لم يتكلم عن ذلك بصوت مسجع انه

كانوا يفهمون جميعا بانهم يحملون، تحسبا لتطاول أو لغير التطول، في وضع الرافيل يوجه الدبابات الالمانية ليس في مكان قليل إلاصية، بل على شارع سادونايا الدلرى مقابل جسر القرم.

ويعد ذلك وصل رتل من الشاحنات النحيلة بالهواجز القشضية وغير القشضية المطوقة بالاسلاك الشائكة والصنطرة على عجل من العوارض الحديدية.

وقالت إحدى النساء الشاعرات مع سينسوف: - يلصقونها في مصنع البنجل والمطوقة. فقد قال لي زوجي باللاس

انهم يلصقون هناك هذه الحواجز القشضية بالآلاف ليل نهار... عمل سينسوف بولع شديد، وأغرق بولعه هذا افكارا عما سيحدث له فيما بعد. فليكن ما يكون! - قال لنفسه وهو يرفع بارياح عارضة جديدة. لم يعد راجيا في ترك هذا العمل والذهاب للبحث عن بويريف الذي لا يعرفه، لا سيما وان المفوض السكبرى المحلى سيحذر بنفسه إلى هنا على حد قول الملزم.

عند الظهر جاءت إلى العاملين هناك امرأة ترتدي سرة قطنية ومندولا وبريا رداويا واخذت تصيح:

- الوبية الاولى من العاملين منذ الليل اذهبوا الى دار الايتام لتناول الغداء! فليقب الذين يداروا السمل من الليل فقط، اما الذين يدأوه بعد ذلك فليسيروا قليلا! الوبية الاولى! الحشا بي الى دار الايتام!

لم يذهب سينسوف مع الوبية الاولى. وعندما ذهب مع الوبية الثانية وجد نفسه في بناية من طابق واحد مزودة في الباحة الداخلية لبني فخم. دار الايتام خالية فقد تم تهجير زلافيها من زمان. وقد افتتح فيها مركز تقنية وتلكه للذين يحملون في بناء التجهيزات.

في دار الايتام اثنت الاطفال فقط. المولدة واحدة جدا، حتى اضطر الناس الى الجلوس القرفصة امامها او عليها او احشاء القرق من القفصة هذا من مثازهم قدم لهم الخبز ازلتك الاكثر فطنة. الا ان الشرق جيد ويضم. فهو معمور من الصوم المعطلة والشعير الفاخر.

تذكر سينسوف الموقف هناك أثناء الاسر، في دار الولادة على الطريق، ونكر بالالمان وبان من غير الجائز من السحتل تسليم موسكو لهم.

- من يريد زيادة؟ زيادة من يريد؟ - طرقت المرأة التي توتى السرة القطنية والشنديل بالمعرفة على مائدة التوزيع. دخلت من الشارع ولم تطلع

سرتها وتديلهاء، بل ارتدت فوق السترة صديريا كبيرا وسغا- من يريد زيادة يا جماعة؟ والا فستأتي الوجبة الثالثة وتأكل كل ما هو موجود!

طلب ميتوف مزيدا من البزق، وكلما تهادى في الأكل ازداد احبائه بالجمع، وشيل اليه انه استعداد وضعه الطبيعي كليا

عملا بعد الغذاء حتى حلول الظلام. وعندما حل الظلام أطلقت صفارات الانذار الجوى. محطة الترو قريبة. فنزل فيها ميتوف مع الآخرين.

دخلت النساء والمعلمين الترو في وقت سابق واحتلن اماكنهن كما في المنازل، حيث احضرن مهن المشيات والمطابخ والورائد وقتاني الثكن. وقد

تعود الاطفال على هذا الموقف فانما على حشائهم وبطانياتهم وكان شيئا لم يحدث.

وجد ميتوف مكانا، فازرى عند البدار وطوى ساقيه الطويلتين وبه الطويلتين أيضا وفرغ وجهه بين رجليه. رآوه الناس بسبب الدفء والشمع، فلم يقاوه. فقد عاش يومه هذا مثلما تعود ان يعيش: بين الناس وفي المل

المشرك.

وكرر عبر الناس الذي انهال عليه: «حاما يتشى الانذار سأخرج وسأبحث عن يوفيريف هذا...»

- ابتعد قليلا- سمع صوتا نائيا- اريد ان اضيع الطفل هنا! تزعج ميتوف دون ان يفتح عينيه، وسمع كيف وضعوا جثته مقلدا

نائما يتنفس بالمشان. وقال صوت رجالي:

- اسرع رفع صانع صدامى فدائي بالطائرة فوق موسكو.

- عجيب. طائرة تهجم على طائرة اخرى وتقطع بها عددا!

- طبعاً، لا يقل السيد الا الحديد- اجاب صوت ثالث.

وقالجه صوت نائى فنى «مجب:

- انا مستعدة لتقديم كل شيء لهؤلاء الابطال...!

- يمكن تقديم كل شيء، ولكنهم لن يشكروا من اخذ شيء.

وتحدث الجميع عن الصدام القذائى. فهذا الحديث يهم الجميع.

- لم يعد الالمان يحلقون بطل تلك التواقه- قال صوت جهرد

ماله، ووافق الجميع على هذا القول.

- صحيح، لم يمضون يحلقون بطل تلك الوقاسة...

- يد الصدمات القذائية.

- انهم يخافون من الصدمات القذائية...

اغتسلت أفكار ميتوف نهائيا بعد ان كانت في شبه انقفاة. خيل له انه يملأ بالطائرة الى مكان ما. وفقا يدفعه هذا الاحساس بالتحليق،

يد ان يذل جهدا اخيرا لرفع رأسه من على رجليه والقائه الى البدار. استيقظ من دفعة خفيفة على كتفه: - يارفيق، يارفيق...

فتح عينيه. كانت محطة الترو غالية تقريبا. وفى بعض اوسايها لاحت اشباح متفرقة. امرأة شابة طوت الحشية وبندتها بجبل. ووقف قريبا

من فى الخامسة يرتدى قبعة ثوبية. وقالت المرأة:

- انا ابتقتك. اعذرنى. فقد نمت طويلا من يوم اسس وخشيت

ان تفرط منك...

- اجل، اجل- انفض ميتوف- ماذا؟.. كم الوقت الآن؟

- الساعة السابعة تماما.

- الساعة؟!

تطلع اليها منهشاً وأدرك الآن فقط بأنه نام الليل كله دفعة واحدة.

مر يوم كامل فماد ميتوف الى مبنى اللجنة المحلية ووقف امامه من جديد. كان نصفه عدد التوافد قد تحطم زواجه فالتفت بالخشب الساكن

المصوغ بنفس لون البدران. ودرست بنائة من اربعة طوابق كانت على مقربة من مبنى اللجنة المحلية وكان احد قد اقتطعها يسكنين.

جاء ميتوف الى هنا من الترو مباشرة، لانه رغب فى المعية ولانه كانت لديه مبررات للمجيء. فقد طلب منه يلكين نفسه ان يأتى مرة

اخرى اذا لم يعثر على يوفيريف. لم يجد يوفيريف بالاس ولذا جاء الى هنا من جديد. فتح الباب المؤدى الى التهر. وكان رجل اليشيا فى مكانه

لباق، الا ان عينه وعده معصوبان. وصرر ميتوف «ربما جرح بالزجاج»

ارتب ميتوف من رجل اليشيا وقال:

- اريد ان اقابل الرفيق يلكين. فقد قال ان بالاسكان استعداد.

- غير موجود. اصيب بجراح. ويجرى تقسيمه الآن فى المستشفى...

- متى سأتى؟

خز رجل اليشيا كفهيه.

ظل ميتوف واقفا امامه دون ان يعرف ماذا يفعل. فندما جاء الى

هنا كان رائحا من التراج لسيب ما: صوف يرى يلكين، وقد تلقن يلكين

الى يوفيريف كما وعد، وسوف يذهب من هنا مباشرة الى القوقس المسمى البحلى، وسوف يتقرر مصيره على اية حال. ومن جديد انقلبت الامور فجأة. فما العمل؟ هل يتعين عليه انتظار بلينين هنا ام البحث عن يوفيريف ام العودة الى ساحة القرم؟

وقف مترددا زمان دقيقة وهو ينظر الى الاضوية التى انتشرت عليها كسر الزجاج، وعندما وقع بصره رأى جارا ولكن. كان ماليتين يسير قرب فى الرواق ضمتما متجهما يتطلع الى نقطة واحدة امامه، وهو يحمل قدحا معدنيا يده. ان لف مقبضه بتدليل. سار دون ان يلتفت الى احده، ولكنه عندما مر قرب سينتوف التفت نحوه فجأة وكأفنه كان ينظر صريه من بعيد.

- لماذا جئت مرة اخرى؟ - سأل بصوته المنخفض. - آلم تجد يوفيريف؟
هز سينتوف رأسه بالنفي صامتا.

- جئت الى بلينين؟ - ولكن غير موجود - وأصل ماليتين كلامه ولاحظ على وجهه تاثيرات تكاد تدل على ارتياحه على ايجاد سينتوف بهذا الشىء. فساله سينتوف:

- ألا تعلم شيئا؟ هل تكلم بخصوصى مع القوقس المسمى؟
- لم يتكلم معى. لقد نسى... قال ماليتين وكأن ذلك شىء يدهى، ثم ددم على نحو مفاجئ: تماما بالنسبة لسينتوف فقال لرجل المليشيا: - اسبح له بالدخول. فلذهب!

هكذا دخلوا غرفة الاسم - ماليتين ويده فتح الباب المغلى فى الانام وضلعه سينتوف التغير بسبب دعوة هذا الشخص للتجهيم له.
- اجلس! - اربأ ماليتين الى التخت ووضع الدعج على رف التانكا ومال الى الجدار.

سيره الشخص سريه على طريقة الجنود بدون اى خجل، ولذا ما كان يريد تشويش هذا الترتيب فلم يجلس عليه.

سأل سينتوف وهو يرمي الى التخت الخالى ويقصد بلينين:
- هل اصيب بجرح خطير؟

- جرح طفيف فى الرقبة... سيانتم من كل بد! -
- نظفني ام يزيحني؟

- سيكون قصيرة - قال ماليتين واصاف متفردا عندما رأى امارات الدشا فى عيني سينتوف - لماذا تستغرب؟ هل تعتقد ان هذه السكاكين لا تستخدم فى موسكو الآن؟ فالسلف فى موسكو لا ينامون هم ايضا. انهم يتراولون عمامهم.

انما يمكن فلا بد. وان يتدخل... قال ماليتين، وليس واضحا ما اذا كان يندح بلينين او يلوهم - من السيارة اولا قرأى لصوصا يرقون حائوتا. سحب مبدعه وصاح: ارفع يديك! ولذا جرحوه بالسكاكين. ومن حسن الحظ انه لم يكن وحيدا. فقد امكن قتل اللصوص فى الحال!

اوضح الآن ان ماليتين يستحسن فعله بلينين، ولكنه يتحدث عن ذلك كله بلهجة التهمة كالكلمة.

- لماذا استعربت انت؟ - سأل من سينتوف مجددا. - ففى مثل هذه الاوقات يطوق النراء على السطح. ذلك هو قاذون الطليعة. انما احيانا وانسان: هل من المعقول ان الهوا كفه ملء بالخزاف؟ كلا، غير معقول. يبدو انه تذكر شيئا اثار انتقامه الى اقصى حد فلم يستطع ان يتوقف: - وحتى حشرات النظام القديم زحف الى الشقوق كى تخرج منها.

عند الضرورة! حدثت اسم يدهى هذه لكلمة الى بوز احدهم... رفع قبضته الخفيفة وطلوع اليها وكأفنه هو شعثش لنفسه. - فابن صبرى يا تري؟ كان عتدى صبرا. ولكن عندما آن الاوان لم ابيه... يعنى انك لم تشر على القوقس المسمى؟ - سأل كى يقطع حبل افكاره بنفسه.

- كلا - قال سينتوف ووضح بانة عمل يوم اسمن فى انشاء الشاويش قرب بحر القرم، ورايت الليل فى الشروق.

- اما بلينين فقد شك اسمن بانك متعود... شمعك ماليتين -
يشئ بانك ستهرب!

- الى اين؟ ولماذا؟ - سأل سينتوف.
- سقا الى اين ولماذا؟ اننى اذكرك - قال ماليتين وهو يضعف حبل

افكاره بنفسه من جديد فخلك هى على النوم طريقتى فى الكلام. - كنت اقبل بول بلينين، فاعدت وثائقك عندما قبلوك للمضوبة. فاذكرنى جيدة. مر عن طريقى حوالى ثلاثة الاف من الاعضاء الجيدة، ورايت كذلك عددا من المفصولين، ولذا اتطلع اليهم اذكرك واحدا من كل اثنين على الاقل.

مر سينتوف لان هذا الشخص التجهم يتذكر كيف انسب هو الى العزب، وحاول سينتوف، يودوه، ان يتذكر ماليتين، ولكن دون جدوى.

- لا تحاول - مزر ماليتين كثره - اذا تذكرتنى فلا ابعثني لذلك، اما لذكرى لك فقد يلعب دورا. كيف حدث لك هذه العصبية ايها الرقيق المزير؟ -

مزر ماليتين رأسه. لم يكن ميالا الى التقليل من خطورة العصبية التى حلت

يسيتوف. - ألم تكذب ذرة يوم أمس؟ هل أن كل ما قلته صحيح من الله إلى يانه؟

- بالطبع. قال سيتوف.

قما الذي يرسه أن يضيف وكيف يمكنه أن يفتح محذره؟

تطلع إليه مالمين صامتا لفترة طويلة.

وخلافاً ليلكن المرح لم يكن لهذا الشخص التعجب الذي غطى الشيب شعره وهو يعمل في قسم البريد المزوى رأى ثان، استياطي، لاجل الطوارئ. كان لديه بخصوص الآخرين رأى واحد لا غير- جيد أو سيئ. فهو إما أن يصدقهم أو لا يصدقهم. وإذا صدقهم فهو يصدقهم حتى النهاية، وإذا ارتاب بهم فلن يصدقهم مطلقاً.

ولو يثبت لديه ذرة من الارتباب في صحة كلام سيتوف لما فكر بفعل ما بنوى الآن فعله. وقد ظل يرتاباً بشيء واحد فقط: هل ينلك، هو مالمين، الحق الكامل في القيام بذلك؟ وأخيراً شد الزم نهائياً:

هل حق؟! سأذهب معه بنفسى وأقف جنبه... وأثبت للمفوض هوير...

إذا لم تتمكن لستى ما يكون؟

وقال مالمين. بعد فترة من الصمت:

- يجرى في المحلة تشكيل كتية شيوعية حالياً، ولكنها لا تضم الشيوعيين والكومسوليين فقط، بل ونشطاء اللازميين أيضاً. وأنا ذاهب إلى هناك. ليلة البارحة اقتعت المسؤولين فسمحوا لى... وخلال الليل تم تشكيل عدة فصائل أخرى. وليس هناك قادة بعد. سأقوم أنا بتهيئة العسكرية اللازم فى فيسلى، وسأجعلك ملى. بعد ساعة سذهب إلى الكتبية، في شارع ولوشينجا. ما رأيك؟ هل اسجلك؟ - ماله مالمين وهو يخرج من جيب بطالاه دفترًا مدوياً بتصفيين من دفاتر المدارس.

- هل هناك داع للسؤال؟!

اقرب مالمين من الطاولة وأخرج من جيب قمصته ظفارات لا تناسب إطلاقاً وجهه الرقيق القوي وفتح الدختر وورر أصبعه على القائمة التي تحتوى على ستة وعشرين رقماً. يلى قلم الحبر وأضاف الرقم السابع والعشرين وسجل بخط جميل:

- «يسيتوف».

- ما اسمك وما اسم أبيلك؟

- أيلان بترويتش.

وسجل مالمين حرفي «اب» وفتح الدختر بمشقة الحبر ووضع في جيب بطالاه وبعد ذلك فقط قال:

- عندما تحضر هناك سأعبر مفوض الكتبية بأدرك. وسرى ما يفرضه...

أنا أنا فأعرض وجهة نظرى عليه.

لم يركز على هذه العبارة الأخيرة، مع أنها تمتلئ الكثير. كان يعمل في قسم البريد ستة عشر عاماً، وقيل عامين فقط انتقل إلى العمل التوجيهى. بعد أن ساء نظره. وهناك في الصفحة يتسم وأيه بأهمية كبيرة، وبخصوصاً في قضايا اثبت من الكوادر الوثقة بالأخترين أو عدم الثقة بهم. بلهين أن السؤالية التي يتصلها مالمين عن هذا الشخص الجالس أمامه كبيرة جداً. وهو يدرك ذلك، مع أنه لا يؤكد عليه.

لم ينتبه سيتوف إلى كلام مالمين عندما قال يانه سيجبر المفوض. فقد كان سيتوف سعيداً جداً للايكانية التي تهيأت له للالتحاق بالكتبية الشيوعية مع مالمين في الحال، هذا اليوم. وقال:

- لن أنسى لك هذا: القفل مدى الحياة.

- ما الداعي لذلك؟ - أجاب مالمين بلهجة المتجهمة المعتادة. - لو كنت قد حيات لك مكاناً بالقطار مع العفش والمهجرين إلى قازان لكان بوسك أن لا تنسى ذلك - أضاف ساخراً. - يوم أمس وعدنى عشرون شخصاً منهم يان لا يسوا ذلك مدى الحياة. أما أنت فأساعدك في العودة إلى العرب! يسوف تبيع إليها في كل الأحوال. ستعود من كل بد ولكن بعد مطاملة.

- حسناً، لن أقول شيئاً. أنتى مسرور لأنك صدقتنى. كان بوسك أن لا تصدقنى، ولكنك صدقتنى. هذا هو كل شيء.

- لا يجوز تصديق الجميع. قال مالمين بشىء من اللفظ لأنه فهم هذا الكلام على طريقته الخاصة واعتبره شككاً من الاغرام في اليقظة. - الويل لنا إذا صدقنا الجميع. ولتذهب نحن إلى الشيطان، ولكن الحكم السوفيتى يتعرض للخطر. أردت أن أحلق ذقتى، ولكن صرقت النظر عن ذلك. - فلع حيل أفكاره بنفسه من جديد. - وإذا تريد أن تتحلق أنت فخذ عذتى من رف الشافنة. الوقت كاث...

سمع سيتوف ذقته برغو البوابون على عجل وراح يعلق بقوة لحيته غير الطيبة بعد أن مرث عليها ثلاث أيام.

التي مالمين قلقة جانبية على وجه سيتوف المحدث فقال:

- حجير اللب هناك، أبحث عنه. سال المم كما لو ذبحوا غزيراً.

ولكن مالمين لم يذكر مكان الشب على وجه التحديد. فقد طرق الباب في تلك اللحظة فقال مالمين على مضض: "ادخل...". صر الياق واقفعا. كلف سيستوف عن البحث عن الشب والتفت، فرأى امرأة نحيفة قارعة البنية وبيدها حقيبة ظهر.

— مرحبا، اجلس هنا لك. قالت المرأة فخطا مالمين نحوها.

تهم سيستوف انها زوجة مالمين فحاول الا يستمع الى الحديث بينها وانهمك بتنظيف عدة الحلاقة، ولكن بعض العبارات بلغت سمعه ربما عنه.

— هذا ضروري. قال مالمين باستعجاب. ولكن هذا غير ضروري. قلت لا داعي له فلا داعي له. لكنني زوجتان من الالبسة الداخلية. — غدا، قايين تتركها؟! — اصرت زوجته.

ولكن مالمين دمدم ياته ليس جملا ولن يكون هناك حمالون...

ثم قوت سيستوف عدة عبارات، وسمع مالمين يقول: — شفي. اربعائة.

— ما الداعي لذلك كله؟ واشت، هل تركت نفسك شيئا؟ — قالت زوجة مالمين.

— ما حاجتي الى الشفوف الآن؟ — سألي مالمين، ويبدو ان سؤاله هذا ازعج زوجته فانسجبت.

نظفت سيستوف عدة الحلاقة فلم يعد يعرف ما يفعله، فظل جالسا وظهره الى مالمين وزوجته. وانكر: ربما تماثقا لأن ليودعا بعضهما بعضا. اذا كانا يتشكلمان بشي، فيصوت واملي جدا.

— خذ زوجا من الالبسة الداخلية. قال مالمين بصوت عال من وراء ظهره وألقى على ركشي سيستوف يزوج من البياضات العتيقة المرتفعة ولكنها نظيفة. — فأنا اعتقد انك بدون احتياطات، وزوجتي اصحرت اكثر من اللازم.

التفت سيستوف فلم ير زوجة مالمين في الغرفة. فقد توادعا بمنتهى الهدوء حتى انه لم يسمعها تغادر الغرفة.

دس مالمين عدة الحلاقة في الحقيبة. وارتدى معطف الجوخ الاسود المتيق فوق بدلته الزرقاء شبه العسكرية، كما ارتدى طاقية سوداء من مخ المصطف نفسه والتي بالتيقيد التي كانت مستندة الى ركن الغرفة على كتفه. — فلتذهب!

عندما خرجا الى الشارع توقف مالمين على الرصيف ورفع رأسه ونظله الى شاية اللبنة المحلية وكأنها يريد لصودتها ان تنطبع في ذاكرته قبيل الدواع. فسأله سيستوف:

— كم عملت هنا؟

— في اللجنة المحلية منذ عام ١٩٢٢، وفي هذا المبنى منذ ان انتقلنا اليه في عام ١٩٢٦. كان ليجامه من زياج العرايا. اضاف مالمين بشكل غير متوقع. — من عهد القياصرة. وفي ليلة واحدة، يقبلة واحدة، تعلم ذلك الزياج كله تقريبا. هل انت سامع؟ وانظرونا الى سد الثغرات بالخشب المعاكس، كما في حائوت بفال.

وألي مالمين: يوم أمس وامس الاول نفس ما رآه سيستوف، ولكنه، كدوكت في اللجنة المحلية، يعرف اكثر مما رأي. يدهي ان الزرد ملقا على السطح يوم أمس الاول، ولكن الوضع تحت هذا السطح كان رهيبا سقا. فقد جرى التجهيز على نطاق هائل، وسار بسرعة متناهية في السرعة الاخيرة حتى كان من المحتمل ان يسود ذعر اكبر من ذلك الذي ساد بالفعل. قطع العدو نفرا في السجبة. ومنذ ثلاثة ايام تلقى قواتنا في تلك النفرة كلنا لديها كما في جوف وحش لا يشيع. ولكن الوضع لا يزال عصيبا حتى الآن.

في الخامسة من صباح اليوم انتهز مالمين الفرصة وير على سكرتير اللجنة المحلية غولوبوف ليودعه، ففتلح هذا في عيني مالمين وقال: — اصمتحت بالاسم وسبمت لك بالانتماء بالكتيبة. وانا آسف لذلك هذا اليوم. فأنا بحاجة اليك هنا...

— وهناك؟ — مالمين على استعداد ليفعل ما يطلب منه، ولكنه لم يكن راغبا في ان يغير السكرتير رأيه.

— انهم هناك ايضا بحاجة اليك. قال غولوبوف. — ربما سيزبون بكم في المعركة حالا.

كانا لودعتهما في المكتب. ربما يعملان معا منذ ثماني سنوات. — كيف هو وضع مسكو اليوم؟ ولكن اجبت بصراحة... — شطر مالمين الهوا. براحة الثقيلة مشيرا الى انه يريد جوابا صريحا والا فلا داعي للكلام. الا ان غولوبوف اجاب بصراحة:

— بالاسم الاول، على ما اعتقده، لم يكن معروفا بالكلية لمن القلية. انما الآن فالوضع يتبادل شيئا فشيئا. يبدو اننا لن تعلم مسكو باية حال. ولكنك قد تفضل الى القتال في اقرب اطرافها، بل وحتى في شواربها. فذلك غير مستبعد. ذلك هو رأي سكرتير اللجنة الحزبية المحلية. ولم يكن لدى مالمين واجب لعدم تصديقه. فهو انسان يعرف مالمين جيدا. انه يتضمن بكماله قيل ان يثقلها، ولا يميل الى ثقل القول.

ربما منصرفا حقا الى القتال في الشوارع - فكر المليون وهو يسير قرب سينتوف في شارع بلوشيجا - فماذا يعني القتال في الشوارع؟ يعني هنا في شارع بلوشيجا! الإنسان في هذا المنزل ونحن في ذلك. او الالمان وراء جسر القرم ونحن في هذه الجهة، لن نسمع لهم بالوصول الى مركز المدينة. يعني مثلما كان في عام ١٩١٧، أثناء مارك الشوارع ضد طلبة المدارس العسكرية القيصريّة، ولكن اكثر منها بمائة مرة!..

سار وهو يحاول التمدد على هذه الفكرة، ولكن ذهنه لم يتقبلها مع ذلك. وقال لسينتوف بعد صمت طويل:

- ربما ستوجه هذا الى الجهة رأسا.

هز سينتوف رأسه بالاجاب. كان يسير ويفكر فيما اذا سيحصل على بتقية في الكتيبة ام انهم سيسلمونهم في الجهة مباشرة.

المدرسة المهنية التي انتخبت الكتيبة الشيوعية فيها نكاتها تقع وسط باحة مطوقة بمساح فريدة عال. وتحده قرب السياج حوالي عشرين من المدنيين. هؤلاء افراد القسيلة. - قال المليون - في البداية أردنا ان نضمهم في اللجنة المحلية، ولكننا قررنا فيما بعد الاجتماع هنا، قرب الكتيبة هذا أفضل. عدل من وضعية البتقية على كفه فجأة كما يفعل شاب في ريمان الصبا واقترب من المجتمعين.

كانوا كلهم تقريبا في من تجاوزت من الشباب، والكثيرون منهم يرتدون قطارات. والبيض منهم يعملون سقائب مطبخ خفيفة، والبيض الآخر يعملون اكياما للملابس، ولدى اثنين منهم حقيبتان خشبيتان صغيرتان، ولدى احدىهن سلة بياضات ملفوفة ببنية... وكان ثلاثة او اربعة اشخاص يعملون بنادق صيد، واثنان يعملان بتدقيتين عسكريتين. ويتدلى مدس من خزام أحدهم فوق المعطف. كانوا جميعا يرتدون أحزمة. ورغم تنوع اليةهم فقد حاولوا ان يجعلوها مناسبة لهم ولا يفتضح عن السير.

عندما اقترب المليون وسينتوف كان الحاضرون يتكئون على تروفيوف الرجل الاثيب الذي يجعل سلة البياضات.

- تروفيوف ينوي صيد السمك من جديد. انظروا كيف اعدت له زوجته السلة! فيها طعام ليوين ومقينة فودكا وبيادة صغيرة... كل شيء... الاصول!

- اين شكك يا تروفيوف؟ هل فيه؟

- ها هو المليون قادم! - صاح عدة اشخاص دفعة واحدة.

يبدو انهم جميعا تقريبا يعرفونه. وقال احدهم:

- جاء الرقيق الاقدم في مجموعتنا. ويسمى ذلك انه حان موعد الاصطفاة.

- اين ايكونيوكوف؟ ألم يأت بعد؟ - سأل المليون بعد ان عد الجميع بنظره.

- ايكونيوكوف لن يأتي - قال تروفيوف الذي يجعل السلة - مورت عليه فوجدت قصيلة تعمل في تخطيط السرداب المتهاو... وهو مع الذين في السرداب.

- وكيف حالهم هناك في السرداب، هل هم احياء؟ - سأل المليون.

- لا يزالون يعملون بالطرق على الجدران اشارات تدل على انهم احياء. على احدهم بخزيرة كتبية وقال: لا يوجد اسوأ من هذه السرداب الافة. فالأفضل ان يموت الإنسان في شقته! وقال المليون:

- طالما ايكونيوكوف ان يأتي قال الجميع حاضرون!

اصطفوا اثنين اثنين. وقت المليون في الامام، واقنع ان سينتوف على وسيدا في الصف الاخير. وهكذا دعاءوا بشكل رتل مصطف، الى الله، الحرب للمدرسة المهنية، وروا بالمعارس الذي يرتدى ملابس مدنية. سمع لهم بالمرور رجلا ماليتين بلهجة اخوية:

- رجيا، يا ماليتين!

- رجيا! - اجاب ماليتين بلهجة مشادة من هذه الشجة غير العسكرية. ترك القادمين الجدد في الباحة ودخل المبني ليخبر مغفوس الكتيبة بوصولهم.

خلل هناك فترة طويلة، حوالي عشرين دقيقة. وانخرا عاد بوجه اكثر نهما من السابق. وقال للرجل الجامل للسلة:

- يا تروفيوف، انى اعينك ولما اقدم في المجموعة في حالة غياب. اسيركم بان اليوم هو يوم السرداب. وخلال الشجار سيأتى قادة السرايا. وسوف تعلم قصيلتنا اليوم خمس عشرة بتقية، والباقي فيما بعد ان شاء الله. السرداب العام يبدأ في المائدة. ويومكم الآن ان تتدفقا في الشكبات. خصصت لنا الزففة التاسعة عشرة، وهي الثانية على اليمين. اما انت يا سينتوف فابق. - نطلع مالين الى سينتوف وكان استاهه قومه فلا يلفظ سرفا الا بألم شديد - مناعب الى المغفوس.

«بدأت المشاكل» - فكر سينتوف.

عندما دخلوا على مغفوس الكتيبة هوير قال ماليتين بنفس اللهجة المتجمعة:

— استقرته قائمًا له.

كان مفوض الكتبية جالسًا عند طاولة المعلم في الصف. ووراءه ميوزة عليها كتابات كثيرة بالهياشير.

جلس ماليتين على طرف رحلة التلاميذ وفلر سينتوف واقفا.

مفوض الكتبية في حوالى الخمسين من العمر بهندام جيد، حيث يرتدى جاكيتا صوفيا عسكيا وبذلة زرقاء وراكعة وعلى صدره وسام قديم الرتبة البحرية. وعلى الكرسي الذي بجانبه معطف جلدى وقبعة من فرو الأيل. وعلى الطاولة امامه سمسر ماوود برقعة خضية مثبتة على القراب.

— تفعل جلي— قال لينتوف بدلا من ان يرد التحية. ينين ان تفكر بقتضيتك. فله قلت باننا لنا بحاجة الى امثالك، الا ان الرفيق ماليتين متذمر.

— من حقل ان تفسد الامور، وما علاقة تدمر بالموضوع؟! قال ماليتين.

— لم افكر بعد كيف اصدر الارام— قال المفوض سامرا— وعندما ارتدى البرة العسكرية سأفكر وبدأ اصدار الارام. اما الآن فلنتشاور في الامر. حدثني الرفيق ماليتين فستك بالخطوط القريبة— خاطب المفوض سينتوف من جديد. — ألا تريد ان تصيف اليها بعض التفاضيل؟

شعر المفوض بلرت القولا وهو مصفوف بدمرحة مائلة. وجهه شيز ذكي وشغاف منموثان على نحو سامرا وعيناه مغمضتان بنس التماثيل الساخرة من وراء نظائرات مظرة بالذهب.

— ما فائدة الافشاء؟! قال سينتوف وهو يقطع الى هاتين العينين الباسيزيين. هل هناك داع لعزيم من المذاب؟!!

تلفظ ذلك بنخوة تقيية ليأس الذي اصابه، الا ان عشوته هذه تركت انطبعا حسنا لدى المفوض لبيب ما.

— وهل هناك داع للكلام عن المذاب؟! فمع ان لقيى الباني ولكني انا لست البانيا لاميديك. لقد تذبذب بما فيه الكفاية كما يبدو من اقوال الرفيق ماليتين. ولكن ما يثير شكى هو الآتى (اذا كان يوسمك ان تبد شكى فاعترض عليه): لو كنت شخصا مدنيا لفرحتنا فقط سألة التمه بك. الرفيق ماليتين يتق بك، وانا كذلك، ولكنك عسكري وضابط. ألا يفسر ذلك باننا كأدما نحبك ونحتر عليك؟

ثم يتصل ماليتين فقال:

— ما الفرق، يا رفيق هوير؟ عن اى تشر تسمعث؟!

التي المفوض نظرة على ماليتين فلمحت نظارته وواصل كلامه مصرا على رأيه: — انك في تلك الضباط، ولكني توضح تصرفاتك السابقة وتحصل على تعيين جديد في الجبهة يجب ان تراجع الدائرة المعنية. واعتقد ان هذه الباتل من صلاحية التسمية الخاصة. او ربما ينبغي لك مراجعة الادعاء العام للمنطقة لانك موجود الآن في الاراضى التى تشهلا بمصالحاته. ويضع مبنى الادعاء العام. وانا اعيش على الضباط منه. على شارع مولشتافوكا ليس بعيدا من هنا. وانا اتصحبك بالذهب الى هناك. وانا لا اطلب تكرار قصتك، لان ذلك لن يغير من رأيى بانه حال. ذلك كل ما اردت ان اقله— اعطهم المفوض كلامه بهمو. وبلا رحمة، واديك سينتوف ان التاذب والرقعة في كلامه مجرد شكل متعاد للتعبير لا اكثر.

— حرر له على الاقل ترغيبا، يا رفيق هوير— قال ماليتين فجاءه بلهجة ردية— فليس لديه أية وثائق. ومن حسن الحظ انه وجدني في اللجنة المحلية، فانا المذكور جيدا.

— حسنا— قال هوير بانجاز ويلوف تدمر، ونفع المفكرة الموجودة امامه على الطاولة واخرج من جيبه قلم حبر وبدأ يكتب.

— لعلك سينيف، أليس كذلك؟— سأل بعد ان نحر السطرين الاولين. فقال سينتوف مبسحا:

— سينتوف، ا. ب.

— وسينتوف، ا. ب. — كرر هوير وهو يسجل التلب ثم حرر برقعة عطو اخرى ووقع الورقة وانزعها من المفكرة وطواها بضمينين وسلمها لسينتوف وقال: — لا يوسم عندها عثم. فاذا صدقوا فيها، والا فلا ادري... — حر كفيته. — هل تسمع الى بالانصراف؟! — سأل سينتوف الذى شحب وجهه. — تفعل.

ادار سينتوف رأسه بنفس وبشكل دقيق عبر كتفه الايسر حسب الاصول العسكرية وانصرف بخطى متزنة من جزمته المدققة.

ظل هوير وماليتين لوردهما، وولات نظراتهما بسمت. تشهد ماليتين لهنده عينية، وكاد القصب يخنقه.

— تكلم يا ماليتين ولا متشقق. فأنا اري انك تكاد تختنق. تكلم بصورة غير رسمية. فالامر لم يفسر بعد. وانا مفوض حتى الآن بفعل اللجنة المحلية فقط. ثم اننا نعرف بعضها بعضا من زمان...

— انك بيروثايل! — مدم ماليتين بلهجة كالمدة — كيف كنت مفوضا للواء؟ ذلك ما لا افهمه!

— والاكثر من ذلك اني كنت مفوضا في لواء الخيالة الاول بالذات — قال هوبر ساخرا — كان ذلك في قديم الزمان! منذ ذلك الحين نهأت على عشرة بناطيل وانما اعمل في الادارة الرئيسية، كما علمت خبث عشر عاما في التجارة مع الاجانب، فتدهورت... ألا ترى كيف اخل المسائل؟

— وانصح فاما... لست رويك في الحقيقة، ولست المقيمة في البيت. — من الغريب ان اسع ذلك منك بالذات يا ماليتين، فهو! تروى يم يعمونك، في غيابك طبعاً؟

— اعرف — قال ماليتين — المبرس المتخلف...

— بالذات — قال هوبر ساخرا من جديد — ذلك لانك تحفظ عن ظهر قلب منذ عشرين عاما كل حسابات اللجنة المحلية وكل الاجوبة عندك نطاق! لاأسطة كما في الكتب الدرامية! اما الآن فقد صممت على الحياة يسخدا! فالحرب مستحو كل شيء! ولنضرب بكل الانظمة عرض الحائط! هكذا نعتقد؟ ذلك ما لم اكن اتوقعه منك!

— حسنا — قال ماليتين — خفت من انه اذا حدثك — وأشار ماليتين ياسبه الى الباب وكأن سينتشف لا يزال واقفا منك — خفت من انك يمكن ان تقررو على نحو آخر، اما الآن فالأفضل لك ان تسكت! فسميرك يظلمك فاسكت ولا تتعرض يي...

— لماذا يظلمني تسميري؟ — قال هوبر وقد احتقن وجهه فجأة وقد سمع الدفاعة الساخرة — لقد تصرفت بشكل صائب، فهو عسكري وعليه ان يراجع الادعاء العام، وهناك يقرر دور الامر بالشكل اللازم.

— وهل يقرر الجميع وفي كل مكان الامور الآن بالشكل اللازم؟ — قاله ماليتين.

— ربما ليس في كل مكان — قال هوبر — ولكنهم في الادعاء العام العسكري يستطيعون، على ما اعتقد، من معالجة المسألة ويصلون هر الى اللجنة بأفضل حال ويدون موعة منا.

— حسنا، اسكت اذن، فقلت فذلكم فاسكت، ولا توضح شيئا. لوجع ماليتين يده يالسا من جديد وهضس ويرفع يده نحو مقدمة طاقيته السوداء كمنظار البطل وسأل: — هل تسمح لي بالانصراف الى القضية؟

في تلك الاثناء اقرب سينتشف من مبنى الادعاء العام العسكري على شارع ميلشتاتوفكا. في الطريق فتح التورقة التي قدمها له هوبر وقرأها مرتين. خط هوبر جميل فيه تقاسيم حازنة. وتوقيع رسمين الى درجة بدت فيها هذه التورقة رقيقة رسمية رغم عدم تعيّلها بخطهم. كتب هوبر: والى الادعاء العام في دائرة موسكو العسكرية وتحت ذلك كلمة وكتابه وبمدها ما يلي: يا بريل اليكم الترفيق ١١ ب. سينتشف لعرض قضيتي الشخصية. مفوض الكلية الشيعية لمحلة فروتونسكي. مقفوس. لواء الاحتياط. د. هوبر.

قرب مبنى الادعاء العام وقفت سيارة بيبي قديمة وقد غفا داخلها سائقها العسكري. زجاج نافذة المبنى مغلف بأشرطة ورقية ملصوقة بشكل علامة ضرب، ولكن ذلك لم ينقذها من الخراب، فقد تحطم نصف مدد النافذة. دفع سينتشف الباب ودخل، فوجد في البهو بابين آخرين يؤديان الى الداخل. وقف حارس قرب احد البابين، ولم يكن هناك احد قرب الباب الثاني الارباعي. اجتاز سينتشف هذا الباب الى غرفة فيها طاولتان مستديرتان وكراس للمراجعين وشاكان خشبان مخبران في الجدار. وعلى احداهما رقعة: والترغيشتاد، وعلى الثاني: «المراشست»، ولكنهما مغلقان. طرق سينتشف على الباب، لم طرق بشدة فتح الباب قليلا واطل الحارس منه:

— لماذا هذا الضجيج؟ لا احد هنا، فلا داعي لتلرق الباب.

— اريد ان اراجع الادعاء العام.

— لا احد هنا، فلا تلترق الباب.

— اذن اريد ان اكلّمك انت.

— لا جدي من التكلم معي — قال الحارس بلهجة قاطمة — اترك المبنى! هل عندك ترغيش؟

كلا.

— اذن فلا داعي لبقائك هنا. لن اسمح لك... اخرج، هيا — صاح الحارس مهيدا ودفقه الى الشارع.

لم تعد سيارة البيبي موجودة. وكان الشارع غاليا تماما. فهم سينتشف انه لا جدي اطلاقا من مراجعة الحارس من جديد، فقرر الانتظار في الشارع. فلا بد ان يأتي احد ويطلق الادعاء العام آجلا ام عاجلا.

انظروا طوال ساعة وهو يرتجف في الريح الباردة ويديه وسد الاحاسي بيبي عدم دخول او خروج احد من مبنى الادعاء العام. وراح يجوب الرصيف أمام المبنى جيئة وذهابا.

وأخيرا فقد فعله نذل اليهود من جديد. أتى عليه الحارس نظرة
ثقية مرثية وسأله وكأنه يراه للمرة الاولى:

— ماذا تريد!

— ألا تستطيع ان تدعو منابو الادعاء؟

— ان ادع لك احدا. لا يجوز الانتظار هنا. اذهب والا سوف احتجزك!
— احتجزني. قال سينتوف بتهمني الاستعداد.

الا ان الحارس لم يكن يجرى احتجازه.

— اذهب والا استعصمت البندقية! قال الحارس بلهجة غامضة حائرة.

ولا تصنع امام البني. فذلك ممنوع!

قال تلك الكلمات وصوب البندقية نحو سينتوف. قطع سينتوف بلا مبالاة
الى الحرية المصوبة نحوه وادار ظهره للحارس وخرج دون ان ينس بيتن
شقة. لم يبق لديه الا الانتظار. فقد يدخل البني او يخرج منه شخص
ما... ولم يده سينتوف يتسنى امام باب البني، بل راح يذرع الرصيف
على الجانب الآخر المقابل له.

الشارع شال موات. ضيع سينتوف حساب الزمن فدخل اليهود من
جديد وهو يفكر. وساجله يحتجزني! ساكلمه. يشقوة وارفض الخروج. فما
المعنى!

دخل اليهود بهذا التصميم منتظرا ان يعطاهم للمرة الثالثة بالحارس المنجهم.
بعد ان اثقل احدهما على الآخر الى حد الشيطان. الا ان الحارس تبدل خلال
هذه الفترة. فقد ازم نوبة الحراسة يستدعي ضليل يهرسه كجود الفتيات وحاجين
اسودين.

اخرج سينتوف الورقة من جيبه رأسا وتوجه الى الحارس مباشرة وفك
يحزم:

— ايها الرفيق الجديد. هذا كتابي. استلغ المنابو او اخبره عنى.
فلدى قضية مستعجلة.

تسلم الجندي الورقة من يد سينتوف فتراجع سينتوف خطوة الى الوراء
بعد ان سلمها. وفكر الجندي هذا التصرف حق قدره وقاس، بنظرة جانبية،
المسافة بينه وبين مقدم الورقة وبدأ بقراءتها. ولبضع ثوان تصارع في دحيات
الاحترام لترفع مغموض لواء الاحتياط مع الشك بالورقة الخالية من الختم.
وأخيرا التي نظرة جانبية اخرى على سينتوف ورفع سماعة الشفوف الموضوع
على خزان قريحه:

— ايها الرفيق منابو الادعاء. يكلمك الحارس. جاء موافق. يحفل
كتابي الى الادعاء العام من مغرض لواء تصعب على قراءة لقبه. وهو يريجو
ان تأتي الدقيقة... حسنا! حسنا! سماء ومطاعة... سيأتي المنابو في الحال— قال
سينتوف وسلمه الورقة من جديد.

بعد زهاء خمس دقائق ظهر في الباب حقوقي عسكري بزيته ملازم.
وهو شاب نحيف بشعر ميل مصفوف على عجل وبفئة قريزية على عده
لايس. ويبدو ان الحقوقي كان نائما عندما قلن له الحارس، وقد وضع عده
على قبضة يده فوق الطاولة. قرأ الورقة واعادها الى سينتوف وتطلع اليه:
— لماذا هي بدون ختم؟

اجاب سينتوف بان لا يوجد ختم لدى الكتبية الشيوعية. هو المنابو
رأس: فهذا التوضيح البسيط ما كان يوصيه ان يدهشه في تلك الايام.
— حسنا، وماذا تريد انت من الادعاء العام؟ لماذا ارسوك الينا؟
— ارسولني بشأن قضية شصية. قال سينتوف وتلفت حوله. فهل
يعني عليه ان يقص حكايته كلها هنا، في هذا اليهود؟— ارسوك ان تخصص
لي الت، او الشخص الذي نكلمه، نصف ساعة.

أتى المنابو نظرة اخرى على سينتوف. وجه هذا الانسان يبت على
الفاء انه وجه تصعب صريع قريحه. صحيح ان ملازمه وسعة متافرة ولا تناسب
قوامه، ويترشقه متفردة جدا. ولكن المنابو تذكر ان هذا الشخص جاء بالكتاب
من الكتبية الشيوعية وفكر بان الكثيرين عندما يتأدون البيت يترشقه كيفية
تلق ملزمين بالوصول على يرة مصيرية من الكتبية. وهو في اغلب الظن،
السان نزيه، فالملوثون في هذه الاوقات يحاولون الابتعاد من دوائر الادعاء
لعدم المسكوى. ولكن المنابو لم يتمكن من الاستماع الى ما سيقله هذا
الشخص، ولم يتمكن كذلك من احاطته على شخص آخر، ولم يكن يوصيه
ان يوضح السبب في عدم استطاعته القيام لا بهذا ولا بذلك.

اما السبب فهو ان الملازم الحقوقي يوليويكين هو الشخص الوحيد المسموح
جائيا في مبنى الادعاء العام العسكري لفاخرة موسكو. اذا لم تأخذ بعين
الاعتبار المعاريين اللذين ذهب احدهما للنوم وصل الآخر محله. فقبل ثلاثة
ايام تسلم الادعاء العام ادرا بالانتقال الى مكان آخر قريب إحدى محطات
القطار يقواس موسكو. وتم نقل الارشيف كما نقلت الاعمال اليومية الى
مكان الجديد. ومنذ يومين لم يبق في مبنى الادعاء العام الا المذكرات الخالية
واجهزة التلغراف والمراسل وهو المنابو الملازم بان يعجل الى النوازل الجديد

كل من يراجع هذا البنى او يتلفن اليه وله حق في معرفة العنوان الجديد.
ولم يكن يوسع المناوب ان يتحدث مع سينتوف هناك، في اليوم، لأنه
ينبغي عليه ان يلزم فوبه فوق، قرب تلفونه. ولم يتصور ان بالامكان اصطحابه
معه الى فوق لان كل من يصعد الى هناك يفهم في الحال ان الادعاء الميام
انتقل، وهذا شيء يجب ان لا يعرفه من لا يفهم الامر!
وبعد ان فكر المناوب بكل الاستلاطات قال:

«تفضل، انتظر هنا، في الغرفة عند مكتب الترخيصات. وانا لا استطيع
ان استمع الى قميتك لاني يجب ان اكون في مكان كويتي. وحالما يتفرغ
الشخص الذي يوصيه ان يستمع اليك سأتبعك. فاما ان تدعوك الى القابل
ولما ان تنزل اليك للتحدث معك. وأشار المناوب بإصبعه الى الغرفة ذات
الشباكين الصغيرين وقال للحارس: «فليتظر هناك...»

«حسنا، شكرًا» قال سينتوف - غير انني انتظر منذ ثلاث ساعات تقريبا.
- ما المثل؟ تستعجل الى الانتظار اكثر.

لم يكن المناوب يعرف كم سينتظر سينتوف. الا ان اقتراحه بالانتظار
لم يكن رياءيا. فقبل ساعة تلقى من السكان الجديد أحد المسؤولين وقال
بأنه سيمود الى هنا بعد قليل مع جماعة من العاملين. وعندما قال المناوب
لسينتوف: «انتظره فهو يأمل في وصول هذه الجماعة».

بعد المناوب الى غرفته وظل سينتوف ينتظر. في البداية انتظر بفرح
الصبر وراح يحسب الوقت دقيقة دقيقة. ثم تفوش الحساب ففقا. وبعد
استيقظ هرع الى البهو وقال للحارس بلياقة سرية لا تصدر الا عن شخص
استيقظ من النوم نوا:
«انظري المناوب!

اثرت لهجة الحارفة على الحارس فرفع الساعة وقال للمناوب:
«الشخص الذي فكرته ينتظر يربووك ان تتكلم معه. هل اعطيه ساعة»
يجوز ان الجواب كان بالاجاب، لان الحارس مد ساعة للتلفون الى
سينتوف. ونهائيا فيها صوت مقنن:

«ماذا؟
- ايها الرفيق، لم يستدعي احد حتى الآن!
- انتظر. سيدعوك.
- ولكن على ان اعود الى المكتبة - كذب سينتوف باللفظ واليد -
وسوف اعاقب على الخيب...

صمتت الساعة بسبع ثوان.

«حسنا، ما دمت ستمتد الى هذا الحد فاجلس هناك نحت» واكتب
كل ما تريد اخبار الادعاء تمام به، وعندما تنتهي من الكتابة اخبر الحارس
وسوف. يتلفن لي قارئ أنا وأخذ ما مكتبتي.

ظل سينتوف واقفا بسبع ثوان اخرى ضاغطة الساعة على اذنه. ولم
يق عليه الا ان يفعل ما قاله المناوب. فجلس هناك من حل آخر... غير
تسجيل القصة على الورق وتركها هناك وانتظار النتيجة.

«اناذب انا الى المكتبة من جديد» فكر سينتوف فجأة بحزم وبشعور
من الارتياح.

عثر في جيب سترته القطنية على الأوراق المطوية التي كان قد اخذها
من المايين في اللجنة المحلية ليكتب عليها رسالة الى ماشا، وعاد الى مكتب
الترخيصات فوجد هناك ريشة محببة ولكنها لا تزال صائفة للكثافة. جرب
الريشة ثم جمع بقايا الحبر من ممبرتين وعدل وضعية الأوراق وأخذني على
الطولة وأخذ جبر الصفحة ثلث الصفحة دون ان يتوقف او يطيل التفكير.
عندما حبر الصفحة الثامنة وانتهى من كتابة كل الملاحظات بدأ الكلام
بهم في الخارج.

اراد ان يقرأ ما كتب ولكنه تطلع الى الساعة وبدل عن ذلك ملوحا
بيده ويكب آخر عبارة في ذيل الصفحة الاخيرة:

«اخبر كل تصرفاتي صائبة ما عدا نقطتين. الاولى هي انني لم اراجع
الندبة الخاصة في الوحدة الرباطية في مكان خروبي من المصايد اذ ارتفعت
بدلا من ذلك كما ذكرت اعلاه. والثانية الثانية هي انني تعاضيت مركز التفتيش
ولم اراجعه. عندما افترت من موسكو. وانا اتحمل المسؤولية الانضباطية الكاملة
من صمت كل الوقائع التي عرضتها».

وقع الورقة الاخيرة وسجل التواريخ وقرأ السطور الاخيرة واضاف: «والجزئية»
به كلمة: «الانضباطية».

وتكررت نفس العملية في اليوم، حيث طلب سينتوف من الحارس
ان يتلفن للمناوب، فتلق له وعلال بسبع دقائق ظهر المناوب في الباب.
«هل كتب؟» اخذ الأوراق من سينتوف وتطلع أولا الى البداية
ليأكد من صحة العنوان، ثم تصفحها وألقى نظرة عاجلة على الخاتمة - على
كتبت اين منشتر عليك. بعد الاطلاع على ما كتب؟
- نعم. في البداية - اشار سينتوف الى المكان الذي كتب فيه «المكتبة»

الشوية تسجلة فريونزكي موجودة حاليا بالملفون التالي: بلوشينا، مبنى المدرسة المهنية رقم ٥٢.

وفي تلك اللحظة تذكر الورقة التي زوده بها هوبر فاخرجها من جيبه وقال: - ايها الرفيق المحقق! اكتب على ظهر ورقتي باقى تأخرت عندكم حتى المساء، والا فسوف اعاقب... لقد كذب قليلا، فالقضية ليست في موند عودته الى الكتيبة. لقد كان يريد لهوبر ان يرى بانه راجع الادعاء العام فعلا. - حسنا، ساكتب بافك بقيت هنا حتى السادسة مساء- قال المتأوب. - ادع الورقة بالتمسك ان امكن!

انكسرت وجه المتأوب. فبينما له ان يسهل الى الطابق الثاني ثم ينزل، ثم يسهل. فتفتح وهم بالرفض، ولكنه غير راى. فاققلب ايس من حبرا واخذ ورقة سيستوف وشرح ثم عاد بعد دقائق.

- هذا! - قال بتضر شخص طيب ولكنه غير متراح من حقته. خرج سيستوف الى الشارع الذى احلوك قليلا، وطوى الورقة. ثم يمشى على الورقة ختم دائرى، بل ختم صغير مستطيل: «الادعاء العسكري العام لدائرة موسكو». وثمت هذا الختم عبارة: «تواجد في مبنى الادعاء العام حتى السادسة من مساء ١٠-٦٨ الجارى». وفي ذيل العبارة حرف «ب» مرسوم بشكل جيد وكبير، وقربه توقيع مائل الى اسفل، وهو توقيع تصب قوامته قفل لقب هذا الشخص مجهولا بالنسبة لسيستوف.

بعد انتهاء اول انذار جرى خلال هذا المساء جاء الى هوبر امر الفورية وقال له ان شخصا اسمه سيستوف يقف عند البوابة ويقول: بانه ترك الشككة يترخص من هوبر نفسه، وقد عاد الآن وعليه ان يراجع المفوض. ايسم هوبر يسخره وعد من وضعية نظاراه وطلب ان يسمحوا لهذا الشخص بالحضور امامه كما استعنى مالبين في الوقت ذاته.

دخل سيستوف على هوبر ولم يكن مالبين قد جاء بعد. - ماذا لي بك، ايها الرفيق سيستوف؟ - سأل هوبر ساعرا- هل ان مبنى الادعاء العام متعلق بسبب التبريم ام انك لم تشر على شارع مؤنشاطفوكا، ام ماذا؟

اخرج سيستوف ورقة المفوض هوبر ووضعه امامه. قرأ هوبر الورقة باهتمام وكأنه لم يكتبها بقلمه، ثم قلبها وقرأ بصوت مسموع ما كتبه متأوب الادعاء: «تواجد في مبنى الادعاء العام حتى السادسة...»

- حسنا، يبدو انهم دونوا قضيتك وارسلوك اليها من جديد، اليس كذلك؟ ٢٢- ومع هوبر يصبره الى سيستوف- متائلا.

- كلا، ليس كذلك.

- هل يمكنك ان توضح بتفصيل اكبر؟

- ذكر سيستوف العريضة التي تركها في مبنى الادعاء العام.

- وهل ذكرت فيها كل ما قاله لى مالبين هناك؟

- نعم.

- دون ان تخفي شيئا؟

هل سيستوف كفيف، ففكر هوبر بنزاهة ان سؤاله هذا سيقتل. فلى شي، يمكن اخفاؤها؟ لو كان هذا الرجل جبانا لفر بكل سهولة يوم أمس الى اعماق المؤخرة. ولو كان متحايلا لربما تمكن بالكذب والاعتلاق من ان يفس نفسه في وحدة عسكرية ما. وهل قليل الآن عدد الأشخاص الذين ضيعوا وحداتهم وفقدوا وظائفهم في المنطقة بين فيازنا وموسكو؟ وعندما فكر هوبر بسخامة عدد هؤلاء الأشخاص اطلق صرخة وابشم سيستوف ايس ابتسامة ساعرة، كما كان يفعل حتى الآن، بل ابتسامة بسيطة، فهو يجيد الاتصام ببساطة ايضا، وقال:

- اجلس، سيأتى مالبين الآن، وستشارف في الموضوع...

كان مزاج هوبر جيدا. فقد تسلم شخصاتة بتدقيق اضافية الى الستين بنقطة الموجودة لدى الكتيبة منذ الصباح. لقد تسلمت الكتيبة الآلى بالبنادق على الاقل. والامر الاهم هو ان الكتيبة مستغل غدا بالسيارات الى منطقة اقرب الى الجبهة.

ولم يكن هوبر يعرف بها يحدث بعد ذلك. فلما ان جرى جمع كلى الكاتب في قفزة واحدة، ولما ان جرى تعزيز الودعات الاخرى بهذه الكتابات. وعلى أية حال فانه ذلك قريب من العمل الذي بقى من اجله في موسكو بعد ان استأثر بفرصة البقاء فيها، بوصفه من فدائي المحاربين في جيش النخالة الاول، وقام بتجهيز الادارة الرئيسية واركانها الى ذاتيه.

دخل مالبين فرأى سيستوف رسيده بايمامة متجهمة بعد ان التقى عليه نظرة شرارة غير ودية على عادته.

- هذا، وأطلع... - دفع هوبر الورقة على الطاولة نحو مالبين ووجد معونة في ستر نظراته الساعرة- احد البيروراطين كتب ورقة شكلية فجاء بيروراطي آخر فحصل لملاحظة عليها ومنهها بالتمسك، اما الانسان الحي- وأرى الى

سينتوف - ليس في حلقة مفردة ولا يستطيع أن يصل إلى التهمة بسبب البيروقراطيين .
ماذا تنتقد؟ - سأله هوبر بفرسفة مفاجئة - هل يمكننا التخلص من البيروقراطية
وإدراج المتلوع سينتوف في فصيلتك فتدع الشريعة ولعبش أسلوب الانتصار؟! آ؟
ألا إن مالبين لم يتقبل هذه التكتة . فسأل بلمهجة المتجهم:
- ماذا قررت؟

- ماذا قررت؟! - كرر هوبر سؤال مالبين بعرج - الورقة تبقى عندي ،
وهو - أشار هوبر إلى سينتوف - يبقى عندك . بالورقة ، عند الاقتضاء ، سأبرر
نمبري ، أما أنت فستبرر تصرفك بسلوك الرفيق سينتوف في القتال!
قال هوبر الكلمات الأخيرة بجد ، فاكست بسمة وطنية تقريبا بالمقارنة
مع لهجته عموما .

- سأبرر إلفقه - قال سينتوف - يمكنك أن لا تقلق بهذا الخصوص!
- أنتي ، على العموم ، نادرا ما أفاق - قال هوبر بلمهجة الساخرة السابقة
وهو ينهض من وراء الطاولة . أنه رجل ذو مزاج رومانسي ، ولكنه يكتف
هذا المزاج في دخليته . وقد كينه الآن أيضا .
- هل يمكنكى الانتصار؟! - سأل مالبين بصوته المتجهم .
- طبعاً ، إذا كنت لا تريد أن تعرب عن رأيك .
- ما الذي يوسى إن أقوله؟ لو أنك قررت عكس ما قررت الآن فذهب
اشيكي عليك في اللجنة الحزبية المحلية .

- لاستخدمت آخر إمكانيات ،؟ - قال هوبر متشككاً .
- بالتمسك . - انتهت مالبين إلى سينتوف وقال : - فلنذهب!

الفصل الرابع عشر

تساقط الثلج لأول مرة قبل يومين . ولكن النهار مشمس الآن والسماء
سافية والجو بارد .

كان مالبين ، توجهاً من السرية إلى الفصيلة . في البداية ركض بحنى
أظهر ليرير مكاناً مكشوراً في أحد ممرات التوصيل المعلقة بالثلج ، ثم ارتقى
بخط منظم رأية صغيرة عليها انقماش سمبل للمناوبة . وفي هذه الانقماش
تدبر الفصيلة . ورغم الصقيع كانت الشمس تدفئ الوجه والرأس حتى عبر
التيبة ونحوها أثناء صعوده الزاوية .
توقف ليتنقظ انقماشه وانضمت إلى الورا .

انبط خلفه مشهد ممتد من الشاهد الطبيعية في شواحي وسكو:
أبرس متوجة بعض الشئ ، تغطيها بقع الاجمات السوداء وتختلها خطوط الغابات
عند الانق . وفي مكان قريب مربع الشكل لاح ، مبنى اسود لمحمطة جارات
محمطة ، وفي ذلك المبنى مقر اركان الكتبية ، وعلى مسافة أبعد ، لاحت سطوح
منازل القرية التي يربط فيها مقر اركان القوزق . وتبرز على الثلج آثار كل
دور جديد . وكل خندق وكل ممر من ممرات التوصيل . ونهما فملت لتتوهجها
لبن برتقالية نبيدا من هذه الزاوية الواضحة . فقد كشف الثلج عن كل الاسرار .
في نفس اليوم ، الذي وصل فيه مقاتلو الكتبية الشيوعية مع الامدادات
في فرقة الشاة المعادية والثلاثين منح مالبين رتبة مرشد سياسي اسرية وبمعه
في إحدى السرايا . وهو لا يزال بهذه الرتبة الآن أيضاً ، بعد عشرة أيام من
القتال .

المبارك . دامية متواصلة . واستلمت الفرقة امدادات جديدة بعد الامدادات
التي وصل منها مالبين . صحيح ان الامدادات هذه البرة شحيحة . وكان
هناك شئور . بان تقليص الامدادات يستهدف صيانتها لاجل المستقبل .

الالمان يواصلون نجاحاتهم، والفرقة اليوم تقاثل وتظهرها الى موسكو، على مسافة عشرين كيلومترا شرقي الخط الذي وجدوا مالبين فيه عندما انصرفت كتيبتهم بها.

وخلال هذه الفترة انضمت الفرقة عن مراقبها ثلاث مرات متتالية. انضمت مرتين فجمعت جبهتها ترازى جبهات جيولانها متحاشية الوقوع في الحصار. والبراة الثالثة انضمت لان فوجا من افواجها ايد عن آخره تقريبا ولم يتمكن الفوجان الاخران من الصمود. ولم تمكن الفرقة من وقت زحف الالمان الا في صباح اليوم التالي على مسافة بعيدة داخل المؤخرة، في الواقع الاحتمالية، حيث ارتفعتهم على الانطلاح بنيرانها وبضربة مكثفة من المدفعية الثقيلة البرابطة في الاعماق. تشتت الفرقة بهذه المواقع التي يسيطر مالبين الآن على خطها الامامي ولم تنسحب منها مع ان الايام الثلاثة الماضية شهدت حصصا ضارية.

ذلك كانت الحال في قطاع الفرقة، اما الوضع على نطاق الجبهة في ضواحي موسكو كلها فقد كان بمثابة معركة دفاعية مستديرة تكاد تستند فيها، على ما يبدو، قوى المهاجمين وقوى المدافعين على حد سواء، ولكن هذه القوى وتلك لا تريد ان تستند ولا تريد ان تستنزف. فقد استمرت المعارك بنفس الضراوة السابقة ونفس التقوى اصالح الالمان. ولكنهم، رغم فقرتهم، يفتقون من يوم لآخر ثمة متزايدا بالمداد لقاء كل كيلومتر يحتلونه.

كان مالبين يشعر بنفس مشاعر الكثيرين من المحاربين في ضواحي موسكو في تلك الايام. فان عناصر الدبابات الالمانية لم تعد تنغرز في جبهات كالسكين في الزبداء، ملما كان الحال في الصيف وطلعا تكرر بنفس الصورة تقريبا في الايام الاولى لانخراط خطوط الدفاع في ضواحي فياتنا وبرياسك. فقد ظهرت لدى الناس الآن بالترجيح حالة نفسانية اخرى هي حالة التافس الشديد الى اقصى حد وبايكر قدر ممكن من القوة والهدوء. ولكنه يحتفظ بقدرة على الاستعداد والمقاومة معها، بلغ السيفد المسلط عليه. ان هذا الشعور بالذات، هذه الحالة البدنية والروحية، هذه القدرة الباطنية على المقاومة وتسيير الضربات، هي التي استولت في تلك الايام على الناس الذين اراحهم الالمان ببطء ووحشية من خط الى آخر وهم يفترون من موسكو اكثر فاكثرا. لقد تروا قواهم بانفسهم، فهم يطمنون ان موسكو وادعهم. وهم ايضا بحاجة لمن يوضح لهم هذه الحقيقة. ولكنهم، فضلا عن ذلك، شعروا بان الوطن كله من ورائهم قد وتر قواء كيلا يسلم موسكو. شعروا بذلك من

الابدانات التي تصل في اخرج اللحظات، ومن المدفعية التي تتوارد على الجبهة بقدر متزايد يوما بعد يوم، ومن كثير من الدلائل الاخرى ابتداء من الهدايا والبرائل وانتهاء بلهجة الصحف.

واذا كانت هناك لحظة ما يحتل ان تقع موسكو فيها يابدي الالمان فان هذه اللحظة قد مرت. فالوطنون لا ينتظرون بعد انقضاء في معركة موسكو ولكنهم لم يمدوا يصدقون باحصال الهزيمة. كانت الجغرافية، على ما يبدو، الى جانب الالمان. فقد اقتربوا من موسكو في عدة طرق عامة على مسافة اقل من مائة كيلومتر. الا ان حساب بداية الحرب، عندما استطاعت الدبابات ان اختزقت الجبهة ان تقطع هذه المسافة خلال يوم او يومين، لم يعد حاري الفعول في ضواحي موسكو. كان يوسع الدبابات ان تخترق الجبهة، وقد اختزقتها بالتمل ثارة هنا وثارة هناك، ولكنها كانت تتوقف من كل يد بعد ثلاثة او خمسة او سبعة كيلومترات. وبدون ذلك الحساب السابق الفطيع لم يعد يوسع الجغرافية وهذا ان تعلم الثعوب والمعنويات.

انتهزت دائرة البريد اليداني فرصة الهدوء اليوم فجمعت رسائل الى القتالين. اسلم مالبين رسالة من زوجته. عاشا معا ثلاثة وعشرين عاما فصدت على شعة ابدانه لبشاعه حتى صار ذلك من طباعها المكتسبة. ولذا كتبت له الآن بتحفظ عن انها تفكر فيه دوما وهي قلقة بخصوص ما اذا كانوا سيصلون الى ايسة الشوية في الوقت المناسب. قالتاس يقولون ان بره الشديد سيحل ميكا في القريب العاجل. وبالإضافة الى ذلك كتبت له بن ثابن.

النبا الاول حول ابنتها. فقد كتبت مدير المدرسة التي جرى تهيئتها الى ضواحي قازان ان ابنتها فكتور مالبين التلميذة في الصف العاشر اخذت فاركا ورقة قال فيها انه مسافر للدفاع عن موسكو. ولم يمتحيز حتى الآن رغم التغيرات.

هل يستطيع احد ان يحتجز هذا -الهدوء!- فكر مالبين في ابنة بحثا.

كتبت زوجته عن ابنتها يأس عيق لم يثر في البداية لدى مالبين شعورا بالمشاركة. وما العمل! الصبي في السابعة عشرة -فكر مالبين متشجعا، ولكنه تذكر بعد ذلك عصر الاسر وقبر الشهداء المفتوح الذي سيعيث فيه جشع سين قتل من السرية قتلوا في يوم واحد. تذاكر ذلك فاكثاب، مع ان فؤاده لم ينفعا بالافتخار بلوك ابنة.

وأشياء أخرى يخص الزوجة نفسها. فان دائرة الاسكان التي تعمل فيها زوجته مفتحة اخذت تمارس العمل من جديد وقد عينوا مديرة لان المدير السابق كوكوشكين الذي يعرفه ماليتين قد اعيد من مدينة غوركي التي هرب اليها، ونفى عن منصبه وقفل من الحزب ثم ارسل الى الجبهة كمتدرب بسيط. وقد افرح هذا النياب ماليتين. فان تجديد اشكال كوكوشكين في موسكو عزز ثقة ماليتين بان كل شيء سيكون على ما يرام في آخر المطاف. سوف لن نلهم موسكو، وربما لن نستحب اليها مباشرة.

وكرر ماليتين بنظير ان كوكوشكين الذي يعتبره من السفلة سوف يتخلص من الأذى. سيخرجون به في الجبهة ولكنه سيفقد منها، كالثقلين، الى مكانا ما في المؤخرة.

بعد ان استعاد ماليتين افانسه ارتقى الرتبة التي تراطب عليها فضيلته. فالتفتل يوم امس حان دون وجوده هنا في النهار والليل، فصار يشعر بضيق لا حريرة له فيه. كان قد تعود على رؤية احد من مقاتليه ولو مرة في النهار. فلم يبق عدد كبير منهم في السرية. ثم ان المياة هنا لا ترحم: امس لم ير اسدا، واليوم ان يرى اسدا ايضا. فقد تكبدت القصفية بالاسلح شباير فادعة وشم يبق فيها، حسب احصائيات الصباح، الا احد عشر مقاتلا، بمن فيهم آمر القصفية الريف سيروتا الذي يقودها منذ امسوع بعد ان قتل في يوم واحد ملازمين: في الصباح قتل الملازم الذي اشترك في الحرب منذ اطلاقها، وفي المساء قتل الملازم الآخر الذي ارسلوه بدلا عنه من المدينة العسكرية مباشرة.

افانص معمل الطابوقة لم تكن الفاضا في الواقع. فليس هناك ما يمكن ان يتحول الى افانص. كانوا قد بدأوا بانشاء المعمل ولكنهم هجروه قبل ان يكتمل. ارسوا اساس جدرانها والفرانج وبدأوا ببناء الجدران حتى بلغت ارتفاعات مختلفة، ولكن مستواها لم يرتفع الى اعلى من نصف التفتة. وعلى مسافة قريبة ارصى اساس مدخنة المعمل المرتب. اوشفع اساس المدخنة الدائري الضخم لمستوى متر واحد فوق الارض، وفي داخله تجويف للصفاء الدخان من تحت الارض. وقد ذلك بمثابة معقل دائري طبيعي لم يبق الا تكييفه ليكون قفلة جيدة ليران الرشاشات.

قبل ثلاثة ايام، عندما شغلوا هذا الموقع، فصح ماليتين، وهو من قدامى رياء الرشاشات، باستخدام المدخنة على نحو افضل. وقد رأى امس الاول كيف احتل قاعدة المدخنة سيستوف برشاشه الثقيل. منذ بداية القتال

ابرج سيستوف ضمن سرية ماليتين ببعض الصفقة من جهة، لانه كان يمكن ان يلتحق على العموم بفوج آخر او كتيبة اخرى، وبارادة ماليتين من جهة اخرى لان ماليتين طلب ذلك من المسؤولين في الكتيبة فتمب سيستوف الى سريره عندما جرى توزيع الامدادات.

وسرعان ما اتضح ان سيستوف انسان عجرب يبيده استخدام السلاح. لم ان ترقية الجنود لا تتأخر عادة اثناء المعارك الكبرى.

في الصباح الاول كانت مهمته ايصال الفرطاش الى الرماة، وفي مساء اليوم ذاته صار مساعدا لرامي رشاش «كسيم». وفي اليوم التالي حل محل هذا الرامي الذي قتل. وقبل اربعة ايام، اثناء الانسحاب من المواقع السابقة الى هذه المواقع الجديدة، عمل سيستوف مع مساعده، حتى حلول الظلام، في تغطية انسحاب السرية بتيار الرشاش، وقد ابدى يسالة وتحملا في ذلك كما ينبغي آمر السرية الملازم ايونوف.

وقال الملازم ايونوف باله بيمين تقديم الاقتراح بفتح سيستوف مدالية باليسافة، الا ان ماليتين الذي يعرف قصة سيستوف طالب بالترتيب. فان طبيته الصارمة وشعوره بالسلوية الشخصية عن سيستوف لم يسمح له بالانفعال في هذا الامر. واكتفى بذلك لئلا يأسى القاتلين على عذمة الرشاش في تقاريره السياسي الثوري وامتنع اعماقهما، ولكنه ازم الصمت بخصوص الاقتراح بدلا استشارة قفلة المدالية. اما آمر السرية المشغل بهموم كثيرة اخرى فقد نسي اقتراحه هو بشأن سيستوف.

اراد ماليتين ان يرى سيستوف الآن، ولكنه لم يتوجه الى قفلة ليران الرشاش، بل ذهب في البداية الى افانص المعمل نفسه حيث يتواجد الريف سيروتا. لم يكن الريف سيروتا، شأنه شأن الآخرين، قد تخلص بالطبع من الشعور بالخجل، ولكن هذا الشعور لم يلعب الدور الرئيسي في اعتباراته الخاصة بالخدمة. فهو يمكن ان يشغل مثل اي شخص آخر. وبذلك يتنهي كل شيء. بما فيه الخدمة. الا ان فكرة الموت ما كان يوسمها ان تقرر على صرامة اداء هذه الخدمة.

لمح سيروتا الدوشة السياسي للسرية عن بعد فشد الحزام على سترته القفلة وثبتت مما اذا كانت التهمة على التهمة تنشر وسط الجبهة أم لا، وإلى على كفته رشاشه القصيرة من طراز شباين، وهي جديدة ومصفولة نوا. في الانسحاب الاخير بدأت هذه التبادق الرشاشة تتراود على التفرقة. وكان سيروتا اول من استلم رشاشا من هذا النوع في قصيلته، وقد جربها في القتال.

ومع انها لا تتعلم بتدريج مثل البندقية المادية، الا ان كثافة الاحياء جيدة، ولذا يبدى سيروتا الآن، في البداية، اهتماما مفرطا ببعض الشئ، برشاشته.

بعد ان غلق الرشاشة على كنفه خرج عبر التجووة في الجدار للفناء المرشد السياسي. وردا على تحية سيروتا الصائبة حسب اصول العسكرية رفع مالميتين في البداية يده الى قمته ثم مدعا لمصافحة الغريب.

«كيف حالك يا سيروتا؟» شد بقوة براسته الثقيلة على يد سيروتا الثقيلة ايضا.

«الطعام ليس على ما يرام، ايها الزئبق المرشد - تشكى سيروتا دون مقدمات.

فهو يعرف جيدا من غيرته في الخدمة العسكرية متى يجوز التشكي لدى الرئاسة وبشي لا يجوز، وعندما يبدى التشكى ممكنا فهو يتشكى دائما.

«لماذا؟» - مالميتين مطلع على الامر ولكنه تظاهر بدمم المتعرق.

«فجر اليوم توجهنا نحمل الترومبات قلدا بطعام نسمع له قودر الجنود الصغيرة...»

«قدوا لكم المقروء» قال مالميتين - للعدد الموجود من المقاتلين.

فما الداعي للزعل؟

«أنت زعلان» قال سيروتا مع انه كان متفهما من ذلك بالذات.

فهو لم يقدم قائمة الشكايات بالارواح وكان يملأ اليوم في الحصول على اوراق يقدر اوراق يوم اس.

«وما هي الامور السيئة الاخرى؟» سأل مالميتين.

«أنت تعرفها» من سيروتا كنفه للاح على وجهه تعبير: «لا خيلة لنا في الامر» - لم يحسروا شيئا، فما العمل؟!!

«حل تشي التبغ؟»

«طبعا، فهل هناك اهم منه، ايها الزئبق المرشد؟» التغيير. كنفه، وليس لدينا اعتراض عليها.

اتسبم مالميتين وقصص محفلة المباشرة واخرج اربعة اكراس صغيرة من التبغ الرخيص.

«غده ووزعه» اليوم استلمنا خدانا من اهالي موسكو خاضعت لكم منها ثوبا. وهناك سبائر ايضا، ولكنهم سيعيدون لكم ذلك كله في النساء...

اغد سيروتا التبغ من مالميتين وتهدد من فرط السعادة. واتضح من تماثيل وجهه انه لم يدخن من زمان.

«دخن» قال له مالميتين بعد ان ولى تماثيل وجهه - وسادخن انا ايضا - اخرج من جيبه كيس تبغ مفتوحا وشر على طريقة سيروتا تبغا وشر لنفسه وارضا بلفان مجاوتين. فقال سيروتا:

«لا تدخل؟» نصبة هناك مشعما قرب الجدار.

«فلنلق حذاء في السيم» قاطع سيروتا.

«لماذا اسمع لي ببقية، ايها الزئبق المرشد، لاوزع التبغ على المقاتلين.

«بالطبع...»

اغشى سيروتا في فجوة الجدار واستدعى احدا ولمعه امره بتوزيع التبغ ويعد الى مالميتين.

كان سيروتا قد التحق بالجيش حسب القانون القديم للخدمة العسكرية في الثانية والعشرين من العمر وليس التاسعة عشرة. وهو الآن في الثامنة والعشرين، ولكنه يبدو اكبر سنا بسبب امارات الاهتمام التي تملو وجهه على الثوب.

الا ان الاصابة انداحت الآن على محياه وهو يلف المجازة.

«ما الذي يفركك؟» سأل مالميتين.

«اللقص» ايها الزئبق المرشد - دخن سيروتا وهو يغفل السيارة المشغلة برأحه بكل مهارة - سيذا لو اشتد الصقيع اكثر.

«ما قائلة ذلك؟» اذا اشتد الصقيع صعب القتال.

«اما انا فاعتقد بان الامر اذا كان صعبا علينا فيكون اصعب على الانسان» قال سيروتا بارتياح وكأنه قادر على ان يبرهن هذه الاحجولة للانسان.

في نصيبنا طالب من القيف الرابع في عهد الكنيان، وهو يقول ان هناك طائرات الالماني لا يتحمل الصقيع فهو يتجمد فيه. انظر - واروا سيروتا الى السماء - بدأ الشتاء الحقيقي منذ يومين، وطائرات القريض قللت تحليقاتها.

«يومين» واذا اشتد الصقيع فلربما يتجمد المعان في البدايات ايضا.

«لا تخشى البدايات.

«انا لا اخشاه» لقد اخبرنا اثنين منها...

«ليس ذلك كثيرا.

«بالنسبة للمفصلة؟» اعترض سيروتا بزل - فلنحسب اذن: اذا اخذنا فصائل المشاة قلدا للمفصلة الانسان، للسرية ست، للكيفية ثمانية عشرة. للفوج اربع وخمسون - واصل سيروتا ألمه وهو يثنى اصابعه - للفرقة

مائة واثنان وستون، لعشر فرق الف وسثمائة دبابية... وعلى ذلك لن تبقى لدى الألمان دبابات في ضواحي موسكو. لو كان الجميع يفعلون ذلك! قول أن كل فصائلنا أحرق دبابتين الفضية الرابعة؟ فلنأخذ كتيبنا مثلا. اننى لا اعرف فصيلة اخرى احرق دبابتين غير فضيلتنا! قال سيرونا في الاخير متفائرا.

- حسب كل شيء، بجهة كاملة - قال مالمين بايضاة - ساعرا - لده ادبت واجبك - احرق دبابتين، ويومك ان تمام مملكتي الياءة فليرق الآخرون دبابات العدو، لقد جاء دورهم، اليس كذلك؟

- كلا، اننى لم اتعود على التفكير بهذه الطريقة. اننى فقط اذكر الحقيقة، فتدمير دبابتين من قبل فصيلة واحدة ليس بالشئ القليل.

- انا لا اقول بأنه قليل. انا اقول بأنه لا داعي للتحويل على الدخان. الضعيف سيستدر ويتبعه الدخان عند الألمان ويشتك المدافع عن اطلاق النار ويستعمل الرشاشات ولا يبقى علينا غير ان نكسهم من الطرق ونكوبهم كضفوع الاشجار المستورة! هذا التفكير غايل، ولا داعي لتهدئة النفس به. - ما حاجتنا الى تهدئة النفس؟ - سيرونا حاسر اليديهة ولا تموز.

الكلمات عندما يكون في حالة الاستراحة. نشر يديه، ثم رفع رأسه وقطع الى الشمس وقال وهو يضيئ ببقوته - عداغ في عداغ، حالما يشدون غيرتهم لن يبقى من هذا القلنس الجميل الا الدخان...

- فلنستفد منكم - قال مالمين والذي يغضب السجارة وذاس عليه ودخل الفجوة في البدار وتيه سيرونا.

بعد عشر دقائق جلس يتحدث الى الجنود كما هي عادته دوما في ساعات الهدوء. تملق سوه ستة اشخاص، بينما ظل اليافون، ومنهم سينسوف، في مذاقهم. ولكن مالمين تموز على استمالة تمتد الجميع كافتى «بالجمهور» الذي احاط به. وقال لجندى شاب نحيف يسحب انفاسا مضطربة من غليظة: - انت كيباوى يا ميخينسوف. واننا لست كيباوىا. انت مطلع على الامور وتقول ان روق الطائرات عند الالمان لا يصلح للصبغ، وان الدخان في دباباتهم يتجمد وربما تعتقد بان مذاقهم مستعمل وكذلك البنادق الرشاشة. اثار هذا الموضوع قلق مالمين، فراح يخوض في تفاصيله مويلا في آخر المطاف بان يقول مجراة كما يريد ويطرده بالشلل الذى يمتد به مناسيا - واننا اكرر القول بان ذلك ربما يكون صحيحا، قالت كيباوى، وانت اعرف بالامور. ولكننى شخصيا لا اعلق املا على ذلك. انت تعلق عليه الآمال،

اما انا فلا. والاكثر من ذلك انك تأمل بان آليات الالمان ستوقف عن العمل في الصقيع؛ واننا لا اعلق اى امل على ذلك، بل اعلق كل آمالي عليك انت يا ميخينسوف. كل املى فيك وفى فؤادك الذى لا يرتعب باى طقس، وفى بتفتيك وقيلتك اليهودية وكل ما يقع بين يديك مما لا يتوقف عن العمل، لان فؤادك اذا لم يرتعب فانا الالمان لن يصلوا الى موسكو باى حال حتى وان عملت كل آلياتهم كالساعة في صقيع يبلغ لثلاثين درجة مئوية تحت الصفر. ولكنه اذا ارتعب فؤادك سوف يصلون الى موسكو في كل الاحوال بالآليات وبدونها، في الصقيع وبدونه. فما هو عليك ايها الكيباوى؟

يدو ان ميخينسوف لم تكن تموزه الشجاعة، فقد ادرك فورما يرمى اليه المرشد السياسي. ولكنه يريد من صحيح القلب ان تنهال على رؤوس الالمان الزاحفين نحو موسكو كل المسائب دفعة واحدة. فراح يورده بحساس تخلف الاعتبارات الجديدة بخصوص صقيعنا والآليات الالمانية. فقال مالمين بجهة مضالعة بعد ان احس يانه يد انازعته الشمايلة التى كانت تثلثه: - اغترس انك محق. فلنأخذ عيونهم! ولكن هل قهمت ان التفتة الرئيسية تتوقف عليك وليس عليهم؟ انها تتوقف على صمودك وايس على تجمد دعان آلياتهم! - كرر مالمين الفكرة ذاتها ببناد.

- اجل، مفهوم بلما، ايها الرقيق المرشد - اجاب عدة اشخاص بصوت واحد.

- سامع، يا سيرونا - قال مالمين بعد صمت قصير - اليوم هو الخميس، اليس كذلك؟

- بلى. - تذكر، في الليث ستجد جلة المكب الجزوى للفوج. وضعت في جدول الاعمال مسألة قولك في الحزب. - اننى اخشى الامثلة - قال سيرونا - فنحن لا نوجه امثلة اعرف كل شيء، رسالنا ياأوتسى اننى كل شيء من سوء الحظ!

وقال مقاتل كهلى بلهجة عشت ابوى: - منذ الصباح طالع النظام الداخلي وديوز تاريخ الحزب... كان ذلك المقاتل هو تروفيوف الذى ترمض لكلمات ذرافه قبل دخول لكلمات الكتيبة الشيوعية حيث قالوا انه اكلمها يستمد تعيد السك. اما الآن فهو ببقته ومستره القطنية والمسلط الذى ارتداء قفوها، يشبه الجنادى الاصيل ولا يكشف عن كهيولته الا اشاراه الاشياء المتضيقان. التحق بالسرية من

نفس الامدادات التي وصل منها سيستوف، وبعد التخاضر الكبيرة بالارواح ظل هو الشويحي الوحيد في التفصيل. ماذا لم تأخذ سيستوف يمين الاعتذار - تذكر ماليتين ويذكر في الحال بأنه لا يجوز اعتبار سيستوف من الشيوعيين. إذ ربما لن يمدوا له العنصرية بسبب بطلانته المشيعة في ظروف غامضة، رغم ما ذكره الكفاحية. فقال ماليتين مخاطبا تروفيفوف:

- ساعد سيروتا في التحضير. فمع أنه أمر الفصيلة واثت بنجدي، ولكنك شويحي قديم ولذا غابت أكبر منه في هذا المجال.

- انه يساعدي. وقد اعتدت منه «موجز قاريخ الحزب»، فلم يكن لدى الا العظام الداخلى.

- هل احضرته من موسكو؟ - تطلع ماليتين الى تروفيفوف متسالا. - هل تروفيفوف رأسه بالانجاب وقال:

- جميع الشبان يديروني باسئلتهم عن موسكو: كيف حال موسكو؟ وماذا يجري فيها؟ يقال ان الفقر والفوضى انتشرا فيها... حدثنا عما حدث. وانا احبيهم: اذا كان قد حدث شيء فلم اعد اذكره. كل ما اذكره الآن بيتان من قصيدة ليرونتوف:

ويا شباب، اليست موسكو وراونا؟

فلست في سبيل الوطن!..

حفظت ذلك في قديم الزمان، في مطلع هذا القرن، بالمدرسة الدينية، ولكنني اذكره حتى الآن!

- اذا كانوا مهتمين بآباءه موسكو - قال ماليتين - فويسى ان احدهم عن آخرها. فقد استلمت رسالة من زوجتي...

حدثهم عن ابنه الذي هرب من المدرسة الى الجبهة وقال ان زوجته عادت الى المنزل في دائرة الاسكان. وسددهم عن كوكوشكين الذي اتى اغاؤه من التجديد وأرسل الى الحرب. استمع المقاتلون الى ذلك بشعور من المشاطرة. وقد اعجبهم الغاء اعفاء كوكوشكين من التجديد فذلك ما يستحقه هذا السارق!

فعلق تروفيفوف على ذلك قائلا:

- يعني انهم يحثون النظام في موسكو. شيء جيد. اما ان ابنك هرب من المدرسة، فاقول لك، يا ماليتين، ولا يهمني ان تزيل ام لا، انه كان صبا مشاكسا وظل كذلك. انني اعيش على يد شارعين عتكم ومع ذلك اعرف شيطنته كلها...

- لا بأس. - قال ماليتين الذي تأثر قليلا لهذه الامانة - لقد كنت بنغشي شيطانا في سنه.

- ومع ذلك - سأل محارب - شاحب الوجه كان قد جلس صامتا حتى الآن وقد اسند عدة يده - كيف تبدو موسكو بعد القصف الجوى؟ انا من سكان موسكو، من ابناء شارع كوروفوف.

- شارع كوروفوف سالم - قال ماليتين - الله يعلم كم مرة سدفكم تروفيفوف بذلك! نفوا به، فهو رجل جاد، لا يكذب ولا يشرب الخمر مع انه صياد مسك!

فهذه الجميع.

- ومع ذلك - سأل ابن شارع كوروفوف دون ان يقر له قرار - هل من المعقول ان التعمير في موسكو قابل الى الحد الذي تكتب عنه الصحف؟ ففى كل ليلة تحلق الطائرات فوقنا متوجهة الى هناك وهي تزأر وتغوى.

- تحلق الى هناك ولكنها لا تصل - قال ماليتين - فليس كل رصاصة تنبه لحرك تصاك! وكذلك هو حال موسكو. يدخل اليك من هنا ان القصف الجوى مستمر هناك وانه قصف قطع، وانا عندما نوبهت الى هناك الى الجبهة، كنت ارتجف من الهلع، ولكنني عندما وصلت لم ار ان الاحوال هنا قلبية الى هذا الحد.

لم يصدقه سيروتا فقال بلهجة متأدبة:

- لا بد وانك تتابع، ايها الرفيق المرشد، فكيف ترتجف من الهلع؟! والى عليه ماليتين نظرة جانبية ساعرة:

- كنت ارتجف حقاً. فهل تظن بانى لا اشعر بالخوف المعتاد؟! اننى اشعر بخوف شديد! - انحنى ماليتين في تلك اللحظة لدى سماع صفير قذيفة نزلت على انحنافس وامضى، ووجد في نفسه قدرة على الملاقاة نكتة: الا ترى كيف اركم للقتال؟!

انقسم اثنان او ثلاثة، اما ويهو الباقين فقد ظلت صارية، اذ ان القذيفة انفجرت على مسافة قريبة لا تسمح بالتفكير. وانفجرت قذيفة نهائية مماثلة في الامام. وتوزع الجميع للاعتصام بالبدان، بينما راحت القذيفة الألمانية المسعورة تنهال بالقذائف الواحدة تلو الاخرى على الراية كلها واتفاض معملها. وفاحت رائحة الدخان الخافق.

- يرم اسن حدة هؤلاء الانذال خلفهم عندما كنا نصد نحن هجومهم! - صاح سيروتا في اذن ماليتين - يرم اسن اطلفوا قذائف كثيرة جداً، واليوم يطلقون قذائف اكثر... لقد بدأوا من وايشتا.

لم يكن لدى احد متسع من الوقت للتفكير فيما اذا كان الالمان

قد حددوا هدفهم بالأسر، أم إن التزيق حالقهم اليوم. فقد أطلقوا
ثلاثة عشر قذائف متتالية على الزاوية جعلت الأرض تهتز وتصد مرارا
جانب إلى آخر. ووقعت إحدى القذائف داخل المبنى الذي لم ينج
إنشائه.

وكان ماليتين، شأنه شأن جميع الذين انطلقوا تحت الجدار للاحتاء
به من شظايا القذائف المنفجرة في الخارج، قد أحس في وقت واحد بالصدمة
والهدير والثلج وعصر التنفس. أنهار عليه حطام الجدار المنهار والكتل الجبلية
التي رفعها الانفجار.

استجمع ماليتين كل قواه، وهو يشعر بالاختناق وزحف من تحت
أكوام الطابوق والثراب التي أنهارت عليه. وقد وفق في ذلك لأنه غطا رأسه
ببديه قبل الانفجار، فكانت اليدان ملطقتين فوق الرأس.

خلص يديه أولا وتحسس وجهه الداس فراح ينش بهياج كل ما يقف
عن النور، وأخيرا تمكنه رغم إصابته بجرح في الأذن، من الخروج
من قعر الحبري، فنهض مترنحا على قدميه.

كل شيء حوله تحول إلى حطام، فالقذيفة الثقيلة قلبت كل مستتر
من السكان. وعلى الثلج المخلوط بالتراب المحروقة وبحطام الأسار استقر
الدم القاتم ويخفق معزقة من البركات العسكرية وأشلاء مشوهة من جسد بشري،
ومجزأة بداعلها ساق مقطوعة من فوق الركبة.

حط ماليتين يضع خطوات دون هدف معين، ثم ارتطم وتوقف.
قد غشغش شيء تحت جزمته. تعلق إلى الأسفل وولّى نظرات ترويض
باطحاراً الذي يعرف من الخطب السالفة عليه.

عاد إلى الركن الذي أنهار عليه الحطام فيه وادرك بأنه ظل على قدم
الحياة بسبب هذا الحطام. فقد تساقط الطابوق من غربة قذيفة انطلقت من
الخارج أساس الجدار، أما القذيفة التي وقعت في الداخل فقد انفجرت في
لحظة لاحقة بعد أن غطى الطابوق المنهار بدن ماليتين وسداه من الشظايا.

- يا جماعة! يا جماعة! - صاح ماليتين. وقد اخذ يتذكر من كان
مع في اللحظة الأخيرة.

كان معه سيروتا وكان معه الطالب الكيمياء ميخنيشوف. قايلا هذا
يا ترى؟ في هذا الجانب من الانقاض لا توجد جيشاها ولا حتى ما يبين
من الجسد البشري يد الإصابة المباشرة.

وتذكر ماليتين: «ربما قذفتها القذيفة ببداية وفي تلك اللحظة سمع

أنيما من تحت الطابوق الذي أنهار على ركن المبنى. اخذ ينش الطابوق محطما
الطابوق حتى استخرج من تحته سيروتا حيا، بل وقادراً على التحرك الذي
يشبه الرقبة في النور. وبدلاً من التصف السفل أوجهه رأى ماليتين عسيدة
دموية حمراء. كان ينش بحثجرتة وليس يفهم. وبخل لماليتين أنه ينش ليس
بمحتجرتة بل بإحسانه الجية التي لاحت من فمه التقي.

اخذ ماليتين خفت من الثلج ومسح بها وجهه سيروتا المربع فتحويت
إلى دم كثيف. ثم أخرج من محفظة الميدانية كيس تصيد ورفع رأس
سيروتا قليلا وراح يفسد له اسفل وجهه. في البداية تسي إن سيروتا بحاجة
إلى التنفس ففسد كل شيء حتى بدأ سيروتا يختنق. فاضطر إلى تصيدته من
جديد. وبعد أن ضمد وجهه العريض بالشاش الملوث بالدم سحبه ماليتين إلى
الحائط بحيث يكون رأسه أعلى كيلا يختنق بدمه. وفي تلك اللحظة رأى
سافا بارزة من تحت الطابوق في المكان الذي سحبه منه سيروتا.

عندما وصل إلى هنا قبل ساعة لاحظ أن طالب الكيمياء ميخنيشوف يرتدي
جزمة لبادية بيضاء ينزل مزودج. وقال ميخنيشوف أنه عثر عليها قبل أيام
في كوخ مهجور وأراد ماليتين أن يطلق كذبة بهذا الخصوص ويقول إن
الكيمياء استعد للشتاء أفضل من باقي أفراد القسيلة، ولكنه نسي ذلك
آنذاك. أما الآن فقد أدرك أن ميخنيشوف تحت الانقاض حالما رأى الجزمة
اللبادية بارزة من تحت الطابوق.

ثم يقنع ماليتين الوقت فراح ينش الطابوق على عجل من فوق
ميخنيشوف. بدأ من الفلين، ثم لام نفسه بصوت مسعور وقد يصوره
تخريته. رفع الرأس تحت الانقاض فزحف إلى هناك وراح يخلمه من الطابوق.
كان يجب البدء من الرأس كيلا يختنق الشخص إذا كان لا يزال حيا.
ظل ماليتين يلوم نفسه لأنه لم يفكر حالا في هذا الأمر البسيط وراح
يلقي بالأحجار إلى الجانبين يحماس مسعور. وأخيرا لاحت كفتا ميخنيشوف.
نفس ماليتين كفتا من تحت الشرة الطويلة فوجدتها دافئة. كان ميخنيشوف
حيا. أسرع ماليتين، ولكن بمزيد من الحذر فحفر بين الرأس، ولكنه
توقف فجأة وهو يمسك بطابوق رفعا توا من على كتف ميخنيشوف. كان
بدنه دافئا، ولكنه قد فارق الحياة. فالتسم النكوى للجحمة قد قسطه
كثرة الطابوق هذه.

عد ماليتين قاتته والتي بكثرة الطابوق غاصها، وفي تلك اللحظة سمع
لطاقات متقلبة من رشاش قريب. فعلى بعد أربعين خطوة منه في أساس

مدخنة الممل كانه هناك مقاتلون احياء يطلقون النار على الالمان. وتنفس
ماليتين الصعداء، فقد ظن في البداية انه ظل وحيدا.

اقرب ماليتين من سيروتا وقفه مرة اخرى وسلك بدنه اثنيتل بحيث
يكون محميا بشكل افضل من الشظايا في حالة وقوع انفجارات اخرى.
وبالسناسية فان نيران المدفعية الالمانية ابتعدت في الاماكن. عندما قتل
ماليتين سيروتا صدمت عن هذا الاخير من تحت الضد الدامي بقسم حركات
ضخيمة واحله يريد ان يصرخ، ثم بسط قبضتي يديه وكأنه متدهش لمجزة،
وبعد ذلك شد قبضتيه من جديد وسكن. الا ان صدره كان يرتفع وينخفض
بفتيح تقبل. التي عليه ماليتين نظرة اخرى، ثم اجتاز الجدار وصار في مسر
التوصيل المؤدى الى المدخنة والمغمور على عتق واطمء، بقدر نصف قنة
الانسان الى المكان الذي يتهدى منه صوت الرشاش المتقطع.

عندما بدأ إطلاق القذائف كان سيستوف، مع مساعده الجندي الشاب
كوليا بايوكوف الذي يخدم في الجيش منذ اكثر من عام، جالسين وراء الرشاش
عند احدى النجوشين المصقوفتين في اساس جدار المدخنة. كانا يشترنان بدون
اطلاق نار، حيث يوجهان الرشاش نحو اهداف محددة مسبقا. علما بانها
ثمرا الواحد بدل الآخر، سيستوف كمساعد وبايوكوف كرام اول.

امام الفتوة متحدر شديد يصعب قسم منه عن الانظار في المنطقة غير
المرئية، وبعد ذلك يتناقص الانحدار ويحول الى منخفض ملغى باللوج يتند
بزاوية قائمة امام موقعا، ومن وزاته قيدا زاوية اخرى تتواجد عليها باتي
فصائل سرهمي قرب ثلاثة منازل متباعدة قليلا. ثم تكن هناك خنادق في
المنخفض، وتم التشنين عليه من كلا الجانبين فكالت تطليه نيران رشاشين.
في الامس حاول الانسان الهجوم عبر هذا المنخفض بالقاذات، ولكنهم اغلغوا
بسبب النيران المدوية نغهم من كلا الجانبين، بل ولم يتشكلوا حتى من
نقل جثث قتلاهم مع انهم يقلعون ذلك عادة بمخاطرة. ويقال انه ض
في المنخفض اسير زهاء ثلاثين جثة، ولكن من هنا، من فتوة الرشاش، لا
يرى الا عدة جثث سواء على التلجج في الاسفل. سيستوف يتحرك مع بايوكوف
الآن على اطلاق النار الرمزي، وقد اتفقا على التشنين بموجب وقت مفروض في
التلجج ويتشنين في طرفي المنخفض عند مدخله ومخرجه.

بايوكوف الذي يخدم مع سيستوف طوال اسبوع يشبه بعض النجى
ذلك الجندي الذي وافق، في موسكو آنذاك، على استدعاء مناوب الادلاء
العام. فوجه بايوكوف وودي صقيل يشبه وجوه النجيات، وله حاجبان اسودان

مثل حاجبي ذلك الجندي. وعندما خلع قميصه اتمسح ان شعره الذي لما
كالشفة اشقر الى حد البياض.

وكانت خبصلات شعره متدلية على جبهتك قبل الحرب، اليس كذلك؟ -
سأله سيستوف في اليوم الاول لالتقائهما. فاستمع بايوكوف وقال: «بالفعل!».
وكرر سيستوف بان بايوكوف كان جميلا للغاية بشعره الاشقر وحاجبيه الاسودين.
وهو الآن حليق الرأس يرتدى قمعة شتوية عتيقة وكبيرة جدا. وبمطعنه العسكري
متلجج فوق الشرة القتلية. ثم انهما سيطلمان هنا في الغراء منذ ثلاثة ايام،
في البداية تحت الرطوبة، ثم في الصقيع. فقبل هناك مجال للجسمان!
نشأت علاقات لا طيب منها بين الاثنين منذ اليوم الاول لتعارفهما،
وعلى الاصح منذ اللحظة التي قال فيها سيستوف ان رامي الرشاش وصاعده
بسبب ان يجيدا كلاهما العمل بحيث يعمل احدهما محل الآخر في اية لحظة،
وبرز اقواله بالافعال، فانهمك منذ اول ساعة للهدوء بتعويده بايوكوف على
حساب الزوايا وتصحيح التصويب حسب المسافة...

بايوكوف فلاح كولتوخوزي من ضواش ريزان. وهو من ابناء قرية
سولوشا القروية وراء نهر اوكا والشهورة بيطاطها وبصيده السمك في المجرى
القديم لهذا النهر.

وبهما يكن من شيء، فالتاس لا يقاتلون طوال الوقت. وخلال اسبوع
تكن بايوكوف الذي يجيد الصمت والكلام تيبا لما اذا كان الآخرون يمشون
ام لا من ان يحدث سيستوف ويخبره بان له يكمل الدراسة المتوسطة لاسباب
عائيلة، توفي ابوه ومرضت امه. وقيل الحرب عمل رئيسا لفرقة كومسومولية
في جميع البطاطن، وهو راغب في الفلواة بدد الحرب ليكون مهنما زراعية.
وقال بايوكوف:

-يصين على في البداية ان اقدم امتحانات الدراسة المتوسطة من سية
صنوف. كنت اقوى لتقديم هذه الامتحانات اثناء الخدمة في الجيش، ولكن
حدث ما حدث...

وما حدث هو الحرب.

بايوكوف شاب نابه يثق بالآخرين. وفي كيس حاجبيه دفتر يحتوي
على اسماء جميع الكتب التي طالما في حياته. وعددها غير قليل بالنسبة
لشخص في عمره مائة واربع كتب - وافلها من الكتب الجديدة. وفي
الاسيات، اذا كان الوضع يسمح بذلك، يقص على سيستوف مضمون بعض
تلك الكتب بلهجة التميز التي يتكلم بها ابناء ريزان.

في القتال كانت واجبات بايوكوف تستأثر باهتمامه كليا. وهو في ذلك يشبه سيستوف، ولذا فقد فهم بعضهم البعض تماما.

فؤاد سيستوف مكسوس هو الآخر للقتال، فهو لا يتعامل مع نفسه املافا ولم تكن لديه أية مشاريع شخصية للمستقبل. فهو ينصوّر الآن كل حياته المرتبطة في الحرب... حتى للتصريح او حتى الموت - حياة جندي لا غير. وأهم شيء بالنسبة له الآن في التوجه هو معرفته بأن بايوكوف زميل جيد، فصار يمتز به من أجل ذلك، بل وهو مستعد لأن يقدم له أكثر مما يقدمه للعديد من الناس الذين يعرفهم من سنين.

عندما بدأ القصف الألماني سحب سيستوف وبايوكوف الرشاش قليلا من فوجيته كيلا تصيب شظية فوجته بالمسددة، وجلسا في مكان أوطأ في قدر اساس المدفعة المطوق بالمطابقين اللتين المقاوم للحمارة. وقد ادركا في الحال ان القصف شديد ودقيق. فقد دوت الاجزاء حوليهما من الانفجارات القريبة. ولكنهما، على النعوم، شعرا بالامان تقريبا هنا، داخل المدفعة، حتى في مثل هذا القصف. فان الصفوف المتعددة من المطابقين المقاوم للحمارة لا يمكن ان تخترقها الا قذيفة ثقيلة موجبة بنتشرين مباشر من مسافة قريبة، بل وبزاوية قائمة وليس بخط التماس. ومن الصعب على الشظايا ان تقع في المدفعة. فقد نام سيستوف وبايوكوف منذ الاسس الاول يتغطىها بصفائح حديد الرميل. وقال آخر القصيدة سيرونا ان هذه الصفائح اعدت لتكون حواجب لوابيات الافران. كانت الصفائح سيكة، بشرية ملتصقات، فغطت اثنتان منها المدفعة كلها تقريبا ولم يبق الا شق صغير. وغير الامام لتواجد فتحة الدخان التي صارت الآن بالنسبة للشظايا متغصلا الى المدفعة من تحت.

- انه معقل حقيقي - قال سيرونا بالامام. وكان سيستوف وبايوكوف يفقدان الشيء ذاته. بخصوص مدخنتهما.

ولا يمكن ان تغلفها رأسا الا اصليها مباشرة من قذيفة تقع على الضفيحتين اللتين تغلفان المدفعة. ففي تلك الحالة لا تسحق لهما طمبا، لا سيهل كان كلاهما. الا انهما لم يهشما يمثل هذا الحفظ العائر حتى خلال القصف الجاري الآن اكثر من اهتمامهما بأى احتياض آخر للموت من الاحتياضات المتوقعة في الحرب على أية حال.

أخذت النيران الألمانية تشتد بإطاراه. قلب بايوكوف جيوبه من الداخل الواحد تلو الآخر وهو ينثر منها على راحته حبات التبغ القابضة بين يديه. بالامام ايضا لم يحضرها تبعا. وقد قام بايوكوف بهذه العملية مرة، ولكنه

حاول ان يكرهها اليوم. فالتنيران شديدة الى درجة جعلته يتفعل. نهض سيستوف واقترب من فتحة الرشاش وتطلع الى المنخفض الثلجي المرعى عبرها. كانت القتالاث تضيئ هناك ايضا في الاماكن الخالية، ولكن بصورة اندر. اما في الزاوية ذات المنازل الثلاثة فالدخان كثيف جدا فوق مواقع القصفين المجاورتين. كانت القذائف هناك تصغير متوالية كأعمدة السحاب. وقد اخفى احد المنازل الثلاثة وكأنه لم يكن موجودا على الاطلاق.

اعتصر الالم فؤاد سيستوف ليس لخوفه من استمرار القصف، بل لانه فكر على. نحو قاطع: «حاشا ينتهي القصف يبدأ الهجوم». جلس قريب الجدار جنب بايوكوف وظل ينتظر نهاية القصف. وشعر فجأة بمسكة في الراس فاندبه لحظة ولمس بيده حفرا اثر الجرح فوق القود. قبل اسبوعين تخيل لزوجته كيف ان ذلك جرح مميت، اما الآن فلم يبق من هذا الجرح الا خدش يترك بجلد املس صغير اللسان وشعر ابيض قصير على الجانبين. فهم يفكر الناس في مثل هذه اللحظات انهم يفكرون، عادة، بالموء. شي. يفكرون احيانا بالسيما، واهيانا اخرى بالسيما غير مهمة، واسياقا يفكرون بهذه. وانك ما. انهم يفكرون في بعض الاحيان بصورة طبيعية حسب مجرى التفكير، وفي احيان اخرى يحملون انفسهم على التفكير بما يمكنه، كما يخيل اليهم، ان يلهيهم عن الخوف من الموت.

لم يجعل سيستوف نفسه على التفكير عمدا. كان يفكر بكل ما يتبادر الى ذهنه. الا ان الافكار تتعاقب ويدفع بعضها بعضا وكأنها تلتصق الا بتضع الوقت للتفكير في كل ما هو بحاجة الي التفكير فيه.

خلال هذه الايام هم عدة مرات بكتابة رسالة الى ماشا عما هو فيه وما يفعله. كان يريد لها ان تعرف ذلك. وكلما اشتدت رغبته في الكتابة كلما ساءل نفسه بقباسية: هل على اي عنوان؟ اين هي الآن؟ لديه رقم صندوق بريد المدينة، ولكن ماشا ليست هناك حاليا، فهي من زمان على الجانب الآخر من النجبة. والكتابة من هنا اليها هناك تلبه شررا وريقة الرسالة الخطيرة بشكل مثلث في جدار المدفعة الخصري هذا.

تذكر كيف جلست الفرقة في موسكو خلال تلك الليلة وراحت تفعل رجليه في الطست وتوسع طبقات الارواغ وتلصق الكلمات يرفق لتفعلها. وثر في دخيله حنان مقدر الى يديه الريقيتين حتى انزمت من قوة ذكرياته انفضها في الحال ولازم نفسه بهمس مسرع. سأل بايوكوف بدد ان تمكن من جمع بضع ساعات من فئات التبغ ولت منها سجارة رقيقة جدا.

— ماذا بك؟

— لا شيء — لوح ميتشوف يده بالأساء.

— ظننت أنك تذكرت حائلك — أطلق يايوكوف فككة غير مناسبة. تذكر ميتشوف بأنهم مكبوت قديم فردون وكل ما يرتبط بهذه الكلمة في ذاكرته الجريحة والمتخلفة بسبب الجراح. وهو رأسه دون وعي منه، كصبيان لدغة ذباب الخيل. ثم فكر بماليتين الذي رآه من بعيد عندما ارتقى السفح قبل ساعة، وفكر في الحديث بينها في اليوم الأول عندما عين ماليتين مرشدا سياسيا للشرطة. راجع ماليتين أثناء تعرفه على المقاتلين يتدفق البنائز السائل في قرية كليتسكي التي باتت البرية ليلتها فيها والتي صارت من زمان ضمن مؤخرة الإلحان. وبعد أن تحدث ماليتين إلى المقاتلين استدعى ميتشوف إلى خارج المنزل ووقف بإساقين متبادعتين ودس يديه في جيبه — تلك هي الوضعية المحببة لديه — وقال بملهجة الشجاعة:

— اكتب عريضة ووضح فيها ماغيبك. فقد التحقنا بوحدة عسكرية نظامية، ويجب أن يسود النظام كل شيء.

— لست أكتب؟ لقد سبق وكُتبت ... قال ميتشوف بكآبة.

التقى عليه ماليتين نفس النظرة الشجاعة وقال بنفس الصوت المتفرد:

— اكتب لي. وسوف أسلمها بنفسى إلى المقوض أو إلى الشيعة السياسية للفرقة. وهم سيقررون إلى أين يرسلونها حسب المائدة. ولكن أذكر الأشخاص والوقائع تأكيديا لها. أذكر أسماء الأشخاص. فإذا أرادوا التثبت من ذلك فليعلموا. اكتب العريضة اليوم طالما نحن تحت سقف. فمن يدري أين سننام غدا؟ — انقنا؟ — هز ماليتين رأسه بتعجبهم وسار باتجاه المنزل التالي؛ ولكنه توقف فجأة، وقادى ميتشوف. فاقرب منه هذا، وقال له ماليتين:

— اذكر باني مطلق على كل شيء منذ البداية. وأبدأ العريضة كالآتي:

وتعلمون سيدا باني ... ثم أضيف: — ... ولكنني أريد. أن أسجل ذلك لكي نطلع للشيعة السياسية بقيادة الوحدة ... مفهوم؟

— مفهوم.

في تلك الليلة جلس ميتشوف مرة أخرى ليكتب قصته — باليجاز ويذكر أسماء الأشخاص، كما قال له ماليتين.

ولكن الكتابة من جديد، رغم الإيجاز، شيء مؤلم بعد أن تحدث عن ذلك المأساة وليكن وباليتين، وبعد أن سجل ذلك كله في الادعاء العام، وبعد أن تذكر مرارا عندما كان يخلو إلى نفسه. وهل جاء إلى هنا، يا

نرى، يقاقل أم ليكتب العرائض؟ ومع ذلك كتب العريضة وسلمها إلى ماليتين. وكان ذلك في اليوم الثاني من السيرة في الجبهة. كانت الفرقة تنفذ على الجناح المكشوف وتنسحب على عجل إلى المواقع الاحتياطية. وكانت، قلما، ماليتين الجيوش أكثر من المتحاذ تنحوصان في الأوساخ الكثيفة حتى اقترب من ميتشوف وأخذ من العريضة صامتا ودسها في جيب مظهره. ولم يتحدث عن ذلك فيها بعد مع أي ميتشوف رأى ماليتين مرارا.

حاول ميتشوف الآن، وهو يستمع إلى الممرات البعيدة التي شيد لها الأرض. أن يتصور كيفية تسليم ماليتين العريضة، ولعن سلمها، وما التي قاله أثناء ذلك، وإلى أين سيذهبونه، هو ميتشوف؟ إلى الشيعة السياسية أم إلى الشيعة الخاصة؟ ومع أنه يعتقد بأن أحدا لن يعيده من الخط الأمامي بعد عشرة أيام من القتال، فقد كان عدم البت في مصيره يؤثر قلقة. وأضيفت إلى ذلك فكرة كئيبة هي أنه يمكن أن يصاب بجرح فيقتل إلى المؤخرة. وعندها سيقول وداعا لهذه العريضة وبماليتين على حد سواء؛ وسيخرج من المستشفى ويبرل إلى وحدة أخرى، وسيضطر إلى كتابة كل شيء من جديد ...

— اسمع! — صاح يايوكوف في أذن ميتشوف ليخلو صوته على هدير المدفعية.

اعتقد أن قليفه أصابت الشبان هناك!

اقرب ميتشوف من الشجوة الاحتياطية ورأى عبر الدخان التلوج أن أحد جدران العمل غير الكامل كأنها نقا أربما مما كان عليه.

— اعتقد أنها أصابهم — قال ميتشوف مرتعبا.

كان ذلك في الدقيقة المباشرة على وجه التقريب بعد بدء القصف الألماني. واستمر القصف ثلاثين دقيقة أخرى ثم ابتعد في أعماق المؤخرة. وبدلا من الانقذارات القريبة صار يسمع فقط الأزيز المتلاحق للذخائر المنطلقة فوق الرؤوس.

— راقب، يا كوكلياء، المنطقة من هنا، كن على اتصال، فربما سيظهر أحد — قال ميتشوف لكوكلياء يايوكوف وأشار إلى الشجوة التي يرى منها عمل المارق، وذهب من جديد إلى الشجوة التي يستقر فيها الرشا.

الرؤية جيدة من هنا: في المؤخرة سيجاز من دخان الانفجارات، وعلى الشخصفص اللطيف بين رابية محل الضابوق ورابية الشنازل الثلاثة زحفت الدبابات الألمانية. دبابات المقدمة أحدث تسليح السج نحو المكان الذي كان فيه ثلاثة منازل وظل فيه الآن منزل واحد مائل. وفي سرايبد تلك المنازل وفي الخنادق حولها تراكب قصفاليان من قصفالينا كما يعلم ميتشوف.

توقفت البداية الانامية والمطلقت النار من مدفعها فانهار على الجليد آخر منزل مائل وكأنه مكعب من ورق. وانفجرت اطلاقه تحت البداية فصار تدمر في مكانها، ثم انضمت تحتها اطلاقه اخرى فارفع دخان اسود كثيف من البداية. وقفزت اشباح سواد من الكوة العليا الى الخارج. والمطلقت عليهم رصاصات نادرة من الجنادى. الريح تهب من تلك الجهة. والاصوات مسموعة، جيا، فزاد ذلك من الفلق بسبب قلة رصاص الجنادى. ولم يكن يجرى اطلاق النار تقريبا من الاساكن التي تراطب فيها فضيلانا. مرت البداية الثانية جنب البداية المحترقة واجازت الرماية واخضت وراء قمتها. وكانت الديابات الواقعة في المنخفض تتقدم هي الاخرى الى الامام دون عائق. مضت دقيقة اخرى. فظهر المشاة الالمان في مجال رؤية سينتوف. فقد سارت سلسلة من الاشباح القائمة على التلج خلف الديابات.

يا بايوكوف، الى الرشاش! صاح سينتوف وقد رأى عبر الشق وقد التفتين الذى تشير مقدمة الالمان على بعد اربعين مترا تقريبا عنه. هرع بايوكوف الى الرشاش ودل من وضعية شريط الخراطيش وتطلع في البداية عبر البصيرة، ثم تطلع بوضو من الاعلى الى وجه سينتوف. وكانت نظره التالفة تتساءل: وماذا لا تبدأ؟ ولكن سينتوف انظر نصف دقيقة. فالتفتين على الولد دقيق، وهو يريد الاستفادة من ذلك. يلتفت سلسلة الالمان مستوى الولد. فاطلق سينتوف صلبة قصيرة، ثم صلبة طويلة، فصلية قصيرة عندما قفز الالمان واتصلحوا في البداية قرب الولد. وكانت الصلبة الاخيرة، على ما يبدو، هي الاكثر توفيقا. فقد سقط من جديد خمسة من الالمان الذين قفزوا ولم يعدوا للتهوس او الترحيل بعد ذلك.

ماذا؟ قرب سينتوف وجهه من وجه بايوكوف وسأل على عجل بعد ان توقف للحظة: كيف حال رقائنا في العمل؟ لا ارى احدا اعشى ان يكونوا قد امسوا - اجاب بايوكوف. وعندما سمع سينتوف هذا الكلام اطلق صلبة اخرى اقصر مما كان ينرى. فقد بخل بالخراطيش، وذلك ظاهرة تتجلى عنه الجنود عندما ينزلون لخدمهم.

طوال خمس دقائق واصل سينتوف وبايوكوف اطلاق النار غارة الالمان عرعى على الجليد بين العين والآخر واعاقا تقدمهم. ثم اباد الالمان تنظيم صفوفهم وراحوا يتراكمون على جانب المنخفض الابد. وكانت نيران

الرشاش تملج تلك المنطقة، ولكن مدفعها ضعفت. وعبرت سلسلة الالمان السوداء رابية المنازل الثلاثة. ولم يطلق احد النار عليهم من هناك. وذلك يبنى ان كل رقائنا قد ايدوا.

وانطلق راسي الرشاش المائى مع مساعده على التلج مباشرة وقد وضع ماقه - رأى سينتوف وبايوكوف ذلك من هنا - واطلق النار ردا على رشاشهما. راحت الرصاصات ترتطم بالطابوق عند البصيرة مباشرة. كان الالمان يهدف بدقة، ولكن موقفه غير ملائم. فهو ينطلق في مكان مكشوف. وبعد اخفاق الرشاش على التلج لما بسبب الصلبة وما لان الالمان محبة بيد قتل ان يحوت. وخيل لسينتوف ان مساعده راسي الرشاش رقد ميتا على التلج ايضا. ولكنه بعد بضع دقائق، عندما كان سينتوف وبايوكوف مشغولين باطلاق النار على اهداف اخرى، سحب بايوكوف يد سينتوف وقال:

انظر، الساعه...
تطلع سينتوف فرأى شعبا واحدا فقط يقف على التلج قرب الرشاش.
هرب زاحفا... قال بايوكوف ولاحظ في صوته مسحة من الاستنكاره
قتله عن الاسب. فهو بايوكوف، لو كان يدل هذا الالمانى لما حرب باخفا، بل ليواصل اطلاق النار لوسده.
واخيرا قرر الالمان التخليص من هذا الرشاش الذى اقلقهم والذى ثم يكونوا في البداية قد التفتوا اليه خصيصا على ما يبدو، بسبب حساس الهجوم، فاعلموا رجالا دباباتهم. كانت الديابات قد بدأت تخرج من مجال رؤية سينتوف نحو اليمين، ولكن احدى الديابات استدارت فجأة. ظل سينتوف ان اللهابة اصيبت بعطب، ولكن البداية سارت بسرعة نحو رايتهما مباشرة. وعندما اقتربت من الصفح تباطأت ثم توقفت. وقال بايوكوف:

متفرتا.
هو سينتوف رأسه موكدا. ثم قال:
اذهب وانصت لتعرف كيف حال رقائنا هناك.
فتحت الكوة في برج البداية وبرز منها الشانى لعله اراد ان يطلق على الشوق بشكل افضل.

سقط سينتوف صلبة عليه، فاختفى الالمانى واتفقت الكوة. وبعد لحظة انقضت دقيقة بالجدار قرب فجوة الرشاش. وعند ذاك وجه سينتوف، لكى يثبت بانه لا يزال حيا صلبة طويلة غاضبة نحو الانسان الذين كانوا لا يزالوا يتراكمون في المنخفض.

وفكر سينسوف، وأنهم يسيرون بكثافة، في عدة سلاسل. كل شيء مرئي جيدا من هناك وقد رأى بصورة جيدة لأول مرة في حياته كيف يجري القتال ويتوسع.

- أنست فلم أسمع شيئا، ولا املأحة واحدة... أليس من الأفضل ان اذهب الى رافائيل؟ سألت بايوكوف.

- جيدا - قال سينسوف - ولكنني أخشى ان لا أتمكن لرجوعي هنا... اطلقت الدبابية قذيفة أخرى على مغربة من التجو، ولسط سينسوف صلية جديدة على المشاة وكأنه يقول:

«كلا، لا أزال حيا».

- قد ترغب الدبابية في الاقتراب. حي! القنايل اليهودية! - قال سينسوف بصوت أرفع.

رفع بايوكوف من الأرض حزمة من القنايل اليهودية المربوطة بسلك وعرضها امام انظار سينسوف صامتا.

املقت الدبابية عدة قذائف أخرى، ثم قررت ان تقترب كليا، وقد توقع سينسوف. رأيت الدبابية ذئبا مكبوتا يسترها الأولى - وكان قرب هذا التأثير يثير الخوف - وتحركت من مكانها وزحلت مائلة ببطء على السطح الشحبي، ثم غيرت اتجاهها وصعدت الى اعلى بشكل متعرج ووقفت في المنطقة غير الدورية. وصار سينسوف وبايوكوف يسمعان الآن زفيرها المنتن العالي. وقال سينسوف:

- اذا اقتربت ستطلق النار على التجو.

- عند ذلك اضرب انت في شق الرزية - قال بايوكوف - وسأزحف انا نحوها لاضربها بالقنايل اليهودية!

الا ان سينسوف لم يجب، بل سلط صلية على مجموعة جديدة من الالمان المتراكسين عبر المتخففس.

طلت الدبابية لير البرية تزول في مكان ما في الخارج. وغلب لسينسوف انها واقفة في نفس المكان دون ان تقترب او تبعد. واخيرا ظهرت الدبابية من جديد ولكن ليس امام البديعة، عند الفجوة مباشرة، كما كانوا يخشيان، بل انزلت الى الاسفل، الى مكانها السابق. وقال سينسوف فرسا وهو يمسح العرق برذاذ:

- لم نستطع ان نتصاق على الثلج المتجدد! ارتفع غطاء كوة الدبابية من جديد وظهر للتحفة رأس الالمان ثم اطلقت الكوة، وزحزحت الدبابية قليلا لتغير موقعها. ارتفع المدفع، كالسيارة،

ثم هبط ليأخذ التجو هدفا. اضرب سينسوف اشد الاضطراب. ارتطمت القذيفة بالجدار قرب الفجوة تماما ونقشت الطابوق. وسدنت الدبابية ضربة أخرى ونقشت الطابوق من جديد. وبعد ذلك دوى انفجار يصم الاذان ويدير حديد من الصلحيتين اللتين انخرجا عن موقعهما وانزلهم رأس سينسوف بالجدار منبأة فاصاب الصمم كالما اذنيه. غيب اليه ان القذيفة اصابت فجوة الرشاش وانفجرت في الداخل، مع انه لو سمع ذلك لما بقي منه وبايوكوف شيء.

اما في الواقع فقد ارتطمت القذيفة بطرف التجو من الخارج، واندفعت الى داخل الدبابية عدة شظايا مع موجة الانعراج. شعر سينسوف بالم عقيب في النفا، وخرج الى الرشاش، ورأى الالمان الذي رفع غطاء الكوة ووقف بالمشقان على البرج بكامل قوته وراح يقطع الى فتانج الضربة وقد غملا بين بطرف طابوق ليحميها من ضو الشمس الساطع.

حرك سينسوف فجوة الرشاش حركة خفيفة فصرق نحو الطرف العلوي لارج الدبابية وكشفي الالمان وضغط على الزناد مسلطا، بهذه الحركة الخفيفة، جام غيبه وحققه على الالمان. انشطر الالمان الى نصفين عند المخصر وكاد يسقط من الريح. الا ان احدا من الداخل سحب هذا القتل من قلبه - كان سينسوف واقفا من انه قتل - ثم اغلق الكوة. انقلت الدبابية ثلاث قذائف متوالية أخرى من موقعها، ولكنها ليست دقيقة، اذ اصابت البديعة قذيفة واحدة فقط منها، ثم استدارت وهدبت نازلة.

عند ذلك فقط ترك سينسوف الرشاش والمعنى على بايوكوف الراقدة بلا حراك. وكان يتن يصوت خافت.

- ماذا بك يا كولايا؟ - سأل سينسوف وقد شعر بعودة موجة. - اصبت في الظاهر... عند الناصرة - قال بايوكوف بخفوت. حاول ان ينهش قليلا على يديه، فربلاء لم تكن تتلوانه. رفع سينسوف معظم وسرة بايوكوف قرأ على ظهره بقعة دائمة صغيرة. اشطية صغيرة، ولكنها اصابت اللوح الفخري، فلم يتمكن بايوكوف من الحركة. انهلك سينسوف في تفسيده، فقال بايوكوف وهو يهزج اصابعه:

- يدلي سالماتان. قريني من الرشاش وصوت ازودك بالشرطة الخراميش. ادرك سينسوف رقرية من الرشاش. قد ن بايوكوف انيل قصيرا ولكن تمكن مع ذلك من الوصول الى الشرط وادخله في الرشاش يسرعة خفيفة. - لا أزال قادرا على ادخال الشرطة! ماذا حدث لقدسي؟

— أصبت برصة بسيطة، وستشفى منها... — قال سينتوف دون أن يتعق في معنى توضيحاته. كان يريد تهدئة بايوكوف لا غير.

فطلع بقلق غير فجرة الرشايش، ثم يكن يريد تقوية الألمان إذا دخلوا من جديد مجال الرماية في المستقبل، مع أنه احسن في الوقت ذاته بأنهما كلما اتفلا على الألمان كلما حلت بصورة أسرع، في أغلب الظن، نهايته ونهاية بايوكوف وشأنهما.

وفكر بأن الألمان يمكن أن يصعدوا من السفح الآخر، ولا يستطيع هو وبايوكوف أن يدافعا عن القوميين في وقت واحد، ترك الرشايش لحظة وهرع إلى الفجوة التالية. تبعد اللذان فوق ممل الطابوق من زمان، وساد صمت مطبق هناك. لمعلم جميعا قد قتلوا، ولا تكيف يفسر هذا الصمت؟ ركض عاقدا إلى الرشايش ونظر من جديد غير فجيته.

— انظروا! انظروا! — صاح بسوت عال وأصجاب غامر، مع أن بايوكوف قرب ولا داعي للصياح.

انبعثت حمم من التهييب والدخان الأسود الكثيف يهدير موعب هناك، من الخلف، على الطرف الشرقي للمستنقض وأبعد منه، قرب سياج محطة الجارات التي اجتاحتها الألمان، وإلى اليسار، على الزاوية المجاورة التي حلت فيها الفصيلتان. وغيل لينتوف أن الأرض نفسها تنضجر تحت أقدام الألمان. ووسط الانفجارات تترافق أشباح وتقع على التلج، ثم تترافق من جديد... بينما استمرت الانفجارات متواصلة بشكل خط يلهم أربابا جديدة متزايدة من الأرض.

بايوكوف يعرف ذلك، أما سينتوف فلم يكن قد رآه سابقا، ولكنه أدرك ماغيته بصدمة فقال:

— مدافع «كانتاش» الصاورونية. «كانتاش»...

وقال بايوكوف:

— نعم. رأيتها في معركة بليشا.

تطلع الأثنان، السليم والجريح، مسحورين، إلى ذلك المشهد القليل الذي أثار الريبة قورا في سرقة الألمان بعد أن كانت جديدة التنظيم تماما قبل ذلك. ظل مشائهم يراهم في مكانهم، ثم بدأوا يتراجعون. وفي تلك الأثناء أخذت تنضجر في كل الأماكن التي احتلتها الألمان ثوا ثقائف المدفعية العادية وليس صواريخ «كانتاش».

استمرت الدبابات الألمانية إلى الغراء واقتربت من رابية المنازل الثلاث

التي أصبحت من وجه الأرض وأخذت تطلق النار من هنا. ومن داخل القاذبة الصغيرة على يمين سياج محطة الجارات زحفت إلى طرف القاذبة سرج من دباباتنا وأخذت تطلق النار على الدبابات الألمانية. هنا هي النار تشتعل في دباباتنا، ثم في دباباتنا أخرى... وهنا هي إحدى دباباتنا تحترق، ثم دباباتنا أخرى... شد سينتوف قبضته إلى حد الألم وهو يراقب هذه المباراة. أما مدافعنا فقد وأصلت طلعتها في كل العقول أمام محطة الجارات وفي المستقبل وعلى رابية المنازل الثلاثة وأبعد من ذلك وراء الرابية... وظلت الثقافات تنضجر، فأخذ الألمان يتسحبون. وذلك واضح تماما الآن. ثم رأى سينتوف فجأة أن مجموعة من الألمان المتسحبين من محطة الجارات، وبدعم ستون شخصا تقريبا، وأحت تهر وشاشا قليلا وشعاشا للمستنقض الذي يتعرض للمستنقض وتجه نمو اليار بسلسلة عريضة صاعدة على الرابية التي يربط بها هو سينتوف. سلط على هؤلاء الألمان صلبة، ثم صلبة أخرى، فأطلقوا واستندوا إلى يسار ذلك المكان، ثابروا فيه أكثر حتى غدا خارج مجال رؤية سينتوف.

ساعد بايوكوف وقدم الاشارة عدة مرات بحركات متشنجة. كفت سينتوف عن إطلاق النار. فقد كان من الضروري سحب الرشايش بأسرع ما يمكن إلى الفجوة الأخرى. — كقولنا، يجب سحب الرشايش... — بدأ سينتوف كلامه ورأى رأس بايوكوف ساقطة على الطابوق دون تأمل من حياة.

كانت يده لا تزال تمسك بالطربوط، ولكنه فاقده اليوي.

أبعده سينتوف ثم انهمك بسحب الرشايش وهو يفكر بصورة مضمومة: كيف يتسكن لوحده الآن، بدون مساعد، أن يعاقب النار بلا انقطاع. وفي تلك اللحظة التي كاد يجار فيها يسحب عجزه ظهر مالبين من لثة مجرى الدخان ووجهه مقلع ملطخ بالدم ويده بديقة. وسأل مالبين:

— هل تطلق النار من زمان؟

— منذ أكثر من ساعة.

— كيف ذلك؟ غير معقول. — قال مالبين.

خيل إليه أن اغصامه استغرقت ثانية واحدة، في حين أنها استغرقت نصف ساعة. خيل إليه أنه غلص سيرونا وبخينتوف من الانقراض يضع دقائق، في حين أن ذلك استغرق زهاء ساعة وعظما سبع صليات سينتوف، لم تكن تلك الصليات هي الأولى إطلاقا، بل كانت الأخيرة التي سلطها سينتوف قوا على الألمان الزاحفين نحو الرابية.

تطلع سينتوف الى وجه ماليتين على عجل. قالوث لم يكن مناسباً لتوضيح مدة وكيفية إطلاق النار. وبدلاً من ذلك قال لماليتين بلهجة وكألفا سينتوف الآن هو الاقدم:

-ساعدني في سحب الرشاش الى تلك القبضة. فالالمان يرحفون من تلك الجهة!

سحب الرشاش. وأنتطح ماليتين في مكانه المساعد دون ان يتعلق بكلمة، وبعد دقيقة دخل مجال الرؤية امامهما اولئك الالمان الذين يتسلقون الرابية على عجل.

-هيا! -قال ماليتين بصوت خافت.

الا ان سينتوف الذي صار يعرف عليه جيداً لوماً اليه بان ينتظر لحظة. الالمان يسرون مستجلبين دون ان يملأوا الاحتفاء. وأسس سينتوف بانهم يأمنون بان لا يهددهم إطلاق الرصاص من هذه الجهة لانهم صعدوا الرابية من الصورة. وبالنسبة فقد شملت مفرزة رشاش مواقع خفية، تحسباً للعدوى. وكانت على أتم الاستعداد لتفليط هجوم الالمان اذا تمركز احد على قمة الرابية. فقال ماليتين بتخوف:

-نصبروا رشاشاً لتفليطية.

هز سينتوف رأسه صامتاً، فقد لاحظ ذلك.

صعد الالمان متسعين أكثر فأكثروا في مجال الإصابة الفعلية الكثيفة، وكانوا في الوقت ذاته يقرّبون مع كل خطوة ينظفونها من اللطخ المشد الذي يبدأ وراءه المجال الذي لا تملئه نيران رشاش سينتوف. وفي الخلف، من وراء ظهورهم حدثت الدفعية.

-مدفعية؟! -أرتمشت غشا ماليتين.

هز سينتوف رأسه بالاجاب مع انه لم يكن في تلك اللحظة يرى شيئاً غير الالمان الصاعدين الى الرابية وبغير جزء من الحقل الثلجي وراهم. كانت قد بقيت عثرته خطوة بين الالمان والتفتحة التي لا تصلها نيران سينتوف عندما ضغط على الزناد وراح يدير مقبض الرشاش بصلابة وأوسع من اليسر الى اليسار ثم الى اليمين وهو يرسم قوساً فاكاً من الرصاص على الأشخاص الذين لم يستطعوا يمد. وكانت تلك من الحالات الشادة في الحرب حيث تجد صلبة مناجاة وبحسوبة جيداً جماعة كدلة من الرجال على مسافة أقل من مائة متر. سقطت الجماعة، وهبط عدة أشخاص في محاولة للوصول بأقصى السرعة الى منطقة الشجرة. وأطلق سينتوف ضربة، ثم ضربة أخرى!..

ركاد اولئك الالمان الإراقتين يصل الى منطقة الشجرة. ولكن يجهز سينتوف بلى هذا الالمان أيضاً انظر الى حش الرشاش عن آخره. وسلط رشاش الالمان سلباته على القبضة في هذه الجهة، الا انها كانت ضيقة فراح الرصاص يقتت الطابق حولها لا غير.

وقال سينتوف:

-سأنتي مجموعة أخرى.

وبالفعل نهضت من وراء الرشاش مجموعة أخرى من الالمان وصارت الى الانام. لم يطلق سينتوف النار عليها. بل ركز كل انتباهه على الرشاش الالمانى. فبسبب نيران الالمان التجوية أصابت وجهه، عند عينه اليسرى الضيقة المغنيز، شظايا صغيرة من الطابق، فجعله الالام يفتق جفونه لدوية التمر، وسلط الصلبة الأخيرة على الرشاش الالمانى فأصاب كلا الالمانيتين المتلجحين خلفه. غر أحدهما على جنبه. وقفز الآخر ثم وقع على ظهره وتخرج على المنحد. وعندما أحست المجموعة بان الرشاش وادها قد صمت لم تستعمل ذلك فتوقفت ثم ركفت الى الأسفل.

ارتبك سينتوف لهذه المفاجأة. فقد غيل اليه ان الالمان يتوجهون الى هنا جماعة اثر جماعة الى ان يقتل هو وماليتين وراء الرشاش. وفجأة احتار الالمان وركضوا عائدين قصد توجيه ضربة متأخرة أعطت الهدف مرمقة فوق الرؤوس. صبح اثنانين. ولكن الاوان قد فات. ترك مقبض الرشاش والتفت بوجهه البليل من الفرق نحو ماليتين:

-أفصص عيني يا رفيق ماليتين... ماذا حدث لها؟

-أفصص جفنيك، لماذا تضيقها؟

-لا استطع... عيني تؤلمني...

قرب ماليتين وجهه من وجه سينتوف وقال انه لا خطر هناك. فلا شيء، غير كدمة تحت العاجب.

فتح سينتوف عينه موساً بين جفنيها بأصبعين. عينه تؤلمه ولكنها تبصر. وقال ماليتين:

-يعني أننا تغلبنا منهم.

لم يجيب سينتوف بشيء، فهو أيضاً يتصور بانها قد تغلبوا من الالمان. لا احد يعرف ماذا سيحدث. ولكنها الآن تغلبوا منهم. يبدو ان الانشقاق الدام قد في ضد الالمان فلم يستمروا فيما أقدموا عليه حتى النهاية. -مساعدةك؟ قل؟ -بايوكوف؟ -سأل ماليتين.

- كلا. اغنى عليه فقط .

ركع ماليتين قرب بايوكوف: - اين جرح؟

- في الخاصرة .

فتح ماليتين: مثلما فعل سيستوف قبله، مسك بايوكوف وبستره ورفع قميصه وتطلع طويلا الى الشاش الذي تقع بدم قائم على الخاصرة، وعرض شفته .

- يبدو ان حاله سيئ . هل عندك كيس تضديد آخر؟

اخرج سيستوف من جيب مسطحة كيس تضديد واقفى به الى ماليتين دون ان يتعد عن الرشاش . سحب ماليتين شريط الكيس وضمه باستانه ورفع بدن بايوكوف الفاقد الوعي وراح يمسده مرة اخرى فوق الشاش القديم .

عندما كان ماليتين يمسده بايوكوف اخذ هذا يثن بخفوت دون ان يستدير وعيه . فقال ماليتين:

- انه يئن . وربما يستعيد وعيه... كيف حال الالمان هناك؟

- لا ارى لهم اثرا .

- اعتقد ان قوتنا تضادهم .

- انقل عبر تلك الفجوة .

تطلع ماليتين عبر الفجوة وهرع الى الرشاش، وصاح بصوت ارجح: - هيا! هيا!

سحبا الرشاش الى الفجوة الكبيرة . وبينما كانا مشغولين في التنقيب تمكن حشد من الالمان السحيين عبر الشخض من تجاوز منطقة تيران الرشاش . غفت القتال وتم طرد الالمان من كل الاماكن ما عدا رابية المنارة الثلاثة التي احتلوها منذ البداية . والآن تقرب مدفعية هذه الرابية الخالية الآن، ولكن الالمان تمكنوا من ابطال الهاونات اليها وراحوا يردون على النار بنار شديدة .

كان سيستوف قد ادرك غلال هاتين الساعتين ان كل رقابتا التي كانوا على تلك الرابية قد ايدوا وان الالمان يحتلونها الآن . اما ماليتين فلم يفهم ذلك الا الآن . ان الاغلبية من الاء شخصا الذين كانت سرية تتكون منهم في صباح اليوم اموات الآن هناك على تلك الرابية التي احتلها الالمان، ومما بين انقاضي مصل القايوق .

- ايدت السرية - هر رأس متأثرا واضاف يلوم نفسه بغير حق . - غفلت عن السرية حتى ايدت وبقيت انا على قيد الحياة!..

- لماذا تكلم على هذا النحو يا رفيق ماليتين!

- اسكت انت . قلنا اعرف... هر ماليتين رأسه بهياج شديد وقد حز الالم في اسواق فؤاده - انظر عبر تلك الفجوة، اليس هناك البان؟ احسن سيستوف بان ماقيه لا تقويان على حمله من شدة التعب . - كلا، لا احد هناك - قال وجلس قرب الجدار .

وفي تلك اللحظة سمعا كلاهما، هو وماليتين، في وقت واحدة خشنة جعلت ماليتين يمسك بالقبلة اليدوية المتدلية من حزامه، ولكنه خفض يده في الحال .

قد لاح من الشق السفلي رأس سيروتا . وكشفه . كان آمر القصيلة قد افاق من غيبوبته وزحف الى هنا على اصوات اثار وسحب معه بنقيته . زحف ووصل ولا احد يعرف من اين له القوة الكافية . فعندما ساعده ماليتين على الخروج من الشق لم يستطع ان يقف بل ولا حتى ان يجلس . فقد اسدوه الى الجدار كالكيس . القسم السفلي من وجهه الممسد بشاش غدا احمر قائما، في حين كانت جبهته واعلى وجتيه شاحبين كالورق الابيض . استد الى الجدار دون ان يحرك رأسه، بل راح ينقل نظراته بين ماليتين وسيستوف ويبدل جهدا ليقول شيئا . ربما كان يتصور بانه يتكلم، ولكن ما ينبغي من تحت القصاص ما هو الا اصوات كالنباح الخالي من المقاطع والكلمات .

فقال ماليتين وقد اغنى عليه وهر رأسه مهدئا:

- مفهوم، يا آمر القصيلة، مفهوم، فكرتك واضحة . كل شيء علي ما يرام . نخلصنا من هجوم الالمان . وربما نستصل قوتنا قريبا ونستقدم لنا امدادات... .

الا ان سيروتا واصل جهده ليقول شيئا ما . ومن جديد لم تفهم ولا كلمة واضحة مما قال . لم يتحمل ماليتين اغريا قاروق هذا المذاب المشترك: - لا تحاول الكلام، يا سيروتا . لكن انهكك مهما حاولت . فمك حلقم... انك تلفظك اصواتنا فقط وليس كلمات . سيمالكك في المستطفي ونستعيد قدرتك على الكلام، اما الآن فلا تبتذل جهدا ولا تذبذ نفسك... . تطلع اليه سيروتا يمينين يمتصتين وكأنه لا يصدق بما يقول، الا ان ماليتين هر رأسه بالانجياب من يديده، فد سيروتا يده الى التفتية ووضعها على ركبتيه يجهد جهيد ومال برأسه الى الحائط وأغلق عينيه . - الا ترى احدا من جهتك؟ - سأل ماليتين من سيستوف الذي وقف قرب الفجوة من جديد .

- لا أحد - اجاب سيستوف بصوت كالصدى .

- اذا لم يصل احد من قواتنا قبل حلول الظلام فسابقى انا معها - قال ماليتين وأشار الى الجريجين - وسذهب انت من اجل الاتصال . فلا يجوز تسليم مثل هذا النوع . ويمكننا من هنا ان نحرر تلك الزابية اذا كنا لسنا من الحمقى - قال وتطلع غير الفجوة الى الزابية المجاورة - هذا لو عرفنا احوال ايونوف؟ - تذكر ماليتين آمر السرية بعد فترة صمت - فهو ليس ذلك الشخص الذى يمكن ان يهرب ويترك سريره ... لماذا انت صامت يا سيستوف؟ - سألت ماليتين بعد صمت دام بضع دقائق .

- اننى افكر .

- هم تفكروا حدثنا اذا لم يكن ذلك من الامور ...

- افكر بين ايوس معنا ...

- من تقصد؟ وضع ...

- زويشي .

- لا يبقى لاحد منا ان يصطلب زوجته هنا - اطلق ماليتين تلكه ككلمة - فلا فزع في التفكير بها . ولكن يجب الكتابة اليها بعد مثل هذا اليوم ، واخبارها بانك بقيت حيا معافى بفعل ابنها لاتها .

لاذ سيستوف بالصمت . ولم يرد عليه .

لم يأت افراد من قواتنا الا بعد ساعة ، قبيل الشفق . فى الداية جاء ثلاثة استطلاعيين قبل ايام ان رافقنا ، على ما يبدو من القتال ، سيبتا فى هذه الزابية ، ولكن الموقف غير واضح ، وهناك مجال لمختلف الاحتمالات . زعمت الثلاثة حول المدخنة من جهات مختلفة وبمنتهى الحذر حتى ان سيستوف شاهد واحدا منهم فقط فى آخر لحظة .

- نحن نراقك ، فلا تحاول الاغتيال! - صاح سيستوف متنبها الضدهاء وقد لاحت فى ضوءه فرصة جعلت الاستطلاعى يثقل بهذا الصوت وينهض بكامل قوته فوراً .

وبعد الاستطلاعيين وصلت الى الزابية فضيلة ، ثم وصل ، بعد حلول الظلام ، آمر الكمية الملازم الاول ريباشينكو مع جنود الاتصال الذين بدأوا ملك البلوفون . وكان مكلفا بمهمة ازالة الالمان فى الليل من الزابية المجاورة التى لا تراك تسمى برابية المنازل الثلاثة رغم كل ما حدث . وقيل

المركبة الليلية نقل وريباشينكو مركز قيادته الى هنا ، الى معمل الطابق ، لان فيه خط الانطلاق الاكثر ملائمة للهجوم الليلي .

قدم ماليتين تقريراً شتويًا عن القتال الذى جرى عند انقراض المعمل وقال ان رامي الرشاش سيستوف وساميد . بايوكوف قاتلا بالشكل اللائق فى معركة غير متعادلة . ولم يعمل ماليتين نفسه على قول شيء اكثر من ذلك . ولكن آمر الكمية يدرك بغضه انهما قاتلا بالشكل اللائق .

قد رأى من مركز قيادته كيف تساقط الاموال المتقدمون فى المنخفض . وكيف حاولت الدبابات احياء الرشاش ، وكيف حاول المشاة الالمان الصمود الى الزابية أثناء الانسحاب ولكن دون جدوى . ثم ان خسائر الالمان غير دليل . واضير المسؤولون فى الفوج وفى الفرقة ان الهجوم الالمانى اليوم كان محاولة لتسحق القطاع الضعيف ثم الاندفاع فى اختراق الدفاع فى حالة نجاح تلك المحاولة . الا ان المحاولة اخفقت ولم يتحقق الاختراق .

واستمر ماليتين عن احوال آمر السرية ايونوف ، فقبل له ان ايونوف جرح فى المعارك الاولى للمركبة ووصل الى الكتيبة الصحية . وقال ريباشينكو ان النماذج السريع لهجوم الالمان على رابية المنازل الثلاثة يعود من ناحية الى قوة ليراتهم ، ومن ناحية اخرى الى تعيب آمر السرية وبرشدته السياسى فى لحظة الهجوم ، مع ان من القريب القاء الذوم على ماليتين ، الذى كان هنا أثناء الهجوم . ثم ان آمر الكتيبة ما كان يقصد لومه ، والا ان ماليتين اضير ان تلك الملاحظة موجبة اليه ، وربما ريباشينكو ان يسمح له بالمساهمة فى الهجوم المضاد وعلى رايشتا السابقة . وقد قال هذه الملاحظة بالذات مؤكداً عن مسؤوليته عن فقدانها . فطلع آمر الكتيبة الى وجهه المكسو بالكدمات وكر بالادعية التى تلازم الشباب : من اين يبدو القوة هذا الشخص الذى يدعى عمر اليه؟

لم يرفض طلبه ، ولكنه قال :- حيداً لو ضمدت جراحك فى الداية . ووضعا ماليتين تحت تصرف الضمد الذى صرف وقتاً طويلاً فى تسديد الجراح الحقيقية على وجهه اولاً ، ثم على يديه اللتين عثفهما الطابق . وظل ماليتين أثناء ذلك يفكر بسروته التى هلكت ، فعمل سيماد تشكيلها من جديد . ثم انه سيقط الى مكان آمر وقتت فيه خسائر بين المرشدين السياسيين؟ تسبوا ماليتين ، بينما استغنى آمر الكتيبة سيستوف ووجه اليه بغضه لانه سأله عما اذا كان الالمان قد حاولوا منذ الداية صمود الهزيمة لا . فاجاب سيستوف بالنفى . قد مارس هو وبايوكوف إطلاق النار

الجانبية فقط على المنخفض. ثم سأله آمر الكتيبة عن سبب عودة البداية دون أن تصل إلى المدعة. فاجاب سينتوف بان البداية، على ما يبدو، تلكأت على الثلج المتجمد، وذكر الجندي الذي قتل على يريها.
- ربما كان ضابطا - هو آمر الكتيبة رأسه - وبعد ان شرطته إلى نصفيين لم يتجرأوا على الاقتراب!

ثم استدعى آمر الكتيبة إلى الشقوق ليكلم آمر الفوج، فائد الفرقة تقدم إلى الاول ثم إلى الثاني تقريرا مشفاه يصياغة افضل بكثير مما ذكر، مالمين وسينتوف، عن المعركة من اجل راية معمل الطابوق. فقد خاص القتال هناك الثوري السياسي مالمين وراسي الرشاش سينتوف ومساعدو بايكوف الذين صدوا هجوم المشاة الالمان والدايات الالمانية واحتفظوا بالراية حتى وصول تمزيقاتنا. وعلى حد تعبير آمر الكتيبة ثم يكن سينتوف وبايكوف يطلقان النار فقط على الالمان، بل وينقضان القتال، ولم يقاتلا فقط، بل احتفظا بالراية.

جلس سينتوف على الطابوق متعبا، وشعر بغربة الحديث من كيفية غوضه القتال والاحتفاظ بالراية، حتى شغل إليه أن الكلام يدور عن شخص آخر غيره.

نقل كلا الجريحين، بايكوف وسيروتا، إلى المخرقة من زمان. وظلت جثث القتلى فقط. حفروا لهم هناك، وراء جدار معمل الطابوق مخرقة في الارض التي لم تتجمد بعد. ولكنهم قرروا أن يدفنهم عند الفجر، لانهم لم يتمكنوا في الظلام من جمع كل ما بقي من هؤلاء القتلىين بعد ضربات المدفعية المباشرة.

ظل سينتوف جالسا يفكر بان شخصا ما سيكون ساعدا له عند الرشاش، وبما اذا كان بايكوف سيعد إلى الوحدة أم لا اذا شغل. ثم غفا للحظة، على ما يبدو، لانه انتفض من المفاجأة عندما سمع صوت مالمين قرب اذنه مباشرة.

- قلنذهب. نلثفون من الفرقة. استدعانا مغضوبا...

لم يكن مالمين مرتاحا لهذا الاستدعاء، لانه رغب في المشاركة في الهجوم التالي على رابية المنازل الثلاثة، ولكنه اعطى مشاعره تلك. فلا جدال في الاوامر. وعلى خلفية الانقراض السوداء لاحت ثلاث يقع يشاء. هي وجه مالمين البصيص ويداه البيضاء الكيرياتان. فقال سينتوف:

- اذك، ايها الرفيق المرشد، كشبح ابيض في الظلام.

- قتلوا كالمعلق الرضيع - قال مالمين غاضبا - قلنذهب، ولا داعي لتفصيل الوقت!..

- ماذا يريدون منا؟ - سأله سينتوف وهو يتيمه هابطا المنحدر.
- سنرت هناك. يجب أن نصل إلى أركان الفوج سيرا على الاقدام، من هناك ننتقلنا بالشاحنة إلى الفرقة. ذلك يعني انهم بحاجة اليانا...
- حزت لماذا؟ - قال سينتوف، بعد صمت طويل عندما هبطا من الرابية إلى السهل امام البناية الرئيسية لمحطة الجارات وراحا يبحران في الثلج غير المسبق.

- لماذا؟

- يجب عريشتي.

كان قد فكر بذلك حالما اخبره مالمين بانهم استدعوا إلى الفرقة. بجلت حالة الانقراض المشهور محل حالة الإرعاق البدني والجماعية النفسية التي كان فيها بيد المعركة.

- ذلك شيء منتهى تماما - قال مالمين - فهل من المعقول أن يستعوزنا من المعركة مباشرة بهذه الرسة من اجل ذلك؟!

- وما علاقة المعركة بذلك؟! - قال سينتوف - قرأوا العريضة وقدموها لن يهمل الامر، وراحوا يتسابلون: كيف يجوز ارسال مثل هذا الشخص قريب إلى الخط الامار؟! اسألوه قورا إلى المشورة، للتثبت منه!
لم يكن سينتوف واثقا من هذا الكلام، ولكنه كان يد نفسه لاسوأ الاحتمالات.

- وانا، ما علاقتي بالقضية؟ - سأل مالمين.

- لقد استشهدت بذلك طوال الوقت!

- سخافة! - قال مالمين واثقا.

كان واثقا من ان تلك سخافة حقا، وذلك لاسب بسيط هو انه لم تكن له حتى الآن الفرصة لكي يسلم عريضة سينتوف شخصيا إلى الشعبة السياسية للفرقة. فهو منذ اسبوعين ينتظر تلك الفرصة من يوم آخر محتفظا بالعريضة في جيب محفظه. ولكنه ما كان راغيا في اخبار سينتوف بذلك الآن: فان استدعاه إلى الفرقة حيا له الامكانية ليس فقط لتسليم العريضة، بل وللتحدث مع المفوض في افضل الظروف بالنسبة لسينتوف. - بعد المعركة التالية.

- سخافة - كرر مالمين والتفت نحو سينتوف وهما سائران - اعتقد انكس، انهم يستعدونك ليقلدوك مذابحة نكرينا لمعركة اليوم.

لزم سينتوف الصمت. فلم يكن يصدق بهذا القول.

اما في الواقع فان كلا الافتراضين خاطئان، مع ان ماليتين كان اقرب الى الحقيقة من سينتوف. فقد كان هناك سبب آخر تماما لاستبعادهما للماجل من البطل الاممي. فقد وصل اليوم الى موقع الفرقة اديب يعمل في احد مسبح ميكون وهو كاتب كهل معروف. كان جالسا في مقر اركان الفرقة خلال المعركة. سمع له بالدهبي، الى الفرقة على مضض، خشي ان يقتل فيتحملوا مسؤولية! ولكنه عندما عرف هذا الساء من قائد الفرقة ان هناك في الكتيبة الامامية مرشدا سياسيا وراى رشاش صدا عدة حجمات للكتيبة وقتل زهاء خمسين المانيا مصمم تصديما قاطعا على الدخاب الى الكتيبة معها. ورفض المسؤولون رفضا قاطعا ايضا السماح له بالدخاب الى الكتيبة وقالوا له بان وصوله اليها مستحيل الآن، وتنازلوا له، الامر الذي لم يلاش وهو في سورة من الغضب، وودعه بان الرجلين اللذين يرغب في التحدث اليهما يمكن استدعاهما الى هنا من الكتيبة. حاول ان يعترض على هذا الرأي: فد ادعى لعضوهما خسيسا! وقالوا له ما يقال عادة في مثل هذه الاحوال: طالبا ان حزين الخسنيين سيأتان عاجلا ام آجلا. نليس في ذلك قارق بالنسبة لهما! وقفلا للابر الجدل رفع الغوض الساعة وثلقن. فهو، رغم تردد في السماح للكتائب بزيارة الكتيبة، كان راغبا جدا في ان يكتب هذا الاخير شيئا عن الفرقة وانزادها.

وهو هو ماليتين وسينتوف التفتيان بعد المعركة يشبان على التلج من رابية معدل الطايوق الى نهاية محطة الجارات. توقف التلج الذي تأسط خفيفا في الساعات الاخيرة، ويزع التمر في السماء. واكتسى التلج باني فضي شاع واكتست الاراج، يسمعة اكثر موحا وسجورا.

- الطقس جيد! - قال سينتوف.

- انظر، هناك المائي قتيل - اشار ماليتين الى هيئة قائمة بيدين منشورتين الى الجانبين ازاء الدرب مباشرة.

وعندما مرا بالالمانى القليل توقفنا لحظة وقفلما اليه ثم واصلنا طريقهما.

-- انك رجل تستحق التقدير على ما اعتقد - قال ماليتين بدون اية مقدمات.

وقفلما صابئين زهاء ثلاثين غلطة اخرى. فقال ماليتين فجأة ايضا:

- في انصيت الى الحزب من جديد لاعطيك تركية في الحال....

وصمت مرة اخرى.

شكرا.

ومارا صابئين زهاء خمسين غلطة اخرى. فقال سينتوف:

- تسلم قريبا.

وما كاد يتلفظ ماتين الكلمتين حتى انفجرت قذيفة خلفهما، وتبعها قذيفة اخرى... التلج سينتوف وماليتين جنبا الى جنب على التلج الابيض السام الذي ربما كان من السهل رؤيتهما بمطعتهما عليه عن بعد كبير. الا ان التناثرت ظلت تضجر باعادة متعلة في مبرعات كالشطرنج على الحقل الطلعي كله، فنبئت مغرطات سواه على الزوا وتشر روائح الحروق حولها. فقال ماليتين:

- انهم لا يضربونا، اطلقوا النيران بدون تشيبن على الساحة.

- اجل - قال سينتوف واسانه مصلكة. لا فرق اذا كانا هما المقصودان بالقتل ام غيرهما. فقد غلا سيطحين غسس دقائق، ثم عشر دقائق، بينما ظلت القذائف تتساقط في الحقل الواحدة تلو الاخرى، تارة من اليمين وتارة من الشمال، تارة من الامام وتارة من الخلف. فاستولى على ماليتين وعلى سينتوف شعور بالخطر اذع يزداد ولا يضعف بعد المعركة البالسة التي مرا بها نوا. وقد صابئين وما كانا يرشبان لا في التكالوم ولا في التفكير ولا في تهفة بعضهم بعضا. كانا يريدان شيئا واحدا لا غير هو ان ينتهى ذلك بأسرع ما يمكن. فلا يفلقان، بل يواصلان سيرهما.

اكتهت الغارة بنسب الباشقة التي بدأت بها. وشوشت آثار الانفجارات من جديد الحقل الابيض الذي ما كاد تلج السماء يغطي فيه آثار معركة النهار. لقد صار الحقل من جديد مسرحا للحرب وقاحت منه رائحتها.

فهب ماليتين وسينتوف واصلا سيرهما. فما كان مقدرا لهما ان يوتا في هذا الحقل التلج الليلي. كان ينتظرهما الكتائب عند مفوض الفرقة. وقد امد مفكرته وقلم التبر واسلته المستفزة التي تشم من هويته الدفية.

بريضة سينتوف فابة في سيب معطف ماليتين، واستارة تقليد سينتوف الدالية تقليدا لماآته في معركة اليوم يمررها ضابط في هيئة اركان الفوج. ولكن هذه وثلك لم تلتقا بعد ماء، وسوف تلتقيان حتما.

كانت رجي الحرب تقور. وانتهى يوم آخر من ايامها. والشيء الرئيسي في هذا اليوم ليس هو البريضة القابعة في سيب معطف ماليتين ولا استمارة التلج التي يمررها ضابط في هيئة اركان الفوج، ولا الملاحظات التي يجعلها الكتائب في مفكرته على حبل، بل الحقيقة البسيطة والمشهودة وهي ان الالمان، مرة اخرى وفي قطاع آخر من الجبهة بضواحي ميكون، لم يشكروا حتى الساء الا من تعقيق ربع ما كانوا يولون في تعقيقه في الصباح.

الا ان كليدوفيتش كان يتوى طرح سؤال مغاير تماما . وقد طرحه بعد ان نزل رافعا يده الى غودته :

- هل يمكننا ان نذهب الى الساحة الحمراء مسبقا لثرى درجة الصعود بدرجة الانحدار نحو نهر موسكو؟ فانا لم اسر في الساحة الحمراء ابدا - وكان كليدوفيتش لا يقصده فاسه شخصا ، بل ذبايتها .

سمع له الجنرال بذلك واتصل شاركرا عند كليدوفيتش كايثن القوندالية . جلس كليدوفيتش والكايثن على مقعدين باردين كالجالية في سيارة جيب انزلت ثوا من حرية العقار . وتحدثت بهن السيارة في شارع سادوفنيا الدائري في استدارت نحو شارع غوركي . كانت موسكو خالية تماما . واجهات المتاجر مغلقة بالالواح والخشب المعاكس ومحمية بأكياس الرمل . القوات التي يتعين عليها ان تتحرك في العرض العسكري لم تتحرك بعد نحو المركز ، ولم يكن هناك مارش . في بعض الاحيان تمر مدوية سيارات مفردة بشرخيص من القوندالية . اوقفوا سيارة كليدوفيتش والكايثن راويا ، ولكنهم كانوا يسبحون فيها بالمرور . الى ان اوقفوها نهائيا : فان شارع غوركي مسدود عند مبنى التلفزيون المركزي . وتمين عليهما مواصلة السير على الانفاق .

الساحة الحمراء كلها تقريبا مغطاة ببطقة متساوية من الثلج التي لم تسه قدم . وتكوينات اكادس ليلية كبيرة كالتجمعات على الدريبات الروادية .

مار كليدوفيتش عبر الساحة بعيدا امام برج سباسكايا حتى بلغ نهر موسكو . ليس هناك جيلد تحت الثلج ربيع الدبابات ان تحتل الساحة دون عائق بابة حرة نشاء ، وخصوصا اذا زيات ، بعض الشيء ، المسافات الفاصلة بين ذبايتها واخرى . فان كليدوفيتش ذلك لكايثن القوندالية عندما عادوا الى الساحة صاعدين من جهة النهر . هن الكايثن كتيله وقال بان زيادة المسافات الفاصلة امر ممكن . - احد يدوس على الاعقاب من الخلف والاكيات ستكون قليلة كيا سمع . ثم شخ الكايثن كلامه ورفع رأسه وتوقف . النساء مكشوفة بشكل ملحوظ بعد ان كانت صافية تماما قبل نصف ساعة . وقال الكايثن :

- سيقام العرض العسكري بحما .

سارا من جديد عبر الساحة الحمراء امام مبنى متبر اليوم الهائل الذي رست على جدرانها مختلف البريات والمستطولات الدويبية الفولية ، وامام ضريح لينين المغلى بدرع حماية خشبي وقد وقف في يابه العميق حارمان مزيان بانكاد ٠٠٠ الا ان هواء الساحة الحمراء وفراغها لم يتركها في نفس كليدوفيتش ذلك الانطباع القليل الذي احس به عندما عبرها باتجاه الكونيتش رغم تمسكه

الفصل الخامس عشر

في محطة كورسكي للسفن جرى ليلة ٦ على ٧ نوفمبر تفريق القطارات التي نقلت لواء الدبابات بقيادة كليدوفيتش من غوركي الى موسكو . ولم يكن كليدوفيتش قد تسلم بعد امرا بشأن الوجهة التي يمين عليه الذهاب اليها فراح يفكر متحيرا : هل سيركزهم في موسكو ام سيروز بهم في النجبة راسا؟ بعد الواحدة ليلا وصل الى مكان التفريق جنرال من قوندالية موسكو . اذبح بلكيدوفيتش جانبيا واخبره بان وجهه اللواء في بودونسك ، ولكن عندما يجتاز موسكو الى تلك الوجهة ربما سيهاجم في العرض العسكري في الساحة الحمراء * .

الوضع في ضواحي موسكو لا يزال خطرا جدا ، فلم تنبادل الى ذهن كليدوفيتش حتى الآن فكرة استخدام هذا العرض . ولكنه قال : وحسب امركه دون ان يهرب من اتفعله ، وظلت يده مرفوعة قرب غودته وطلب السماح بالسؤال من الجنرال ، ولكن الجنرال اجاب بما لا يترك ضرورة لطرح السؤال فقال :

- العرض في طور التحضير الآت . وفي تمام السادسة صباحا ينبغي ان نعمل في مقدمة الرتل الى مبنى التلفزيون المركزي وننتظر هناك امرا بواصلة السير . البت النهائي في هذا الموضوع يتوقف على الطقس ، على ما اذا سيكون الجو صالحا لافلاخ الطائرات ام لا - اضاف الجنرال واما ببقائه الى الساء الصغيمية الصباحية .

قال ذلك كله بصوت منخفض مع ان برسمه ان يصيح ، لان الدبابات الاغيرة كانت تهبط من العربات واغشاب البور تطلق تحتها .

* بمناسبة الذكرى الرابعة والعشرين لثورة اكتوبر في ٧ نوفمبر ١٩١٧ (في ٢٥ اكتوبر حسب التقويم القديم) . المترجم .

بشاعري. السحب تلهب في السماء أكثر فأكثر. ويبدد بضع ساعات سينتشر هذا التزويد الدافع بالثقل. سوف تقف عليه القوات بشكل مربعات وسوف يرتفع ستالين منصة القصر. فما قيمة العرض العسكري بولته؟

في صبيحة ١٧ أكتوبر عندما امتدح من الجبهة كل من يتقى من أفراد اللواء بعد الحصار وبعد معارك دامت ثلاثة أيام في شواشي موسكو وأرسلوا بمشربين شائعة فوراً غير موسكو إلى مدينة غوروكي إيلسوا دبابات هناك، نزل كليموفيتش، من سيارته المائتة في المقدمة، عند أحد أركان شارع سادوايا الأثري، قرب متجر للخبز بواسطة محطة من أجل أن يترك هناك جندياً يدل باقي الزئيل على الطريق. وسالما نزل القريب منه امرأة أن أحداها عبور ولاغرى شابة بوجه جميل ولكنه نحيل. وفقاً لنامة وسلط عليه المرأة الشابة نظرة غامضة وقالت بصوت عال دوى في الشارع كله:

— ماذا، يا رجال الدبابات، هل انتهت الحرب بالنسبة لكم؟

تطلع كليموفيتش إلى هاتين الميتين التوسيتين الغاضبتين وتذكر من حياء كل ما عاناه في طريقه الأسوأ القابع الذي بدأ بفقدان البائلة. وتجهجت في قبضة واحدة كل المرأة التي تكسدت في صدره منذ اليوم الأول للحرب وكل القروب الدامية وكل الحسائر وكل الدبابات التي دمرها الألمان وإلى آخرها هو بنفسه - وصرخته هذه القبضة في قلبه مباشرة: «ماذا، يا رجال الدبابات، هل انتهت الحرب بالنسبة لكم؟»

ثم يجيبها بشيء.

وبعد ذلك وصلوا إلى شارع اينفوزاستوف. في الساعات الأولى سار إلى كليموفيتش وسط سيل متواصل من البشر. وبعد ساعة غضت قوات سيارته وتوقها بالنساء والأطفال. ولكن الناس ظلوا يسيرون بلا انقطاع. وفي الأثناء التي تشكلت فيها السيارات كانت حوافها تحكك بأكتاف المائتين والتضاحيق ترفها.

كان أكثر ما يذب جنوده هو أنهم وجدوا أنفسهم هم العسكريين المسلحين في سياراتهم، بين هذا السيل الأرعل وأنهم يتجهون إلى نفس الجبهة التي ينضمها: نحو الشرق إلى القلعة. كان الناس يتطلعون إليهم بريبة ودهشة واستكاد، وبنفثات مشائلة: «إلى أين أنتم؟ ولماذا؟». وهما كان يدع المراكز التي غاضوا، فقد كان صبا عليهم التبرير في هذا الشارع الفاس بالنام دون أن يشعروا لاحد. لماذا يتجهون هم، إلى الشرق، لأنه لا يمن لهم أن يشعروا ذلك.

كان ذلك في ١٧ أكتوبر. أما الآن، بعد شهرين يوم، سوف يجتاز الساحة الحمراء دباباته الثمانية، بسنين دبابة من طراز دت-٣٤ التي يعلم بها أي جندي من جنود الدبابات وعشرين دبابة ثقيلة من طراز لكث الضميمة المتأخرة بعض الشيء والتي لا تخترقها في الواقع المدفعية القليلة المياد.

حيناً لو كانت هذه الدبابات، في لواته خلال الأيام الأولى من الحرب! ثمانين دبابة ... في يوم الخروج من الحصار الثاني، في قياض، حيث اعتزقت قواته الحصار سائرة بأشجاة واستيسال على طريق تراسي على شقي قوتين المائتين، وصل هو، كليموفيتش، على شائعة إلى مركز قيادة وقتها مباشرة. رفهش لمقاته جنرال شاب غير حليق كلف مهمة عميرة في قيادة مجموعة من القوات التي تشكلت على عجل.

— أيها الزقبي الجنرال! أنا قائد لواء الدبابات السابع عشر المقدم كليموفيتش خسرت لا كون تحت تصرفكم.

ومع أن كليموفيتش سار اثني عشر يوماً من الحصار فإن جميع أركان شرق البلدة مشحونة، وبانها وأشارة عليها سالتان. فإن تعود على حسن بنام أقوى من الملايسات، وربما لذلك بالذات استقبله الجنرال بعبارة مدسة:

— أخيراً جاء رجال الدبابات! انظرواكم طويلاً! كم عدد الدبابات التي جئت بها!..

أصور الجنرال السعيد أن قطاعه الجبهوي البدني المشرق كالمنخل قد تسلق من اللوحة لواء دبابات، وأن هذا المقدم الحسن الهندام هو الملاك السبق. ونظي كليموفيتش أن الجنرال يسخر منه. ولكنه أدرك الحقيقة في اللحظة التي قال بمرارة أن تصوره الجنرال خاطئ. فقد افترق الحصار الألماني واحتمل من كل آياته السابقة عشر شاحنات ودبابة واحدة معطوبة بعض الشيء.

— فلنذهب إلى الشيطان! ملئت انك... ثلثتم الجنرال وتوقف عن الكلام لأن غشامير كليموفيتش وعائلته - أعزوني، يا أخي، ولا تزعزع! كم عدد الانحطاس الذين ارضعوا؟

حوالي خمسةة - قال كليموفيتش - بعد ساعة سأؤكد من العدد المتصور.

- هل يستطيعون أن يقتلوا؟
- نعم. ولكن القليلة تكاد تنفذ.
- ساعليك ذبيرة. الدبابة واحدة؟
- واحدة فقط.

- ومع ذلك اوصيها. عمدا؟

- عمدا. - قال كليفيش.

في ذلك المساء امرت الانسان منذ البداية الأخيرة في ديب تلك القرية، قرب ذلك السور الذي تقابل فيه كليفيش مع الجنرال. هكذا هلك آخر ديانة...

أما اليوم فسوف يعبر الساحة الحمراء يتسابقين ديانة ويتسربون الى طريق بوبولنسكا، في نفس الاتجاه تقريبا الذي كان فيه آنذاك.

لهم يقدم الانسان كثيرا منه ذلك العين. يبدو ان موسكوف تلتح بشدة!...

عندما مر كليفيش بالفريق توقف قربه. في يابه يقف حارسا كالسابق. وهناك، وراعه عدة درجات الى الاسفل، وفي اعين الفريق يركب كيبين. وإذا كان ذهن كليفيش في الشاغل يعجز عن استيعاب احتمال احتلال موسكوف من قبل الانسان، فهو الآن، قرب شريح لينين، يعتقد بان ذلك من رابع المستحيلات. تصوروا اننا لسنا موجودين هنا امام الفريق في الساحة الحمراء، وبدلنا يقف القناصين بزناهم ومقاتلتهم والتضليل المكون على اذرعهم... مستحيل!...

... في ذلك الصباح، قبل طلوع الفجر، ايقظ سرييلين جنده في دوحه المستشفى مفوض الفوج مكسيكوف.

- انهض يا سرييلين! ساعدني الحضور العرش- راجع مكسيكوف بمن سرييلين من كلفه.

نهض سرييلين بفرقة واحدة وسأل على عجل:

- ماذا؟... الى اين تذهب؟ اي عرش؟ متى؟...

لم يكن قد احتفظ تماما، ولكنه تظاهر بانّه احتفظه وراح يتكلم الى غنى المفوض ويتصور ناعسا ما حدث: سمعوا لمكسيكوف نهار امس بالتجول في موسكوف قبل ان يخرج من المستشفى لتهانيا. فلماذا يقف الآن امامه في الليل بنفس المظهر الذي ذهب فيه، بيزه الكمامة، وهو يشعل؟...

- انهض، انهض! - كرر مكسيكوف وقد جلس على حافة السرير قربه اليوم هو الساع من نوفمبر. سيقام عرض عسكري. ادعوك لحضور. قلذهب!

- اي عرش؟ - سأل سرييلين دون ان يصك بجديته ما سمعه - الانسان في ضواحي موسكوف فمن اي عرش تفكلم؟!

- العرض العسكري! - كرر مكسيكوف واكتس ربهه وبشامه الدوحة كراهة. - الرقيب يتالين امر بذلك. التي خطابا امس في محطة مترو ماياكوفسكي، ركت هناك، ولكنني عدت متأسرا ولم ارتب في اوقاتك... التي خطابا امس، وقال بان العرض سيقام اليوم.

- حقا؟ الا تخرج؟ - خفض سرييلين من السرير. يحذر ساتيه اللتين

نقبتا ولكنهما لا يظفرانه ويحبين عليه، بدء ان ياملهما بمعاملة سائين من زجاج.

- لا مجال للفرار! - ابتم مكسيكوف من جديد. لا سيد، وان الجو

يبر صالح للطران. لقد خرجت ورأيت ان السماء تلبث باليوم، فالتحسا.

- اذا كنت تخرج فلن اتركك - قال سرييلين وهو يحضر من الاسفل

الى اعلى في وجه مكسيكوف الضاحك.

- يا افاعي للتهدي والوحيد! لقد ملئت سيارة جيب. - وهل يسمحون لي؟

- كيف لا؟ قلده سمعوا لك بالخروج امس الال.

- حقا. لقد بدأ سرييلين يتسطر في حديقة المستشفى مستقلا الى عينا.

واس الال سمعوا له بالذهاب لاسلام البطانة الحزبية والاسمة والهوية الجديدة

وتية جنرال. وكان مكسيكوف يقصد هذه الرحلة بالذات.

- سمعوا آنذاك بمرحلة البفرضة العسكرية...

- والآن بحضور العرض العسكري - ظل مكسيكوف يتسمر. - قالت الآن

جنرال قادر على الشيء ولست ملازما القراش.

- ماضطر الى اثناء جزمة اللياد، فالجزمة الحادية نيكة على الآن.

قال سرييلين وتنهض على قدميه مغيبا.

المادة تلازم الانسان مدى الحياة. وعيل له ان مفهوم بجزمة الليادة

لا يتناسب مفهوم «العرض العسكري».

لقد دعوا ليس للانشارك في العرض بل للفرج من المهرجات.

- هل دعوا حقا؟ - سأل سرييلين مشككا.

- حقا. حقا! - توفقه مكسيكوف ويطالب على جيب قميصه - هنا

بطانة الدعوى! عندى اصداق. كثيرون جدا في موسكوف والاهم اهتم كثيرون في

الادارة السياسية للمجلس العسكري الثوري.

- طالبا الامر كذلك فماركدي ملاس - قال سرييلين الذي ابتم غفويا

ايضا وتكلم الى مكسيكوف بإرتياح.

مفوض الفوج مكسيكوف من الانشخص الذين يشرون اعجاب الرجال.

تفلا عن النساء. فهو شاب نازع القامة عريض المنكبين ذو مهيأ يثير الالتباه

بقوته أكثر مما بجسماله. وكان عدده بالغمل اصدقاء كثيرين جدا في موسكو. تأذى سرييلين من ذلك مع انه لم يتمكن بعد من اكتشاف حقيقة جواره حتى النهاية: حل هو مجرد انسان معطوف. ام انه انسان يتعلم سبالة مرحلة نادرة الى درجة يخبر معها الآخرين عقوليا بأنه يحقق بسهولة كل ما يريد. والاحسان ان المفوض مكسيموف هو هذا وذلك معا. ففى الثلاثين من العمر منح ثلاثة اوسمة حربية. ووراء كل رتبه وشارات خاص للتماسيات من قبيل التوافق الذى يقال بشأنه عن الشخص الذى يفتنى على قيد الحياة في تلك الاحوال يانه انسان معطوف. وقد بدأ مريش-فى معركة خالخين-غول وفى العرب القبلية... من السفر الى هناك بوصفه مفتشا للادارة السياسية للمجلس المركزى الثورى وانتهى في كاتا المريح الى القتال بوصفه مفوضا للفوج. وعندما اندلعت الحرب في يوليو ١٩١١ كان هو في رحلة تفشيشية في الدائرة الغربية الخاصة. وفى هذه المرة حل منه اليوم الاول للحرب محل مفوض الشرق الذى قتل. وطوال شهر ابريل موالج الانسان غير المعارك. وبعد ان اختبر الحصار اصعب بحرج خطير في بيله وبعد عدة عمليات جراحية عاش في المستشفى مع سرييلين وهو ياخرم بعديا قاسية ويصغر منها في الوقت ذاته. انه كالميد الحى الذى لا يكتب ولا يدع الآخرين يكتبون.

وعندما بان يخرج من المستشفى بعد اسبوع مقابلة معطوفة على القتال. ولكنه يسخر من ذلك ايضا. كما يسخر من كل ما تبقى ويقول اسرييلين متعجبها بأنه لن يكتبني والتوجه الى الجبهة بل سيحاول العودة الى فرقته. وفى الليل فقط عندما لا يراه ولا يسمعه احد... ما عدا سرييلين يجلس المفوض مكسيموف الذى لا يعرف الكتابة على سريره محبى الظهور ولا يذوق طعم النوم ساعات طويلة بسبب الألم.

مرة سرييلين معلقة داخل الخزانة في الزحمة باختياره مريضاً في دور النفاذ. ارتدى بنطال الخياطة وقمصة جديدة على يافته شارة الجنرال وعلى صدره وسامان للراية الحمراء. الواسم القديم والواسم الذى قام به ايد اسى الاول. اقترب من الدائرة وسد بديه شعره بالاذق الاثيب على اصفرار. ثم جلس على الكرسي وحس وجالجه حذر في الجزمة الميادية. وضلع الشها بنظرة ساعرة متفردة وقال لمكسيموف:

— اذا كنت لا تمزح فانا متشعب!

وصلا في السابعة والنصف بالسيارة الى مبنى التلفزيون المركزى حيث الشارع مسدود ولا يسمح العسكريون بدور اية سيارة.

وعلى طوك شارع توركي من ساحة ماياكوفسكى حتى مبنى التلفزيون. وقت الدبابات في صديق. لم يكن عدد الدبابات يتجاوز الالف. الا ان ظهورها اقبح سرييلين. فقد كانت كلها من الدبابات المحترقة من فبراير ٢٤ رافد. وليس من دبابات ت-٢٦ التى اخربها الانسان جزافا في بداية الحرب.

وقال مكسيموف عندما نزلنا من السيارة:

— لن يسمحوا لنا بالمباراة بعد من ذلك. فهنا تنتهى دائرة اصدقاءى.

نشئ على الاقدام. اليس كذلك؟

— ما دمنا قد جئنا فلا بد من ان نشئ. قال سرييلين والذى فطره جانبية على الدبابات.

قرب دبابة المفعة التى برزت من كونها راية ملقوة وقت قائد قوات الدبابات لمعلم فراتى اسود قصير مشدود بحزام. وعجل لسرييلين انه يعرف هذا الرجل. فان ذاكرة سرييلين لمحتفظ بوجوده الانحاس حتى عندما يريد انسيانهم. ولكنه كان مسرورا لتذكرو وجه هذا الشخص. مثل يتطلع اليه بعد ان صار يعرفه بالأكيد من هو. ثم غطا فحوه فرغ هذا الامر وبد بالتصيح من وراء حائله رأى قيمة الجنرال القرائية العالية على رأسه.

— مرحبا ايها المقدم- رفع سرييلين يده الى قبعته- فى ليلة الاول من اكتوبر خرجت من الحصار ووصلت الى قواتك. اليس كذلك؟

— بالفيديو ايها الرفيق الجنرال- اجاب كليوفيتش مع انه عندما رفع يده باللمحة في البداية لم يكن يعرف ان هذا الجنرال القارع القامة والذى يبرج مستند الى عصاه هو قائد اللواء الجريح الذى سأل عنه قائد الجيش بالتفويض: كيف يلبس سرييلين هذا... اتأكد قبل لكليوفيتش انه لن ينسى قائد اللواء هذا مدى الحياة. وما هو يشاء بعد اقل من شهرين! قد جرت احداث كثيرة جدا منذ ذلك الحين.

مثل كليوفيتش يتطلع الى الجنرال ويفكر. ويعنى انه نهض على سابقه. بينما كان يبدو آنذاك وقد اشرف على الموت...

وعندما ذكر بذلك تذكر الجيش زولتاريف وهو يلبسه وشارات الرشنة السياسي سيستوف الذى ضاعت آثاره. او الذى قتل اذا اردت التبسيط في القول. آنذاك، في معركة يلينا قلق سيستوف على مصير قائد اللواء. وما هو قائد اللواء سى معافى ويقت امام كليوفيتش بقعة الجنرال، بينما تنصيح نظام سيستوف في مكان ما من الدبابات وراء فريدا...

— شكرا لك على النجدة ايها المقدم. لم تصعب غيتا؟

- كلا - اجاب كليفيش.

- اذا مسرور القائك! اودت ان اكتب لك عن تشكراتي، لكن
الجهة واسمة...

شد سربيلين على يد كليفيش، فدهش هذا انذاك القوة الكامنة في هذا
اليد الكبيرة النحيفة. وانتهت الاكروبات الحزينة على سربيلين فقال:

- صحيح انهم كذا الى فيما بعد ان الكثيرين من جنودك لم يسكنوا
من الخلاص. فقد اصعدوا يدابات العدو في الطريق منكم!

- عاد بعضهم الي، الى اللواء، ابها الرقيب الجنرال.

- وهل عدهم كبير؟

- حوالي عشرين شخصا.

- واين هم الان؟

- قسم منهم قتلوا في المعارك، وقسم الحق بالمشاة بعد الخروج من
الحصار. وواحد منهم لا يزال عثى.

- من هو؟

- السائق زولواريف. وهو الآن سائق دبابة "۳۵".

- اعرفه - قال سربيلين. وكان يوسمه ان يقول هذه الكلمة عن كى
منهم - هل استطيع رؤيته؟

- انه بيد. في نهاية القليبود.

- اذن انقل اليه فينشد تشكراتي على الخدمة الجيدة، تشكرات قائد
القوة السابق. ومن وصل اليكم من الضباط؟

- الملازم غوريشيف - قال كليفيش.

- هل هو حي؟

- كان ميا، ولا ادرى عنه شيئا الآن. فقد اتحق بالمشاة.

لاحظ سربيلين ينظره سائبة ان كاتب الذبابات اقرب من كليفيش
وهو ينتظر نهاية الحصار بينهما ليحول له شيئا يتعلق بالخدمة.

الا ان كليفيش عندما تحدث عن زولواريف وغوريشيف تذكر سربيلين.
اما مراقبك، ابها الرقيب الجنرال، فقد شاع كل اثر له، وربى

قل على الاكوى.

ثم يجب سربيلين بشي. ملأ رأسه وظل يسمع لوان يتطلع بشاة
الى اسفل. ثم الهى من جديد نظرة جانبية على كاتب الذبابات فدهشه
الى كليفيش.

- يودى ان تناوب في القتال. اما الآن ضوف لرى استراحتكم - وقع
يده الى جعبته القود واستدار وساء في شارع سوروكي متحذرا وهو ينقل جزمته
الى يديه ويخرج قليلا.

شبهه كليفيش بنظرة ثم استدار على بعض في الكاتبين:

- ماذا تريد يا ابناؤنا؟ ما الذي لا يراك ضاف عليك؟ في المعارك
لم تكن تصير، اما في موسكو فغفلك سؤال في كل مقبرة!

عندما وصل سربيلين وهو يجرجر قدميه مبتدئا على النصف الى المدريات
وجدوا ملطقة بالأسس تقريبا.

كان قد اشترك في العرض مرارا في الساحة الحمراء، ولكن في صف
اكاديمية فروزه العسكرية. ولكن المدريات كانت تختلف تماما. كان اتاحرون
فيها من المدنيين السرورين والمطالوم على اكتافهم والباليات البطالين اللطيفة
لنطق فوق رؤوسهم، والناديل النسائية الزاهية توفرف في الهواء محبة...

اما الآن فالسكروين على المدريات ثلاثة امثال المدنيين تقريبا. وقد
وصل الكثيرون من الخطوط الاسمية مباشرة مثلين عن الافواج والاولوية والقوى
الحاربة في عدة انشاعات بشواحي موسكو. كذا يرتفع قوام مدفوك
بقلات مشعة ومعاينه عسكرية طويلة ومخاض فراء قصيرة مشدود بالحزبة.
اصغفت في الساحة بشكل مربعات عدة اقواج من المشاة وعلى المدريات
كذلك. وففت موسكو المدافعة عن نفسها دون الانباء، موسكو العسكرية والمدنية.
تجمع هنا كل هؤلاء العسكريين والمدنيين المدافعين عن موسكو، تجمعوا
في هذا اليوم كما يتجمعون كل عام، رغم ان هنار على مقربة بضع عشرات من
الكيلومترات عن موسكو. وساء هذا التجمع شعور بالقوة وتعد صامت، وشعر
الحاضرين هنا بقوة تدهيم دون ريب.

شعر سربيلين بذلك ايضا. ومع انه كان يشعر في السنوات الماضية،
وهو يمر امام التفرج في صف الاكاديمية، باحساس يرمقه كل من يشترك
في الاستعراضات العسكرية، احساس التحسين السيد، فان هذا الاحساس الآن اعق
والى. ولمل من الممكن القول بان سربيلين وهو يقف هنا على احد مدريات المتفرجين
قد شعر بالسعادة، مع ان الافكار التي استولت عليه تناقض، على ما ينفوه
مع هذا الشعور بالسعادة.

اعتصر الالم فؤاده وهو يفكر بيتسوف الذي حدث له ما كان هو

سرييلين يشاهد أكثر من أي شيء آخر عندما يفكر بنفسه: شاع كل أثر له ... في حين بدا وكأنه اجتاز العقبات وظل على قيد الحياة وتخلص من الحصار ... وهل يمكن أن يسمى ذلك بالخلع؟! ثم أن الكثيرين غيره تصوروا بأنهم تخلصوا من الحصار ... تذكر بغضب رسالة شاكوف التي وصلت من الجبهة وجاء فيها أنه لا أحد يعرف شيئا عن جميع ركاب السيارات الثاني الاخيرين من القلاويور. تلكت السيارات قرب الجسر، وبعد ذلك قطع الاثنان الطريق عليها، كما يبدو ...

«كما يبدو!» - تستمع سرييلين لولام شاكوف من بعيد، كما لابد مرارا وتكرارا.

غضب آنذاك بسبب هذا التعبير: «كما يبدو»، حتى أنه لم يرد على الرسالة. وتبادلت الى ذهنه افكار عصبية عن نفسه شخصيا: عن الحوار الذي جرى أمس الاول بينه وبين نائب رئيس الاركان الثالثة، وهو رفيق قديم واحد الذين اتفقوا في محبته. أنه شخص لا يجوز الاثرياء فيه وانتهى، بعدم الطيبة والافتئان. وذلك بالافتاء ما جعل الحوار أكثر صموية.

قال الرفيق القديم بعد أن هنا سرييلين بمتحه الرتبة الجديدة وعموما يكن ما يمكنه أن يهتله به: «طلبت التقرير الطلي الخاص بك. فمن جهة صححوا هوية حالك، ومن جهة اخرى شوقوا. شوقها الاطباء هذه المرة. وبصورة، فمن السابق لاوله التفكير بتجهيزك الى الجبهة. صحتك ليست على ... برام. وعلى العموم فقد تفجرت صحتك، ثم ان الحصار زاد في الطين بلة ...»

تفاد سرييلين بقبولة تأجيلت في قواده: «بخصوص صحتي وعلى العموم لا تذكر شيئا ولا اريد للاخريين، وحتى لك شخصيا، ان يذكروني بذلك. أنا بخصوص الحصار فإن عشرات الجنودالات خرجوا من بير السحاك واكتسبوا خبرة قتالية بالتجربة الشخصية ليس من اجل الجلبوس مع هذه الخبرة في المؤخرة! سالما اكون متالما للخدمة فاما ان ترسلوني الى الجبهة ولما ان اذهب الى ستالين، عند بالاك!».

وعلى هذا النحو تكلم الآن، آلا! - قال الرفيق القديم وانكشفت اساوره من اجهة سرييلين.

«اجل، على هذا النحو انكمم الاك!» - رد سرييلين ردا قاطعا. تذكر هذا الحوار مرارا وهو يجرجر قدميه في الجيزة اللبادية من سبل التفاراف الى المدرجات. وكما شعر بضعوية السير كلما بدا له ذلك الحوار القتل واصعب حتى بعد مضي وقت.

وراح يسخر من نفسه فيقول: «ربما من الاتقع سقا الذهاب الى مكانا لاداء الفزلة والعمل في تشكيل الوحدات. فهذا العمل ضروري ايضا ...» وشغلته في ياله افكار كثيرة اخرى. ومع ذلك، ورغم تلك الافتكارات، يقف سرييلين الآن على احد المدرجات في الساحة الحمراء وهو سعيد. ففي هذا الصباح الثلثي، في صفوف القوات الواقعة بلا حراك على الساحة، في الحقيقة لا شيء باستوعبها العقل رأسا، سقيقة اجراء العرض العسكري اليوم، في ذلك كله يمكنه على ما يبدو شيء جعل الثامن المتشددين هنا يشعرون بالسعادة. فذلك هو اول تصور محسوس خلال الحرب للحضر الجديد كل الماء، انه اول تصور تحسسته آلاف عديدة من الناس معا دفعة واحدة في الساحة الحمراء في ذلك الصباح.

«اسمع. كيف حدث ذلك؟! - خمس مكسيموف متفعلا عند اذنا سرييلين بعد أن اختلنى مدة - اتنى متأثر جدا ... فانا احد الزوج قريتي موجدو هنا ... انظر، انه مصطف قريب مبنى اليوم. - اشار مكسيموف بيده الى الربعات التي تلوح قائمة في الطرف الايمن بعيد الساحة - قيل لي ان الفرة قتالنا، ولكنه اتضح انهم اشربوها قبل خمسة ايام ونزوها بالامدادات ونقلوها هذه الليلة عبر موسكو الى اتجاه جديد. وهذا الفوج سيتوجه ايضا من الساحة الحمراء مباشرة الى الجبهة. اما لنا فلم اكن اعرف بذلك. غصارة! كان مكسيموف متحمسا لذلك وكتبنا بسببه في الوقت ذاته. ففعل

له سرييلين ماذا: - هل يجوز لك ان تكون محظوظا طوال الوقت؟ لم توفق هذه المرة. -

نوت اقترصة! ربما بعد العرض ... ماذا بعد العرض؟ - قلته مكسيموف - هل اطلب منهم ان يأخذوني بفرض ثانيا زيادة على السلاك؟ كان الاقترن لي لو اني لم اعرف بذلك! - وجع يده مكتبا، ولكنه لم يتحمل فراح يحمل في ارفاقه فورية المصطف قرب اليوم. تطلع سرييلين ايضا الى تلك التهمة وفكر بعد ان مكسيموف رغم عدم التماس بفرقة فانه سيطلب بالتاكيد ادراجه ضمن فرقة اخرى وسيجد نفسه قريباً في الجبهة على أية حال.

وارو تمكن سرييلين، وهو ينظر الى جهة هذا الفوج على سافة بعيدة. من رؤية وبود الجنود شاهد في الصف الاول لكثيرة الجناح الايمن القائمة الفارغة التي يعرفها جيدا، قائم مراقبه السابق وهو يرتدى قمعة عتيقة مذهنة ومظلة قرائية قصيرة جديدا وتندلى على صدره بندقية وشاشه.

في اليوم الثاني لعمارك جعل الطابوق تقرر مصير الفرقة التي يستخدم فيها سينتوف الآن والتي كان مكسيموف مقوضا لها في بداية الحرب على نحو يتدرج ان يحصل في ضواحي موسكو في تلك الشهور، فبدلا من تزويدها بالادادات في الخط الامامي مباشرة كما هي العادة، استعملت فيها وقطعت الى مخزونة البجعة. صحيح ان تزويدها بالادادات في المخزونة، رغم خسارتها الهائلة التي بلغت ثلثي افرادها قد استغرق وقتا قصيرا، خاصة ايام لا غير، وفي اليوم السادس وضعت تحت الانتظار. وفي المثلث في الليل، قلقت هيئة اركان الفرقة مع فوج المشاة وفوجين للمشاة غير موسكر الى ما وراء يودولسك، حيث تقدم الامم الى الامام من جديد على نحو يهدد بالخطر. وايضا فوجا واحدا في موسكو ليوم واحد من اجل المشاركة في العرض العسكري.

لم يصدر الامر بالاستعداد بعد. وكان الجنود يتحدثون فيما بينهم عن كيفية ارسالهم الى الجبهة بعد العرض: سيرا على الاقدام ام بالسيارات ام بالقطار؟ وكان الموضوع الثاني، والاعم، الحديث هو العرض نفسه وما اذا كان متائلا سيحضره ام لا. الاغلبية تعتقد بأنه سيحضر، ولكن البعض شككوا في ذلك.

ستري يا نائب الرئيس، بأنه لن يحضر - قال لسينتوف جندي المشاة الواقف قرب.

لماذا يا ترى؟

هو كان الامر يبدو لنا سيحت له بالتفكير هناك في الساعة. فمن يدري ماذا يمكن ان يحدث؟ - وايضا الجندي الى الساحة الزائدة على يمين وقد بدت واطلة ملقعة بالضباب - اظني اعشى عليه!

اولا تعشى على نفسك؟ - سأله سينتوف وتطلع الى السماء ايضا.

لا اعشى على نفسي. فالامان لن ينالوا جهدا لاصابتي، ولكنهم سيبدلون جهدا لاصابته. ومع ان الجو مليء باليوم فيمكن ان يقتضوا من وراء اليوم... وماذا سنفعل عندئذ؟ - وكرر الجندي باصراره ان لو سأله احد لما سمح للفرقة متائلا يحضر العرض.

في تلك اللحظة اترب من سينتوف آمر الكتيبة دياشينكو والذين الذين تسلم خلال هذه الفترة ترقية وعين مقوضا للكتيبة.

مرحبا - قال ماليتين بصوته المتجهج المعناه والقي على سينتوف نظرة شرارة من وجه عبوس وكان سينتوف مقنن بشيء في حقه - قال فانه

تفوج لآمر الكتيبة ان اركان الفرقة استلمت امرا بتفليدك وبايوكوف وصام التهمة العنوا على معارك جعل الطابوق. ولذا اهتلك!

لدي ماليتين عادة مدسنة، فكلمنا ملا الكلمات بيزيد من المشاعر الروحية كالماء تنفأها بيزيد من التجهج والخشونة. ولو سمع شخص غريب نعتات مدونة فقط لخليل اليه انه لا يهني. سينتوف بالوصام الآن، بل يويجه. - اجل، اجل - كرر آمر الكتيبة دياشينكو فرحا - سمعت ذلك بنفسى.

اهتلك ايها الرفيق سينتوف!

لذلك سينتوف: انما في خدمة الاتحاد السوفيتي!، ولكنه، وبلا للعدسة لم يشعر بالفرة تقريبا. وبما يشعر بتلك الفرقة فيما بعد، ولكنها الآن لم تستول عليه. فقد تذكر بايعة جعل الطابوق، وتذكر سيرتنا المشد يوكوليا وبايوكوف المصاب بجرح شظير، وتذكر كيف دفنوا عند الفجر ما تبقى من اعداد الآخرين، تلك الكلمات القوية في منتصف الطريق ككتيبة عين جافة في اليوم. وسأل سينتوف ماليتين قبل ان يتصرف:

هل يمكن ان اهتلك انت، ايها الرفيق المرشد السياسي الاقدم؟

ليس ما حققته كثيرا - قال ماليتين بنفس الفجوة المتجهجة قام ويهم

سينتوف على وجه التحقيق هل سمع ماليتين وساما ام لا.

اما في الواقع فان ماليتين لم ينجح شيئا. كانوا يريدون ترشيحه لوصاف الزاية العنوا وليس التهمة العنوا. ووصاف الزاية العنوا تمتعه التهمة. وكان احد المسؤولين فيها، ممن قصصا القوائم دون تمحيص، قد شطب اسم السيد السياسي ماليتين مع من شطب من اسماء. الا ان ماليتين واجه ذلك بلاإيالة يتدرج ويوجهه حتى عند اكثر الناس تواضعا. والسبب في تلك الإيالة هو انه بالفعل يعتبر ما حققه قليلا، فالفتنة لا تتوقف عليه، هو ماليتين، بل على الاراد الذي يهده بهم اليه. وهو مرتاح تماما لان سينتوف الذي يقى بين المقاتلين وبايوكوف الذي يأتى للعلاج قد رشعا لقوام وساما هذا الوسام من الزينة التي طلبها هو بالذات. فهو منذ ما يقرب سبع شخص ما مادية او وساما بفعل ذلك وكانا على مضض. ولكنه فيما بعد يصير على رأيه ويتألم دونا اذا رفض عليه.

اسمع، يا سينتوف! - قال ماليتين بعد صمت قصير - منحوك رتبة نائب مرير وقائد وساما وكثيرا عنك في جريدة الفرقة. اعتقد ان من

السروري، قبيل المراكز المرتفعة، ان تقدم طلبا لاستعادة العضوية في الحزب. فما هو رأيك؟

ما هو رأي سينتوف؟ مالتين اعرف الناس برأى سينتوف. التي مالتين نظرة شزاره على السماء التي بدأ الثلج يتساقط منها خفيفا وقال:
- اعتقدت ان النهار اليوم مناسب لكتلة العريضة.

ولاحظ في صوته نامة مبهية غير متعادلة، فهو، مثل الجميع، منغل على سيجري في الساعة الحمراء.

تطلع سينتوف الى عيني مالتين مباشرة: «أليس ذلك سابقا لأوانه؟ واذا كنت قد تكلمت في هذا قبل الاوان فلم تكلمت دون ان تفكر جيدا؟ واذا لم يكن ذلك سابقا لأوانه فساعدني حتى النهاية. واذا لم تساعدني انت فمن سيساعدني يا ترى؟»

التفت نظرة سينتوف بنظرة مالتين الذي ظل يتطلع اليه صامدا ايضا يضع لوان. خلال هذه الايام التي سرى فيها انداد الفرق، وهي متوقفة وضواحي موسكو، تمكن مالتين، دون ان يحضر سينتوف، من تقديم استجابات راس عن طريق الشعبة السياسية في الفرقة وحصل على الجواب. اجل، اوراق الشيوي أ. ب. سينتوف محفوظة في الارشيف. انما هذه الحزب مؤكدة بالوثائق الامر الذي لا يمكن لاحد بمعرفة ان ينظر في مسألة استعادة القضية مجرد نظرة. وتلك هي الخطوة الاولى الهامة، وبها فكر مالتين الآن الا ان نظرة عنه لم تنفس عما فكر به في تلك اللحظة. فان تعالير وجهه لا تسم من انه يفكر بشئ. الامان. وأقلاما رتب في الطلع بكتابة مرة اخرى الى سينتوف: بهذا الله، اذن، يا ابقان سينتوف...»

وفجأة دوى امر عسكري والذراع من اليمين كالرعد:

- اسد...»

الذراع ريانيشينكو، كالتابض المشدود، الى الامام، وخلفه مالتين عقدت رطلكتا، واضطت الصفوف تتوازي...

- انظر، انظر... حيا انظر...» همس الجندي الذي كان يريه استالين ان يحضر العرض، همس في اذن سينتوف وهو يتوازي معه. «انظر اسرع!...» تطلع سينتوف الى الامام والى اليمين. وكما هو شأن الآلاف من الأشخاص المصطفين معه في الساحة، رأى غير شكة بضاء من الثلج المنساقط بكثافة، متالين وألقا بمعطفه العسكري البسيط في مكانه المعتاد على جناح الصريح.

بعد العرض العسكري قاد سرييلين مع مكسيموف الى أكاديمية توميريلوف التي شغل مستشفى مبانها. وقال سرييلين عندما اقتربت السيارة من المستشفى:

- لو قمنا الموقف على الجبهات فقيما وأقما لصبب علينا اليوم ان تصور باننا تعود على الاقل الى ما بدأنا منه: نخوض القتال على حدودنا الحالية. ولكن هناك فكرة نهدي. بالي اليوم.

- أية فكرة؟

- عندما عبرت الفهير مع بقايا فوجي قرب موفيليف لم اكن اتصور بان العرض العسكري في الساحة الحمراء سيقام يوم ٧ نوفمبر كالعادة وباتى احضره غدا العرض. ذلك شيء يفوق التصور. ومع اني كنت احاول السيطرة على اعصابي الا ان افكارا قائمة جدا بالنسبة الي كانت تشعشع في نفسي. وعندما اتذكر ذلك كله يخيل لي ان انسانين مختلفين يعيشان في داخلي. الاول يقول: «الفرجة سابقة لأوانها» والثاني يقول: «مباركة لأوانها» ومع ذلك ينبغي ان تفرح!.. كيف استطعت ان اصر من رأيي بشكل نفسي؟ بالرغم من كل تحذيراتهم فلما اشر بوجيد فارق بينا وبينهم لصالحنا ليس بشكل عام فقط، بل وحتى من الناحية العسكرية الصروف. فلما لا اعتقد بانهم يمكن ان يقيموا عرضا عسكريا في برلين اذا كنا نحن على بعد ستين كيلومترا منها. لا اسعد بذلك، اطلاقا. مع ان الامر قد نفس ليس في الاستعدادات، بل في الجبهات... ماذا؟ هل وعدك بالخروج من المستشفى نهائيا الجمعة القادمة؟ لم يجب مكسيموف. كذا جاءت قرب سرييلين يتطلع في نقطة واحدة. وعندما توقفت السيارة وخرج منها سرييلين بخمر منه له مكسيموف به دون ان يتحرك.

- اتمنى لك كل خير، يا سرييلين، وارجو لك الشفاء العاجل.

- رانته؟

- انا؟ يومك القوي اني هربت. ساقدم عليك لاساني في الجبهة وألعب في القلب. وأقول لك الحقيقة، انني لن اكون معالي حتى النهاية ابدا. والاسبوع لا اعمية له بهذا الخصوص. فلما ان يمدولي وان شعراء ولما ان يرسولوني غدا الى مكان ما من الجبهة.

دخل سرييلين ردهه فوج زوجته فالتيننا بنور ونا هناك.

اكتعدت. بمناسبة عيد الثورة، فستألفا السروري الأسرى الضخم التي يتذكر سرييلين من زمان. سالما نهضت صابئة زوجة الفهين لثالثه ادرك سرييلين انها هنا من زمان، وانها زلزاله عليه منذ عدة ساعات. وقالت له:

- كل ذلك من قبل صاحب مكسيموف. انا اسره. اين هو؟ شعر بذنه ويخشى ان يظهر امامي، اليس كذلك؟

لقد أدركت انها من اجل العبد، شماس زوجها على اية حال،
ولذلك فقط يادته بالكلام. فرد عليها سرييلين:

« فر ولم يبق له انرا استعداد بالمبالغة في البساطة وتوجه الى الجبهة.
- من الذي يصيح له؟ ان يخطو ترخيصا بالخروج من المستشفى الا
في الحصة القادمة.

- قال بانهم سيبحثون له.

- وهل ننوي القيام بعمل هذا العمل؟

- لا ادري الآن!..

.. سمعت الاذاعة - قالت فاليتينا يوفورونفا - ولكنني لم افهم في الحال
ان متاين هو الذي يتكلم. ولا ادري لماذا بدأوا خطابه من منتصفه، بينما
كانت الاذاعة مفتوحة دوما...

هز سرييلين كتفيه متفكرًا. ثم يرمقها، وما كان يوسعه ان يبرقا،
بانه تقر من البداية بلم يبق شيء على الاخير حتى انتهاء العرض. وذلك
خوفًا من غارات سلاح الجو الألماني. وفي اللحظة الاخيرة تطلع سناين، وهو
يقتررب من المكثفون، الى السماء التي تتألف منها تلج كتياف وأصدر امره
بفتح جميع المحطات الاذاعية. واستدق وصول هذا الامر وتضيقه عدة دقائق
اخرى...

- وعندما فهمت بانه هو الذي يتكلم بكيت...

- لماذا؟

- لا ادري لماذا، اختفت بيراني فيكيت... على تريدة ان تراه؟
- كلا.

كان متفلا فلم يرغب في الرقاد. وادركت فاليتينا يوفورونفا ذلك فلم
تلع عليه.

- حسنا، ولكن اخلع جرمك.

- انها حريصة.

- وما أهمية كروها عريضة. فداك توفامالو؟

- قليلا.

جلس سرييلين البزمة اللبادية ووشمها قرب الدواليب واجتاز الرعدة بالجرايز
فقط وجلس على المقعد ازاء زوجته

لم تغادر فاليتينا يوفورونفا موسكو الى اى مكان. منذ بداية الحرب
عملت ممرضة في مستشفى قريب من منزلها على شارع بيرغوفسكايا. وعندما

تلك سرييلين الى المستشفى في اكااديمية تيميريازوف صارت تعرفه عليه يوميا
طوال تلك الاسابيع الخمسة تارة في الصباح وتارة في المساء تبع لوتيتا في السك.
ولسبب غير معروف، والاصح لسبب معروف، عز ان فاليتينا يوفورونفا
راحت زوجها اخيرا بعد قرأ دام عدة سنين، فقد تسببت صحتها خلال هذه
الاسابيع الخمسة وتورده وجهها، وتحوّلت من تلك المجوز المثقلة بالقلق والتي
ادعته نظرها عندما رأها بعد عودته من معسكر الاعتقال في اليوم الاول من
الحرب، الى امرأة غير شابة ولكنها جميلة مثلما كانت قبل عدة سنين. خلال
سنوات التفراق ونشط القلب شعرها بعض الشيء، وخصوصا عند القوفين، ولكنها
ذات مرة سمعت على ان تنزع شعرها فجاءته الى المستشفى دون اثر للشيب.
وعندما اخذ سرييلين يمزج معها بهذا الخصوص قالت انه دون زعل، ولكن
سلامة فخرته في القلب:

«ماذا؟ تريدة ان تقول بان جهودي لا داعي لها، فانت تحبني على
علاقي؟ انما اعرف ذلك. ولكن اياك ان تنسى حين اشم اضافت بعد
صمت: - ماذا؟ انما شطيت تلك الصوات؟.. ام لك تظاهر لقلها؟.

«شعبيها» - قال سرييلين، وقد قال الحقيقة.

«وانا شطيتها ايضا» - قالت وابستمت بغير مروح - هذا ليس شيئا من
تقليبة - ليست شعرا - ولو كان من التقليدية لما صبت بالمواد من جديد...

- كيف جرى العرض العسكري؟ - سألت فاليتينا يوفورونفا عندما
جلس سرييلين على المقعد.

فحدثها عن العرض العسكري اولًا، ثم عن مرابته للفرقة العسكرية
ليس الاول. كان قد التفتا آنذاك، اسر الاول، ولكنها زعلت كثيرا لانه خرج
ليل الاول فلم ترقب في سماع شيء. وعيل اليها من مظهره ان صحته تدهورت
من جديد بعد هذا الخروج السابق لارائه، وفي مثل هذه الاحوال لا تميز
اعتدالًا لتلاياب مهما كانت وبهية.

وقالت له دون تسامح ودون ان ترقب في سماع مربراته: «هيمك ان
تسلم زاتفك واوسكك بعد اسبوع، فان يحدث لك ولها شيء». ولم تأت
لزيارته اسر، وكأنها تمنع بذلك عليه.

ولكنها الآن، بعد العرض العسكري، لا تقوى على لونه لا على ما
كان اسر الاول ولا على ما فعله اليوم.

بعد ان بدأ سرييلين حديثه لم يلزم الصمت بشأن ما يمكن لشخص
آخر ان يلزم الصمت بشأنه في اغلب الظن لو انه تحدث مع انسان غير

فاليمنيا بغوروفنا. سألها عن التقرير الطبي السيء وعن إيفان الكسيفيتش (قيله القديم) الذى هدد بإرساله بعد الخروج من المستشفى، ليس إلى الجبهة بل إلى المؤخرة للعمل فى تشكيل الوحدات.

حدثنا عن ذلك كله دون خوف أو وجل، مدركا بأن زوجته ستفهم رغم قلقلها على صحته. فإن عدم الالتحاق بالجبهة بعد المستشفى تعامة بالنسبة له، وفى لا تريد له التمام. بالمعنى، فهو تريد أن يكون كل شئ كما يرغب فيه هو، وأو يشن من القلق الجديد بالنسبة لها. ولذلك كان يحبها حبا جما لا يشيخ، حبا لا يهيه القدر للناس كل يوم ولا فى كل منزل. وحدتها بكلل التفاصيل عن القسم الآخر من مراجعته المؤقتة العسكرية، ذلك القسم الذى آلمه إيفسا، وأن بشكل منابر.

قد دار الحديث هناك عن الفرقة ١١٦٦ التى قاد بقاياها يد روفنا زايشكوف وعن روفنا وإيفتها التى أرسلها شاكوف إلى حيث أركان الجبهة.

والآن، بعد المستشفى، والأهم من ذلك، بعد كل ما حدث منذ ذلك الحين فى بنواى نيايا، ونواى مونسكو، لم يعترف سرييلين بـ ما كان فى زمن ما بنوى الامراء عليه، أى إبقاء الفرقة كفرقة فهو لا يهتم فى الشغال، وهو يعرف بأن ذلك مستحيل، ولكن هذا المستحيل بالذات هو الذى ترك فى نفسه شعورا بالمرارة، ووفدا، خلافا للعقل السليم، يسأل إيفان الكسيفيتش عن مكان وجود راية الفرقة الآن، ويقول بأنه سيذا أو جرى من جديد، وهو استعمال جميع الأفراد، تشكيل الفرقة استنادا إلى رأيتها وروفتها.

«هنا مشكلة فرقة بهذا الرقم»، اجاب إيفان الكسيفيتش ولاسيلا ردت أن يخطئ فلة اهتمامه بهذه القضية.

«الهم أن يكون للفرقة تقليدها»- قال سرييلين. وقد يكون ذلك شيئا مهما، ولكن من سيهتم به؟ إذا أرسلناك فانت لا تريد تشكيل فرقة جديدة، إذ تغفل العمول على فرقة جامزة واستلام القيادة من قائد قتل أو لم يبرر الثقة، ثم توجه إلى القتال! ويحبل أن انه لو عينوك أنت فإن تهجم بما كان وكيف كان، بل سيأت عن عدد الأفراد وكيفية الأسلحة، ومكان الرماية، وتذهب لاستلام الفرقة. أم أنك تقيم نفسك بمقياس الآخرين بمقياس آخر؟»

«لستفرض أنك محق، ولكن هل سيكتب هذا تاريخ الوحدات العسكرية أم لا؟ ماذا تمتد؟»

«سيكتب بالطبع»- قال إيفان الكسيفيتش-«ولكننا فى الحقيقة لا نزيد فى الحال الحاضر أن نبدأ كتابته من عهد آدم وسواء، من حرية...»

«نحن لم نهرب»- قال سرييلين مصححا وقد رفع صوته. فقال إيفان الكسيفيتش: «والى أفرد ممانالك، وممانا غيرك... ولكن الحقيقة التى لا جدال فيها هى أنه ما من فرقة تمتلك الآن تاريخ الهجوم حتى كينيسبيرغ أو على الأقل حتى وارشو. واليهود هو تاريخ الانسحاب حتى مونسكو. يجب أن لا نخشى من الحقيقة. وطالما الحرب قائمة»- قال بحدثة راجس سرييلين بأنه محق-«وطالما الحرب قائمة»- كرر القول-«فسوف نسجل التاريخ ابتداء من الانقضاضات! من العمليات الهجومية الأولى. يجب أن نذكر ذلك ما دامت الحرب قائمة. ويجب أن نعلم الناس على ذلك. أما الأكرات عن كل شئ من البداية فسوف تسجلها فيما بعد، لا سيما وأنتا لا توبى فى تذكر الكثير».

«واسع»- قال له سرييلين وقد ألتحن على الطاولة وتطلع فى عينيه مباشرة-«كنت تشغل هذا المنصب نفسه عشية الحرب. فل لى، إذن، كيف حصل أننا لم نكن نعرف؟ وإذا كنا نعرف فلماذا لم نخبروا؟ وإذا لم يسمع فلماذا لم تلحقوا عليه؟ قل لى. أتى أفكر بذلك منذ اليوم الأول فى الجبهة، زلا بهذا. والى. لم أسأل أحد، أتى أسألك أنت...»

«والأشئ عن شئ مهم من ذلك»- مرق إيفان الكسيفيتش بقبضته على الطاولة، وأكسبت عيناه بسعة من العزن والغضب. لم يشعر سرييلين بالرجل أمام عاتين العينين، فقد أراد أن يأسل إسطله، ولكن إيفان الكسيفيتش أوقفه بأن ضغط يده على الطاولة وقال بلهجة حازمة تقرب من التهديد:

«استكنا لا أريد أن أكتب، ولا أستطيع أن أجيب!»- ثم أبتلع جرعة من الهوى وكأنه يحتق ويأكل بصوت آخر تناما-«كيف حال زوجتك فاليمنيا بغوروفنا؟ كيف صحتها؟ وكيف تبدو الآن؟ عندما كنت محاصرا جاديتى إلى هنا، وكانت فى أمو حال...»

نقل سرييلين هذا الحديث إلى زوجته بكل تفاصيله التى جعلت وجهه يشحب وهو يستديها، وجعلت وجهها يشحب وهو تستمع إليها.

وقال سرييلين بخفوت وهو يقرب وجهه من زوجته ويظهر فى عينيه الكسيفيتش:

- لا أدري، والله لا أدري كيف يمكن للإنسان مثل ستالين أن لا يتوقع ما كان يجري الاستعداد له؟! وأنا لا أصدق بأنهم لم يخبروه.
- بأى مظهر يبدو ستالين؟ سألت فاليتينا يتوروفنا، ولعلها رافقة في تحويل هذا الحديث المألوم إلى مجرى آخر، أو لعلها انسأقت وراء أفكارها هي.
فقال سرييلين بعد تأمل:

- بأى مظهر؟ اعتقد بمظهره المتنب المبكوت، بل كان يتطلع إليه لا أكثر، يمتعن كثيراً في صوت ستالين المتنب المبكوت، بل كان يتطلع إليه لا أكثر. كان ستالين واقفاً يتكلم. الإلبان في ضواحي موسكو، وهو واقف على منصة الضريح يتكلم. وإمام الضريح وفقت القنات، وكان ذلك هو العرض العسكري بموسكو في نوفمبر. وفي ذلك بالذات يكن الشئ الرئيسي الذى تحسب سرييلين في تلك اللحظات. «بل وربما الآخرون جميعاً» فكر سرييلين.

- كان متأكلاً جداً؟ - قالت فاليتينا يتوروفنا.
تطلع إليها سرييلين وفكر بأن الجدل القديم مستمر بينهما. ظل ذكر منها على رأيه، وفي أغلب الأحيان كانا يتجادلان في ذلك صامتين دون أن يقولوا لبعضهما البعض ولا كلمة واحدة أثناء وجودهما معاً. وأثناء اختراقهما وهما يتجادلان منذ أعوام.

زوجة سرييلين - وهو يعرف ذلك - تؤمن إيماناً عميقاً بأن كل ما يحدث من مساوئ، إنما يحدث بغير علم ستالين لأن أعداء لم يخبروه به أو لأنهم يخبرونه بشئ خاطئ، حمله على التصرف ليس بالشكل اللازم. وكانت تفكر على هذا النحو حتى في السنوات التى انتزعو فيها زوجها منها.
أما سرييلين فكان يفكر على نحو آخر.

انه يعرف ستالين من زمان، منذ معركة تساريسين ويصعب عليه جداً تصور إمكان خدع هذا الشخص والتحايل عليه وإرضائه عنوة على القيام بشئ لا يريد القيام به. سرييلين يعرف قيمة ستالين، كما يخيل إليه، ويعرف جيداً الأهمية التى يلقها على الجيش وكل ما قبل من أجل هذا الجيش. فكيف حدث ما حدث للجيش في عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨؟ ولمصلحة من؟ وكيف سمح ستالين بوصول الأمور إلى هذا الحد؟

وانتداع الحرب؟ كيف أتدلت بعد أن توقع ستالين مؤامرة مينين ووقع في عام ١٩٣٩ المعاهدة مع الألمان ومع الأنجليز والفرنسيين من أن يحاولوا من جديد إلى ملام روسي للمنافع؟! بعد ذلك كله كيف يجوز أن نستقبل هذه الحرب بالشكل الذى استقبلناها به؟ ذلك ما يجير سرييلين.

- نعم - قال سرييلين بعد صمت قصير - مظهره - بأى بأى... لا بأس... كره بصوت عالٍ - ولكنه شاع بعض الشئ... - قال ذلك وفكر بنفسه، فكر بأنه ربما لن يكن لأحد أبداً مثل تلك الطعائر المتنافسة المؤلمة التى يكتمها ستالين الذى قبل اليوم أيضاً شيئاً ربما لا يجيراً أحد على فعله لو كان يدلا منه، فقد أقام العرض العسكري رغم وجود ثمانين فرقة ثانية فى تساريسين.
موسكو...

بعد اثني عشر ساعة على رجة التحديد من انتهاء العرض وتغلو الساحة الحمراء ساهمت إحدى كتائب الفوج ٩٣ من فرقة المشاة ٣١٧ التى يخدم بها قائد العريف سينسوف في معركة ليلية لتحرير قرية كوزكوف الواقعة على ساحة ثمانين كيلومتراً عن الساحة الحمراء بخط جغرافى مستقيم في اتجاه الجنوب الغربى. كانت التقديرات الأولية تشير إلى أن هيئة أركان الفوج ينبغي أن تزايد في هذه القرية بالنسبة الثاني في المؤخرة. إلا أن الأمور في الواقع جرت بصورة أخرى.

ففى الصباح - عندما كان العرض العسكري مستمراً في الساحة الحمراء بعد الإلتزام الضربات في عدة أماكن دفعة واحدة إلى السلسلة المتخللة حتى تغطي هذا القطاع والثانية لفرقة استمرت قواها بيمارك طويلة. في البداية - يحقق الألمان أى انجاز، فقد أوقف زحفهم بالبراز. ولكنهم زعموا بقوات خفية وقاموا بهجمات أخرى حتى اختزروا الجبهة وتقدموا خمسة كيلومترات باتجاه ثلاث قرى، بما فيها كوزكوف. ووسط الأمر إلى الفوج الذى فُقد من موسكو قبل حلول الظلام وضع من التحالف الوعداء المنسجمة بأن يستعيد هذه المواقع خلال الليل. لم يتمكن الفوج من استعادة القريتين، أما قرية كوزكوف فقد استرجعت من الألمان حتى الثانية عشرة ليلاً بموجب الأمر المذكور. وبخلاف تلك المهمة كتيبة واحدة من قوج المشاة ٩٤٨ وسرية لواء الدبابات ١٧ بقيادة العقيد كليمنتش.

كانت كوزكوف هي النقطة الأخيرة في تقدم الألمان خلال النهار. وقد احتلها عند المساء فلم يتسع لهم الوقت لثبوت أقدامهم. وكان أمر القيادة الأولية بعدم الانسحاب ولا خطوة واحدة أماماً مثل أمر قائدا باستعادة كوزكوف مهما كلف الثمن. وكما هي الحال عادة عندما يصدر قراران من هذا النوع في وقت واحد وللفئان في نقطة واحدة من الجبهة تسفر النتيجة عن تنحية

احدهما وعدم تنفيذ الآخر. ويبدو الدور الرئيسى فى تحريرنا ليكوزكوف بذكر
خسائر كبيرة الى الدبابات التى ظهرت بينة. خلالان تصوروا انها غير
مؤيدة فى هذا القطاع من الجبهة. وبى ام تكن موجودة فعلا صباح ذلك اليوم.
وبعد الاداداد التى تسلمها الفرقة تشكلت لدى كل كتيبة فيها فصيلة
من رماة البنادق الرشاشة. وبين سينتسوف آمرا لمفرزة فى إحدى هذه الفصائل.
فدخل مع سائر حملة البنادق الرشاشة الى كوزكوف على اثر الدبابات.
اقيم جنود الدبابات كوزكوف من الحركة زائما. كان القمر منيرا فى ذلك
الليلة، وكان شارع القرية ملغما بالطلع الناعم، وعندما اخذ الالمان يترافقون
من المنازل ويمرون الشارع قتلوا اغليتهم.
وبجرى تدمير مواقع الكتيبة بسرعة على البلدة الامامى ليكوزكوف.
ورابطت هيئة الاركان فى القرية وتخصصت حملة البنادق منزلان قرب مركز القيادة.
لقد اجتزوا مهمتهم اليوم وصاروا يشعرون مع جنود الدبابات بانهم ابطال الساحة.
وسا حسن امدحيتهم ايضا منحهم فرصة الاستجمام وعدم ارفاعهم، كالأخريين.
على التخذل هذه الليلة فى التحلل على التلوج.
الميزل المجاور لمتزلى حملة البنادق احترق عندما احتل الالمان القرية.
وكانت هناك عدة جثث تمت جدران المنزل الخشبية المحترقة. فى البداية، فهدم
رأى حملة البنادق رماة منزل نورا بان الالمان احرقوا اسرا. ولكنهم استخرجوا
من تحت الرءاد ثلاث بنادق محترقة جزئيا ويندقة رشاشة بمقضى متفحم.
القرية خالية من السكان. فلا يعرف احد على وجه التحديد ما الذى
حدث هنا فى النهار. وقال صوت:

— ربما دفعوا عن أنفسهم وما ارادوا الاستسلام، فاحرق الالمان المنزل.
— ما دام السلاح مهم فلم يكونوا اسرى.
— وانهمك احد الجنود فى تنظيف البندقية التى استخرجت من تحت الرءاد.
صرف فى ذلك وقتا ولكنه يصب فى آخر البطاط والفاها جاليا. فسأله احدكم:
— ماذا؟
— ليس بالاسكان تطهيرها بسرعة ففى مكتوبة ببلغة متفحمة مسيكة.
يدو ان النار كانت حامية جدا.
— كانت القضية حامية فعلا! حاول جدى ان يتكلم، ولكن النكبة
لم تجد اذنا صافية.
— ويقم الانتصار ايللى السيرى ثالث النوب بهذه القدر. و ذلك،
تيعا لطباع الاشخاص، من رماة المنزل المجاور والمقاتلين الذين اعقبوا

فيه وهم احياء. قال مثلى هذا العسير السهل يمكن ان ينظر هؤلاء الاشخاص
لأنهم فى معركة اخرى، حيث لا يبقى منهم الا جثث محترقة واسلحة
متفحمة، ولا احد منهم يمكنه ان يخبر بنا حدث...
المزلا الذى هجره اصحابه من زبات على ما يهوى، فعدا قبر مسكون،
قد اثير الآن بلهب غير سامع من الاضطراب البكرية التى تصفر وتلغظ فى
الزمن. وقد عدة الشخصا على استداد الساعاط وقد تقاربوا عالميا الدفء.
الان الباقون، وسهم سينتسوف، فقد جلسوا قرب النار. تذكروا الصباح والساحة
الاحياء والندجات الغامضة بالناس، وتذكروا سائلين بمطعمه العسكرية وهو يتكلم
من التفرغ... ومع ان ذلك كله كان قد حدث بالفعل، ولكنهم لم يصدقوا
تقريبا بان ذلك حدث فى صبيحة هذا اليوم لا غير.

— من الموثق اننا لم نأسر ولا الناقا واحدا! قال جدى اسمه
كوباروف كان قد وقت جثث سينتسوف اثناء العرض العسكرية، وهو الآن
يبحث جثته ايضا.

— ما الذى كنت ستفعله به لو قبضت عليه يا كوباروف؟— سأله،
المتزل الذى حفظ البندقية المتفحمة.

— وهو رجل نحيف طويل معروق يتنحى بقوة بولية كبيرة. وقد تجاوز
الاربعين من العمر حسب الظاهر. لقيه ليونيدوف، ويبحث ليا جيليا بالروسية.
عندما تعرف على سينتسوف قبل خمسة ايام قدم نفسه قائلا: «ليونيدوف.
اللب جيليا». وسحب على نحو يصعب فيه التفرق بين النيد والوزل فى
قوله هذا.

— ماذا؟ لماذا انت صامت يا كوباروف؟ ما الذى كنت ستفعله
بالاذا لو قبضت عليه الآن؟

— لو قبضت عليه لايفتح له بابت شاركت اليوم فى العرض العسكرية
وان الرقيق ستالين خطب فيه.

— وكيف ستوضح له ذلك؟ هل تجيد الالمانية؟
— بواسطة المترجم.

— حسنا. لتفترض انك اوضحت له بواسطة المترجم. ثم ماذا تفعل؟
— اطلق سراحه.

— ماذا تقول؟ تطلق سراحه؟
— نعم. فليذهب الى زلاته ويحدثهم.

— متعلق سراحه حيا؟

— يا لطيف، فكيف اطلق سراحه ميتاً؟

— حسناً فعلت، يا ذئب العريف. عندما قتلنا الالمانيين قرب الكنيسة، انتهى فرض الخراطيش حتى في تلك اللحظة وضعت بأنهم سيختفيان وراء البنية، واخذت انبساطاً في الحال، قال الحيدى الثالث، ولقد يودونوف، لينتشف ووضع بذلك حداً لجدار.

سينتشف، يعرف هو أيضاً منة ثلاثة، في أربعة ايام، وقد لاحظ ان يودونوف هذا مغامر صالح تماماً، ولكنه يترتب بين الحين والآخر، ليسب ما، حتى لأمر صغير مثل أدم البقرة. كان سينتشف فعلاً قد اوى، بصلية، هناك قرب الكنيسة ألمانيا راكضاً، ولكنه قتل ألمانيا واحدا وليس اثنين فانطلق تسكن من القطار ويودونوف يعرف ذلك، ولكنه على ما يبدو، لم يعتبر التولت إلى أمر، المفترضة خطية. فقال سينتشف:

— الثاني، فيما، فقد كانت على بقية قوس فقط.

وقال لينتشف، ولأست على وجهه الضيق التحيل ابتسامة ساحرة مصلياً: — بالنسبة، فالالمان يهربون من الدبابات حالاً يهربوها. يا ليتنا نمتلك العدد الكافي من الدبابات لكي نقتل كل منة دبابته فسنحطمه ولن تقوم لهم قائمة. بيستراك، يا بيستراك!— دفع يكرهه بتدنيا ذارع القامة كان جنالاً قربه فغفا ومال رأسه المتعب إلى الجدار.

وجه الحيدى جميل صاف، فهو في ريعان الشباب، ولكنه حتى في النوم كانت تلوح عليه امارات التعب إلى درجة جعلت، سينتشف يشفق عليه. فما الداعي ليشافله؟ وقال سينتشف:

— لا ترفظه.

— كلا، فلنحدثنا كيف ارتعب من دنياهنا، سالماً مرت الدبابات قرب فتر إلى كومة الثلج ورقد هناك على وجهه دون حراك... بيستراك، يا بيستراك! ولكن بيستراك ظل قائماً، وأظلمت امارات التعب القطيع على وجهه ليس لانه مريض أكثر من الآخرين، بالكس، لانه كان اصغر سناً وأقوى من الكثيرين. كانت امارات التعب على وجهه نتيجة لكل ما عاذه هذا اليوم. ومع ان السواد الاعظم من افراد فصيلة سملة الينافذ الرشاشة هم من الذين شاركوا سابقاً في القتال، فإن بيستراك، كما فهم سينتشف اليوم، يشارك في القتال لأول مرة رغم التمتع بالرسدة بعد اصابته بجراح. ولكن عن في ذلك ما يشير الدهشة؟ وهل يلتزم ان يصاب البرء بجراح قبل ان يتسكن للدعوة الأولى من رؤية غلور يام الحين او من اطلاق الرصاص عليه عن بعد؟

كان سينتشف جنالاً قرب الفرن وهو يتطلع إلى افراد مفترقه النافسين والمالسين ازامه قريب النار ويفكر بأنه يعرف الآن واحدا منهم، وهو لينتشف، ايلول فترة - خمسة ايام كدولة، ويعرف واحدا آخر، هو بيستراك، اقصر فترة - يوبيل لا غير. كان يتطلع اليهم ويفكر بأنه لم يشهد طول حياته مثل هذا القدر من القناعات الماجلة والعمى الوثقى والفرق الذي لا مرد له مع هذا العدد الكبير من الناس كالذي شهده خلال خمسة اشهر من الحرب. فقد كان هناك كاتبين المدفعية في الغابة بشواس مورديسك، وموظف الكنيسة، ضابط الحدود الذي قتل في الضباط قتلة، والمعيد الذي يبحث معه في اورش، من القطار الموجه إلى موبيليف، والطيار من قاذفة القنابل، وكاتبين مزاح الدبابات الذي انتهى به مرة أخرى في ضواحي يليا ثم فقد من حديد، وغوريشيف الذي كان يعمل في سرية مرشدا سياسياً، وزولوفارييف الذي سار معه للبحث عن قزاقه، ولو كان حياً تسكن لوسده في هذه الدنيا من التبدل على ان سينتشف لا يتحدث عن نفسه الا الحقيقة من اول، كلمة إلى آخر كلمة يقولها...

وكوكليا يابوكوف؟ هل هو حي؟ هل تتحسن صحته ام انه صار سيئاً إلى الابد؟ ثم أين هو؟ وعلى أي عنوان يسكن الكتابة اليه بخصوص ساره؟

فما العمل؟ طول الوقت يتلشى البعض حوله ويأتي آخرون، ولا يمكن ان يكون الحال على غير ذلك في النقط الامامي للجبهة. كان الحال كذلك وسيظل كذلك.

— ماذا يا شباب؟ هل تنام؟ - قال سينتشف ليطرد كل هذه الافكار التي جاءت بغير مناسبة.

بدأ الحيدو يرفرف، ومع سينتشف أيضاً بالرقاد، الا ان باب البتول فتح فجأة ودخل المايين.

— عندكم اغذية كافية؟

اجاب سينتشف بان لديهم مليات تكفي ليوم قه. فقال المايين: - في الصباح سنوصل الملبخ اليكم، امضوا. فقلتم حسناً، وقضائركم مائة، فيمكنكم ان تناموا.

فتح الازيمى العلوى لمحطة القرائي القصير ورس يده في عيه واستخرج من هناك ورقة متزعة من دفتر مدرسي وطاوية اربع طيات وسلمها إلى سينتشف.

— اكتب عما تحدثنا عنه في الساعة الحمراء. الم تنسى؟

.. كلا .

— غدا هذا أيضا وراققه بالعريضة . فقد كتبته من اجلك .

— شكرا .

— كتيبه ليس من اجل الشكر، بل لانني واثق — قال مالمين — لم يبق من سريتنا الا اثنان، انا وانت . فمن كان يتوقع مثل هذا البصير؟
ولمح سينتوف في عينيه ما جعله يفهم «بان الجميع يريدون ان يعيشوا ومالمين ايضا» .

— حسنا، الى اللقاء...

اراد سينتوف ان يراققه مودعا، ولكن مالمين لرحل بيده مكتفيا وخرج .

جلس سينتوف ازاء القرن ورفع الورقة المسئلة من الدفتر وقرأ البطور الاول على ضوء الشمعة الخافتة التي تكاد تحترق؛ واثني، مالمين الكلي دينيسوفيتش عصر الحزب الشيوعي (الباشقي) لمدوم الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩١٩، اعرض هنا رأيي...» .

قرأ سينتوف الورقة حتى نهايتها؛ حتى الكلمات التي ربما يصعب توقعها من مالمين في زمن السلم؛ وشخصيا لا استطاع التمايل على حسن ما فيه الا من اكتوبر العام الحالي؛ ولكنني اعاقهكم باخلاصه كما لو كنت ايا بدله . ملوى سينتوف الورقة من جديد اربع طيات ودسها في جيب قميصه وضع هدير جنازير دبابية في الشارع، فخرج الى الهواء الطلق .

البدر الساطع يثير اناشراح . وقرب المنزل توقفت دبابية من طراز «٣٤» . ووقف احد جنودها في الكوة المنخفضة .

— يا مشاة! هل عندك تبغ؟

— نعم . — اقترب سينتوف من الدبابية واخرج من جيبه مضطقه التفسير عليه سجاثر ويلبودره مستهلكة حتى النصف، وكانت قد بقيت لديه من هدايا اليد في موسكو .

— انتم مديون لنا . قلوا لجند الدبابات اسلم الفريضة جلودكم في كوزكوفو! سأعطي سبارة واعطي اخرى لرفيقي؛ هل عندك ماتع؟

— كلا . — واثق سينتوف .

اختفى الجندي في الكوة، ولعله اعطى سبارة الى سائق الدبابية . ثم ظهر من جديد على البرج وسلم السلية الى سينتوف .

— شكرا .

— ماذا؟ هل انتم ذاهبون؟ — سأله سينتوف .

— نعم . اثن تسجيلا من القرية يندنا؟

— كلا بالطبع . منيكل جهودنا على قدر المستطاع — اجاب سينتوف .

— اذا شعرتم بالضعف اصفدوا الي ناقوس الكتيبة، واقعدوا وشتمكم

فائتي . ثم صاح بصوت عال الى داخل الدبابية؛ — يا بيتيا، شغل المحرك، هيا!

زارت الدبابية وسارت على امتداد الشارع الضياء بنور القمر شاركة خططين

في الثلج المهبوس .

وقف سينتوف مستندا الى جدار المنزل وراح يشبع الدبابية بتقارقه حتى اعتضت وراء المنطقت دون ان يعرف بان البصير الحربي القاسي والمتقلب الاطوار كاد يجدهم الآن مع الشخص الذي هو بأسس الحاجة للاقتفاء به، بلغ سائق الدبابية زولوتاريف الذي ناداه الجندي قبل دقيقة سابقا: «يا بيتيا، شغل المحرك» . هيا...» .

الفصل السادس عشر

الضخيمة الاطاعية القديمة تقع على تلة غير مرتفعة ولكنها ملحوظة، والمبني القديم يهيئ على كلا سطحها - إلى الخلف، نحو مؤخرتنا، وإلى الامام، نحو الالمان. ويتوالى كالكبدان في المنخفض جدول متجدد، ورواء تقع قرية نوربريتس التي احاطها الالمان تيل بقسمه أيام.

كانت التلة تهيئ طول ايام بكاملها من انتحار الضحايا والقذائف. وقد تحطم نصف اشجار الممتدة كاعواد الشباب، وقامت القتال مباشرة على المنزل وعلىته فدمره ثلث مفر. وقسمت القذائف بريح التواليس في كتية الضخمة حتى طابقة الاول. ولكن مهما جهد الالمان لهر التلة وحفر هذه الأرض بالشايل وللقذائف فان الفرقه، بعد عدة اتصالات اضطرابية، صارت وكأنها غائب على نفسها وبعل جيرانها فتشبت بهذه التلة ومنزلها الاقفاص القديم وامسكت بها بالامتنان وشيل للرائي بانها شدت على فكها بقوة اكبر.

منذ خمسة عشر يوما، اعتباراً من صباح يوم ١٥ نوفمبر، زحف الالمان بكل قواهم على مسكون من جديد محاولين اختراقها من الشمال والجنوب في وقت واحد، وفي اماكن مختلفة من القطاع المركزي للجهة اشرقوا الدخان مشربين منها بقدر اكبر. وضلال اسيرين من الهجوم احتلوا كاتين وابسترا وياغريتا وسوليتشنيوفوسك وفينيف وستالينوفوسك وبوفوروفيسك وميخائيلوف. وفي الاتجاه الشمالي الغربي لم يبق بينهم وبين ميخا الا ٢٥ كيلومتراً....

ومع ان الفرقه، بعد العرض العسكري في الساحة الحمراء، دخلت القتال ولديها امر صريح بعدم الانسحاب حتى لخطوة واحدة، فقد اضطرت من جديد إلى الانسحاب اكثر من مرة.

صحيح ان اقاربيل الجنود تحمل من المؤثرة الزيد من الالمان التي تفيد بان وحدات التتق الثاني تحمي الظهور، بل ويقال ان هناك نفساً ثالثاً أبعد من ذلك.

وتظهر لدى المحاربين على الخط الامامي شعور بان هناك قوة احتياطية ما خلفهم، وراء سلسلتهم الرقيقة، تحسباً للطوارئ. ولم يمضوا يشعرون بالبرد اللقائى في الظهر والذي يبرز عندما يعرف البرد انه لا أحد وراء، وأنه اذا سقطت فسوف يتجاوزته ويواصل سيرهم...

ويقال - وهذا شيء، أكدته المعارك الأخيرة على ما يبدو - ان الالمان يشنون الهجوم بأكثر ما لديهم من قوى. ولكن من يدري كم لديهم من مآثر القوى؟ هذه؟ قرح الجميع اسم عندما تمت على الجبهة الجنوبية استعادة مدينة روستوف منهم، مع ان الناس لم يعرفوا باننا سلمنا لهم روستوف الا من بلاغ استعادتها. واليوم جاء في البلاغ الصباحي الذي سجل من الراديو اننا تركنا مدينة تيفين مثل عدة ايام. وربما تستعيدنا فيما بعد، مثل روستوف ولكن تركناها الآن...

وسجل ذلك باللائح، حول روستوف وتيفين ناز الجدال الآن في مخبأ جنود البنادق الرشاشة، وهو عبارة عن دفيعة قديمة من الطابوق غطيت بطبقين من جذوع الاشجار، وفي قرية جدا من مركز قيادة الكتية الواقع في سرباب المنزل الاقفاص ومن الخط الامامي للجهة الذي يمر هنا، في الاسفل، على طرف البتدز.

وتار الجدال بين ليوفيفوف وكوباروف. فان ليوفيفوف السريع الانفعال راح يتهجم على دوافع مكعب الاستعلامات، بينما راح كوباروف المتعقل يبالغ عنها. وقال ليوفيفوف بهيمة متهمكة:

- دمعك من هذا يا كوباروف فان كل شيء صائب دوما بالنسبة لك. اين الصواب في ان يقال ان اثنا عشرينا روستوف من الفرنسيين، اما انا فافك غبي واقل؛ عجباً! استرجعنا، ذلك شيء حسن، ولكن متى سلمنا لهم؟ فهل يقبل اني كنت قائماً واستيقظت الآن فظناً؟ وتلك هي حال تيفينين. حدثت مضيقه فسلمنا تيفينين. فقولوا فوراً باننا سلمناهم. ولا تقولوا ذلك بعد عدة ايام. وربما سلمناهم قبل شهر!

- ما لك شياكل! - قال كوباروف - فما نفعلك من ذلك لو انك عرفت به قبل اسبوع من قوعه؟

- التفع لا يهمني، فلما اريد ان اعرف الحقيقة.

- ربما لا تتصور الكتابة عن ذلك! ربما لا ينبغي للالمان ان يعرفوا!

- ماذا! - سأل ليوفيفوف - حتى كاد يفتخر - الالمان لا يعرفون بانهم

احتلوا؟ احتلوا دون علمهم؟ فدمع عندما استمعنا كوزكوف هل اخفيها

ذلك؟ بالكس تماما! فقد تلقى قائد الفوج ماء من الكنية، الى الجيش مباشرة. وسعت ذلك ينسى. وعندما كنا نذهب فلا داعي، مليا لادارة الضجيج... كل شيء صائب بالنسبة لك! انك لست بموضة تنزع، بل انت دعسوقة وادعة.

- لا ترفع صوتك - من كوماروف (لقبه شقيق من كلمة «كومار»):
ومعنى بالروسية «الموضة» - تدعى ان معارك كثيرة... فهذا بالنسبة لك دعسوقة، وذلك حشرة. اما انت فكذلك الطائفة؛ طين كثير وضع قبل

- ساستمر على البطين! - قال ليونيدوف واكتسى وجهه الغاضب بمسحة من الكذبة - انني سأعلم ليخفين! انني من ايت، كايواكسا، وبسكن القول من ابنته ليخفين. احملوا ليخفين واننا لا ادرى.

- من ايت واكسا انت؟ اين تقع واكسا الوصفة هذه؟ - سأل كوماروف، المصالح ليونيدوف المشاكك.

- لست من واكسا، بل من كايواكسا. توجد قرية بهذا الاسم في ضواحي ليخفين! - اجاب ليونيدوف بنبط.

الا ان كوماروف لم يكن واعيا في تنويع فرصة التوفيق في الجنداء.
- يا غيب الشوم! انت من واكسا الوصفة وتحكم على الآخرين بهذا القسوة واكفهم لا يبيدون وضع البلاغات بذلك!

- اسمع يا نائب الشريف - شامل ليونيدوف سيستوف الذي جلس عند باب وضع على كسر من المالبوق فصار بمثابة طائفة وراح يكتب رسالة الى زوجته - ماذا تنتقد: لماذا منع الاحتكاك رأسا؟ الاجل ان يقول نعمه ام لا لاجل ان يقول «لا»؟

- لاجل ان يكون فيه دماغ - على كوماروف قيل ان يوقع سيستوف رأسه.
- والدماغ في الرأس لاجل ماذا؟ يقول نعمه ام لا يقول «لا»؟ سأل ليونيدوف دون ان يهده. وقع سيستوف رأسه. الجور في السخيا المعلوم دافى وجاف، وبالإضافة الى ذلك فالوضع علائق اليوم.

عجم الهذو على قطعهم من الصباح لاول مرة خلال تلك الفترة. وكان ذلك هو اليوم الاول الذي لم يفتل ولم يجرح فيه أحد على مرأى منهم، ولم يذكرهم شيء بالبنوت غير القصف المدفعى الشتالى اليه من الجين: في البرقة المجاورة. ولعل معركة حامية جرت هناك. ولكنه لم تكن هناك دلائل على ضرورة التجدد المباشرة التي يمكن ان تطالب منهم في أية لحظة

من الليل أو النهار. وقد فرح سيستوف، شانه شأن سائر رفاقه، لان الالمان يضلون اليوم ليس عليهم، بل على جيرانهم. فيدون هذا القليل من الانانية العسكرية لا يمكن للجندى ان يعيش عموما على الخط الاساسى للجبهة.

خلال اسبوعين من المعارك بقي من الأشخاص السبعة في مقرزة سيستوف أربعة، بمن فيهم سيستوف نفسه. فقد قتل بودالوف وهو يمشي جريعا من ساحة القتال. كان الجندى الاول بودالوف نجيب كثراف الى الرؤساء في صفائر الامور، ولكنه في لحظة الاشارة خدم رفيقه ونصحه بعيانه في سبيله. واصيب اثنان بجراح نقلوا على اثرها الى الكنية الصحية. وكان هناك جريح آخر هو بيتراك، ولكنه لم يرغب في مغادرة المقرزة ظلال فيها بفشل قوته الاستطورية رغم اسبابه بجرح مفرح في الكتف. ذهب اآلان لاحضار طعام الداء، وكان في المنيا كل افراد المقرزة ما عدا. وهم سيستوف واذان الجنديان المتخصصان دوما - ليونيدوف وكوماروف الذي تشقت به كنية «الموضة» وقد اطلقها عليه آدر القصيلة الملازم كادارلوف.

- اليس هناك موضوع للنقاش افضل بن هذا؟ - قال سيستوف - اذ كان الرأس خاليا من كل شيء ما عدا نعمه و«لا»، فهل هو رأس يا ترى؟ انه مجرد اشارة.

كان سيستوف يفهم ما يقصده ليونيدوف بكلماتي نعمه و«لا». فان الجبر لوجود الرأس على الكنفين هو ان الشخص يتمكن من قول كلمة «لا» هذه الضرورة. كان ليونيدوف شجاعا في القتال، ولكنه شديد الانفعال، وهذا هو نفس من هذو كوماروف الذي يعقده عادة، ان كل ما يجرى دواج يتهمهم عليها. وذلك شيء لا يبرر له. فليس من الجائر التشكيك بالبلاغات في الجبهة. وعلى أية حال لا يجوز التشكيك فيها بصوت مسموع. ولم ما أهمية وقت الاعلان عن تسليم ليخفين، اليوم ار قبل ثلاثة ايام؟ - نكر سيستوف - ربما كانوا يأملون باسترجاعها بسرعة فلم يمشوا اليها. فعن، عندما طردوا من كوزكوف لم نخبر الجيش ليلة بكلماتها، مؤملين باننا سنستعيدا. وبعد ذلك، في الصباح، كنا مضطرين الى اعبار القيادة رفقا...
عاش...

- لمن نكتب يا نائب الشريف؟ - سأل ليونيدوف بعد صمت قصير.
- لزويخى.

— لاحظت أنك تكتب مرة أخرى، وربما هذه ثالث مرة، ولكنك لم تستلم رسائلنا.

— ألا ينبغي أن ننتهي طالما أنك لا تستلم رسائلنا؟! — قال ليونيدوف.

ولاحظ في كلماته سخرية وشاطرة في وقت ما.

— عند من أشككي؟ انني كأننا اتكلم مع صماء فلا جواب.

— وأما أيضاً لا استلم جوابات — قال ليونيدوف — بالأمس ظننت أنني أعرف شيئاً، ولكنني في الحقيقة لا أعرف أي شيء. بالأمس فكرت أن الألمان في غولاج فوليوف، ولكنهم اليوم تجلبوا تيشفين. ووقع هذا التباين على كالمصاعقة! فعانقته هناك. وفكرت ربما لست أنا الوحيد الذي علمت بعد الآن بأن الألمان احتلوا تيشفين. فماذا لو كانوا هناك أيضاً قد فربوا؟ يوصل الألمان؟ في الصباح كانت هناك قواتنا، وفي المساء وصل الألمان. آ؟ وأبي دعوق من زمن الحرب الأهلية. وإذا لم يخبروه شيئاً فلا يتمكن من الزرع بعيداً.

ويعد هذه الكلمات فقط تصحح لميتسوف وكوباروف. فهناك لمدة أشد غيبك الآن أكثر من المعتاد. ونقصه كوباروف:

— أكتب رسالة أيضاً مثل نائب العريف.

— إلى أين؟

— إلى وكاسا هذه...

لم يعد كوباروف راضياً في مفاكسته، ولكنهء بسبب تكرار هذه النكتة مرتين، نسي بالفعل اسم منقطع رأس ليونيدوف.

— كاي... وأ... كسا! — صحح له ليونيدوف غامضاً اسم القرية — وأما كثرت الإهانة ماضعك.

— ومع ذلك أكتب رسالة — كرر كوباروف دون أن يعاً بالتهديد.

ففي الحرب تحدث حالات مختلفة. يقال في الجبهة أن الألمان يحتلون كل المناطق حول تولا، ولكنهم لم يحتلوا تولا. وربما يكون العكس عندكم: احتلوا تيشفين، ولكن قواتنا في كل مكان حولها. اجلس واكتب رسالة.

— لن أكتب — قال ليونيدوف، فقد سمته ملياً مع من اتصدق بجهنم بهذا الاحتمال السعيد.

ترشح ميتسوف قليلاً ليضع نسو أكثر على الثورق وانهمك في الكتابة من جديد. وكان ليونيدوف على حق، فإن ميتسوف يكتب الرسالة الشكفة إلى ماشا خلال الأسابيع الأخيرة على صندوق البريد العائلي الذي سجل ذلك.

على الورقة في موسكو.

كانت الرسالة موجزة مثل الرسائل السابقة: أنا بخير! سؤالي عنكم. فمن الصعب عموماً كتابة رسائل طويلة إذا كان المرء لا يعرف أينما يتصل إلى المرسل إليه أم لا، فهايك عن الزقاية العسكرية.

انتهى كتابة الرسالة ولمواها بشكل مثلاً، ثم كتب تحت لقب ماشا، مثلاً من المرتين السابقين: «إذا كان المرسل إليه غير موجود أرجو فتح الرسالة مع ذلك». فإذا انقضت ماشا بموسكو بالألماني فهل يصيب عليهم أن يقولوا لها ووقع كلمات على الأقل: «ترجيك على قيد الحياة؟» وحتى لو أوصلوا هذه المبراة بالشرطة، فهل هي ملوثة؟ كلا أبداً. ولو أوصلوا لما قلت ذلك المرأة في المؤشرة. فهل ذلك شيء صعب؟ وحتى لو كان صعباً، ثم ماذا؟ —

فكر ميتسوف بقسوة عابرة ضد الشخص الذي ابتدعه بنفسه والذي لا يريد أن يهتم بماش.

دخل يمسرك المعنى وقد حتى لدرجة كبيرة كتيبه الفستخين. ويعد رداء مما يتفك يه الحليب، وهو رداء حل معمل الترموس الذي حطته الشظايا قبل أيام، وتحت إبطه قطعتان كبيرتان من الرغيف. فرك ليونيدوف يديه وقال:

— سوف تفلذك بالسلام السخن.

ولكن كوباروف ألقه حجراً:

— ربما سننظر حتى يعود الشبان من الدورية ويعود أمر الفصيلة.

الس كذلك؟

وسأل ميتسوف: — ألم تحضر الجرائد؟

— أحضرتها.

فتح ميتسوف مظفه وأخرج من بطناله جريدة مدعركة وراح يدهلها.

— جريدة جيهوية؟ — سأله ميتسوف.

— كلا، من منزلة أعلى. جريدة الألفستيا.

— يبدو أنك قتي شاطر — قال له ليونيدوف، فاضاف يمسرك:

— أخذتها من التعليل مباشرة. فقد أكل أحد المراسلين طعاماً هناك وترك روثاً من الجرائد.

— يعني أنهم المصوم جيداً — قال ليونيدوف ساخراً.

ثم يرد يمسرك على هذه الملاحظة ويحل الجريدة بتاتية من جديد ثم سألها إلى ميتسوف، وقال أنه بناء الآن إلى الخط الأمامي بصحبة مفسود من الفرقة، وقد طلب منه المصور أن يدهل على مركز قيادة الكتيبة، ثم ذهب إلى المايين.

فقال ليوليوف، المستوف: - يحيى أنك «مستوف» قريباً.

كان الجنود يعرفون بأن سينستوف يستعيد العضوية في الحزب، وهو مثل عدد آخر من أفراد الكتبة الذين توقفت قسيتهم في المكتبة الحزبية، ينتظر وصول المصورين لحظة وأخرى.

- يبدو أنك محق - قال سينستوف بأسه. فلما سر لمحى المصور، ولم يكن لديه سبب يمنعه من اعتقاد سروره عن يداقه.

- هل تريد موسى؟ - سأله ليوليوف. فقد كان لديه موسى حاد حجة، ولم يخطر به على الآخرين.

- استطاع أن أحلق بموسى - قال سينستوف.

- موساك ليس حاداً. فهو يخلق في مكان ويترك نقفاً من الشعر في مكان آخر.

اغترفت سينستوف ماء في علية فارغة من الدلو المتواجد قرب الفرن ووضع العلية عليه كي تستحق.

- الأشياء الهامة ستأقراها بصوت عال، حسناً؟ - قال ليوليوف وقد استأثر بالجريدة. أنه يجب القراءة بصوت عال، ولكنه لا يجب قراءة كل شيء بل ما يستحق الانتباه فقط في رأيه.

أخرج سينستوف من كيس متاعه صابونة وفرشاة صابونة في علية ناهلون وروبية، وفرشاة جيدة وجديدة. وكانت هناك أداة حلاقة أيضاً.

ولكن دون جلمري، فهي بدون موسى. وكان سينستوف قد استلم ذلك كمن في أحد أكياس الهدايا. كاشف الهدايا تصل إلى الفرقة من منطقة أخرى التي راولت فيها قبل الحرب.

وصلت هذه الهدايا التي أرسلت بمثابة عيد ٧ نوفمبر متأخرة مدة أسبوعين من ذلك التاريخ. ولم يبق في المكتاب والسرائر من سكان الناي إلا القليل، وبين جنود البنادق الرشاشة شخص واحد فقط من الناي وهو أمر الغصيلة كاراولوف.

ومع ذلك كان وصول الهدايا من الناي الجديدة جداً قد أثر في نفوس القائلين تأثيراً شديداً فكتب الجنود رسالة جوابية إلى أبناء بادة كاراولوف.

حرر سينستوف الرسالة التي أملاها له الجنود، بينما رقت كاراولوف غلظ ظهره وهو يشتم الألمان بصيغ مختلفة بين الحين والآخر. ففي ذلك اليوم ارتفعت أصغابه على غير عادته فشرى مزيداً من الطمر.

تذكر سينستوف ذلك الآن وهو يخرج الصابونة والفرشاة. وطرق ليوليوف بأسه على الجريدة وقال:

- عثرت على الخير... قرأته أمس الأول في الجريدة الجبهوية وأدبرت

أن أقرأه عليكم، ولكن لا أدري من أصل الجريدة نبي. وأخط يقرأ بيده.

وبصوت غاضب عال: - «الفاشيون الإلمان السفلة ينتشرون بوشية من أفراد الجيش الأحمر الجرحى وقطعوا رؤوس ثلاثة منهم...» - وضع أصبعه على هذا المكان من الجريدة، ورفع عينين غاضبتين وسأل: - ماذا؟

- سألك بلهجة وكأن أحداً يجادل في هذا الموضوع. ثم قطع من جديد إلى المكان الذي وضع أصبعه عليه وكرر: - «وقطعوا رؤوس ثلاثة منهم...»

لما أذا فقد صفحتي كاراولوف عندما قطعت ألمانيا أس. أليس كذلك؟ هذا ما شجعتك! - علق كوياروف - المقاتلون بدلوا جهدهم للقرص على الماني حي، فبنت انت وقتله. يا لك من رام مشغول!

- قشيت عليه بتبني - قال ليوليوف مترشفاً.

- ولكن ليس لومك.

- حسناً. صفحتي - قال ليوليوف - لو لم يكن أمراً للخصية لرأي مني ما لا يسره حسناً، لا بأس، ولكنه حددي قالاً: إذا كررت ذلك

ساعتك ريباً بالراسخ! فماذا يقصد؟

- يقصد بأن لا تقتل الإلمان الذي يقبض عليه حياً. - قال كوياروف بلهجة قهريه.

- وماذا يقصد الرشد السياسي الأقدم عندما أنبئي؟ فهو لم يتحدث من الإلمان الحي، بل قال: «طالما هو أسير فليس لك الحق عنده...» كيف

يقن لك؟! - وهذا؟ - غرز ليوليوف أصبعه في الجريدة حتى تمرقت - وهذا؟ هل سبق لي أن أقرأ عنه؟ أم لا يسق لي؟ التي أرى بأم العين، عبر الجريدة، كيف يقتلون رؤوس البشر! بينما أحصل على صفحة. فهل في ذلك عدالة؟

صمت متوقفاً جولياً من أحد منهم. ولكن أحداً لم يجبه، فواصل شرارة بصوت أعلى من السابق:

- وفي قرية ماكيفو عشر آمر الاتصال الرفيق موشالوف والرفيق السياسي للسرية الرفيق غوباريف على جيش الجنود لاينكو وسوبوف وقيليشينكو

سيرة بوشية. فقد شوه الفاشيون الجرحى قطعاً عيوقهم وبنوا أنفوقهم وقطعوا رقابهم... - رفع رأسه من الجريدة مرة أخرى وسأل: لماذا يكتسبون

لنا عن ذلك، يا ذائب العريرت؟

- لتكون أشد غضباً.

- التي غاضب جداً حتى بدون ذلك!

- ومع ذلك لا تمس الإلمان الذين تقبض عليهم أحياء يسو. - قال

كوباروف الذى يحب الضرب على رثر واحد— ما دمت قد قبضت عليه فذلك يكفى .

— انتم مقرطون فى الطبية! قال ليونيدوف بغضب .

وضع سينتوف اداة الملافة، فقد افادت كلمات ليونيدوف هذه .

— لا تفرض علينا غصبك! تمهل... — طيب على ركبته عندما راي ان ليونيدوف ينوى مقاتلته— انث غاضب، ولكن كم عدد القاضيين الذين قتلهم؟ اثنان بالاضافة الى الاسير، اليس كذلك؟ اما كوباروف الهيب القلب فقد قتل اربعة!

— لا يسجل كل القتل— اجاب ليونيدوف عابسا .

— لا يسجلون كلهم عند الآخرين ايضا . فانه كوباروف ايضا لم يسجل كل القتل . فما قيمة غصبك؟ انت غاضب لانك قتل عددا قليلا، ففوت ان تضيق الى الاثنين تالما، اليس كذلك؟ قتل الاسرى غصب رئيسي!

— هل تعرف شيئا عن غصبي؟!— قاله ليونيدوف بلهجة حائرة جافة .

— نعم، اعرف!— قال سينتوف بلهجة قاطعة . الصبر يجعل قلبه قابلا وحرره من البقية الباقية من الرقة التى كان يعطى بها قبل الحرب— انك لم تر الكثير فى حياتك بهذا! ذلك هو السب .

— ليس اقل مما رأيت انت .

قال . بالتأكيد . هو كذلك الحقيقة الاولى؛ ان سبع القلوب قد قتل فى كوزكوف .

— يخيل اليك انك تعرف الكثير جدا عني!— قال ليونيدوف بزعول ولكن بشيء من الحيرة .

— اما آسر مقرنك ويحب على ان اعرف كل شيء عنك .

قال سينتوف ذلك فى محاولة لتهديته نفسه بذكر منصبه بانادت .

ولكن، بما يلازمه من احساس بالعدالة، بان ليونيدوف كان فى معركة كوزكوف مثل بيسنارك، قد شارك فى الهجوم حقا لاول مرة، ولكن سينتوف لم يدرك ذلك سينتوف من سلوك ليونيدوف نفسه . وقد عرف بذلك، فيما بعد، صاعته .

وقد قتل ليونيدوف قاضيين اثنين، لا اربعة، ليس لانه اجبن من كوباروف، بل لان وضع المعركة كان على هذا النحو بالذات . وليس على نحو آخر .

الفتك سينتوف اداة الملافة من جديد واتى نظرة جانبية على ليونيدوف الذى شرز وجهه فى الجريدة بعدا . وفكر سينتوف ياته على حق . فليس من اللائق ان يفرض غصبه على الآخرين، نحن جميعا فى الحرب متساوون؛

فالقاضيون قاضيون، والليونيون قاضيون ايضا! والذى يعطى بالطيبة اما لم يكن له رأى الحرب وما يتصور بان الالمان سيقروا به لحيته .

خرج الى الشارع بدون قميصه وسبح بانطرح وجهه الشجاع بهد الملافة بعدا .

— طلق عليه... — سمع سينتوف صوت ليونيدوف عندما دخل السبنا من جديد— انا غاضب شريرا، وهو طيب القلب... اما عندما ضرب ذلك الالمانى باليدنية على شوقه قرب السبنا فقد انفعل غضب اليدنية من ماسورها من شدة الغضب... .

لاذ ليونيدوف بالصمت حالما دخل سينتوف . ولم يكن خائفا من مصابة الكلام— فاحسب ليس من طباعه— بل لم يكن رافيا فيه .

— ماذا قرأت فى الجريدة لير ذلك؟— قال سينتوف بلهجة بهيمنة . به ان اردى فضلك ومطعمه وقبضه وعلق على رقبته اليدنية الرشابة ذات اللصص الجودي الذى حطه بنفسه .

— قرأت الشيء ذاته — اجاب ليونيدوف بغير ود، وغرر اسنيد فى آشر ناس المقطع من البلاغ الذى قرأه بصوت عال . قبل ذلك .— على قرية بكايريتوكا عثر على جثة الفئس المصحى الرقيق فيكيغروف . فبعد ان اسيب بجراح تخيبة انهال عليه الهلويون ضربوا باسفاب البلاط وانفجروا جسمه بالمراب وشققتوا وجهه بالموسى .

«الموسى»! — فكر سينتوف رشور نفسه جريحا عاجزا عن الحركة والالمانى يبالس على صدره ويمرر وجهه بالموسى .

— اذا ذاهب لاصطود— قال بصوت مسرع— اذا جاءه كوباروف اخبروه . عندما خرج من السبنا فى المرة الاولى ليتسل لم يلاحظ شيئا، اما

الآن فقد رأى فجأة جمال الطبيعة الغلاية فى هذا اليوم الممض من ايام الشتاء . زرق الصماء المتقطعة الظلير وايضا الضجج الناصع الذى تهاطل خلال الليل والظلال السوداء لاجدوج الاشجار، وحتى الطائرات المعلقة بشكل مثلك

عنى ارتفاع شاقق، بحيث شيل اليه ان طليها البيد لا ينطوى على خطر . كالراى فى التخيلى قبل قليل يتجادلون عن الحرب والموت ومن قتل البشر

وندا اذا كان بالالكان ان يعطى امره باليدنية او الغضب لئلا يقتل... .

وها هو الآن يميز نحو انقاض المنزل الاطلالى السابق على معشى مدور بالشمس ومظلم بظلال جفوع الصنوبر ويفكر بعدم تكيف الاثنان جدا فى الواقع للحياة التى تسمى بالحرب . انه يحاول تمويه نفسه على هذه الحياة، والآخرين يحاولون على التعود عليها، ومع ذلك لا يستطيع ان يحقق

أي شيء إذا كان المقصود نيس هو سلوك الإنسان الذي يؤثر عليه بالتدريج الوقت الذي يصرفه في الحرب، بل مشاعره وأفكاره في لحظات الاستجمام والهدوء، عندما يستطيع أن يثق بعينه ويوجد ذهنيا إلى الحياة البشرية الطبيعية، وكأنه قادم من عالم آخر...

كلا، يمكن للمرء أن يتعلم القتال، ولكن لا يمكن التمدد على الحرب. يمكن التظاهر بانك تموت عليها، والبعض يبيعون هذا التظاهر تماما، والبعض الآخر لا يبيعونه، ولن يبيعوه أبدا على ما يبدو. أما هو، ميتسوف، فيجد هذا التظاهر، كما يتخيل إليه. ولكن ما فائدة ذلك؟ دفأت الشمس ما حوليها وازدقت السحاب وحلقت الطائرات باتجاه آخر واطلقت المدافع فيأوها نحو جهة أخرى، وليس سمويه، وهو يسير وينشوق إلى الحياة برغبة حارة إلى درجة يكاد يقع فيها على الأرض ويتحجب ويرجموها بتعطش أن تسلمه يوما آخر أو يومين أو أسبوعا من هذا الهدوء الخالي من المخاطر، ليصرف بانه لن يموت طالما يستمر هذا الهدوء...

قرب اقتاض المنزل صادق ميتسوف الفارق في أفكاره رقيب مريرة الرشاشات فاصوكوف الذي يتبعن عليه، هو الآخر، أن يأخذوا له صورة لاجل هوية المفضية في الحزب.

- ماذا؟ حل متصور؟ - سأله ميتسوف بمرح.
- تصورت - قال فاموكوف وهو يمد شاربيه، وقد فاحت منه رائحة القرفوليا.
- أين المصور؟ - سأله ميتسوف.
- هنا، وراء المنزل، يوقظك قرب الجدار مثلما في حالة الإعدام - قال فاموكوف مازحا.
- والباقي هناك؟ - سأله ميتسوف.
- تصورا. ظننت أنك أنت أيضا تصورت قبل، الحق به. ففد

ذهب إلى الفوج نوا!
هم ميتسوف بالإسراع معتقدا بأن الذئب يقع عليه لانه صرف رقة طويلا في الحلاقة، ولكنه تذكر ما لبين وقته في هذه الامور وادرك بانه ما كان بالامكان خلال هذه الفترة القصيرة جمع وتصوير فاموكوف والآخرين. وذلك يعني أن ما لبين كان يعرف مسبقا بمعنى المصور فاموكوف، مسبقا ايضا، بأن يستعدوا للتصوير ويحضروا. ولا داعي للقلق بالأسرور إذن. فالذين تقرر التقاط صور لهم لاجل الهويات الحزبية قد تصورا.

وهو لا يدخل في عدادهم. وذلك يعني أن اللجنة الحزبية في الفرقة لم تصادق على قرار المكتب الحزبي فقررت عدم تسليمه بطاقة حزبية جديدة. وهل هناك توضيح غير هذا؟!

وقف متحيرا.

خلال هذا الشعر والنصف في اللجنة استعان ميتسوف مرارا، في المحطات المصيبة حتى الآن، بالفكرة القائلة بأن كل شيء في حياته سيحدث في آخر المطاف إلى ما كان عليه، وأليس بالامكان أن لا يحقق ذلك بنفسه أو أن لا يساعد الآخرين في تحقيقه! ومصادفت أيام اشيدت فيها المعارك الملاحقة إلى حربة كبيرة جدا، كما حدث نالي رابية بعمل الطابوق، حيث ملأت الحرب كل السمات ونيل إليه انه ليس هناك شيء غير الرشاش وغير اشياح الانسان الصغار الذين اختلهم جهاز التشين على التلج الابيض. ومع ذلك كانت هذه الفكرة الخاصة باللقطة والملاحقة حتى في تلك الايام قابعة في ركن من الأركان في ذهنه، وليست فائدة فقط، بل ساعدته على القتال بالشكل الذي قائل به. اليوم الذي استدعوه فيه إلى المكتب الحزبي للفوج كي يقدم توضيحات شقوية عن فقدان هوية المفضية ظل عالقا في ذاكرته باعتباره آخر يوم للحياة، كما خيل إليه.

فقد صدقه اعضاء المكتب الحزبي للفوج فيما هو رئيس، صدقوا بانه قال الحقيقة عن ذلك الصباح في خلوصي فيرا عندما وجد نفسه وحيدا بين زولوتاريف. ومع ان هذه الحقيقة بدت لهم، المرحلة الاولى، بعيدة عن الحقيقة، فقد أدركوا فيما بعد انه يقولها لسبب واحد هو انه ليس رائية في الكذب حتى وان كانت فيه تجاته. وقال آنذاك لأعضاء المكتب الحزبي للفوج: وايها الرفاق، ما الذي يوسى ان اضيقه؟ لا أدري اين ضاعت الهوية! أم اطرها ولم ارفعها! ولا أدري. ربما كنت ساطرها لو لم يكن لدى مخرج آخر، ولكنني لم اطرها، لم اطرها، قدروا ما تترأفون، ولكنني لا استطع ان أكذب!.

رصدقه فيما ارتاب به الآخرون مابقا، صدقوه لانهم يعرفونه اليوم افضل مما كان يعرفه اولئك. وجها له توبيخا شديدا على ضياع الهوية الحزبية، ويقدرون ان يطلبوا من اللجنة الحزبية للفرقة تسليمه هوية جديدة. ومع انهم اصبروا لتوبيخا شديدا له فقد كان سيدها في ذلك اليوم، ونيل إليه انه ما من احد يستطيع ان ينتزع ذلك منه!

وعا هم يتزعمونه! فتحدث الثقة السعيدة التي عاش بها في الأيام الأخيرة ورافته الآن عندما توجه الى هناك وقبل ذلك عندما استمد على صجل للبحر الى هنا... ذلك يعني انهم في مكان ماء في القرقة او فيبحر، لا يشقون به من جديد. ثم يقفوا بجانبه مع ان حاضره معروفين امامهم كما على مصفحة المرأة!

وقفت دقيقة كاملة مثقلا بكل هذه الأفكار واستدار ليعود الى المنظر، ولكنه عدل عن رأيه وتوجه الى ماليتين.

جلس ماليتين الى الطاولة وقد اتى مطفئ القصير على كتفيه وراح يستمع متفهما الى امرأة عجوز جلست مقابله في جزمة من اللباد وبشديل دافئ. وبمطاف أسود مما يرتديه عمال السكك. كانت تشكي لماليتين من شيء.

عندما دخل سينسوف صعدت المرأة، بينما التفت اليه ماليتين نصف التفاتة بنفس المظهر الشغور.

— ما هي اخبارك؟
— هل نسمح لي بالكلام ايها الرفيق الرشد السياسي الاقدم؟
— انظر قليلا - قال له ماليتين متحمسا.

راح سينسوف يتناول بطاقله، ليس للعودة الاولى، الى المرداب الذي استخدم كمركز للقيادة، وكسكن لماليتين وأمر الكتيبة ورايتشكو. المرداب ملوحي والملي. وضعه ملوحي حتى التفت بالفتش الشبقي من المستشفى الذي كان يقيمونه من هناك. ولذا لم يكن ورايتشكو في البداية وايضا في استخدام هذا المرداب. ولكنه دافئ* وماليتين يحب الدفء ولا يمشي القوي، ولذلك احصر على رأيه. اجبروا تعاقبا بسيطا المصطلحات المستشفى، واستبدلوا بقايا الكواليت ومبازيق الادوية كحطاب للدفء.

المرأة من يورولسك وفي تشكي لانها سجلت نفسها تعطفية في القسم الصحي المقررة، ولكنهم عندما وزعوا الجميع على الكنائس لم يقبلوها هي.

— لم تكن "موجيد" في الصباح فراجت نازك الشب الاخر...
— ليس فائتي، بل هو أكر الكتيبة - قال لها ماليتين مصححا.
— لا فرق عندي - قالت المرأة - فقد قبل قاتلين ولم يقبلوا متعجبا بان الدلاك لا يسبح. طيما، فهو شاب، واقا انهم ذلك...
فقال ماليتين غاضبا:

— ما هذا الكلام؟ لا داعي لهذه التلميحات. مفهوما؟
— يعني انني يجب ان اعود الى يورولسك؟

— قد يكون.

— لن اعود! انت انسان راشد، وعليك ان تفهمي! انني اعمل في المستشفيات منذ ثلاثين عاما. ومنه عشرين عاما وانا اعمل في مستشفياتا، مستشفى السكك. فبما الذي اريدك ان لا اريد شيئا. ولكن يؤلمني ان مثل هؤلاء الممرضات تغير المجرىات يحملن عندكم. انهن لا يجهلن ادورا كثيرة، ولا شيء عنهن غير القوة. فانا اخضع ثلاثة اشخاص في حين يستندون عن شعفا واحدا. ذلك ما يؤلمني!

— المرحى لا يتجاوزون الى التضميد فقط. فيجب نقلهم من ساحة القتال ايضا - قال لها ماليتين - وضحة الخصال بحاجة الى القوة والقوة.

— اعتقد انك انت لست شايئا - قالت المرأة وهي تتطلع الى ماليتين.
— صحيح - واقفها ماليتين.
— ولكنك تقاتل دون ان تهتم بالعمى، اليس كذلك؟
— ثم ماذا؟

— لا شيء. فلتعمل الفتيات صاحبك الاشر طالما يملق الآمال عليهن؛ ولكنني صاحبك، انت المجوزة على كفتي!
— ذلك يعني تقسيم العمل - ضحك ماليتين من هذه المفاجأة في تفكيرها. فقامت المرأة:

— منى جزمة لبادية، واضطوى فقط مبطنا مسكريا. فمطفي اسود ويمكن ان يكشف عن وجودي على العلاج - قالت ذلك لانها اعتبرت المسألة نهائية. وكانت المسألة منتهية فعلا. ورايتشكو بحث في حبيب مطفئ فاجهرت منه ووقته وضعتها على اللالوك امام ماليتين الذي سألهما دون ان ينظر الى الورقة:

— ما هذا؟
— ترخيص من يورولسك! فهل كنت تصور بانني جئت اترجاك لوجه المسح؟
لقد بعثتني الى الجيش اللوحة الحزبية المحلية.
لم يجب ماليتين، بل اخذ الورقة وكنت عليها حيث نالعلم الرمنص، لم توقف وتطلع الى المرأة رسالها:

— هل تريدان ان اسجل لك قيمة فروا؟
— هذا يتوقف على الالهية التي ستخاطبني بها - قالت المرأة بمرح ولادح في صورها البائسة المتحادة لمرمضة تشيلة من ممرضات المستشفيات -

إذا ناديتني «بالعمة باشيا» فيكونني متديلي، وإذا ناديتني «بالماتلة باشيا كوليكوف» فجل ان قيمة!

— حسنا، ساجد لك... كتب مالمين خطرا أكثر وسلم الورقة المفردة. اذعني لاستلام الأرزاق والألبسة، أما ما تبقى فسنناقشه عند عودة أمر الكتيبة. فطلى فيما بعد—وأما لها برأسه دون أنه ينهض فتيجهت نحو الباب والورقة بيدها.

رأى سينسوف جيدا الآن وجهها المكسور بتقويون عذبة، وجه امرأة عجوز ولكنها قوية يتعوها على العمل الصبر الذؤوب طوال شتئ. عندما مرت قرب سينسوف اثنت عليه نظرة سريعة. ولعلت عينها ببروق الانتصار الذي حققته تو.

«أى انتصار!—تبادل سينسوف—فولها معرضة في الكتيبة أو السرية؛ في اثنتين أنارا! لو كانت امرأة أخرى لغرت من هذا الانتصار على مسد ألف كيلومتر...»

— ماذا، هل جئت زعلان؟—سأل مالمين دون مقدمات وأشار إلى سينسوف بأن يجلس.

وجلس سينسوف على المصطبة التي لا زالت دافئة.

تطلع إليه مالمين واكفهر وجهه عندما رأى مدى الانسحاق الذي يعاني منه سينسوف. فقد تميز مالمين، وهو يتحمل المسؤولية عن شخص ما؛ على التفكير به أكثر مما يفكر بنفسه منذ لحظة تدمير تلك البؤلية. لم يكن سينسوف يعرف بأن مسألة تسليم بطاقة عضوية جديدة، توثقت في المكتب المزبئ للزوج ليس بالسهولة التي كان يتصورها.

فقبل جلسة المكتب تحدثت مالمين مع السكرتير طوال ساعة.

قال له السكرتير: «كذبت عنه بصورة سيئة، فالكمائنات لا تموزك، ولا توجد اعتراضات على ذلك من حيث الجوهر، ولكن فكر بنفسك فانت أكثر مني خبرة في هذه الأمور: ليس سابقا لأوانه أن تطرح مسألة استعادة بطاقة العضو لشخص ففدها قبل شهر ونصف لا غير؟»

اعترض مالمين على ذلك غاضبا وقال ربما كان إرساله إلى الجبهة سابقا لأوانه على هذا الأساس، ولكن عندما أرسلناه إلى الجبهة—ما كنا نخاف، وعندما وضعناه وراء أرشاق في رايه معمل الطابق المواجهة الهجوم الألماني ما كنا نخاف، وعندما سجنناه رساما تقديرا لذلك ما كنا نخاف، ولكن لخاف تسليمه هوية المزبئ.

والخائف: وأنا شخصيا لا أخاف. أما بخصوص مسألة الوقت والمالين لارائه فلم يبق من تلك السرية بعد معركة معمل الطابق إلا اثنتان: أنا وهو. فانتظر وقتا آخر...»

اعتبرت هذه المسألة محلولة، ولكنه ظهرت مشكلة أخرى هي التوضيح الموش، في رأي السكرتير: والذي قدمه سينسوف بخصوص شياخ الهوية المزبئ والوائقي الأخرى.

«قارة يقول كيت وقارة كيت، وقارة ثالثة يقول انه فند ذاكرته... ثم يصبب تصديقا!

«وما فاففته من الكذب؟ كان يومه ان يقول بأنه دفنها، وتنتهي لشككتها.

«ربما تسرع في البداية وفكر بأنه ما ابتدعه هو الانفصل. وفيما بعد ذات اوان التراجع رغم ان ما ابتدعه هو الأساس. افلا يحدث ذلك؟»

«كل شيء يمكن أن يحدث!... قال مالمين—ولكنني شخصيا افق به. اطرح المسألة على المكتب وسنعمل حسبا يصدق به الآخرون...»

صدق به الآخرون. ولكنه فيما بعد، بعد جلسة المكتب، تهنه السكرتير وهو جالس مع مالمين الذي ساعده في صياغة الحضره، وقال مع ذلك:

«أنت اعرف، بالطبع، بوصفك من قدامي المزبئين، ولكنني أخشى من ان اللبنة المزبئية المفقرة لن تصادق على قرارنا بسبب هذا التوضيح لفقدان الهوية المزبئية.»

«من يشتر ير—اجاب مالمين الواثق من صواب رأيه.

«وما هم ميشون ويردون!

«عرف مالمين بذلك قبل ساعتين عندما تلقى له سكرتير المكتب المزبئ الفوق وقال بأن مسدوا سيأتي من القارة ويبيع اعداد بجميع المقويين ا. عدا سينسوف.

لم يجب مالمين، ولكنه قرر صاعنا بأنه سيراجع من جديد مفوض الفرقة بهذا الخصوص. صحيح ان الفرقة غير محظوظة، فبعد بداية الحرب حتى الآن تبدل فيها ثلاثة مقومين. فالمفوض الذي سلمه مالمين شخصيا عزيزة سينسوف بعد معركة معمل الطابق، والذي قدم عن طريقه فيما بعد استجابة بخصوص بطاقة الجود المزبئية، فأنهم الآن في المستشفى. وقد قال ذلك المفوض عذلة عن سينسوف بأن القضية واضحة، فليقاتل، وعندما يحين

الوقت ويستحق ذلك فطرح مسألة عادته إلى الحزب. لم يمد ذلك المقبوض
ميسودا، وحل محله مقبوض جديد، ويشي يمد الحزب معه مجدداً من
بدايته.

وما العمل؟ سأبدأ من جديد - فكر مالمينين يناد - وإذا دعت الحاجة
فسأكتب إلى جهات أعلى.

كان يتوقع مجيء سيستوف، وكان سيدهش لو لم يأت. فإن ذلك
يعنى أن سيستوف غير واثق من صحة رأيه.

تلك هي القضية يا سيستوف! - قال مالمينين وقد بادى إلى قطع
حبل الصمت الطويل.

أثم يصادفوا على القرار! - سأل سيستوف.

أجلوا النظر فيه.

لماذا؟

لا أدري جيد.

وماذا تعتقد؟

اعتقد لنفس السبب.

هل يمكننا أن نتكلم بمنتهى الصراحة؟ - سأل سيستوف بصوت لا

يشير بخير.

أذكر ما تريد... كان مالمينين يدرك أن سيستوف متسحق لهذه
الضجاجة ولا بد له من أن يلفظ ما اعتنق في صدره...

وليتكلم طائفا فقد صبره طين يسكتنا إيقاعه، والافضل أن يقول ذلك
لي وليس للغير.

يعنى بمنتهى الصراحة، اليس كذلك؟ - كرر سيستوف قتال مالمينين:

لن تستطيع تخويفنى فانا لا أعشى الحقيقة، كما لا أعشى الأكاذيب.

اذن قل لى - استمع لون سيستوف - من هو الاغلى: الإنسان أم

الورقة؟

وأتى، ما هو رأيك؟ - قال مالمينين ولأحت في صوته ورقة جديدة
خافتة.

ولكن سيستوف لم يلفظ إلى ذلك.

أنا الآن اعتقد بأن الورقة أغلى. إنها ملقاة الآن في مكان ما من
الغابة، إنها تصفح وتفتكر في قافلة: «ألك مخطئ» إذا كنت تعتقد بأنك انسان له
قيمة بدوى. كلا، قبعوى لست انسانا! لست ملذبا، ولم تتركى أنت،

ولكنك لن تعيش بدوى مع ذلك!.

هذا ما تقوله هى لك، وأنت، ماذا تقول لها؟ - سأل مالمينين
بنفس الصوت الجديد الخافت.

أنتى صامت! أنا أكتب الغرائض والتوضيحات... وانظر: لمن
الغاية، لى أم للورقة؟

ماذا كانت الورقة. رجدها. تشخص هناك فى الغاية،
لماذا أنت مهتم بها؟ وإذا كانت هناك حوتك الحرية فلم يرمك احد
على الانتساب إلى الحزب، التفتت به بنفسك وأنت تعرف قيمة الحرية الحزبية.
وما دمت مصرا على رأيك وعلى أنك لم لتتها، ما دمت مصرا
على رأيك حتى وار غنتوك، فذلك يعنى أن القضية ليست بهذه البساطة.
فان يطير الشخص الهوية أو يمزقها شيء، وأن يكذب شيء آخر...

وماذا يتعين فعله على الذى قال الحقيقة؟ هل نستعلم، فى وقت ما،
تصديق الناس أم أنا لينا بحاجة إلى ذلك؟ - قاطعه سيستوف.

على من أنت زعلان هنا؟ - قاطعه مالمينين بدوره. فهما كان
عطشه على سيستوف شديدا وبهما كانت قوية عرى الحياة الكفاحية التى
تربط بينهما حتى آرائه نقاط لا يتماثل ن الحكم عليها مطلقا - هل
أنت زعلان على؟ لأننى نصحت بتقديم العريضة ولم أعد اسر على رأيى؟
أنت سيق. ولكن ذلك لا يزال مبكرا. فانا لم أراجع عن كلامى بعد. أم أنك
زعلت على المكتب الحزبى؟ ذلك لا يزال مبكرا أيضا. فالمكتب هو الآخر
لم يقلل كلمته الأخيرة بعد... أم أنك زعلان على اللجنة الحزبية
الفرقة؟ هل رأيت احدا من اعضائها بأمر العين؟ - سأل مالمينين وقد قاطع
لغمة بنفسه.

كلا بالطبع. من أين لى أنا اراهم؟

وهم أيضا لم يروك! ولكنهم لا يعدقون ياودافى وأورافك! - قال
المينين ساخرا - ربما هم ملك، يعتقدون بأن الانسان أثمن من الأوراق!
ربما يريدون القاء نظرة عليك فى البداية ثم يبتين فى امرك!
ألا تعتقد بهذا الاحتمال؟ أما أنا فاعتقد به. ولكننى اعتقد، من جهة
أخرى، باحتمال وجود شخص ما متعجب من هناك لا يسكن لتأثير عليه
الا من فوة. الحزب كبير. ويصادف فيه مختلف الناس. وهذا ما اقتره
أنا لك، وليس ما تقوله أنت لى، ما دمتا نتكلم بمنتهى الصراحة!
والكى حذار من التطويل فى وجه الحزب! - رفع مالمينين صوته فجأة،

بل وتهنئ عندما تلفظ هذه الكلمات - «مضى مستعم تصديق الناس؟» -
كرر كلمات سينتوف بصغرية - ما أشد فهاشك! لقد صنعت شعرا كاديا
من ذلك!

- اللعل يؤذي يا ماليتين - قال سينتوف وهنئ هو الآخر.
لم يشعر بالاعتاة من انتعاج ماليتين. فقد أحس بان ماليتين متأثر لما
حدث لا أقل من تأثره هو.

- مد يده - قال ماليتين وده له يده عبر الطاولة. فهو كعادته
دوما عندما يقابل أو يروع شخصا، يسانده منجهما دون أن يتطرق في عينيه.
شد سينتوف على يد ماليتين ولم يشغل قدمه متفجرا:

- قل لي أوجيك! لذلك الأسباب أيضا لن أرى الأوامر يمتني؟ فقد
مر وقت طويل ولم يسلموني أياه.

اكتفى ماليتين باتسامة ساخرة لسخط هذا الاغراض، حتى أن صراخة
سينتوف أعجبته، فهي تدل على الثقة.

- يميل إلى ذلك تكاد تجم. يقال: إن الجنرال يحمل الأمانة في
محففته منذ ثلاثة أيام. أمس الأول قلد رجال النجدة، وأمس قد
وجال الفوج الثاني والستين. وربما سيزورنا اليوم.

طلب سينتوف سماحا بالانصراف، ولكنه استدار الله العتية وكرر
متعللا نفس ما قاله لماليتين ذات مرة في اللجنة الجزئية السخية
بوسكو:

- لن أتى أبدا حسن معاملتك لي بها حدث.
ذلك من هذا! روح ماليتين بيده باستهانة - عندما متلافقني في شارع
بوسكو بعد العروب وتقول لي «وسيا» يا ماليتين! قضي ذلك الكفاية!

نوح بيده من جديد رسار على اعتداد الطاولة واستدار بشدة كيلا يواج
سينتوف. فهو غير متعود على سماع التشكرات.

تمشى ماليتين في السرداب بانفعال جيئ وهذبا والقي نظرة جانبية على
الباب الذي اصطلق بهد لتسارق سينتوف وتهد بهن ثم جلس إلى الطاولة
وأخرج من جيب قميصه رسالة وأردى فطارته وراح يقرأ بيده وكأنه يثبت مما إذا
كان ما يقرأه مكتوبا بالتعل هناك، وكانت تلك هي المرة الثالثة التي يقرأ فيها
الرسالة من بدايتها حتى نهايتها خلال النهار. الرسالة من المستشفى، وهي تقول

أن أبنه فكتور راقب هناك بعد أن برزت يده اليسرى. وهو يتأمل إلى الشفاء،
بشكل مؤرق بعد أصابته بجراح، ولكنه يرجو عدم اخبار امه بشيء بعد. قرأ

اليسل الرسالة وتوقف عند كلمتي «بشكل مؤرق». وعلج فطارته ووضعها على
الطاولة أمامه وراح يحمق في الجدار.

لا بد من اخبار زوجته مع ذلك، والا سوف تصور بأنه قتل إذا
لم تصلها رسائل لابنه طويلا. ويتني تهديتها والتخفيف عنها، اما هو فليس
يسعه أن يشكي لاسد، فالشكي لا يليق بمنصبه. ويتبن اتعود على فكرة

أن ابنه ظل بدون يده اليسرى وهو في السابعة عشرة من العمر. ولكن التعود
على تلك الفكرة عسير.

فتح الباب ومرع إلى السرداب أمر الكتيبة الملازم الأول رباتشيكو.
فيل بسرعة إلى السلم وهو يطلق على الفريجات البحرية بهمازي الخيالة
غير المنصوص عليهما في زيد المبكرى. كان المعلق المبكرى الطويل البستقر
باناقة على منكبتيه الفتيين المريضين يتلوى اثناء الشى حول الجزيرة الضيقة:

رطل وينيه المائل للشفرة والمديب الأنف كمنقار الديك انقلبت آثار السرح
وانشكال الببال في وقت معا. وسأل بلهجة مرحة:

- استلمت رسالة؟
- نعم - اجاب ماليتين وشبأ الرسالة في جيبه.

- بيت ساعة سيصل الجنرال اوروف لتقليد الامسة - قال رباتشيكو بنفس
البلهجة المرحة - وسامى بينها، وسامى الذى حصلت عليه في يوليو. ظننت
انهم سرفرو النظر عنه عندما كنت اناقل بين المستشفيات. ولكنى اضلعت الفل!

جلس على الصعيلة فطيلب على جزمته بالقفاز فحرا وفتح معطفه من
الاسفل ناشرا اذباله.

- بعد بالصبح. وفي اللحظة الاخيرة سلط اللوم على كل العناصر
في ستر اركان الفرج وقال مخاطبا قائد الفرج: «فلماذا لم تنسبكوا في قفاحكم
الحرى من القبض وقل على الباني حتى واحد خلال يومين؟» ثم قال

لي: «اعرف انكم قبضتم امس على الباني، ولكنكم حفض فلم توصلوا!..» من
اللى اخبره بذلك يا ترى؟

- الشعب السياسية - قال ماليتين يهدو - قد ذكرت ذلك بالامس في
التقرير السياسى الذى قدمته الى اللجنة.
- عشا فطت! - قال رباتشيكو.

- هذا جدال قديم لا يهدو منه.
لوح رباتشيكو بيده متأسفا ولم يدخل في جدال مع ماليتين. ولكنه

قال بعد صمت قصير:

- قل لي لماذا يفتقر الأفراد الى التزينة؟ نريهم ونهتفم بخريرتهم ويخجل اليه انهم يهتفمون، ولكنهم بعد ذلك يطلقون النار على الاخيرين!
- اسأنا وجدا الذين نريهم - قال مالمين - فمن من طرف والالمان من الطرف الآخر. نحن نقول له: لا تسمع الاسيرا! ولكنه شاهد يوم المين في كوزكوف كيف سحق الالمان رجلك احيا في المنزل. واحدة واحدة. وهو بعد ما شاهد في كوزكوف يريد ان يقطع اطراف هتلر نفسه او يتم باره. ولكنه لا يذرى هل سيحل من قيد الحصة حتى ذلك الحين. ان يمشي على قيد الحياة في اغلب الظن. ويلا من هتار. وبدون معاملة. وقع في يده جندي الباني فاجهز عليه في سورة الغضب!

- يعني انك تقرر ذلك؟

- كلا، لا ابرره. اننى اوضح لنفسى كيف يحدث ذلك. اساسا عندما ليسوا موشاء، فكيف يصادف ان يتصرفوا يوحشية؟ لقد بذل الفاشيون جهدا كبيرا جدا لكي يوصلوا الناس عندما الى هذا الحد!
ولكننى لا انهمك جيده الاآن.

- اسعد ان من الضرورى ان فعل على عدم تكرار مثل هذه الحالة. وقد اعتبرتها دليلا على تقصيرى في العمل، ولذلك ادبرتها في التقرب المياس. ومع انك لا تقرب في عرض ساوثا على الآخرين، ففرض السأوى امر سى، ولكن الاسأ منه على الاحتفاظ بها في ذهليتنا.

- وعلى الموسم كيف حاكم هنا يا اخى، في غياي؟ - سأل ريباتشيكو بعد ان صمت قليلا وتطلع الى وجه مالمين المتجهم.

- الحال ليست على ما يرام - مبتوا بصور التفتت يصور الرجال لاجل الهوية الخيرية. اما سينتوف فماد يفتقى حين.

- اية عباقت يمارسون هناك؟ - هناك ريباتشيكو - كتبنا كذا في تركيته وثأيد... فمادا يريدون اكثر من ذلك؟.

- لا وانت يا امر الكتبية قوة اللبيع - قال مالمين سامرا من اتعال الصياني والى عليه نظرة مليحة وثقافة تقريبا من تحت حاجبيه السكهرين - قوة كبيرة! - ثم اذابت بعد لحظة - ولكنها، على ما يبدو، ليست مؤثرة في كل مكان.

وبل الجنرال بعد ساعة، على زحافة قائد الفرع باغلوک. وجلس في الزحافة خلف الجنرال وباغلوک احد المرافقين، بينما امسك باغلوک يمين الحصان.

خرج ريباتشيكو ومالمين لاستقبال الجنرال. واستدعى الى مقر اركان الكتبية مسبقا الرجال الاربعة الذين منحوا الامانة بالانفاة الى ريباتشيكو نفسه، وهم سينتوف وآمر فصيلته كاراولوف، ولانان من الخراد سرايا المشاة. وقد وقفوا جميعا، على مسافة ابعده في انتظار وصول الجنرال.

كان باغلوک اول من فطر من الزحافة. سلم اللان الى المرافق وقال له:

- قد الحصان الى ما وراء المنزل.

نزله الجنرال من الزحافة بحة ايضا. انه متوسط القامة، ولكنه بدا صغيرا الى جانب باغلوک الطويل جدا. كان يرئى قيمة قرائية عادية وليس قيمة الجنرالات، وعليه مظهر فرو قصير مشدود بزميرين متصاليين. وعلى قدميه حزمة من القيادة. الازيم العلوى لمطله مفتوح، فلاح طرقا شائق الجنرالات المحمدين على ياقة صدره. شارة الجنرال اورلوف كواشدين قسرين سوداوين. وجهه اصفر بعض الشئ. وملاحه كمفرغ التتر، وغينه الصيقاتن سوداوان كشاريين. يلعب فهما برى مريح. لا يشم عن الشيخوخة. امر ريباتشيكو الحاضرين بالاستعداد، واستمع الجنرال الى التقرير المتعصب واصدر امره بالانزاحة، لم التى نظرة فرحة الى السماء، والى الشمس الغاربة وراء الغاية وطلب بان يحضروا الى هنا مباشرة طائفة صغيرة.

- ستقدم الامانة هنا، في الشمس، فهذا افضل من دخول سرايكيم، لاسيا وان راحة المصبات تروح منها.

كان في اسمن مزاج، ولاسباب عديدة. مسا، امر عقدا لهم اجندا في مقر بيمة الاركان واطاعهم على علة لعدلية جوية تشمل الجيش كله، وظلوا من جميع قادة الفرق آخر المناومات من قوات العدو المواجهة لهم وامروا كلا منهم بان يحطل للفتاك في قطاعة الهجوم استنادا الى التوجيه الخاص بالجيش.

وباستناد من هذا التوجيه ان الفصيرة الرئيسية يفترض، على ما يبدو، ان تمدد ليس في قطاع جيشهم، ولكن كال اللائل تشير الى ان الهجوم التربع اجراء ضخم، وانهم سيشاركون فيه ولو في قطاع ثانوى. والعداد لله على ذلك!

في الآونة الاخيرة كان الجنرال يتحسس بكل جوارحه ان الالمان يضلون عليه ويواصلون الضفط، واكتنا رقم قوة هذا الضفط الشديدة لا تتراجع الا بمناورات بطيئة وعلى نحو غير ملحوظ تقريبا. كان يتحسس ذلك بكل جوارحه

— انه عضو في الحزب — قال كارارولوف وأعرض عن تفهم هذه التهمة — ولكنه من عائلة متدينة .

كارارولوف لا يحب التكاثر عموماً ، لاسيما اذا كانت عن الرؤساء . ولذا التقى فظرة شزارا على سينتوف متوقفا منه كتمة اخرى . ولكن سينتوف لم ينكت اكثر لانه يعرف ان كارارولوف سريع الزلزل ، فبعد ان حصل على رتبة الملازم تقديراً لبلائه الخارقة في القتال ، دون انتهاء الدراسة ، ظل يعاني من قلة التعلم فلا يسمح لاية تكات من مرؤوسيه على اى حال .

رق قلبه عندما رأى ان سينتوف لا يتسم . فهو يحترم سينتوف ويعلم انه كان في بداية الحزب مرشداً سياسياً ، ولو انه عاد الى هذا المنصب مجدداً لاعتبر كارارولوف الخدمة تحت امرته شيئاً طبيعياً . الا ان سينتوف الآن أمر مغرزة في فضيلته هو ، كارارولوف ، ولذا لا يتسامح كارارولوف معه ، كما لا يتسامح مع احد غيره .

— لا تفهم بكونه فضلكم — قال لسينتوف وهو يتطلع باعجاب الى الجنرال — فهو الآن فضلكم ، ويمكن بهد دقيقة ان يكون شتداً الى اقصى حد! — لوح كارارولوف بقبضته في الهواء على نحو مهيب ليبين مدى شتداً قائم الفرقه اذا حدث شيء غلانا لرأيه .

وفي تلك الاثناء اصغروا طاوله من الرداب . خلع الجنرال محفظته الميدانية عبر الكتف وسلبها الى مرافقه . اخرج المرافق من المحفظة خمس علب حمره وخمس شهادات ، وتطلع الى الشهادات وإلى داخل الالب ثم وضع شهادة تحت كل علبه واقترب من الجنرال وقال له شيئاً . التفت الجنرال فاختفت الإبتسامة من محياه الذي لدا في الحال صارماً وجسلاً .

كان يغمض على رياتشينكو ان يتسلم رساماً ، ولذا اصغر باغلوك الامر بالاستعداد .

عدل سينتوف قامته وفكر بما لي بين الوقوف على مقربة منه . « لماذا اسلم انا رسماً ولا ينظم ما لي بين شيئاً ؟ إذا حدثت بهذا الخصوص يمترض ولا يتركك تتم عبارتك! » .

— الملازم الاول رياتشينكو! تقدم وتسلم اليبام — دوى صوت الجنرال . وعطى رياتشينكو ثلاث خطوات سريعة وأذبال مظهره تنطقس ووقف امام الجنرال وقد رفع الى الاعلى وجهه الشاحب ولاح من تحت قبضته المائلة نودان قصيران اشقران .

وبجوارح فرقة التي استنزفت تولوا في القتال . كائن يعرف بان الانساق اللانبة اقتربت من الخلف ، ولكنهم لم يقدموا له اعدادات من زمان ، وان هذا البخل القاسي له يبرأته . وعلى العموم كانت هواجس التفكير نحو الافضل تحوم في الارباعه منذ اسبوع ، الا ان استماعهم للاجتماع في الجيش يوم امس لم يكن حاجساً ، بل كان مقدمة للحل!

مثل الجنرال في الاجتماع عما يحتاجه من امدادات اضافية ، فطلب المزيد ، معتقداً على معرفته القديمه ، بقائد الجيش ، ولكنه تلقى رفضاً . قال له القائد بإبتسامة مريرة : « مع اننى خدمت تحت امرك ، يا ميخائيل نيكولايفيتش في زمن ماء ، فلا تنظر منى ان اعطيك اكثر من المقرره . الا ان هذا الرقص لم يفت في عنقه : فليحسباً ما يتمكن من اسطاعه ، ومع ذلك ستمحصل على اكثر منه بشكل ما! الامر المهم هو ان الهجوم سينش! وبمث ذلك في نفسه فرصة لا نهائية لها .

وعندما عاد الجنرال قضى يقية المساء وللليل كله مع رئيس الاركان في وضع الصيغة التفريعية الاولى للخطه . وفي الصباح تركه يميل بوسده وذهب الى باغلوك في الفوج لكي يقوم بثلاثة اعمال دفعة واحدة : تقليد الاوسمة ومحاولة الحصول على السانتي حتى يقية تدقيق الوضع امام جبهة الفرقة ، واخيراً تفقد مراكز المراقبة في الكتابات الثلاث ، لانه من هنا ، من فوج باغلوك ، يمكن تسديد الضربة باكثر الاشكال ملاسمة ، ولذا رغب في تفقد ذلك في مكانه .

كان قد زار كتيبتين ، ووعدهو بالتقضى على السانتي سى ، حتى انهم عاهدوه على ذلك بكلمة شرف . اما ما رآه من مركزي المراقبة في كاتان الكتيبتين فقد اكد تخميناته الشهيدية . وبالإضافة الى ذلك كانت الشمس مشعة ، والالمان لا يطلعون النار... .

— ما اكثر مرحة اليوم ، انه فضلكم! — قال آمر المغرزة الملازم كارارولوف الوقت قرب سينتوف بصوت خافت وهو يتطلع الى الجنرال . وكان كارارولوف قد قضى في هذا الفوج ثلاثة اعوام من الخدمة الفعلية وشمعة اعوام من الخدمة الاضافية .

— ربما شرب قليلاً أثناء الغذاء — قال سينتوف .
الا ان كارارولوف هز رأسه بالنى على نحو قاطع :
— انه لا يشرب . فهو من ابناءنا ، ابناء الناي المتمسكين بالنقاليه الدينية القديمة . وهو لا يشرب حتى البيرة .
— ربما هو متدين .

كان سينتوف آخر من تسلم الوسام، وقبله تسلم كاراولوف وسأله .
وعندما نادى الجنرال كاراولوف وتلا عليه اسم المجلس العسكري وهذا غطت
حيات الخوف حينئذ كاراولوف بسبب الانفصال .

— انا مسرور جدا لك يا كاراولوف! — قال الجنرال وهو يدس يده
بشكل اكثر ملامحة تحت قمصته كاراولوف لكي يمتص وسام الزاوية الحمراء على
صدره — وانا مسرور لانى انا بالمالأت اقلدك هذا الوسام! فقد خدمنا سوياً
ست سنوات، نصف مدة خدمتك فى الجيش، وكنا كل عام نتفق معا ان
انحرب ستدفع قريبا... وما أتت الآن ملازم، وسام الكفاح على صدرك .
اننى مسرور لمتميزات فرقتنا!

ارتعشت شفقا كاراولوف عندما سمع هذا الكلام.. وعندما جاء دور
سينتوف تقدم الى الامام كان لا يزال يحس بالقلق كاراولوف المتفعل
الثقيلة وراء ظهره .

تلا الجنرال الامر. وكان سينتوف واقفا فى سالة الاستعداد، ففتح له
المراقف الازيم على محطته وكأنها هو عاجز عن رفع يديه، ثم قلب قمصته بسكين
صغيرة . والتقط الجنرال النجمة الحمراء ووضعها على راحته وذلك صمولاها على
مهل، وقد يده الباردة بسبب التصبغ تحت قمصته سينتوف وراح يده صولة النجمة .
فى تلك اللحظة رأى سينتوف وجهه من كذب وتذكر كيف وآه لاول
مرة وهو يرتدج بقوة يبعثها شعما بهلا فى ناحية دور سينتوف خلال أكتوبر
عندما وصل ليختار امدادات لفرقة. وعندما سأله: من يذهب معي؟ تقدمت
الكتيبة الشيوعية كلها تتحرك .

بعد ان شد الجنرال الوسام تراجع نصف عقوة ربد يده الصغيرة القوية
الى سينتوف . وقال وهو يحتوى سينتوف بنظرة من الاسفل الى الاعلى:

- اهتدك! — منه متى تقدم فى الفرقة؟
- منذ التاسع عشر من أكتوبر . وصلت مع الامدادات من موسكو .
- من الكتيبة الشيوعية لمصلحة فروتزينسكى! — اضاف مالتين بسمعة من الانذار .
- كانت امدادات جيدة — امتدتها الجنرال ورفع يده الى سينتوف
من جديد — هل أتت شيوى؟

— نعم! — اجاب سينتوف وانفتحت نظره بنظرة مالتين .
عينا نظر اليه مالتين على هذا النحو . فهو لن يقصيف . الى ذلك شيئا
الآن، ولن يطلب شيئا! فلا السكان مناسب ولا الزاوية . اما انه اجاب وينتدج
فذلك هو الجواب الوحيد . فليصحه مفرض الكتيبة مالتين اذا كان غائلا .

الا ان مالتين لم يصمحه، فترامع سينتوف ثلاث غطولات الى الوراء
وقفت فى صف حملة الائمة .

تطلع الجنرال اليهم وشبك يديه خائف ظهريه وسوى نظرتة الى بانلوك
ثم حوّلها من جديد الى حملة الائمة، تمهل ثانية وقال ان الفرقة ظففت بالشكل
اللائق حتى الآن جميع اوامر القيادة، الا انه تتطرحا مهمات اكثر مسؤولية،
وهو واقع من ان الرفاق الذين قلدوا الائمة اليوم، شأنهم شأن سائر افراد
الفرقة وسبيلها سوف يتخذون تلك المهمات بجدارة .

— ولكنه توجد اليوم مهمة ملقطة... — سمع بريق فى عيني الجنرال
المتفعل .

بانلوك الذى حفر مراسيم فطيلة الائمة فى الكتبتين الاخريتين
يعرف ما ينظرهم . ولذا نقل يده بحس من رجل الى رجل واشربأ برأيه
الكتيبى فى الصيغة المتحدرة .

لاحت الجنرال ذلك فالتى نظرة الى جهة بانلوك وقال:
— ها انا ارى قائد فريقكم التقدم بانلوك ينكبش لالى ساقول له
بمحوركم ان هذه المهمة كان ينبغي تنفيذها منذ يوم اسر . ولكن يمكن
تصحيح القضية اليوم ايضا . فمن اللازم القبض على الماني حى، اكرر حى
وايس ميتا! من ينوى القيام بذلك؟

خيل لسينتوف ان الجنرال تطلع اليه مباشرة بأمله، مع ان الجنرال
فى الواقع تطلع ليس الى سينتوف بل الى كاراولوف الوقت حينئذ .

— سنقبض عليه، ايها الرفيق الجنرال! — قال سينتوف وهو يقبل التحدى،
وقد خطا الى الامام واجس يكتف كاراولوف تلازم كتفه . فقد غملا كاراولوف
الى الامام ايضا فى نفس اللحظة، ولكنه التزم بالعمت .

— حسنا، اتفقنا — قال الجنرال يلمحه غير عسكرية، بل رقاقة بسيطة —
هو ايضا مقلدان جيذا على مواقع العدو والسيالك العوصلة اليها!

— نعم! — قال هذه المرة كاراولوف .

— وهل يسمكنا ان نشير الى المكان الذى تنويان المرور منه! —

سأل الجنرال .

كان يريد تنفيذ القسم الاخير من برنامجهم وهو الذهاب الى مركز مراقبة
الكتيبة . ولكن يتخلص من لاجابة وتواهى بانلوك الحذر المتأد: « ولا نذهب»
لا يجوز لك! — قرأ ان لا يتأمله معه بل ياخذ كاراولوف وثائب العريف
سينتوف .

وقال ياغلوك في محاولة بائسة أوقف قائدة الفرقة، ولكنه ادرك بأن ذلك المحاولة لا جدوى منها؛
- ربما من الأفضل، أيها الرفيق الجنرال، أن نضطلع من مركز مراقبة الفوج.

- بومبي دوما أن أזור مركز مراقبتك، ولكنني أريد أن اضطلع من مركز مراقبة الكتيبة إلى ذلك الشئ الذي ينوي هذان الشبان التدخل منه للقبض على الثاني حق، فانا لا أجيء إلى هنا كل يوم. فابق أخت هناك، أيها الرفيق ياغلوك، وياويس أعمالك. وسيفيان معي هنا - وأومأ إلى كاراولوف ويستيف - وأمر الكتيبة.
نقال ياغلوك متذكرا:

- اسمع ثناء، على الأقل، بأن تعد ملام المشاء هناك، في الكتيبة! - الصمد قلل أنك حزت في أكثر الأمر! - قال الجنرال مرحبا، ولكنه أضاف لأنه لم يكن وافقا بأن ياغلوك سحر بالشكل الكامل - سافنار ملام المشاء مع جميع الذين منحوا الأوسمة - والتفت إلى كاراولوف: ما هو رأيك يا كاراولوف؟ فأن كأمأ واحدة أن تمينا قبيل الاستطلاع، اليس كذلك؟
- بالنسبة لي، لن تمينني أيها الرفيق الجنرال! - قال كاراولوف - ولكنني أخشى أنك لن تشرق كأشمس.

- كلا - ضحك الجنرال - كلا يا كاراولوف! في السابق لم أكن العرب، هذا صحيح! ولكن منذ أن حدد مجلس مفوضي الشعب أعماله اللازم صرت أشر بعب الأوامر. أما أنت - التفت الجنرال إلى مراقفه الذي وقف متحيرا لا يدري هل سيأخذ الجنرال معه أم يبقيه هنا - فاذهب الآن إلى جنود الهاون.

- سيكون محاربهم - تدخل ياغلوك.
- اذهب إلى جنود الهاون - قال الجنرال متجاهلا لملاحظة ياغلوك - وانتقل اعتذاري إلى فيرسوف. فقد وعدتهم بأنني سأصل لتقليد الأوسمة اليوم، ولكنني سأتي غدا. الوقت لا يكفي!

رفع السراق يده بالنعية وأسرع على مضض لتنفيذ هذا الأمر، أما الجنرال فقد استدار دون أن تلتفت وسار بخطى سريعة في الاتجاه الآخر متحذرا انقراض المنزل. كان في السابق قد زار مركز مراقبة الكتيبة فهو يعرف الطريق إليه. وراح ربابيشينكو يلحق به جازوا التلح بأذيال معطفه، وتبعه كاراولوف ويستيف. في البداية ساروا على سطح التلة الآخر المتجهوب عن الألمان، ثم

ساروا في وحدة متعززة قاعها دروب، بطرق، وأخيرا دخلوا أخت ممرات التوسيل حتى بلغوا كتيبة لا يكاد يلمح في طرف الشجر. في زمن ما كانت هناك ترمشة حجرية. ولكنها متداعية الآن، وتحتها بالذات، تحت أساسها الحجرية المتين أغشى. مركز مراقبة ربابيشينكو السود بشكل موق.

تغير الآن ترتيب السائرين. قفى الامام سار ربابيشينكو وبعده كاراولوف، وخلفهما الجنرال وبعده ويستيف.

وقد لاحظ على كاراولوف أنه يتأبعا اعتمادا وكأنه يريد أن يحجب بظهوره السريع المريض الجنرال عن انظار الألمان. وربما كان ذلك ما يري إليه بالفعل. فذفع الجنرال كاراولوف من ظهوره بشدة وقال ثامنا:

- يا هذا! لا تتخلف ولا سامحوك دجيك - اسرع كاراولوف، فتخلف الجنرال عنه قليلا وصاح على ربابيشينكو: ماذا، أيها الملازم الأول، ألا تشعر بالاريد بركة القيالة؟ صحيح أن معطفك جيد... ولم يكمل كلامه.

فقد انقضت دقيقة قرب من التوسيل. وعندما نهض رأى الجنرال راقدا الأسفل وقد وضع يديه على قفاه غريزيا. وعندما نهض رأى الجنرال راقدا في قمر السمر ورأه عند قدمي ويستيف، وأد جعله فيه تسبح العليلين وشقته تضحك دون صوت.

جثم ويستيف على ركبتيه وأخذ يرفع الجنرال. تحت المعطف القصير المفتوح الأبريز على الصدر كل شيء مترك. تلتدت طرف الجوخ وأح جزء من الصدر المارى الفارق في الدم. رفع الجنرال يده من كتفيه إلى أعلى شيئا فشيئا، وسمع فجأة بقبقة تصورها صوئا، إلا أنها كانت بقبقة الدم الذي انههر من الحنجرة.

التفت لظفرته بنظرة كاراولوف الذي دس نفسه في من التوسيل التفتيق أجي يمسك بالجنرال من يديه على نحو ملائم.

- ضعه! - قال كاراولوف - لقد مات!... - وضع فبته واتشعب.

وفي المئززة خلفه، عند مقر أركان الكتيبة، تعجزت صلبة كتيبة من تالفت، ثم هذا كل شيء من جديد.

قفى السامع أراد الإسمان أن يذكرونا بويودهم، ففصفوا انقراض المنزل لأقطاي. ويحسب الصدة لم تبلغ التقديرة الأولى هدفها...

- استمعه على معطف - قال ربابيشينكو وأخذ يدخل معطفه ولكن بشكل اعرق غريب - ساعفني في شلح المعطف، قال لكاراولوف متأبعا - فقد أصابت صلبة معصى - وأمر ويستيف معصم يده اليسرى غارق في الدم.

— لماذا نلوث المعطف؟؟ — قال كارارلوف والدوموع تسبق على عذبه —
ساحله بنفسى .

معلقه القصير ملوث بالدم من اعلاه الى اسفله . قائلم الذى تفجرت من
حنجرة الجنرال شخب بانجاء كارارلوف مباشرة . روقع رذاذ الدم حتى على وجهه .
قاظلم بالدوموع على عذبه .

رفع القليل على يديه بالشكل الذى استعد ليحمله به نفسه . ثم انه لا
يزال حيا . نهض في البداية على ركبتيه . ثم يكاد قائمه . وسار في مسر
التوصيل عائدا الى مقر الاركان وحمله على يديه .

سار سينسوف امامه . وهو ينفث الى الوراء بين الحين والآخر . مشغلا
فعلوا زعاه عشرين خطوة مال سينسوف :

— اليس الانفصل ان نحملة معا ؟

الا ان كارارلوف حز راسه رافضا .

استقر وجهه رائد بسبب الشره . صبا ظلت الدوموع تهمر من عذبه .
وسار على هذا النحو حتى مقر الاركان دون ان يتأثر من حملة او يتألم
مع احده . ودون ان يسلم لاحد جثة قائم فرقته .

وصل سينسوف الى مقر الاركان براكسا قدر دقيقين من وصول
كارارلوف . وندما اقترب هذا من القصر عرج الى الخارج باغلوليك والابنتين
المصعوقان للحادث .

وصل كارارلوف الى تعداد رجال عليه لاهن وبأل بصوت لا يكاد

يسمع :

— اين اضعه ؟

لم يكن يريد وضع حملة على الارض . تسأل وقد خارت قدامه فزاع
واثقل ظهوره على الجنرال فجلس على التلج وجثة الجنرال على يديه كقطف صغير .

بعد دقائق وصلت زحافة . فوضع كارارلوف مع باغلوليك جثة الجنرال على
اليساط المغروش فوق القش . وكان ربابيشيكو الواقف على مقربة من الزحافة
يتحنى طوال الوقت فبأعنه حقت من التلج ويضعه على يده الجريمة . التلج
يتحول الى دم فورا ويتساقط شفا ودية اللول .

طوى مالبين رده معتف قائم الكتيبة الذى تتبع بانهم . ويمت في
طلب حليب او مرسية . لان ربابيشيكو المنفل لم يرباب في الانصراف للعلاج .
وقيل ان يراق باغلوليك زحافة الجنرال ميت الى السرداب ليثلمن الى الخارج
والى القرية . ورغم تودهم على الخسائر فى الارواح فان هذه السعيه تختلف

كثيرا عن غيرها . زد على ذلك انها صعدت الجميع يشكها المتأججه تماما .
وكان يشقى اربابا غيرها . الجنرال مسجى على الزحافة . والمصانع يروح
على التلج فتهتز الزحافة بهدوء .

اما مالبين وروبابيشيكو وكارارلوف وسينسوف فقد وقفوا حول الزحافة
يتنلمون الى القليل واتساق كل منهم وراء افكاره .

فكر مالبين بان الجنرال في صدره هو تقريبا . وان ابتداء . في الحسب
اقلن . راشدون الآت . وربما قاتلوا في الجبهة او سيقاثلون ...

صعق ربابيشيكو . شأنه شأن الآخرين . ولكن انصاعقه هذا تشبك
مع تفكيره ببرحه . ففكر بان عظم المعصم اذا لم تكن قد انكسرت فبوصه
ان يبقى في صف القتلاتين . وراح يضع التلج المرة تلو الاخرى على معصه
كى يخفف من الألم ويحرك اسابع يده الجريمة . كلا . يبدو ان العظام
لم تنكسر .

تذكر كارارلوف كيف دفعه الجنرال في ظهره قبل وقوع القذفة . وكيف
نظر الى الاسام ثلاث عجلات . بينما كان يتعين عليه ان لا ينساع وان يظل
في مكانه . وعند ذاك ما كان لما حدث ان يحدث . وهو يقصد بذلك ان
الجنرال كان سيظل على قيد الحياة . وان كارارلوف نفسه سيتلقى تلك الشظية .
وتجلى في بساطة هذه الفكرة . وفى شدة أسفه على نفسه ذلك القدر الكبير من
التفانى الذى يتحلى به هذا العسكرى .

اما سينسوف فقد تذكر بانهم عندما كانوا يسيرون اربعتهم في مسر
التوصيل اناب الرتب فزاده فجأة فأست لايك استعداده للقبض على الماني
حي . اما الآن يدع هذه الوفاة الميافعة فقد بدا له كل شى . في الحرب مرغيا
وغير مرغى على قدر واحد . ولم يعد بأسف لانه ابدى استعداده لاداء هذه
الهمة .

الجنرال مسجى على الزحافة التى تهتز بهدوء !

كم كان فرحا طوال النهار . كان فرحا فرحا فدرجة لا يتذكر انه
مبادف ظلها في حياته . كاد يطير من فرط السعادة لتبأ انهجوم العرقتين .
فهو عادة لا يسم كثيرا . ولكنه اليوم كان يتسم طوال النهار بمتابة وبغير
تسمية . « يهد الهجوم ! الهجوم ! ... »

كلا . لم يكن مقدرا له ان يشارك في الهجوم . فما اطلت انظاره لذلك
اليوم . وما اعظم تألمه لانسحابنا ! وما اطلت الايام والليالي التى كانت
يحمل فيها بهذا الهجوم ! ولكنه سقط عند عتبة مباشرة ولو تمكن الاموات

—حكاية الآن، أيها الرقيب كارارلوف— قال مالمين عندما لاحظ أن كارارلوف يهم بالاعتراض— اذهب واعمل!

لم يكن يجيد الأساليب العسكرية المهنية. فهو عندما يصدر أوامره غالباً يقول كلمات غير الكلمات المطلوبة، إلا أن طابعه متشددة فلا يحتاج إلى تكرار الأوامر مرتين.

انصرف كارارلوف وسينسوف وظل مالمين وحده دون أن يسمح على دخول السرداب بعد. وفكر:

ومن يدرى؟! التضييق شيء مؤلم، وريابيشنكو شاب محب نفسه، نانا! أن يربو سيكون ذلك مخيفاً له فيما بعد.

مالمين لا يفتش تمكيد العلاقات وأزعاج الآخرين إذا كان ذلك أمراً لا بد منه، ولكنه لا يحب إثارة آلام الناس بدون ضرورة قصوى. وكانت تلك هي حاله مع كارارلوف. فقد نكده عن أداء البهية بحجة مقبولة دون أن يفتله. أما في الواقع فهو لم يكن رافياً في إرسال كارارلوف إلى الأقسام، وذلك لأنه يمكن اليوم بالذات أن لا يمالك أعضائه ويهلك. هذا، على

الأقل، ما عيل لمالمين بعد أن رأى أيام العيد الهوة التي اجتاحت كارارلوف. سمح أن كارارلوف هو واحد من أولئك الذين يقال عنهم أن أي مكروه أن يحدث لهم، فخلوهم شبيهاً إلا أن مالمين لا يثق بالقوة الوقائية للحلوى

الذائقة. عندما يكون المقصود هو الأقسام. فقد حدث أن قبلت هذه الكلمات منه بالذات، ولكنه يميته تماك أعضائه لا أكثر.

ظهر مراقب الجنرال على القرب المائت حول الإنفاس. كانت سرعة في طريق المودة من جنود الفناء، وعندما رأى مالمين رسده من بعيد تصور أنه يأمر. قال قبل أن يصل إليه:

— أين قائد الفرقة؟ هل أرسل؟

تسلع مالمين إلى غيبى المراقب وتندد وقال بدلاً من الجواب الصريح:

— اذهب على الشفح مباشرة. فالزعزعة لا تزال في الطريق وستبقى بها طالما تلتفت في حول البهية...

يركض المراقب. على الدبشي الهابط وهو ممدد بالدهنفة العودانية التي ترقص على جنبه، بينما تذكر مالمين مرة أخرى بنفس الشيء الذي تذكر به وهو يتبع بنظره زحفه بأخوك وجثة الجنرال فيها؛ وسيكون وقع ذلك شديداً على الفرقة شديداً جداً...».

من التفكير بعد المئات لرئيس فكر هو في ذلك بالذات، ولو تمكن الأموات من البكاء لرئيس ترقصت عيناه بدموع الهمى التي لا يطلق!

الجنرال سجد على الزحافة وعيناه مصومتان نحو الإسياد الأربعة الذين كان يتحدث ويبرز معهم قبل نفس ساعة. أنه يطلع إليهم يمينين مفتوحين يمينين يذأنا تتجعدان.

عاد بأخوك فخلوا جثة الجنرال كيلا يراه أي كان ولا يعرف خبر الأوان أن قائم الفرقة قتل. وتوجهت الزحافة في طريق المودة يقودها بأخوك. — سيكون وقع ذلك شديداً على الفرقة. قال مالمين وهو يتبع بنظره الزحافة التي كادت تختفي في المظلم.

وصل الطبيب العسكري لأهلاً من السير على الطلج، وبمه مدرسة ومضد. ومن حسن الحظ أنه لم يكن في الكتيبة اليوم أي جريح. وأصطحب الطبيب ريباشينكو إلى السرداب من أجل تضييقه.

وقال ريباشينكو محالاً رفاقه ليهدي نفسه أكثر مما يهدي مالمين: — بدني قوي، وسوف ياتم التجريح بسرعة!

أنه رجل يأس، ولكنه يعاني من عيب واحد يعرف منذ أصابه الأولى. فهو لا يطيق الألم. وما هو الآن خائف منض الشيء من التضييق.

— ما رأيك يا كارارلوف بخصوص التقيض على المائي حي؟ — سأل مالمين عندما ذهب ريباشينكو.

— ستبقى عليه، طبعاً، أيها الرقيب الفرقة الأقسام!

قال كارارلوف ذلك ورفع بضرة إلى مالمين فلاحته الذهبية في عينيه المتفتحين من البكاء. ثلاث، بعد وفاة الجنرال، هذا آخر أمر صدر عنه اقتبس الانداس بالنسبة لكارارلوف. فقال مالمين:

— اعتقد أن من الضروري في البداية أن يخلو سينسوف لنفسه رقيقاً ويذهب منه.

— وأنا؟ — سأل كارارلوف بصوت متعرج بسبب الانفعال. — لقد وعدت الجنرال! وإن تشدوا متى وعدى!

— لذلك بالذات وبتين عليك أن تلتذ العلية معها كانت الظروف. — قال له مالمين. — يجب أن توفن لهما. — رابواً إلى سينسوف. — المورد غير المواقف، وإذا اغتافا سوف أسبح لك بالانهاض لتكرار الململة بنفسك...

وما لك من خطيب فصيح، اعتاد تمييزاً بلينا؛ وإذا اغتافا! — ذكر سينسوف. وأتاحت القسرة غلوه.

قبل ان يدخل كاراروف مخاباً جنود البنادق الرشاشة علم حلفه القدير
واحدة بمسحه اولها بالرائج، ولكن يقع الدم فقلت لاصقة به. فقال له سينتوف
الوقت قريب:

- اسبح ويهلك على الاقل ...

اغذ كاراروف حفنة من التلج ورسح بها وجهه عدة مرات.

- هل بقي شيء؟

- تعجل! قال سينتوف واقفم بقعة من الدم الممختل قريب اذن كاراروف.

التي كاراروف المصطف على كتفيه فدخل المخاباً ماباً.

كان نياً مقتل الجنرال لوروف قد بلغ الشئ، وعندما بدأ كاراروف يوضح
الهمة وقال بانهم رعدوا فانه الترقه نفسه بالنفيس على الصاتي حتى شعر الجميع
بهدى مائة هذا الوعد الذي ظفروه على انفسهم امام الشهيد.

اوضح كاراروف الهمة. وقال انه سيورع الاستلامييين ويستقبلها
بنفسه. فمن يتطوع بالذهاب مع نائب العريف سينتوف؟

- انا! قال ليونيدوف في الحال.

كان سينتوف يأمل بان يتطوع كورماروف للذهاب معه. فان عدوه
واتزاه يجهان سينتوف ويحيطان بشقة كبيرة لديه.

الا ان ليونيدوف هو الذي تطوع. تطوع وراح يطالع الى الحاضرين
بنظرة فائسة وكأنه احداهم يريد ان ينزع لثمة من عنده. وبسبب هذه
النظرة الغاضبة لم يجرأ احد غيره على التطوع.

تمسك مزاج سينتوف لعدم خداع كورماروف معه. ولكن لا مجال
للاعتراض. فان ليونيدوف نفسه تلقى منه اليوم كلمات خفيفة ولكنه تلوع
مع ذلك. وربما كان الدافع لذلك هو رغبته في ان يثبت انه تلقى الملاحة
دون ميرو.

والله عسى بعض الشئ، فرفما هذا ذلك فلا بأس به... اغذ سينتوف
يهدئ نفسه، وشعر بالأسف لأخر مرة لان كورماروف لن يذهب معه ثم قال:

- طالبا منذهب فلنستعد!

توجهوا بالهمة خفيفة بدون معطين. قد ارتدى الشترين القتلشين رسدوا
مستملتين يمزامين. واخذ كل منهما سكينا وقبيلتين يدويتين تعسلا لاسوأ الاحتلات،
كما اخذا حفنة من القطن لكم قم الامير ولثة من الاملاك التلقوية الربط.
عندما اصدر كاراروف جميع الاوامر ولم يبق عليها الا ان يخربوا
من الخندق ويخرجوا نحو الاسفل بين الشجيرات الصغيرة المغطاة بالتلج. في

الجدول الواقع في المنطقة الفاصلة عنهم ليونيدوف فجأة في اذنه سينتوف
بكلمات لم يكن هذا الاخير يوقع سماعها مطلقاً:

- كولا خيطيتي يوم امس لجلسنا اليوم نستقل برسامك...

واذ ان سينتوف بان ليونيدوف تطرح للمشاركة في هذه العملية الاستعلامية
ليس بسبب غشيه، بل لانه لا يريد للاخريين ان يخاطروا بحياتهم بسبب
الاخير التي قلده هو بالاس.

- لا تستعجل، سنستقل فيما بعد. قال سينتوف، واحسن بلس التلج
لنقارن على عدده. وتدمرج غير المتراض...

وعندما فزات بهما مصيبة بعد ثلاث ساعات، حينما عادا بجران الامير
ورادها فانقضى لهم في سجنهم بيده نصف كيلومتر من مواقنا وادي الانجاز
الى بر مشط قدم ليونيدوف، شد سينتوف بالحزام وبعده تحت ركبته وفكر
ببرارة: بها قد استغلنا!.

والى جانبها وقد على التلج الالمانى المربوط اليمين والقديس: في
الهداية افتاده، مربوط اليمين، وفي الخسبالة متر الاخيرة سحابة على التلج،
حسب الدور، وكأنه كريس. وقد الالمانى وهو يشخر، اذ ان فمه مكسوم
بالفلس.

يبدو ان الفصح كان من الغامض، ولو كانت الانعام هناك الثانية ويعرف
الاملاك بروجعها ليدأرا باطلاق النار حال سماع الانفجار. بيد ان الهوى يعم
التيقن الالمانية، ولم يكشف احد اختفاه الجندي الذي كان قد غفا في
احسن. ولما هم اعتبروا الانفجار من قذيفة اطلقتها الروس.

- ما العمل؟! - سأل ليونيدوف بصوت غافق.

من يدري! ربما كان قد صرخ انتباه الانفجار عنده، بر مشط نفسه
ولكنه فيما بعد لم يفتح شفتيه المصمتين لا عندما قص سينتوف بالسكين
بغية الجدل الذي ظن الشيط متعلقا به ولا عندما غمد الشاشي بقية القدم المجدودة
لا عندما شد رسله تحت ركبته بحزام الخصر. ليونيدوف لديه الشكينة.
لكن حقيقة لا جدال فيها!

- فلنستظر قليلا، ثم نواصل الرحف. قال سينتوف - واداً قدت
لورك حاضبت.

- واقفرتش؟! - سأل ليونيدوف.

أرشد سينتوف عندما تذكر بان اطلاق النار غير ممكن. وسوف
يسطر الى نمر الالمانى بالسكين قبل ان يسحب ليونيدوف الى مواقنا. أمه.

ترك الالمانى هنا ثم العودة اليه فيما بعد ففى فيه مجازفة، لانه يمكن ان يترك رباطه او يخلع الكمامة من قمه .

- ما العمل؟- قال سينسوف وادرك ليونيدوف من حركاته ما يتوهم فعله ، فقال له : اسجد انت ! فيجب تنفيذ الامر . هل تستطيع من سجد لربك؟

- نعم ، ولكن ...

لم يتكلم سينسوف كلامه لان ليونيدوف قاطعه من جديد بهمس سائس محموم . فبيب التزيت تضاعفت قواه بشكل ملحوظ من لحظة لآخرى .

- اسجد انت ، وانما سارتف خلفكما .

- حسنا - وافق سينسوف على حين فرقة - ولكن لا تزحف الى اى مكان ! ابن هذا ، سارسله واعود اليك . ساضطرب بعض الرفاق واعود . ولكن ابق فى هذا المكان . ولا تزحف !

كان يخشى من ان ليونيدوف المنهوك القوى يمكن ان يزحف فى اتجاه آخر ولن يشر عليه .

- هل سمعوا؟- كان ليونيدوف يريد ان يعيش بالرقم من قراره المتطرف هذا . والا لما طرح هذا السؤال ..

- ساعدو بنسى ! اعاهدكم !

خلع سينسوف حتى مترته القطنية ليسهل الزحف وترك بدنيته الرخنة قرب ليونيدوف وزحف الى الامام راسه السكين وقبضة يديوه واسدده وهو يصيح الالمانى وراءه .

لم يكن الالمانى ، كما اتضح فيما بعد ، ضغما ولا ثقيل ، بل كان قصير القامة ثامنا ، ولكن ما اقل محب هذا الكيس على التلج والدر لا يتمكن من رفع راسه؟!

وعندما وصل سينسوف زاحفا الى مكان يبعد خمسين مترا عن الخنادق ، دون ان يصدق بانه وصل فعلا رأى كارارولوف وكر السرية التى تحتل مواقع الدفاع هنا ، به ان زحفا للقاء ورقدا وراء كتيب على التلج ، شارح قواه وكان برق تصيب منه ، من راسه الى اخمص قدميه ، رغم انه كان يزحف نحو التلج . وبادره كارارولوف :

- اين ليونيدوف؟

- جريح ... هناك ... ساعدو اليه حالا ...- قال سينسوف وهو يلهث به كل كلمة .

ولم يسأله كارارولوف عن شىء الى ان سجدوا ثلاثتهم الالمانى الى الخندق .

- ماذا حدث لليونيدوف؟- سأل كارارولوف من جديد فى داخل الخندق بعد ان القى معطفه القصير على سينسوف .

- دقيقة ... ساجدك ... انتزع ... القطن من قم ... الالمانى ... والا ...- لم يكمل سينسوف عبارته اذ كاد يهتق ...

ثم شعر بالفتيا اما من الخوف واما من البعد الطويلة التى كانت قد مكثوها فيها . وقال سينسوف :

- يشر مشط قدم ليونيدوف . ساذهب اليه الآن .

- كيف تذهب اليه وانت بهذه الحال؟- قال كارارولوف .- ساذهب انا اليه ، ولكن اوضح لى اين هو .

- كلا- قال سينسوف - ساذهب معك . ولكن فلاخذه فضا .

قدم له امر السرية زومية فيها كحول .

- لا داعى لذلك - قال سينسوف - اعشى ان تضعف قوى . فانا اثير بالحر اصلا . ولكن اعطنى ماء ...

ولكنه لم يكن هناك ماء على مقربة منهم . فاعذ سقنة من التلج وراح يشبهه .

- ابق هنا- قال كارارولوف من جديد وباهجة آخرة هذه المرة - ساذهب بنفسى وساخذ كوياروف معى .

كان كوياروف هنا ايضا . فان كارارولوف اخذه معه تحوطا «للاخفاق»- تذكر سينسوف كلمة مالمين .

وبصق سينسوف قطرة التلج وقال :

- اقل ما تشاء ، ولكنى ساذهب معكما . فدونى ان تشا عليه ... وهناك سترقى وبنتقبنى ...

تذكر فجأة فطاعة ما عاناه فى الناية عندما استعاد وعيه وهو جريح زحفت آنذاك ، ثم فحش ورأى الالمانى يتوجه نحوه وبنتقته يده .

«كلا» فن يحدث ذلك لليونيدوف! » .

- فلنذهب .- كرر وزحف من الخندق دون ان ينتظر قرار كارارولوف الهائى .

الفصل السابع عشر

لم يحصل سربيلين على تعيين في الجبهة إلا بعد تقرير من اللجنة الطبية الثانية. كما أنه لم يحصل عليه في الحال. اجرت اللجنة الطبية الفحوص عليه في ٢٥ نوفمبر، ولم يعين إلا بعد اسبوع. استدعوا في الصباح إلى هيئة الأركان العامة، وفي مساء، تعين عليه أن يتسلم فرقة قتال تحت الألمان في ضواحي موسكو.

قال له إيفان الكيسيفيتش:

— أخبرنا الرفيق ستالين منك وعن رسالتك التي تطلب فيها إرسالك إلى الجبهة من كل بد، وإلى آخره... (كان سربيلين قد بحث بهذه الرسالة بعد فحوص اللجنة الطبية الثانية). ولا أعف عليك أننا كنا نعارض إرسالك إلى الجبهة. أردنا أن تبقى هنا، معنا... إلا أن الرفيق ستالين—هو إيفان الكيسيفيتش كتليه—قرر حسب رأيه. ولذلك فالتحق المحق الآن، وليس نثن. وقال: مالكا يريد الذهاب إلى الجبهة قاعطوه فرقة. وأقول لك، وبيد ذلك بينما، أنه تقرر في البداية إرسالك إلى جبهة كاريليا. فهو لا يجب التكرار. وأد سألنا: وهل سافرنا؟ لماذا نجيب؟ ولكنه حدث في ضواحي موسكو أمس الأول مأساة مروعة. فقد قتل قائد رابع لاجدى الفرق دون أى مبرر، يقتلها طائشة حقاً. وهو الجنرال بولوف. ألا تعرفه؟

— سمعت به—قال سربيلين—كان يخدم في دائرة سيبيريا العسكرية قبل الحرب.

— فعلاً. في فرقة ألتاي. هو إيفان الكيسيفيتش رأسه بالإيجاب—في البداية فكّرنا بأن يحل رئيس الأركان محله، وبعد ذلك قلن قائد الجيش وطلب اختيار قائد أقوى. فوقع الاختيار عليه.

— شكراً—قال سربيلين.

— لا تستعجل الأمور!—قال إيفان الكيسيفيتش—مصحح أن القوة بديلة، وهي من الفرق الأصلية، ولكنها أصيبت بخسائر جسيمة، وعلى الأصح خسائر فظيمة. كان أوراوف قائداً قوياً، فلا بد من الاعتداف بذلك. وقد تمردوا عليه طوال ست سنوات. لذا فالتستلم الفرقة ليس بعد قائد غير قاضح. وذلك له محاسن ومساوئ... وعلى العموم قاطعاً لا تريد العمل معنا هنا، انتنى لك الشجاعة!—قال إيفان الكيسيفيتش في الختام!

لهجته تنطوى على الزل. فالرفاق التقدمي أرادوا غير سربيلين، أما هو فقد عانده وكتب إلى ستالين متحدثاً بالبريغ. إلا أن سربيلين لم يشعر بقلب تجاههم. فهو يرغب في الذهاب إلى الجبهة، ولا يمكنه بهذا الخصوص أن يهتم حتى بشاعر الأشخاص الذين لهم عليه فضل كبير.

— تسلّم أنت قيادة جيش وسأخدم عندك آنذاك—قال سربيلين مازحاً دون أن يدخل في جدال.

— تسلّم، تسلّم!...—قال إيفان الكيسيفيتش—هل تذهبون إلى الجاوس هنا شيء يسير؟ ربما الجاوس على السندان تحت المطرقة اسهل! يودى أن اتسلم جيشاً، ولكن ليس كل الرماثل موقفة مثل رسالتك. فإذا كان البرود: اريد الذهاب إلى هناك ولا أريد العمل هنا... ربما يتلقى ما لا يرضيه! وتكرّر سربيلين بأن رسائله، هو أيضاً، لم تكن موقفة دائماً. فقد بحث رسائلي في حبه إلى نفس «عنوان»، ولكن دون جواب. حسناً، فلتن تلك الرسائلي. أما هذه الرسالة فلن ينسى، لدى الحياة امتثاته للجواب عليها!

— هل تعرف رسالتك المرفقة؟—سأله إيفان الكيسيفيتش وهنّس ثم ذكر لقب قائد الجيش الذي يتعين على سربيلين الالتحاق به.

وقال سربيلين أن الشخص المذكور درس معه، على ما يتذكره، في الأكاديمية، ولكنه اسفر منه يمين.

— كان اسمر يصقيل، وإن أكبر بنجمة!—قال إيفان الكيسيفيتش شاككاً. ويومئ القول أن ترقية جاءت عن جدارة واستحقاق. فقد كلف في بداية الحرب مهمة عسيرة جداً، حيث تسلّم قيادة فيلق أنكي في طور التشكيل أن صح التعبير: الأدبيات القديمة تشرف على الليلى والدبيات الجديدة لم تسلّم بهد. ولكن أمور هذا الفيالق يقيادته. يذت على نحو لا بأس به، وخصوصاً بالمقارنة مع بعض الفيالق الأخرى. وقد خرج من الحصار عبر الممارك. ثم أنه هنا أيضاً، في ضواحي موسكو، تطلّى بمزايًا القائد الناضج... وبالمناسبة فستري ذلك بنفسك. فالأمور أوضح من الأسفل كما يقال.

— ماذا؟ هل الرؤية سيئة من الأعلى؟

— لا أدري بالضبط. فهناك حالات مختلفة. يصادف أن ينسيلم المرء منصباً كبيراً من زمان ولكنه يمزق على آك الموشية العسكرية باصبع واحد حتى الآن، يمزق عليها بذاكرته القديمة، مثل الكمان ولحنه، مسؤولي الصعيد الأوسط البحريين تسمع وتذكر ما هي هذه الموسيقى حسب سير الأمور، أما فوق—التي أظن أن أكسييفيتش تفرقة غائفة في الشكف— فلم يستمعوا بعد إلى تلك الموسيقى كما يجب! وبالمناسبة—قال إيفان أكسييفيتش وهو يمد يده إلى مرييلين مودعا—بانهن أس أرملة بارانوف. تذكرت الحديث بيننا ونصحتها بأن تقابلك. فعدتها أنت، لأنني لم أرغب في القيام بهذه المهمة.

تجهم مرييلين.

— متى ستذهب لاستلام القربة؟

— سأذهب الآن إلى هيئة أركان الجبهة مباشرة إذا جاءت لي أذن سيارة. ومن هناك إلى البيت لأمه كي أجمع حاجياتي، وأعتقه بأني سأصل إلى القربة في المساء.

ثم يكن يريده التحدث مع أرملة بارانوف، ففكر بإرتياح بأنه سيستمر في الجبهة اليوم ويستخلص من هذه التورطة إلا أن الأمور سالت على نحو آخر. فقد عاد من رسالته إلى هيئة أركان الجبهة في بيرغوشوكوف في وقت أقل مما كان يتوقع، وبعدها خرج على يده ليأخذ الغداء وأخذ حاجياته وبعده زوجته التي أخبرها بتحصنه بالفنود من الأركان العامة متمهكة في أعداد العقيدة وقالت له مبتدرة:

— نلقت لك مرتين وبكل حزن أن أراها نفسها بارانوف. اجبتها بذلك منصرف اليوم إلى الجبهة، ولكنها قالت بأنها ستلتفت من جديد مع ذلك. فمن هي بارانوف يا ترى؟

— بارانوف زوجة بارانوف!

تأدلا الضحكة. كانت قازيتينا بفورونفا تعرف أن لدى زوجها حركات لاتعير بارانوف من المسؤولين عما حدث له في عام ١٩٢٧، وهي تعرف أن الإقدار كأنها جمعتها، مرييلين وبارانوف، من جديد عبدا أثناء البصائر. أما الآن—بعد ذلك كله—ليتمتعين على زوجها قبل السفر إلى الجبهة أن يتحدث مع زوجة بارانوف. وأدركت من تلامي وجه مرييلين أنه لا مفر من هذا الحديث. فضالما تتفهم بارانوف سيطلب منها حتما أن تأتي. والأمل الوحيد هو أن بارانوف قد لا تتفهم. ولكنها يدان في ذلك الآن. قيل الفراق.

كان مرييلين ميالا إلى الكلام أثناء الغداء، إن قازيتينا بفورونفا قد لاذت بالصمت. فهي تعرف من زمان أنه راقب في استلام قربة، وهي تعرف أنه كتب إلى صائين بخصوص ذلك، وكانت واقفة من أن طلبه سيأتي. كانا يفهمان بعضهما البعض من زمان وبالشكل الكامل. يليق أن فهم البعض للبعض الآخر ليس هو الحب كله، ولكنه جزء هام منه تزود أحييت باطراد على مدى الأعوام، بحيث تلتد البشائر. الخالية من ذلك الضاعف. نيت لا تصنع نصيبه عبداً بالحب، والأفضل. إن تعلق عليه تسمية أخرى. فالتفهم الميق الكامل لأفراح مرييلين وأتراحه صار من زمان الجزء الرئيسي في حب قازيتينا بفورونفا زوجها، لذا—فحسبت لكونه متوجها لاستلام القربة، مع أن كل شيء في دخليلتها يرفض ذلك، فهو يعني الفراق من جديد والجمعة من جديد والتفر من جديد. وهو يعني حياة الجهاد بصحته التي لم تعد يده إلى نصف ما كانت عليه.

ولكنها لم تسمح لنفسها بالكلام عن ذلك، فهي لا تريد أن تمكر مزاجه. قبيل الزحف. وما كانت. بقادرة على أن تتكلم عن شيء آخر غير ذلك. حسبت صامتة طويلاً فترة الغداء. وكان صمتها المصور هذا ليس نتيجة لخلاف بالي، كما قد يظن البعض غريب يأتي إلى هذا بل هو نتيجة للحب والتفهم.

وكان هناك، فضلا عن ذلك، شعور بالقلق الشديد. فإذ قازيتينا بفورونفا الجلوس قبالة زوجها أثناء هذا الغداء التيميمي تعرف أنه متوجه للمطبخ مثل قازيتينا. فإذ كان شيء، والتمسح الجديد ينطوي على خطر الموت بأنيابة له أيضا. ألا إن الكلام من ذلك شيء، أير سعاد أطلاق في عائلته.

— اسمعي يا قازيتينا—هم مرييلين باحتماء الشاي ولكنه بعد القهق قازيتينا—أريد أن أقول لك...

كان يريد أن يقول لها بأن تعود عائلته يسافروا إلى عملها السابق كعمرية، بعد أن تركته سركتا عبداً خرج هو من المستشفى. وهو يعرف بأنها تعود إلى هذا العمل غدا، ولكنه أراد لها أن تفهم بأن ذلك هام ليس لها فقط، بل وله أيضا.

ولكنه لم يستطع أن يقول ذلك إلا لوما بعد في اللحظة الأخيرة لإدراج: فقد رن جرس الهاتف، وقال صوت نسائي تيس ليجو بأن بارانوف تكلم وأنها تعرف أن فيودور مرييلين سافر إلى الجبهة، ولكنها تتفهم للمرة الثالثة، من ركن الشارع هذه المرة، ولا يقول له أن يرفض التكلم معها أمشرفا!

لا يحب سربيلين أن يذكره أحد بما يحق له وما لا يحق له فعله .
ولكن طالما تلفت يارافوق فلم يسمح لنفسه برفض طلبها :

- تفضلي، أنا في انتظارك .

وضع الساعة - وسأل زوجته صبا إذا كانت تذكر اسم يارافوق الأول .
فاجابت غابيتينا بفوروقنا دون أن تخفي امتعاضها :

- أنتي لا تذكرها عميما .

وفاة يارافوق لم تغير موقف غابيتينا بفوروقنا منه . كان كل شيء في داخلها يقول لأن الثلاثين دقيقة الأخيرة قبيل الفراق مع زوجها تنتزعها منها زوية شخص كان له خلع في انتزاع زوجها منها لأزوية أطول كلمة ، أطول وأقلع أعوام في حياتها .

- انها وقعة مع ذلك! - قالت غابيتينا بفوروقنا بلا حراة وبلا حق على الأكثر، ثم أخذت الحقيقة دون أن تتحلى من تصفها وذهبت إلى المطبخ لترتب حاجيات زوجها غير راقية في زوية هذه المرأة .

احتسب سربيلين الشئ الوحيد ، وهو يحاول أن يتذكر ليس فقط اسم يارافوق واسم ابنتها ، بل وشكلها أيضا . فهي على ما يعتقد شابة أصغر سنا من يارافوق وقد رافاه كما يتذكر ، في عام ١٩٣٦ في محطة القطار عندما ارتحلوا إلى بيلوروسيا للمشاركة في مناورات الخريف . وأتذكر ، على ما يتذكر ، عرق يارافوق على زوجته .

كانت المرأة التي فتح لها الباب بعد بضع دقائق لا تزال سقا في مقبيل العمر ، وهي ترتدي بزة مطبوعة عسكرية ، ولو فكر سربيلين في تلك اللحظة

بما ينبغي في ذلك المثال ، في نفسه ، على الخلب اللان ، « انها جميلة » .

سأبدا في خلع سطقها وبعدها إلى الجلوس وعرض عليها احتساء شاي .
ألا انها رفضت على عجل وتطلعت إلى ساعتها اليدوية الرجالية الكبيرة وقالت بانها ستأخذ من وقتها عشر دقائق لا أكثر ، ثم لبدا اشيرته بالثقلون .

انها تعرف منذ شهر أن زوجها قتل ، ومنذ شهر أيضا التحق ابنها البكر البالغ من العمر ١٨ عاما بالجبهة متطوعا حالما علم بمقتل أبيه . وقد استحضت هي تصرفه هذا ، وأخبروها بيوم وفاة زوجها - في الرابع من سبتمبر ، وقالوا لها أن يوسعها أن تقدم طلبا بشأن الماش . ولكنها لم تقدم هذا الطلب بعد .
وأضافت على عجل :

- وعلى العموم ، قضية الماش ليست مهمة حتى الآن . فانا أعلم في الجيش ، كما ترى ، وأعمل كبيرة للجراحين في المستشفى . ابني الأكبر

في الجبهة ، والأصغر عنه جده ، فماتلنا كما هو واضح ليس في عز -
قالت ذلك وكأنها تريد منذ البداية أن تحمي نفسها من الشكوك التي لم تكن موجودة أصلا عند سربيلين .

- ولكني ذهبت أمس فقط ، وبعد مخاضات قلقية عديدة ، إلى ... -
ذكرت لقب أيدان الكسيسيتش - مؤلفة بان شخصا مثله يمكن أن يعرف أكثر من الآخرين . وقد قال قورا أن زوبى خرج بالفعل من الحصار ملك ، ونصحتي بان اتوجه إليه .

« فذهب إلى الشيطان ! لقد علق صليبا ثقيلا على رقبتي وقيته » - فكر سربيلين يتن من العلف على هذه المرأة التي تبدو ممتدة على نفسها .
لم يكن من السهل التأثير على سربيلين . فهو يثق بالمشاعر الثقيلة . وهو الآن يرى في صوت هذه المرأة المدوي يتوتر رقبته ألما رابعة أكبر مما لو انهمرت الدموع على خديها أمامه .

- أجل - قال سربيلين - خرجنا من الحصار معا بالفعل .

تكلم ببطء ، وهو يتن آذناك في مسأئين دفعة واحدة : ماذا ينبغي له أن يقول لها وماذا قالوا لها؟ فالمعلومات من مقتل يارافوق لا يمكن أن تأتي إلا من شكاكوف ومن القوائم العسكرية التي سلمها عند الخروج من الحصار . ولكن هل أودج شكاكوف في تلك القوائم توضيحا ما أم لا؟ وماذا قالوا لهذه المرأة؟ هل قالوا لها ما ذكرته الآن فقط أم أكثر؟ ربما علقوا عليها .
لها . لا تعرف الحقيقة . أم انها تعرف أكثر مما تقول ، وتريد أن تثبت بما تعرفه بأسلحة سربيلين . كل تلك الاحتمالات ممكنة بقدر واحد ، ولا تتعارض مع منطق القوية التي تتنمى في صوت هذه المرأة .

- خرجت معا بالفعل ، وقتل هو بالفعل في الرابع من سبتمبر - قالت سربيلين دون أن يشر حش النهاية بعد بلى شكل يتكلم معها ، ولكنها تلفت ثوردة في صوته لا يكاد يلاحظ .

- أذكر لي ، من فضلك ، الحقيقة كاملة ، كما كانت بالفعل ! قلنا شئ مهم بالنيابة لي ، والأهم أن رائدي ، والأكبر خصوصا ، برندان معرفة ذلك . وقد وعدته بالكتابة عنه إلى الجبهة .

ولكن سربيلين الآن بالذات ، عندما قالت « أذكر لي الحقيقة كاملة » وإشارت إلى ابنتها من جديد ، قرر أن لا يقول لها الحقيقة ، لا كلها ولا بعضها ولا ريعها .

قال انه اتفق بزوجها في أواخر يوليو عندما وصل مع قوافله عبر الغابات

من مؤيديات الى ثلثاوس وان زوجها في ظروف الصعاب شأنه شأن بعض القادة الآخرين - ربيد سرييلين صغوبة في قلعة هذه البارة مع انها كانت كاذبة يترضا - قد قاتل كيجندي عادي وقتل في الرابع من سبتمبر - في بداية المعركة التي نشبت في تلك الليلة اثناء عبور الطريق العام . سرييلين نفسه لم ير كيف حدث ذلك ، ولكنهم قالوا له ان باراثوف سقط شهيدا ... فلما ذلك يجهد كبير ليس من اجلها ، بل من اجل ابنها الذي سكتك يد الى الجبهة .

مع الاسف انني لا استطيع كما تريد ، ان اضيق لكثير . فقد كان تحت قيادتي هناك حوالي خمسمائة شخص ، ولا اتمكن من تذكر التفاصيل عن كل منهم . كنا نسير ، يمتكني الصعوبة ، عبر كثير من الماروك والشار . وفي المعركة الاخيرة ، عندما التقينا ، فقدنا نصف افرادنا . يدعي ان ذلك لا يختلف من اسرافك ولكن الاقلية منا فقط ظلت على قيد الحياة ...

ربما تخفي على شيئا لا تريد ان تقولها - ظلمت الى سرييلين مستطقة .

في البداية تعيل اليه ان لهجة كلامه عن باراثوف فضيحة . ولكن كلامه فهو قد تمالك اعصابه . ثم فكر بانها ربما دعت لان زوجها النقية خدم عنده ، هو سرييلين كيجندي بسيط .

ولكنه ادرك ، وهو يواصل التطلع الى عينيها ، ان هذا الافتراض وذاك غير وائدين . يبدو انها تعرف او تعرف ربيد شيء لدى زوجها يجعلها تتعشى عليه . وواضح انها كانت تحبه ، ولكنها مع ذلك ليست وافقة من تصرفه هناك ، في الحرب .

كانت تأمل بان تعرف عن زوجها شيئا جيدا ، ولذا جاءت الى سرييلين ، ولكنها في قرارة نفسها ، تخشى من ان تسمع عنه دسوة ، والآن ، عندما ست سرييلين تصورت ان تلك الدسوة موجودة بالفعل ، ولكنها لم يتكلم . فذكرت سؤلها :

ربما تخفي على شيئا مع ذلك ، ولا تريد ان تقولها ؟

وربما ، ربما ... قال سرييلين مع نفسه . ولكنه قال للمرأة كلا . فقد حدثها عن كل شيء كما حدث بالفعل ، ولتكتب هي الى ابنها عن ذلك . فالاهم الابن وليس هي - فكر سرييلين من جديد . ويبدو انها صدقته هذه المرة .

ما سكتك لابني واسمعه بك :

لا يا من ، يبتكك ان تستعدي بي .

فكر في نفسه : يا للشيطان ، ربما كان باراثوف اليقظ يتعيل بشي ، جعل هذه المرأة القليلة على ما يبدو تحبه حتى الان .

راقبها حتى الانعاز وساعدها في ارتداء المصطف فشكلته وانصرفت . وعندما عاد ، وتطلع الى الساعة رأى انها لم تأخذ زيادة على الوقت الا اربع دقائق . وكان ذلك مأثرة بالنسبة لامرأة جاءت بها جيات هي من اجله .

اجل ، انها انسان شديد الشككية . فما الذي جعلها تحب باراثوف هذا ؟ ربما احبه لا لشيء ، كما يقال ، لمجرد الحب ... فلك حالة تصادف على ما يبدو ... فكر سرييلين دون ان يصدق بهذا الاحتمال .

ذهبت ؟ - سألت قالييتينا يبوروتا وهي تدخل الغرفة . حتى سرعة انصراف باراثوف لم تخطف من انفعالها . فقد تصورت ان سرييلين قال لكاه المرأة الحقيقة كما هي ، ولذا ذهبت بسرعة .

ماذا ؟ هل قلت لها كل شيء ؟ - سأله وقد زلذ صبره .

لم اقل لها شيئا - اجاب سرييلين متحضا . فلم يكن رانجا في المودة الى هذا الموضوع - قلت لها انه سقط شهيدا .

لم اكن اعرف في السابق انك يمكن ان تكذب . قالت قالييتينا يبوروتا دون تساهل .

لا تترسى عند المتطفات ! - قال سرييلين ينفذ - ابنها توبه الى الجبهة قطعوا لكي يثار لايه . فلن يثار يا ترى ؟ للجناب ؟

الا ربيد احد يثار له خير ابيه العزيز ؟ ولو ظل ابو حيا فهل يجوز لابن ان لا يقبض الى الجبهة بل يسافر الى الاوروا ؟ انني لست متفقة بك .

او كنت في محلي الوقت ... اراد سرييلين ان يوضح لها الفرق بين التفكير فيما هو صائب او غير صائب ، وبين التطلع في عين ابنة ابنة .

الا قالييتينا يبوروتا قاضته :

لست بحاجة لاكمال في محلك ، فقد رأيت في محلي ما فيه الكفاية ! زلو استن هذا الحوار قليلا لتعود الى خلاف . ولكنهما احسا كلامهما بان ذلك يمكن ان يحدث قسبلا اعصابهما . وتحدثتا عن امور اخرى . طلب سرييلين ان تدب في الحال للعمل في مستشفاهما ، وطلبت منه ان يقلل من ارتداء العزيمة الجالدة بد اصابته بالجرح .

- فالويل، مثلا، يمكنك ان ترتدى الجزمة الليبادية في الطريق...
وبهذه الفكرة المعقولة بدأ الحوار الذي يجرى عادة قبيل السفر...
وبعد نصف ساعة ابتاز سربيلين منقلبة زاموسكفورتشيه فيبلغ حدود
موسكو ويترس وثائقه في تقطع التفقيش ثم استمرت السيارة به على الطريق
المؤدى الى الجبهة.

...وبصل سربيلين الى متر اركان الجيش ويبحث عن المنزل الذي يسكنه
قائه حتى عثر عليه. استقبله المراق وعرض عليه ان يجلس ويستظ. وقال:
- القائد قائم، وقد طلب منى ان اوقفه في تمام الماشرة مساء، وقال
بأنك اذا جئت قبل هذا الوقت فعلى ان اوقفه حين وصولك.
خرج المراق فطلع سربيلين الى ساعته - كانت العاشرة الا عشر دقائق -
ثم التقى نظرة على انقرفة.

يمكن للمرء ان يأخذ فكرة معينة عن العسكرية حتى من مسكنه الموقت.
مكتب القائد يارد نظيف وغال من ناقل الاثاث، فلم يبق فيه غير الطاولة
والكراسى وعنوان مكتوف على احد وقطع حزمة من الكتب، وعلى رف آخر
مجموعة مجلدات من جريدة «النجم الاحمر»، وعلى الرف الثالث مجموعة من
الخرائط. الطاولة مغطاة بورق مثبت عليها بالديباجس، الورق نظيف تماما،
ويبدو انهم يستبدلون به يوميا.

يبدو ان الشخص الذى عمل في هذه الغرفة كان متحذقا، فقد تذكر سربيلين
عمو الطائر الضاربة التي قالها ايفان الكسيسيفتش عرشا من ان طياح القائد قاسية،
- ارجو الصندرة! توقفت ذك تسجل في وقت متأخر - دوى ضللت ظهر
سربيلين صوت حاد قطع حبل افكاره.

تهب سربيلين ولكنه لم يجد في الغرفة الشخص الذى تلفظ تلك الكلمات.
فقد مر بسرعة من باب لآخر ولاحت في الحبة الخفيفة المشقة المعلقة على رقبته.
وبعد دقيقتين مر عائدا بنفس السرعة، ولكن يصمت هذه المرة، وبعد
دقيقتين اخريين خرج لملقاة سربيلين، وقد عدل قميصه، ماشيا، بأشهر حركة
دقيقة من انهاء اليد اللذين دسهما تحت حزام الخصر.

تقدم سربيلين نفسه.
استمع اليه قائد الجيش واقفا وقد على به بسرعة ودعا الى الجلوس.
- هذا انت اذن؟! - التي نظرة متحفصة على سربيلين - عندما وشعل
الفردق - ذكر القائد لقب ايفان الكسيسيفتش - لتفوق فرقة من فرقة
وصفك بأحسن السموت حتى تصوروك كما قال الشاعر ليرنوتوف، مدفنت

مظهر بطل اسطوري وروسك سرع كالتوراة... وقد ترددت بعض الشئ.
انا اشحن تركيزات الاصدقاء. فهل خدمت معه؟ سأل قاصدا ايفان الكسيسيفتش.
- نعم - اجاب سربيلين دون ان يدخل في التفاصيل.

فاعجب جوابه هذا قائد الجيش.
«هذا انت اذن!» - فكر سربيلين وهو يتطلع الىه.

والى ايامه رجلا قصير القامة، يظهر عادي تماما. رأسه مستدير بمنى رقية فضوية
متينة، وشعره قصير عموما مع غصلات اطول مائلة الى الياض عند الجبهة.
ورسبه انلس حتى تماما دون أى اثر للتجاعيد سوى خط عميق واحد على
اسفل الفم. قميصه ميدانية بدون اوسمة وعليها شارات واقة بلوت كاكى. بدا
قائد الجيش وكأنه قد احتم خضيسا بان لا يحتوى مظهره على أى شئ
ناقل، مثل غرفة مكتبه. سربيلين يعرف ان القائد في الارمين، الا ان
تقديمه رأسه الاكليلية الصيانية جعلته يبدو اصغر، عمرا بخمسة أعوام، وصوته
نقى لاهبا، انه صوت رنان حاد.

كان سربيلين يتوقع من قائد الجيش ان يسأله عن خدمته، فهذه شئ
طبيعى ادى التعرف على القائد الجديد للفرقة. الا ان قائد الجيش بدأ قورا
من القول بانه اطلع على صحيفة اعمال سربيلين.
- اعتقد ان ذلك يكفي لتعارفنا. وستعارف اكثر في القتال، أما

الآن فاطملك يايجاز على الموقف.
مد يده الى الخوان المكتشف دون ان يلتفت اليه، واخذ، دون
ان يخطئ، الخرطعة التي يريدها من السكان الذي كانت فيه.
- تمن - الآن هنا - وأشار بقلمه البعري جيذا الى النقطة المعطولة
دون ان يبحث عنها خصيصا.

تحدث عن الموقف يايجاز قولا، وكأنه يحسب الكلمات ذهنية،
وبفضل هذا الانجاز بالذات كانت اللوحة التي رسمها بلا رؤوس واضحة للغاية.
فرق جيشه الحسن تشكل على الجبهة قطاعا ملوك سيدون كيلومترا،
وفي في التسق الاول، وفي الايام الاخيرة لم تبق لدى الجيش، احتياطيات
في الواقع. ولكن القائد يعتقد بان هذه الاحتياطيات نفذت عند الامان
ايضا، فمع انهم كانوا في الايام الاخيرة يواصلون الهجوم ويحققون نجاحات
متفرقة، الا ان هجماتهم عموما صارت تسم، على حد تعبيره، «بمطابع
لا مبرر له». ويبدو انهم لا يمتلكون هنا على الاقل، في القطاع المقابل
جيشنا، احتياطيات كبيرة لتطوير النجاحات.

— اقول احتماليات كبيرة على سبيل العدو، وأنا اظن انه ليس
نعتمد فعندا في الواقع اية احتماليات.

وبعد ذلك انتقل الى ابعاد الهجوم الترتيب بعد ايام معدودات
وكيف يرتسم هذا الهجوم على قطاع جيشه، وهو الهجوم الذي ابلغ به
قادة الفرق ومنهم القائد السابق لفرقة سرييلين. وقال قائد الجيش:

— في هذا الهجوم لن يكون مركز الشغل عندنا. فاني اليسار
بيننا وبين جبارنا السابق، ظهر جيش جديد ذكره — وسيأخذ هذا
الجيش جزءا من قطاعنا وجزءا من قطاع جبارنا. وسوف تفرج فرقنا
التي في القطاع الايسر ونحولها الى احتمالي، ولذا ستكون انت في نقطة
الاتقاء مع الجبار الجديد الذي سيكون مركز الشغل في قطاعه. ثم اننا
نحن ايضا مكلفون بان فصل خلال الاسبوع الاول الى هنا — الصلابة
التي اثار اليها على المناورة كبيرة جدا، بلث مساحة المناورة — يدهي انت
ستتحرف على النتائج تمت وايل من تيران العدو، وليس بقلم الرصاص على
هذه المناورة — اضاف — ووضع القلم ولذا مكلفنا الى ذلك جهد كبير. انني
الآن لست غنيا، وما عدا اليوم هو... ذكر فعندا من المقاتلين القليلين
شجعنا الى درجة ادخعت حتى سرييلين الذي رأى ما رأى في حياته.
لاحظ القائد الظل الذي اذبح على وجهه سرييلين، ولكنه لم
يقط شيئا، فهو يعتقد بان سرييلين يجب ان يتصور بنفسه ان منع الالمان
من دخول موسكو لم يكن بالامر اليسير وان شئت كان غالبا.

— اننا حتى الآن تميش بفقير — كرر القائد بصيغة الجمع هذه
المرة — وبقدرنا بالامدادات — في مساء الله، فكنها امدادات ليست متينة،
لان مركز الشغل لن يتبع علينا. فرتك افضل قليلا من الفرق الاخرى.
فقبل ان يرسلوها الينا سنجعلها وزودها بالامدادات.

— رأيت فوجا من اقرباء في القرض العسكري في الساحة الخضراء —
قال سرييلين — متروكا — فرصة — صنعت القادة.

— اما انا فكنت انظر في ذلك النهار مثل من السماء — قال القائد
وانتقل الى الحديث عن احوال الفرقة.

فهو يعتبر التخطيط للشغل في قطاعها والذي اجراه قائدها السابق
رئيس اركانها على اساس الترتيب العام الذي يشمل الجيش كله تحفيظا
مقبولا، ولكنه يحتاج الى تدقيق. وقال القائد:

— الجنرال اورلوف قتل اثناء التديق محليا، توجه للتديق في النهار

الى مركز مراقبة إحدى الكتاب ولم يعد. يقال ان القذيفة اصابت به بالصدقة،
مع ان القاذب لا يكتب عليها ما اذا كانت تصيب بالصدقة ام خصيصا.
مساء غد سادو فادة الفرق للاجتماع. وقد بقي لديك اقل من يوم واحد
لكن التدقيقات الوقت ضيق، ووضك، كقائد جديد للفرقة، خرج. ولكنني
افضل تعيين قائد للفرقة عشية الهجوم، على استبداله في سياحه. في السابق
كنت اعتقد ان رئيس الاركان العقيد ريتشيف اهل لقيادة الفرقة من حيث
خبرته ومعارفه. وما يضيف له اننا مضطرون للتفكير مسبقا بين شيخي
ان نعمل محل الراسلين.

من سرييلين رأسه موافقا. فكيف يجوز القتال على نحو آخر؟!

— ولكنني عندما وصلت الى الفرقة وجدت رئيس الاركان مصغرا
بالصعوبة، فقد خدم مع قائد الفرقة عشرين عاما، فكيف لا يتألم؟ ولكنني
في الوقت ذاته لم اجده ذرة من الاستفلاية والثقة. بان الفرقة بقيت على
كامله وبان عليه ان يتقدها بالشكل الذي تطلبه عليه حكمته، والقيادة
متعبة بدون هذا الشعور، وخصوصا بعد حالة اورلوف. كنت اعرفه في
زمن ما في بداية الشباب، حيث خدمت في فرقة عنده. اجل، اخلف تعيين
ريتشيف... فاذا كان المرء يتخلى من ان تفعل الامور اسوأ مما كانت فالنتيجة
واضحة: من سيء الى اسوأ. وباختصاره فام اجده لاثنا لقيادة الفرقة — قال
قائد الجيش بصراحة وادرك سرييلين ان انقلابه الاول عنه ضارب، فهو انسان
شديد التكبيرة — متعب الى هناك وتقيم الامور بنفسك. فاذا ايد تقاليده
اورلوف. ولدى اورلوف تقاليده جيدة فعلا. فتشبهه انت في ذلك على ما
اعتقد، اما اذا تامل في حالة الحداثات فاقتريني وستنقل الى فرقة اخرى، وتقتل
رئيس اركان تلك الفرقة لك... اما البغض فهو انسان شريف وشجاع
يجب الخط الامامي. وليس يعني ان اقول عنه اكثر من ذلك. فانا قليل
شعرة به. قبله كان هناك بعض سيده بل واستطاع التبول، رائع، الا ان
الفرقة غير منضبطة. فقد اصيب بجراح قبل مقتل اورلوف بامسوع.
وبوسعك ان تحصل على المزيد من التفاصيل بهذا الخصوص من رئيس
القبة السياسية. فخرج عليه. عضو المجلس العسكري توجه الى الوحدات،
اما من موجود هنا وقد طلب ان تأتي اليه. هل تشرب قححا من الشاي
في البقرة؟

شكره سرييلين. فقد شعر بالبرد في الطريق وكان راغبا في احتساء
قحح صغير من الفودكا. الا ان الشاي كان سيئا جدا. فقل مائة

قريب السير المتعطى ببساط في القوفة المجاورة قدسان من الشاي الموزك الذي يصعد منه البخار وضمن فيه بسكويت مطلى بنشغلة.

— بالنسبة فأنا لا أنكر أنك عندما ذهبتا في الأكاديمية— قال القائد وكأنه يريد لهذه الكلمات أن تملأ هذا فاصلا بين الحديث الرسمي والحديث اللفظي.

— وأنا أيضا— قال مرييلين.

فقد شعر مرييلين الآن— عندما دار الحديث عن الماضي— بأنهم على قدم المساواة.

— وبعد ذلك، إذا اعتمدنا على ما في صحيفة الأعمال، حدث إلى الأكاديمية وعملت في قسم التكتيك، اليس كذلك؟

— نعم، حتى عام ١٩٢٧.

— يعني أننا كنا نشترك في جديد. ففي عام ١٩٢٦ دعوتني أنا أيضا للتدريس في الأكاديمية، ولكنني ضمنت حاجياتي فجأة وسافرت بعد يوم واحد إلى أمباليا. ففي حينئذ، كما يقال، تصادف مفاجآت... — وبعد أمباليا؟

— عملت في الأركان العامة. وعشية العرب قدر لي أن ألتحق بالقتيلق الآلي.

عندما ذكر القتيلق الآلي وتذكر الحصار على ما يبدو سألت من مرييلين عن كيفية خروجه من الحصار قرب لينيا. فقال مرييلين:

— تكبدت خسائر جسيمة. أكثر من النصف.

— وأنا أيضا تكبدت بهذا القدر تقريبا... قال قائد الجيش وطلعت لأول مرة خلال هذا اللقاء ليس إلى الامام، بل إلى الجانب— فالحصار شيء مرير، أتى أنذكروه بحس ولا اريد أن أتذكرك من جديد. فهناك تناقض كبير. من جهة التحق بك أس شخص متطوع وهو يسير معك عبر كل المخاطر، عبر الفاشيين إلى موافقتنا. ومن جهة أخرى فإنك تقدمه غذا ريبا بالرصاص امام الجنود حالما يرفض اطاعة الأوامر. ولا يمكنك أن تفعل بشكل آخر، فليس لك الحق في ذلك، إذ أن عدم تنفيذ الأوامر مرتين أو ثلاثا في ظروف الحصار يمكن أن يؤدي إلى انهيار كل شيء. ومع أن الناس في اغليبيتهم جاءوا اليك بانفسهم، جاءوا اليك وكان بوسعهم أن ينفروا. ولكن طالما جاءوا اليك فسيروا مغول الأوامر. اليس كذلك؟

— بالطبع! — قال مرييلين.

— فيما بعد انتهيت ريثق... خرج معي من الحصار— صمت القائد لحظة قصيرة جدا قبل تلفظ كلمة «وثيق»— باني تجاوزت السلطة الموكلة لي. ربما كنت قاسيا حقا عندما كنت مسررا على تنفيذ الأوامر دون قيد أو شرط. ربما. أنا لا أجادل في ذلك. ولكن لفتنسانل: لماذا لا تنفذ الأمر الأوامر؟ في اغلب الاحيان لانه يخاف الموت بنفية تلك الأوامر. ونفسانل

من جديد: كيف نلذل هذا الخوف؟ بشيء أقوى من الخوف من الموت. فبا هذا الشيء؟ أنه يتباين في مختلف الملايمات: الايمان بالنصر، الشعور بالكرامة الشخصية، الخوف من الظهور بمظهر الجبان امام الرفاق، واسياحا مجرد الخوف من الاعدام ريبا بالرصاص. مما يؤسف له ان ذلك هو الحقيقة. اما ذلك الذي كتب فيما بعد يتهنى بالقوة وتجاوز السلطة وبغيره فقد خرج من الحصار نفيا لا يمكن كتابة شيء عنه، لا صالحا ولا طالحا. الا ان الذي اخرج الناس من الحصار ليس هو، بل أنا. ألم تواجهك هذه المشكلة؟— سألت قائد الجيش وهو يتطلع في عيني مرييلين.

هز مرييلين رأسه بالاجاب صامتا.

— حسنا...— احسني القائد آخر جرعة من الشاي ولهف— انتهى لك النجاح في الهجوم! فلربما تشقى غلظنا في آخر الأمر، نحن المحاصرين فندام، فطاردتهم إلى الجحيم!— وتفرج عن كل شيء وكيل الضحايا، حتى اولئك الذين اضطروا إلى انفسهم باقربنا بسبب الوضع آنذاك. عرج على الشعبة السياسية ثم ارتحل إلى قرقك. وسيدبح معك مراقبي إلى مقر أركان القوة.

مدير الشعبة السياسية يعيش في المنزل الأربع من هنا. فتح مرييلين الباب وسأل: «هل تسبون؟». وقرح عندما رأى ان الشخص الذي فحش للقاء من وراء الطاولة هو مغرض الفوج مكسيوف.

— مرحبا يا مكسيوف، ايها الانسان العرج! — قال مرييلين وهو الطائر وهو واقف وسط القرفة يهز يد مكسيوف الياسم.

— طالما جئت فاجلس معنا خمس دقائق على الأقل. — قال مكسيوف وهو يسحب مرييلين من يده— سأعرفك الآن على الرفاق.

— حسنا، ولكن لخمس دقائق حقا. — قال مرييلين وقد نقر على ساعته— ذلك الذي هو اعلى منك امرئي بالترجبة إلى القرفة دون ابطاء.

— استمعك أم أنك مستعجل بنفسك!— سألت مكسيوف ابسا.

— استمعلني هو وأنا مستعجل ايضا.

تعرف سرييلين على الرجال الأربعة الجالسين عند مكسيوف والذين نهضوا عندما ظهر في الغرفة، ثم جلس إلى الطاولة دون أن يطلع مظهره، وهو يشير بذلك إلى أنه سيتصرف بعد خمس دقائق رغم سروره للقاء مكسيوف. احد الأشخاص الأربعة الذين عرف مكسيوف سرييلين عليهم عسكري، عقيد، أما الثلاثة الباقون فهم مدنيون، ولكنهم يرتدون بزات عسكرية: ففس البيزبات والقمصلات ذات السور التي يستخدمها الضباط ولكن بدون شارات ورتب على الأكتاف. اثنان من المدنيين هما سكرتير اللجنة الحزبية المحلية للمناحية التي يحتلها الألمان والواقعة في الإمام وسكرتير اللجنة الحزبية لمدينة صغيرة ينضوي موبكو تقع وراء الجيش مباشرة. وقيل ساعة من سرييلين بهذه المدينة. والبلدي الثالث هو عجزو شوه خدش عتيق عنده، وهو مدير معمل الموبيليا. وأوضح مكسيوف قائلا:

— بتكليف من المجلس العسكري نقرر أنا وأمر الوفرة باستحصان اشياء اضافية من الرفاق الذين هم يمحائنا.

— انظروا إلى هذا المحاي!— قال سكرتير اللجنة الحزبية في المدينة.

فاجاب مكسيوف مازحا:

— الجاني وليس المحامي.

— الحماة رابطين في الخنادة—لم يتنازل له السكرتير—أما انت فخلو.

بأذناهم. لا داعي للاستحصان هنا، نحن نقدم بأنفسنا.

— يدر انك رجل شحيح — قال آمر الوفرة، فاضاف مكسيوف

فاسحا:

— نحن نجس الآلاته الآن من مؤسسته الصناعيتين الضخمتين، من معمل

التيطة ومعمل الموبيليا السابق الذي تحول إلى معمل للأسكي. فهناك يخطرون

لنا ثياب التحويه ويصنعون الاسكي وزجاجات الرشاشات. وقد طلبنا اليوم كمية

اضافية ودفوعنا البنا الميزية من الاقتاع.

— ذلك من هذه الثروة— لوح سكرتير لجنة المدينة بيده—كيف

لا نتجمل من هذا الكلام! في معمل التيطة النساء لا يعرفن طعم التوم منذ ليل

بعيدة يدرن ثقيباتنك. الأفضل ان تقول بانكم انحطاثم الحساب وظلن

الآن ثلثاثة زوج اضافية من الاسكي!

— لا اجادل في ذلك—أوبأ مكسيوف إلى المعجز الشوه الخد—ولكن

العرق يتصبب من كل المسامات قبل ان تفنكن من اقاعه. وجيدا لو كانت

الاسكي جيدة!

— لا يمكن صنع اسكي جيدة من خشب لم يجف المدة المطلوبة، ناهيك عن الخشب الطري. قال المعجز بدهوء. أما الكمية خسوف ثسلها. — وانثت إلى سكرتير لجنة المدينة وهز رأسه بالإيجاب—حسب تقديراتي سنسلمها. — من سرييلين لأنه وجد نفسه للحظة في معمان الشؤون الاقتصادية للجيش من احد جوانبها الهامة أيضا وإلى تذكره بان الهجوم قريب. ولكن الوقت يمر بسرعة.

— انتهى لكم كل خير، ايها الرفاق!

— سارافنك إلى السياره. قال مكسيوف ونهض.

شد سرييلين على ايدي الحاضرين بالاعتاب، وكان آخرهم هو مقدر نميل الاسكي الذي أمسك بيد سرييلين قليلا وقال:

— كنت قد سمعت عنك، ايها الرفيق الجنرال.

— متى؟

— عندما سرنا جنرالات الحرس الأبيض. ايتسم المدير فتحول الخدش

البسيط على عنده إلى ما يشبه الفارزة بسبب هذه الإهتمامة. — وصلت اليكم مع

اعدادات عمال موبكو لضرب قوات دينيكيين! وكنت انت أفتاك مرابطا جنوبي

ناقليا في محافظة بريانسك.

— فعلا، كنت مرابطا هناك—قال سرييلين—هل يعني ذلك الآن انه

لا داعي ان اتلق بخصوس الاسكي لفرقي؟

— بالطبع. اعتبرها قد وصلت.

— ها قد اليقينا. أنا مسرور، مسرور جدا...—قال مكسيوف وهو

يخرج مع سرييلين إلى شارع القوية المسمور بنور القمر. الشارع

يكاد يكون وادعا مظلمنا أولا الحفرة الجديدة التي حطفتها قبله وتطلها

نحن خفيفة من الثلج.

— وأنا مسرور أيضا.

— انش—كرر مكسيوف—مسرور إلى درجة تمنعني، والله، أنقلب

العودة للمصل مقوضا للحفرة هناك. لا سيما وانني قتلت رجسرت فيها وكنت

اعرف قائمعا السابق واحبه، وقد حلت الشراب عليه بيدي اس. انش متألم

لأروليف اشد الألم! ولكن طالما حدث ذلك فانا مسرور لأنك انت بالذات

تسلم هذه الثروة. لو كان الامر بيدي، وأقول ذلك جادا، لعلمت معك

مفضلاً، ولكن المصيبة أنهم طالما منحوني ثقة، فلن يبيعوني. إلى أوطأ منها إلا إذا قصرت في شيء.

— قسني...
— حسناً! قال مكسيموف بجذبة جعلت سرييلين يرتسم...
— سافطرك. ولكن حدثني الآن عن المفروض الحالي!

— ألقه...
— انني أعرف لقيه، بيرنياكوف. كيف هو؟ حدثني عنه شيئاً.
— وصل إلى هنا قبل أقل من أسبوع. كان مقبوضاً ليلقي في القرم. اللقيط لم يتقبل آيات البشارة في تشوفاغه كما يقال، ولذا علفوا ذئباً هذا البند المسكين وخلعوا من يافته الشارة المنيعة وعلفوا عليها الشارة المستعيلة. ولا أدري بسبب أية خطايا؟ بسبب خطاياها هو أو خطايا غيره... هل من أسئلة أخرى؟ — انصاف، مكسيموف بهجة احتفظ فيها البند بالهول.

— الأسئلة كثيرة ولكن وقتك وقصص قليل...
— وقتاً قريباً السيارة وما كانا يريدان الإفراق، فقال مكسيموف:

— اننا نعد كتاباً الاسكي. رآمل باندك ستطلع القيمة الجبلية والمصطف أيضاً. تعدهم انفاضة وانت طويل القامة بطول شخص ونصف. ثم ان القيمة الشوية المادية ومصطف القرد أدفاً.

— ساعدهما! قال سرييلين. — كل الاحتياطات موجودة في السيارة. حتى جزيرة الكلب. لا تشغل بالك! قل! أكون هذا للثأفة، إذ ان ذلك لا يعمل ضمن رقبائي. وخصوصاً الآن.

— وهل دخل ضمن رقبائك في زمن ما؟
— لا أدري... في الأيام الأخيرة طامعت دوستيفسكي من جديد في المستنق. فان راسكولنيكوف بطل والجريمة والقتاب، إذا تذكره يتحدث من انسان مستعد القيام بكل شيء من أجل أن يعيش، انه مستعد للوقوف طوال الحياة على ذراع واحد من الأرض، في الطفلة، صامتا وحيدا بدون بشر، على أن يعيش فقط، ولا يموت! اما أنا فلمت موافقا على ذلك. انني لا أرضى بالحياة الا بشروط معينة.

— أية شروط؟
— غروفي تلتخص في انقراضه على الانسان! فاية حياة يمكن أن تكون بدون ذلك؟ أية حياة في الظلام والظوف والصمت على ذراع واحد من الأرض؟ انني لا أوافق على حياة كهذه! وانني أيضاً رديماً لا توافق عليها.

واستقل سيارته بعد أن شئ على يد مكسيموف بقوة.

ولكن يصل إلى مقر أركان القوية. ثمين عليه أن يعود من الطريق الريفي إلى الطريق العام واجتياز سبعة كيلومترات تقريبا عليه والاستدارة من جديد إلى طريق ريفي آخر. وصل سرييلين إلى الطريق العام بسرعة نسبياً، ولكن سيارته والحييب تلكأت هناك حالاً بامت هذا الطريق تقريباً. فعلى جانبي الطريق تسير قوات المشاة متوجهة إلى الجبهة، وفي وسط الطريق توقف فوج مدفعية الهوزور المنقول على الآليات واستد على مسافة لا يعلمها الا الله. وفي الامام يرتفع الطريق إلى الهضاب ويبدو ان سيارات تلكأت هناك فئاً هذا الازدحام. الصف السائق على عدة شاحنات وسار على الجانب غير البعد من الطريق ففاصت «الحييب» في الثلج ونزل السائق بعموله ثم صعد ودارت عجلات السيارة بركة على القفاسي ثم خرجت إلى عرض الشارع، وتجاوزت شاحنة أخرى وتوقفت دون أن يجازف السائق بالعكس في التلج من جديد.

نزل مراقب قائلة الجيش من سيارة «الحييب» وركض إلى الامام، إلى مقدمة الرتل المتوقف. فقال السائق بركة:

— هذا المراقب سيحل الطريق في الحال!
خاب ذلك التكهون. فقد مرت عشرين دقيقة أخرى، وكادت المشاة تسير باستمرار ممتدة أثناء السير على شكل حلقة تتجاوز السيارات على جانبي الطريق وعلى الحقل، بينما غلت السيارات واقفة.

نزل سرييلين من سيارته وراح يمشي جيتاً وهاهنا دون أن يدهي الكثير من قتاد الصبر. راح يمشي والتجج يصير تحت جريته اللبادية أذى ارتداها في الطريق من جديد بعد أن واجه القيادة مرتدياً الجبلية. فهو سيصل إلى القرية في الليل على أية حال. وكان ينوي في الليل أيضاً زيارة الأفواج دون أن ينام، ولذا لم يفتل للتأخر في الطريق اذاً قصيراً. اما مشهد القوات والآليات المتوجهة إلى الجبهة فقد ذكره مرة أخرى بالهجوم.

انتابه شعور بالفرح والقلق معاً. فهو، اذا ارتدا الفقة، لم يشد فقرة منه زمن السلم. والخروج من المعاصر مع يسع مئات من السقاتين تجربة وحيدة الجانب رغم قساوتها. ولذا فقد قال الآن وهو يفكر بالهجوم المرتقب. وهذه القوات جديدة تماماً على ما يبدو. — فكر سرييلين وهو ينظر إلى المشاة على الجانب الآخر من الطريق غير السيارات وعربات الهوزور. ويبدو انها لم تقابل ايداً. وربما لم تقابل في السابق اغلبية ضباطها، في حين ان اليوم الاول من الحرب يوم عسير على أية حال... .

كان سربيلين التارك في هذه الأفكار يجوب الطريق حيث ودهابا عندما
ظاهر اسمه فجأة المرافق اللاهث من الركض .

— هذا، أيها الرقيب الجنرال! وأشار بيده إلى ميجر قارو، القائمة اصطعبه
به— هو المسؤول عن سير الإرتال في هذا القطاع. أوضحت له أنك تستظر،
أما هو فلا يتخذ الإجراءات اللازمة! واضطربت إلى دعوتك إليك!
عدل سربيلين قامت وتطلع إلى الميجر الوقت أمامه .

وقع الميجر يده بالتيه وأفاد بصوت مرح أبع أنه الميجر إرتشييف قائد
فرج في هذه الفرقة المتحركة الآن .

كان الميجر تجسيدا للصحة والعافية رغم صوته الإيج ورتيقه الملهفة
يضيء حتى الظن. أنه رجل ضخم يمكنين مرابين ووجه ثومته الشمس
يسمره مرثية حتى في ضوء القمر الشاحب .

ويبدو أن المرافق كان يأمل بأن الميجر يحصل على توبيخ في الحال،
إلا أن سربيلين بدأ من بداية أخرى:

— التهاب اللوزتين؟

— بالمضيط. التهاب اللوزتين!— أجاب الميجر بنفس الصوت المرح الإيج .

— هل سينمر هذا الإزدحام طويلا؟

— في الحال، أيها الرقيب الجنرال. وصل المشاة وسوف نحمل على
الأيدي شسبي أو ست شاشات إلى الهضبة ونعدد فيها بعد مسافات بين السيارات
الباقية وسنصفد بنفسها بسرعة كبيرة. بعد عشر دقائق سنصفى الإزدحام.
وقد أوضحت ذلك للالزام الأول—وأوبأ إلى المرافق بشكل كشف عن تدمره
من الهاتع عن الشؤون الضرورية.

— حسنا، استطيك عشر دقائق. —تطلع سربيلين إلى ساعته— لا أكثر.
ألم تعاربوا بعد؟

— ماذا قصد، أيها الرقيب الجنرال؟ أنا شخصيا؟

— أقصد فوريك طالما أنك تقود فوجا، وأقصد فرقك...

— أغلبية الجنود لم تعارب بعد، أما الفيضات فشاركوا في معركة خالخين—
قول، طيبى إن القتال... ربما أراد أن يوضح بأن القتال في خالخين—
قول لم يكن مثل ما في هذه الحرب. إلا أن سربيلين قطع:

— إن أخذ من فورك. اتنى لكم مضاعفة الإنجاد الكفاحية لفوقكم.
— شكرا، أيها الرقيب الجنرال! أنا ذاهب لأبذل الإزدحام. —مد
الميجر يده من تحت ردن مغطه وتطلع إلى الساعة وركض على امتداد الرتل.

وصل سربيلين إلى مقر أركان. الفرقة في حوالى الساعة ليلا. لم يكن
مقوس الفرقة موجودا. فقد ذهب ظهرا إلى أحد الأفواج، إلا أن رئيس الأركان
لم يأو إلى القرائش، فقد كان يستظر وصول القائد الجديد.

وبنا على طلب سربيلين شرعا بمراجعة خطة القتال الموضوعة والتي
اعتبرها سربيلين معقولة منذ النظرة الأولى حتى بدون مطابقتها محليا بالأماكن والمواقع.
رئيس الأركان، وهو عقيد يدق قصبير القائمة متعبا وحزيناً، قد نهيا
مسيقاً على ما يبدو، لفكرة أنه لن يعطى ولا يمكن أن يعطى ياغبناج
القائد الجديد للفرقة. كان بعد كل شتر كلمات، يصوته الهادى المتأثرين،
وبعدا أنسا لا ينوى إعادة اهتمام لما إذا كان ما يقوله يعجب محدة
أم لا، يذكر قائد الفرقة الراحل: «أقترح من الجنرال أورلوف»، «بمواصفات
الجنرال أورلوف»، «بمسايات الجنرال أورلوف»... حتى مل سربيلين من
ذلك أعيرا فقاطعه قائلا:

— اسمع، أيها العقيد رتشييف! هل شاركت شخصيا في التخطيط للقتال؟
من الذى وضع الخطة؟ أنت أم غيرك؟ اتنى أعرف بأن ذلك من واجب رئيس
الأركان. واعتقد بأننا درسنا في نفس الدوام. وإذا أم يكن الأمر كذلك
فلنوضح الأمور منذ البداية!

وقع رتشييف بصره إلى سربيلين بيده وكأنه غير راغب في ذلك وقال
بانه: هو بالطبع، وضع كل الحسابات التفصيلية.

— لم أكن أشك ذرة في ذلك. ولكن لماذا تذكر والجنرال أورلوف؟
طوال الوقت بيننا وبينه وبغير مناسبة؟ قال سربيلين دون أن ينوى التوقف في
منتصف الطريق—لقد سمعت أنه كان لديكم قبل قائد ممتاز. سمعت ذلك
في الجبهة وفي البيتي، وأنا مسرور لأنى جئت إلى فرقة لها تقاليدها. ولكنى
لن أسمح بذكرى طوال الوقت بقاتلها السابق. لأننى إذا قائدها الآن، وهذا
شئ غير قابل للتفاس لا من قبلك ولا من قبل غيرك، لا مباشرة ولا بصوت
غير مباشرة! واتصلك للمستقبل: لا تحاول أن تدرس في ذهنى أن الجنرال أورلوف
كان قائدا جيدا للفرقة. قانا ساجد بنفسى الشكل والبلابيات المناسبة لأذكر
ما أتا مدني به، فكذلك للفرقة، لثقافتها السابق ولك كرئيس للأركان، مع
أننا لم نتمرد على استلح الأحياء... أغبرنى بصراحة ما هو رأيك بهذا
الشخص؟—أنا سربيلين بصورة مفاجئة تماما لمجدده بعد صمت قصير.

كان منذ البداية يزيد المتألم مع هذا الإنسان، فبادر إلى ذكر ما
شمر به خلال اللقاء، وهو يريد الآن أن يمنحه القصة لكى يعرب، بدوره،

عما في نفسه اذا شاء. فاذا شاء ذلك يعنى انهما سيمولان، واذا تحقق متوليا فذلك اسوأ.

- ما الذى استطع ان اقول لك بهذا الخصوص، ابها الرفيق الجنرال؟-
صمت ريتشيف. ثم تطلع الى سرييلين من جديد بنظرة من عينيه المبيتين الكئيبتين. - بعد عشرين عاما من الخدمة لا استطع بل ولا اريد ان افسح ميشا اورلوف، لا تلتنى لاني اسميه بصيغة التصغير والتعجب، فقد توفى ولم تدم هناك رسيات تربطنى به. واقول بصراحة...

بصراحة فقط!

- ... اقول بصراحة، لا سيما وانت تدعو الى الصراحة، بالنسبة لى شخصيا فانك لن تموض عن اورلوف.

يستعاون اذن؟ - فكر سرييلين ثم قال:

- ارى انك تحب قائد الفرقة السابق، والفرقة؟

- اريد ان اتحدث عن الفرقة بالذات. اننى احب الفرقة. وما اريدك منك - اذا كان يحق لى ان اريد شيئا - هو ان تحمل محل قائدها السابق باكير فقد ممكن من النجاح. اما شخصى انا فليس له أهمية.

- ذلك ما لا اوافقك عليه! غابت رئيس الاركان - لم يتحمل سرييلين فتأطبه.

- ليس له أهمية - كرر ريتشيف بعناد. ولكنى اريد ان اقول لك انه لدينا فى الفرقة الآن، حتى بعد كل الحوادث، اكثر من ثلاثين ضابطا تخرجوا من مدرسة المشاة فى اوسكس التى خدم فيها اورلوف عشر سنوات قبل ان يأتى الى فرقتنا. وهم طليعه. وتلك نواة لا بد من ان تؤخذ بعين الاعتبار. فلا يجوز، والحال هذه، اللعب بالتقائيد. ربما لم اكن على ذكاه كبير فى البداية عندما صرت اكرز: «اورلوف، اورلوف!» واعتبرف. يالى اردت لك ان تسمع بذلك ولكنى لا اهتم، فانا اقصد صيانة مصالح الفرقة.

- انا متفق معك.

- ذلك عن جوفه القضية. فان ريتشيف والى على سرييلين من جديد نظرة من عينيه الكئيبتين اللتين قارعهما الغمور الآن فصارتا اكثر حزنا. اما بخصوصي فيصعب على تحمل كرامة وفاته. فلك هي القضية. اننى منسحق لها.

- لنفترض ان الحق منك. ولكن كيف متعارب؟

- متعارب بالبلح. فالإيجابية الحربية لا تنسى، وانا لا اعنى الموت اكثر مما يشاء الآخرون.

- فلنذهب الى الافواج - اقترح عليه سرييلين.
فقال ريتشيف:

- هل هناك ضرورة الآن؟ أليس الافضل ان نذهب فى الصباح اليها كره؟

- الوقت طويل حتى الفجر، لدينا خمس ساعات. وطالما التجو متقام فلنذهب الى الخط الامامى فى الاماكن التى يصعب الوصول اليها فى النهار. اما فى الصباح الباكر فنسذهب الى مراكز المراقبة. يقال ان الجنرال اورلوف قتل قرب إحدى هذه المراكز. أليس كذلك؟ فى أى فوج؟

- فى فوج باغلوك. - اجاب ريتشيف.

- والى أى فوج توجه المفوض؟

- الى هذا الفوج بالذات، الى باغلوك.

- حسنا، سيبدأ من فوج باغلوك - قال سرييلين.

فرقة الشرق الأقصى الذين اقتحموا مواقع العدو على عمق خمسة عشر كيلومترا تقريبا إلى اليسار، ورجال الدبابات بقيادة كليفيش. ومنذ السماء قطع رجال الدبابات على الألمان طريق التراجع فأزعمهم إلى على القتال في ظروف الضيق وإذا الانسحاب فورا وترك كل ما يصعب نقله وتبركه في الحال. وقالت المدينة وضواحيها غامرة بالآليات الألمانية التي تركها العدو، وهي آليات مؤجرة فرقة ميكانيكية.

الفصل الثامن عشر

ألقى كليفيش عينيه في انتظار أعداد الجبى. في البداية خيل إليه أنه سيفقد قورا وهو جالس على المصطبة ويده البريئة مستقرة على حافة الطاولة. وليس في ذلك ما يشير الاستغراب أبدا. فخلال شهر كان أواؤه فيه ينقل من مكان لآخر بنية سد هذه الفجوة تارة وتلك تارة أخرى. لم يتم كليفيش إلا نوما متقطعا لساعتين أو ثلاثا، وفي الأيام الأخيرة ثم يتم ولا مرة واحدة نوما متواصلا لأكثر من ساعة. كانت اللحظة مناسبة للظوم، إلا أن الناس راوده فقط دون أن يستولي عليه. فقد كان متأثرا جدا بما حدث، وبهما كانت ممانته الظاهرية شديدة في عودته على سكة المسكوى فقد بدأ الهجوم وانتدح أن الإنسان يفعل كثيرا ليس للخصية ومعهما. فالفجوة، إذا كانت عظيمة، يصعب تحملها أبدا! وهي تستهلك كل قوى الإنسان حتى يتعب منها.

يبدو أن هؤلاء الشبان الذين وصلوا من الشرق الأقصى ودخلوا لأول مرة يوم أمس في معركة مع الألمان وأزاحهم من التركة لبسافة خمسة عشر كيلومترا قد شعروا دفعة واحدة بسعادة يصدمهم عليها أي عسكري آخر. ومع ذلك لم يتمكنوا من أن يدركوا حتى النهاية ما شعر به كليفيش. فلا يمكن أن يفهم كليفيش حتى النهاية، ويفهم مدى تشفي القاسى خلال ساعات الست والثلاثين منذ لحظة اختراقه خط دفاع الألمان وتوجهه لسك مفرطهم في فجر يوم أمس وحتى اللحظة التي جاء فيها إلى هنا، إلى الكلية الصحية، ويمارئة تتيب الطريق الخاص بالآليات الألمانية المتروكة وسط أوارق وثائق الأركان الألمانية المتطافرة في الهواء، لا يفهم إلا الإنسان الذي ابتغى أمانة الانسحاب والحصار وسب آخر فطرات بنزله على آخر بداية له وطلب وراء خط ودائيا من اللذان الأسرى الذي يمتصو القواد وعلق رشاشه على صدره وزاح يجوب اللابات اسابيع طويلة على مقربة من الطرق التي هدرت عليها الدبابات الألمانية متوجهة نحو الشرق.

في فجر الأسر، بعد اختراق خط الدفاع حيث تقرر عبور المعركة

جلس كليفيش في دجعة العمليات ينتظر حتى يبعوا الجبى. فقبل يوم أصيب بجرح طفيف، كما يتقد، حيث اختزنت مصاصة يده في أعلى المصمم. ولكن الألم اشتد عليه في الليل فتوجه إلى الكلية الصحية لفرقة المشاة المجاورة. واتضح أن الجرح أمورا مما كان يتصور. فقد فصل العظم. ومع أنه ما كان ينوى الخروج من صف البحارين بسبب هذا الجرح، إلا أنه اضطر إلى الموافقة على التجسس. جلس موكدا فمصاته وودتها ملتوف حتى الكنت، وراح يطلع إلى الخارج من أبنافذة المصطبة الزجاج وهو يحس بأن الجروح تظهر على جلد يده. ويرى من هنا القار المقابلة وزجاجها مصطبة أيضا، ومطلع باص المائي أسود تابع فلازكان يقف عند مدخل الكلية الصحية.

هجومنا في ضواحي موكو يجرى منذ يومين على طول الجبهة. رشلت الكلية الصحية مبنى أحد المستشفيات في مدينة تمحررت قوا، عند الفجر.

وتذكر كليفيش بانتصان من الكلية الصحية: ولله وصلت بسرعة!، أما سرية الصحية فقد غاصت في الثلج في مكان ما ليلة البارحة، واضطر للذهاب إلى جيرانه من أجل التجسس.

المدينة صغيرة. ولو سمع السر اسمها في زمن الصدام لربما سأله: أين تقع؟ في ضواحي موكو أم على القوقلا... إلا أن اسمها هو كاسمويش الأنا في بداية ديسمبر ١٩٤١. فهي مدينة اختزنت من المحتلين الألمان والناس لم يتصوروا على ذلك بعد.

قام بتعريضها بعد معركة ليلية قصيرة فوجان تابان لفرقة المشاة العادية والثلاثين. والفصل في نجاح الفوجين يعود بالأساس إلى جيرانهما: أفراد

وبدا الشوق على سدائها العبدى يخفت، أصيب برج دبابية كليويشيش يقذفه، خرج كليويشيش الاصم ورأى أن دبابته سوداء عن آخرها، وقد سقط كل ما نصب عليها قبيل المعركة: الأدوات وقطع التيار والسلاسل. ولم يكن هناك من جميع الجهات غير المدينة المسود بسبب الدخان. وعندما كان يتفحص دبابته أطلق عليه النار جنتى المائى من أحد الطلوح. قتل وقتل الألمان رعدوا كليويشيش كخافض من دبابته من طراز لك. فـ. الى دبابية أخرى من طراز ٣٤٥ وواصل سيره.

فى الضحى اصطدم مع عدة دبابات أخرى يطالبور مدعى منصعب، فتسكن أن يسد الطريق من الجانبين يابى الاطلاقات الموقفة فى مقدمته ومؤخرته. فى البداية تفرق الألمان، ولكنهم فيما بعد، والحق يقال، عادوا إلى رتبعهم ونصبوا عدة مدافع وحلولاء بتفعية من ثيرانها، أن يقتربوا حتى من الدبابات. ودعت العاجبة إلى القيام بكل الأعمال دفعة واحدة: الأجهزة على الطلوح وإطلاق النار على المدافع العاملة والتزام الدفاع. الرزية من الدبابات صبية. ويمكن أن تقترب الألمان منها ويحرقوها. فامر كليويشيش جنود الأبراج أن يتزلوا مع رشاشاتهم ويتخذوا مواقع الدفاع الدائرية بين الدبابات. وفى آخر المطاف أيد الألمان المهاجمون وتم تدبير مدافعهم وأحراق سياراتهم، وعندما أجري الحجاب على عجل فيما بعد انتصح أن فوجا مدفعا كاملا قد أيد. ولا يتفكر كليويشيش أنه شهد مثل ذلك منذ بداية الحرب. وعنه حلول النظام اصطدم يطالبور من السيارات الألمانية. كانت ترحف فى العاصفة العلية مفتوحة التلوار. فر السواق فى الغابة تاركين سياراتهم بمساحها المتفجعة ومحركاتها المدفوعة؛ أما جنود فرقة الألبس فقد تناثروا من دجون السيارات على الثلج ودعوا أيديهم مستسلمين. آنذاك، فى يونيو ما كانوا حتى ليفكروا بأن ذلك يمكن أن يحدث فى زمن ماء، أما الآن، فى ديسمبر، فقد اضطروا إلى تلقى الدرس. وفى الصباح استولى على شبكة من التصفينات فى أعنف أعماق الدفاع الإلآتى ورأى بام العين كيف نهض الشاة الألمان من الخنادق وهربوا هربا بالقليل، أمام دباباتنا. شارك فى هذا الهجوم شخصيا ورأى الفاشيين يهرون على بعد مائتى متر وعلى بعد عشرين مترا أمام دبابته، فأخذ يحمص ظهورهم بالرشاش، ورأى ويهرون المتلفعة إلى الوراء وهم يركضون...

كانت ذاكرته خلال الحرب مغلقة بعدد هائل من الذكريات القليلة ربما يكفى كل منها طول حياة كاملة لشخص آخر لم يمان مثل ما عذاف

هو. صحيح أن بعض تلك الذكريات جعل حتى يذته هو يقشعر، فهل يمكن للإنسان أن يتفكر بفترة قصيرة دون رجال الدبابات، حيث يتعين بعد المعركة إخراج كل ما يبقى هناك داخل الدبابات؟ وهل يوسع الكلمات أن تمر عن شكل ما يبقى هناك؟! وإذا كانت الدبابات قد ظلت صالحة للاستعمال يجرى عليها من الداخل وتطهها قبل أن يستغلها طاقم جديد ويتوجه إلى المعركة... يقال أن مثل هذه الأمور تقولك الأرواح. ذلك شيء صحيح طبيعا ولكنها إذا تقولك الأرواح تجرحها فى الوقت ذاته. فيرش الإنسان ويواصل القتال بروح متفجرة وجريئة فى وقت ما. وتلكها صفحات من قطعة نقد واحدة، لا مفر من ذلك باية حال. وحتى. ذكريات صباح اليوم، حيث يركض الألمان أمام الدبابات ويتلقون إلى الوراء ليروا ما إذا كان الموت تريبا أو بعيدا خلف ظهورهم، حتى هذه الذكريات تجرح الروح عندما تقولها. ذلك لأن هذا الوجه البشرى الذى يبرز للحظة أمام الدبابات ويصيح بصراح صامت: «لا تفتلنى!». هنا غائلا!... ثم يتفتلى باجح البشر أما يظل مع ذلك متعلبا فى المذاكرة لا يفارقها. وقد غل متعلبا فى المذاكرة وغدا جزأ من مشاعر أخصر التى عاشها كليويشيش بكل جوارحه. يغيل للإنسان أحيانا أن الحرب لا تترك فيه أثرا لا تسمى، ولكنه إذا كان إنسانا حقا فإن ذلك يحيل لا أكثر...

ولذلك السبب، فى أغلب النش، تطلعت الطبيعة العسكرية الشاة ذات الحمى الطيب وغير الجبل إلى وجه كليويشيش، وهى تفتلى من يدي الصوفية الجساد الجيسى الجاجز، وأدانت يده بعض مائه فجأة بتألمة وبغير مناسبة: - أين عائلتك، أيها الزريق القمء؟ هل هى بيءة؟ - بعيدة. - ارتش كليويشيش من المفاجأة واحتسى بأول كلمة وردت على لسانه من هذا الفضل غير المرغوب فيه فى قواده الذى لم تفتهم جراحه. ولكن لا يفكر بما لا يريد التفكير به الآن أحد يفكر بشئ آخر، كيف حال حائق دبابته الجديد الذى أشده معه إلى الكنية الصعية ليضموا رأسه المتفتح بعد الحروق.

- لا يمكن التفريق بين صرير الشاج وصرير الزجاج - قال كليويشيش وهو فادر الكنية الصعية ويسبق جفونه من الضوء ويدوس بجزمته البادية على الزجاج المحطم الذى يعطى الشارع كله.

شرح يرمز معطفه القصير بردن واحد وإزارا مشددة فوق يده المنسدة. وكان ينتظر فى الشوارع الكابتين الغافوتين الذى صار من جديد، بعد إعادة

بهذه الميابة البيضاء عاد سرباين قبل خمس دقائق الى مقر الاركان .
أخذ يجرّب القوة الوامدة المزينة بنباتات الفيكوس جيئة وزهايا فتشترقش أذياك معطفه
التقصير وهو يسير ويتكلم بانفعال مع رتيشيف الجالس عند الطاولة عن
حساس المقاتلين . كان الحساس شديدا يوم أمس ايضا ، ولكنه اشتد اليوم
خصوصا بعد تحرير المدينة .

— حالنا اجتازوا المدينة وأروها اجتاحتهم العرج ! الحركة تنظمهم ،
وهم يعلمون ان البهق منهم لن يبقى على قيد الحياة غدا ، ومع ذلك يسيرون
مسرورين ! اقول صراحة بانى في الصباح كنت اعشى من اننا سنقطر الى
دفع الفوجين من المدينة لانها قد يكتفينا واثنين بما حققناه . ولكنهما حرواها
واصلنا زحفهما ! هل تعلم الى اين وصل دوبروديفوف ؟
— في الساعة الثانية بعد الظهر كان في زارويينوف . قال رتيشيف — الاتصال

غير موجود بعد ، ويجرى به الاسلاك الى هناك !
— ولئى تصلوا اليه قريبا . فهو الآن هناك ! — وأشار سرباين الى نقطة
على الخارطة واذ زهاء اربعة كيلومترات عن زارويينوف لقد عدت من هناك الآن !
زار كلا الفوجين اللذين حروا المدينة في الليل ، وعرج للحظة على مقر
الاركان ، وهو يرى ان الان الذهاب الى فوج ياغلوك الذى التف حول المدينة
من اليمين .

سرباين المطلع على الوقت عدوا يدرك بان الفضل في تحرير
المدينة بهذه السرعة يعود الى رجال الدبابات والى الجيران من اليسار ، فقد
ارتقوا الانسان على الانسحاب البشاع . ومع ذلك دخل المدينة فوجا هو
سرباين ، واذ بالديابا الآن ، في سمعات الهجوم ، بان يفكر بافضال الجيران
اكثر مما يفكر بانصارات فرقته فلانا طالب بالكثير ، لقد عمل بشكل محموم
عشة الهجوم ، وهو الآن ، اذ يجنى الثمار الاولى ، انما يشعر بالاختار بان
فرقة بالذات حررت واحدة من اولى المدن في ضواحي موسكو . زد على ذلك
ان الحائز شلال اليوم الاول كانت اقل مما يتوقع . الامر الذى افرجه اشه الفرج .
— ايها الرقيب الخرنال امسح لى بان اقدم نفسى : العقيد كليوفيتش
قاله لواء الدبابات السابع عشر .

البتت سرباين فطمعت امنائه الولادية وشد على يد كليوفيتش .
— هل حسنت عمل رتبة العقيد من زمان ؟
— قيل شهر . عندما سائنتى قرب مبنى الكرنال فيل العرش العسكرى
كان الامر يترقبى قد صدر ولكننى لم اكن ادري .

تشكيل اللواء : مساعدا لشؤون المؤنصر . وكان كليوفيتش الذى يعرف قيمة
الانسان الامين في هذا المنصب قد اخذه بالواقفة على تشبه استنادا الى
مناخه القوية اثنا ، حركة خاليتين . غل . واستنادا الى تلك الرقعة القديمة
حمل ايفانوف كليوفيتش على اجراء التسمية وتفقده المدينة في الوقت ذاته
فراققه من الخط الاماسى الى هنا بسيارة « الجيب » .

— على هذه الصورة ربما لن تشك من دخول البداية ، ايها الرقيب التقدم !
— لا بأس ، سأدخلها . وانت كيف حالك ؟ — سأل كليوفيتش زولوتاريف
الذى انتقل الى « بايت » صباح أمس بعد اسبوع .

— على ما يرام ، ايها الرقيب . التقدم ، ولكنهم حلقوا نصف رأسى .
كان رأس زولوتاريف مقبدا بعصابة كبيرة حتى ان خوفه لا تكاد
تستقر على قمة رأسه .

— فلنذهب الى هناك . قال كليوفيتش وهو يقصد لواء .
— فلنخرج في البداية على قائده الفرقة ! — قال ايفانوف .
— ما الذى تفعل ؟

— اريد ان اخذ بعضا من هذا . — وقام ايفانوف بحركة استوائية
جيرة يده ، مشيرا الى السيارات المتكدسة في الشارع — ولكننى اعشى ان
يسخ الشاة ايديهم عليها . فلنخرج على القائد للحظة !

— كم لك ، نحصل على الخنازم الاولى حتى يدأت الشاة بها ! — فذ
كليوفيتش متعصفا ، ولكنه يدرك ان ايفانوف بهتم بمصالح اللواء ، ولذا لم
يعترض عليه .

اوضح ايفانوف الجالس في الخلف لسائق السيارة بانى اجتياه يسير واين
يستدير ، ولدت انظار قائد اللواء في الوقت ذاته الى التناهم .

— انظر ، هذا هو الاسلكى الميافى لتفوج الدبابات اللسانى وهذه
عربة الصليح التورى — اشار الى سيارة رفع الثبات من جنود الدبابات لغطاء
مقنعتها وادحا ينشأن في دافعها .

— هل هي غنائمك ؟ — سأل كليوفيتش .
— بالطبع . فغنائم من اذا قلنا الحق ؟ ليست غنائمك ؟
— يا لالاب ! — تهده كليوفيتش بأسى عندما اقربوا من مقر اركان
الفرقة — لم لم تبدأ الحرب بمثل هذه الشاعده ..

أوقف السائق السيارة قرب منزل عند الطرف . وقد به الى سلك الاتصال ،
وامام الباب وقفت سيارة « جيب » مظلمة بدخان ابيض .

سمعت ان رجال دبابات السيفد كليوفيش يتعاونون مع القوات المجاورة. قال سرييلين بنفس اللهجة النرجسية- رجال الدبابات عندما لا يزالون قليلين مع الالمان. فذكرت بان من المستبعد ان يوجد في لوانين للدبابات يفسواح موسكو قائدان اقب كل منهما كليوفيش!

- اما انا، وبصراحة، فلم اكن اتوقع ان اصادك هنا ايها الرقيب الجنرال. -

قال كليوفيش- ظننت بانى سارق اورلوف. ففى بداية تقدير تعاونت معه...

- اجل- قال سرييلين وانطلقت الابتسامة على وجهه يلوح البصر حتى لكأنها لم تكن. - عاش الجنرال اورلوف بحلم بقيادة فرقته فى الهجوم

اكثر مما يعلم بالآخر. ولكن السر لم يطل به. وبدلا من اورلوف يتولى سرييلين الهجوم. فى الحرب تصادف مثل هذه الحالات المؤسفة. ولا احد

مقصوم منها.

تهدد وفكر بأنه ينبغي ان يجد وقتا فى الليل ليكتب ولو رسالة قصيرة الى ارملة اورلوف ويقول لها ان الفرقة تصون تقاليدها زوجها وتكفل له تهاجم القاشيين

وتطاردهم.

ولكنه سأل عن شيء آخر تماما، سأل عما اذا كان كليوفيش قد حصل على امر للتعاون فى العمليات مع فرقتهم العادية والثلاثين ام لا.

فقال كليوفيش انه لا يزال تحت امر قيادة القوات المجاورة من اليسار وأنه جاء الى هنا من اجل التخصيد فى الكتيبة الضعيفة وقرر التنا.

نظرة على المدينة.

- اننى اقاتل من تضام، ولكننى لم ار عينة محروقة من الالمان ما

عدا بلينا!

- اجل، قال سرييلين- المدينة الاولى، المدينة المحرقة الاولى، يا

للعدسة! ... حالفك الحظ فى بلينا على الاقل، اما انا فهذه هي المدينة الاولى

التي احرقها بعد ستة اشهر من الحرب! ولم اتمكن من تحريرها الا بمساعدةك

وبعون الله.

ورغم قول هذه الكلمات فلم يتمكن من اخفاء امارات الفرح والاعتزاز

بانفس. وبهما يكن من شيء فان فرقته بالذات هي التي حررت المدينة.

- الا تشرب شايًا بوصفتنا جيرانًا ام ان رجال الدبابات لا يشربون الشاي؟

رفض كليوفيش شاكرا. فهو مشغول اليال بلوانه. صحيح ان المفوس

ورئيس الاركان يقيا هناك وأنه اصدر كل الاوامر اللازمة، ويجرى حاليا بضرورة

الدبابات بالوقود قبيل العملية الليلية، ومع ذلك فهو لا يشعر بالاضطرار.

- شكرا، ايها الرقيب الجنرال. ساذهب. ولكن عندي رجاء اليك.

فما دنت تعرف بمساهمتنا فى تدميركم فيبقى هذا مساعدي لشؤون المؤخرة

وهو يريد ان يأخذ شيئا من الغنائم وغصودها وسائط النقل...

فلا تقهر اليتيم. - قال هذه الكلمات وابتعد الى ايمانوف الواقف فى

حالة استعداد. قابض سرييلين لقدم تائب كلتي «اليتيم» مع مظهر الساعد

الواثق من نفسه.

- وهل يمكن قهر يتيكم هذا؟. ماذا تعتقد؟- سأل سرييلين مودعا-

انت اعرف لقد وصلت اسم الى مؤخرتهم. هل كانوا يتوقعون هجونا ام لا؟

فيحس الاسرى عندي يقولون انهم لم يتوقعوا الهجوم، والبعض الاخر يقولون

انهم سمعوا باننا الانسحاب المرتقب.

فكر كليوفيش شاملا وقال بأنه يتصور ان بعض الوحدات الالمانية تسلمت

امرا بالانسحاب والبعض الاخر لم يتسلم مثل هذا الامر. وعلى العموم فالامور

مشوشة.

- ربما هي مشوشة فعلا. - وافقه سرييلين- ولكن اعتقد باننا لو

اجلنا الهجوم اسبوعا دون ان نختار اللحظة المناسبة لانسحورنا الى مواجهة

الانسحاب منظم. فقلدى شعور باننا اخترنا اللحظة المناسبة- عتف سرييلين

بالتواضع وتنفس بعمق.

كانا، وبما مسروران لما حدث، وشكرنا بالشو ذاته. فقد دمر جزء

من الشاوية الالمانية، ولكن لا احد يعلم ماذا سواجبهم غدا. فودعا بعضهما

البعض وقد قرأ كل منهما هذه الفكرة القلقة فى نظراته الاخر.

بعد انصراف كليوفيش قال سرييلين مغاملا ريشيف الذى استمر

على عمله سامتا اثناء الحديث بينهما:

- عندما خرجت من الحصار وصلت الى لوانه مباشرة.

جز ريشيف راسه. فهو على العموم يبدل كثيرا ويتكلم قليلا، وكأنه

يريد ان يقول بصسته لسرييلين: «لا شأن لك بما يدور فى نفسى. اما

عني فيمكنك ان تحكم علي: فانا اعمل امام انظاركم».

هذه العلاقات لا تسر سرييلين ولكنه وافق عنها، ثم انه لم يكن

لديه الوقت الكافى للتفكير فيها.

طرح عدة اسئلة على ريشيف مما يطرحه قائد الفرقة عادة على

رئيس اركانه بعد ان يقضى الصباح فى المدة، ما هي اخبار

القوات المجاورة من اليمين واليسار؟ كيف تصل الذخيرة؟ كيف تتقدم المؤخرة؟

يعمل لتفعلوا من القيادة الاعلى؟

اسوال الجيش المجاور من اليسار جيدة. اما جيش اليمين. فقد تختلف شكل الالمان هناك لتروا بكاد يتحول الى اعتراف. ومن القيادة الاعلى تلقى رئيس اركان الجيش مستفسرا عن الموقف. وبما انه لم يقدم اى اوم، ولم يشرب امثلة على انجازات الاخرين، يفهم من ذلك انه لا يوسه من يصلح الان للمرافقة معهم. فان اكبر التفاعلات التى تمعقت اسس واليوم هى من تصنيفهم، بعد ان سمع سرييلين هذه المعلومات جلس يحنى الشاى على عجل دون ان يخلع معطفه.

- عجيب! - دوى صوت حاد سائر عند التبة - لا يزال امامنا تحرير نصف روسيا من الالمان اما قائد الفرقة فقد جلس يشرب الشاى يد ان رسم نقطة محورية واحدة لا غير على الخارطة!

ظهر على التبة قائد الجيش، ورغم الضيق الشديد كان يرتدى لباسه المسكرى المتحد: حزمة سبلدية ومعطف طويل بقبعة الجنرالات. وكان وجهه قوزميا من شدة البرد، وغافيا، كما شيل لسرييلين.

- اخبرونا بالموقف! - قال القائد والنقى بمعطفه وقيته الى مرافقه على عجل وشعلا نحو العارلة.

اخذنى سرييلين على الخارطة جنب القائد واخبره بالموقف ودق بالتعلم الرصاص زحمت فوجيه فى الجناح الايسر. اما ريتشيف المتحلق فقد اشار الى الزحف الاخير بخططين منقطين قبل ان يتسلم تقارير تحريرية من قائدى الفوجيين.

- ماذا؟ هل تقدمتم حتى هذين المكانين اللذين تشير اليهما؟ - سأل القائد متشككا عندما رأى سرييلين يرسم على الخارطة خططين سميكين احمرين فوق الخططين المنقطين. فقد شيل اليه ان سرييلين يستعمل الامور، بحضوره ويصور امانيه على انها هى الواقع. - هل تقدمتم فعلا الى هناك ام تصورون انكم تقدمتم؟

- تقدمت فعلا - قال سرييلين.

- شء يصعب تصديقه.

- اما ان فديت تعودت على تصديق ما تراء عيناي! - قال سرييلين بلهجة صارفة ملزكا اهمية هذه اللحظة بالنسبة لملقاتهما المرتقية. واضاف: تصور اننا تقدمنا الان الى هنا، والى هنا... ورسم خططين منقطين - اما هذان المكانان - واشار بالعلم الرصاص الى الخططين الاحمرين السميكين

- فقد زهرتها بنفسى - تملع الى ساعته وسدد بالذقاق الوقت الذى زار فيه المكان الاول والمكان الثانى.

استاد القائد دائما على الكلام مع مرؤوسيه بنفس الالهمية الشديدة الباردة التى بدأ بها كلامه مع سرييلين. وكان يجيد نوم الاخرين عندما لا يترضى عنهم، وهو لا يعترف لهم بنق الزعل اذا كانت العلامة شكلية واذا كان تصنيفهم فحليا. الا ان طباعه تتميز ببرود حد متفقد يفصل بين التسلسل والتصف. وهو يعرف بالرد اذا كان وجيها، وما هو الان وسعظم يسئل هذه الرد.

- هكذا اذن - قال دون ان يغير لهجته الخشنة - الموقف هنا واضح.

ولكن كيف الوضع الى اليمين عند ياغولوك؟

- سوف اتوجه الان الى ياغولوك - قال سرييلين وخطب ريتشيف: اعبر القائد عن كيفية تقدم ياغولوك.

استمع القائد الى توصيحات ريتشيف ثم جلس مكلميا سرييلين: - هل مستقيس؟ اريد ان اشرب الشاى مبعك كيلا تشعر بالاجمل لانك تشرب وحدك.

وافطحت على شفتيه ابتسامة مبسرة اراد لها ان تبين بانه يمزح. وعندما احتسى القائد الجرعة الاولى من الشاى سأل سرييلين:

- اسمع لى ان اسأل، ايها الرقيب القائد، كيف الحال فى الشرق الاخرى؟ تطلع اليه القائد بنظرة شرارة. ولو كانت امور سرييلين سيئة لاجابه على نحو آخر. ولكن الاسود عند سرييلين جيدة فاجابه القائد بود:

- لا بأس. نعم ان تكون افضل. مهارة التسيار اوطأ من مستوى منويات القوات. نشقى لم يتعدوا، لم يتعدوا على الهجوم! - كرر القائد غاضبا - ونضطر الى دفع بعضهم بشدة حتى توصلنا ايدينا.

رفع كلسا يديه ووضح بالاشارات كيف يضطر الى ان يدفع فى الخلف اولئك الذين لا يتحركون بالسرعة المطلوبة. ففى الاماكن التى تسقى للقوات التقدم فيها بدون مقاومة كبيرة كانت تلك القوات تتوقف بسبب القلق على جانبيها. وفى الاماكن التى تواجه القوات فيها تعصبات دفاعية قوية تقوم بتكرار الهجمات المستتية ولكنها تنفرد فى القيام بالتفاعلات عبيقة وذلك ايضا بسبب قلقها على جانبيها.

اما فرقة سرييلين فقد زحمت اليوم على نحو اسرع وشغلت بال القائد اقل من سائر الفرق الاخرى، فغزم على الذهاب فى البداية الى الفرقة

المجاورة ولكنه لم يقاوم بغية الشديدة في القاء نظرة شاملة على الاقل على اول مدينة يمر بها جيشه. ولذا ذهب الى سربيلين.

— دفعتهم حتى ثبت — افصح القائد عما يفكر فيه بالصراحة التي لا يغوى عليها في الثائب الا الاستخاص الواقتر من انفسهم — وبعد ذلك بغيت في القاء نظرة على الدخان لكي تهدأ روعي قليلا! الدخان كثيرة وتستحق ان تقدم تقريرا عنها.

احتسب قدح ونهض فسال من سربيلين:

— انت ذاهب الى باغلوكله اليس كذلك؟

— بل!

— اذن اسمع ما ساقوله لك في الاخير. سادع جاركم دافيدوف الى الامام حتى ولو تركت يداي كدمات على ظهوره. ولكنك انت لا تصحج بتخلقه! كلت باغلوكله بان يصل حتى حلول الظلام الى هذا المكان! — اشار القائد على المناوطة الى محطة سكة حديد فوسكريسينكوبه الواقعة على مسافة اثني عشر كيلومترا عن المكان الذي هم فيه الان — يجب ان يكون هناك في الليل. يجرى المنطقة خلال الليل ويواصل زحفه! وفي الصباح انقل الى هناك مركز قيادةك. والانفصل ان تنقل حيث الاركان كلها!

لقى القائد نظرة شاملة على رئيسيف اثناء هذا الكلام واولا برأسه ابتداء خفيفة تجاهه المراقق بالمعطف.

ون جرس التلغراف فرفع رئيسيف الصاعه وقال ان حيث اركان الجيش تكلم.

— اغبرهم بانني ذهبت الى دافيدوف. فلينقلوا الى هناك بعد ساعة. — قال القائد وخرج على عجل بصحبة سربيلين.

واكتشف في المدخل من شدة البرد. فلم يتحمل سربيلين وقال له ان معطف الفرو القصير اذنا من المعطف العادي الطويل.

— لم اتمرد على غير ذلك — قال القائد واضاف وهو يتطلع الى جبهة سربيلين الثيابية ومعطفه القصير — لا تعتبر ذلك تلبسا لك. واذا وصلت بجزءك اللبادية الى المحطة ساكون معننا لك، واذا فزاح في مكانك بجبهة جلدية فلن نثقتا البزيمات الجلدية.

واينهم عنما تذكر الشخص الذي لا يمكن ان تتفقه الجبهة الجلدية. تذكر العقيد الايتي دافيدوف قائد الفرقة المجاورة. وكثر باسراء من جبهة ان من اللازم تحرير المحطة هذه الليلة! واستغل سربيلين بديقة.

— احتسب ان يضطر الجميع في المساء بغض النظر عن التفارق في الراتب، الى المشي سيرا على الاقدام — قال سربيلين بعد ان جلس قرب السائق واولا مير النافذة التي تفت التلج المطاطية في الزوينة.

فوج باغلوكله الذي توجه اليه سربيلين يهاجم الى يمين المدينة التي تم تحريرها ليلة البارحة.

وقد اسف المسؤولون في الفوج لموقعهم هذا وراحوا يحسدون جيرانهم. وعلى العموم لم يكن هناك وقت لا للحسد ولا للمجد. خلال اليوم الاول حرو الفوج ست قري، اما اليوم فقد حرس خمس قري اخرى منذ الصباح. ولكن اذا كانت كلمة «حرره قرية من الحقيفة بالاس» فان جميع القري التي شغلها الفوج اليوم قد احرقها الالمان عن آخرها تقريبا. فقد يدأوا بحرق القري منذ المساء. وطول الليل كان الفوج يرى في الافق امامه السلة الحريق في عدة اماكن دفعة واحدة.

في اليوم الاول كانت كتيبة ريباشينكو هي حربة الاختراق، ولكنها واجهت على مغترق الطرق منذ صباح اليوم قرية صغيرة اسمها مانشيخا لم يكن الالمان يريدون تسليمها باي حال. وقبل ان تتمكن الكتيبة من استعادة ما تبقى من رماة القرية فقدت طوال خمس ساعات من المعركة اربعين شخصا بين قتيل وجريح.

وهو ريباشينكو يسرع بسرعة واحدة للحاق بالكتائب التي تقدمت الى الامام. اما ماليين فراح يواصل السرايا التيقية التي امتدت على الطريق الخاص في التلج. وهناك قرية اخرى في الامام تم تحريرها، كما يقال، وقد احرقها الالمان قبل ذلك. وكان دخان حريقها يذكر المحاربين بضرورة الاستعجال.

— الدخان في كل مكان — قال سيستوف وقد توارى مع كاراولوف الذي يسير امامه على الطريق.

الاقدام تدوس في التلج، والريح تصفع الوجه، فتعين على سيستوف ان يبذل جهدا كبيرا للحاق بكاراولوف.

— ماذا تقول؟ — سأل كاراولوف لانه لم يسمع شيئا.

— اقول الدخان في كل مكان.

عز كاراولوف رأسه ومسح برذة التلج الذي التصق بملابيه وأشار به. وقال دون ان يلتفت:

— انني اسير واعد طوال الوقت. في الصباح رأيت غيمة حرائق، والان

بلغ عددها ثمانية انهم يحرقون اكثر فاكثر. ثمانية! بالإضافة الى القرية التي دخلناها الان، ما اسمها؟..

- ماتشيغا - قال سيستوف.

- بالفضل - تسعة، مائة اذن. كانت هناك قرية اسمها ماتشيغا، وهي غير موجودة الان. كان يعيش فيها بشر... لا ادري بماذا يفكر الفاشيون؟ هل يريدون ان لا يبقى لنا موضع تقنع فيه رؤوسنا؟ سوف ننام على الثلج، ولكننا نصل اليهم من كل يدا. وما داموا يحرقوا في هذا الحد قاتل اريد، لو كان ذلك بمقتوري، ان اصدر امرا الى الجيش: طامنا انهم يحرقون كل شيء في كل مكان فلا يجوز اخذهم اسرى في اى مكان. كل من احرق منزلا يتلقى رصاصة في الجبين! ما هو رأيك؟

رأى سيستوف مثل رأى كارلوف تماما. ثم ان كارلوف نفسه اصدر امرا في قرية ماتشيغا التي احترق عن آخرها يطبق هذا القرار على محرقها الفاشين ثم التفت عليهم. ولكنه، كخضعت تعود على النظام، كان يريد لما فعله في السابق وما ينوي فعله في المستقبل ان يتحقق ليس بسبب غشبه وسوءه، بل تخليها للاوامر.

- من الذي قتل الضابط هناك، قرب الاسطبل؟ - سأل كارلوف.

- كارلوف.

- في البداية ذهبت انت وفرتك ولم نسمع من جانيكم شيئا، ما عدا ينادقهم الرشاة. وثلثت انهم قتلوكم. وفيما بعد اجفرت قبيلة يدوية فلم يعمدوا يلقون انارا!

- كارلوف هو الذي لقي القبيلة اليدوية - كرر سيستوف.

- هكذا اذن - قال كارلوف - ثلثت انهم ابادوا مقررتكم كلها. تقسم مقررة سيستوف الان شعثين فقط: سيستوف وكوباروف الا انها ظلت بالنسبة لكارلوف مقررة مهما كان عدد افرادها ساليا...

- وما هي - جثة اخرى - قال كارلوف وقد توقف عند جثة الماني ملقاة على الطريق وطعنة بالتلج لجد النصف.

الاسلاني القليل منقطع على ظهوره. وقد غطا رأسه بيده والتمت احدى رجليه تسه وامتدت الاخرى على الطريق.

ركل كارلوف هذه الرجل بمقدمة جزته اللبادية فتحركت قليلا ثم عادت الى وضعتها الاولى. فقال كارلوف:

- الاموات في الشتاء غير ما في الصيف. فهم في بعض الاحيان

يشبهون النمل ولا يشبهون البشر!

سار كارلوف الان في الامام ووراءه سيستوف الذي يرى ظهر كارلوف المريض ويوسع انفاس كوباروف الثقيلة خلفه. قبيل الهجوم شر كوباروف بوعكة. آلمه صدره وانابه السعال، قريبا اصيب بالبرد عندما اشترك في سحب ليونيدوف. وما هو الان يسير متوجعا بدون راحة ولا نوم منذ يومين... انه يسير ولا يتشكى، غير ان السعال الشديد يستولي عليه بين حين وآخر.

ليونيدوف قائم الان في المستشفى، ربما في موسكو او ايبه منها. انه قائم هناك على الشراشف تحت البطانية - فكر سيستوف بعينه شديدة عابر ليونيدوف القائم على الشراشف تحت البطانية بقدم مبتورة المشط.

تمنى لو يصاب بجرح غير تخن مثل ليونيدوف، بل مثل بايوكوف الذي هضر عليه المالبين مع ذلك وبقى بالوعد الذي قطعه على نفسه. يث بايوكوف رسالة يشكره فيها على اشارته بالوسام وقال انه يدا بمثابة للشفاء. حينما لو رقد هو، سيستوف، ايضا على الشراشف في المستشفى واحة يشاكل للشفاء مثل بايوكوف...

طرد من ذهنه بصموة كبيرة هذه الفكرة التي تراود الناس في الحرب اكثر بكثير مما يتصرفون به. وساعده في طرد هذه الفكرة ليس شعوره بانها جبانة شائنة، بل تذكره الشهد الذي صفع ذاكرته فجأة، مشهد الجيش الاربع التي انزلوها من الشاطئ قبل ساعة في قرية ماتشيغا نفسها.

احدى الجيش التي. فمس سيستوف الجبل الملون المغتول من اربعة اسلاك تلفونية الثمانية والذي شقت به هذه الفكرة.

فمس سيستوف السلك المغتول بالسكرين وتلفن الجثة بيديه ووضعهما على الثلج. الفاعة في معظم صقوى اسود اخشن مفتوح عند الصدر، ومن تحته لاح يلور من التريكو. واحدى ساقيها في جزمة لبادية خفيفة مقصودة من الاعلى بغير عناية وذات نمل مغايل اليها من الاسفل والساق الاخرى في جورب بدون جزمة، وعلى الجورب. عند الركبة فتق عريض يدا منه بلنها الابيض الجانود. انغرز السلك المغتول عميقا في رقبته الطويلة البيضاء وتدلّى رأسها الى الجانب، وقد انقطع على وجهها تعبير يقول: «ماذا تريدون مني؟ لتركوني لخالى!»

كان البشرقون متثلين من زمان. وعندما انزلوهم كانوا مقصعين متكلمين كالفقروى الابيض، حتى يخيل للمرء بان اجزاء من الوجوه او الايدي مستحلم وتنفضل عن الابدان. اذا نفلت بدون سفر او اذا ارتطمت بشيء ما. وتذكر

ستستوف مرارا وتكرارا بكل التفاصيل: كيف انزل هذه الفتاة من السفينة، فواج. يفكر بامساك شعور يكاد يشبه الربيع. والفرع. وربما لان تلك الفتاة كانت ترتدي العزيمة الباردة يقدم واحدة وقدمها الاخرى في جوبير موز فقد تذكر مرة كيف حمل الطيبة الصغيرة من زمان، وعندما تذكر الطيبة فكر بامساك رمتها ايضا. فاين هي الان؟ حل. هي على قيد الحياة؟ وشغل اليه الان، بعد كل ما عاينه منذ ذلك الحين، ان كل تلك الكلمات التي قالها لها متلصقا بسبب الضيق عليها في الدقائق الاخيرة للقاءهما الاخير، انما هي كلمات سنيقة لا معنى لها. وذلك هو اللقاء الاخير سقا ام ليس الاخير؟ انه لا يعرف ذلك، شأنه شأن ملايين الناس الذين اختفوا من ملايين الناس الاخرين.

كيف الحال؟ - قطع. حيل أفكاره العزينة مالبين التي صار على الطريق مع صف من الكتيبة وواصل طرف العصف الى سافة قريبة من المقدمة - كيف تسير الحرب؟

الحرب تسير بشكل لا بأس به. ايها الوريث المرشد الاقدم - قال سيستوف والتفت الى مالبين سائرا. - والشيء الموثق ان الوقت لا يكفينا - واما الى الامام، الى الدخان.

حجبت غشاوة من العواصف الليلية اعمدة الدخان الاخرى التي كانت قبل قليل مرتفعة الى عتبات السماء كأيدي الصبية السوداء على طول الاق. اما عود الدخان الاسود القريب فلا يزال مرميا في الامام.

هل متيقن الامور على هذا الحال؟ - سأل سيستوف عندما مر به مالبين.

انها تتوقف علينا - اجابها مالبين. لم يكن من هوا الصيغ الجاهزة. ولكن بماذا يمكنه ان يجيب على هذا السؤال؟ سقا. انها تتوقف علينا. فعلى من يمكن ان يتوقف؟ وكان الامر كذلك بالذات، في آخر المطاف، مع انه تخيل اليه انه لا يتوقف لا على كارلوف وستستوف ولا على مالبين وريابشيكو ولا على القماتين الاخرين الذين بذلوا قصارى جهدهم أمس واليوم ولا يزالون يواصلون السير الى الامام باقعي سرعة ممكنة.

عطرت على اثنين من السكان مع ذلك - قال مالبين. وادرك سيستوف بيرة صوته المعروفة ان مالبين يقول ذلك ليس يدون سيب وليس لليرة الاولى، بل هو يسير بسرعة على طول الرتل ويكرر هذا القول للمسمع - ويتولان

ان الالمان تبادلوا اطلاق النار فيما بينهم في الليل عند الفروق العام قرب الدبابتين المهجورتين. حل رأيتها؟

نعم.

كان طليورهم السيكانيكي يتسحب، ولقد البتزين فلتب عزاك مع رجال الدبابات وصل الى حد تبادل اطلاق النار! ومع ذلك صبرا البتزين من الدبابات في سيارات النقل واتصلوا. واقعة لها دلالة كبيرة، اليس كذلك؟ سأل عن ذلك من سيستوف بوصفه مرشدا سياسيا سابقا وكأنه ينشد النصح لعيه: البتت تلك واقعة ذات دلالة كبيرة لاجل الدفاع؟

تذكر سيستوف الدبابتين الالمانيتين المتروكتين عند الطريق وتخيّل بوضوح كيف تشاجر رجال الدبابات والشاة الالمان على التلج في الليل بسبب البتزين!

واقعة ذات دلالة، ولكن...

ولكن ماذا؟ - سألها مالبين بسرعة.

ولكن جيدا لو كان عندنا ايضا المزيد من الآليات!

الارجل افضل في مثل هذا الطقس.

صحيح الارجل افضل! - قال سيستوف وهو ينقل رجله يصعوبة في الثلج ويشعر بان كل واحدة منها تكاد تزن عشرين كيلوغراما.

لزم سيستوف الصمت. فقد تب الى درجة لم يعد راغبا معها في الكلام. الا ان مالبين فهم صوته على طريقته الخاصة: وامله متألما.

ففي عشة الهجوم انصرفوا الى الكتيبة خمس هويات لمشوية الحزب وسهوها الى اصحابها، ما عدا سيستوف. لم يجد مالبين حتى ذلك الحين فرصة للتحدث مع مفوض القوة بهذا الخصوص. ذكر مالبين بنفسه وبان كل الناس مرضون للوقت، فانتزع في الحال، في الليلة السابقة للهجوم، عشر دقائق بمنتهى الصعوبة وكتب رسالة قصيرة عن سيستوف الى الشعبة السياسية للجيش مباشرة. كتب بكل ما يثلث من طاقة على المخوفة عندما يكون واقفا من صواب رأيه، وقال ان اللجنة الحزبية للفرقة عينا اجلت قرار مكتب التوج ولم تبته، قبل الهجوم، في مسألة المعيار الحزبي لانسان يمكن في اي يوم واية ساعة ان يضحى بحياته دون ان يتفكر ظهور الحق.

ام يمكن راغبا الآن، في وقت سابق لوانه، ان يخبر سيستوف بهذا الرسالة التي ربما لم تصل الى هناك بعد، ولكنه اجس برغبة في دمه ولو باسبب الاشكال.

— لا تتصور بالي نسيته ، وعلى العموم لا أفكر بذلك كثيرا ، فانا
ساذكر بدلا عنك ...

قال ماليتين هذه الكلمات الغرقة من صميم القلب ، الا ان سينسوف
ايتم ساخرا بصورة عفوية ، كان يفتن بماليتين ، ولكنه لا يستطيع ان لا
يفكر بذلك ، وان ماليتين ، في هذا المجال ، عاجز عن مساعدته ، لقد فكر
بذلك ، فكر به مرارا بالامس واليوم ، مع انه الآن بالذات ، وهو يسير الى
جانب ماليتين ، قد فكر بشيء آخر ، ولم يتذكر ذلك الا في اللحظة الاخيرة .
— طالما نحن نسير طمحا ... قال ماليتين الذي تعود على عدم ذكر نهاية
العبارة التي تحدد بدايتها نهايتها — وحالما نتوقف ...

— حسنا ، يا ماليتين! — رفع سينسوف بصره والقي نظرة غاضبة على
الدخان في الامام — انا موافق على كل شيء ، بشرط ان لا نتوقف قبل ان
نقطع اكبر مسافة ممكنة!

— حتى السيارة لا تسير بدون توقف ، فما الداعي لهذا الكلام؟ — قال ماليتين
متجهما — قول تريد ان نصل الى برلين بدون توقف؟

— الى فيانزا على الاقل .

تتمتع ماليتين على نحو غامض دون ان يتبل بذلك او يرفضه ، ايسر فيانزا
بعيدة جدا ، ولكن ربما ليس بالامكان الوصول حتى الى فيانزا بدون راحة ولا
اقتادات .

— اقضوا المجال! — صاح كوداروف من الخلف .

التفت ماليتين وسينسوف الى الوراء وابعدوا الى جانب قمرت قريبهما
زخافة بالتحج نقيلا من تحت سناك العصان المتصب الرافض غيبا .
في مقدمة الزخافة جندي يحمل بندقية رشاشة ووراءه جلس قرب باغلوك
جنرال يرتدي مظهرا فرائيا قصيرا وجزمة لبادية .

مرت الزخافة وعطفا ماليتين من جديد الى وسط الطريق واقاد ، تصورا
ان سينسوف لا يزال يسير بجبهه ، بان قائد الفرقة الجديد هو التجالس في
الزخافة ، وانه قد رآه مرة في هيئة اركان الفوج قبيل الهجوم .

الا ان سينسوف لم يعد يسير قرب ماليتين ، بل ظل واقفا عند الطريق ،
حيث تراجعوا وغاصا في التلج حتى الركبتين ، وراح يتابع بظنائه الزخافة
التي يسلم فيها جنب باغلوك سرييليين بعينه . انه سرييليين ، ولا يمكن لنظر
سينسوف ان يخطئه في ذلك!

زناداه ماليتين:

— لماذا تخلفت؟

انزع سينسوف قدميه من التلج ونظما نحو الطليقة الجليدية الصلبة وتنحن
بماليتين وصار جنبه وبهد صمت قصير مأل سينسوف:

— هل تعرف ذلك التجالس في الزخافة؟

— نعم ، قائد الفرقة الجديد .

— ما لقبه؟

انكشئت اسارير ماليتين في محاولة لتذكر لقب قائد الفرقة ، ولكن
عشا . كان هذا الاسم يطوف حول الذاكرة ، وهو مسجل عنده في المفكرة
في المحفلة ، ولكنه ما كان راغيا في خلق لقائه في الصنيع .

— عندما سمعت بلقبه خيل الى اني اعرفه ، ولكنني نسيته فيما بعد .

— سرييليين — قال سينسوف .

— نعم — اكد ماليتين وتطلع الى سينسوف باهتمام . فقد تذكر الآن

لماذا خيل اليه انه يعرف هذا اللقب . وسأل:

— هو نفسه؟

— هو نفسه .

— يا لشيطانا! كيف فوتنا الزخافة؟! انى نستعد سنى المركض ورامعا —
قال ماليتين بصفى وبشاطرة .

فرح من اجل سينسوف ، بان وجود الشخص الذي خرج سينسوف من
الحصار تحت قيادته آنذاك في الفرقة الآن ، وينصب قائد الفرقة ، يمكن ان
يسهل القضية كثيرا .

واما اذا فلن اركض! — فكر سينسوف على التقيض من الافتكار التي
كالت تعطل في باله سابقا كلما حلم بلقاء سرييليين على اعتباره انرا غير
قابل للتحقيق . لقد تعود بالدرج وبشكل غير ماحوظ على الفكرة الصعبة
المستندة الى الاعتزاز بالنفس المتأخرة بان مصيره كله يجب ان يتقرر على
نمو صائب يكون هذا اللقاء ، ويجب ان يتقرر ليس بسبب ظهور شاهد على
ماضي ، بل بسبب وجود اناس يعرفون كيف يتقاتل هو الآن ، اناس مثل
ماليتين وآسر الكتبية وكارايوف وكوداروف السائر خلفه والذي اتياه السعال
الآن ...

فقد مر ذلك الزمان الذي طلب فيه الرأفة من التصير ، وشغل اليه في
وقت ما ان الاقدار وبهت ذلك اللقاء مع لويسين . صحيح ان ذلك اللقاء
لم يكن جبهة ، بل ضربة من الاقدار ، كما اتضح فيما بعد . ولكنه ظل يحمل

بان يتضح كل شيء دفعة واحدة، وكان يتذكر سرييلين في اغاب الاحيان بهذا الخصوص.

اما الآن فقد اراد ان يسير كل شيء على مجراه العالي، وان يثق القين بيتون في مسأته ليس بالجنرال سرييلين الذي كان على معرفة بالمرشد السياسي سينتوف عندما كان هذا يمثلك هوية الحزب في جيبيا قنصلته. انه يريد لهم ان يتقوا حتى النهاية، وحتى النقطة الاخيرة، به هو الجندي سينتوف، وثائب العريف صالحا، مع الالاف المديدة من امثاله الذين لم يسلموا موسكو الى الامام، وما هم الآن يطردهم من حيث جاءوا...

القسم الثامن عشر

حتى المساء شغلت كتيبة دياتشينكو الواقعة الى الامام. بلوث توقفت ليلث قرى اخرى، اثنتان منها محروقتان عن أشرفها والثالثة احتوت ثلاثة ارباعها. عندما اقتربوا من هذه القرية كانت لا تزال ساجدة. وبعد ذلك اندلعت النيران في اولى منازلها. وبعد ساعة استرق نصف القرية. اوقفهم هذا المشهد القليل على اقتحام القرية رغم رصاص العدو والميلولة دون احتراقها عن آخرها. فقد حدث ذلك على رأي منهم، فيضيا كان بعض الامام يطلقون النار من الرشاشات المسبوبة من فترات مخفوفة في الجدران الخشبية مباشرة، كان البعض الآخر يترافسون ويرفون المنازل. وفي بعض الاوقات شهدت على ضوء الحرائق اشباحهم المراكضة من منزل لآخر. واثار ذلك غضب المحاربين الى حد الجنون، فعندما اقتحموا القرية وجدوا في انفسهم يقية من القوى ليصبحوا الجذوع الملتحية ويطفئوا النيران التي بدأت تتدلع في بعض من المنازل. ولكنه داخلهم يد ذلك تمس لا مثيل له. وحتى لو لم يصدر دياتشينكو امره بالاستجمام لما تمكن اى من جنوده على القيام بخطة واحدة.

عين دياتشينكو افراد الحراسة وطلب من آدري السرايا ان يقرأ شايبا جيشا امكن، وان يطلعوا الجنود، والامم من ذلك ان يمكنهم من النوم بأسرع صورة. وقد ارضى الكثيرون قبل ذلك قدسوا انفسهم في المنازل السليمة وعودوا كالموتى عاجزين حتى عن تناول الطعام قبل النوم.

كان دياتشينكو يمشى ان يسلم بالهولك في الليل ويرسل الكتيبة لمراقبة الهجوم. كان يتنقل الى الله كيلا يحدث ذلك، ويرجو ان يتخرج المحاربون لخطات اضافية للموت.

بحر العاصفة الثلجية لاح في الافق من السباد لهيب خريق في محلة

توسكريشكويه. وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصلت من جهة المحطة حافلة باغلوك ومنه قائد الفرقة. طلب باغلوك من ماليتين وريابيشيكو ان يوقظا البحارين... فان كيشي باغلوك الاخرين تقاطعان منذ اكثر من ثلاث ساعات لتحرير المحطة، ولكنهما لم تشكنا من ذلك حتى الآن. فالامان يقاتلون باستماتة ويحرقون المحطة على رؤى من قواتنا.

كان المطلوب من ريابيشيكو ان ينهض بكيشيه ويبدل آخر جهده في فقرة الى الامام على مسافة سبعة كيلومترات ليقطع على الالمان طريق سحب مؤخراتهم من المحطة. فاذا قطع هذا الطريق او وصل اليه على الاقل فسوف يترك الالمان المحطة ويبدلون بالانسحاب.

على هذه الصورة طرح باغلوك المهمة. اما قائد الفرقة فقد سأل عن الوقت الذي يستغرقه ايقاظ المقاتلين واعادهم.

قال ريابيشيكو بصراحة: «نصف ساعة. وكان يتوقع ان يتعزوه على ذلك، ولكنه فضل تحمل البذلة بدلا من الكذاب. فهو على اية حال، لن يستطيع ايقاظ المقاتلين واعادهم للاصطفاف قبل نصف ساعة والحمد لله حتى على ذلك.

اراد باغلوك ان يتعزوه على ما يبدو، الا ان قائد الفرقة تطلع الى ساعته وقال بهذه:

« حسنا، بشرط ان يكون نصف الساعة ونصف ساعة حقاً!

وباشر ريابيشيكو والبايتين تنفيذ مهمتهما العسيرة. ففي مثل هذه الحانة لا يعمل المقاتلين ينهضون على اقدامهم الا سادس طائره كالهيار التلوج من الجبال او القيصان او الصريق، وكذلك، بالطبع، من الحرب، التي تنلوي ببساطة في اى يوم من ايام القتال، على هذه الكلمات التي تبدو رهيبة في زمن السلم.

بعد نصف ساعة ونقفت كتيبة ريابيشيكو في صفين غير متساويين بلغ عدد افرادهما في اواخر اليوم الثاني تلهجوم سجين شخصاً وقتلاً.

وعلى مسافة اربع الف متر.

امسدر ريابيشيكو امره بالاستعداد فاجرت سرييلين من صفى الكتيبة. كرو على الكتيبة كلها ما قاله باغلوك لامرهما ومفوضها وقال بان امرين يتوقعان الاناء اولهما ان يبقى هناك، في المحطة، شى ما غير الدخان والرماد ويبقى الناس للناس والافعال - سوى يلجأون الى غدا، وثانيهما ان لا يقع رفاههم ضحية لا تموت قرب هذه المحطة. فمثل اربع

ساعات وهم يهاجمونها ولا يستطيعون الاستيلاء عليها، ولكن الالمان سيهرون منها بانفسهم حالما نلقت الكتيبة على المحطة وقطع عليهم الطريق.

وهو قائد الفرقة يعرف ان الكتيبة نفذت بالنام والكحال الامر الضبابي وبذلك اليوم كما في وسعها، ولكنه مع ذلك يرجوهم ان يتعزوها ليقطعوا على الفاشيين طريق الانسحاب.

— هذا هو رجائي اليكم. اذكر رجائي اليكم. بهذه الالفاظ اعطيت كلمته المقضبة. ومع ان لهجة لم تختلف كثيرا عن لهجة الامراء ومع انه كان يوسم ان يقول: هذا هو امرى اليكم، فقد استخدم كلمة «رجائي». اذا لم تحرك هذه الكلمة ساكنة في جميع تلك الالفة فقد عزت افادة كثيرة، منها، رغم ان الكلمة تبقى كلمة ورغم لزوم ترك التزم «دافى» الذي اشتروه بطن الدم، والسير الى الامام من جديد عبر العاصفة الثلجية والاشباك هناك في قتال مع الالمان.

— ايها الفريق الجبروت، الكتيبة منتفذة المهمة التي ملخصوها! منتفذة المهمة وتضربكم قبل الفجر — قال ريابيشيكو وكأنه يريد ان يمضى بشطارته وصوته الزئان من الصمت والوجوم اللذين غيما على الكتيبة.

اصدر امره تحريك المقاتلين.

ظل سرييلين واقفا يتطلع الى المقاتلين وهم يسرون امامه، وانظيع على وجهه التعب، كوسهم، تعبهم عن الانسان للهؤلاء الرجال وتهمهم لمدى صعوبة ما يقوون به الآن. انه شخصيا مستعد للقيام بما يقوون به، ولكن ذلك لم يمنعه من تقدير تقائهم وتضحياتهم. فهل يستبعد الحق في اصداو الاسرار امكانية الشعور بامتنان لرجال لا يبقى امامهم، بحكم الواجب، غير تنفيذ تلك الامور دون قيد او شرط؟ ثم انك انت، عندما تنفذ مثلهم، دون قيد او شرط، اوارى اخرى صنية عليك، الا تظفر اعيان امتنانا بلوح، بل الاقل، في الاعين التي تتطلع اليك؟

عندما مر الزئان كله تقريبا امام سرييلين تذكر بانه رأى حالما اصفطفت الكتيبة مقاتلا قاروع القامة يبدأ في الطرف الايمن. المقاتل في الطرف الايمن يجب ان يكون طويل القامة حسب الاصول البريعة، ولذا جلب انتباه سرييلين ليس لكيكون طويلا، بل لانه ذكر شخص ما... وقد تذكر سرييلين ذلك الآن، ومثيرة الزئان تمر قربه، ولكنه نسي عالما توجيه اليه باغلوك بالسؤال: هل نكفي فضيلة واحدة تركت هنا للعراسة؟

— لعراسة من؟ — رفع سرييلين اليه بصره — لعراسى ام لعراسك؟

- وصلتكم أخيراً! - قال سرييلين متذكراً لأمر الاتصال - الوصول المتأخر أفضل من عدم الوصول نهائياً! مدوا خط الاتصال إلى هنا. فداء، حسب الموقف سيكون مركز القيادة هنا اختياراً من الظاهر على أبعد تقدير! وسألت: تمهون الاتصال أخيراً وتضيف باني ما ظلت قرب محطة فوسكرينيسكويه إلى أن نستولى عليها. أين وتضيف؟ هل هو في الطريق؟

- كلا، إنها الرافق الجنرال - أجاب آمر الاتصال مملحاً - الأركان في الطريق، ولكن المتيد ريتشيف اصطدم لهم.

- جرح؟ نقلوه؟ - سأل سرييلين على عجل.

- قتل في الحال، إنها الرافق الجنرال.

- يا للكارثة! - ضرب سرييلين متألماً على بطنه المتجمل.

لازمت سرييلين منذ لقائه الأول مع ريتشيف فكرة لم يستعمل ان يتخلص منها. فقد شغل إليه ان ريتشيف يبيته الحزبين ان يطول به العمد وأنه يقتل. قرأ ذلك في عينيه، خضع في هذا القال المنحوس، وقفل ريتشيف! ولم يطل به العمد بعد قائد فرقته إلا اسبوعاً واحداً...

تأسف لريتشيف واضطرب أهواؤه حذنه هو. ولكنه سأل عن أمر واحد فقط: من الذي حل محله؟ شيشكين؟

- نعم.

- انقل إليه كل ما قلت لك. أما أنت يا وياكوف - التفت سرييلين إلى آمر سرية القومندانة - فترسه مع سريك إلى فوسكرينيسكويه! هل يرد المقاتلون كثيراً؟

- ياتلطم، إنها الرافق الجنرال؟

تحدث المقاتلون الذين اتربوا منهم خلف ظهر آمر السرية. وهم استعاضوا سرييلين الذي تم يشاك في القتال لا أسى ولا أروم.

- تذلوا! دبح ساعة ثم توجهوا نحو فوسكرينيسكويه!

- إلى أين تذهب؟ - سأل آمر سرية القومندانة. فقد ظن أنهم وصلوا إلى المكان المطلوب، ولكنه يتبين عليهم ان يواصلوا السير من جديد إلى الامام.

- إلى أين؟ إلى هناك حيث الحرائق مشتعلة والقتال يدور!

- ياى طريق؟ - سأل آمر السرية بنفس الحيرة السابقة دون ان يتذلل انصاعه يمد.

- بدون أي طريق. انظر إلى الحريق هناك. فهو وجهتهم! أذهبوا إليه ولا تتأخروا. سائطركم هناك - قال سرييلين ونوجه إلى الرحافة نزع

على مقربة منها، وراء المنزل، طلقة بدقية، ثم طلقة أخرى... لقد أعيدوا الألامنين من مقررة الحريق.

«يتبين ان الكتب... ليس لزوية أوزوف فقط، بل لزوية ريتشيف أيضاً، ما اسرع ما تقع المصائب...» فكر سرييلين بعناية وعندما جلس في الرحافة تطلع من جديد إلى الامام، إلى الحريق وتذكر بأغلوك يقاتل شديداً - حيداً أو وصل إلى مؤخرتهم بسرعة. فلن نحمل فوسكرينيسكويه ما لم يصل إليها. حقا لم يتمكن قواتنا من استغلال محطة فوسكرينيسكويه. فكلما نفوس مشائنا للهجوم كان الألمان يسلطون عليهم نيران الهاونات والزاشات ويرغمونهم على الانطباع على الثلج، ويرمون البنازل، خلال ذلك، الواحد تلو الآخر.

عاد سرييلين في اللحظة التي اشغق فيها هجوم آخر فانطلق المقاتلون من جديد على الثلج أمام المحطة مباشرة. ولو كانت لديهم ولو عدة مدافع لربما أمكن بهذا العدد القليل من المقاتلين اقتحام المحطة وأخماد نقاط الزاشات بالنار. ولكن المدفعية لم تكن موجودة، فقد تكدأت في الطريق، في الزوية الثلجية، وليس هناك بعد ما يدل على قرب وصولها. لقد صير مغوش القرفة الذي ظل هنا في غياب سرييلين مع بأغلوك وقال بأنه سيذهب بنفسه ويحضر بطارية واحدة التي هنا حتى ولو تطلعت ذلك سببها من خناقة! فلم يمد يدهم رؤية الهجمات المتلاحقة لتتهم المقاتلين، بينما تلتهم النيران المحطة دون ان تمسأ بشيء.

لم يترشح سرييلين. لان وجوده البطارية ضرورى هنا ضرورة الحياة. حيداً لو تمكن المغوش حقا من اختيار المدافع!

امتطى المغوش ظهر التجود واعتنق في الزوية، في حين أمر سرييلين بوقف الهجمات. وليس معروفاً ما الذي سيحقق أولاً، وصول المدفعية أم التقات بأغلوك حول المحطة! ولكن ليس بالإسكان احتلالها بدون هذا أو ذاك. الصحيح يشتد بأطراد، إلا ان سرييلين لم يعبأ به. مركز قيادته المؤقت موجود الآن في الثغرة الحجرية على السكة الحديدية مباشرة على أقل من كيلومتر عن المحطة. ولكنه لم يدخل بل ظل طوال الوقت خارجاً محتجباً بينه من القاذبات التي يوجهها الألمان إلى تلك الجهة دون ان تصل إليها. سرييلين يشكر طوال الوقت ببأغلوك، وهو غاضب مغرور الاعصاب وعاجز عن عدم التطلع إلى مشهد الحرائق التي تلهم فوسكرينيسكويه. فبعد ساعة أخرى يتبين على بأغلوك، حتى في مثل هذا الطقس، ان يصل إلى الطريق

العام خلف الإلمان اذا لم يوفق لسبب ما. فما الذي يمكن ان يوقفه؟
 الثامن لو ثلاثة من الزعامة التي تحسن الطريق يمكن ان تفتح النار وتوقفه!
 بل ويمكن ان يؤخروه لامة طويل! وسيظهر ان صرف ساعة او ساعتين للالتفاف
 عليها وتدميرها! وحتى لو وصل ياغلو في الوقت المحدد سيدين على سربيلين
 الانتظار ساعة اخرى. وانظر الى هذا الحريق الهائل! كما يفضل المتحضر العاجز!
 تأخرت سربة القومانية لسبب ماء في حين اراد سربيلين ان
 يزج بها بالذات في الهجوم حالما يظهر ياغلو فجأة في مؤخرة الإلمان!
 منع سربيلين ريباكوف ربع ساعة للاستحمام. ويشير الوقت الآن الى ان
 البرية يجب ان تصل. نقد صير سربيلين فيد شخص للقاء السربة
 واستعمالها.

وصل من الجيش مكسيموف فوجد سربيلين هنا وراء جدار قمرة السكة
 الحديدية، بهذه الحالة النفسية الغريبة المتعبة. كان مكسيموف قد ترك السيارة على
 بعد خمسة كيلومترات من هنا ووصل ماشيا، وقد التصق به القلح حتى تمزق
 على سربيلين ان يعرفه في الحال. ولأحد شخص آخر من وراء مكسيموف.
 -كيف تعاروب يا سربيلين؟ -سأل مكسيموف مرعا وهو يمسح بجنبه
 وينفض الخلع من على قميصه -منى متدخل فوسكريسينكويد؟ أمر قائده الجيش
 باستعمالك وقال ان القادة القويمة المقررة تموت!
 -لنقوم بخطة! -قال سربيلين غامبيا.

كان مزاجهما على طرفي تقيض. فان مكسيموف الذي غادر قيادة الجيش
 قبل ثلاث ساعات يعرف ان مقاومة الإلمان أخذت تتحطم في كل مكان
 تقريبا منذ الليل، وان القوات المجاورة تقلدت في الامام بسرعة حتى تجاوزت
 سربيلين. ومع ان قائده الجيش قال له وهو يودعه قبيل الرحيل، ان التقارير
 لا تصل من سربيلين من زمان (مظلمت) اضحي انه تذكأ قرب فوسكريسينكويد!)
 فقد ظل مكسيموف التأثر بسلامة الحراسة الشائبة وأثقا من انه حالما يصل
 الى المنطقة سيبدأ محروقة.

وحسب عندما أثنى الان بانه متوهم وان فوسكريسينكويد لا تزال
 غير محروقة والمراقب لتلهمها، فقد خيل اليه ان النتيجة ستكون بسيطة جدا.
 فيد هجمة أخرى ستحرر المنطقة ولا يبقى غير الاشمار بان الفرقة الحادية
 والثلاثين التي بدأت هجومها بشكل جيد لا تزال متفوقة كالسابق.

اما سربيلين فعلى العكس. لم يكن يعرف ما يجري عند القوات
 المجاورة. وحتى لو عرف فان ذلك ما كان يسهل ان يخفف عليه. ان

يعرف شيئا آخر فهو لم ينفذ الامر حتى الآن لانه تورت في فوسكريسينكويد
 القلبية، وحاول تجاوزها من اليسار واليمين ولم يتمكن. وتورت من جديد
 خرج بالمشاة في هجمات اامية وفتة عددا كبيرا منهم وتأخر في اسرائيل
 الكتيبة للالتفاف العميق التي يستدعي الوقت. اما الآن فيعين عليه ان
 يتحمل برياملة جاش وينظر اذا وصل ياغلو وانما وصول المدافع، ولافتق
 بالعطش. وصوله ووصولها معا.

ومع ان سربيلين صرف النهار كله في دفع ياغلو وقادى القويين
 الآخرين الى الامام، فلم يجبه وصول مكسيموف الا ان لفته هو. ولم
 ينفذ ذلك فغضب على نفسه وعلى مكسيموف وسأله الاحق: «ماذا؟
 هل سيتم ذلك قريباً؟» وقال لمكسيموف:

-تعزيز المناطق المأهولة ليس مثل سلق آفيس، ايها الزئيق رئيس
 اللجنة السياسية للجيش - ثلاث دقائق والبيضة مسلوقة للشص. نعم دقائق
 والبيضة مسلوقة عن آخرها! ولو كنا لفلل النار لوجدنا لحبنا كل شيء.
 نافذات... ولكن الإلمان اللعائن يطلقون النار ايضاً!

اتقهرت قلبية المانية في الامام على بعد مائة متر عن القمرة وكانها
 تؤكد كلمات سربيلين.

-لماذا لا تهاجمون؟ ماذا تظنون؟ -سأل مكسيموف بحدة. لم
 يشعر بالاهانة من جواب سربيلين، ولكنه يصغر رغبة في ان يتم تحرير
 فوسكريسينكويد يسير الى هنا وهو مستعد للقيام بكل شيء حتى
 استهوانى العائنين الآن بالذات والتوجه معهم في الهجوم!

-اقوم بالالتفاف بكتيبة واحدة -قال سربيلين. الا ان اقارعا عموا
 والزوية ثائرة، وهم يتقدمون قدر ما لديهم من قوى. انتظر الى ان تصل
 قواتنا الى الطريق في مؤخرة الإلمان.

-اين ييريباكوف؟ -سأل مكسيموف عن مقوس الفرقة -هل هو في
 القويين الآخرين؟

-كلاء هنا، وكلنا هنا... حيدا لو دخلنا فوسكريسينكويد هذه اينة
 الكلب... انها عقدة العنة. وحالما ندخلها تسهل كل الامور على القويين
 الآخرين! المفروض ذبح لاحتصار المدفعية، فقد حالت الزوية دون وصولها.
 سأخرج امامها مايدا اذا احسرت في المدافع!

-يعنى انكما تعلمان ويثام، أليس كذلك؟ -سأل مكسيموف.
 -كل منا يبدل قناري جهده -اجاب سربيلين وأشار بيده غامبيا الى

المحلة التي يتصاعد منها الهميب: - السفلة فقط لا يسألون بؤام من مثل هذا الوضع، وأنا أياها لسنا من السفلة والحمد لله! إذا لم يعمل الرؤساء بؤام يهلك الجنود!

- مدرسة السكك تحترق! - صياح بصوت حزين فجأة الشخص الذي وصل مع مكسيموف وظل في البداية واقفا على مسافة أبعد، ولكنه تقدم الآن إلى الإمام وراح يتطلع إلى الحريق من تحت يده المتوسعة على جبهته. فناداه سرييلين قائلا:

- خذ حذرك ولا تبعد عن القمرة... قريباً تصيبك قذيفة لا مسح الله! في البداية ظن سرييلين أن مكسيموف اصطليح استه العملاني في الشبهة السياسية، ولكنه تذكر الآن أن هذا الرجل غير العاد هو سكرتير اللجنة الحزبية للناحية. فقد تلافا في الصباح عرضاً في المدينة التي حرروها ثوا. والسحلة واقفة في ناحيته أيضاً، فسأله السكرتير متى يتوقع تحرير فوسكرينيسكويه؟ كان ذلك في صباح اليوم. «هل حقاً أن ذلك كان في صباح اليوم؟»

- لم اعرفك في البداية - قال سرييلين - ستعرف غنيا كما يقال! - لا اعتقد... اجاب السكرتير: «مزن وهو يتطلع إلى الحريق» وفند صبره فخرج من بيده إلى المكان المكشوف لكي ينظر بشكل أفضل إلى عمود سيديد من الهميب الذي اندلع ثوا. - احرقوا مستودعين في محطة الشحن... الثاني والرابع! - صياح بأعلى من جديد.

- رجائي أن أعلمه متى - قال مكسيموف - شئ أنه تم... لم يكمل عبارته وسأل من سرييلين بصوت غاضب يقرب من الهميب: متى تتوقع تحرير المحطة؟

وتطلع سرييلين إلى ساعته. - انظر ياغولك! بعد نصف ساعة يجب أن يصل إلى الطريق العام... يجب أن يصل - كرر من جديد.

- التي اعرفه: فهو سيحقق كل ما يتمكن من تحقيقه! - قال مكسيموف. - من يدرى كم يستطيع المرء أن يحقق! - قال سرييلين - فلربما يحقق كل ما يتمكن من تحقيقه، وربما يستطيع شخص آخر بدله أن يحقق أكثر من ذلك ويمسره أسرع! أثناء مثلاً، خلقت كل ما استطاع اليوم. هكذا كنت اعتقد. ولو كان شخص آخر في مكالي لربما أنهى الآن من تحرير فوسكرينيسكويه هذه!

- لا بأس، يا سرييلين، ستحررها - قال مكسيموف - امود داتيفوف

كانت عصبية في الصباح! ولكنه منذ ثلاث ساعات افاد بأنه حرر يكاتيرينوكا. - صحيح! - قال سرييلين - عظيم!

- وتقدمت الفرقة الثالثة والبشرون بعد المائة والفرقة الثانية والصحون ايضاً... وذكر مكسيموف النطاق التي وصلتها الفرقتان. فقال سرييلين:

- شيء رائع... رائع جداً - كرر القول ولكنه عاجز عن أن ينسى ولو لثانية واحدة محطته التي لم يحرقها بعد.

- احرقوا المستودعات الاخرى - قال سكرتير اللجنة الحزبية دون أن يرفع يده عن جبهته - سيحرقون القمصة الآن، فالتار قريبة منها.

- لماذا تنسقت - قال سرييلين دون أن يمالك نفسه - لماذا تدفني...؟ - ألم احلم بأن أعيد اليكم محطتكم سالمة؟! - تخرجت في صوته أخيراً كل قوة الاسم الكامن في فؤاده.

- الحريق يتصاعد أمام أعيننا - قال السكرتير مثنها. - أمام انظارنا... - كرر سرييلين بمرارة - وأنا تبست أعشى!..

في تلك اللحظة ظهر وسط الزريبة النخيلية أمر سريية القوندانية ريباكوف. ولاحت وولده اشباح المقاتلين المائرين بشكل سلسلة.

- اسمع لي بالكلام، ايها الرجل الجندال... - كان عليك أن تتكلم قبل نصف ساعة! - قال له سرييلين بخشونة -

اريد ان ابدأ الهجوم، وانتم، اين انتم؟ - المقاتلون معبون جداً ايها الرجل الجندال.

- اعرف ذلك.

وقف ريباكوف امامه وهو يعلم بأنه مذنب وبانه اضل بالامر فسمح للمقاتلين بالاستعجال خمساً واربعين دقيقة بدلاً من ربع ساعة، وكان يصحح يافهم اذا ارتاحوا سيموضون عن هذا الوقت في الطريق. الا انهم كانوا متعبين إلى درجة فلم تساعدهم فرصة الاستعجال ولم يعوضوا عنها في الطريق. ريباكوف يعلم انه مذنب، ولكنه يعلم ايضاً بأنه ما كان يوسع ان يقلل غير ما فعل وكان يريد الانقضل وليس الاسوأ. وهو يعلم، فضلاً عن ذلك، انه مهما لاهد الآن قائد الفرقة، فانه هو ريباكوف، سيتوبه بعد عشرين أو ثلاثين دقيقة مع سريية للهجوم، لأن السلامة مهما كانت شديدة لن تغنيه من الهجوم. ولذا ما كان يوسع ريباكوف ان يشعر بالاذنب بنفس القدر الذي ربما كان يشعر به في ملاعبات أخرى. وقد أدرك سرييلين ذلك ايضاً، لذا أطلقاً جذوة الغضب في صدره وطلب من ريباكوف بظهره أنه جميع

رجاله بأسرع ما يمكن ويصعد هناك استعدادا للهجوم. وأشار بيده إلى سلاح متدوع لثاني من تحت الثلج في الامام على مفترقة من مركز قيادة الكتيبة.

فالقي ريباكوف على قائد الفرقة فطرة شجاعة ولابالية بعض الشيء، نظرة انسان من المتباعد ان يقدم حسب الاوامر اكثر مما يتولى تقديمه طوع اوداته وكما يملكه عليه الضمير، وقال: وطوع امرك! - وثوبته الى رجاله الذين ظهروا اكثر فاكتر من وراء الترابية.

- اسمع يا سرييلين! الا ينبغي ان نزعشها؟ - اوبأ مكسيموف الى السرية المشاة قريبة في الزوية - ونذهب معها ...

- انتظر يا مكسيموف، لا تستعجل ... استمعنا انا طوال النهار، اما الآن ... فلا استعجل، رغم انكما تفتان هنا وتضيقانني - ولبأ الى مكريتر اللجنة الحزبية - فقي ايدينا اتاني وليس سطيا ... ولا اريد ان اتى بهم الى النار عشا ... فلنصبر قليلا. الصبر صعب الآن، ومع ذلك فلنصبر. ياغلك يجب ان يصل الآن، انا اتوقع ذلك ... فهو ايضا يدرك قيمة الوقت بالنسبة لنا. اننا سرور امينك، ولكن لا تستعجلني، أرجوك.

فقال مكسيموف:

- ليس من الافضل ان نذهب قبل الهجوم الى الكتيبة في الامام؟ - وهنا، ماذا ترى؟ مؤثرة الجيش؟ السالة بيننا وبين الامام صعبة - متر ... هل تريد ان تقترب مائتي متر اخرى؟

- نعم.

- اذهب اذن ... اما انا تسابقني هنا. لدى هنا كيتشان، كانهما يدان اثنتان، ويجب ان اتحكم فيهما كليهما ...

كان مكسيموف يظن ان سرييلين اما ان يذهب معه واما ان يمتنه من الذهاب لوحده. راكن سرييلين لا يطيع ان يمتنه احد ولا يحب ان يمتن الاخرين. فاذا كان مكسيموف يريد الذهاب الى الكتيبة فليذهب اليها. ولو يستعجل سرييلين ان يشغل نفسه الى شغلين او اكثر تبقى هنا ولذهب الى كلتا كيتشيه في وقت واحد.

- اذهب - قال له سرييلين - ولكن لا تدفن نفسك هناك، في الامام - اخذات سرييلين ليس لان هذه العبارة تنطوي على معنى ما، بل لانه تذكر وتضيف مع انه قبل اليوم ليس في الامام، بل في الخلف، في مؤخرة.

- وهل ستبقى اذن هنا؟ - سأل مكسيموف من مكريتر اللجنة الحزبية. - سأذهب معك - اجاب المكريتر وعك وضعية اليديقه على كتفه. كان يحمل بندقية، ولكن سرييلين لم يلاحظها الا الآن.

- ياى اتجاه نذهب؟ باتجاه ذلك المتدوع؟ - سأل مكسيموف. - سيراقتكما دليل - قال سرييلين وصاح طالبا ان يبعثا جتديا.

ذهب مكسيموف. وبعد دقيقة وقف امام سرييلين مفوض الفرقة الالاه والليل بالمرق. ورأى يسبح من وجهه قطرات العرق وجبات الثلج في وقت مما وسأل بصوت ابع سقى ان سرييلين لم يسمعه سبيدا في البداية:

- كيف الحال عنكم هنا؟ - كما كان في السابق ... وصل ريباكوف ترا. وكيف الحال عنكم؟ - سألته سرييلين.

الا ان امارات السعادة المتعلبة على وجهه المفوض كشفت عن الحال القند. فقد سحب الدافع. وذا نظروا الى مظهره اذركنا بأنه سعيدا بالمعنى الحرفي للكلمة. يبدو انه شارك مع الآخرين في انشغالها من التادرج.

- مع الاسف انها لالة وليس اربة - قال المفوض - يجري الآن فحسها في المواقع هناك الى اليسار - وأشار بيده الى تلك الجهة - وبعد المدفعيون بان ينضموا النار بعد عشر دقائق ... اخذوا مدفع الى المتخفص ولم يستعملوا رفعه ... تعبوا ونعموا ...

- لا يايس، منزعها فيما بعد. شكرا على التدافع الثلاثة - قال سرييلين وجرز وجهه في وجه هذا الرجل الكهل البصب وقيله بانشتان.

ونجأ تهادي ما كان ينتظره سرييلين من بعيد، من وراء المعشلة، ومن وراء اقشوا الحريق المعينة فوقها، من السكان الذي ينبغي ان يصل اليه بانغلوك ورياشيتكنو. نهاتت اصوات القتال بعيدة ضعيفة، ولكنها اصوات مسموعة مع ذلك.

- ياغلك! - تلفظ سرييلين هذا الاسم زهده بعمق وكان ثقلا خائلا لا يطلق اربع عن كاهله.

رقه مالبين على كوة من الشمس المشيمد الذي بدأ يقوب على الارضية الترابية في كوخ خشن. والى جانبه رقه وجلس عدد من الجرحى الآخرين. يتصاعدة الدخان في الثفن من حطبة كبيرة محترق وتشتعل، ثم

يصادف ان اخذ احد منهم قاساً معه فاضطروا الي ادخاله طرف المحطة الكبيرة في القرن وراحوا يدفعونها الى الامام بين اللينة والقيحة .

وقد ماليتين واخذ يتسمع الي ما في داخله، الى الالام الحاد فكأنه في وسط الذي اختبئته وصامته، والى اصوات القنابل وراء جدران الكوخ . كان القتال يتأجج تارة ويخفت تارة اخرى مشغلا بالتوزيع نحو اليمين، الى مؤخرة الالمان . ويشير كل الدلائل الي اننا حرقنا المحطة وان الالمان يسحبون متعدين . الفضل في انسحاب الالمان يعود الي كثيهماء، هو ماليتين وريابيشنيكو لان الكتيبة وصلت الي الطريق العام قرب هذا الكوخ الخشبي المهجور الذي غطاه الثلج، وسدت الفرية الي المؤخرات الالمانية الممتدة من المحطة . بدأوا من ذلك، ثم قطعوا الطريق على الالمان .

الا ان ماليتين لم يشارك في ذلك . فقد جرح في بداية المعركة عندما هجوا على طابور الماني . دافع الالمان عن انفسهم فاختزلت رصاصة بين ماليتين . وقد كان دوماً يتشى هذا النوع من الجراح . فهو يتصور ان الجرح في البطن معناه الموت . وقد فكر بذلك منذ البداية فعندما هرع اليه كاراولوف وصاح : «فلانمفكك» قال ماليتين بصوت ابح محتاج : «لا داعي لذلك . ساموت!» وفيها بدء عندما ضربه نفس العذبة المجهز كوليكوفا الي وعته في وقت ما بان تحمله من المعركة، ضلته وسحبته على الثلج قال لها : «تهلي، سانهض» ووقع يده قليلا ثم نهض بالفعل، وفكر : «طالما نهضت فلما حي» صرخ انه خطا ثلاث خطوات فقط، ثم تلففته العذبة ومقاتل كان قريبا بالصفقة، ولكنه منذ ان سحق المجهز بخطواته الثلاث لم يجد متأكداً انه حي سيوت .

ما سافده على تحمله الالام ووقف الصراخ كونه لم يده والقا من دونه بالإضافة الي كونه مقبوسا لكتيبة ويكده جرحاها حوايه . وما سافده على عدم الصراخ ايضا انه لم يشعر، فو، اسنائه، بالبالاية اراد كل ما يجري حوايه، فلما يتحدث عادة تقوى انفوس الضعفت . ففقه ظلي يعبر على مناجاة ما يجري وراء الحائط، ويتسمع الي اصوات القتال ويوضح للجرى الآخرين حسب قصواته، ما يجري في الخارج .

وانتفع ان تقذيرات سريئين مائية . فصالما وصلت كتيبة ريابيشنيكو الي الطريق العام من مؤخرة القوات الالمانية، اخذ الالمان ينسحبون من المحطة على عجل . الا ان الكتيبة تحملت اكثر مما امرت بفعله . فقد امتطت الطريق العام واستمرت في صد هجمات الالمان المنسحبين حتى اضطروهم الي ترك

آياتهم والإستعداد نحو الحقل . ومنه ذاك ترك باغليك الذي تمسك الحريق جيدا وريابيشنيكو على الطريق مع نصف عدد القناشير، وتوجه الي اليمين عبر الحقل الثلجي ايضا، واستولى هناك على سى لا اسم له مكون من ثلاثة منازل واستحكم فيها واطلق النار من عدة رشاشات من هناك فارغم الالمان على تجاوزته مبتدئين الي اعماق الحقل في الطلوع . ولم تكن قواه تكفي لاكثر من ذلك .

قام القسبد وكوليكوفا بتضمية البحرى، فتجهوا هنا، في الكوخ الخشبي، كلهم، بمن فيهم القادرون على المشى، لان ريابيشنيكو كان يخشى ارسالهم الي المؤخرة الآن، في الليل . قائلادرون على المشى يمكن ان ينفوا في الزوية الثلجية، اما الذين يجب فعلهم، مثل ماليتين، فلا توجد واسطة لنقلهم . ولا يمكن توقع وصول تلك الزخافات الا في الصباح، والفرج قريب . ثم من يدو الي ابن اتجه الالمان في انسحابهم الآن؟ فالجرى اذا توجهوا عبر الحقل الي المؤخرة في الليل يمكن ان يصادفهم . الدم يتجدد في العروق من هذا الاحتمال .

غفتت المعركة على الطريق منذ نصف ساعة . ومن اليمين فقط، من المنازل التي شغلها باغليك، تنهادر اصوات الرشاشات من وقت لآخر، وفي الامام تسمع اصطافات فاددة وبما كانت توجه نحو المائتين منفردين او باتجاه الزوية الثلجية التي قد يخيل لشمر انه يرى اشياها فيها .

الكوخ الخشبي يارد رقم النار في فزته . فقد اقتلع الباب من عرويته، وحملت لارجح اوكراما من الثلج عبر فنتحه وهي تتلاعب بالشمع الذي سدت به . دنت المعرفة كوليكوفا دلوا في القرن لتلويب فيه الثلج، وراحت تحمل الماء بالقدر الي البحرى . اناء دافق عكر يوم فيه الشمس .

ماليتين غلطان، وكيفية لا يجوز ان يشرب . فعدا كوليكوفا وقال لها : - اسمي، اذا كان عندك وقت اذهبى وانظري هل نائب الشريف ميتسوف قريب، واذا كان يمكنه ترك موقفه . فليسر على طالما الوضع هادئ .

- سمنا - قالت كوليكوفا على مضيق - حجة لو قت، ألم يكفك الوقت للكلام في السابق؟ ستتكلم كثيرا في المستشفى عندما تشفى ... اما الآن فالأفضل ان نتمسك .

- كيلا تخرج الروح من الجسد مع الكلمات؟ اليس كذلك؟ الزوية تقوى في فتحة الباب . انضرفت الدواة تضيها ماليتين بنظرانه ثم اغلق عيبه وفكر بانه اذا استمرت الضائكر على هذا النزول، فلما كانت

— مستحبها عندما يبلغ الفجر.

ولأن ماليتين قال «مستحبها» وليس «مستحبها»، كما ينبغي أن يقول عادة في وقت غير هذا الوقت، فكر ربابيشنيكو بأى أن الزخافة التى يمت شحسها للحصول عليها مهما كانت الامر تستعمل عند الفجر. ويرتجل ماليتين عنه ومن الكتبة ولئن يرى احدهما الآخر بعد الآن، فحتى لو ظل ماليتين على قيد الحياة فمن المستبعد ان يراياه في هذا العمر وبعد هذا الجرح البتة، الى الجبهة مجددا، تاهل عن الكتبة في الغلط الامامى. «كيف يرسونه بمثل هذه الحال؟» — فكر ربابيشنيكو، ولكنه قال بحزن:

«كيف حالكم؟» قال ذلك لانه لم يجد الكلمات التى يعبر بها عن قلقه على ماليتين.

— لا بأس — اجاب ماليتين — لن تفلك هنا. فمن راقبون شغافا قرب القرون. اذهب لاداء واجباتك ولا تفكرها بسيا — وتفكر من جديد ما عليه من المعرفة فربما ربابيشنيكو ان يمت اليه سينصرف ان امكن. نأليه فقية...

جز ربابيشنيكو رأسه، فهو يعرف تلك الفقية.

رقا له ماليتين:

— اذهب، انك شاب، ولكنك تشبه شيخا يسير متوكئا على عصا — اجتم ماليتين، ولكن اجسامه تقيمت فجأة بسبب فوبه من الالم، حتى كادت الدموع تنهمر من عيني ربابيشنيكو.

— اذهب، اذهب... — كرر ماليتين وهو ينظر مباشرة وبصرامة الى عينيه الالامتين، وكأنه يضيف ليس بالكلمات، بل بقوة مشاعره: «اذهب وعش. حافظ على سياتك. ارجوك! انت لا تزال شابا، عدوك يتصف عبرى، ويجب ان تبقى حيا! واذا كان يتعين على احد ان يضى حيا فهو انت بالذات... عش، ارجوك، هل انت سامع يا أمر الكتبة، يا ربابيشنيكو؟»

واستدار ربابيشنيكو متوكئا على عصاه وانصرف على عجل لان مظهر الجرحى بالنسبة له دوما اتس من اى مشهد يصعب عليه ان يراه في الحرب. شرح ربابيشنيكو، ولكن ماليتين ظل يتطلع الى السمع المتطاير على باب الكوخ الذى تحمل الريح من فمته مزيدا من البلوج. والى سياتيه ينيث الين حزين ربيب من مقاتل جريح في يلقه، وهو يطلب ما ا طول الوقت مع انه شأنه شأن ماليتين لا يجوز له ان يشر.

عليه اليوم، فيجب الحصول على المداوات باسرع ما يمكن، والا فلن نطرد الالام. فكيف ذلك؟ وكه هو كبير عدد الالام ان يقول بهم العمر وان يروا... ربا اتس هذه الحياة اذا كان الناس يموتون كل يوم بكثرة لا تعد ولا تحصى! سى الحرب ذهبا بالحياة النجسة. وفى كذلك بالفعل، لان الحرب كانت سفا حواء تيسة، مع انه حكم على نفسه بهذه الحياة النجسة بمحض ارادته، وكان يعتقد بانه لا يستطيع ان يفعل غير ما فعل. فكر بانه الرأفة في المستشفى مبتور اليه الجنى، وسمع، دون ان

يبلغ عينيه شخصا يناديه بصوت خافت: «ماليتين، ماليتين...» وكأنه يريد ان يتأكد مما اذا كان نائما ام لا. سمع ذلك الصوت ففتح عينيه معتقدا بانه سينصرف، اما ان الذى وقف امامه ليس سينصرف بل أمر الكتبة ربابيشنيكو انلى تميرت حشته تماما. وجهه القنى مغلى بشعر كث اشقر، قيدا عجوزا بسبب الازهاق القديمة. وقف منحيا على ماليتين بهيكل النخالة الذى تبرز واتسع الى حد السواد في الفصح عندما سحب الجفون المشتملة مع العقائين. وكانت يده اليسرى التى جرست قبيل الهجوم ملفوفة بشاش اسود، اما يده اليمنى فقد استندت بها ماثلا على عصا من موخو محط. وكانت اصابع رجله اليمنى متجمدة فلا يستطيع السير الا على كعبه.

بهذه الهيئة وقف امام ماليتين أمر كتبه الامام الاول ربابيشنيكو ذلك الشاب الذى رأى كل المصائب في اعوامه الاثنتين والعشرين وانحسب مع القوات المسلحة حتى وصل الى موسكو وما هو اخيرا يتقدم منذ يومين في الهجوم بفسواحيها. وقد جرح ثلاث مرات ولم ينادر صفوف المحاربين في مرتين منها، وتجمدت اصابعه. وقف امام ماليتين أمر كتبه ربابيشنيكو الذى بدا وكأنه ابنه.

— لماذا جئت يا أمر الكتبة؟ — سأل ماليتين دون ان يفهم يانه صوته

غافت جدا بسبب الضور والالم، ودون ان يفهم بان ربابيشنيكو لهذا السبب بالذات، وليس غيره، اتحنى عليه ليسمع ما يقول — لماذا جئت؟ — كرر ماليتين السؤال.

— لأدى الجرحى.

— كيف يسير القتال؟

— بشكل طيب — تطلع ربابيشنيكو الى ماليتين والقى نظرة على سائر الجرحى، وانطبعت على ثغره ابتسامة فقية عبر الشجب والازهاق — لن اصبر حتى الصباح، فأنا شديد الرغبة في رؤية ما حققناه! ذهب الشبان الى الالام ويقولون ان السيارات الالمانية غاصت في التلج في كل ارجاء الحقول.

طلب ماليتين حضور سينتوف لاهم سينقولوه قريباً، وأن تبقي لديه فرصة اخرى ليشيره بالرسالة التي بعثها الى الشيعة السياسية. ولكنه الآن، وهو ينتظر وصول سينتوف، لم يمد يفكر في ذلك. كان يفكر بنفسه وهو بدون كتيبة، وبكيتية بدون.

تصور نفسه كشخص التي من القطار والقطار في اقصى سرعته. قليل اللحظة كان يتحرك مع الجميع، وما هو راقه على الارض يتصلع الى الكتيبة الهائلة السرعة امامه والتي كان فيها قيل قليل ولن يكون فيها بعد الآن! الحرب تفرق بين الناس في كل ساعة؛ الى الابد او مؤقتاً، بالبولت او التلويح او الجراح. ومع ذلك، وبهما رأى الدم من مشاهد القراق، قاله لا يفهمه على حقيقته الا عندما يداخه شخصياً.

لم يتعد اطلاقاً على ان يجري شيء في الكتيبة بدون. اما الآن فكل شيء يجري فيها بدون. وهو الآن لا يعمل من اجل الناس، بل يمتحن عليهم هم ان يشهدوا بأسرع ما يمكن في زحافة تنقله الى المؤخرة. اما الكتيبة فتواصل زحفها. وان يتمكن من اللحاق بيها، ولا من السير مع افرادها ولا من رؤيتهم الى مناداهم. ما الذي يوسع ان يفعل من اجلهم؟ لا شيء. وهو اذ يفكر على هذا النحو اثما يفكر بنفسه بلعياً. ذلك شيء طبيعي تماماً. ومع ذلك فهو على العموم او بالاساس، كما اعتاد على القول احياناً بلعته الكتيبة، يفكر بالآخرين وليس بنفسه. انه يفكر بهم الآن ايضاً، وهو يجرى. وفي حالته هذه نجد عادة الكثير من الناس غير السيشين اطلاقاً، بل والماليتين تماماً، يفكرون كلياً بانفسهم فقط، وكأنهم يعضون من تلك الايام والليالي التي لم يفكروا فيها بانفسهم الا قليلاً ابان الحرب او لعل مدى تفكيره بالآخرين، الآن ايضاً، اكثر من تفكيره بنفسه، هو الجانب الاهم والاخرى فيه، هو ماليتين، ذلك الكهل المسنن يجرى ثخين.

قبل ساعتين عرف سينتوف ان ماليتين جرح في بطنه وان جرحه ثخين، ولكنه لم يستطع ان يأتي اليه لانه كان مشغولاً بالقتال في البداية، ثم عندما هدأت المعركة، لم يستطع ترك موقعه بدون امر.

وعندما امره رايشتيكنو بالذهاب جاء الى هنا ورأى ماليتين بحالة سيئة جداً، فاكسى وجهه، رغباً عنه، يحزن عميق جعل ماليتين يدرك ان سينتوف يوجهه العيين يحكم عليه بالبولت. ادرك ماليتين ذلك ورفضه.

—لماذا تنظر الى هكذا؟ انت لست قساً، وأنا لم ادعك لتدفنني... غداً فكتسي معك، ولذا دعوك.

وضع سينتوف يده على الكتف الاشارة على الارض وجلس قربه. ومع ان ماليتين يشعر بضعف شديد، فان حسه الايج غذا اقوى عندما اقتنائه، وتمكن سينتوف من سماع كل ما قاله ماليتين. —انا متأكد اني لا استطيع ان اجعلك تحمل معلى، قال ماليتين وهو يتطلع الى عيني سينتوف.

—لم يجبه سينتوف. وما الذي يجيبه به؟ قيل هو بحاجة الى تشكر؟. —عندما يبدون اليك العضوية في الحزب لا تتلحق بهريرتك، قال ماليتين وقد ظل يتطلع الى عيني سينتوف.

—لا اريد الذهاب الى اية بريدة! قيل انا اسى من اجل ذلك؟— اراد سينتوف ان يصرخ، ولكن نظرتة الفت من جديد بنظرة ماليتين فادرك ان ماليتين لا يفكر بذلك اطلاقاً، سوى انه لا يريد لسينتوف ان يترك كتيبه الى اي مكان لا الآن ولا فيما بعد! فهو سيكون مطمئناً اذا علم بان سينتوف يلق هنا، في الكتيبة.

—اسمع... هل تعلم لماذا دعوك؟..— قال ماليتين بعد ان صمت لحظة وانتظر مرور فوية الالم. لم يتكلم في البداية، بل قيل النهاية، لانه يعتبر ذلك أهم شيء يريد ان يقوله لسينتوف، مع ان ذلك لم يكن هو الشيء الرئيسي بالنسبة لسينتوف نفسه فالتى، الرئيسي هو ما قاله له ماليتين قبل ذلك—كتبت اسم الاول...

وفي تلك اللحظة انطلقت على مقربة كبيرة من الكوخ نيران كثيفة من بنادق الباقية واطلق رشاشا ملباهة. فالتفت سينتوف يده يده ان يستشعر في الوقت الذي يودع ماليتين، بل ودون ان يفكر بتوقيده، وعبر الكوخ بسلام تغرأت وتظهر في فتحة الباب التي ازداد ورامها اطلاق النار.

ظل ماليتين يستمع منثوراً خافراً القوى الى اطلاق النار وراء العائل، في البداية كانت لعلمة الرصاص عالية كثيفة، ثم اخذت تنخفض بالتدريج حتى غفقت وابتعدت اكثر واكثر... كان يستمع الى هذه الاطلاقات ويفكر باقتراح ان الهجوم قد صد وان المعركة تشرف على الانتهاء، ولكنه لا يعرف بان الهجوم لم يصد وان المعركة لم تشرف على الانتهاء. فقد اقتنائه الغيبوبة ولم يمد يده يسع شيئاً...

عاد ماليتين الى رشده، وكان كل شيء حوله ابيض ناصعاً. تضاضت من السماء البيضاء حبات ثلج صغيرة متباعدة. ورأى يديف عينه من اليسار واليمين اللطوح البيضاء المائلة نبتت حتى الانق. كان واقفاً على ظهره في

الزحافة، والزحافة تنزلق متشابها يهلوه على التلج، ورقة جنبه، بضيض شديد، شخص آخر، وعند رأسه كان الساس يستحث المصائد بصوت رقيق بين العين والآخر، وعند قدمي ماليتين جلس في عرض الزحافة كاراولوف يساقه البكسورة، كما يبدو، فوق الركبة والمعدودة على خشبية والمعلقة مع الخشبة بالشاش، كان جالسا يدين مستعينا من الريح، وفي الخلف زحافات اغريان لا يرى سانس الزحافة إلا بعد، أما سانس الزحافة الاقرب فهو مقاتل لا يعرف جلس على مقدمة الزحافة ويعينه مضعدة يشاش ملطخ بالدم.

عاد ماليتين الى رثته ورأى ذلك كله، ولكنه ظل صامتا يضع دقائق وهو ينصت الى الالام البكويث التي يمكن عمله في دمه. وقد خيل اليه، بعد ألم الاسس، ان هذا يكاد لا يعتبر ألما.

ويبدو انني حي-فكر بذلك، وقيل ان يتأذى كاراولوف حرك يده يهلوه ليتلمس من يرقه قربه.

كان الى جانبه جثة مسجاة على جنبها وظلها الى ماليتين، فصالحا بدأ ماليتين يتلمسها ارتطمت يده بيدها الجادة التي نثأت احاسيها الباردة كفضون صميرة يابسة. وسأل ماليتين:

- من هذا الذي تراه الله؟

التفت كاراولوف قريبا عندما سمع صوت ماليتين.

- كنت طوال الوقت اتسنى ان تغيب انت على الاقل من قبورتك! - قال كاراولوف وحركه رجله يكتسا يديه متألبا.

- من هذا؟ - سأل ماليتين من جديد دون حراك وهو يمينه يمشيه الى الميث الرائد قربه.

- غريشايف - قال كاراولوف - عندما وضعوه في الزحافة كان حيا.

غريشايف هو الذي التفت الشاب العريخ في البطل والذي كان يئن في الكوخ الخشبي ويشكي لاهله لم يعلوه ما، وهو الآن واقف جثة هادئة يابزة ينفخ ظهره على كتف ماليتين. وتذكر ماليتين كيف رقد في نوفمبر، اثنا الانسحاب، ليقام قليلا في مستودع بارد لدرس العيوب. عندما رقد هناك شعر في البداية يبرد شديد فلم يده يعرف في المنام، بسبب ذلك، ما اذا كان نائما، فعلا ام لا. وبعد ذلك شعر بالدفء وغطا في الترم، وعندما استيقظ رأى جنينين - احدهما غريشايف هذا - متفتحين به من كلا الجانبين وقد نمتا متقليهما وفتشاه بطرفهما لكن يغفو قبيل المعركة:

حي جرحت ياكاراولوف؟

- في الصباح الباكر - قال كاراولوف مكتنبا - ذهبت لارى السيارات التي فكرها القاشيون في الحقل ليلا، وكان هناك احد السفلة مكتنبا فالتقي بقتيلة بدوية من قعدة سيارة.

- هل استولينا على سيارات كثيرة؟

- كثيرة، منتشرة في الحقل كله. لا ادرى كم عددها. بتأذى يهلوه عندما كنت هناك...

- ماذا؟ هل تركوكم في النسق الثاني؟

- كلا. نقلنا بالزحافات، ووصل باغلوك ليجسد الامر بالهجوم.

- يعني ان باغلوك حي، أليس كذلك؟

- بلى.

- ورياشينكو؟

- حي ايضا. ولكن اساميه تجددت جدا.

- كم عدد الجرحى الذين نقلوهم؟ على هذه الزحافات الثلاث فقط؟ - سأل ماليتين همسا وراح يقدر عدد الجرحى الذين كانوا في الكوخ، بالإضافة الى الذين جرحوا في القتال الذي نشب فيما بعد...

- ليست ثلاثا فقط - قال كاراولوف - ففي الامام زحافات اغريان.

وفي جميع الزحافات عشرون شخصا. اما المصابون بجروح طفيفة فقد توجهوا بانفسهم الى نقطة التفتحة في القرية التي وصلها قائد الفرقة.

عندما تذكر ماليتين الجرحى الآخرين تذكر من يجيد ألهمه فالتقى عليه وراح ينصت اليه.

- ألا تريد ان تدفن؟ - سأل كاراولوف - استطيع ان ألق لك سجارة.

- لا أريد - اجاب ماليتين - وهو يشعر بهلعم القى البقيض الثقيل الذي يداهم فمه - كم ساعة نتم في الطريق؟

- حوالي أربع ساعات - قال كاراولوف - صادفنا في الطريق قائد الجيش، صادفنا من زنا، في البداية. اقترب منا وسأل: من انتم؟ من لية رحلنا؟ ولكلنا كنت غي خبيثة. كان مرحبا وقال: الامور جيدة! اتسنى لكم الشفاء، متلفحي في فواحي مموليتسك!

- حسنا، لو ان الامر كذلك! - فكر ماليتين ثم سأل عن واسطة النقل التي يستعملها القائد في مثل هذا التلج.

- سيارة شحن. كان جالسا في القعدة، غاصت سيارته في التلج، وعندما كانوا يدفعونها جيا هو الينا.

لزم كاراولوف، الصمت، أما ماليتين فرفعن أن حديث كاراولوف عن لغائهم بالقاء قد أفسده، إلا أنه فكر بمن أن سمولينسك لا تزال ميمدة جدا. فالأقوال اقوال، والاتصال اسم. ثم أن المسافة بين سمولينسك مئات الكيلومترات وكلها أراضيها، وكلها محتلة، وفيها ملايين الدواجن. فهل من السهل استمالتها؟

ربما يلعب دورا مغيثا في مشاعره الآن، جرحه ويقدم ثقته بما إذا كان سيتجنب العودة إلى التجهة أم لا. ولكن الشيء الرئيسي هو فطرته الواقعية إلى الأشياء، تلك النظرة التي تكونت عنده خلال حياة الطويلة المصيرة؛ فكل ما يصادفه يتطلب جهدا كبيرا، فكيف بالحرب؟

— هل صحيح أننا ستحرر سمولينسك قريبا؟— تهادى صوت من وراء ظهر ماليتين.

خيل لماليتين منذ البداية أن الحصاد يسوء إما غلام وأما امرأة. وقد فهم الآن أنه لم يخطئ. فالصوت المشائ كان صوتا طفوليا قماما، صوتا رفيعا لم يكن يكتمل بعد.

— من أنت؟— سأله ماليتين— كم عمرك؟

— خمسة عشر عاما تقريبا.

— إنه من جي المنازل الثلاثة— قال كاراولوف مومضا— جاء مع حصانه.

— حسنا قل— قال ماليتين بانما— فحين جنود ويمكن أن لا نعيد له حصانه.

— ليس لهذا السبب— زعل المائس الذي لا يراه ماليتين— فانا استطيع أن ابقي عندكم في الوحدة العسكرية.

— اعتذر أدن.

— أيها الملازم، أعطني سجارة؟— قال الصبي بصوت شجاع ولكنه يتكاد يتألم من اللثة.

ألقى معه كاراولوف بسجدة مسخرة. ولكنه مع ذلك أخرج سجارة القف من فمه، فهي لم تنته بعد، وفتح طرفها يسارها إلى اليد الطويلة التي اعتدت فخذ رأس ماليتين حمرا من الضيق.

— انني أعرف هذا المكان— قال ماليتين والتي نظرة جانبية على الطريق. انتصبت على الطريق، دبابتان البانتيان بشكل لا بد وأن تحتفظ بالذاكرة. فان مدفع أحدهما موجه نحو برج التافية وهما الدبابتان اللتان قال عتهما عندما مروا بهما أمس، أن الألمان سيول البانتيان منهما. وذلك

يعني أن الزحفات قفلت في طريق العودة؛ زهاء عشرين كيلومترا، وأن الكتيبة قفلت إلى الأمام مسافة كبيرة منذ صباح أمس...

نكر ماليتين بذلك، فسأل من كاراولوف عن الشخص الذي عينه ريبينشيكو أمرا للفصيلة بدلا منه، وسمع الجواب التالي قوله: «ستينسوف؟» وتذكر بمن أنه لم يتمكن من اختيار ستينسوف بالرسالة التي بعثها إلى الشعبة السياسية. وعندما فكر بهذه الرسالة من جديد لم يكن يعرف أن اهتمام اللجنة الجزئية للفرقة بالمعامللة لا يبرر له. فهي ليست مدققة.

فان أحد المسؤولين في الشعبة السياسية للجيش طلب ملف ستينسوف الجزئي من اللجنة الجزئية للفرقة؛ لأنه قرأ ملف ستينسوف فتذكر إحدى الوثائق التي رآها بحكم عمله. وكانت تلك الوثيقة عبارة عن ورقة مسطحة من دفتر مكتوبة بخط كبير على طريقة الجنود. فان الجندي زولوتاريف الذي خرج من الحصار ووصل إلى قطاع هذا الجيش كتب إلى الشعبة السياسية عن ملاقاته مقتل المارشال السياسي أ. ب. ستينسوف وطلب أثمان عائلته والوفاء أن استكن.

ولم يكن هناك مجال للقيام بشيء فيها يخص هذه الرسالة، إلا أن المسؤول المذكور لم يرغب في تمزيقها، وهي موجودة الآن مع عريضة نائب العريف ستينسوف التي يطلب فيها إعادة العسوية له في ملف كتب عليه «يجال»، ولكن لا أحد يمكن أن يجال إليه. فقد بدأ الهجوم، وبدور الشعبة السياسية للجيش الشفوق مكسيوف. في الخط الأمامي للجهة منذ ثلاثة أيام.

— يعني أن ستينسوف حل بمكانك، أليس كذلك؟ حسنا!— قال ماليتين لكاراولوف بعد صمت قصير. قال ذلك وكأنه لا يزال في الكتيبة ويعين الحصار على مواقفه بهذا الخصوص— وأمر الكتيبة هل رفض مجددا مادادة الجهة للدراج؟

— رفضا بانما— قال كاراولوف باستحسان.

— طائرهم أم طائرنا؟— سأل ماليتين عندما سمع دوريا في الجو وأحس بأن الصبي وراه قد ارتش. فاجاب كاراولوف:

— طائرنا.

اجازت سماء الشتاء الباردة إلى البياض فوق رؤوس الجرحى، من الشرق إلى الغرب أربعة أرباب من طائرنا الواحد تلو الآخر، وفي كل منها نغم قاذفات قنابل. توقفت الزحافة، والتفتت بها الزحافات الأكثر، حتى كادتا ترتطمان فيما.

وراح الصبي السالم وكاراولوف وماليتين يشغلون إلى السماء يتعقن الجرد من الارتياح والامتنان.

ماذا؟ هل ذهبت؟ ألا تراها؟ - سأل مالبين ولم يعد يسمع الندى وهو عاجز عى النهوض على مرقبيه ليشع البطارات بنظرانه. - لا تزال اراها... لم اعد اراها. - ذهبت - قال كارارولوف وقد لاحظ النقط السوداء الصغيرة بنظرانه حتى اخفت في الافق.

سارت كتيبة ريباتشنيكو نحو الغرب على بعد عشرة كيلومترات من الكوخ الخشبي الذي اغشى على مالبين فيه، وثلاثين كيلومترا من المكان الذي تسير فيه الآن قافلة الزخافات المحملة بالجرسي متجهة الى المؤخرة. سارت الكتيبة في الثلج العميق فرحة لان الزوية الثلجية قد هدأت اخيرا. والان، بعد تحرير محطة فوكيريسينسكويه، اندفع الى الامام فوجا سريالين الآخرين الاقل قسورا في معركة الاس. ولذا سارت الكتيبة منذ الصباح دون ان تطلق النار، وهي تصادف احيانا السيارات الالمانية المتروكة بين الثلوج ويشت الجنود القتلى، والمتجدين. سارت الكتيبة بدون اطلاق النار لاند محدود طمعا، فمن اليمين واليسار يصل هدير المدافع مع هبات الريح، وفي الامام، عند الافق، اندلع الحريق من جديد في نصف الساعة الاخير.

سار سينتوف وكوباروف وبتديان آخرا، وهم البقية الباقية من فصيلتهم، الواحد تلو الآخر، خلف ريباتشنيكو الممتطي ظهر الحصان. كان يتعين عليه من زمان ان يذهب الى الكتيبة الصحية، ولكنه لم يستلم لهذه الضرورة، فصار وقد اطلق رحلته المتجددة. وبرزت عصاه التي اعتد له يوم اس من السرج وراءه تحوطا لما اذا كان سيضطر الى النزول. اسرع كوباروف فصار يمحاذاه سينتوف، وسأله:

- ماذا تعتقد، يا نائب الريف، هل تستصل الامدادات قريبا؟ - من اين لي ان اعرف؟ - هو سينتوف كتيبه، ولكنه فكر بان الامدادات ان تصل ما لم يتوقف وما لم يصطدموا بالالمان في مكان ما. فالامدادات ان تصلهم بالسيارات في مثل هذا الثلج العميق، ولن تلحق بهم سيرا على الاقدام طالما ظلوا يسيرون مثلما يسيرون اليوم دون توقف. كوباروف مكتبس لجسامة الخناير في فصيلتهم وهو ينشد الدعم الروسي من سينتوف آمر مغرته الذي غدا أمرا للفصيلة، اما سينتوف نفسه فيفكر بانه لولا كوباروف الذي انجده في الليل قرب الكوخ الخشبي وادى

الالمانى الذى هجم فى آخر لحظة لما ظل سينتوف على قيد الحياة الآن ولما تمكن الآن من التفكير بشئ، حتى بما اذا كانت منتشب اليوم معركة ام لا، وما اذا كان سيبنى سالما فى تلك المعركة ام لا. ولكنه لم يكن رافيا الآن فى ذكر ذلك كله بالكلمات، فاختفى بان اعرب عنه صامتا بالنظرات وتطلع فى عينى كوباروف شاكرا وممتنا. وسأله كوباروف:

- ماذا تعتقد؟ هل سلتحق بالالمان اليوم؟

وادرك سينتوف وهو يتطلع الى عينيه ان كوباروف يشتر الآن بنفس الشعور الذى يراود سينتوف فهو راغب فى اللحاق بالالمان من جديد، وهو بأست لتضييع فرصة الاستراحة التى صارت من نصيبهم بعد معركة الاس. - يبدو اننا سلتحق بهم. فحين ترى الدخان من جديد! - اجاب سينتوف فى محاولة لاعداد ذاك الشعور، واسرع فى مشيته.

الدخان يتصاعد فى قرية التهنهات النيران وسط الثلوج فى المكان الذى يسرعون اليه الآن. ويوجب أمر الكتيبة ريباتشنيكو السائر على ظهر جواده امام سينتوف هذا الدخان يذنه تارة، ويكشف عنه تارة اخرى عندما يتعثر الحصان ويميل الى جانب ما. - كوباروف، يا كوباروف!

- ماذا؟

- اعطى سجارة.

- ما الداعي للتدخين على الماشي؟

- لا ادري. شمرت برية مفاجئة... لم يوضح سينتوف لماذا شعر بتلك الرغبة. فقد استولت عليه لانه حار، وهو يتطلع الآن الى ذلك الدخان البعيد فى الامام، ان يرغم نفسه على التدود على فكرة عسيرة: فهما كان ما عانوه وتحصلوه كبيرا، فان حريا كاملة لا تزال تنتظرهم...

في غنادق ستالينغراد ، وليس من قبيل الصدفة ان الاربع مجموعات من المقالات التي كتبها اثناء الحرب تحمل عنوان : «ومن البحر الاسود الى بحر بارنتس» . كان سيمونوف حاضرا في جميع الجبهات . قطع قسطنطين سيمونوف مع الجيش السوفيتي كل طريق الانسحاب القامح حتى نهر الفولغا وعانى من كل ما عاناه المواطنون السوفيت في الحرب ، ثم قطع مع القوات السوفيتية طريق التحريض حتى حدود الاتحاد السوفيتي وسامح في تحرير رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا (حيث قاتل الى جانب الانصار) ويولتيا والمانيا ، وشهد آخر معارك برلين .

نقدت الحرب الوطنية العظمى الموضوع الرئيسي في نتائج سيمونوف من ملاحم وقصائد غنائية ومسرحيات وقصص وروايات ومقالات وصحفية واجتماعية . في عام ١٩٥٩ صدرت روايته «الاحياء والاموات» . ومن خلال مصير بطله الرئيسي الصحفي سينتوف والاشخاص الذين التقى بهم بحكم الضرورة الصارمة النابعة من الحرب تبدو لوحة النضال الشعبي الشامل ضد الغزو الفاشي ، لوحة المصيبة الكبرى والبطولة العظمى . وفي الرواية صورة رمزية يتقبلها الدوره باعتبارها الصورة الاساسية فيها ، وهي تدور عن مصيبة مماناة المواطنين خلال شهور الانسحاب التي لا يطاق : «ظهرت لدى الناس بالتدريج حالة نفسانية اخرى هي حالة التابض الشديد الى اقصى حد وباكير قدر ممكن من القوه والجهد ، ولكنه يحتفظ بقدرة على الامتداد والمقاومة مهما بلغ الضغط المسلط عليه . ان هذا الشعور بالذات ، هذه الحالة البدنية والروحية ، هذه القدرة الباطنية على المقاومة وتسييد الضربات ، هي التي استولت في تلك الايام على الناس الذين ازدهم الاحلام ببطله وروشيته من غط الى آخر وهم يفتخرون من موسكو اكثر فاكثرة . تلك هي الحوافز النفسانية لما جرى في معركة موسكو شتاء ١٩٤١ ، وما نمته العالم كله فيما بعد بالمعجزة .

وعلى اثر رواية «الاحياء والاموات» صدرت رواية «رحى الحرب» المكرسة لحماة ستالينغراد البواسل ورواية «الصيف الاخير» المكرسة لاحداث الحرب في صيف ١٩٤٤ ، لعملية «باغراتيون» التي اسفرت عن وصول قواتنا الى حدود الاتحاد السوفيتي في كل المواقع . وفيما بعد جمع سيمونوف هذه الروايات في ثلاثية بعنوان «الاحياء والاموات» . وحازت هذه الثلاثية على جائزة لينين . وما لا جدال فيه ان ثلاثية «الاحياء والاموات» هي الآن اكبر مؤلف عن الاحداث الفاجعة والبطولية في تاريخ وطننا .

قسطنطين سيمونوف

ولد قسطنطين سيمونوف (١٩١٥-١٩٧٩) في بترغراد (لبنينغراد حاليا) . واشتغل برادا في احد المصانع بعد انتهاء الدراسة الثانوية . في عام ١٩٣٨ تخرج من معهد غوركي للاداب في موسكو . ومنذ ذلك الحين تفرغ للادب . وفي عام ١٩٣٩ صدر كتابه الاول . كان الكاتب آنذاك موجودا في منطقة المعارك على نهر خالتشين - هول ، حيث اشغل المسمكون اليابانيون لهيب نزاع مسلح بغية الاستيلاء على جزء من اراضي منغوليا التي تربطها علاقات صداقة بالشعب السوفيتي . وقد توجه سيمونوف الى تلك المنطقة بوصفه مراسلا حربيا لجريدة عسكرية ، ولكنه ساهم مباشرة في المعارك الدموية الفاجعة .

في سنوات الحرب الوطنية العظمى التي عاشها الشعب السوفيتي ضد الفاشية الهتلرية (١٩٤١-١٩٤٥) كان سيمونوف مراسلا حربيا خاصا للجريدة العسكرية المركزية «النجم الاحمر» . وفي ايام الحرب حاز سيمونوف على اعتراف شعبي شامل حقا . ومن اولى الخطوات على هذا الطريق نشر قصيدة «انظري» (كانون الثاني - يناير ١٩٤٢) . اعيد طبع هذه القصيدة مئات المرات في جرائد الجبهات وفي المنشائير . وكان الجنود يستنسخونها من بعضهم البعض . وشر في جيوب المحاربين الجرحى والقتلى على وزينات مصبوغة بالدم وقد كتبت عليها ايات هذه القصيدة ...

لم تكن شهرة سيمونوف حبة من الاقدار ، وانما ارتبطت بمجمل نشاطه في سنوات الحرب . فقد كان سيمونوف في الوحدات العسكرية التي تمكنت في تموز ١٩٤١ من فك الحصار الدموي المضروب حولها في ييلوروسيا . وخطط سيمونوف مع جنود الانزال على القرم ، وساهم في معارك السلاح الابيض هناك . وتسلل مع الاستغلاليين الى مؤخرة العدو وراء الدائرة القطبية . وتواجد

كان سيونوف يتحلى بقدرة مذهلة على العمل. فلم يمر عام الا وتسلم فيه اقراء مؤلفات جديدة من نتاجه. فقد اصدر سلسلة قصصية بعنوان «من مذكرات لوبانوف»، وهي ذات صلة مباشرة بالثلاثية. واصدر مجلدين من اليوميات بعنوان «ايام شتى». من مفكرة الكاتب الحرة. وعمل سيونوف الكثير من اجل السينما والاذاعة والتلفزيون. كان قسطنطين سيونوف شخصية اجتماعية بارزة، وقد ساهم في البعثات الدولية ومؤتمرات انصار السلام والكاتب ورجلا الثقافة والفكر. وهذا يدل مثالا على الكاتب الجديد الطراز الذي يعتبر قضايا بلاده وادابها قضايا صميمه له.

الناشر:

الحق القراء

ان دار «رادوغاه» تكون شاكوة لكم اذا ثق

لها. عن رغباتكم.

المنوان: زوہوفسکی بولغار،
موسکو۔ الاتحاد السوفیستی

